

دكتور محمد حسين أبو موسى

المدرس بكلية اللغة العربية
جامعة الأزهر



البلاغة القرآنية في تفسير المفسر
وأثرها في الدراسات البلاغية



٣٣١٤٣

مركز الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دكتور محمد حسين أبو موسى

البلاغة القرآنية في تفسير المفسر

دار الفكر العربي

دكتور محمد حسين البوموسى

رفع أخيك

البلاغة القرآنية في تفسير المفسر وأثرها في الدراسات البلاغية



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

www.alkottob.com

www.alkottob.com

دار الحماس للطباعة
ش. الجيش ٢ كنيسة الأرمن - ت ٤٠١١٠٤

الإهداء

إلى أطبياف النور

هذا جهد متواضع - في ميدان البحث العلمي - لم أتريث في إهدائه إلى
ثلاثة رجال خالطوا قلبي ، وكان لهم من النفس موقع جليل .

إلى روح الإمام الجليل أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني ،
ذلك الذي شرع لبحث البلاغة منهجاً قيماً ، يعرف فضله كل باحث يحترم
العقل والحق .

وإلى روح الإمام الثابت أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، الذي منح
العروبة ولسانها عقله وقلبه ووجدانه ، فأودع تراثها ذخراً من الدراسة اللغوية
والأدبية لا يزيد به من الزمن إلا قوة وأصالة ومكانة .

وإلى روح والدي - رحمه الله - الذي كانت آخر أنفاسه في هذه الدنيا
همهمات ضارعات إلى الله أن يوفق ولده في طلب الخير ، وأن يجعله من حملة
هذا العلم الذي يحمله كل خلف عدوله .

أهديه إلى هذه الأطبياف التي طالما أبصرتها حائمة في آفاقى ترسل النور
وتبعث الأمل .

محمد أبو موسى

www.alkottob.com

سيرة الشيخ محمد بن عبد الله

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي
الأمي وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

فمن الواضح أن بلاغة الكشف كانت نهاية مرحلة متميزة في الدراسة
البلاغية . إذ هي الامتداد الحق للدراسة عبد القاهر الجرجاني ، هذه الدراسة التي
يشعرنا فيها صاحبها أنه يذوق القول لإنشاء ، أو يبسط فكراً غائمة في دراسة
من سبقه ، وهو يحاول أن يمكن ما يقول في نفوس معاصريه ، وأن ينقشه في
صدورهم ، ويثبته في سويداء قلوبهم ، ولكنهم في كثير من الأحيان تسدر
عيونهم ، وتضل عنهم أفهامهم ، ولا يتفكرون من اعتراض خواطر تعود بهم
إلى رأس أمرهم فينكرون ما يقول .

وهذا يعني أن هذا الاتجاه كان في حاجة إلى كثير من الحوارين ينهضون
لشهيته وتمكينه وإتمامه حتى يكتمل بناء متناسقاً يهد سابقه للآحقه . ولكن
القدر لم يبيء لهذا العالم السني إلا فتي من فتيان المعتزلة ، أبنته أرضه فمضم تراثه ،
وإرضى منهجه ، ولسج على منواله ، وأضاف لبنات في هذا البناء لا تختلف
في لسقها ونوعها عما بدأه الأستاذ . ولو قدر لهذا الاتجاه أن تتواصل حلقاته
لكان بين أيدينا منه الخير الكثير .

وإذا كان الزمخشري قد طبق كثيراً بما قرره عبد القاهر الجرجاني فقه أضاف
أصولاً بلاغية هامة لم يعرض لها عبد القاهر ونمى كثيراً من الأصول السابقة ،
وحرر كثيراً من المسائل .

وهلينا أن نذكر أن التطبيقات في الدرس البلاغي ليست أمراً هيناً ، لأنها
هي حياته ونماؤه ، وتركز فيها قدرة البليغ ومهارته ، فقواعد البلاغة وأصولها
يمكن أن تجمع في صفحات والمهم هو التطبيق والنظر المثبت في النص المدرس

وتحليل تركيبه ، وإبراز محاسن صياغته ، ودلالات خصوصياته ، والذي يعين على ذلك الحس المرهف ، والذوق المتمرس البصير ، وهذا التحليل المبني على الذوق أو هذا المنهج العلمي الذوقي هو أصح المناهج وأقومها في دراسة البلاغة ، فإذا تخلف الذوق كانت أصولا علمية شاحبة كما هي في كتاب المفتاح ، وإذا تخلفت القدرة على التحليل والتفسير كانت ضرباً من التحككات الشخصية ، تدفع بها إلى متاهات غير منضبطة ، وليس التطبيق في مسائل البلاغة كالتطبيق في مسائل النحو والعروض ، وذلك لأنه يسهل على النحوي أن يطبق فكراً وأصولاً نحوية على نص يدرسه ، ويصعب على البلاغي أن يطبق أصولاً بلاغية على نص يدرسه ، وتحديد المراد من الخصائص البلاغية لا يتأتى إلا بالحس الأدبي ، ولهذا كان تذوق النص الأدبي جزءاً من منهج الدراسة البلاغية ، ولهذا أشار عبد القاهر والزمخشري حين ذكرا الطبع المتبهي ، والفرجة الوفاة .

ولذلك انحفظ في استعمال كلمة التطبيق في الدراسة البلاغية ، لأنها تستحق من الأهمية أكثر مما تستحق إذا استعملت في الدراسة النحوية . لأنها تعنى هنا التفسير والتحليل والشرح . وهذا شيء له خطورته في الدرس الأدبي .

ولهذا أقول أن تطبيقات الزمخشري في كشفه لبعض الأصول البلاغية المقررة في زمانه يمكن أن تعتبر من إضافاته ما دام يضيف عليها من حسه وذوقه . وشيء آخر في هذه التطبيقات يعطيها أهمية وأصالة ، ذلك أن هذه الأصول البلاغية التي قررها عبد القاهر كانت كأنها منكرة أو قلقة بين معاصريه ، ولذلك كان يشكو كثيراً من جهل الناس بما يقول ، وعجزهم عن استيعابه وتمثله ، فأتاحت تطبيقات الزمخشري لها قوة ومكانة ، وثبتتها في البيئة العلمية ، وأظهرت قدرتها على تحديد المزايا البلاغية لأسلوب القرآن في صورة دقيقة وشاملة ، وارتضتها فرقة المعتزلة التي تساوى شيعته عبد القاهر وتساولها ، فكان ذلك تأصيلاً لهذه الأصول أي تأصيل .

وبعد كتاب الكشف انقطع في درس البلاغة هذا الاتجاه تماماً ، ولا يصلح المثل السائر أن يكون إمتداداً له ، ولا يصلح ، الطرائق كذلك أن يكون

امتداداً له . وسوف يظهر لنا أن ما أفاده ابن الأثير من الكشف وما أفاده العلوي كذلك من الكشف هو خير ما فى هذين الكتابين .

ثم شغلت الدراسة البلاغية بهذا المنهج الملقب الذى حدده أبو يعقوب فى كتاب المفتاح ، واستمد أصوله الأساسية الهامة فى منهجه من كتاب نهاية الإيجاز . وقد أشرت فى بحث كتيته فى بلاغة المفتاح إلى تلك الأواصر القوية بين الكتابين ، ووضعت اليد على ما أفاده أبو يعقوب من الرازى ، وبينت ، أن ذلك كان فى أصول العلم . كتحديد علم البيان الذى أفاده أبو يعقوب بما كتبه الرازى فى الدلالة المعنوية ، وكمبحث الدلالة الذى قدم بها لدراسة علم البيان ، وكالاصطلاحات التى تتداول فى البلاغة إلى اليوم ، كاصطلاح الاستعارة التصريحية والممكنية والتبعية والأصلية ، والتخييلية ، وكالقول بوجود فاعل حقيقى فى الإسناد المجازى . كل هذا وغيره كثير ذكره ابن الخطيب الرازى وحسبه الناس لأبى يعقوب .

وقد استمد السكاكى مادته العملية من كلام عبد القاهر والرخشى ، ولكنه عجز عن المحافظة على الروح الأدبية ، لأنه حاول أن يلخص ، والمشتغلون بالبلاغة يفهمون أن تلخيص التحليلات البلاغية يفسدها . وكذلك فعل أبو يعقوب حين استخلص مادته العملية مما ذكره الشيخان .

ومن الغريب أن تتحدد بلاغتنا ونتمى عند هذه الصورة فى هذا المنهج الذى لم يضع أصوله فقهاء هذا الفن ، لأننا نعرف أن ابن الخطيب وإن كان من أعظم رجال الفكر الإسلامى فليس من أعظم رجال البلاغة ، ونحن نعرف أن السكاكى عاش عيشة العوام حتى ناهز الثلاثين ، ثم انصرف إلى العلم طلباً للمحظوة وبيل ما عند السلاطين . وله حكاية مشهورة فى هذا ، ودراستنا لشغافته تفيدنا أنه لم يتوفر على درس اللغة والأدب ، ولم تتح له ظروف حياته الإدمان ، والممارسة ، والمعاشة ، حتى يتهيأ له اكتساب ذوق هذه اللغة ، وإن أتاحت له أن يحفظ قدراً من قواعدهما ، لأننا نعتقد أن اكتساب الذوق يأتى متأخراً بالنسبة للاحاطة بالأصول والقواعد ، فهو محتاج إلى جهد أكثر ، ومثابرة أطول . وبجانب هذا كان

السكاكي يحفظ أخلاطا من المعارف العامة والشاذة ، فقد كان أعلم الناس بالاصحاح في زمانه ، وكان يستنزل السكواكب من أفلاكها كما يقول المؤرخون .

ولا شك أن من أهم ما أغرى الدارسين بكتاب السكاكي هو سهولته ، لأن المسائل البلاغية التي لا تعتمد إلا على العقل يسهل تحصيلها والإحاطة بها ، وصعوبة هذا الكتاب تتركز في عبارته وأسلوبه المعقد الغامض ، أما مادته العلمية فأسمائها ولذلك حفظها الصبيان لما شذبه الخطيب في كتاب التلخيص ، وإن كانت لا تغني قليلا في إدراك العلم وفقه أسرارها .

وكان غيبنا للبلاغة والبلاغيين أن يستمر الدرس البلاغي على هذا المنهج حتى هذا الوقت الذي نعيش فيه . وقد اعتمده الأستاذ المرحوم أمين الخولي حين قارن بين دراستنا لبلاغتنا ودراسة أمم الغرب لبلاغتهم في المنهج والموضوع ، ورأى لبلاغتنا وجهاً شاحباً مهروفاً ، وهو على حق ما دام ينظر إليها من هذا الوجه .

ولما كان درس البلاغة العربية لم يستقم على منهج صحيح وطريقة أقرب إلى السكالك ، إلا في دراسة الشيخين ، وكانت بلاغة الزمخشري كأنها قائمة في تفسيره لا تظهر ملامحها محددة واضحة في كل مسألة من المسائل البلاغية عمدت في هذا البحث إلى بيانها وتوضيحها ، حتى يرى الدارسون كل ما قاله الزمخشري في كل مسألة من المسائل البلاغية ، وفي ضوء هذا يتحدد ما أضافه من أصول في هذه الدراسة ، وما أفاده من غيره ثم ما أفاده غيره منه .

وكان يلزم لهذا أن أتبع الفكر البلاغية في كتاب السكشاف ، فقرأت تفسيره مرات واستخرجت منه كل ما يتصل بمسائل البلاغة وجمعت النظم مع نظيره .

ولحظت أنه يذكر النظم ، وعلم محاسن النظم ، ونجاوب النظم ، كما يذكر علم المعاني وهما المعاني ، وكذلك يذكر علم البيان ، فجمعت كل ما يتصل بهذا وعقدت له فصلاً خاصاً ببحث النظم وتحديد مفهومه كما يتصوره الزمخشري ، ثم لحظت أنه يقف عند مفردات النص ، ويشير إلى تمكن الكلمة في سياقها ،

وملاءمتها. اصاحبتها من حيث مادتها وهيئتها جمعا أو أفرادا ، وصيغتها فصلا أو اسما ، كما ينظر في معاني أدوات الربط كالفاء وثم وإن وإذا ، وحروف الجر ويفسر مواقعها تفسيرا أدبيا ممتازا ، فعقدت لذلك فصلا ، درست فيه ما يتصل بالكلمة وبينت ما أفاده من غيره ، وما أضافه من حسه وذوقه ، ثم رأيت يقف عند أحوال صياغة الجملة ويفسر خصائصها تفسيرا بلاغيا ، ويدرس التقديم ، وصور الأمر والنهي ، والتثنية ، والاستفهام ، وغير ذلك مما يتصل بالجملة ، فعقدت لذلك فصلا درست فيه كل ما يتصل بصياغة الجملة ، ثم لحظته يدرس العبارة والفقرة ، فينظر في الفواصل القرآنية وملاءمتها لمضامين الآيات ، كما يدرس الفصل والوصل ، والإلتفات ، وأسلوب التكرير ، والاختصار ، وترتيب الجمل وبناء ثان منها على أول ، فعقدت لكل ذلك فصلا يشمل دراسة الجمل من جميع هذه الوجوه ، ثم رأيت يقف عند صور البيان مفسرا ، ودارسا ومعددا ، فيذكر التشبيه التمثيلي ، والمجاز ، والاستعارة ، والسكناية ، والتعريض ، فعقدت لذلك فصلا ، درست فيه كل ما يتصل باصور البيانية . ثم لحظته يذكر ألوانا من البديع ويشير إلى قيمتها البلاغية وإلى أنها من صميم البلاغة القرآنية ، ثم يذكر فنا كالجناس ويشير إلى أن بلاغته كغير الملتفت إليها ، فعقدت لذلك فصلا درست فيه مذهبه في البديع ، وصلته بالاعجاز البلاغي ، وبينت فيه ما ذكره من ألوانه .

ثم رأيت أثره في الدراسات البلاغية واضحا في كل ما كتب في البلاغة بعد الكشف ، ورأيت أن أهم ما شغل الدراسة البلاغية بعد الزمخشري هو كتاب المفتاح . ومادار حوله من دراسات ، وكتاب المشل السائر ، وكتاب الطراز ، فرأيت أن أحدد أثره في هذه الكتب الثلاثة ، فعقدت لكل كتاب منها فصلا ، ورأيت أن هناك كتبا كثيرة دارت حول المفتاح تلخيصا ، وتوضيحا ، وشرحا وتقريراً ، فاخترت منها كتاب الايضاح وكتاب المطول . وهما في نظري خير الكتب التي دارت في فلك المفتاح .

وكانت دراسة البلاغة في الكشف تقتضى النظر المجمل إلى البحث البلاغي قبل الكشف ، وخاصة الأصول البلاغية التي كان بحث الكشف امتدادا لها ، فكشيت في هذا فصلا كالمقدمة لهذه الدراسة ، حددت فيه تحديدا سريعا وواعيا المدى الذي وصل إليه الدرس في كل فن منها .

ثم رأيت أن أمهد لهذا البحث بدراسة موجزة عن صاحب الكشف ،
أذكر فيها طرفاً من أخباره ، وأشير إلى ألوان ثقافته الغالبة التي تطبع ذوقه ،
وتغلب على حسه ، لأن الدراسة البلاغية من أشد العلوم تأثراً بثقافة الدارس ،
وحاولت أن تكون هذه الدراسة موجزة كما حاولت أن يكون الفصل الخاص
بالبلاغة قبل الكشف موجزاً أيضاً ، لأنني لم أريد أن أزعج هذا البحث بغير
الدراسة للبلاغة ، ثم ختمت هذا البحث بخاتمة عرضت فيها أصول الأفكار
والقضايا الهامة التي يصح أن تكون نتائج البحث .

ثم رأيت أن أجعل الدراسة الخاصة بالبحث البلاغي في الكشف باباً خاصاً ،
كما جعلت الدراسة الخاصة ببيان أثره في البحث البلاغي باباً آخر ، وجعلت الفصل
الخاص بالبحث البلاغي قبل الكشف كجزء من الباب الأول فاعتبرته في فصوله ،
فصار البحث في بابين قبلهما تمهيد يحتوي الباب الأول على فصول سبعة ، والباب
الثاني على فصول ثلاثة .

وقد طرق موضوع البلاغة في الكشف بعض الدارسين من المعاصرين ،
وكان أولهم الأستاذ الفاضل مصطفى الجويني ، فقد كتب بحثاً قيماً في منهج الزمخشري
في تفسير القرآن وبيان إيجازه ، ووضح أن البحث البلاغي يدخل ضمن منهجه
في بيان إيجازه ، فهو جزء أصيل في بحثه وقد أفدت منه كثيراً ، وقد كتب
الأستاذ الدكتور الحوفي كتاباً عن الزمخشري درس فيه تراثه اللغوي والأدبي ،
وطرفاً من أخباره ، وعقد للبلاغة في هذا الكتاب فصلاً ، وكان يعتمد كثيراً
على ما كتبه الأستاذ الجويني . ثم كتب الأستاذ الدكتور شوقي ضيف فصلاً
مضافاً في بلاغة الزمخشري في كتاب كتبه في تطور البلاغة العربية ، عنى فيه
ببيان ما أفاده من الجرجاني ، وما أضافه للدراسة البلاغة ، وقد أفدت من
كثيراً .

ولكني أعتقد أن ما كتبه في بلاغة الكشف لم أسبق إليه ، وذلك لأنه
لم يدرسها أحد قبل دراسة مستوعبة شاملة ، يتحدد فيها رأي الزمخشري في كل
مسألة من مسائل العلم تحديداً يقوم على الاستقراء الكامل ، والمتبع اليقظ ،

الذي لم يترك شيئاً يتصل بالبحث البلاغي في الكشاف إلا أشار إليه ، ووجهه في مكانه .

ولم يتيسر لباحث أن يقف على كل ما قاله الزمخشري في كل مسألة من مسائل البلاغة ووقفاً تظمن إليه نفسه إلا في هذا البحث .

ولم يقف جهدي عند الجمع والتصنيف ، وإنما ناقشت ، ودرست ، وقيلت ، ورفضت ، وكان هذا البحث خلاصة جهد دائم دائم طوال خمس سنوات لم يكن فيها شاغل من شواغل الدنيا سواه . فأنصرفت إليه انصرافاً كاملاً .

وكانت محاولة تصوير هذه الدراسة البلاغة المتناثرة في صورة كاملة ملتزمة من أصعب ما واجهني في هذا البحث ، فسكنت أذف طويلاً عند الفكرة لتأخير لها مكاناً ، ولأصل بينها وبين صاحبها . كما كنت أتردد كثيراً في الاكتفاء ببعض نصوصه في بيان الفكرة الواحدة ، لأن تحليل الصور البلاغية يختلف من صورة إلى صورة وإن اتحدت خصائص الصياغة ، وذلك تبعاً لاختلاف سياق الجمل ، وقرائن الأحوال ، وهذا شيء يعرفه المتمرسون في هذا الفن .

وهذه الدراسة ليست من البحوث التي نجهد أنفسنا فيها لنضعها في مكانها من تاريخ العلوم وإنما لنضعها في مكانها من دراستنا الأدبية المعاصرة فهي منهج دقيق في دراسة النصوص الأدبية وتحليلها والبحث عن مكان القوة والتأثير فيها ولا أجد بحثاً يقاربه في تاريخ البلاغة والنقد العربي ، وهذه حقيقة أدرك أبعادها وأظمن إلى شمولها وصدقها ، فبلاغة عبد القاهر التي راقت كثيراً من الباحثين المحدثين أضعها بعد دراسة الزمخشري ، وذلك لأن التحليل والتفسير الذي هو صميم البحث وخلاصته في دراسة الزمخشري أشمل وأدق وأقرب إلى الموضوعية والتعميل من دراسة عبد القاهر .

وجهد الزمخشري البلاغي كما قلت تائه في تفسيره ، لذلك لم يلتفت إليه كثير من الباحثين المهتمين بالبحث عن أصول قضايا النقد المعاصر في التراث العربي ، ولذلك أزعجهم أن إخراج هذا البحث قد يشير ببعض البحوث والدراسات حول هذا الجهد الشايع ، وألفت هنا إلى بعض الأصول التي لم تسكن واضحة في دراستنا البلاغية

والنقدية وإن كانت كل صفحة كتبها الزمخشري في بلاغة القرآن تصالح أن تكون صفحة مشرقة في دراستنا اليوم وغدا فكل دراسته لهذا الجانب البلاغي تتميز بالخصوبة والحيوية والقدرة على العطاء ، وليس من حقنا أن نطالب القوم بكل ما تحتاجه حياتنا الأدبية ، ففي ذلك إلغاء لوجودنا ، ويكفي أن نجد عندهم قياسات تنير لنا الطريق فنمضي على هديهم ، ولو استطاع باحث معاصر أن يبدأ من حيث انتهى الزمخشري وأن يضيف قدر ما أضاف كما فعل الزمخشري نفسه مع أستاذه عبد القاهر لسكان رائداً من روادنا ، فالزمخشري قبل أن يتصدى إلى الدرس الأدبي في القرآن أهد نفسه لهذا الجهد العظيم بدراسة واسعة واسعة هضم فيها الثقافة الفارسية واستوعبها ، ودرس الثقافة اليونانية دراسة تمثل ، وكان مؤسسو هذا التراث أنشط منا في متابعة الفكر الإنساني في كل مظانه ، وأقدر على فقه الثقافات الأجنبية وتمثلها ، وأصبر على البحث والدرس ، وكانوا يفرزون هذه العصارات المختلفة عربية الشكل والجوهر حتى يخيل إليك أنهم لم يقرأوا غير التراث العربي وهذه وظيفة الرواد القوامين على ثقافات الأمم وحضارتها والحراس المحافظين على ملامحها وأصالتها .

ومن هذه الأصول التي أذكرها على سبيل المثال لا الحصر :

١ - دراسة المعاني والقول في صحتها وتناقضها وأنواعها وأجناسها وتأخيرها وتناسبها ومحاولة الكشف عن الأسس التي سار عليها لسق الجمل والآيات وكيف تترابط وتموحد حتى كأن بعضها يأخذ بحجر بعض ، وهذا بحث هام في قضايا النقد ، ولكنه ظل بعيداً عن الدرس الأدبي يمثل علم المناسبة في علوم القرآن ، وقد قال المختصون إنه أي علم المناسبة - علم شريف لم يحاوله إلا قلة من العلماء لدقته وصعوبة مسلكه . والذين حاولوه كانوا جميعاً من الأدباء المشهود لهم بصفاء النفس وسلامة الحس ، وقد قال أبو بكر النيسابوري إن اعجاز القرآن البلاغي لم يرجع إلا إلى هذه المناسبات الخفية والقوية بين آياته وسوره حتى كأن القرآن كله كالكتابة الواحدة ترتيباً وتماسكاً (١) .

(١) هناك محاولات قديمة للامام الرازي في تفسيره والشيخ الإمام البقاعي وله في ذلك كتاب قيم ومخطوط في دار الكتب ، وحاول هذا البحث من المعاصرين ==

ولم يقدّم نقاد الأدب من هذه الدراسة القرآنية ، لذلك جاء كلامهم في تناسب أجزاء النص كلاماً ضيقاً باهتاً يعني فقط ببيان حسن التخصيص والانتقال فكانت القصيدة العربية في منظور النقد تنطوي على ألوان عديدة من الأغراض والمقاصد في غير رباط فني واضح .

٢ - كانت دراسة تناسب المعاني ثمرة النظر الشامل في النص والخروج عن دائرة الجملة ، فقد كان الزمخشري بعد الدراسة التحليلية للجمل وبيان ترتيب معانيها وتناسقها ينظر نظرة أوسع يصف النص ويشير إلى بعض الظواهر الفنية في الأسلوب يراها من مكان القوة والتأثير ، وكثير ما أميّنناه في دراسة للنظم وفي البحث في الجمل يشير إلى هذه النظر العامة ، ومن ذلك قوله معلقاً على قوله تعالى : ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء الله وكل أتوه داخرين ، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تعملون ، من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء بالسيئة فكسبت وجوههم في النار ، يقول الزمخشري بعد ما درس الآيات وبين تناسبها : فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة اضياده ورضائه تفسيره وأخذ بعضه بحجزه بعض كأنما أفرغ إفرغاً واحداً ، ولأمر ما أعجز القوى وأخرس الشفاشق ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد بصحته والمنادى على سداده وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان ألا ترى إلى قوله تعالى صنع الله ، وصبغة الله ، ووعد الله ، وفطرة الله ، بعد ما وسما بإضافتها إليه بسمه العظيم كيف تلاها بقوله الذي أتقن كل شيء ، ومن أحسن من الله صبغة ، ولا يخلف الله الميعاد ، ولا تبديل لخلق الله . ولا شك أن هذا رفض صريح للقول بأن بلاغتنا انحصرت في دائرة الجملة ولم تخرج عنها إلا في بحث الفصل والوصل ، كما أنه رفض صريح للقول

== مولانا الشريف التهانوي الهندي في كتاب مطبوع طبع حجر سماه سبيل القلائد في معرفة المناسبات وحاوله كذلك الأديب السوري ابن شهيد ميسلون وكتب بحثاً سماه نظره البلاغية في مناسبات القرآن قدم له الفيخ مصطفى لوزنا وطبع في دمشق ، وأحاوله الآن دراسة الموضوع وتقديمه للدراسة الألفية .

بأن البلاغتنا بلاغة لفظية لم تكن بالمعاني ولم تلفت إليها في دراستها ، وعذر أصحاب هذه الدعوى من المعاصرين أنهم نظروا إلى البلاغة التقليدية أو الرسمية التي حددتها مدرسة السكاكي وحسبوها - خطأ - خلاصة واهية للتراث الأدبي في هذا المجال .

٣ - ويدرك الزمخشري ببصيرته الأدبية تطور الشكل الأدبي أو مبدأ النمو الموحد الذي هو أصل هام في مفهوم النص ، فيحدثنا عن نمو الفكرة وتصاعدها ، والمعاني التي يتولد بعضها من بعض ، ويهيء بعضها لبعض حتى كان السابق منها بساطاً للاحقه ووطاءً لذكره (١) ، واسمعه يقول في الالتفات .

وهو فن من الكلام جعل فيه هن وتحريك من السامع ، كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لـ كما إن فلانا من قصته كيت وكيت فقصصت عليه ما فرط منه ثم عدلت بخطابك إلى الثالث فقلت يا فلان من حقت أن تلزم الطريقة الحميدة في مجاري أمورك وتستوى على جادة السداد في مصادرك ومواردك نهته بالفتاتك نحوه فضل تنبيهه واستدعيت إصغاهه إرشادك زيادة استدعاءه وأوجدته بالانتقال من الغيبة إلى المواجهة هازاً من طبعه ما لا يجده إذا استمرت على لفظ الغيبة، وهكذا الافتتان في الحديث والخروج منه من صنف إلى صنف يستفتح الآذان للاستماع ويستشش الأنفس للقبول . هذا وأمثاله كثير وهي كافات قبسات تضيء لنا الطريق ، وعليها أن نغضى .

٤ - ولقد هدى الزمخشري إلى طريقة التشخيص والتجسيم ، كما درس طريقة التخييل الحسي في أسلوب القرآن وتذبه إلى أن القرآن يعتمد في بنيانه الفني على هذه الوسائل التعبيرية وأن هذه الوسائل هي الطريقة المفضلة في أسلوبه ، ويقول إن أكثر كلام الله سبحانه وكلام أنبيائه وعليته تخييلات قد زلت فيها الأقدام لجهلها بأدق علوم البيان ، وكان أول من أدخل دراسة التخييل في محيط الدرس

(١) ينظر فصل النظم فقد أشار إلى نمو الأفكار في كثير من مباحثه وينظر بحث الفصل والوصل كما ينظر حديثه في ترتيب الصفات والترقي من الأدنى إلى الأعلى .

القرآني واستجاب في ذلك لحسه الرهيف وإن أغضب علماء عصره ، وقد حاول بعض المعاصرين دراسة هذا الجانب في أسلوب القرآن وذكروا أنه جانب لم يدرس ، والحق أنني قرأت في هذه المحاولات بإيمان ولحمت فيها بصراً ونفاذاً واستطيع أن أرجع بأصولها وبجزئياتها إلى دراسة الزمخشري ، وبما يذكر للزمخشري في هذا الموضوع أنه كان يدعو في فهم الصورة البيانية إلى انصراف النفس والحس إلى أخذ الزبدة ، والخلاصة منها وملء النفس والقلب بما توحى به غير ملتفت إلى ما عليه حال الكلمات من حقيقة أو مجاز ، وهذا تفكير جيد في فهم الصورة البيانية يلقي عنها هذه الأثقال التقريرية التي أطفأها بها البلاغيون المتأخرون (١).

٥ - والزمخشري يحدثنا في أوائل القرن السادس في أثر التمثيل بالحركات والأفعال في حياتنا الأدبية والنفسية ، فالتمثيل الحى المتحرك قادر على الإيحاء والتهديب ، ولفت النفس إلى عيوبها ونقائصها عن طريق الوحي والرمز اللطيف وأنفع ، ويشير إلى أنه من الواجب أن يكون في المشهد التمثيلي رمز يشير إلى الغرض الذي يدور حوله هذا المشهد ، ويتحدث عن الحكاية التي تصور الأشخاص وتبرز ملاحظها النفسية واضحة وقوية ، ويرى أنها أقدر الوسائل والأشكال على توجيه النفس نحو الخير والجمال (٢) .

٦ - وكانت للزمخشري إشارات حسنة في كشف الفسق النفسى لأسلوب القرآن الكريم ولم نجد من المفسرين والدارسين لبلاغة القرآن من اهتم بهذا الجانب الذي كان أساساً في بناء أسلوب القرآن اللهم إلا إشارات في بعض تفاسير الشيعة كالطبرسي أو الصوفية مثل لفتات مولانا الأكبر الشيخ محي الدين بن عربي . وقد كثرت إشارات الزمخشري إلى هذه الزاوية الهامة ووربط كثيراً من الفنون والخصائص البلاغية بأحوال النفس وشتونها وفسرها تفسيراً نفسياً يكشف عن سر قوتها وتأثيرها انظر إلى حديثه في الالتفات فقد فسره تفسيراً نفسياً معجبا وانظر إلى حديثه في بعض صور النهي والتوكيد ومواقع الشرط والتعريف

(١) ينظر فصل البيان .

(٢) ينظر معاً في التمثيل في فصل البيان .

بالإضافة وتفسير قيود الجملة وما ذكرناه في ترتيب الجمل والآيات والتكرار وغير ذلك كثير وكثير، ولا أجدني مهالفاً إن قلت إن اعتماد الزمخشري الأكبر في بحث البلاغة القرآنية كان يرتكز على خبرة بأحوال النفس وشؤونها .

ولا أزمع أن هذه الإشارات تفي من الغرض في هذا الباب لأنه باب هام وخصيب كما لا أزمع إن إشاراته الأخرى في الموضوعات المختلفة تكشف كل زوايا الموضوعات التي أشرت إليها ، وإنما أؤكد أن هذه الإشارات تصاح أن تكون أساساً قوية غير متعلقة لكل دراسة جادة تعنى بهذا الموضوع أو ذلك خذ مثلاً لذلك من حديثه عن الترتيب النفسى للآيات في قوله تعالى « أن تقول نفس يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين بل قد جاءتك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » .

يقول الزمخشري فإن قلت هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله لو أن الله هداني ولم يفصل بينهما بآية؟ قلت لا يخلو إما أن يقدم على أخرى للقرآن فيفترق بينهما ، وإما أن تؤخر القرينة الوسطى فلم يحسن الأول لم يفسد من ترتيب النظم بالجمع بين القرائن ، وأما الثاني فلم فيه من النقص بين الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ثم التعلل بفقد الهداية ثم تمنى الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه ، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ، ثم أجاب عن بعضها على ما اقتضى الجواب ، وأقرأ قوله في تفسير قيد الجملة في قوله تعالى في عدة المطلقة والمطلقات يتربصن بأنفسهن ، يقول كاشفاً ما تنطوى عليه نفوس النساء من الرغبة الجروح في الرجل والجنس ومفسراً هذا القيد في ظل هذا الفهم : « في ذكر الأنفس تهيج لمن على التربص وزيادة بعث لأن فيه ما يستنكف منه فيحملن على أن يتربصن ، وذلك أن أنفس النساء طوايح إلى الرجال فأمرن أن يقمن أنفسهن ويغلبن على الطموح ويجهرنها على التربص » .

٧ - والفصل الذي عقده في دراسة ملاءمة الكلمة القرآنية لسياقها أراه من أجل فصول هذا البحث وذلك لأنه من السهل على الباحث أن يقول هذه الكلمة المشهورة : لكل كلمة مع صاحبها مقام : ومن الصعب العسير عليه أن

يبعث ملاءمة الكلمة لمقامها وما يؤديه وجودها في هذه الصورة وعلى هذه الهيئة من المعاني والإيحاءات ، وهذا من أدق بحوث النقد الأدبي لأن الكلمة في النص هي التي تهدينا إلى كل آفاته ومنها نبدا ، فإذا لم نحسن درسها وفهمها عجزنا عن دخول عوالمه وكان عملنا ضلالاً وضياعاً وهذه حقيقة لا ينكرها منصف .

والمهم أن للزحخشري في ذلك درساً قيماً أراه أجل البحوث في النقد العربي وأرى كل ما فيه صالحاً لأن يكون عطاء أى عطاء لدراستنا المعاصرة . اقرأ ما أتبنتاه في فروق صيغ الأفعال والفرق بين جمع القلة وجمع الكثرة ومعاني حروف الجر وأدوات الشرط والعطف والتعريف والإضافة ولا يهــ وتلك أن هذه بحوث نحوية فسوف ترى الزحخشري يستشرف بها أفقاً فنياً عالياً ويلج منها معاني أدبية رفيعة يحرس عليها كل ناقد بصير ، خذ لذلك مثلاً قوله في الفرق بين حرفي الجر ، في و على ، في قوله تعالى : « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين » .

فإن قلت كيف خواف بين حرفي البحر الداخلين على الحق والضلال ؟ قلت لأن صاحب الحق كأنه مستعمل على فرس جواد يركضه حيث شاء والفضال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه ، وقرأ قوله مفسر أصيغة المضارع في قوله تعالى « إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعش والإشراق » يقول بعد ما بين أن كلمة يسبحن حال وأنها في معنى مسبحات ، فإن قلت هل من فرق بين يسبحن ومسبحات ؟ قلت نعم وما اختيار يسبحن على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء وحالاً بعد حال وكأن السامع محاضر تلك الحال يسبحها ، . فبناء كلمة يسبحن هنا يحول السامعين نظارة يحضرون ويشهدون وتسبيح الجبال يماز أسمعهم بأنغامه في محضر داود صاحب المزامير .

ولا شك أن هذا مشهد معجز وإن إحضاره بالكلمة في منزلة إعجازه بحرفي العاقبة أعني تسبيح الجبال .

ويقول في قوله تعالى « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقنا » . فإن قلت فلم جاء فتثير على المضارع دون ما قبله وما بعده ؟ قلت ليحكى الحال التي (م. ج. البلاغة)

تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة
الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهتم
المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شراً .

بأنى قد لقيت الغول تهوى بسبب كالصحيفة صحصحان

فأضربها بلا دهن نخرت صريماً لليدين وللجيران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه
يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول وإبائه
عند كل شدة . ولهذا الذي ذكره في صيغة المضارع يعدل إليها القرآن في بيان
تفطيع مواقف اليهود من أنبيائهم حيث يقول « ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ،
فعدل إلى المضارع ، لأن القتل فطيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في
القلوب . ، وقد نقل ضياء الدين بعض هذه النصوص وسكت عن نسبتها إلى
صاحبها وعلق عليها باحث معاصر وذكر أنها بما يدلنا دلالة قوية على قدره ابن
الأنير ونفاذ حسه (١) ، ولورحت أذكر ما يروق الأذواق العالية من هذه
الدراسة القيمة لذكرت في المقدمة كل فصول الدراسة وحسب أن أقدم هذه الصفحة
المشرقة من تراثنا .

وأرجو بذلك أن أكون قد أسهمت بشيء في محاولة تجديد المنهج في الدراسة
البلاغية الذي لا سبيل إلى إصلاحه إلا بالاستمداد من هذه الروافد التي تعتمد على
التحليل والتفسير ومصاحبة النصوص وإدمان دراستها والنظر فيها ، وبهذا وحده
يكتسب الذوق بل ولا سبيل إلى اكتساب ذوق هذه اللغة سواء .

وبعد فإن تكن هذه المحاولة موفقة فذلك من محض فضله سبحانه ، وإن
تسكن الأخرى فإن من رحمة الله بالباحثين عن الحق أنه لم يجعل له وجهاً واحداً
بل جعل له وجوهاً متعددة يرى كل فريق منه وجهاً ، ولهذا اختلف الناس
واختلف المتدينون في أمور الدين واختلف صحابة رسول الله في بيان وجه الحق

(١) ينظر كتاب ضياء الدين بن الأنير وجهوده في البلاغة والنقد للدكتور محمد زغالول

وأنصأولوا وكل يعتقد أنه يدفع عن الحق الذي أراه الله إياه ومن رحته سبحانه
بهذه الفئة الباحثة عن الحقيقة أنه يثيب الخطى. إذا اجتهد في إصابة الحق ففاته
إدراكه ، وحسبى أنه يعلم أنى ما قصرت في طلب الصواب بقدر ما رزقت من
قدره على النظر والتفكير ، والله هو الهادى إلى الحق وإلى الصراط المستقيم .

وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

محمد محمد أبو موسى

www.alkottob.com

تمهيد

أردت في هذا التمهيد أن أعرض تعريفاً موجزاً بالعلامة محمود بن عمر صاحب كتاب الكشف الذي هو موضوع بحثنا .

وتقيدنا كتب التراجم أنه ولد في شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة ، وأكثرهم على أنه ولد في ليلة الأربعاء السابع والعشرين من هذا الشهر ، ويروي القفطي عن أبي اليمن الكندي أنه ولد في أواخر رجب سنة ثمان وستين ، ويقول أيضاً ، ونقلت من كتاب محمد بن محمد بن حامد قال كان مولده في السابع عشر من شهر رجب سنة سبع وستين وأربعمائة (١) ونقله تصحيفاً والصواب السابع والعشرين كما هو رأي الأكثر .

وأكثرهم على أنه عاش إحدى وسبعين سنة ، وذكر ابن الأثير أنه عاش ستاً وسبعين سنة ، وإذا كان الرواة متفقين على أنه مات سنة ثمان وثلاثين وخمسة فإذن ميلاده يكون عند ابن الأثير سنة اثنين وستين وأربعمائة . وهذا لم يقل به غيره .

والزحشرى منسوب إلى زحشر وهي قرية من قرى خوارزم ، يقول الوزير ابن القفطي وسمعت بعض التجار يقول أنها قد دخلت في جملة المدينة وأن العمارة لما كثرت وصلت إليها وشملتها فصارت من جملة محالها (٢) .

وخوارزم وجرجانية التي هي متقلبة ومشواه لها خصائص مادية وخصائص معنوية ، أما خصائصها المادية فتتلخص في أنها من الأقاليم الموفرة للخيرات ، الكثيرة الخصب والثمار ، المتصلة بالبساتين والمزارع والأشجار .

وهي تقع على حدود الدولة الإسلامية فهي من الثغور الهامة والتي تعرض

(١) ينظر أنباء الرواة ج ٣ ص ٢٧١ .

(٢) أنباء الرواة ج ٣ ص ٢٦ .

كثيراً لغزو أعداء المسلمين ، وكانت لهذه الخصائص المادية آثار واضحة في سكانها فهم مسلمون متحمسون لدينهم يدافعون عنه باللسان كما يدافعون عنه باللسان ، فكانوا صياغلة بيان ورجال صيال .

وأما خصائصها المعنوية فأوضحها أنه قد أتيح لهذا الإقليم وخصوصاً في عصر الزنجشري رؤساء عنوا أشد العناية بالعلوم والآداب فقربوا العلماء من مجالسهم وقلدوهم المناصب الهامة ، فنبغ في هذا العصر كثير من العلماء في فروع علوم الدين واللغة ، وكان الشغور الديني حياً في تلك المنطقة لمشارفتها بلاد الكفر ، والسياسة حروبها في سبيل الدفاع عن الإسلام ، والوقوف في وجه أعدائه .

ويبدو أن الزنجشري رحمه الله كان ماجداً بنفسه ، فلم نعرف أحداً من أجداده ، بل لم نعرف أكثر من أنه محمود بن عمر بن محمد بن عمر كما يذكر ابن خلكان (١) أو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد كما يذكره صاحب تاج العروس (٢) أو محمود بن عمر الخوارزمي النهوي كما يذكره صاحب العبر مؤرخ الإسلام الذهبي (٣) وبما لا شك فيه أنه كان أعجمياً يتعصب للعروبة ولدينها ولغتها ، وأرجح أنه كان فارسياً لأن بيئته فارسية ولأنه كتب باللغتين العربية والفارسية ، وكان معنياً بتعليم الفرس اللسان العربي .

وكان رحمه الله متمماً بإحدى رجله ، ولما دخل بغداد سأله الداعقاني الفقيه الحنفي عن سبب قطعها ، فقال دعاء الوالدة : وذلك أتى في صباى أمسكت عضفورا وربطته بخيط في رجله وانفقت من يدي فأدركته وقد دخل في خرق فجذبته فانقطعت رجله في الخيط ، فتألمت أمي لذلك وقالت قطع الله رجل الأبعد كما قطع رجله ، فلما وصلت إلى سن الطالب رحلت إلى بخارى لطلب العلم فسقطت عن الدابة فانكسرت الرجل ، وعملت عملاً أوجب قطعها (٤) .

ويقول ابن خلكان وسمعت من بعض المشايخ أن إحدى رجله كانت

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٥٤ .

(٢) تاج العروس ج ٣ ص ٣٤٣ ، تحقيق الدكتور صلاح الدين أبو الجهد - الكويت .

(٣) العبر في أخبار بن عمر ج ٤ ص .

(٤) أبناء الرواة ج ٣ ص ٦٦٨ .

ساقطة ، وأنه كان يمشى في جاون خشب ، وكان سبب سقوطها أنه كان في بعض أسفاره ببلاد خوارزم أصابه ثلج كثير وبرد شديد في الطريق فسقطت منه رجله (١) ثم قال والبرد والثلج كثيراً ما يؤثر في الأطراف في تلك البلاد فتسقط خصوصاً خوارزم فإنها في غاية البرد ، ولقد شاهدت خلقاً كثيراً ممن سقطت أطرافهم بهذا السبب فلا يستبعد من لا يعرفه .

وابن خلكان قريب من زمان الزمخشري وبينهما سبب في الإجازة فقد أجاز الزمخشري زينب بنت الشمري التي أجازت ابن خلكان .

ويقول السيوطي في سبب قطعها ، وأصابه خراج في رجله فقطعها (٢) . وليس هناك تعارض بين هذه الأسباب فقد يكون سقوطه عن الدابة سبباً لقروحه ، ثم ساعد البرد على سقوطها .

وكان الزمخشري إذا مشى أتى عليها ثيابه الطوال فيظن من يراه أنه أعرج .

وكان والده الذي لم يحدثنا عنه التاريخ تقيماً صالحاً صواماً قواماً كما يقول الزمخشري وكان رجلاً فقيراً معولاً . ويظهر أن الزمخشري قد تمتع به زماناً .

فقد ذكر في شعره أن مؤيد الملك نسل بوالده في سجنه وأثقل عليه القيود والسلاسل ، وقد استعطفه الزمخشري وذكر فضل والده وتقاه وحاجته . وكان مؤيد الملك سيء السيرة ، مسلطاً على الأخيار .

وقد يكون الزمخشري أكبر أبناء أبيه لأنه يذكر شبابه وضعف أطفاله ، والزمخشري فقد يكتب الأمراء في شأن أبيه فليس طفلاً كاخوته (٣) وقد ذكر أن والده مات وهو شاب ، وإن ما قرأه حسرة وأسى أنه لم يكن في صحبة والده في تلك اللحظات التي فارق فيها الدنيا ، والتي كان ظمناً فيها للقاء ولده ، وامل الزمخشري كان مشغولاً في طلب العلم ، فقد كان كثير الفراق لوالده ، وكان يشكو هذا الفراق المتقطع فما باله بهذا الفراق الدائم .

(١) وفیات ج ٤ ص ٢٤١ .

(٢) بنية الوفاء ج ٢ ص ٢٧٩ .

(٣) ديوان الزمخشري وقرة ٩٧ .

وقد كنت أشكو فراقاً قبل منقطعاً وكيف لي بهديء بالعيش منتفع
وانستطيع أن تصور من شعر الزمخشري إن والده كان رجلاً صافى النفس
يقى السريرة ، مهذب اللفظ ، مفظوراً على الخير ، منصرفاً إلى ما فيه رضا القلب ،
راضياً عن الدنيا ، بكاء ، كثير التذكر ، كريماً ، فاضلاً ماجداً .

يقول الزمخشري في رثائه :

فقدته فاضلاً فاضت مآثره
أخا طباع مصفاة مناسبة
وذا حقائق لا في لحظة طلب
لم يأل ما عاش جداً في تقاه يرى
العلم والآداب الماثور والورع
ماء السحابة ما في بعضها طبع
لغير رشد ولا في لفظه قذع
إن الحريص على دنياه منخدع (١)
وكانت أمه سالحة تقية ، وما يحكيه في سبب سقوط رجله يشعرنا بأنها
كانت رقيقة القلب مهذبة الطبع ، وقد بكاهما في شعره ، وأسلى بأنها في رضوان
الله ورحمته ، فهي تناديه من عالمها وتقول :

إني إن في الجنان مقيمة
سر المحيم رضا الرحيم أعاذني
في جنة الفردوس فوق أريكة
حفت خيام الحور حول قبتي
أعزى حل أن أراي هكذا
أعزى على بأن تطول مسرتي
في الضيق والظلماء تحسبني ولي
من كان في دار السلام حلولة
واعظم يأتي قد دعوت الله أن
أختال بين ظليلة الأفياء
منه وأزواني مع الصالحاء
في قبة من وردة زهراء
وبرزن عرصتها صباح مساء
وأراك رهن الوجد والبرحاء
وتطيل أنت تنفس الصعداء
متبوء في لاسمة وضياء
أني يرى في الضيق والظلماء
تعطى رضاه فاستجاب دعائي (٢)

وكان لهذه الأم الصالحة ولهذا الأب التقى أثر بين في حياة الزمخشري ،

(١) ديوان الزمخشري ورقة ٧٢ .

(٢) ديوان الزمخشري ورقة ٤ .

فشب مستقيم الطريقة ، حريصاً على الخير ، داعياً إليه ، وكأبه بهذا السلوك يصل سيرته بسيرة قباياته وأجداده الذين يدعى أنهم كانوا كذلك ، وأن الناس يشهدون لهم بهذا ، بل يثقفون على القول بسلامته ديتهم وحسن سيرتهم ، يقول في الخبر :

هات التي شبت ظلماً بشمس ضحى	لو عارضتها لغظمتها بإشراق
استغفر الله أنى قد أسبت بها	ولم أكن لحياتها بذواق
ولم يذقها أبى كلا ولا أحد	من أسرق وانفاق الناس مصداق (١)

وكان الزمخشري رحمه الله منصرفاً عن النساء ، عزاه عنهن حفيظاً ، لم يشغل بصاحبة ولا ولد ، ويذكر أن نفسه التي ظللتها الكتابة منذ طفولتها لا تساعده حتى على القول في النساء والتصاني بين .

تقول سليمان ما أشعرك طيب	وهل طاب شعر ليس فيه لسبب
ربيع نفيت الورد عنه فقل لنا	ربيع بدون الورد كيف يعطب
فقلت لها قول امرئ لعبت به	صروف زمان جنة وخطوب
شكايات أيام ملكن قصائدى	فلم يبق فيها للنسيب نصيب

إذا قلت فى شكوى الزمان قصيدة

وجئت الفوافى ترصوى وتجب

وليت قلت مدحا أو نسيبا وجدتها

وعصياتها لى عند ذلك عجيب (٢)

ويقول عزوفه عن النساء ورغبته عن الذل بأنه يخشى أن يلد ولداً غير كويس فيكون سبة وهاراً وفضيحة وشناراً ، وكمن والد يرى ولده ويشقى ثم يشقيه ولده حين يراه ولداً نافعاً لا يعاب به ولا يلتفت إليه .

تصفحت أولاد الرجال فلم أكد

أصادف من لا يفضح الام والابا

(١) الديوان ورقة ٨٥

(٢) الديوان ورقة ٩

رأيت أبا يشق تربية ابنه
ويسمى لكي يدهى مكيسا ومنجبا (١)

أزاد به النشا الأغر فما درى
أبويه حجرا أم يعليه مركبا

أخو شقوة ما زال مركب طفله
فأصبح ذلك العاقل للناس مركبا

لذاك تركت النفس واخترت سيرة
مسيحية أحسن بذلك مذهبا

وقد لامه أهله لإعراضه على النفس وانصحوه بطالبه ، فلامهم لأنهم يلحونه
على النسك ووصفهم باللوم فى النصيحة ، وأشار إلى فساد الأولاد وقبائحهم
وأنه ينبغي أن يترفع مثله عن أن يولد له ولد قبيح .

يموه قومي بالتنصح لومهم وإن عشاء لومهم والتنصح

يلوموننى أنى نأيت بجانبى عن النسل الوى عنه رأسى وأجمح

أتلحون لواماً على النسك أهله إذا لم يفدك القول فالصمت أصلح

كانكم لم تسمعوا أن من له عيال شقى دهره ليس يفاح

قبيح بمثلى والبتون كما أرى جنود فساد ليس فى الألف مصلح

تصد لنسل مثلهم يولد فمال القبائح أفبح

إذا ارتكب الابن الخليع فضيحة

فذاك لعمر الله الأب أفضح

وكل صنيع ليس للنفس جالبا

وجروجوه الضر فالترك أروح (٢)

وليس الزمخشري بدها فى هذا فان كثيرا من الأفاذا اختاروا هذه الطريقة
ومتهم الكسائى والطبرى وأبو حيان التوحيدى . ولعل أم سبب يكمن وراء

(١) المكيس من أكيس إذا ولد ولدا كيسا والعرب يقولون إن المكيسة تكيس أى
المرأة الكيسة تلد أولادا أكيسا قال :

فلو كنتم لكيسة لكانت وكيس الأم يظهر فى البيت

(٢) ديوان الزمخشري ورقة ٢٦ .

هذا السلوك هو انصراف همته إلى طلب العلم ، أو اغتناء نفوسهم به ، ووجدان
لذتهم في البحث والتحصيل ، وقد أشار الزمخشري إلى هذا في قوله :

سهرى لتفقيح العلوم الذلى من وصل غانية وطيب عناق
وتمايلي طربا لحل عويصة أشهى وأحلى من مدامة ساق

وليس غريباً أن ينصرف عن شواغل الصاحبة والولد من أخاص في الطالب
وذائق حلاوة التحصيل .

ولم يكن الزمخشري صاحب مال يشغله وقد لا يكون صاحب مال يكفي
حاجته في معيشته ، ولم ينظر في كفه فما وجد غير الأنامل .

غنى من الآداب لكتنى إذا نظرت فما في الكيف غير الأنامل

فانصرف الزمخشري إلى العلم وهو رجل خفيف الحاز لا مال ولا ولد ،
فاتهمك في التحصيل ، وأخلص في الطلب ، وشغل بالعلم في ليله ونهاره ، وفي
يقظته ومنامه ، فقد روى أنه سئل في المنام عن اشتقاق المعاداة فقال لأن هذا
في عدوة وذلك في عدوة كما قيل المخاصمة والمشاقة لأن هذا في خصم أى في
جانب ؛ وذلك في خصم ، وهذا في شق ، وذلك في شق (١)

ولقى الزمخشري أفاضل عصره ، وأخذ عنهم ، وقد ذكر الرواة أنه أخذ
الآداب عن أبي الحسن علي بن المظفر التيسابورى ، وأبي مضر الأصبهاني ، وسمع
من أبي سعيد الشقاني ، وشيخ الإسلام أبي منصور الحارثي .

وقد ذكر شيخه أبا مضر ، ونوه به ، وأشار إلى علمه وفضله ، وكان يحبه
ويخاص له في حبه . وتفجع في رثائه .

وما زال موت المرء يخرب داره

وموت فريد العصر قد خرب العصر

فشبهت بالحنساء إذ فقدت صخرها

وصك بمثل الصخر سمى نعيه

(١) ينظر الكشاف ج ٢ ص ١٦٠ .

ويقول مشيراً إلى إفادته منه وأخذه عنه .
فقلت اطعمي مات كل ذخيرة فمن أجله ما زلت أدخر الذخرا
وأبرز كبريات التوافي وغيرها
فمنه استفدنا العلم والنظم والنثرا

وكان أبو مضر كما يقول الرواة يلقب بفريد العصر ، وكان وحيد دهره
وأوانه في علم اللغة والنحو والطب . يضرب به المثل في أنواع الفضائل ، أقام
بخوارزم مدة وانتفع الناس بعلمه ، ومكارم أخلاقه ، وأخذوا عنه علما كثيرا
وتخرج عليه جماعة من الأكابر في اللغة ، منهم الزمخشري ، وهو الذي أدخل
على خوارزم مذهب المعتزلة وشره بها فاجتمع عليه الخلق لجلالته وتمذهبوا
بمذهبه منهم أبو القاسم الزمخشري (١)

ولعل ما وصف به للضي من كرم النفس وفضيلة الأخلاق هو الذي يمكن له
في نفس تلميذه ، وقد أشار الزمخشري في بعض أشعاره إلى أن شيخه هذا كان
يدفع حاجته ويكفيه ما أهمه .

ولولم يل للضي عنى عراقها لغالت يد البلوى أديمي بعركها
وقد ذكر مؤرخ الاسلام الحافظ الذهبي أن الزمخشري سمع من ابن البطر
في بغداد (٢) .

ويذكر القفطي أنه لقي في بغداد الدامغانى الفقيه الحنفى (٣) ولقى فيها أيضاً
الشيخ أبا منصور الجواليقى سنة ثلاث وثلاثين وخمسائة ، وقرأ عليه بعض كتب
اللغة من قوائمها ، واستجاز أبا منصور . ولقى فيها العلامة الشريف ابن
الشجرى ، يقول ابن الإبارى ، وقدم إلى بغداد للحج فجاهه شيخنا الشريف بن
الشجرى مهتماً بقدمه ، فلما جالسناه أنشده الشريف .

-
- (١) معجم الأدباء ج ١٩ ص ١٢٣ .
 - (٢) المعرفى اخبار ابن خببر ج ٤ .
 - (٣) آياه الرواة ج ٤ ص ٢٦٨ .

كانت مساءلة الركبان تخبرني
عن أحمد بن ذرّاد أطيب الخبر
حقّ التقينا فلا والله ما سمعت
أذنّي بأحسن مما قد رأى بصري
وأنشده أيضاً :

واستكبر الأخبار قبل لقائه
فلما التقينا صغر الخبر الخبر

وأثنى عليه ولم ينطق الزمخشري حتى فرغ الشريف من كلامه ، فلما فرغ
شكر الشريف وعظمه وتصاغره له وقال : أن زيد الخيل دخل على رسول الله
صلى الله عليه وسلم حين بصر بالنبي صلى الله عليه وسلم رفع صوته بالشهادتين ،
فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم : يا زيد الخيل كل رجل وصف لي وجدته
دون الصفة إلا أنت فانك فوق ما وصفت ؛ وكذلك الشريف ودعا له وأثنى
عليه ، فتمعجب الحاضرون من كلاهما لأن الخبر كان أليق بالشريف والشعر أليق
بالزمخشري (١) وابن الشجري كما يقول ابن خلكان كان إماماً في النحو ، واللغة ،
وأشعار العرب ، وأيامها ، وأحوالها ، كامل الفضائل ، متضلعا من الأدب . . .
وكان حسن الكلام حلوا الألفاظ - فصيحاً جيد البيان والتفهيم (٢).

ويشير الزمخشري في كتابه أعجب العجب إلى شيخه محب الدين في بعض
مسائل الأعراب ويدعو له يقول وقال شيخنا محب الدين قدس الله روحه (٣).
ويقول قال شيخنا محب الدين أثناه الله الجنة (٤). وتفسيره مشحون بأسماء أعلام
العلماء وأسماء شيوخه من المعتزلة ، وكان ينوه بهم وبما صنّفوه يقول : وقد صنّف
شيخنا أبو علي الجبائي قدس الله روحه غير كتاب في تحليل التبيذ ، فلما شيخ
وأخذت منه السن العالية قيل له : لو شربت منه ما تنقوى به فأبى ، فقيل له :
فقد صنفت في تحليله فقال : تناولته الدعارة فسمج في المرومة . ويقول : سمعت
بعض أولى الهمة البعيدة والنفس المرة من مشايخنا يقول لا تطمح عينى وتنازع

(١) نزهة الألبا ص ٤٦٩ .

(٢) وفيات ج ٥ ص ٩٦ .

(٣) أعجب العجب ص ٥٣ .

(٤) نفس المرجع ص ٥٨ .

(٥) الكشاف ج ٢ ص ٤٨٠ ، ٤٨١ .

نفسى إلى شئ مما وهد الله في دار الكرامة كما تطمح وتنازع إلى رضاه هنى ،
وإلى أن أحشر في زمرة المهديين المرضى عنه (١) .

ويذكر من أعيان النحاة والبلاغيين :

ابن جنى ج ٣ ص ١٤٣ ؛ ج ٢ ص ٧ وكتابه المحاسب ج ٣ ص ٣١ وكتابه
النظام ج ٢ ص ٧ وأبا عبيد ج ٣ ص ٣٥٥ ، ٤٥٥ ، وأبا عبيد ج ٣ ص ٤١٧ ،
ج ٤ ص ٥٥ وأبا الفتح الهمداني ج ٢ ص ٤٢٥ ، ج ٤ ص ٧١ . وأملب ج ٣
ص ٤٥٤ ، والزجاج ج ٢ ص ٣٣٢ ، ٤٦٠ ، ج ٤ ص ١٤٧ ، ٢٥٥ ، ١
ص ٣٩٨ ، ٤٩٦ ، ج ٢ ص ٧٣ ، ٤٨٩ ، ٥٥٠ ، ج ٣ ص ١٣٣ ، ٣٣٤ وتفسير
الزجاج ج ٣ ص ١٤٧ .

والأزهري ج ٢ ص ٧ وسيبويه كثيراً جداً ج ٢ ص ١١٥ ، ١٠١ ونوه بحملة
كتاب سيبويه ج ٤ ص ٤٦٦ ، وأبا حاتم السجستاني ج ٣ ص ٢٥ وأبا هلى
صاحب الحلبيات ج ١ ص ١٧٩ والفراء ج ١ ص ١٨٠ والوافدى ج ١ ص ١٨٢ ،
ج ٣ ص ٢٢٤ والمبرد ج ٣ ص ٧ ، وعبد الله بن المعتز ج ٣ ص ٦٩ وأبا جعفر
المدني ج ٣ ص ١٩٤ ، ٢١٣ وأحمد بن يحيى ج ٣ ص ٢٢٤ . ويعقوب بن السكيت
وكتابه لإصلاح المنطق ج ٣ ص ٢٧٨ وابن المقفع ج ٣ ص ٢٨٦ وكتاب الحيوان
ج ٣ ص ٢٨٤ وعبد القاهر الجرجاني ج ٤ ص ٣١١ وابن قتبية ج ٤ ص ٥٤٩
وعمر بن عبيد ج ٤ ص ٥٩٧ ، وغير ذلك كثير مما يفيدنا أن الزمخشري أفاد
من القراءة أكثر مما أفاد من السماع والتلقى . وكتابه ربيع الأبرار شاهد صدق
على درايته بما ثور الأدب والأخبار ، وقد أشار القفطى إلى هذا حين قال :
ولم يكن له على ما عنده من العلم لقاء ولا رواية (٢) .

وكان الزمخشري حنق المذهب . وكان متسامحاً مع مخالفيه في المذهب
الفقهي ، أحب الإمام الشافعي ونوه بمكانته ، ويذكر أنه من أعلام العلم ، وأئمة

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٢٧ .

(٢) الباء رواه ج ٣ ص ٢٧٠ .

الشرع ، ورؤوس المجتهدين ، وقد كتب كتاباً ترجم له يشافى العى من كلام الشافعى ، والكتاب غير معروف وأظنه يتصل ببلاغة الإمام ورسوخ قدمه في علم العربية وتمكنه منها ، يقول في قوله تعالى ذلك أدنى ألا تعولوا بعد ما فسر العول بالميل والجور ، والذي يحكى عن الشافعى رحمه الله أنه فسر ألا تعولوا إلا تكثروا عيالكم ، فوجهه أن يجعل من ذلك عال الرجل عياله يعولهم كقوله ما نهم يمونهم إذا أنفق عليهم ، لأن من كثر عياله لزمه أن يعولهم ، وفي ذلك ما يصعب عليه المحافظة على حدود الكسب ، وحدود الورع ، وكسب الرزق الطيب ، وكلام مثله من أعلام العلم وأئمة الشرع ورؤوس المجتهدين حقيق بالخل على الصحة والسداد . وألا يظن به تحريف تعيلوا إلى تعولوا فقد روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لا تظن بكلمة خرجت من فم أخيك سوءاً وأنت تجد لها في الخير محملاً ، وكفى بكتابنا المترجم بكتاب شافى العى من كلام الشافعى شاهداً بأنه كان أعلى كعباً ، وأطول باعاً في علم كلام العرب من أن يخفى عليه مثل هذا ، ولكن للعلماء طرقاً ، وأساليب ، فسلك في تفسير هذه الكلمة طريق الكناية (١) ،

وكان يمدح قضاتهم في خوارزم ، ويشير إلى أنه ليس شافعى المذهب ،

إلى بدين ولاهم متشيع لهم واست بشافعى المذهب (٢)

وكان معتزلياً متشدداً في مذهبه متعصباً أشيعته معتزلاً بنسبته إليهم ، يروى ابن خلكان أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن ؛ قل له أبو القاسم المعتزلى بالباب (٣) .

وقد ذكرنا أن أبا مضر أقام بخوارزم زماناً وأدخل عليها مذهب المعتزلة ونشره بها ، وقد تمكن هذا المذهب في خوارزم وغلب على أهلها حتى كانت كلمة خوارزمى ترادف كلمة معتزلى .

وكان الرمنخسرى يتناول على أهل السنة ويحتد في النيل منهم ، يقول في آية

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٦١ .

(٢) ديوان الرمنخسرى وولة ٨ .

(٣) وفيات ج ٤ ص ٢٥٥ .

الرؤية ثم تعجب من المنتسبين للإسلام المتوسمين بأهل السنة وجماعة كيف اتخذوا هذه العظيمة مذهباً ، ولا يفرك تسيرهم بالبلكفة (١) فإنه من متصوبات أشياءهم والقول ما قاله بعض المدلية فيهم :

جماعة سمو هواهم سنة
قد شبهوه بخاتمه وتخوفوا
وجماعة حرموا أمرى مؤكفة (٢)
شنع الورى فاستروا بالبلكفة

ويقول في تفضيل الملائكة على الناس ومخالفة أهل السنة في هذا :
والا ما عليه الفئة الخاسئة المجبرة من تفضيل الإنسان على الملك وما هو إلا من تمكيسهم للحقائق وجحودهم للمعلوم الضرورية ومكابرتهم في كل باب (٣) .

وكان ينضح هذا التعصب عند ذكر الأعلام كقوله وزعم ابن قتيبة (٤) كما كان يتوه بالمعتزلة كقوله ، في عمرو بن عبيد ، فله دره ، أى أسد فراس كان بين ثوبيه ، يدق الظلة بانكاره ويفصح أهل الأهواء والبدع باحتجاجه (٥) .

وكان يحترم عقله ولا يقبل التقليد ، في أصول الدين ، ويرى أن الصيال بجهانه كالأسد في عرينه ، وإن التقليد رأس الضلال ، وكأنه يلوح بأهل السنة يقول : امش في دينك تحت راية السلطان - يعنى العقل - ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان فإلا الأسد المحتجب في عرينه أهر من الرجل المحتج على قرينه ، وما العنز الجرباء تحت الشمال البليل أنزل من المقلد عند صاحب الدليل .. وجامع الروايات الكثيرة ولا حجة عنده مقوية أوقر ظهره بالحطب وأغفل زنده . إن كان للضلال أم فالتقليد أمه ، فقد الله حبلا من مسد من يقصده ويؤمه (٦) .

(١) البلكفة معناها بلا كيف أى أن الله يرى بلا كيفية كما يقول أهل السنة .

(٢) اكتشاف ج ٢ ص ١٢٣ .

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٣٦٣ ، ٣٦٤ .

(٤) الكشاف ج ٤ ص ٥١٩ .

(٥) الكشاف ج ٤ ص ٥٩٧ .

(٦) مقامات الرضويها من ٣٨ .

وكان يخالف شيعته إذا بدا له تقديراً منه لعقله وربما بنفسه عن التقليد ،
يقول العلامة الختاجي : والزمنشري ليس بمقلد للمعتزلة في كل ما يقولونه خصوصاً
فيما يتعلق بالعربية (١) .

وتعريض الزمنشري بأهل السنة واتهامه إياهم بالتقليد وسماح الرواية دون
تثبيت اتهام قديم عرف به المعتزلة ، وكانوا يسمون أهل السنة العوام الذين
لا ناصر لهم ، فقد ذكروا أن عضد الدولة وكان أميراً عظيم الهيئة كثير الفضل
واسع الثقافة لاحظ خلو مجلسه من أهل السنة ، فقال هذا مجلس عامر بالعلماء
إلا أنني لا أرى فيه واحداً من أهل الإثبات والحديث ؛ أما هؤلاء المشبهة من
ناصر ؟ فقال القاضي بن بشر بن الحسين وكان من شياطين المعتزلة ليس لهم
ناصر وإنما هم عامة ، أصحاب تقليد ورواية يروون الخبر وضده ، ويعتقدونهما
جميعاً لا يعرفون النظر ، والمعتزلة فرسان الجدل والمناظرة (٢) .

والحق أن هذه تهمة تفلتت عبر الزمان حتى عصرنا هذا ، فقد مرن كثير
من الدارسين على القول بأن حرية الإرادة الإنسانية والاعتقاد بتأثير الإنسان
وفاعليته في المذهب الاعتزالي أناح للمعتزلة النظر الحر الطليق ، واستخدام العقل
الذي يستحسن ويستقبح ، فأخصبوا تراثنا بهذه الآراء القوية الجريئة ، وأن هذه
الزعة العقلية قد انعكست على آثارهم في اللغة والأدب فكانوا أصحاب منهج فيما
يكتبون ، والذي أعتقده أن كثيراً من زعماء الأشاعرة أشد محالا وأقوى جدالاً
وأقدر على المقارعة من جلة المعتزلة ، ولهم منهج دقيق في البحث والمناظرة وليس
الفكر الإسلامي في شتى ميادينه نتاج الفكر الاعتزالي الحر ، وإنما هو نتاج كل
هذه الفرق ، وليس جهد المعتزلة فيه أخصب ولا أعمق من جهد الأشاعرة
والماتريدية الذين يزعم المعتزلة أنهم عامة وأهل تقليد .

يجب أن نذكر أبا الحسن الأشعري الذي حبر المعتزلة في أقاص السمسم ، وأبا
الحسن البصري ، وصاحبه أبا الحسن الباهلي ، وابن قتيبة وابن فورك ، وأبا إسحاق
الاسفراييني ، والقاضي أبا بكر بن الطيب ، والإمام عبد القاهر الجرجاني وغيرهم

(١) طاعية الشهاب ج ١ ص ٢٧٦

(٢) مقدمة اعجاز القرآن ص ٢٠ طبعة دار المعارف

أكثر من أن يحصى وكلمهم صاحب منهج ، وصاحب نظر ، وليسوا أدل من
العنزة الجرباء تحت الشمال البليل كما يشفقن صاحبنا وشيعته (١) .

ولما اشتد عود الزمخشري وتكاملت أدواته ، تطلمت نفسه إلى بيل ما يناله
العلباء في زمانه فدح الأمرء وطلب جوائزهم . وقد تلحظ في مطالعة ديوانه
نفساً تتصاغر في طلب العطايا ، وتناح في الشكوى . وتبالغ في المدح والثناء .

من ذلك قوله بمدح الوزير نظام الملك :

ثنائي لصدر الملك ما عشت دايم وإن دعائي مثله في دوامه
جعلتها وردى نهاري وليالي كفعل الفقى في صومه وقيامه
وكان فريد المصر جيداً مقرباً وما أنا إلا هضبة من شمامه (٢)

ومن ذلك قوله :

إليك نظام الملك شكواى فاستمع إلى بث مجذوذ المايش حشكها
طريح خطوب كل يوم تنوبه بياقة تمنى عليه ببركها (٣)

كما تلحظ نفساً تسمو وتقف من الممدوح موقف الند تفخر بعلمها وبفضلها ،
وأنها حقيقة بالتقدم والعطاء من ذلك قوله بمدح فخر الممالى أو شرف الملك
عبد الله الوزير :

وقائلة لما أتتها قصائدى وفي طيها شكرى لتمماك والحد
لئن كان محمود فريداً بفضلته فمدوحه أيضاً بأفضاله فرد

وهو في هذا البيت الثانى قد فضل نفسه على الممدوح : لأن الفريد بفضلته
أفضل من الفريد بأفضاله أى منحه وعطاياه .

(١) لمعرفة جهود أهل السنة في الفكر الإسلامى ينظر الفرق للهداى ومقالات الإسلاميين
للأشمري والملل والنحل للشهرستانى ونشأة الفكر الإسلامى للدكتور النجاشى .

(٢) ديوان الزمخشري ورقة ١٠٤ .

(٣) ديوان الزمخشري ورقة ٩١ .

وقوله في مدح مجير الدولة

فليت رحالي أقيمت بفنائمه فأرتمع في نعمائه غير نازح
ويقدح زندا واريما من مناقبي إذا صلدت كل الزناد لقادح
وفي شرح أبيات الكتاب لبعض ما

يرى في صفاتي مجملا أي شارح

وأعوذجا أنفذت منه بضمه رجائي أرى فيه وجوه المناجح
أراقب من عين الوزير أطلعه عليه وحسي منه لمحة لامح (١)

ومهما كان مدحه تصاغراً أو تسامياً فان آماله لم تتحقق . ولم ينل شيئاً مما
كان يتمناه ويصبو إليه . ولسكنه يلح في الطاب ويؤيد في الإلحاح .

ولابأس من أحياء موتى مطالبي فان ندى كفه الوزير فسيح
يقول الذي يلقى غرائب جوده لقد نفعت في البرهكية دريح
فداء هيبه الله في الجود والندى بطي القرى جعد البنان شعبيح

ويظهر أن عبد الله هذا كان ينفجحه بعطاياه واسكنها دون ما يأمل
إليك عبيد الله أقيمت ربقتي فخذها وكن دون الأنام موشح
وزحزحت عني ريب دهر شكوته إليك ولولا أنت لم يتزحزح

وتتمزق نفسه بين جموح الطموح وخيبة الأمل .

فؤاد بهجران الحبيب قريح وشلو بأنياب الزمان جريح
ونفس على مر الزمان أبية وطرف إلى نيل العلاء طموح
وقضل مناط النجم أدق محله ولسكنه تحت التراب طريق (٢)

وبدأ الزمخشري يشمر بالهوان في خوارزم . وأن عليه أن يرحل عنها .
والأيعود إليها وإن كانت أحب بلاد الله إلى قلبه .

(١) ورلة ٢٣ .

(٢) ورلة ٢٤ من الديوان .

أحب بلاد الله شرقاً ومغرباً
ولسكن توأسي بالكرامة غيرها
سأرحل عنها ثم لست براجع
فلا كنت أن خيمت فيها ابن حرة
ولا عشت بين الصالحين حميدا
إلى التي فيها غزيت وليدا
وهاذي أرى فيها الهوان عتيدا
وأضرب مرعى في البلاد بعيدا

ويبدو أن الوزير نظام الملك كان يغمض عنه عينه ، فقد صور الزمخشري ضياعه في خوارزم وتجاهل الوزير لمكانته وفضله وانتفاصه لحقه ، في قصيدة هامة تكشف العلاقة بين العلامة الزمخشري الذي كان نخر خوارزم ، ووزيرها العظيم ، الذي طار صيته وعرف بعنايته بالعلم والعلماء ، والذي كان مجلسه عامراً بالقراء والفقهاء وأئمة المسلمين . وفي هذه القصيدة لشعر بضيق الزمخشري ، وأنه كأنه مقصي عن هذا المجلس العامر ، وأن المحيطين بهذا الوزير هم الأراذل ، وليس في مجلسه من يساوي الزمخشري علماً وفضلاً إذ أنه نخر خوارزم وصدر أفاضلها ، وأن قصائده سارت مسير النيرات ، وأنه أصاب بذهنه عن التفاصيل فيما كتب من علوم اللغة والنحو ، وأن الناس قبل هذا الوزير كانوا يحفظون حق فضله وعلمه ، ولم تكن بينهم وبين الزمخشري هذه الصلة التي بينه وبين نظام الملك ، يعنى صلة العلم ، ويتمده بالرحيل من خوارزم ، ثم يطالب منه أن يجعله كبعض الأراذل الذين رأوا ما تمنوا .

يقول :

خليلي هل تجدى على فضائل
ومن لي بحق بعد ما وفرت على
كلما الدهر كم شوبها في الحلبي جيدها
وما شجاني أن غر منافي
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدي
وكم من أمل لي وكم من مصنف
ولي في دقيق النحو والنقد منطق
غني من الآداب لمكنني إذا
إذا أنا لم أرفع على كل جاهل
أراذلها الدنيا حقوق الأمان
وكم جيد حسناء المقلد عاجل
تغني بها الركبان بين القوافل
وسارت مسير النيرات رسائلي
أصاب بها ذهني بحر التفاصيل
إذا قلته لم يبق قولاً لجمال
نظرت فما لي بالسكيد غير الأناهل

ويقول :

وما حق مثل أن يكون مضمياً	وقد عظمت عند الوزير وسائلي
وأعظمها إلى نسيب نصابه	إذا عرضت أنساب هذى القبائل
وقد كان يرعى الناس حتى قبله	على عدم القربى وبعد الوصائل
أحظى منقوص وأست بنافس	وكم كامل حظاً وليس بكامل
فلا ترض يا صدر الكفاة بأن ترى	أعالي قوم الحقوا بأسافل
ولا تجعلوني مثل همزة واصل	فيسقطني حذف ولا راء واصل
فكل امرئ آماله عدد الحصى	ومات تظيري في جميع الخافل

لئن كان امرئ في خوارزم ما أرى
 فإن رحالي في ظهور الزواجل
 وكم قلت ألقى في وزارتك المنى
 وأدرك وحدي ما أرتجى كل آمالي
 ولم أدر أن الأراذلين يرون ما
 ما تمنوا وأنى لست أحظى بطائل
 فوقع إلى هذا الزمان فإنه
 غلامك يجعلني كبعض الأراذل (٢)

ويظهر أن الزمخشري راض نفسه كثيراً على قبول القرار في خوارزم مع
 انتقاص حقه وتجاهل فضله ولينكته لم يفلح ، ويرشدنا إلى ذلك تشابله في
 المعجزة ، وكأنه يشترع نفسه من خوارزم انتزاعاً ، فقد كرر العزم على الرحيل
 وأشار إلى أنه لا بد من عزيمة ماضية كالسيف .

قرب قلوبى للترحيل يا فتى	هذا القرار على الحوان إلى متى
لا بد من أصلات سيف العزم لا	يفرى الطلا الصمصام إلا مصلتنا

(١) الديوان ورقة ٩٤ وقد آثرت ذكر هذه القصيدة وقومها ولم أذكر بالإنحارة
 مولى إضعا من الديوان لأن الديوان لا زال حتى يوم استخراج هذه النسخة مطبوعاً وأما ما نرى
 في ذلك تعريف الناس بهجر الزمخشري .

إن سرت عن عرسات قومي لم أكن
لأعيرهم من أخذعي تلتنا (١)

ولا يبعد أن نتصور أن الزمخشري كان محسوداً من العلماء ، فقد كان أعلم
فضلاء العجم بالعربية في زمانه وأكثرهم اطلاعا على كتبها وبه ختم فضلائهم
وكان يشعر بهذا وينوه به :

الم تر أني حيثما كنت كعبة يحفون بي كالطوائف طوايفاً
فشرقهم يهوى إلى النور قابسا وغربهم يسهى إلى البحر غارفاً (٢)

ولا يبعد أنهم كادوا له عند نظام الملك وغيره من الأمراء ، فخالوا بيته وبين
نبيل ما يراه أملا له ، وقد هاجم العلماء في مقالته الثالثة والأربعين ، وذكر نفاقهم
أمراء السوء ، وتسخيرهم علم الشريعة لخدمة هؤلاء الأمراء ، وشبههم بالأرقام
اللاسمة ، وهذا التشبيه يوحي بصدق هذا الظن .

وقد ذكر الزمخشري أنه مرض مرضاً شديداً سماه الناهكة ، وأنه عاهد نفسه
فيه إن شئنا إلا يظاً عتية سلطان ، وكأنه كان يشعر أن مدائحهم للوزراء والأمراء
وطلبه العطايا والمناخ ذنب يستغفر منه ، ومحصية تطلب منها التوبة . فبدأ حياة
فيها قدر من القناعة والرضا ، ولعل ذلك راجع إلى تمسكين اليأس منه ، وإلى
أنه شارف الحسين من عمره ، فانسكرت حدة طموح الشباب ، ولمكنه لم يهدأ
هدوءاً كاملاً ، بل كانت تعاوده ثورة نفسه ، وسخطه على مجتمعه حتى رأى الهجرة
إلى مكة واجبة حفاظاً على الدين ، ورغبة في المغفرة فصح عزمه على الرحيل ،
وقد صور ما يجده وما يدفعه إلى الهجرة في قصيدة نظن أنه قالها في هجرته
الأولى .

قامت لتمعني المسير تماضر
أرخى قناعتك ياتماضر وامسحى
أني لها وغرار عزمي يائز
عينيك صابرة فاني صابر

(١) الديوان ورقة ١٣

(٢) الديوان ص ٧٩

وتعرضت دوني فاني عاب
صلب وبعض الناس وخو فاني
إني إلى بطحاء مكة سائر
للكنبة البيت الحرام مجاور
يشكو جرائر بعدهن جرائر
لكنها مثل الجبال كياتر
تر نعمة وهو الكريم القادر
وأحق من يشكو إليه الناظر
يكسو لباس البر من هو فاجر
إني إلى البلد الحرام مسافر
فالله أولى من إليه مهاجر
بالدين دنياه فتم التاجر
عقد التقي وكل بيع خاسر
فلعلني لك يا بقية عامر
فلعلني في بعض خير آخر
فلعلني فيها لكسرى جابر
حتى إذا صدروا فإنا صادر
حتى يحل بي الضريح القابر
لا يطيبني أخوه وعشائر
ويبذل أقصى ما تمنى الزائر
عن كل مفخرة بعد الفاخر
ولسوف ييمتى هناك الحائر
والغيب فيه الحكم سائر
وراء عزم العبد حكم قاهر (٥)

لو أشبهت عبرات عينك لجة
إني لذو جسد كما جسر بتي
سيرى تماضر حيث شئت وحسني
حتى أنيخ وبين أطماري فتي
متعوذ بالركن يدعسو ربه
يشكو جرائر لا يكثرها الحصى
والله أكبر رحمة والله أكبر
وأحق ما يشكو ابن آدم ذنبه
فمسي المليك بفضله وبطوله
يا من يسافر في البلاد منقباً
إن هاجر الإنسان عن أوطانه
وتجارة الأبرار تلك ومن يبع
تالله ما البيع الربيح سوى الذي
خربت هذا العمر غير بقية
وعهدتني في كل شر أولاً
في طاعة الجبار أبذل طاقتي
سأروح بين وفود مكة وافدا
بفناء بيت الله أضرب قبتي
ألقى العصا بين الحطيم وزمزم
ضيف لمولي لا يخجل بضيفه
حسي جسوار الله حسي وحسده
سأقيم ثم وثم تدفن أعظمي
يا ليت شعري والحوادث جمة
والعبد يحرص أن ينفذ عزمه

وتخلص في هذه التصيدة دوافع الهجرة لله ، وللرغبة في رضاه ، والتخلص

من الأخطاء ، وهو منا وأعظ يعظ نفسه ، ويحثها على طالب الدين والثقى ،
ويأسف على عمره الذى مضى والذى خربه بقلقه وطموحه ، وليس في هذه

القصيدة سخط ولا لوم لمن ينتقص حقه ويتجاهل فضله .
ويذكر أنه في مكة كان أسلم قلباً وأصح ديناً ، وأكثر عبادة ، وأحسن
خشوعاً ، واعتبر هجرته إليها قراراً بدينه ، يقول في تفسير قوله تعالى **ويعبادى**
الذين آمنوا إن أرضى واسعة فيأبى فأعبدون ، (٥٦) العنكبوت .

معنى الآية أن المؤمن إذ لم يسئل له العبادة في بلد هو فيه ، ولم يتمش له أمر
دينه كما يجب فليهاجر عنه إلى بلد يقدر أنه فيه أسلم قلباً ، وأصح ديناً ، وأكثر
عبادة ، وأحسن خشوعاً . ولعمري أن البقاع تتفاوت في ذلك التفاوت الكثير ،
ولقد جربنا وجرب أولونا ، فلم نجد فيما درنا وداروا أعون على قهر النفس ،
وعصيان الشهوة ، وأجمع للقلب المتأفت ، وأضمر اللهم المنتشر وأحث على القناعة ،
وأطرد للشيطان ، وأبعد من كثير من الفتن ، وأضبط للأمر الديني في الجملة من
سكنى حرم الله وجوار بيت الله ، فله الحمد على ما سهل من ذلك وقرب وورق
من الصبر وأوزع من الشكر (١) .

وقد قرت بلابله في مكة بلقاء الشريف الفاضل الكامل أبا الحسن علي بن عيسى
ابن حمزة الحسيني ، فعرف قدره ، ورفع أمره ، وأكثر الاستفادة منه ، وأخذ
عن الزمخشري وأخذ الزمخشري عنه ، ونشطه لتصنيف ما صنفت وتأليف
ما ألف (٢) .

وكان علي بن عيسى كما يقول ياقوت شريفاً جليلاً هماماً . من أهل مكة
وشرفاتها وأمراتها ، وكان ذا فضل غزير (٣) وقد أحبه الزمخشري ومدحه
ومدح آباءه :

معالي الورى أرض وهن سماء
خواصرها للخدمة الجوزاء

معاليك والسبع الطيبات سواء
لأبائك الشم الفطارف نطقت

(١) الكشاف ج ٣ ص ٣٦٢ ، ٣٦٣ .
(٢) أنباء الرواة ج ٣ ص ٢٦٨ .
(٣) معجم الأديباء ج ١٤ ص ٨٦ .

كواكب في الدهر بهم طول الع
وأنتم لهم نعم العجيب ولم يزل
ويقول في كرمه ورعايته له :
وكان ابن وهاس الجنبى فارساً
ويقول في صنائعه :

ولولا ابن وهاس وسابغ فضله
رعبت هشياً واستقيت مصرداً

وقد مدحه ابن وهاس ونوره بعلمه وفضله وذكر أنه أبعد صيت خوارزم :
جميع قرى الدنيا سوى القرية التي
تبوأها داراً فداء زمخشري
وأحرى بأن تزهى زمخشر بامرئ

إن عد في أسد الشرى زمخ الشرى
فلولاه ما طن البلاد بذكرها
ولا طار فيها منجداً ومغوراً
فليس ثناها بالعرق وأهله
بأعرف منه بالحجاز وأشهرها

وقد غلبته الفطارة فتشوق إلى أرض بلاده وقال شعراً صادق الحنين ، ذكر
فيه مشاهدته في خوارزم مسقط رأسه، وقد تكون هذه القصيدة من أجود شعره:

مطوقتي نعمان هيجتما قلبي
إلى أرض ميلادي وصوت تكايصبي
على فنتي عود الأراكه نصحها
فأحسنتما من سكب دمع على دمع
تحدّر ماء لو أصاب خبيلة
لركب به من روضها خضرة العشب

وما بي جيحون إذا ما تلاطمت

أواذيه ذات اللجاجة والشعب (٢)

وما زال هذا الحنين يماوده حتى رجع إلى خوارزم ، وأقام فيها زمناً ،

(١) ديوان المقدمة .

(٢) الديوان ورقة ٥ .

ويبدو أنه كان ذا صلة ما بملوك خوارزم وسلاطينها في هذه الفترة فقد مدح محمد خوارزم شاه الذي كان والياً على خوارزم من قبل السلطان سنجر ثم مدح من بعده ابنه أنسر الذي أمر بأن تحرر له نسخة من كتاب مقدمة الأدب وكان يقرب العلماء ويعرف أقدارهم ، ولكن صاحبنا لم يكن طيب المقام فيها ولم تسلم نفسه من داءها القديم ، فقد كتب في هذه المرحلة قصيدة وصف بها أهل خوارزم وصفاً ما نظن أن أرذل طوائف الدنيا توصف بأبلغ منه . ونذكر هنا هذه القصيدة لتقارن بين ما يقوله الزمخشري فيها وما يقوله المؤرخون كالمقدسي الذي يقول فيهم : وهم أهل فقه وعلم وقرائح ، وقل إمام في الفقه والأدب والقرآن لقيته إلا وله تلميذ خوارزمي تقدم وزجا ، ويذكر ياقوت أنه لم يكن في الدنيا لمدينة خوارزم نظير في ملازمة أسباب الشرائع والدين .

يقول الزمخشري :

فما بك غير عصرك من معاب	وذلك لا يرد به المتاع
رزقت بني زمان لم يمسوا	نديا للكرام بها أرضاع
نفائات الأذى من كل طاغ	سموم بات ينفثها الشجاع
سقطت على نويس صغرتهم	طباع أرادل يثس الطباع
فلا بسطوا إلى المعروف كفا	ولا طالت لهم في الخير باع
ترى ما لك أثم ولا إقتماد	لاهل الفضل منه ولا اصطناع
ترى الصنّاج تنفعه يده	وليس لعالم بها انتفاع
هم شر السباع فلا ذئاب	مكحلة الوجوه ولا ضباع
هم ضرر أدها بخير نفع	عليك وربما نفع السباع
وما فوق الأثرى سجن عظيم	كجور حوله قوم رعاع
وكم كررت للمرجى قولا	أضاهوني وأى فتى أضاهوا
أيا ظير الأباطح خبريني	أما تتردني تلك البقاع
مع الزهر الكرام بني لوى	هم للأرض مجدم طلاع
صلاب النبع ما تصبو لمكر	حبا لهم ولا فيهم خداع
أبو الحسن بن ذي المجدين عيسى	على ذلك البطل الشجاع
قناة الدين ركب منه فيها	سنان يستهر به القراع

وهذه نفثة مصدور ومقالة مورتور لأن الحق أن أهل خوارزم ليسوا إذاً
مكلمة ، وليسوا أرقام ، وليس فيهم تلك الخلافة التي تجعل الصنّاع ينتفع بيهم
بيديهم ، وإنما هم قوم محاربون جادون صقلتهم بوارق سيوف الجهاد وصهرتهم
حرارة الحروب الضارية بينهم وبين أهل الشرك ، وأخلصوا في ذلك نياتهم وقد
تكفل الله بنصرهم في عامة الاوقات ، وقد نبغ فيهم العلماء وأهل الفقه والصلاح .
ثم عاوده حنينه إلى مكة ولام نفسه أشد اللوم لأنها ابتاعت بالفوز الشقاوة
واستبدلت الدنيا بالآخرة :

بكاه على أيام مكة أن بي
تذكرت أيامي بها فكانني
أبيت على الصخر المبارك باكياً
ويقول في أخرى .

وأستبدل الدنيا الدنية بالآخرى
على حرم لله استغرتني الذكرى
ودمعا غزير المستق غار المجرى
لداعيه مهواق من المقلّة العبرى
على غير يؤس لا يجوع ولا يعرى
وربك لا عذرا وربك لا عذرا (١)

ولما رجع إلى مكة في هجرته الثانية واستقر به المقام فيها كتب كتاب
الكشاف وكان راضياً عن نفسه شاغلاً قلبه بعبادة ربه متقبلاً بين ربوع مكة
عابداً متقبلاً :

أنا الجار جار الله مكة مركزى
وما كان إلا زورة نهضت إلى
قلما قضت نفسي ولله درها
ومضرب أوتادى ومعقد أطنابى
بلادها أوطان رهطى وأحياب
لبانة دار زندها غير نخباب

(١) الديوان ورقة ٦٨ ، ٦٩ .

(٢) الديوان ورقة ٤١ .

كان أبو شبلين كراي الغاب
فأم القرى ماتي رحالي ومشتابي
فالسكينة البيت المحرم حراب
بمازوم الإبرار من أيمن الباب
على الركن أجناني بسبح وتسكاب
فذلك لهوى ما حبيت وتلعبا (١)

كمرت إلى بطحاء مكة راجعاً
فن يلقى في بعض القرىات وبعلة
ومن كان في بعض الحارث راكماً
إذا التصقت في آخر البيت لبق
أو التصقت بالمستجار أو التقت
فقل لملوك الأرض يلمو ويلعبوا

وقد كاتبه في هجرته هذه رجال من كبار دولة السلطان سنجر، منهم منتخب
الملك أبو جعفر محمد أحد كبار دولة السلطان سنجر، فقد كتب له رسالة وقصيدة
كما يقول القفطي وسيرها إلى مكة، وقد ذكر في القصيدة شوقه إلى الزمخشري وأشار
ونوه به وبعلمه ومدح آباءه، وذكر في القصيدة شوقه إلى الزمخشري وأشار
إلى فضله وعلمه وتمنى عودته إلى خوارزم ليقرأ للناس تفسيره. وكان يشارك
الزمخشري في ثورته على أهل خوارزم وفي شعوره بتقص حقه وتجاهل قدره
فقد قال في قصيدته:

اعينك من أناس نحن فيهم
تري قوماً كأنك ما تراهم
كانهم وما عرفوا بخير
وحق الأفضلين بهم مضاع
وحسبك من لقائهم السماع
بهايم في تجاهلها رناع (٢)

وقد أخذ عن الزمخشري كثرة من طلاب العلم، ذكر منهم صاحب الالساب
أبو المحاسن إسماعيل بن عبد الله الطويل بطبرستان، وأبو المحاسن عبد الرحيم
ابن عبد الله البراز بآبيورد، وأبو عمر عامر بن الحسن السمسار بزمخشري، وقد
ذكر القفطي أنه ابن أخت الزمخشري - وأبو سعد أحمد بن محمود الشناق بسمرقند
وأبو طاهر سامان بن عبد الملك الفقيه بخوارزم (٣).

وذكر ياقوت جماعة أخذوا عن الزمخشري منهم:

محمد بن أبي القاسم بايجوك أبو الفضل البقالي الخوارزمي الأدهمي الملقب زين

(١) الديوان ورقة ٥٠

(٢) أنباه الرواه ج ٢ من ٢٧٢

(٣) الألساب ص ٢٨٨

المشايخ النحوي الأديب، كان إماماً في الأدب وحجة في إنسان العرب (١)، ويعقوب ابن علي بن محمد بن محمد بن جعفر أبو يوسف البلخي، أحد الأئمة في النحو والأدب (٢)، وعلي بن محمد بن علي بن أحمد بن مروان القمري الخوارزمي، يلقب حجة الأفاضل وغير المشايخ (٣).

وذكر السيوطي الموفق بن أحمد بن أبي سعيد إسحاق أبو المؤيد، المعروف بأخطب خوارزم، وكان متمكناً في العربية، غزير العلم، فقيهاً، فاضلاً، أديباً، شاعر (٤).

ولا شك أن من لم يذكره المؤرخون من تلاميذه ومن أقادروا منه أعتاف ما ذكروا فقد كان كعبة طلاب العلم في زمانه، وكانت تشد إليه الرحال في فنونه. يقول القفطي وما دخل بلداً إلا واجتمعوا عليه، وتلعذوا له، واستفادوا منه، وكان علامة الأدب، ونسابة العرب، أقام بخوارزم تضرب إليه أكباد الإبل، وتحط بفنائه. رحال الرجال، وتحمدي باسمه مطايا: الآمال (٥).

وقد أجاز جماعة من العلماء منهم زينب بنت الشعرى التي يقول فيها ابن خلكان، أم المؤيد زينب وتدعى حرة بنت أبي القاسم عبد الرحمن ابن الحسن بن أحمد ابن سهل بن أحمد بن عبدوس الجرجاني الأصل، النيسابوري القاري، المعروف بالشعري، كانت عالمة وأدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم رواية وأجازها... وأجاز لها الحافظ أبو الحسن عبد الغفار بن إسماعيل بن عبد الغفار القاري والعلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٦).

وقد استجازه العلامة رشيد الدين الوطواط وكان من نوادر الزمان ومجايبه وأفراد الدهر وغرائبه... وأعلم الناس بدقائق كلام العرب، وأسرار النحو والأدب (٧).

(١) معجم الأديباء: ج ١٩ ص ٥٠.

(٢) معجم الأديباء: ج ٢٠ ص ٥٥.

(٣) معجم الأديباء: ج ١٥ ص ٦١ وما بعدها.

(٤) بقية الوطواط: ص ٤٠١.

(٥) انباه الرواه: ج ٣ ص ٦٥، ٦٦.

(٦) وفيات الأعيان: ج ٢ ص ٥٢.

(٧) معجم الأديباء: ج ١٩ ص ٢٩.

وقد ذكر ابن خلكان أن الحافظ السلفي كتب إلى الزمخشري لاستجيزه في مسروعاته ومصنفاته ، فرد جوابه بما لا يشفي الغليل ، فلما كان في العام الثاني كتب إليه مع الحجاج استجازه أخرى ، اقترح فيها مقصوده ثم قال في آخرها : ولا يحوج أدام الله توفيقه إلى المراجعة فالمسافة بعيدة وقد كاتبته في السنة الماضية فلم يجب بما يشفي الغليل ، وله في ذلك الأجر الجزيل ، ثم أن الزمخشري كتب إليه يتواضع ويتصاغر ولم يصرح له بالإيجازه ، ولذلك يقول ابن خلكان وما أعلم هل أجازه بعد ذلك أم لا (١) .

والحافظ السلفي الذي رفض الزمخشري إجازته كان كما يقول ابن خلكان ، أحد الحفاظ المكثرين ، رحل في طلب الحديث ، ولقى أعيان المشايخ ، وكان شافعي المذهب ... روى عن أبي محمد جعفر بن السراج وغيره من الأئمة الأماثل ، وجاب البلاد وطاف الآفاق ... وقصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه وانتفعوا به ولم يكن في آخر عمره في عصره مثله (٢) .

• • •

وقد ترك الزمخشري تراثا ضخما في علوم مختلفة ذكر له ياقوت سبعة وأربعين كتابا موزعة بين علوم اللغة والنحو والأدب والتفسير والحديث والفقه والأصول والتراجم والمنطق .

وفي اللغة كتب أساس البلاغة ، وهو مؤلف بعد كتاب الكشاف ، وغرضه منه أن يعين الباحث على تعرف الجهات التي توصل إلى تبين مراسم البلغاء ، والمشور على منازم الفصحاء ، فيكون الناظر في إعجاز القرآن أعرف بأسرارها وإطائفة إلا تلك الإشارات الموجهة إلى المعاني الحقيقية والمجازية ، فن أي وجه يعين الباحث على إدراك الإعجاز حتى يكون صدر يقينه ألمج كما يقول الزمخشري ؟ والجواب أن الزمخشري قد استكثر في هذا الكتاب من نواحي الكلم ، الحادية إلى مرشد حر المنطق ، الدالة على ضالة المنطق الخافي .. فهو يربط بين البيان

(١) وفيات الأعيان ج ٤ ص ٢٥٦ ، ٢٥٧ ينظر

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٨٧

بممارسة هذه الأساليب ، والاطلاع على فنون التراكيب ، وتغيير ما وقع في عبارات المبدعين ، وانطوى تحت استعمالات المفلتين ، وهذه طريقة عملية في التعرف على بلاغة القرآن ، وإدراكها بالذوق المهيأ لهذا الإدراك ، ولذلك نجد كتاب الأساس اتجاها فريداً بين هذه الانجازات التي اتصلت بالإعجاز ، فهو لم يدرس مسائل البلاغة ، ولم يفصل القول في التشبيه والاستعارة والالتفات والطباق ، ولم يتحدث عن وجوه الإعجاز غير البلاغية ، وإنما ابتدع طريقة عملية ، أساسها تربية الملائكة الفنية ، وكانت مادة هذا الكتاب كما يقول خلاصة جهده ، ومطالعته في الكتب ، وسماعه من الإعراب في بواديها ومن خطباء الحلال في نواديها ، ومن قراضبة نجد في أكلاتها ومراتعها ومن سمسرة تهامة في أسواقها وجمامها ، وما ترازجت به السقاة على أفواه قلبها ، وتساجت به الرعاة على شفاة عليها ، وما تقارضت شعراء قيس وتميم في ساعات المماناة ، وما تزامت به سفراء تقيف وهذيل في أيام المفاتنة (١) .

فهو صور من بلاغات الأنفاح ، فيها ربح البادية وإصالة تميزتها ، والقوس على مثلها أقدر على تجلية الطبايع ، وإبراز إصالة معادتها ، وإيقاظ القوى الكامنة فيها .

وله في اللغة مقدمة الأدب ، وبناء على خمسة أقسام : القسم الأول في الأسماء والثاني في الأفعال والثالث في الحروف والرابع في تصرف الأسماء والخامس في تصرف الحروف وقد طبع قسم الأسماء والأفعال في مدينة ليبسك وفي آخره مقدمة وتصحيحات باللغة اللاتينية وهو مخطوط أيضاً بالدار ، ومضبوط بالحركات وبين الأسطر تفسير باللغة الفاسية رقم « ١٠٠ » لغة .

وهناك جزء آخر مخطوط يتضمن قسم الأفعال وقسم الحروف وتعريف الأسماء رقم ٢٧٢ ومنه قطعة ضمن مجموعة تحتوي على الأفعال فقط (٥٨) مجاميع لغة . وهذا الكتاب معجم لغوي من نوع متميز فهو يجمع الأسماء التي تتشابه معانيها مثل وقت أوقات ، حين أحيان ، أجل آجال أو ان آوانه إيان آيايين ، دمر

وهو ، حطب أحقاب ، حطب أحقاب ، وبنه الطريقة يجمع ما يدل على الزمانيه
فيذكر أسماء الشهور ، والفصول ، والحجج ، والأعوام ، والبارحة ، والأشجار
والأصيل ، والأصايل ، والأيام ، والأعيان ، فإذا انتقل إلى جنس آخر وضع
بين يديك فيضامن أسمائه . فيذكر مثلاً السماء ، الأفق ، السكيد ، السحاب ،
النعام ، المزن ، الديمة ، قوس قزح ، المشرق والمشارق والمغرب ، والمغارب ،
والمخافتان ، والحبيكة والحباتك ، والفلك والأفلاك (١) .

ونلاحظ أنه يذكر المعنى المجازي المشهور مع المعاني الحقيقية ، كذكر الكبد
هنا . وفي القسم الخاص بالأفعال لا يجمعها حول المعنى الذي تدور في فلكه كما
كان في الأسماء ، وإنما يرتبها مراعيًا السلامة والإجلال ، والتصنيف ، والثلاثي ،
والرباعي ، وأوزان الجرد ، والمزيد ، وغير ذلك بما لا يترك مجالاً لجمع الأفعال
المتقاربة أو المتناسبة .

فهو يبدأ قسم الأفعال فيذكر باب فعل ، فيذكر هنا الطعام يهنته ويهنتوه
ويهناه ويهنته يهناه هنواً وهنؤا الطعام يهنتو هناه وهناه وهو هنى وهنأ البعير
بالقطران يهنته ثم يذكر ما يليه مرتباً الأفعال على وفق ترتيب حروف المعجم ،
مراعيًا في هذا لام الكلمة ، فيذكر تلب عقب هنا ثم يذكر ألت ثم تلك ثم حلاج
وهكذا . ثم يذكر المضعف فيذكر تب ، ودب ، وشب ، ثم المعتل ألفاء بالواو
فيذكر وثب ، وجب ، إلى آخره ثم المعتل ألفاء بالياء ، فيذكر يسر ، ويعرت
الماعرة تمر ، ثم يذكر المعتل العين فيذكر جاء ، فاء ، آب ، إلى آخره .

وفي قسم الحروف يذكر الحروف الجارة ، والتي تنصب المبتدأ وترفع
الخبر ، ويذكر بعض أحكامها ، كما يذكر ما ولا ، ويبين أن ما بمعنى ليس
تدخل على المعرفة والنكرة ، ولا بمعنى ليس لا يدخل إلا على النسكرة ، ثم يذكر
حروفاً تنصب المضارع ، وحروفاً تجزم المضارع ، وحروف العطف ، وحروفاً
غير عاملة ... إلى آخره والكتاب بهذه الدروس يدخل بعضه في قسم النحو أي
هو كتاب نحو وثقة .

وألف في اللغة كتاب الأجناس وكتاب جواهر اللغة وكتاب صميم العربية وهي كتب غير معروفة .

وأشهر كتبه في النحو كتاب المفصل الذي شرحه ابن يعيش ، وهو من أعظم الكتب النحوية الموجودة بين أيدينا ، وللزحشري حاشية عليه ، وهي غير معروفة . وقد جمع في هذا الكتاب أصول هذا العلم كما يقول شارحه ابن يعيش .

وقد ذكر ابن خلكان أن الزحشري شرع في تأليفه في غرة شهر رمضان^(١) سنة ثلاث عشرة وخمسة ، وفرغ منه في غرة المحرم سنة خمس عشرة وخمسة ، وقد أشار الزحشري في مقدمته إلى موقف الشعوبية من العربية ونحوها ، وحدد الله لأنه عصمه من الانطواء إلى لفيفهم ، ثم أشار إلى أهمية الدراسة النحوية في كل علم من العلوم الإسلامية كالفقه وأصوله والتفسير ، ثم أشار إلى أهمية هذه اللغة في بيئه هؤلاء الشعوبيين ، فهي لغة الساسة والكتاب والعلماء ، وبعد مأسفه وجهتهم أشار إلى مادفعه إلى تأليفه فقال :

ولقد ندبني ما بالمسلمين من الأرب إلى معرفة كلام العرب ، وما بي من الشفقة والحذب على أشياعي من حفدة الأدب لإنشاء كتاب في الإعراب يحيط بكافة الأبواب ، مرتب ترتيباً يبلغ بهم الأمر البعيد بأقرب السعي ، ويملا سجالهم بأهون السقي . فأنشأت هذا الكتاب^(٢) .

أما ترتيب مسأله وأبوابه فقد بينه بقوله : أنه قسمه إلى أربعة أقسام : القسم الأول في الأسماء ، والقسم الثاني في الأفعال ، والقسم الثالث في الحروف ، والقسم الرابع في المشترك .

وله في النحو كتاب الأنموذج ، وهو اختصار شديد لقواعد النحو وأصوله ، وحين تقارن كتاب الأنموذج بكتاب المفصل نجد الكتابين يسيران على نهج واحد ، وإن كان الأنموذج أكثر تركيزاً وأشد إيجازاً فهو يرمي إلى مسائل النحو لإيمان وكأنه متن ضيق لأصول هذا العلم ، فباب التمييز لا يزيد فيه عن أن

(١) وفيات الأعيان : ج ٤ ، ص ٧٥٥ .

(٢) مقدمة الفصل .

يقول والتعريف هو رفع الإبهام عن الجملة في قولك عندي (١)، راقود نحرأ ،
ومتوان سناً ، وعشرون درهما ، وملوؤه عسلاً ، وفي كتاب المفصل يذكر هذه
الأصول مع شيء من الشرح والتحليل لا يخرج به الكتاب عن أن يكون
في هداد المتون .

وما هو جدير بالملاحظة أن ترتيب الأنموذج كما قلت يسير على وفق
ترتيب المفصل الذي أشرنا إلى أنه رتبته على أقسام أربعة ، الأسماء ، والأفعال ،
والحروف ، والمشارك ، وهذا الترتيب شبيه بما دار عليه كتاب مقدمة الأدب
وقد ذكرنا أنه خمسة أقسام : قسم في الأسماء وقسم في الأفعال وقسم في الحروف ،
وفي هذا تتفق الكتب الثلاثة ، ولا شك أن المادة العلمية مختلفة ، فدراسة الأسماء
في كتاب النحو تعنى النظر في التعريف ، والتنكير ، واسم الجنس ، والعام الشخصي
والعلم الجنسي ، والمغرب والمبني ، ويجر هذا إلى الرفع ، والنصب ، والجر ،
ويجر هذا إلى الفاعل ، والمبتدأ ، وما في هذه الأبواب من أحكام نحوية ، إلى
آخره ، وقد رأينا دراسة الأسماء في كتاب مقدمة الأدب تعنى جمع الأسماء التي تدل
على معان متقاربة في حيز واحد ومرتببة ترتيباً معيناً .

وله في النحو شرح شواهد كتاب سيبويه وهو غير معروف ، وله الحاجة
في المسائل النحويّة وقد ألفه في مكة وأهداه إلى أميرها ابن وهاس (٢) .

وله كتاب المفرد والمؤلف ، وضمن لمن يضبط هذا الكتاب أن يضرب
مع العربيين بسهم وافر ، وأهداه إلى أهل مكة (٣) .

وله آمالي في النحو وهي غير معروفة ، وإعراب غريب القرآن وهو غير
معروف ، وله في العروض كتاب القسطاس وهو مخطوط ببرلين .

وله في المادة الأدبية كتاب المستقصى في الأمثال ، وقد طبع حديثاً بجهد راباد
اله كن بالهند ، وقد أشار في مقدمته إلى القيمة الأدبية لهذا النوع من الأدب

(١) الغبر وزج لمرح الأنموذج من ٢٧ .
(٢) تنظر المقدمة ط . العراق .
(٣) تنظر مقدمة المخطوط في الدار .

ويبين أن الأمثال قصارى فصاحة العرب العرباء ، وجوامع كلامها ، ونوادير حكمها ، وبيضة منطقتها ، وزبدة حوارها وبلاغتها التي أعربت بها عن الفرائح السليمة ثم أشار إلى خصائصها في الإيجاز والتركيز ، وإن العرب فيها أوجزت اللفظ فأشبهت المعنى ، وقصرت العبارة فأطالت المعنى ، ولوحت فأغرقت في التصريح وكنت فأغنت عن الإفصاح (١) .

ويشير ياقوت إلى حادثة طريفة بين الزمخشري والميداني صاحب الأمثال ، ذكر فيها أن الزمخشري لما وقف على كتاب الأمثال حسد صاحبه على جودة تصنيفه فأخذ القلم وزاد في لفظ الميداني نونا فصار المنيداني ، ومعناه بالفارسية لا يعرف شيئاً ، فلما وقف الميداني على ذلك أخذ بعض تصانيف الزمخشري فصير ميم لسببه نونا ، فصار الزمخشري ومعناه : مشتري زوجته . وأرجح أن كتاب المستقصى كتب بعد كتاب الميداني لأن الزمخشري أشار في مقدمة كتابه على غير عادته في كتبه - إن العالم المنصف سوف يرتضى هذا الكتاب غير ناظر إلى حدوث عهده وقرب ميلاده ، لأنه إنما يستجيد الشيء ويستردله لجودته وردائه في ذاته لا لقدمه وحدوثه ، أما ما ذكر من أن الزمخشري ندم على كتابة كتاب المستقصى لما اطلع على كتاب الميداني فذلك ما أظنه من وضع تلاميذ الميداني ، وكتاب المستقصى أدق منهجاً وأبسط شرحاً وأسلم من التكرار من كتاب الميداني . وقد أشار الزمخشري إلى منهجه بقوله ثم وبطلتها في قرن ترتيب حروف المعجم ارتباطاً جنحت فيه إلى وطأة منهاج أبين من عمود الصبح غير متجانف للتطويل عن الإيجاز وذلك أني بويتها فأوردت ما في أوله همزة ، ثم قضيت على أمره بما في أوله الباء ، وهلم جرا إلى منتهى أبواب الكتاب ، وفصلت كل باب ، ثم ذكر أنه عني في شرح الأمثال بإيراد قصصها وذكر النكت والروايات فيها ، والكشف عن معانيها ، والأنباء عن مضاربيها ، والنقاط أبيات الشواهد لها ، وبذلك تتضح القيمة الأدبية لهذا الكتاب ، وأمره في تربية الملكة الأدبية بكثرة شواهد وجدة أساليبه .

وله في شرح النصوص الأدبية كتاب أعجب العجب في شرح لامية العرب ،

وهو دراسة نحوية لهذه التصيصة ، وتتميز هذه الدراسة بالإسهاب والإطالة والاستطراد في ذكر المسائل النحوية والصرفية المتشابهة . يقول في قول الشنفرى :

أقيموا بنى أمى صدور مطيكم . . . قانى إلى قوم سواكم لأميل .

أصل أقيموا أقوموا وما ضيه أقام ، وعينه واو لقولك فيه أقوم ، فاستثقلت الكسرة على الواو فنقلت إلى القاف ، فنقلت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ، وهو فعل أمر مبنى فى الأصل على السكون وما يبنى منه على حركة فعله أوجبت بناءه عليها ، وذهب قوم إلى أنه معرب بالجزم ، وانفقوا على أن فعل الأمر للغائب نحو ليقم وليذهب مجزوم باللام الداخلة عليه ، فهو معرب اتفاقاً ودليل البناء أن الأصل فى الأفعال البناء فى محكوم عليها به إلى أن يقوم دليل أعراب شئ منها فيكون إخراجاً لها عن أصلها ، ولم يعرب منها سوى المضارع لشبهه بالإسم ، وهو ما كان فى أوله إحدى الزوائد الأربع فيحكم عليه بالإعراب ما دام وصف المضارعة باقياً وذلك إذا كانت زائدة من الزوائد الأربع موجودة فى أوله ، فبنى زابله زال شبهه بالإسم فيعود إلى أصله من البناء أيضاً ، فإنه لا يمحتمل معانى يفرق الإعراب بينها والإعراب فى الأصل إنما جاء لهذا عند المحققين ، وقال الآخرون ما فيه اللام معرب فيعرب ما لا لام فيه لتقدير اللام كما قيل محمد تغد نفسك أى تغد نفسك ، وحرف المضارعة أيضاً مقدر كالمثال المذكور ولا تعويل على هذا القول فإن الحذف من الشئ لا يوجب تغيير الصيغة بل يحذف ما يحذف ويبقى ما يبقى بعد الحذف على حاله كقولك ارم فإن الأصل إثبات الياء وبعد حذفها بقى ما كان على ما كان ، وهذا مفهوم فى فعل الأمر ، ألا ترى أنك إذا حذفته الفاء من تضرب لا تقول تضرب زيد بل تعدل إلى صيغة أخرى هو تضرب ، وأما البيت فالأصل تغدى على الخبر ، وإنما حذفته الياء للضرورة (١) .

وواضح أن هذا كله يدور حول كلمة أقيموا فى البيت فإذا انتقل إلى الكلمة التى تليها ناقشها بهذه الطريقة المستفيضة ، وهذه الدراسة النحوية إذا قورنت بما كتبه فى النحو كالمفصل والآنموذج ظهر بينهما فرق كبير يتمثل فى الإيجاز

والاختصار الذي مال إليه في تأليف كتب النحو، والإطالة والإسهاب،
والاستطراد، في هذه الدراسة النحوية للأساليب الأدبية.

وكان معترفاً بهذا اللون من الدرس، يقول في مقدمة هذه الدراسة هذه
نكتة قذفها خواطر خاطري، وفائدة جرتها نواظر ناظري، وعقد توسط بين
درر الجواهر، وروض تبسم بين الزهور النواضر، وسبك لم ينسج على منواله،
فيقال قد سبق إليه، وزركش قد نظم بين اليواقيت فكل عالم يعرج إليه، غاص
لها الخاطر في بحر الأفكار فاستخرج دررها، وتاه الناظر في بكر الأفعال
فاستحضر صورها، من كل غريبة كل حديد النظر عن تقررها ومل مزيد الفكر
عن تدبرها (١).

وهذا يفيدنا أن هذا النوع من الدراسة كان الرعشى أبا عدرته، وفارس
حلبته، وقد اهتمت كلية اللغة العربية بهذا اللون من الدرس النحوي لتقرر في
نفوس أبنائها أصول النحو ومسائله بهذه الطريقة العلمية المستفيضة حيث تجتمع
لهم أشنات من المسائل النحوية في موضوع واحد، وقد نهض أساتذنا بهذا
الدرس فكتبوا كتباً نافعة نهجوا فيها منهج الرعشى في شرح هذه اللامية وإن
اختلفت النصوص التي دار درسم حولها.

ومن خير ما كتبه في المادة الأدبية كتاب ربيع الأبرار ونصوص الأخيار
وهو روايات عن الحكماء والأدباء في فنون مختلفة، ولذلك تردد فيه أعلام
الحكماء والفلاسفة ومشاهير الرجال، من الأدباء والشعراء والحكام، من العرب
واليونان، مثل أفلاطون، وسقراط، وجالينوس، والإسكندر، ويحيى بن
أكرم، وإبراهيم بن المهدي، وعمرو بن عبيد، وخالد بن صفوان، وقتيبة بن
مسلم الباهلي، ومعاوية البرمكي، والمهدي، وزبيدة بنت جعفر، وأبو سفيان،
وفيه روايات طريفة وآراء عجيبة.

فمن ذلك ما يحكيه في الشعر والخطابة يقول:

أطال خطيب بين يدي الإسكندر فقال : ليس تحسن الخطبة بحسب طاقة
الخطاب ولكن على حسب طاقة السامع . . . أعرابي نحن أمراء الكلام فبنا رنخنا
أمرأه ولنا تمطفت أعضائه ، وعلينا تهدلت ثماره ، فنجنى منه ما أحلولى وعذب
واترك منه ما ملح وخيث .

وسمع خالد بن صفوان مكثراً يتكلم فقال : يا هذا ليست البلاغة بخفة اللسان ،
ولا بكثرة الهذيان ، ولكنها أصابة المعنى والقصد إلى الحجة . . . وسمع الرشيد
أولاده يتعاطون الغريب في محاورتهم فقال : لا تحملوا السننكم على الوحش
من الكلام ولا تعودوها الغريب المستبشع ، ولا السفاسف المتصنع ،
واعتمدوا سهولة الكلام ، وما ارتفع عن طبقات العامة ، وانخفض عن درجة
المتشدين . . . عرضت على المتوكل جارية شاعرة فسأل أبو العيناء أن يستجيزها
فقال : أحمد الله كثيراً ، فقالت : حين أنشاك ضريراً فقال : يا أمير المؤمنين
قد أحسنت في إسمائها .

قال بعض الشعراء لزبيدة ابنة جعفر : طوبى لزايرك المثاب ، تعطين من
رجليك ما تعطى الأكف من الرعاب ، فتبادر العبيد ليقعوا به ، فقالت زبيدة
كفوا عنه ، فإنه لم يرد إلا خيراً فأخطأ . ومن أراد خيراً وأخطأ خير عن أراد
شراً فأصاب ، سمع الناس يقولون قفاك خير من وجه غيرك ، وشمالك أندى من
يمين سواك . فقدر أن هذا مثل ذلك ، أعطوه ما أمل وعرفوه ما جهل (١) .

وبما قاله في فصل الحكمة :

أفلاطون : ليس كل إنسان بإنسان إلا من كان في أدبه وعلمه إنساناً . . .

بطليموس الثاني : خذ الدر من البحر ، والذهب من الحجر ، والسمك من
القارة ، والحكمة من قائلها .

أرسطاليس : الحكمة سلم الملوفن هدمها عدم القرب من ربه .

(١) دبيع الأبرار صفحات ٣٥٢ ، ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

جاليينوس وسقراط: قال جاليينوس لسقراط لم لا تدون حكمتك في الدفاتر؟ فقال: ما أوثقك بجلود البهائم الميتة، وأشد تهمتك للجواهر الحية: كيف وجوت العلم من معدن الجهل ويئست من عنصر العقل؟ (١) وقد طبع هذا الكتاب واختصر (٢) وقد أشار الزمخشري إلى أنه كتبه ترويحاً للقلوب المتعبة بإحالة الفكر في استخراج ودائع ما في كتاب الكشاف.

وله في الأدب الإنشائي نوابغ الكلام وهو مطبوع وله شروح لشدة إيجازه وتركيزه ومن أشهر شروحه شرح العلامة سعد الدين التفتازاني . وقد طبع هذا الشرح في استانبول والقاهرة وبيروت، وقد شرحه أيضاً أبو الحسن بن عبد الوهاب المتوفى سنة ٧٠١ و طبع شرحه في كلستان سنة ١٣١٤ .

ومن قول الزمخشري فيه: ليس يسود النقار ما أسود القار، أم الزائر نور وأم النابح ثور . . . إذا قلت الأنصار قلت الأبرار . . . رب صدقة من بين فكيك خير من صدقة من بين كفيك .

وله كتاب المقامات وهي مجموعة من النصائح والحكم، وجه كثيراً منها إلى نفسه، وقد كتبها بعد مرضه الناهكة، وفي جواره في مكة، ويصدر كل مقالة منها بقوله يا أبا القاسم، وقد شرحها شرحاً مستفيضاً ذكر فيه كثيراً من الإشارات النحوية واللغوية والبلاغية، وهو كتاب متداول ومشهور .

وله كتاب أطواق الذهب وقد يسمى النصائح الصغار وهو مائة مقالة، وقد أشأها بمكة وتقرّب بها إلى الله، وضرع إليه أن يفيض عليها من البركة والقبول وأن يحفظ فيها ما أوجب للجار من حق الزمام والزمارة، لأنها وجدت في حرمك المطهر ٣ .

وله فيه نظرات وفتايات منها ما وجهه إلى الحكام والولاة، كقوله في المقالة

(١) ربيع الأبرار من ٢٤٧، ٢٤٩ .
(٢) طبع ربيع الأبرار في القاهرة سنة ١٢٩٢ و طبع مختصراً في دمشق والأخبار لمحمد ابن الخطيب المتوفى سنة ٩٤٠ ببولاق ودمشق الميمنية .
(٣) أطواق الذهب من ٤ طبعة بيروت .

الثانية والثلاثين لا أحدثك عن بلد الثوم ذلك بلد الوالي الثوم ، أدوس من حوافر الخيول ، وأحطم من جواحف السيول (١).

ومنها ما وجهه إلى الفلاسفة ، ويذكر أن الفيلسوف عند نفسه المهذب ، وعند عبادة الله المكذب وبنار الله المعذب (٢).

وذكر علماء السوء الذين جمعوا عرائم الشرع ودونوها ، وروخصوا فيها لأمراء السوء وهونوها (٣) .

ويذكر العلماء الخاشعين الماشين على سبيل محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه . في أفواههم بيض بوتر على رقاب المبطلين ، وفي أيديهم سمر عوائر في ثغر المبطلين (٤) ويشور على قضاة زمانه ، فالقاضي تعمل فيه الرشوة مالا تعمل في الشارب الذشوة ، أن أخته فسكران ميلا وطربا ، وإن فاته فشكلان ويلا وحربا (٥).

ويشير إلى الكذب في العبادة والرياء وفي الدعاء والبكاء ثم يقول وأعلم أن أكثر الأمور عموه ، ظاهره جميل وباطنه مشوه ، فاستمد بالله من سوء ما أنت راء ، فإن الدنيا كل يوم إلى وراء (٦) .

وله في الأدب الإنشائي ديوان شعر مخطوط ، وقد تقدم كثير من نصوصه وكان شعره كسحر النجاة كما يقول ياقوت .

وله القصيدة البعوضية ، وأخرى في مسائل الفزالي ، وهي مخطوطة ببرلين ، وله نزهة المستأنس مخطوط في أيا صوفيا .

وديوان الرسائل ، وديوان خطب ، وديوان التمثيل ، وتسليية الضرير ، ورسالة الأسرار ، والرسالة الناصحة ، وسوائر الامثال ، ورسالة المسألة ، وكلها خير معروفة ، وله في القراءات القرآنية كتاب الكشف ، ولم يذكره ياقوت ، وهو

- (١) أطواق الذهب من ٣٥ .
- (٢) أطواق من ١٨٠ .
- (٣) أطواق الذهب من ٣٣ .
- (٤) أطواق الذهب من ٣٦ .
- (٥) أطواق الذهب ٣٠ .
- (٦) أطواق الذهب من ٥١ .

مخطوط بالمدينة كما ذكر في دائرة المعارف ، وعقل الكل وهو غير معروف ،
وكتاب الجبال والامكنة ، وهو مطبوع ، يذكر أسماء الجبال وما يتعلق
بها من أخبار أدبية ، وقد رتبها ترتيباً هجائياً يبدأ بما أوله همزة وقد ترجم إلى
اللاتينية .

وله مختصر الموافقة بين أهل البيت والصحابة والاصل الذي اختصره الزمخشري
لأبي سعيد الرازي إسماعيل كما ذكر ياقوت وهو موجود في التيدورية .
وله خصائص العشرة الكرام البررة طبع بالعراق .

وله متشابه أسماء الرواة غير معروف ، وله كتاب الرائض في الفرائض ،
وهو غير معروف ، وكتاب معجم الحدود وهو غير معروف وله ضالة الناشد ،
وكتاب المنهاج في الأصول ، وله رؤوس المسائل ، وشقائق النعمان في حقائق
النعمان ، والأسماء في اللغة وشافي العي من كلام الشافعي ، وكلها غير معروفة .

ثم أن له كتاباً في الحديث هو الفائق وآخر في التفسير هو الكشاف وهما من
أشهر ما كتب . وقد فرغ من كتاب الفائق سنة ست هجرة وخمسة و قد طبع
مراراً . وقد ذكر في مقدمته أن الله فتح لسان النبي بالعربية وأجرأها في
أعراقهم ، فلست تحمد شعباً من شعوبهم ، ولا قبيلة من قبائلهم ، ولا عمارة من
عمائرهم ، ولا بطناً من بطونهم ، ولا فخذاً من أفخاذهم ، ولا فصيلة من فصائلهم ،
إلا وفيها شاعر مفاق ، وخطيب مصقع ، ثم أن البيان العربي كأن الله عزت قدرته
مخضه وألقى زبدته على لسان محمد عليه وآله أفضل صلاة وأوفر سلام .

ثم يبين أن العلماء قد كتبوا ما غرض من ألفاظه واستبهم كتباً تأتقوا في
تصنيفها وجودها ، ثم أشار إلى أن الذي دفعه إلى الكتابة في هذا الموضوع
هو رغبته في أن يكون له ذكر في هذا الباب الذي صبح به يده وعاني فيه وكده
ثم رجا أن يكون ذلك في موازينه .

وقد ذكر الأحاديث الغريبة مرتبة على وفق ترتيب حروف المعجم ناظراً
في ذلك إلى الألفاظ الغريبة الواردة في الحديث ، وبهذا يكون الزمخشري
قد رتب كتاب أساس البلاغة ؛ ومقدمة الأدب ، والمستقصى ، والجبال

والإحكمة ، وغريب الحديث ، على وفق حروف المعجم ، وهي طريقة سهلة تيسر
للطالب الغاية .

لتفسير الكشاف

والتفسير كما يتصوره الزمخشري باب من أبواب المعارف العليا التي لا ينهض
بها من الخاصة إلا أوحدم لأنه في حقيقته ملح لمحاسن النكت ودرك لطائف
المعاني وبصر بغوامض الأمرار .

وقد قرر الزمخشري ضرورة توافر أوصاف هامة في المفسر بعضها يرجع
إلى فطرته وجبته وبعضها يحصل بالكسب والدأب ،

فالصفات التي ترجع إلى الفطرة تدور حول الطبع المسترسل والقرينة الوفاة
والنفس اليقظي ، فلا يكون المفسر جاسياً ولا غليظاً جافياً ، (١) .

ويجب أن تكون له قدرة على إبداع القول الجيد يعرف كيف يرتب
الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويوصف ، (٢) .

أما الصفات المحصلة بالكسب والدأب فهي طول الممارسة وإدمان المعاشرة
لعلوم اللغة والآداب والفقهاء في أسرارها وأثرها بأساليبها .

ويخص الزمخشري علمي المعاني والبيان وينبه إلى ضرورة التمهّل في ارتيادها
والتعب في التنقيح عنها .

ثم بعد ذلك على المتصدى للتفسير أن يحصل قدرأ صالحاً من كل علم وخصوصاً
علوم الفقه والأصول والعقائد والتاريخ لتخصّب بذلك ثقافة المفسر وتوسع
مداركه ويجب أن تكون الإحاطة بهذه المعارف إحاطة وعى وبصر وفهم ، وأن
تكون معرفتها معرفة تحقيق وتمثل ، وبهذا تكون هذه الثقافات جزءاً من تكوين
المفسر وقطعة من نفسه وعقله ، فليست هناك فائدة للمعرفة الغامضة ، ولا للمعرفة
السطحية التي لاتأج العقل والقلب .

(١) مقدمة تفسير الكشاف .

(٢) المرجع السابق .

وهذا الرصيد الثقافي والنفسي يستطيع المفسر أن يضيء جواب النص ، وأن يذبه إلى لطائفه .

وحين نرجع إلى كتب النقد الحديثة لا نجد ما توصي بتثقيف الناقد بأكثر مما أجمله الزمخشري في هذه الرصايا .

وقد أخذ نفسه بهذه الثقافة وأعد لها للتفسير هذه الأدوات ، ولذلك لم يكتب في هذا العلم إلا بعد اكتتاله ونضجه وهذا التراث الضخم الذي أشرنا إليها شاهد صدق على ذلك .

وقد حاول الزمخشري قبل أن يكتب هذا التفسير الكامل أن يسود صحفاً في هذا الباب يراها مثلاً يحتذى في التفسير ولم يكن يقدر أنه سيكتب تفسيراً كاملاً . وكانت هذه الصحف كأنها موسوعة قرآنية طال فيها القول وتشعبت فنونه ودارت حول سورة الفاتحة وبعض من سورة البقرة ، وقد وصف الزمخشري هذه الصحف بأنها مبسطة كثيرة . السؤال والجواب طويلة الذبول والأذئاب . وقد أراد بهذا البسط وهذا الطول أن يذبه إلى ما يحتويه النص القرآني الكريم من علوم زاخرة وآداب جمه ومعارف عالية ، ولكنه رجح فأدرك أن البيئة الفكرية في زمانه لا تطيق هذه الموسوعة وأنها تحتاج إلى تفسير موجز يعينهم على فهم مذهبهم من القرآن الكريم فكتب تفسيره الذي بين أيدينا .

والزمخشري يتهم في مقدمته أهل زمانه بالعجز عن فهم علم التفسير في أبسط صورته وهم أشد عجزاً عن فهم التفسير المؤسس على علوم دقيقة كعلمي المعاني والبيان فإذا كان الزمخشري يكتب لشيعته من أهل العدل فكأنهم هم المخصوصون بهذه التهمة . وليس هذا فإن الزمخشري كان قلقاً في خوارجهم كما قدمنا . وكان يهجو أهلها ويقالظ في الهجاء ، وجميعهم من المعتزلة وقد شكوا الإمام عبد القاهر قبله من عجز هذه البيئة عن تذوق أسرار البيان العربي . ونرى أن ازدهار البحوث البلاغية في هذه البيئة الأجمية يحتاج إلى دراسة جديدة وتفسير جديد ولا تكفي في بيانه مقالة ابن خلدون الشهيرة ، والتي ردها الباحثون في هذا العصر ، وليس المجال هنا مجال مناقشة واستقصاء في هذه المسألة .

والمهم في قضيتنا أننا نفهم من وصف الزمخشري لأهل زمانه بالعجز عن استيعاب التفسير المؤسس على على المعاني والبيان أنه لم يودع في تفسيره كل ما يراه من نكت ولطائف ولم يتكلم عن بلاغة القرآن كما كان يستطيع أن يتكلم لأنه من غير شك نظر إلى جمهرة القراء الذين كتب لهم هذا التفسير .

وبهذا يكون الزمخشري الذي نراه أكبر دارس لبلاغة القرآن داعياً إلى ضرورة متابعة البحث في هذه البلاغة فاتحاً باب الاجتهاد في هذا الموضوع . وقد كتب هذا التفسير في أحضان الشيعة وفي رعاية الأمير الشريف الحسن على ابن وهاس وهو شريف حسنى من مقدمى الشيعة ووجهاتهم وكان مشاركاً في العلوم والآداب وقد رغب إلى الزمخشري أن يكتب هذا التفسير ، وبهذا يكون هذا التفسير ثمرة من ثمار لقاء الشيعة والمعتزلة ، ولكنه ليس تفسيراً شيعياً وليس تصويراً لمعتقداتهم الخاصة وإن كان لا يخلو من الدعوة لهم والتشهير بنفى أمية ، ونشير هنا إلى أن تراث المعتزلة بعد المتوكل لا يخلو من هذا الولاء الشيعى ، فقد حالف المعتزلة الشيعة بعد هذا التسلط المحموم الذى وقع عليهم بعد توليته في سنة ٢٣٢ هـ ، وكان الفريقان يلقبان عنتاً واضطهاداً في بعض الأقطار الإسلامية ، وكانوا يخفون مذهبهم أحياناً ، وقد تشدد أهل الأندلس في اضطهادهم فكانوا إذا وقفوا على معتزلى أو شيعى ربما قتلوه ، كما يقول المقدسى (١) .

وقد ذاع كتاب الكشاف وصاح صيته في شرق العالم الإسلامى وغربه واهتم به المثقفون اهتماماً يكاد يكون منفرداً في كتب اللغة والآداب والتفسير . فنزع منه أهل السنة والجماعة وشرعوا أفلامهم لمناقشته والرد على مسائل الاعتزال وبدعه كما يمتقدون وهم مقدرين أن الزمخشري معتزلى خطير المسكافة في العلم والعقيدة وأنه قادر على أن يدس البدع فى كلامه الحسن الفصيح . وقد بالغوا في معارضته حتى دعوا الناس إلى مقاطعة هذا الكتاب وأرهبهم بسياطة العقيدة وأجازوا للعلماء المتمكنين فى أحوال الدين والذين أحكوا عقائد أهل السنة واقتدروا على الإحاطة بفن البيان أجازوا لهذه الفئة المثقفة أن تطلع على كتاب الكشاف،

(١) ينظر أحسن التلخيص ص ٢٢٦ .

أما عامة المثقفين وبقية المسلمين فالأولى بهم محاماة هذا التفسير حتى لا يقع الزيف في عقائدهم . وهذا هو الوصف العام لموقف أهل السنة والجماعة ، وبأنه تاج الدين السبكي الأشعري بقوله والقول عندنا فيه أنه لا ينبغي أن يسمح بالنظر فيه إلا لمن صار على منهاج السنة لا تزحزحه شبهات القدرية . (١)

وكانوا مع هذه المعارضة القوية يشهدون للزمخشري بطول الباع ونفاذ البصر والتبحر في جميع العلوم وتميزه بلطائف المحاوره ونفائس المحاضرة ، وكان مناقشه الالاد أحمد بن المنير كثير الثناء على علمه باللغة والأدب ويصفه بأنه خريت الأساليب أى دليلها الحاذق . وقد أدرك ابن خلدون وكان عدواً للاعتزال القيمة الأدبية لهذا التفسير فدعا من تمكنت أداته من علوم العقيدة والشريعة إلى النظر فيه ليفيد منه رأياً عميقاً في الإعجاز الأدبي بشرط أن يكون حذراً على معتقده لأن الزمخشري يأتي بالحجج على مذاهب المعتزلة الفاسدة ويؤيد هذه البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة (٢) .

والدراسات التي دارت حول الكشف تختلف غاياتها واهتماماتها فمنها ما يهتم بالدراسة البلاغية وتحرير الرأي فيها ومنها ما يهتم بمسائل الاعتزال ويرصدها فيما يكتب ومنها ما يوضح وينقح ومنها ما يختصر أو يستشكل ، ومنها ما يهتم بشرح شواهد ، ومنها ما يهتم بتخريج أحاديثه ، وقد ذكر صاحب كشف الظنون فيضا من هذه الدراسات نرى من الخير أن نشير إلى شيء منها ليدرك القارئ عناية الأسلاف بهذا الكتاب العظيم .

فقد كتب العلامة قطب الدين محمود بن محمد التتحناني الرازي المتوفى سنة ٧٦٦ حاشية على الكشف والحاشية مخطوطة بدار الكتب رقم ٢٥٢ تفسير وقد أورد عليه العلامة جمال الدين محمد بن محمد الأفسرائي اعتراضات . وقد أجاب عن هذه الاعتراضات العلامة عبد الكريم بن عبد الجبار وسعى أجوبته المحاكمات ، وقد اطلمت على هذه المحاكمات بدار الكتب مخطوط رقم ٢٤١ ومنها تبينت اعتراضات

(١) معيد النعم ومبيد النعم للسبكي ص ١١٥ .

(٢) نظر مقدمة ابن خلدون ص ٥٠٨ .

العلامة جمال الدين، وقد ذكر عرب زاده في حاشية الشقاشق أن ابن سمادة أجاب عن هذه النما كات .

وكتب العلامة عماد الدين يحيى بن قاسم العلوي المعروف بالفاضل اليمنى حاشية سماها درر الاصداف من حواشي الكشاف والحاشية مخطوطة بالدار رقم ٥٣ ثم كتب هو نفسه حاشية أخرى بعد فراغه من هذه الحاشية سماها تحفة الاشراف في كشف غوامض الكشاف والحاشية مخطوطة بالدار رقم ٧٨٣ وقد شرح خطبة الكشاف العلامة مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز بادي الشيرازي المتوفى سنة ٨١٧ وسمى شرحه قطبه الخشاف لحل خطبة الكشاف ثم كتب شرحا آخر لهذه الخطبة سماه نغمة الرشاف من خطبة الكشاف .

ومن اختصروا الكشاف العلامة قطب الدين محمود بن مسعود الشيرازي وقد سمي تلخيصه تقريب التفسير وقد أنه في التاسع من شوال سنة ٦٩٨ والكتاب مخطوط بدار الكتب رقم ٦٧ .

ومن خرج أحادية الإمام المحدث جمال الدين عبدالله بن يوسف الزيلعي الحنفي المتوفى سنة ٧٦٢ ، وهناك مخطوط اشرح أبيات المفصل والكشاف لم يعلم مؤلفه والمخطوط رقم ٦٠ بدار الكتب .

وأشير هنا إلى أشهر من ناقشوه في ميدان البلاغة والنحو والاعتزال أعنى أصحاب الشروح التي عنيت بهذه العلوم أكثر مما عنيت بغيرها مما يتضمنه هذا التفسير العظيم .

ففي مقدمة من عنوا بالبحث البلاغي العلامة شرف الدين حسن بن محمد العلي المتوفى سنة ٧٤٣ فقد كتب حاشية على الكشاف سماها فتوح الغيب في الكشاف عن قناع الريب في ست مجلدات ضخمة قال فيها رأيت النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قبيل الشروع ناولني قدحاً من اللبن وأشار إليه فأصبت منه ثم ناولته عليه الصلاة والسلام فأصاب منها : والحاشية موجودة ومصورة بدار الكتب رقم ١٤٥ .

وقد كتب العلامة سمد الدين التفتازاني حاشية على الكشاف ، وهي مخطوطة في مكتبة الأزهر رقم ١٨٠٤ وقد ذكر صاحب كشف الظنون أن حاشية سمد الدين

تلخيص الحاشية الطيبي والحق أن حاشية سعد الدين ليست تلخيصاً لحاشية الطيبي بل هي صورة لأرائه البلاغية وشخصيته المستقلة التي تتضح معالمها في كتبه الأخرى كالمطول والمختصر وإن كان قد أفاد بما ذكره الطيبي .

وقد كتب المولى برهان الدين حيدر بن محمد الهروى تلميذ السعد المتوفى سنة ٨٣٠ حاشية على حاشية سعد الدين .

وقد علق المولى علاء الدين على بن محمد المعروف بقوشجي المتوفى سنة ٨٧٩ على أوائل حاشية السعد .

وقد كتب المولى شيخ الإسلام يحيى الهروى المعروف بالحفيد حاشية على حاشية جده سعد الدين .

ثم كتب السيد الشريف المتوفى سنة ٨١٦ حاشية على أوائل تفسير الكشاف وهي مطبوعة على هامش الكشاف ، وقد ناقش سعد الدين في كثير من آرائه ، وكتب المولى يحيى الدين محمد بن الخطيب المتوفى سنة ٩٠١ حاشية على حاشية السيد وهي مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٥٠٢) .

وقد كتب المولى حسن حلى بن محمد شاه الفنارى المتوفى سنة ٨٨٦ حاشية على حاشية السيد الشريف .

وقد انتفع السيد الشريف بما كتبه العلامة عمر بن عبدالرحمن الفارسي القزويني المتوفى سنة ٧٤٥ في حاشيته التي سماها الكشاف ، وكان السيد الشريف كثيراً ما يعتمد آراءه .

وقد أصاب صاحب الكشاف في كثير من تحليلاته البلاغية ، ويبدو أنه إمام بصير وقد يكون أنفذ من ناقش الأصول البلاغية التي تقررت في زمانه ، وليس بين أيدينا من هذه الحاشية إلا ما يذكره السيد في حواشيه ، وقد رأيت مخطوطة في دار الكتب رقم ٨٠٧ تحمل هذا الإسم ، وعليها إسم المؤلف الذي ذكره صاحب كشف الظنون ، ولكنه مكتوب بخط محدث ، وبمسد مطالعتي لهذه المخطوطة ، ومقارنة نصوصها بما ذكره السيد في حواشيه أيقنت أنها شيء آخر ، ومن أشهر من ناقشوه في المسائل النحوية أبو حيان في البحر المحيط ، وكان متعاملاً سطحياً في كثير من مناقشاته ، وسوف نعرض لبعض ملاحظاته

في دراستنا البلاغية ، ثم تلاه تليذاه . الشهاب أحمد بن يوسف الحلبي المشهور
بالسمين ، والبرهان بن محمد السفاقي في إعرابيهما ، ولخص الشيخ تاج الدين
أحمد بن مكنوم مناقشات شيوخه أبي حيان في كتاب سماه الدر اللقيط من
البحر المحيط .

ومن أشهر الحواشي التي ناقشت مسائل الاعتزال حاشية الانتصار للعلامة
أحمد بن محمد بن منصور الجزامي الاسكندري المالكي ، قاضى الاسكندرية المشهور
بأبي العباس بن المنير المتوفى سنة ثلاث وثمانين وستائة ، وكان قاضياً منصفاً ،
ذكياً ، مناقشاً ، قوى الحجج . وقد شهد للزمخشري برسوخ القدم في علوم اللغة
والبيان ، وقد كتب الإمام علم الدين عبد الكريم بن علي العراقي المتوفى سنة
٧٠٤ كتاباً سماه الإنصاف ، وجعله حكماً بين الكشاف ، والانتصاف وهو مخطوط
بدار الكتب رقم ٥٠٦ ثم لخصها أي الانصاف والانتصاف الإمام جمال الدين
عبد الله ابن يوسف بن هشام في مختصر لطيف .

وقد كتب العلامة الشيخ عمر بن محمد خليل السكوني كتاباً سماه التمييز لما
أودعه الزمخشري من الاعتزال في الكتاب العزيز .

وقد ذكر في مقدمته أن الزمخشري مزج البحوث النحوية واللغوية
والبلاغية بأراء اعتزالية ومقاصد تخالف قواعد السنية ، وأن من يطالع هذا
التفسير وهو غير متمكن من أصول الدين يخشى عليه من الهلاك ، ولذلك كتب
كتابه هذا نصيحة للدين وحماية لقواعد عقائد المسلمين .

ويبدو أن الشيخ عمر رحمه الله كان من بيت علم ، وكانت أسرته متمسكة
بقواعد أهل السنة ، فقد ذكر أن كتابه هذا قد بدأه والده رحمه الله ثم من الله
عليه بأن أمه ، وذكر أن عمه لما قرأ ما ذكره الزمخشري في سورة الاعراف
هاجياً به أهل السنة والجماعة رد عليه بقوله :

سميت جهلاً صدر أمة أحمد وذوى البصائر بالخير المؤكفة

وذكر أيباناً كثيرة . وكان لهذا أثره على شخصية الشيخ عمر رحمه الله
فكان ألبساً شديد الذكاء في مناقشة الزمخشري (١) .

(١) تنظر المخطوطة رقم ٤٠٠ جامع ورقة ٧٣ ، ٨٤ ، ٨٥ .

وقد طرقت كل هذه البحوث مسألة الاعتزال في هذا الكتاب ، وكان أهل السنة متنبهين لكل ما يتصل بهذا الموضوع ، مقدرين أن الزمخشري دس أفكاره وأخفاها في طيات الدقائق النحوية والبلاغية ، فكانوا يلحون بهذا الفكر الاعتزالي فيما يستبعد أن يكون فيه ، وذلك لشدة تيقظهم ، ولوضوح مسائل الخلاف وتبين حدودها وأبعادها في أذهانهم ، ولسوء ظنهم بالزمخشري ، فإذا قال في قوله تعالى ذهب الله بنورهم . إذا أطفئت النار بسبب سماوى ربيع أو مطر فقد أطفأها الله ، فإننى لا أدرك أن فيه شيئاً يتصل بمسائل الاعتزال ، وأحسب أن كثيراً من أمثالي لا يرون في هذا التفسير أثراً لنحلة اعتزالية ، ولكن الإمام أباعلى عمر بن محمد صاحب كتاب التمييز المتقدم ذكره يدرك في هذا التفسير دسيسة اعتزالية ويبين أن الزمخشري خص ما طغنت كذلك - أى بسبب سماوى ربيع أو غيره - بأن الله أطفأها لمذهب اعتزالي وهو قول المعتزلة بالتولد ، ويسمونه فعل فاعل السبب ، ولو طغنت عندهم بسبب بعض الخلق عليها ماء وتراباً ، لم ينسبوا ذلك إلى الله تعالى بل للعباد ، لأن العبد إذا كان فعل السبب وهو الحركات التى فى محله والاعتمادات التى تحرك الماء متولداً عن ذلك وكلا ذلك باطل بنوه على توهمات فاسدة وهو شرك فى الحقيقة ، ولا فاعل لشيء من المخلوقات كان عن سبب أولاً عن شيء إلا الله تعالى على ما تقررت دلائله .

وإذا قال الزمخشري فى تثنية الأمثال فى قوله تعالى أو كصيب من السماء ، وكما يجب على البليغ فى مغان الإجمال والإيجاز أن يجعل ويوجز ، فكذلك الواجب عليه فى موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع ، لا أجد فيه ولا يجد فيه كثير مثل شيئاً يتصل بمسألة الاعتزال ، ولكن العلامة المذكور يلحظ فيه اعتزالاً ، لأنه عرض هنا بذكر الوجوب ، وقد قدمنا بيان استحالة الوجوب على الله تعالى (١) .

(١) ينظر التمييز لما أودعه الزمخشري من الامتزال فى الكتاب العزيز وروايت

إذن قد بلغ أهل السنة في تتبع المسائل الاعتزالية وناقشوها وناقشوا ما يمتثل
بها من قريب أو من بعيد ، أو استخرجوا منها اعتزالات المناقب كما يروى
حاجي خليفة .

والحق أن الزمخشري كان يتعسف أحياناً كثيرة ، ويتمهل في إخضاع النص
ودلالته إلى قواعد شيعته ، وإذا أردت أن أعرض صوراً لهذا التمهّل فإن
حاشية ابن المنير يصلح أكثرها شاهداً على هذه الدعوى . وكذلك كتاب التمييز
وكثير من كتب أهل السنة .

وقد أردت أن يكون بحثي في كتاب الكشاف خالصاً لبيان البحث البلاغي .
ولهذا تجنبت الخوض في هذه المسألة لأنها درست ولن أستطيع أن أقول فيها خيراً
بما قاله أهل السنة ، وأكثرهم أديب متذوق ، له باع بسيط ، وله نظر نافذ ، وكان
يمجني أحمد بن المنير في كثير من إشارات البلاغية التي تدل على أنها صادرة عن عقل
متمكن ، وذوق متمرس وكان يعجبه ما يقول الزمخشري في مسائل البلاغة ، ويشهد
له بأنه خريت الأساليب .

إذن ليست المسألة في حاجة إلى أن أضيف فيها إلى طنبور العويل نفقة كما
يقول سيدنا الشريف ، على أنني سأشير إلى هذا التمهّل إذا رأيت أن الإشارة
إليه أمر يقتضيه تحقيق القول في مسألة بلاغية .

وقد أشرت في بيان مصادر ثقافة الزمخشري إلى شيوخه وإلى أنه أخذ من
الكتب أضعاف ما أخذه عن السماع .

وحسبي أن أشير الآن إلى أمرين :

الأول تحقيق القول في كتابين يظن في أولها أن الزمخشري أفاد منه ، وقد

قيل في ثانيهما إنه أفاد منه فائدة كبيرة .

الثاني بيان أن تفسير الزمخشري امتداد لتأويلات شيعته التي لم يبق منها

إلا القليل . أما الكتاب الأول فهو تفسير منسوب للزجاج وهو مصور بمعهد

المخطوطات العربية بعنوان معاني القرآن للزجاج . والعلاقة بينه وبين تفسير

الكشاف واضحة ، فهو يقول في قوله تعالى والرحمن الرحيم ، ولا يجوز أن يقال

رحمن الخير الله عز وجل .

ذلك لأن فعلان بناء من أبنية ما يبالغ وصفه ، الا ترى أنك إذا قلت غضبان فعناه المعتلى غضباً ، فرحن للذي وسعت رحمة كل شيء ، ولا يجوز أن يقال لغير الله رحمن (١) . ويقول الزمخشري : في الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم ، ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ، ورحيم الدنيا ، ويقولون أن الزيادة في البناء لزيادة المعنى ، وقال الزجاج في الغضبان وهو المعتلى غضباً ... لم يستعمل في غير الله عز وجل (٢) .

ويقول في قوله تعالى : اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْمُدَىٰ فَمَا وَبَّحَتْ تَجَارَتُهُمْ ، (آية ١٦) البقرة ومعنى الكلام أن كل من ترك شيئاً وتمسك بغيره فالعرب تقول للذي تمسك به اشتراه ، وليس ثمة شراء ولا بيع ولكن رغبته فيه بتمسكه كترغبة المشتري بماله ما يرغب فيه ، قال الشاعر :

أخذت بالجمه رأساً أذعراً وبالثنايا الواضحات الدرورا

وبالطويل العمر صمراً حيدرأ كما اشترى المسلم إذ تنصرا

وقوله جل وعز : فَمَا رَبَّحَتْ تِجَارَتُهُمْ ، معناه فما ربحوا في تجارتهم لأن التجارة لا تربح إنما يربح فيها ويوضع فيها والعرب تقول قد خسر بيعك ، وربحت تجارتك ، يريدون بذلك الاختصار وسعة الكلام . قال الشاعر :

كيف نواصل من أصبحت خلاسته كأي مرحب

يريدون كخلاصة أي مرحب ، وقال عز وجل بل مكر الليل والنهار والليل والنهار لا يملكان إنما معناه بل مكر في الليل والنهار (٣) .

وهذا قريب عما ذكر الزمخشري في هذه الآية ، والبيتان من شواهد الكشاف فيما (٤) . ولست مطمئناً إلى نسبة هذا التفسير إلى الزجاج ، فقد ذكر صاحبه في مقدمته كتب المعاني بأسانيدها فذكر معاني الألفاظ ومعاني الفراء ، ومعاني الزجاج .

(١) المخطوطة لوحة ٤ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٥٥ .

(٣) لوحة ١٨ .

(٤) بنظر الكشاف ج ١ ص ٥٢ .

ويقول في اللوحة الرابعة : قال أبو إسحاق الزجاج وأبو العباس المبرد .
ويقول في اللوحة الخامسة : وأما معنى الرحمن الرحيم قال ابن عباس الإسمان
دقيقان أحدهما أدق من الآخر وقال الزجاج الرحمن كثير الرحمة .
ويقول في اللوحة السابعة : قال الزجاج أمين معرف هو صنوع الاستجابة كما
أن منه حرف موضوع للسكوت ، وحققها بمنزلة الأصوات .
ويضاف إلى هذا ذلك الحس الذي يشعر به القارئ المتبحر من بقراءة كتب
رجال هذه الطبقة ، فإن أهم خصائصها هو طابع الاجتهاد في الرأي ، والاستقلال
في المناقشة ، والقبول والرفض ، بما يملكه يشعر أنك تسمع عقلاً مجتهداً ،
يشفق أصول البحث ولا يحكمها . وهذا التعمير تفسير موجز يبين المعنى بالرواية
عن السكبي ومجاهد والضحاك ، ويذكر رأى عالم لغوى كالأخفش والفسراه
وصاحب النظم .

ولذلك أقول كما قالوا في نقد نسبة الشعر إن هذا ليس من بحر الزجاج
أو ليس من مائة ، وإن الزجاج أشد لجين من صاحبه .

وليس هذا التفسير الذي أشك في نسبه إلى الزجاج هو ما أشار إليه
الاستاذ الجويني في بيانه لمصادر التفسير في كتاب الكشاف ، فقد قارنت نصوصاً
ذكرها الاستاذ الجويني للزجاج في قوله تعالى «لَأَنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحُنَّ
بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ» ، وفي قوله تعالى «إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِبَادُ» ،
وفي قوله تعالى «لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ الْوَارِثَةِ» بما قيل في هذه
الآيات في المخطوطة المذكورة فوجدت فرقا واضحا ، وإذا كان هذا
الكلام يفيد الشك في نسبة هذا المخطوط إلى أبي إسحاق الزجاج فإنه لا ينفي
تأثر الزعشمري بالزجاج لأن ذكره يتردد في الكشاف كثيرا ويشير الزعشمري
إلى تفسيره وإفادته منه في دراسته (١) للفردات وفي وجوه (٢) القراءات وفي
تحديد معاني التراكيب (٣) وفي تحديد هيئة الكلمة (٤) وغير ذلك أكثر من أن يحصى .

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٩٨ ، ج ٢ ص ١٤٧ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٤٩٦ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٧٣ ، ٥٥٠ ، ج ٣ ص ١٣٣ ، ج ٤ ص ٢٣٤ .

(٤) ينظر منهج الزعشمري في تفسير القرآن ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ .

والمخطوطة التي أشير إليها ليست تفسيراً كاملاً ، وإنما هي جزء يبدأ من سورة يس وينتهي إلى آخر سورة التين ، بآخره خط ابن بري محمد بن محمد بالتملك وعدد أوراقه واحدة ومائتان . هذا تمام القول في الكتاب الأول .

أما الكتاب الثاني فقد ذكر الأستاذ الجويني أن الزمخشري تأثر بتفسير الرماني الذي لم يبق منه إلا جزء عم يقساء لون ، وهو مخطوط بالتيمورية تحت رقم ٢١٠ .

وقد نبه إلى أن هذه النسخة قد أصابها شيء من التحريف ، واستدل على ذلك بأن صاحبها المعتزلي يبدو سنياً مؤمناً بالرؤية أحياناً ، كما يرجح بين الجبر والإرادة الحرة ، وذكر نصوصاً في هذا . ثم قال لهذا كله لسنا نطمئن تماماً إلى أن هذه النسخة بعينها نتاج صاحبها محرراً ، وأياً ما كان فسيلجح بالمقارنة بين الكشاف والرماني أن أولهما تأثر الثاني وسار على نهجه . ثم ذكر كثيراً من النصوص المثبتة في هذا المخطوط وهي بعينها في كتاب الكشاف ، وقد دفعه هذا الاتحاد في النص مع طولها إلى القول بأن عادة الأقدمين في التأليف كانت النقل عن من يعجبون به دون إسناده لصاحبه ، إما لشهرة القول عنه أو لأن العلم ملك للجميع .

والحق أن هذه المخطوطة ليست للرماني ولا علاقة لها به ، وأكثرها منقول من الكشاف ، وقرأ إن شئت ما ذكره الزمخشري في الالتفات في قوله تعالى أياك نعبد ، والبدل في قوله تعالى «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم ، ، وتقديم الرحمن على الرحيم في البسملة ، وتقدير المتعلق المحذوف فيها ، وتقديم العبادة على الاستعانة وقرنها بها في «إياك نعبد وإياك نستعين» وتقديم الضمير المفعول فيها ، ومعنى التعريف في الحمد ، ومعنى الاستفهام في قوله فإني فارهبون ، وسوف تجد ما ذكره الزمخشري بنصه غير المحرف في هذه المخطوطة في الأوراق ١٤ ، ١٧ ، ٨ ، ٣ ، ٤ ، ١٥ ، ١٤ ، ١٠ ، ٤٩ .

ومن العجيب أن صاحب المخطوط يذكر حكاية طريفة وقعت له في الطائف . يقول : وما طن على أذني من ملح العرب أنهم يسمون مركباً من مركبهم

بالشكندف وهو مركب خفيف ليس في ثقل محامل العراق ، فقلت في طريق
الطائف لرجل منهم ما اسم هذا المحمل ، أردت المحمل العراقي فقال ليس ذلك اسمه
الشكندف ، قلت بلى قال فهذا اسمه الشكنداف فزاد في بناء الإسم لزيادة المسمى (١) .
واستشهد بهذا على أن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى . والحكاية بنصها في كتاب
الكشاف (٢) ولستنا ندرى على أى أذن طنت هذه الملحة وقد وجد شيخنا
المرحوم محمد علي النجار مثل هذا في كتاب المحكم لابن سيده ، الذي كان ينسب
خواطر ابن جنى إلى نفسه ، وقال شيخنا المرحوم في هذا وبما يدعو إلى العجب أن
ابن سيده يقول في هذا البحث (أعنى القول في لشأة اللغة الذي بين أستاذنا أنه
أخذته من الخصائص) وقد أدمت التنقيح ، والبحث مع ذلك عن هذا الموضوع
فوجدت الدواعى والخوارج قوية التجاذبلى ، مختلفة جهات التفرع على فكرى .
وترى هذا مع ما لا يؤبه له من التغيير في عبارة الخصائص (٣) .

وقد ذكر صاحب المخطوطة كتاب الكشاف وكتاب الكشف في أكثر من
موضع : يقول في قوله تعالى : «ولسوف يعطيك ربك فترضى » سورة الضحى
آية ٥ ، بعد ما بين أن هذه اللام لام الابتداء ، وهى مؤكدة لمضمون الجملة ،
ولست لام القسم ، لأن لام القسم لا تدخل على المضارع إلا مع نون التأكيد ،
كذا ذكره صاحب الكشاف ، وقال صاحب الكشف هى لام القسم واستغنى عن
نون التأكيد لأن النون إنما تدخل ليؤذن أن اللام لام القسم ، لا لام الابتداء ،
وقد علم أنه ليس للابتداء لدخولها على سوف لأن لام الابتداء لا تدخل على
سوف (٤) .

ويقول في قوله تعالى لا يعذب عذابه أحد أى لا يتولى عذاب الله أحد ، لأن
الأمر لله وحده فى ذلك اليوم ، ولا يوثق بالسلاسل والأغلال وعاقبه أحد ، قال

(١) الورقة ٧ .

(٢) الكشاف ج ١ ص

(٣) مقدمة الخصائص ص ٣١ .

(٤) المخطوطة ورقة ٩٨ .

صاحب الكشف لا يعذب أحد أبداً كعذاب الله ، ولا يوثق أحد أبداً كوثاق الله (١) .

وقد ذكر صاحب المخطوط في آخرها تمت الأوراق بقدره الخلاق واغفر عبد هذنب ووسع عليه النعمة والأرزاق ، وأدخله الجنة فإنه المستاق . قد وقع الفراغ من هذا الكتاب في يوم الجمعة سنة ست وتسعين وألف (٢) .

ويترجح عندي أن هذه المخطوطة نصوص من كتب التفسير ، جمع فيها صاحبها نصوصاً من تفسير أهل السنة وتفسير المعتزلة ولم يناقش شيئاً ، ولم يعلق على شيء .

وإذا كنت أؤكد إن هذه المخطوطة ليست لها صلة بتفسير الرمانى فإن هذا لا ينفى أن يكون الزمخشري قد تأثر به ، وليس له بين أيدينا من آثاره في الدراسة البلاغية إلا رسالته في الإعجاز وسوف نعرض لشيء منها .

ولعل مقصد ابن تغرى بردى بقوله أن الزمخشري سلك مسلك الرمانى ونهج نهجه في التفسير هو بيان أنه كان يهتم بالناحية البلاغية ، والاجتهاد في التأويل ، وبيان التجوز ، وليس مقصده أن الزمخشري نقل تفسير الرمانى وكرره ، كما يظهر من المقارنة بين النصوص التى أشرنا إليها .

الكشاف وتراث المعتزلة فى التفسير :

وكان للمعتزلة اجتهادات فى تفسير النصوص وتأويلها وقد درسوا النصوص التى تعارض معتقداتهم دراسة عميقة ومستفيضة وكانوا يخلصون اللفظ للعقل معتقدين أن الأراضاع اللغوية تحتمل غير وجه ولا يمكن تحديدها مدلولها تحديداً قاطعاً فوجب الرجوع إلى ما يقتضيه العقل ، ومن هنا لم تكن ظواهر النصوص ملازمة لهم لأنها لا تثبت على ظواهرها .

وقد وضع القاضى عبد الجبار هذا المنهج بقوله ، موضوع اللفظ يقتضى أنه لا كلفة فى مواضعها إلا وهى تحتمل غير ما وضعت له فلو لم يرجع إلى أمر لا يحتمل

(١) المخطوطة ورقة ٨٧ .

(٢) المخطوطة ورقة ١٢٦ .

لم يصح التفرقة بين الحكم والمتشابه ، فالكلمات لا تحدد معانيها تحديداً إشارياً منضبطاً لأن كل كلمة فيها تحتمل غير ما وضعت له ، وبهذا تتحدد وظيفة مصانح اللغة وقواميسها في نظر المعتزلة .

وهذا الفهم لطبيعة اللغة منحهم حرية طليقة في توجيهه وصرف الألفاظ إلى معان غير معانيها القريبة والاجتهاد في سوق الأدلة اللغوية والأدبية على هذه المعاني فالاضلال في قوله تعالى يضل من يشاء .

ليس المراد به الصرف عن الهداية كما يتبادر إلى الذهن عند الاستعمال ، لأن هذا المعنى يمارض قضية عقلية وهي تنزيه الله سبحانه عن ذلك فوجب أن يراد بالاضلال معنى آخر كالعقوبة، وقد استعمل اللفظ في هذا المعنى كقوله تعالى أضل أعمالهم أي أبطلها وإبطال الأعمال عقوبة للعاملين وكقوله تعالى ويضل الله الظالمين أي يعاقبهم وكقوله تعالى إن المجرمين في ضلال وسعر أي في عقوبة ونار (١) ، وطبع الله على قلوبهم ليس منهاه الخيلولة بينها وبين الإيمان لأن هذا المعنى يرفضه العقل وصفاً للولي سبحانه ودلالة اللفظ على هذا المعنى ليست ضربة لازب ومن هنا يمكن أن نقول إن المعنى كتب في قلوبهم كتابة يعرف بها كفرهم كما قال تعالى يعرف المجرمون بسيماهم وكما قال في وصف المؤمنين كتب في قلوبهم الإيمان وهذا أشبه بكلام العرب لأن الطبع عندهم يستعمل في الكتابة على الخواتيم والدرهم والدنانير (٢) .

وهذه الآيات وأمثالها درست في كتب القوم التي تشرح أصول مذهبهم مثل كتاب العدل والتوحيد ونفي التشبيه عن الواحد الخفيد الامام القاسم الرس (٣) .

(١) المخطوطة ورقة ١٣٦ .

(٢) ينظر كتاب الرد على الجبرية القدرية فيما تعلقوا به من متشابه أي القرآن الكريم تأليف القاضي ابن عمرو أحمد بن محمد الحلال من علماء القرن الرابع ، والكتاب مخطوط بكتبة الجامع الكبير بمسماة رقم ٧١ نسخة ومصور بدار الكتب ميكروفيلم رقم ١٠١٤ تفسير .

(٣) هو القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل الحسيني العلوي فقيه وشاعر من أئمة الزيدية وله ثلاث وعشرون رسالة في الإمامة والرد على ابن المنفع وسياسة الفاضل والعدل والتوحيد والناسخ والذوخ وكان شفيها لابن طباطبا تولى بالرس وهو جبل يقع على ستة أميال من

كما كانت تدرس في الكتب التي يدفعون بها عن معتقداتهم مثل كتاب الرد على الجيرية الذي لحصنا منه النصوص السابقة .

و درست كذلك في الكتب التي كتبوها في مقتنا به القرآن ولهم في هذا الباب جهد واضح وكثرت كتبهم كتبوا في هذا الموضوع كأبي علي الجبائي (١) وأبي الهزبل العلاف (٢) وأبي سهل بشر بن المعتز (٣) وأبي علي بن المستنير (٤) والقاضي عبد الجبار (٥) . كما أنها درست في تفاسيرهم المطولة التي شملت كل آيات الكتاب . فكان وجه التأويل فيها واضحا عند عامة هليتهم .

وقد قرأت كثيراً من هذه الجهود حول هذه الآيات ولحظت أن الاتجاه العقلي الواضح في بحثها يطغى على الاتجاه الفنى الذى يعنى بلس مواطن الجمال والتأثير ولحظت أن موقفهم من هذه الآيات موقف واحد لا يكاد يختلف اختلافاً يزيد عما يوجب مزاج الباحث وطريقة تأتبه ، أما وجه الصرف والتأويل والاستشهاد

المدينة في سنة ٢٤٦ والكتاب مخطوط بكتبة الجامع الكبير بصنماء رقم ١٦٧ تفسير ومصور بدار الكتب رقم ٣٥١ ميكروفيلم .

(١) أبو علي الجبائي هو محمد عبد الوهاب يتصل اسبة بابن أبان مولى عثمان رضى الله عنه كان شيخ المعتزلة بالبصرة معروف بالورع والزهد وتلمذ عليه أبو الحسن الأشعري وأبو هاشم الجبائي الذى آلت إليه زعامة المعتزلة بعد أبي علي ويعرفان بالجبائين توفى سنة ٣٠٣ ، وينظر وفيات الأعيان ص ٣٩٨ وما بعدها .

(٢) هو محمد بن الهزبل بن عبد الله من شيوخ المعتزلة أخذ عن عثمان الطويل صاحب واصل بن عطاء وبرز في الجدل والمناظرة ، وتوفى سنة ٢٣٥ ، ينظر طبقات المعتزلة ص ٤٤ وآمال المرتضى ج ١ ص ١٧٨ وما بعدها .

(٣) هو أبو سهل بشر بن المعتز الهلالي رئيس معتزلة بغداد وإليه تنسب فرقة البصرية وقاله أبو القاسم البلخي أنه من أهل بغداد . وقيل من أهل الكوفة وذكر الجاحظ أنه كان أبرص توفى سنة ٢١٠ ينظر لسان الميزان ج ٢ ص ٣٣ وآمال المرتضى ج ١ ص ١٨٦ .

(٤) هو أبو علي محمد بن المستنير المشهور بقطرب من أهل البصرة عالم بالغة والأدب وكان ثقة فيما عليه توفى سنة ٢٠٦ .

(٥) هو قاض القضاة أبو الحسن عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الحمداني ولا يطلق المعتزلة لقب قاض القضاة إلا عليه وكان رئيس المعتزلة ومن تلاميذه الحاكم الجعفي وقد طال عمره وبعد حينه وكثرت تصانيفه ، توفى سنة ٤١٥ ينظر طبقات الشافعية ج ٣ ص ١٩٤ ، ٢١٩ وتاريخ بغداد ١١/١١٨ ولسان الميزان ج ٣ ص ٢٨١ .

لذلك باللغة والأدب فكلمهم في هذا سواء ، وأرى أن هذا الاتجاه العقلي الواعي
جدير بأن يبحث ولا يكتفى في وصفه بالقول بأن المعتزلة أصحاب منهج عقلي
دقيق في فهم اللغة، ونظن أنه قد آن لنا أن نحدد هذا المنهج وأن نصفه وصفاً علمياً
مفصلاً .

وإذا استثنينا هذه الآيات وجدنا اتفاقاً بين الفرق الإسلامية في تفسير القرآن
الكريم ووجدنا بعضهم يأخذ عن بعض أو حين نعم النظر في التاريخ الثقافي
لهذه الفرق نشعر أننا أمام جماعة واحدة يؤثر بعضها في بعض فالاتجاهات تتمايز
ولا تتباين وحسبنا أن نذكر أن أبا الحسن الأشعري رأس فرقة الأشاعرة كان
تلميذاً لأبي علي الجبائي الذي كان رئيس المعتزلة في زمانه ، وقد قالوا إن تفسير
الأشعري الذي كتبه الرد على تفسير شيخه أبي علي بعد خروجه عليه قد نهج نهجه
على طريقة المعتزلة الذي تربى في أحضانهم ومن الواضح أن الأشعري كان شديد
العناية على أبي علي فقد ذكر أنه أضل الناس وفسر القرآن على خلاف ما أنزل الله
عز وجل وعلى خلاف اللسان الذي نزل به ولم يعتمد في تفسيره على روايات
مستوفاة عن الأئمة وإنما اعتمد فيه على وسوسة شيطانه (١) .

وقال الإمام الأكبر محيي الدين بن العربي وهو حجة في تاريخ الفكر الإسلامي
قال أن القاضي عبد الجبار قد أخذ تفسيره الكبير من تفسير الأشعري الذي قرأه
الشيخ الأكبر في المدرسة النظامية وذكر أن صاحب به عباد الذي كان شديد
التعصب للاعتزال والتشيع قد أحرق هذا التفسير الذي لم يكن بين أيدي الناس
منه إلا نسخة واحدة فذهب بذلك تفسير الأشعري وبقي تفسير القاضي الذي كان
يقربه صاحب ويشهد له بأنه أفضل أهل الأرض .

ولا أجد غرابة في القول بأخذ تفاسير المعتزلة من الأشاعرة أو عكسه لأننا
حددنا آيات الخلاف التي تدرسها كل فرقة دراسة تتميز عن دراسة الأخرى
وتتفق مع ما تمتدده في أصول الدين .

وإذا كانت هذه التفاسير التي قيل عنها ما قدمناه قد ابتلغتها الأيام ولم تبقى لنا

(١) ينظر كتاب المفرد من ١٣٤ وما بعدها .

منها ما يؤيد أو يرفض ما قبل عنها فإن بين أيدينا شواهد ترجح ما روينا، فتفسير القاضى البيضاوى وهو سنى متصوف مختصر من تفسير الزمخشرى وهو معتزلى متشدد على من يخالفه ويجاهر بكراميته للتصوف ورجاله . وقد ذكر الإمام الشافعى أن الناس فى التفسير عيال على مقاتل بن سليمان الباهى وهو رأس من رؤوس المشبهة وكان أبو حنيفة يلعنه .

فإذا قرأنا قول ابن تيمية فى مقدمة التفسير إن المعتزلة قد صنعوا تفاسير على أصول مذهبهم مثل تفسير بن كيسان الأصبى ومثل كتاب أبى على الجبائى والتفسير الكبير للقاضى عبد الجبار وغيرهم فإننا نفهم من هذا أن تفاسيرهم لا تختلف عن تفاسير غيرهم إلا فيما أشرنا إليه، وحين أصل تفسير الكشاف بهذا التراث فإننى أعنى وصله بطريقة القوم فى تأويل الآيات تأويلاً عقلياً يسخر اللغة والبيان حتى يصرف النص إلى ما يوافق معتقده وهذا سوء والبحث الجمالى سوء آخر وأعنى بالبحث الجمالى مفهوماً لا ينطبق انطباقاً كاملاً على مصطلح كلمة البلاغى ، فالحديث عن المجاز والتشبيه حديث بلاغى ولا يكون حديثاً جمالياً إلا إذا لمس موطن التأمير والطرافة فى التصوير وزادنا إحساساً بروعة العبارة وأخذة السحر فيها . ومصدر الكشاف فى البحث الجمالى أو البحث البلاغى بهذا المقوم هو الإمام الأشعري عبد القاهر الجرجانى ولم أتردد فى تقرير هذه الحقيقة فى السطور الأولى من مقدمة هذا البحث وسوف أزيد الصلة بينهما وضوحاً فى الفصول الآتية إن شاء الله، وكان الزمخشرى بصيراً فى تثقيف نفسه ولم يتعلق على فكر معين بل كان يفتح قلبه وعقله لكل عمل جاد ولم تكن المصيبة المذهبية التى كان يعتصم فيها أحياناً حائلاً بينه وبين تقدير جهود العلماء فقد كان بين يديه وهو يكتب كتاب الكشاف كتاب التهذيب فى التفسير للعلامة أبى سعد الحسن بن كرامة الجشمى المتوفى سنة ٤٧٧ وهو إمام عدلى كان رأس المعتزلة فى القرن الخامس وكان تلميذاً براً للقاضى عبد الجبار وكان يظن أن الزمخشرى يأخذ عنه كثيراً فقد عاش

(١) الكتاب مخطوط بمكتبة الجامع الكبير بصنماء ومصور بدار الكتب تحت رقم ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٥ مكرر وفيلم وله تصوير كبير برقم ٢٧٦١٨ ب والموجود منه الجزء السادس من نسخة عددها ثمانية عشر جزءاً يبدأ من قوله تعالى وإذا قبل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله - المائدة - إلى قوله تعالى «مامنك ألا تسجد» - الاعراف .

في حياته عشر سنوات ولكن الزمخشري لم يجد في هذا التفسير حاجة حسبه الاذني فتركه وانصرف الى عبد القاهر الاشعري الذي كان معاصراً للحاكم بن سعيد فأخذ عنه ولا أنفي أن يكون الزمخشري قد أفاد من تفسير الحاكم قاعدة محدودة وخاصة وجوه القراءات التي ذكرها ، وبعض البحوث اللغوية والنحوية والروايات المأثورة ، وقد اهتم الحاكم ببعض البحوث المحددة أقام عليها تفسيره فأفرد في كل آية بحثاً للقراءات يذكر فيه ما ورد في الآية منها في إيجاز مع شرح مقتضب لبعض الوجوه ثم يذكر بحثاً في اللغة يشرح فيه الالفاظ الغريبة ويشير إلى المعنى العام الذي تدور حوله المادة أحيانا وقد يذكر بعض المباحث الصرفية المتعلقة بالكلمة ، ثم ينتقل إلى الاعراب فيذكر الوجوه التي يمكن أن ترد في الآية ، ثم يذكر المعنى ويذكر فيه من الروايات المأثورة فيذكر السدي والحسن وقتاده وابن زيد وأبي علي وابن العباس والضحاك ومجاهد وغيرهم من متقدمي المفسرين وإذا كان في الآية ما يتصل بمعتقد اعتزالي جد كثيره في صرف اللفظ عن ظاهره وكل هذه المعارف مشهورة ومتداولة في كتب التفسير وتكاد تكون قدراً مشتركاً بينها .

ومن أهم آثار المعتزلة الباقية في الدراسات القرآنية كتاب تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار وقسم كبير من هذا الكتاب رد على اعتراضات الطائفتين وعلى ما يمكن أن يتعلق به أصحاب الشبه في الكتاب العزيز وكان هذا الجزء من الكتاب موجه إلى غير المسلمين ، والقسم الآخر من مادته العلمية دراسة اعتزالية للآيات التي يتعلق بها معارضوا هذا المعتقد الاعتزالي . ويظهر تأثير الزمخشري في هذا الكتاب في بعض نصوصه ومنها ما يقوله القاضي في تفسير قوله تعالى وختم الله على قلوبهم ، يقول مسألة : قالوا فقد قال تعالى ختم وهذا يدل على أنه منعهم من الإيمان ومذهبكم بخلافه وكيف تأويل الآية؟ وجوابنا أن العلماء في ذلك جوابين أحدهما أنه تعالى شبه حالهم بحال الممنوع الذي على بصره غشاوة من حيث أراح كل عليم فلم يقبلوا كما قد تعين للواحد الحق فتوضحه فإذا لم يقبل صح أن تقول إنه حمار قد طبع الله على قلبه وربما تقول إنه ميت وقد قال تعالى للرسول إنك لا تسمع الموتى وكانوا أحياء فلما لم يقبلوا شبههم بالموتى وهو كقول الشاعر :
لقد سمعت لو ناديت حيا
ولكن لا حياة لمن تنادي

ويبين ذلك أنه تعالى ذمهم ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم وأنه ذكر من جملة ذلك الغشوة على سمعهم وبصرهم وذلك لو كان ثابتاً لم يؤثر في كونهم عقلاء مكلفين والجواب الثاني أن الختم علامة يفعلها تعالى في قلبهم تعرف الملائكة كفرهم وأنهم لا يؤمنون فتجتمع على ذمهم ويكون ذلك لطفاً لهم ولطفاً لمن يعرف ذلك من الكفار فيكون أقرب إلى أن يقلع عن الكفر (١) .

وقد ذكر الزمخشري في هذه الآية وجوها كثيرة يقرب بعضها من هذا الكلام (٢) .

وللقاضي كتاب آخر أشرنا إليه وهو كتاب متشابه القرآن وقد طبع حديثاً وهو دراسة كلامية عميقة وشاملة للآيات المتشابهة ، والمتشابه هنا هو كل ما يوم ظاهره خلاف معتقد القوم ، وهذا الكتاب من المصادر الهامة التي يستعين بها الباحث على دراسة وتوضيح المشجح الاعتزالي في دراسة النصوص وأحسب أن تداول هذا الكتاب يمكن أن يزحزح كتاب الكشاف عن مكان الصدارة فقد ظل زمناً طويلاً يمثل أقرب مرجع لمعرفة مواقف المعتزلة من النصوص التي تخالف وجهتهم وإن ظل كتاب الكشاف يحتفظ بهذه الدراسة البلاغية العذبة لأسلوب القرآن والتي لا نظن أن كتاباً من كتب المعتزلة يؤدي فيها وظيفة الكشاف . والمهم أن القاضي عبد الجبار في هذا الكتاب يدرس القرآن دراسة استدلالية يحاول أن يستنبط أصلاً فكرياً من أكثر الآيات التي يتناولها ويبدأ حديثه في كثير من الآيات بكلمة دلالة ، ولهذا كان بحثه في هذا الكتاب عملاً جديلاً شافياً بصور فلسفة علم الكلام في أدق وأعمق صورها ، ومن آثار المعتزلة التي تنتمي إلى مدرسة القاضي عبد الجبار كتاب غرر الفرائد ودرر القلائد للشيخ المرتضى علي بن الحسين الموسوي العلوي المتوفى سنة ٤٣٦هـ وكان أديباً عالماً يتذوق العلم والأدب .

وقد أفاد منه الزمخشري كثيراً ، وقد تكون الروح الأدبية التي تطبع دراسة المرتضى هي التي أغرت صاحبنا به ومن مظاهر إقادته من هذه الدراسة ما تجده

(١) تنزيه القرآن من المطامن ص ٩ ، ١٠ .

(٢) ينظر الكشاف ج ١ ص ٣٧ وما بعدها .

قول الشريف في تأويل قوله تعالى : « وجاءتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم في أفواههم » يقول الشريف :

الجواب الأول : أن يكون إخباراً عن القوم بأنهم ردوا أيديهم في أفواههم حاضين عليها غيظاً وحنقاً على الأنبياء عليهم السلام كما يفعل المتوعد لغيره المبالغ في معاندته ومكايده ، وهذه عادة معروفة في المغيظ المحنق .

ثانيها : أنهم لما سمعوا وعظ الرسل ودعاهم وإنذارهم أشاروا بأيديهم إلى أفواه الرسل فيضعونها على أفواههم ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم .

ثالثها : أنهم إذا سمعوا وعظهم وإنذارهم وضعوا أيدي أنفسهم على أفواههم مشيرين إليهم بذلك إلى الكف عن الكلام والإسك عنه كما يفعل من يريد منا أن يسكت غيره ويمنعه عن الكلام من وضع أصبعه على فم نفسه .

رابعها : أن يكون المعنى فردوا القول بأيدي أنفسهم إلى أفواه الرسل أي أنهم كذبوهم ولم يصغوا إلى أقوالهم .

وخامسها : أن المراد بالأيدي النعم ... والتقدير فردوا بأفواههم نعم الرسل أي ردوا وعظهم وإنذارهم (١) .

وقد ذكر الزعخشري وجوهاً في هذه الآية منها بعض هذه الوجوه التي ذكرها المرتضى ، ومن أهم ما أفاده الزعخشري من الشريف المرتضى بيانه تأكيد نفي الموصوف بنق الصفة ، وسوف نعرض له في دراستنا لبلاغة الكشاف ، وأقول هنا أن الشريف قد ذكر هذا الوجه ووضحه توضيحاً لم أعرفه لأحد قبله .

يقول إن سأل سائل فقال ما الوجه في قوله تعالى « أن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، آل عمران ٢١ » وفي موضع آخر « وقتلهم الأنبياء بغير حق ، آل عمران ٨١ » ، وظاهر هذا القول يقتضى أن قتلهم قد يكون بحق وقوله تعالى « ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به ، المؤمنون آية ١١٧ » وقوله تعالى « الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، الرعد آية ٢ » ، وقوله تعالى « ولا تكفروا أول كفر به ولا تشتروا بآياتنا ثمناً قليلاً ، البقرة آية ٤١ » وقوله « لا يسألون الناس إلحافاً ، البقرة ٢٧٣ » ، والسؤال عن هذه الآيات كلها من وجه واحد وهو الذي تقدم .

(١) أمالي المرتضى ج ٢ ص ٣٥ ط السعادة .

الجواب : أعلم أن للعرب فيما جرى هذا الجري من الكلام عادة معروفة
ومذهباً مشهوراً عند من تصفح كلامهم وفهم عنهم ، ومرادهم بذلك المبالغة في
النفي وتأكيده فن ذلك قولهم فلان لا يرجى خيره لسوا يريدون أن فيه خيراً
لا يرجى وإنما غرضهم أنه لا خير عنده على وجه من الوجوه . ومثله قلنا رأيت
مثل هذا الرجل ، وإنما يريدون أن مثله لم ير قليلاً ولا كثيراً .
وقال امرؤ القيس :

على لا حب لا يهتدى بمناره إذا سافه العود الديافي جرجراً
يصف طريقاً وارداً بقوله لا يهتدى بمناره أنه لامنار له فهتدى به ، والعود
المسن من الإبل والديافي منسوب إلى دياف وهي قرية بالشام معروفة ، وسافه
شبه وعرفه ، والجرجرة مثل الهدير ، وإنما أراد أن العود إذا شبه عرفه فاستبعده
وذكر ما يلحقه فيه من المشقة لجرجر لذلك .
وقال ابن أحمد :

لا يفزع الأرنب أهوالها ولا ترى الضب بها ينجر
وقال آخر : لا يفزع الساق من أين ولا وصب ، أراد ليس بساقه أين ولا وصب
فيفزعها من أجلهما . وقال سويد بن أبي كاهل .

من أناس ليس من أخلاقهم عاجل الفحش ولا سوء الأدب
لم يرد أن في أخلاقهم خشياً عاجلاً ولا آجلاً ولا جزعاً غير سيء ، وإنما أراد
نفي الفحش والجزع عن أخلاقهم . ومثل ذلك قولهم فلان غير سريع إلى الحنا ،
يريدون أنه لا يقرب الحنا لا نفي الإسراع حسب . وعلى هذا تأويل الآيات التي
وقع السؤال عنها (١) .

وحين نقرأ ما ذكره الشريف المرتضى في قوله تعالى : وقالت اليهود يد الله مغلولة
غلت أيديهم ، المائدة ٦٤ ج ٣ ص ٩٠ وفي قوله تعالى : تعلم ما في نفسي ولا أعلم
ما في نفسك ، المائدة ٦٤ ج ٢ ص ٦ وفي قوله تعالى : ففتشهم من أيمنهم ،
طه آية ٧٨ ج ٢ ص ٢٤ وفي قوله تعالى : قال رب أنظر إليك الأعراف آية
١٤٣ ج ٤ ص ١٢٤ ، وفي قوله تعالى : فأتقاهما فإذا هي حية تسعى ، طه آية ٢٠ ج ١
ص ٢٠ ، ١٩ ، وفي قوله تعالى : لا تثريب عليكم اليوم ، يوسف آية ٤٩٢ ج ٢ ص ١٠٥

وفي قوله تعالى: «والست بربكم قالوا بلى» الاعراف ١٧٢ ج ١ ص ٢٣، نجد شبهاً
ووجهاً بين تأويلاته طلبة الآيات وما ذكره الزمخشري فيها . وليس من الضروري
أن يكون وجه الشبه مصوراً في نصوص تشابه في الكتابين بل إن التأثر كما
أعتقد يظهر في الطريقة والروح أكثر مما يظهر في الوقوف عند الجزئيات ، فإذا
كان الشريف المرتضى يقول إن تقدير المحذوف في قوله تعالى «أمرنا فيها ففسقوا»
فيها ، أي أمرناهم بالطاعة ففسقوا ، ويقول الزمخشري إن تقدير المحذوف أمرناهم
بالفسق ففسقوا ، فليس هذا يعني أن الزمخشري لم يفد من المرتضى لأنه خالفه في
تقدير مفعول فعل الأمر .

أما الشريف الرضي فإنه له كتابين من أهم ما يمتاز به التراث الأدبي ، الأول
كتاب تلخيص البيان في مجازات القرآن وقد طبع حديثاً بتحقيق وتقديم الأستاذ
عبد الفتى حسن ، والثاني كتاب المجازات النبوية وقد طبع قبل الكتاب الأول
بتحقيق الأستاذ محمود مصطفى .

وقد آثار فيهما كثيراً من المباحث البلاغية المتصلة بالمجاز والتوسع وكانت
مخيلاته الأدبية وتذوقه الفنى أدق من دراسته العلمية لأصول المجاز .

والذى يعنى أن أشير إليه هنا هو كتاب حقائق التأويل في تشابه التنزيل
لأنه يتميز بمحاولات تجتهد في أن تستنبط كثيراً من المعاني ، وأن تشير إلى
كثير من الاحتمالات التي يمكن للنص آداؤها ، وهو بهذا يكون أقرب إلى
تفسير المعتزلة من كتابيه السابقين .

وانتظر إلى ما يقوله في قوله تعالى: «وللهما في السموات والأرض وإلى
الله ترجع الأمور» ، ٢٠٩ آل عمران ، وكيف كان التعبير بالرجوع هنا موحياً
بأن الأمر كأنه انفلت من يده سبحانه ثم رجع إليه .

يقول ما معنى رجوع الأمور إليه وهي غير خارجة عن سلطانه وتقدرته
وتقلب العباد جميعاً في قبضته وملكوته ، وهذا يدل على أن الأمور تخرج عن
تقديره حتى يصبح أن توصف بالرجوع إليه بعد الخروج عنه .

الجواب ذكرنا من سأل عن معنى قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله
حتى تقائه اتقوا لا كلها تخرجه تعالى عن أن يكون مكلماً فوق الطاقة ، وأمرنا بتقدير

الاشطاعة أقوالا تكشف عن المراد بهذا القول عند اعتراض ما يقتضيه فيها قولهم أن معنى ذلك أتقوا الله في القيام بأداء ما فرض عليكم واستعملت به أبدانكم وجوارحكم . . . ثم ذكر أقوالا كثيرة في توضيح معنى اتقوا الله وجعل ذلك مقدمة لتفسير رجوع الأمور إليه سبحانه حيث بنى عليها قوله في هذه الآية ، ومع هذه الأقوال نورد ههنا ما يكون أنفع للغة وأكشف للشبهة ، فنقول قد قال العلماء في ذلك أقوالا منها أن الله ملك الناس في دار التكليف أموراً تملكوها ووصفوا بالملك لها رسمى تعالى بعضهم ملوكا على هذا المعنى فقال تعالى «واذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا» قال بعض المفسرين وفي ذلك أنه جعلكم تملكون أمركم لا يغلبكم عليه غائب ولا يحول بينكم وبينه حائل ، وقال بعضهم معنى ذلك أنه جعل لكم من الأحوال والأموال مالا تحتاجون معه إلى سؤال الناس ، وقال بعضهم جعلكم ذوى منازل لا يدخل عليكم فيها إلا بإذنه ، والمعنى راجع إلى ملك الأمر فإذا ثبت ما قلنا من صفة كثير من المخلوقين بتملك الأمور في دار التكليف جاز أن يقال عند تقوض هذه الدار وانتقال هذه الأحوال أن الأمور كلها رجعت إلى الله تعالى في الآخرة بمعنى أنها صارت إلى حيث لا يملكها مالك غيره ولا يحكم فيها حاكم سواه كما كان تعالى قبل أن يخلق خليقته ويبرئ برئته ولا مالك للأمور غيره فرجعت الحال بعد انقضاء التكليف إلى حيث كانت قبل ابتداء التكليف ، وصار الأمر في الانتهاء مثله في الابتداء (١) .

هذه هي طريقة الزمخشري في تفسيره وإن لم تكن مادته ، كما أنها طريقته المرآضى التي أشرنا إليها ، وبهذا تكون قد وضحتنا المصادر الحقيقية لكتاب الكشف في مادته وطريقته ، وسوف نشير إلى مصادر البحث البلاغي ونزيدنا أيضا حافى دراستنا لهذا الموضوع .

(١) حقائق التأويل في متغايه التثريب ج٥ ص ٢٠٧ وما بعدها ط النجف .
(٢٤ - البلاغة)

www.alkottob.com

الباب الأول البحث البلاغي في الكشف

- ١ - البحث البلاغي قبل الكشف .
- ٢ - النظم في الكشف .
- ٣ - النظر في المفردات ،
- ٤ - البحث في النظم .
- ٥ - البحث في الجمل .
- ٦ - البحث في صور البيان .
- ٧ - البحث في ألوان البديع .

www.alkottob.com

Handwritten text, possibly bleed-through from the reverse side of the page, including a list of items or names.

الفصل الأول

البحث البلاغي قبل الكشف

مفهوم النظم .

النظر في المفردات .

البحث في مسائل النظم :

- (أ) التقديم
- (ب) الاستفهام
- (ج) الأمر
- (د) الحذف
- (هـ) التكرار
- (و) الاعتراض
- (ز) الالتفات
- (ح) الفصل الواصل

البحث في التشبيه

البحث في المجاز :

- (أ) المجاز المرسل
- (ب) الاستمارة
- (ج) المجاز العقلي

الكناية

التعريض

البحث في ألوان البديع

www.alkottob.com

الفصل الأول

البحث البلاغي قبل الكشف

ملهم النظم

أريد أن أعرض في هذا الفصل أصول المسائل البلاغية التي كان البحث البلاغي في الكشف امتداداً لها . ولا أستطيع هنا أن أتبع نشأتها وتطورها تبعاً دقيقاً لأن كل فن من هذه الفنون يحتاج إلى درس مفرد ، ينظر فيه إلى حاله في نشأته وتطوره ، وحسبي أن أحدد صورتها في مرحلتها الأخيرة التي كانت بداية بحث الكشف ، وذلك في إجمال قلما اجنح فيه إلى التفصيل .

ومن الواضح أن كثيراً من الدارسين قد كتبوا في تاريخ البلاغة وتطور البيان العربي ، وقد تعود كثير من الكتابين في فنون البلاغة وعلاج مسائلها أن يجملوا في صدر كتبهم صحفاً يذكر فيها شيئاً في نشأة البلاغة ، على أننا قلما نجد كتاباً اهتم بتاريخ فنون البلاغة كأن يتناول نشأة كل فن ، ويتتبع مراحل نموه وازدهاره تبعاً واعياً ودقيقاً ، وهذا عمل جميل قد يساعدنا على تبين كثير من قضايا هذا العلم ، وتحليصه من كثير من الشوائب ، وقد نهض الأستاذ الخولي بكتابة بحث قيم أرخ فيه لأربعة فنون من فنون البلاغة اختار اثنين منها من مباحث المعاني ، هما التقديم والفصل والوصل ، وآخرين من مباحث البيان هما التشبيه والاستعارة ، وقد حاول أن يفسر كل مرحلة من مراحل التطور في هذه الفنون تفسيراً مبسوطاً مستعيناً في ذلك بمعرفة الرجال وأوان ثقافتهم الغالبة والتيارات الفكرية التي سيطرت على كل مرحلة من هذه المراحل (١) .

والذين كتبوا في تاريخ البلاغة قد خلطوا بين أنواع ثلاثة من التاريخ كان ينبغي الفصل بينها ، هي تاريخ الفنون ، وتاريخ المؤلفات ، وتاريخ الرجال ،

(١) ينظر صور من تطور البيان العربي للأستاذ كامل الخولي .

وقد أشار إلى منهج الكتابة التاريخية في البلاغة المرحوم الأستاذ أمين الخولي ،
و بين ضرورة الفصل بين هذه الطرق في محاولاته الصادقة في هذا الباب .

ثم إن أكثر هذه الكتب التي عنيت بتاريخ البلاغة لم تعد أن تكون
فهارس مهسوسة لما أثير في كتب البلاغيين من المسائل والقضايا .

و واضح في ذهني وأنا أكتب هذه المعالجة في الأصول البلاغية التي كانت
مباحث الكشف امتداداً لها أن فرقا بيناً بين مباحث البلاغة ومباحث النقد
الأدبي كما حدده الأستاذ المرحوم طه إبراهيم فيما كتبه في تاريخ النقد الأدبي ،
لذلك سوف أمس ما يتصل بالبحث البلاغي وإن كان علم البلاغة قد صار يتدأ
أديباً أو نوعاً خاصاً من النقد الأدبي حين خاض في مسألة الإيجاز ، وأنتمك في
التحليل والتقويم ، والرد على الطاعنين في أسلوب القرآن .

وأول هذه الأصول التي نشير إليها مسألة النظم التي عقدنا لها فصلاً في بحث
بلاغة الكشف .

وفكرة النظم معروفة في محيط المشتغلين بمسألة الإيجاز إذ أنها وليسدة
الدراسة في هذا الباب ، ولم أعرف كتاباً من كتب البلاغة التي تناولت شؤون
الأدب والشعر قد ذكرت هذه الفكرة ، أو أضافت إليها شيئاً ، وإن كانوا قد
أشاروا إلى مباحث تتفرغ عنها بما سوف نشير إليه . ومثل النظم في هذا قليل
من البحوث البلاغية التي كانت وليدة النظر في كتاب الله مثل التكرار والفواصل
والاستدراج وغير ذلك مما نيه البلاغيون إلى أنهم استنبطوه من كتاب الله . نعم
قد كان الشعر من شواهد هذه الأصول ، وكان الشعر أيضاً مجالاً لتطبيقها ، وكانت
مقياساً من مقاييس جودته ، ولكن المهم أن الذي دفع إلى الخوض فيها لم يكن
هو الشعر ولم يكن هو النثر وإنما كان القرآن .

وقد عرف الجرجاني النظم بقوله ، وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك
الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعمل على قوانينه وأصوله ، وتعرف مناهجه
التي نهجت فلا تزيع عنها ، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها ،
وذلك إنما لا تعلم شيئاً بمتقيد النظم في نظمته غير أن ينظر في وجوه كل باب

وفروقه ، فينظر في الخبر إلى الوجوه التي تراها في قولك زيد منطلق ، وزيد
ينطلق ، ومنطلق زيد ، وزيد المنطلق ، والمنطلق زيد ، وزيد هو المنطلق ،
وزيد هو منطلق ، وفي الشرط والجزاء إلى الرجوع التي تراها في قولك : أن
تخرج أخرج ، وإن خرجت خرجت ، وإن تخرج فأنا خارج ، وأنا خارج إن
خرجت ، وأنا إن خرجت خارج . . فتعرف لكل من ذلك موضعه ، وتجيء به
حيث ينبغى له ، وتنظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ينفرد كل واحد منها
بخصوصية في ذلك المعنى فيضع كلا من ذلك في خاص معناه (١) . وهذا الأصل
هو الذي دارت حوله دراسة الجرجاني في دلائل الإعجاز محاولاً إثباته وبيانه ،
ورجوع المزية إليه ، وكانت دراسة الفصل والوصل ، والتقديم والتأخير ،
والحذف والذكر ، فروعاً تفرعت من هذا الأصل ، وكذلك كانت دراسة
الاستمارة ، والكتابة ، وضروب المجاز ، فقد حاول أن يربطها بالنظم ، وبين
أه عنها يحدث وبها يكون .

وفي ضوء هذا المقياس الجديد رفض ما قاله فريق من رجوع المزية إلى
اللفظ ، وما قاله آخرون من رجوع المزية إلى المعنى ، وبين أنها لا ترجع إلا
إلى النظم بهذا المفهوم الذي حدده .

وحين ننظر في معنى النظم الذي ذكره القاضي أبو بكر محمد بن العلي بن أصحابه
الأشاعرة في جملة وجوه الإعجاز يتضح لنا أنه نظم غير هذا النظم المذكور عند
عبد القاهر ، وأنه يعني به طريقة الكلام وأسلوبه ، فهو مقابل للشعر ، والسجع ،
والكلام المرسل ، وكان القرآن كما يقولون معجزاً بنظمه أي بخروجه عن أصناف
كلامهم وأساليب خطابهم ، فهو خارج عن العادة ، ومعجز بهذه الخصوصية التي
ترجع إلى جملة القرآن وتحصل في جميعه (٢) .

وقد تسكلم الخطابي في النظم وذكر أنه : وإنما يقوم الكلام بهذه الأشياء :
الثلاثة : لفظ حامل ، ومعنى به قائم ، ورباط لهما ناظم ، وإذا تأملت القرآن

(١) دلائل الإعجاز ص ٥٥ .

(٢) ينظر إعجاز القرآن للبلاغي ص ٢٥ .

وجدت هذه الامور منه في غاية الشرف والفضيلة، حتى لا ترى شيئاً من الالفاظ
أفصح ، ولا أجزل ، ولا أعذب من الفاظه، ولا ترى نظماً أحسن تأليفاً، وأشد
تلاؤماً ، وأشفاً كلا من نظمه (١) .

وقال في بيان أسباب عجز البشر عن الإتيان بمثله ، ولا تكتمل معرفتهم
لاستيفاء جميع وجوه النظم التي بها يكون اتلافها (أى الالفاظ الحوامل)
وارتباط بعضها ببعض .

ويقول في بيان المراد بالنظم وصعوبة بناء الكلام على وجه فيه مستقيم :
وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر، لأنها لجمال الالفاظ
وزمام المعاني ، وبها تنظم أجزاء الكلام ويلتزم بعضها ببعض ، فتقوم له صورة
في النفس يتشكل بها البيان (٢) .

وحين نتأمل هذا الكلام نجد قريبا من النظم الذي أشار إليه عبد القاهر
وجعله أساس بحثه في الإعجاز البلاغي، لأنه يعنى الروابط بين الكلمات والجمل،
وليس هذا إلا توخى معاني النحو كما يقول عبد القاهر .

وقد نقل القاضي أبو الحسن عبد الجبار كلاما لشيخه أبي هاشم في النظم بالمعنى
الذي أراده أبو بكر محمد بن الطيب ، وأبو هاشم يرفض أن يكون النظم بهذا
المعنى وجهاً من وجوه الإعجاز ، لأن الإعجاز كما يراه يرجع إلى جزالة اللفظ
وحسن المعنى الذين تتحقق بهما الفصاحة ، وليس فصاحة الكلام كما يقول بأن
يكون له نظم مخصوص ، لأن الخطيب عندهم قد - يكون أفصح من الشاعر
والنظم مختلف إذا أريد بالنظم اختلاف الطريقة ، وقد يكون النظم واحداً
وتقع المزية في الفصاحة (٣) .

ثم أشار أبو هاشم إلى حجة قوية يبطل بها أن يكون النظم بمعنى الطريقة
وجهاً من وجوه الإعجاز ، فذكر أن القرآن بعد ما جاء بهذه الطريقة وشرعها

(١) البيان في إعجاز القرآن للخطابي ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن ص ٢٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المعنى ص ١٦٧ .

الفصاحتهم كيف يتحداهم بها ويطلب منهم الإتيان بسورة من مثله ؟ ومثله أى طريقته فى النظم بهذا المفهوم ، قد صارت واضحة أمامهم . يقول أبو هاشم : وإنما يختص النظم بأن يقع لبعض الفصحاء يسبق إليه ثم يساويه غيره من الفصحاء فيساويه فى ذلك النظم ، فبعد توضيح الطريقة لم يعد الإتيان بمثلها مجزأ .

ثم بعد ذلك يذكر القاضى أبو الحسن الوجه الذى له يقع التفاضل فى فصاحة الكلام ، ويقول فى هذا كلاماً نراه قريباً جداً بما ذكره عبد القاهر ، وتعتبر كلامه مرحلة ثانية فى تطور النظم بمفهومه عند الجرجاني بعد المرحلة التى ذكرناها عند الخطابي ، وإن كان عبد الجبار متكلماً محتزلاً والخطابي فقيهاً محدثاً .

يقول عبد الجبار واعلم أن الفصاحة لا تظهر فى أفراد الكلام ، وإنما تظهر فى الكلام بالضم على طريقة مخصوصة ، ولا بد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة ، وقد يجوز فى هذه الصفة أن تكون بالمواضع التى تتناول الضم ، وقد تكون بالإعراب الذى له مدخل فيه ، وقد تكون بالموقع ، وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع لأنه إما أن تفيد فيه الكلمة ، أو حركاتها ، أو موقعها ، ولا بد من هذا الاعتبار فى كل كلمة ، ثم لا بد من اعتبار مثله فى الكلمات إذا انضم بعضها إلى بعض ، ثم يقول أن المعانى وإن كان لا بد منها فلا تظهر فيها المزية وإن كانت تظهر فى الكلام لأجلها ، ولذلك نجد المعبرين عن المعنى الواحد يكون أحدهما أفصح من الآخر والمعنى متفق ، وقد يكون أحد المعنيين أحسن وأرفع والمعبر عنه فى الفصاحة أدون فهو بما لا بد من اعتباره وإن كانت المزية تظهر بغيره ، على أننا نعلم أن المعانى لا يقع فيها تزايد ، فإذا يجب أن يكون الذى يعتبر التزايد عند الألفاظ التى يعبر بها عنها ، فإذا صحت هذه الجملة فالذى به تظهر المزية ليس إلا الإبدال الذى به تختص الكلمات ، أو التقدم والتأخر الذى تختص الموقع ، أو الحركات التى تختص الإعراب ، فبذلك تقع المباشرة . . ولا يمتنع فى اللفظة الواحدة أن تكون إذا استعملت فى معنى تكون أفصح منها إذا استعملت فى غيره ،

وكذلك فيها إذا تغيرت حركاتها . فأما حسن النغم وعدوبة القول فلها يزيد الكلام حسنا على السمع لا أنه يوجد فضلا في الفصاحة (١).

وتتكرر في دراسة عبد القاهر كلمة الضم الواردة هنا ، كما تتكرر كذلك كلمة المزبة ، والنظر في الكلمة من حيث إعرابها وموقعها وإبدالها جزء هام في دراسة عبد القاهر . وقول عبد الجبار على أنا نعلم أن المعاني لا يقع فيها تزايد فاذن يجب أن يكون الذي يعتبر التزايد عند الألفاظ ، من الكلام المشهور في دلائل الإعجاز .

وقول عبد الجبار ولا يمتنع في الكلمة الواحدة أن تكون إذا استعملت في معنى تكون أفصح منها إذا استعملت في غيره ، يقول مثله عبد القاهر إنك ترى الكلمة تروك وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر (٢) .

وقوله فأما حسن النغم وعدوبة القول إلى آخره مذهب مشهور لعبد القاهر الجرجاني وقد تنبه الأستاذ الدكتور شوقي ضيف إلى هذه العلاقة الوثيقة بين الكلامين فقال معافا على بعض ما نقله عن القاضي عبد الجبار ، والمهم هو أن عبد الجبار يودع بين أيدينا الآن مفاتيح النغم التي استمد عبد القاهر من توقيعه عليها كتابه دلائل الإعجاز .

وقد أشرت إلى أن مفهوم النظم في كلام أبي بكر محمد بن الطيب يختلف اختلافا كبيرا عن مفهومه عند عبد القاهر ، ولست أدري كيف فهم الأستاذ الفاضل عكس هذا حين قال ، وحقاً أن الباقلاني لم يستطع أن يبين عن شيء من هذا المعنى ، واسكنه هو وأمثاله من الأشعرية إنما كانوا يريدونه وعجزوا عن بيانه (٣)

وبهذا يتضح لنا أن حديث النظم له جذور ممتدة شهدناها قبل عبد القاهر عند الخطابي وما نحن أولاء نراها عند القاضي عبد الجبار المعتزلي كما يقول

(١) اللغوي ج ١٦ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٣٣

(٣) البلاغة تطور وتاريخ ص ١١٧

الأستاذ النحوي (١) على أننا نذكر ما هو في أيدينا من الكتب التي عالجت نظم القرآن أو أشارت إليه ، وإذا كنا نعرف أن الجاحظ كتب كتابا في نظم القرآن ونوه به ، وأن أبا يزيد الواسطي كتب كتابا في إعجاز القرآن بنظمه ، فإن ذلك يوحي إلينا أن هناك جهودا أخرى كانت عاملا هاما في تطور فكرة النظم في محيط الدراسات القرآنية ، فكمونات روافد مختلفة أقاد منها عبد القاهر الجرجاني في بسط الفكرة وتحليلها .

النظر في المفردات :

والنظر في ملاءمة الكلمة لموقعها ووضع كل نوع من الالفاظ موضعه نظر قديم يرجع إلى ملاحظات الجاهليين في تحليل الشعر وتقويمه ، فالنابغة حين يخاطب حسان في أبياته المشورة :

لنا الجففات الغري لمن في الضحى وأسيفنا يقطون من نجدة دما
ولدتنا بنى العتقاء وابنى منخرق فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنا
ويقول له لقد قلت الجففات فقلت العدد ولو قلت الجفان لكان أكثر ،
وقلت يلمن في الضحى ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ في المديح ، لأن الضيف
بالليل أكثر طروقا ، وقلت يقطون من نجدة دما ، فدلت على قلة القتل . ولو
قلت يجرين لكان أكثر لانصباب الدم ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك ،
إنما يدرس ملاءمة المفردات ، ووضع الكلمات موضعها ، وينظر في اختيارها وفي
أحوالها في الجمع والإفراد ، وهذا درس في صميم مطابقة الكلمة لما يقتضيه مقامها
الذي هو لب البلاغة .

ومثل ذلك قول طرفة بن العبد للمناس أو المسيب لما سمع منه وصف البعير
بوصف الناقة ، استنوق الجميل ، ومنه ما قاله ابن هرمة الشاعر للرجل الذي
أشده بيته المشهور :

بأنه ربك إن دخلت فقل لها .. هذا ابن هرمة قائما بالباب ما كذا قلت
أكنت أتصدق ؟ قال الرجل فاذا ؟ قال ابن هرمة واقفا ، ثم قال له ، ليتك علمت
ما بين هذين من قدر اللفظ والمعنى ،

ومذا القول دليل على أن معرفة مواقع الكلمات من أدق المباحث وأخفاها ،
وقد كثرت هذه الملاحظات القيمة في الدراسة الأدبية .

ثم كان الخطأ الذي جعلها عمود البلاغة في بيان إيجازه ، وأشار إلى أن
في الكلام الفاظاً متقاربة في المعاني بحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة
بيان مراد الخطاب ، كالعلم والمعرفة ، والحمد والشكر ، والعمود والجلوس ، إلى
آخره وأن عمود البلاغة هو وضع كل نوع من الالفاظ التي تشمل عليها فصول
الكلام موضعه الأخص الأشكل به الذي إذا بدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل
المعنى الذي يكون به فساد الكلام وإما ذهب الروق الذي يكون معه سقوط
البلاغة ، ثم أخذ الخطابي يناقش الطاعنين في بلاغة القرآن ، وكانت كثرة من
مطاعنهم واردة على هذا الأساس ، من ذلك استعمال الأكل مع الذئب في قوله
تعالى « فأكله الذئب » ، والأنسب كما يقولون اقتصره الذئب ، ومن ذلك استعمال
فاعلين مع الزكاة في قوله تعالى « والذين هم للزكاة فاعلون » ، والأنسب أن يقول
مؤدون ، إلى آخر ما ذكره وما ذكره ، وقد بين الخطابي ملاءمة هذه الكلمات
لموافيقها ، وكان في بيانه بصيراً متذوقاً ، وجهوده في هذا الباب من أدق وأجل
ما كتب فيه ،

ثم جاء بعده القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الذي أشار إلى هذه المسألة
المهمة في وضع الالفاظ ، وبين أن الأمر فيها صعب ، وأن رجالها قليل ، وكيف
لا يكون كذلك وأنت تحسب أن وضع الصبح في موضع الفجر يحسن في كل كلام
إلا أن يكون شعراً أو سجماً ، وليس كذلك فإن إحدى اللفظتين قد تنفر في موضع
وتزل عن مكان لا تزل عنه اللفظة الأخرى بل تتمكن فيه وتضرب بجرانها ، وتراها
في مظانها ، وتجدها فيه غير منازعة إلى أوطانها ، ونجد الأخرى ولو وضعت
موضعها في محل نفار ، ومرعى شراد ، ونابية عن استقرار (١) .

ثم أن الإمام عبد القاهر نظر إلى خواص المفردات ، فأشار إلى ما يفيد
تنكيرها . ونسبها ، وكونها فعلاً ، أو اسماً ، وله في هذا دراسة قيمة كانت

أساساً لكثير مما ذهب إليه الزمخشري في هذا الشأن ، كما نظر إلى الفرق في معاني أدوات الشرط كإن ، وإذا ، وإلى المعنى الأدبي للفاء الواقعة في جواب الشرط المحذوف والتي يسميها النحاة فاء الفصيحة ، وضرب لكل ذلك أمثلة وشواهد ، وقد أفاد الزمخشري من كل هذا : وأضاف إليه ، كما سفين إن شاء الله .

وكانت هناك دراسات قرآنية بعيدة عن مسأله الإعجاز والتأويل وتناولت الكلمة القرآنية ، وبينت دلالات خصوصياتها في التعبير .

فابن جنى في كتابه المحتمسب في وجوه القراءات الشاذة ينظر في قراءة التنكير في قوله تعالى اهدنا صراطا مستقيما وبين دلالاتها فيقول :

ينبغي أن يكون أراد والله أعلم التذلل لله سبحانه ، وإظهار الطاعة له ، أي قد رضينا منك يا ربنا بما يقال له صراط مستقيم ، ولستنا نريد المبالغة في قول من قرأ الصراط المستقيم ، أي الصراط الذي قد شاعت استقامته ، وتعمت في ذلك حاله وطريقته ، فإن قليل هذا منك لنا ذاك همدنا ، وكثير من نعمتك علينا ونحن له مطيعون ، وإلى ما تأمر به وتنهى فيه صائرون ، وزاد في حسن التنكير هنا ما دخله من المعنى ، وذلك أن تقديره آدم هدايتك لنا فإنك إذا فعلت ذلك بنا فقد هديتنا إلى صراط مستقيم ، فجرى مجرى قوالك لئن لقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم لتلقين فيه رجلا متناهيا في الخير ، ورسولا جامعا لسبل الفضل (١) .

البحث في مسائل النظم :

وكان النظر في صياغة الجملة ودلالات اختلاف الصوغ فيها موضع اهتمام البلاغيين والنحاة ، وبذل النحاة في ذلك جهوداً خصبة ، وكانت كتبهم تشمل على كثير من المباحث البلاغية في هذا الباب .

ويقول الأستاذ شعراوي : وإذا كان النحو هو انتحاء كلام العرب في تصرفه من أعراب وغيره ليلاحق من ليس من أهل العربية بأهلها في الفصاحة

كما يقول ابن جنى فلا غرابة أن نجد الإعراب في كتبه الأولى مزوجاً بكثير من أسرار التراكيب ، إذ مهمة النحو في نظرهم لا تقف عند حدود الإعراب ، بل هي أكبر من هذا ، وأعظم . يوضحها أبو سعيد السيرافي حيث يقول معاني النحو منقسمة بين حركات اللفظ وسكناته ، وبين وضع الحروف في مواضعها المقتضية لها ، وبين تأليف الكلام بالتقديم والتأخير ، وتوخي الصواب في ذلك وتجنب الخطأ (١) .

ثم يقول وأنت حين تقرأ في كتب النحاة الأولين تجد في الغالب يحاولون أن يحددوا لكل تركيب حالاً تختص به ولا يبقى غيره فيه غناه (٢) .

وكانت جهود النحاة في هذا الباب أكثر وأعمق من جهودهم في دراسة صور البيان واللوان البديع .

وقد منحس عبد القاهر الجرجاني كلام القوم وأخرج زبدته في كتابه دلائل الإيجاز .

وسوف أعرض الآن لدراسة التقديم ، والاستفهام ، والأمر ، والخطف والفصل ، والوصل ، والالتفات ، والاضمار ، وغير ذلك مما هو متصل بدراسة النظم ، محاولاً تلخيص جهد الامام عبد القاهر في ضوء جهود من سبقه وذلك فيما عرض له من مسائل .

(١) التقديم :

درس عبد القاهر التقديم في صورة الإيئات ، وفي صورة النفي ، وفي صورة الاستفهام ، وبين أنه يكون لعائدة في كل حال . لأنه من الخطأ أن يقسم الأمر في تقديم الشيء وتأخيره فسمين : فيجعل متبداً في بعض الكلام وغير متبداً في بعض (٣) .

(١) تاريخ البلاغة : للأستاذ شعراوي غنوط ورواة ٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣ .

(٣) ينظر دلائل الإيجاز ص ٥٦ .

وكان عبد القاهر باحثاً جريئاً دقيق النظر ، فقد كان أول من يعرض لنا صوراً من التقديم مشيراً إلى عدم جوازها لأنها تنطوي على تناقض في دلالات الخصائص وإن أجازها النحاة .

يقول في هذا : وما يعلم به ضرورة أنه لا تكون البداية بالفعل كالبداية بالاسم أنك تقول أقلت شعراً قط أرايت اليوم إنساناً ، فيكون كلاماً مستقيماً ، ولو قلت أنت قلت شعراً قط ، أنت رأيت إنساناً ؟ أخطأت . وذلك أنه لا معنى للسؤال عن الفاعل من هو في مثل هذا ، لأن ذلك إنما يتصور إذا كانت الإشارة إلى فعل مخصوص نحو أن تقول من قال هذا الشعر ؟ ومن بنى هذه الدار ؟ ومن أتاك اليوم ؟ ومن أذن لك في الذي فعلت ؟ وما أشبه ذلك مما يمكن أن ينص فيه على معين . فأما قيل شعر على الجملة ورؤية إنسان على الإطلاق فمحال ذلك فيه ، لأنه ليس مما يختص بهذا دون ذلك حتى يسأل عن عين فاعله (١) ، فانت إذا قلت أنت رأيت إنساناً ؟ كنت تسأل عن فاعل فعل لا يصح تحديد فاعله لعمومه وهو رؤية إنسان على الجملة ، وكذلك إذا قلت أنت قلت شعراً قط كنت تسأل عن فاعل فعل لا يصح تحديد فاعله لعمومه وهو قول شعر أي شعر ، وهذا النوع من الأفعال العامة لا يسأل عن عين فاعله ، ولو أردت أن تتبين هل قال المستول شعراً أي شعر ؟ فالعبارة عن ذلك أن تقول أقلت شعراً ، فتسأل عن الفعل ، لأنك إذا سألت عن الفاعل فأنت لا تشك في وقوع الفعل ولشكك تشك في تعيين فاعله ، وقول شعر على الجملة لا يمكن تعيين فاعله ، هذا ما أفهمه من كلام عبد القاهر .

وقد ظن الأستاذ الدكتور شوقي ضيف أنه لا يجوز أن تقول أنت قلت شعراً قط لأنه أي المتكلم جمع في كلامه بين إثبات الفعل والشك في حدوثه ، إذ السؤال مسلط على الشخص لا على فعله فكان ينبغي ألا يضيف كلمة قط (٢) .

وكان المتكلم لو قال أنت قلت شعراً دون إضافة كلمة قط لصح الأسلوب .

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٧

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ١٧٣

وليس هذا مراد عبد القاهر وإنما مراده ما ذكرناه بدليل أنه جعل من الخطأ
أن تقول أنت رأيت لساناً وليس فيه كلمة قط .

وهناك صور كثيرة رفضها عبد القاهر وبين ما تنطوي عليه من تناقض
وقد عارضه في بعضها العلامة سعد الدين التفتازاني وجوزها في مقامات معينة ،
فقد منع عبد القاهر أن يقال ما أنا قلت هذا ولا غيري لما قدمناه من التناقض
في معاني خصائص تركيب الجملة وبيان ذلك أنك حين قدمت المسند إليه مسبقاً
بالتنقيح دل ذلك على نفي الفعل عنك خصوصاً أى عن الفاعل خصوصاً والفعل في
نفسه ثابت لغير هذا الفاعل وقولك ولا غيري نفي لوقوع الفعل وهذا تناقض
وأجازه سعد الدين إذا قامت قرينة على أن التقديم لغرض آخر غير التخصيص ،
كما إذا ظن المخاطب بك ظنين فاسدين أحدهما أنك قلت هذا القول ، والثاني أنك
تعتقد أن قائله غيرك ، فيقول لك أنت قلت لا غيرك ، فتقول له ما أنا
قلته ولا أحد غيري قصداً إلى إنكار نفس الفعل ، فتقدم المسند إليه ليطابق
كلامه ، وهذا إنما يكون فيما يمكن إنكاره كما في هذا المثال ، بخلاف قولك
ما أنا بنيت هذه الدار ولا غيري فإنه لا يصح (١) .

ولكى ندرك في إيجاز أثر عبد القاهر في بحث التقديم نعرض قدرأ من
الشواهد التي ساقها في هذا البحث ، وحلها ، وبين سر التقديم فيها ، والتي دار
حولها الدرس في كتب البلاغيين من بعده . فقد ذكر في تقديم الفاعل قوله
تعالى ، أنت فعلت هذا بأهلنا يا إبراهيم ، الانبياء آية ٦٣ .

وفي إنكار الفعل قوله تعالى أفاضناكم ربكم بالبنين ، واتخذ من الملائكة
إناماً ، الإسراء آية ٤٠ ، وقوله تعالى أصطفى البنات على البنين . (الصافات
آية ١٥٣) .

وذكر في إنكار الفعل في صورة إنكار الفاعل قوله تعالى ، الله أذن
لكم ، يونس آية ٥٠ وقوله تعالى ، الذكرين حرم أم الإنثيين ، الانعام آية ١٤٤ ،

وذكر في إنكار المفعول وأنه بمثابة أن يوقع به مثل ذلك الفعل قوله تعالى ، قل أغير الله اتخذ ولياً، الانعام آية ١٤ وقوله تعالى، أبعثنا واحداً ننبهه ، سورة القمر آية ٥٤ .

وقد ذكر من الشواهد قول الشاعر :

أبقتلنى والمشرقى مضاجعى	ومسنونة زرق كأنباب أغوال
وقوله : أترك إن قلت دراهم خاله	زيارته أنى إذ لشم
وقوله : فذبح الوحيد فأوعيدك ضائرى	أطنين أجنحة الذباب يضير
وقوله : وما أنا أسقمت جسمى به	ولا أنا أضرمت فى القلب ناراً
وقوله : هم يفرشون اللبد كل طمرة	وأجرد سباح يذ المغالبا
وقوله : هم يضربون الكباش يبرق بيضه	على وجهه من الدماء سباب
وقوله : هما يلبسان المجد أحسن لبسة	شحيحان ما استطاعا إليه كلاهما

وغير ذلك مما لم نذكر وقل أن تخرج دراسة التقديم في كتب المتأخرين مما دار حول هذه الشواهد من تحليلات . وسوف نجد الإمام الزمخشري متأثراً بكثير من هذه الشواهد فيما درس من التقديم .

وكان الدارسون قبل عبد القاهر يكتبون أكثرهم بيان أصل العبارة في دراسة التقديم وذلك مثل قول ابن قتيبة : ومن المقدم والمؤخر قوله تعالى ، والحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قياً ، أراد أنزل الكتاب قياً ولم يجعل له عوجاً ، ومنه قوله ، فضحكت فبشرناها بأسحاق ، أى بشرناها بأسحاق فضحكت ، وقوله ، فكذبوه فعقروها ، أى فعقروها فكذبوه بالعقر (١) .

وقد نجد من المتقدمين من يذكر له سراً بلاغياً ولكنه ليس من النوع الذى يذكره عبد القاهر . من ذلك ما يذكره الباقلافي في رفضه لما ذهب إليه بعضهم من وجود السجع في القرآن الكريم مستدلين بتقديم موسى على هرون في موضع وتأخير هرون عنه في موضع آخر ، وذلك مراعاة للسجع وتساوى المقاطع

كما زعموا . يرفض الباقلان هذا ويبين أن التقديم والتأخير لغرض آخر غير ما ذكروه .

يقول في هذا وأما ما ذكروه من تقديم موسى على هرون عليهما السلام في موضع وتأخيره عنه في موضع لمكان السجع وتساوي مقاطع الكلام فليس بصحيح ، لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بالفاظ مختلفة تؤدي معنى واحداً من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة وتبين به البلاغة ، وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة ، ونهبوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ به ومكرراً ، ولو كان فيهم تمكن من المعارضة لقد صدوا تلك القصة وهبوا عنها بالفاظ لهم تؤدي تلك المعاني ونحوها وجعلوها بازاء ما جاء به ، وتوصلوا بذلك إلى تكذيبهم ، وإلى مساواته فيما حكى وجاء به ، وكيف وقد قال لهم قلياتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها لإظهار الإعجاز على الطريقتين جميعاً دون السجع الذي توهموه .

ولا نستطيع أن ندهى إن شيئاً من هذه الدراسات كان أصلاً لبحت التقديم عند الجرجاني لاختلاف المنزوع والأسلوب في كل منهما . إذن فما أصل هذا البحث .

قد أشار الجرجاني إلى صاحب الكتاب وإلى ما قاله في التقديم من أنهم يقدمون الذي - بيانه أهم وهم بشأه أعنى ، وإن كانا جميعاً هيمانهم ويعنيانهم ، ثم ذكر عبد القاهر ما قالوه في قتل الخارجي فلان، وقتل فلان الخارجي وتوحيدهم للمقام الذي يقتضى كل صورة من هاتين الصورتين وعاقب على ذلك بقوله وهذا جيد بالغ ، ثم أنه ينبغي أن يعرف في كل شيء قدم في موضع من الكلام مثل هذا المعنى ويتفر وجه العناية فيه هذا التفسير (١) .

وحيث نسترسل في قراءة كتاب سيبويه نجد دراسات أخرى في التقديم

(١) دلائل الإعجاز ص ٧٤

(٢) صور من تطور البيان العربي ص ٧٠

تزيد على ما نقله عنه الجرجاني في هذا الموطن ، بل قد تكون أصلاً لكل ما ذكره الجرجاني في هذا الباب .

يقول سيبويه في باب ما يكون فيه الإسم مبنياً على الفعل قدم أو آخر ، وما يكون فيه الفعل مبنياً على الاسم :

وإذا بنيت الفعل على الاسم قلت زيد ضربته فلزمته الماء ، وإنما تريد بقولك مبنى عليه الفعل أنه في موضع ينطلق إذا قلت عبد الله ينطلق ، فهو في موضع هذا الذي بنى على الأول وارتفع به وإنما قلت عبد الله فبنيته ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء (١) .

وقد أفاد عبد القاهر الجرجاني من هذا الكلام حين وجه التقوية والتوكيد في صورة تقديم الاسم على الفعل أو بناء الفعل على الاسم يقول : فإن قلت فن أين وجب أن يكون تقديم ذكر المحدث عنه بالفعل أكد لإثبات ذلك الفعل له ؟ وأن يكون قوله مما يلبسان المجد أبلغ في جعلهما يلبسانه من أن يقال يلبسان المجد ؟ فإن ذلك من أجل أنه لا يؤتى بالاسم معرى من العوامل إلا بالحديث قد نوى إسناده إليه ، وإذا كان كذلك فإذا قلت عبد الله فقد أشمرت قلبه بذلك أنك قد أردت الحديث عنه ، فإذا جئت بالحديث فقلت مثلاً قام أو قلت خرج أو قدم فقد علم ما جئت به وقد وطأت له وقدمت الإعلام فيه فدخل على القلب دخول المأموس به ، وقبله قبول المتبهي له ، المطمئن إليه ، وذلك لأعماله أشد لثبوته ، وأنى للشبهة ، وأمنع للشك ، وأدخل في التحقيق (٢) .

وهذا شرح وتفصيل لقول سيبويه السابق وإنما قلت عبد الله فبنيته ثم بنيت عليه الفعل ورفعته بالابتداء ، وقد أشار عبد القاهر إلى هذه العبارة في كلام سيبويه وأشار إلى إفادته من نص سيبويه الذي البقناه في قوله وهذا الذي قد ذكرت من أن تقديم ذكر المحدث عنه يفيد التنيبه له قد ذكره صاحب الكتاب في المفعول إذا قدم فرفع بالابتداء وبني الفعل الناصب كان له عليه ، وهدى إلى

(١) كتاب سيبويه ج ١ ص ٤٩

(٢) دلائل الإعجاز ص ٨٨

ضميره ، ففعل به ، كقولنا في ضربت عبد الله ، عبد الله ضربته فقالوا [فما قلت
عبد الله فنبهته ثم بنيت عليه الفعل ورفعت بالابتداء (١) .

وقد ذكر سيبويه أصول بحث التقديم في الاستفهام ، وقد خالفه الجرجاني
في بعضها ولكنه متأثر به لا محالة .

يقول سيبويه : هذا باب أم إذا كان الكلام بمنزلة أيهما وإيهم ، وذلك
قولك أزيد عندك أم عمرو ؟ وأزيداً لقيت أم بشرأ ؟ فانت الآن مدع أن عنده
أحدهما ، لأنك إذا قلت أيهما عندك وأيها لقيت فأنت مدع أن المسئول قد
لقى أحدهما ، أو أن عنده أحدهما إلا إن عليك أستوى فيهما لا تدرى أيهما هو ،
والدليل على أن قولك أزيد عندك أم عمرو بمنزلة قولك أيهما عندك أنك لو قلت
أزيد عندك أم بشر فقال المسئول لا كان محالاً ، كما أنه إذا قال أيهما عندك
فقال لا فقد أحال .

واعلم أنك إذا أردت هذا المعنى فتقديم الإسم أحسن ، لأنك لا تسأله عن
اللقى ، وإنما تسأله عن أحد الاسمين لا تدرى أيهما هو ، فبدأت بالإسم لأنك
تقصد قصداً أن يبين لك أي الاسمين عنده ، وجمعت الإسم الآخر عديلاً للأول ،
وصار الذي لا تسأل عنه بينهما . ولو قلت ألقىت زيدا أم عمراً كان جائزاً أحسن ،
ولو قلت أزيدك زيد أم عمرو كان كذلك ، وإنما كان تقديم الإسم ههنا أحسن
ولم يجز الآخر إلا أن يكون مؤخرأ لأنه قصد أحد الاسمين فبدأت بأحدهما
لأن حاجته أحدهما فبدأت به مع القصة التي لا يسأل عنها ومن هذا
الباب قوله ما أبالي أزيداً لقيت أم عمراً ، وسواء على أبشراً كلمت أم زيدا
كما تقول ما أبالي أيهما لقيت وتقول اضربت زيدا أم قتلته ، فالبدء بالفعل
ههنا أحسن ، لأنك إنما تسأل عن أحدهما لا تدرى أيهما كان ، ولم تسأل عن
موضع أحدهما ، فالبدء بالفعل ههنا أحسن كما كان البدء بالإسم ثم أحسن ، فيما
ذكرنا كأنك قلت أي ذلك كان بريئاً وتقول اضربت أم قتلتي زيدا ؟ لأنك
مدع أحد الفعائين ولا تدرى أيهما ، هو كأنك قلت أي ذلك كان بريئاً (٢) .

(١) للرجع السابق

(٢) كتاب سيبويه ج ١ ص ٤٨٢ ، ٤٨٣

وإذا كان سيبويه يضع في هذا النص أصول بحث التقديم في الاستقبال فإننا لا نشك في أن عبد القاهر أضاف تحليلات للأمثلة والشواهد التي ذكرناها ثم عن ذوق بصير قادر ، وقد خالف عبد القاهر سيبويه في أصل هام يتضمنه هذا النص ، ذلك أن الجرجاني يرى أن قولنا ألقيت زيدا أم عمراً خطأ ، وهو جائز حسن عند سيبويه ، وقد نقل الدماميني هذا الرأي عن سيبويه وقال ومثله في مقرب ابن عصفور ، وقد علق على هذا الشيخ الإباني رحمه الله بقوله أن كان مراده - يعنى الدماميني - مجرد بيان طريقة النحاة فالامر ظاهر ، وإن كان مراده معارضة كلام المصنف بكلامهم ففيه أنه لا يترض بذهب ، لأنه قد يكون الأحسن عند النحوي واجبا عند البليغ ، على أنه يمكن حل كلام المصنف على الأحسنية (١) .

ولا أستطيع أن أفهم كلام الجرجاني على نفي الأحسنية ، كما لا أستطيع أن أعتبر هذا من الواجب البلاغى الذى هو من الحسن النحوى كما ذكر الإباني رحمه الله ، لأن عبارة عبد القاهر صريحة في أن هذا الأسلوب فاسد وخطأ وخارج عن كلام الناس وغير ذلك مما يدل صراحة على البطلان لا على نفي الأحسنية . وإن كان لم ينص على هذه الصورة بعينها ولكن الأصول التي راعها في هذا الباب صريحة في بطلانها وفسادها ، فالحكم في المسألة حكم صحة وخطأ وليس حكم حسن وأحسن ، والفصل في هذه المسألة لا يكون بقوة الحجمة وقدرة الجدل وإنما الحكم فيها لواقع اللغة هل ورد مثله عن العرب أم لم يرد ؟ والجرجاني يبنى رفضه على أساس أن المستول عنه هو ما يلى الهمة ، فوجب أن يكون المعادل لام هو ما يليها حتى لا يتناقض الكلام .

ولا أشك في أن سيبويه من أفقه الناس لأسرار هذه اللغة كما أنه من النحاة الأوائل الذين شافهوا الأعراب واخذوا عنهم ، وقصته مع الكسائي مشهورة ، وفيها كان أعراب البادية حكما في مسألة الخلاف ، ولا تهمنا نزاهتهم في الحكم وعدمها ، وإنما المهم أنهم كانوا أصحاب سليقة يستشهد بها النحاة .

(١) حاشية تجريد البناني مع تقرير الفحص الإباني ص ٣١٤

والنحو بعد سيبويه يقولون ، أن الاستفهام يقتضى الفعل ويطلبه ، وذلك من قبل أن الاستفهام فى الحقيقة إنما هو عن الفعل ، لأنك إنما تستفهم عما تشك فيه وتجهل عليه ، والشك إنما وقع فى الفعل ، وأما الاسم فمعلوم عندك ، (١) .

ولا نسلم لهم بهذا لأن السائل قد يكون شاكا فى الفاعل وغير شاك فى الفعل كما فى قوله تعالى ، أنت فعات هذا بأطمتنا يا إبراهيم ، والاستفهام هنا حقيقى على رأى الخطيب وتقريرى على رأى الشيخين عبد القاهر والسكاكى ، وقد اشترطوا فى التقريرى أن يلى المقرر به الممترزة .

ثم يقول ابن يعيش ، وإذا كان حرف الاستفهام إنما دخل للفعل لا للاسم كان الاختيار أن يلىه الفعل الذى دخل من أجله ، وإذا وقع الإسم بعد حرف الاستفهام وكان بعده فعل ، فالاختيار أن يكون مرتفعا بفعل مضمر دل عليه الظاهر ، لأنه إذا اجتمع الاسم والفعل كان حملة على الأصل أولى ، وذلك نحو قواك ازيد قام ؟ ورفعه بالإبتداء جيد حسن لا قبح فيه ، لأن الاستفهام يدخل على المبتدأ والخبر ، وأبو الحسن الاخفش يختار أن يكون مرتفعا بالإبتداء ، لأن الاستفهام يقع بعده المبتدأ والخبر كما ذكرناه ، ولا يفتقر إلى تكلف تقدير محذوف (٢) .

وهذا الكلام الذى نقلناه من شرح المفصل يتعارض مع الجرجانى حين يفترض أصحابه أن السؤال يكون إلا عن الفعل . ويختلف مع سيبويه حين يرى أن الاختيار تقدير فعل قبل الاسم الداخلى عليه حرف الاستفهام ، وهذا يبدو كأنه موقف ثالث فى هذه المسألة التى نعالجها . والذى أراه أن الحق فى هذه المسألة هو ما ذكره سيبويه . لأن المسألة مسألة جواز ومنع كما قلت ، فهى متصلة بقواعد التراكيب وقوانين الاعراب ، والجرجانى نفسه يقر لسيبويه بالإمامة والاستاذية فى هذا الباب ، أعنى قواعد اللغة وأصول التراكيب ولأن سيبويه خاطب العرب الاقحاح ، وأخذ عنهم ، ولم يتبها مثل هذا العيد القاهر .

(١) شرح المفصل لابن يعيش ج ١ ص ٨١ .

(٢) شرح المفصل لابن يعيش ج ١ ص ٨١ .

٢ - الاستفهام :

عرض الجرجاني لمعاني الاستفهام وهو يعالج مسألة التقديم ، وذلك لأن الفرق بين تقديم أحد جزئى الجملة على الآخر وتأخيره عنه يظهر واضحا فى طريقة الاستفهام ، وكانت تحليلات عبد القاهر لنصوصه تحليلات كاشفة وبصيرة فقد استطاع أن يستخرج معانى المهزلة فى استعمالات كثيرة ومختلفة ، وأن يفرق بين إفادتها بطريقة الاستفهام ، فإذا كانت الاستفهام الإنكارى يؤدى معنى أنه لا يكون أو أنه ينبغى ألا يكون فإن لطريقة الاستفهام فضلا على هذه الطريقة المبهودة .

يقول عبد القاهر : وأعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام فى هذا بالإنكار فإن الذى هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه فيتخجل ويرتدع ويعيا بالجواب ، إما لأنه قد ادعى القدرة على فعل لا يقدر عليه فإذا ثبت على دعواه قيل له فأفعل فيه ضحكه ذلك ، وإما لأنه لم بأن يفعل ما لا يستصوب فعله فإذا روجع فيه تنبه وعرف الخطأ ، وأما لأنه جوز وجود أمر لا يوجد مثله فإذا ثبت على نجويزه وبخ على تعنته وقيل له فأرنا فى موضع وفى حال وأقم شاهدا على أنه كان فى وقت ، ولو كان يكون للإنكار وكان المعنى فيه بدء الأمر لكان ينبغى ألا يجيء فيما لا يقول عاقل أنه يكون حتى ينكر عليه كقولهم أتصعد إلى السماء ؟ أتستطيع أن تنقل الجبال ؟ إلى رد ما مضى سبيل ؟ (١) .

ويجتمد عبد القاهر فى توضيح المعنى فى ذهن القارىء وإكسابه ذوق الطريقة ، وذلك بكثرة الأمثلة والشواهد ، حتى تشعر بالحاجة على المعنى وتنبه له يقول : فإن أردت بفعل المستقبل كان المعنى إذا بدأت بالفعل على أنك تصد بالإنكار إلى الفعل نفسه وتزعم أنه لا يكون أو أنه لا ينبغى أن يكون فقال الأول :

أيقننى والمشرفى مضاجعى ومسنونة زرق كأبياب أغوال

فهذا تكذيب منه لإنسان تهدده ، وإنكار أن يقدر على ذلك ويستطيعه ،
ومثله أن يطمع طامع في أمر لا يكون مثله فتجمله في طمعه ، فنقول أترض عنك
فلان وأنت مقيم على ما يكره ؟ أنجد عنده ما تحب وقد فعلت وصنعت ؟ وهل
ذلك قوله تعالى : أنزل مكموها وأتم لها كارهون . . . ومثال الثاني قولك للرجل يركب
الخطر أخرج في هذا الوقت ؟ أنذهب في غير الطريق ؟ أتزر بنفسك ؟ وقولك
للرجل يضيع الحق أنسى قديم إحسان فلان ؟ أتترك صحبته وتتغير عن حاله
معه لأن تغير الزمان كما قال :

أترك إن قلت دراهم خاله زيارته إنى إذن للشم

وجملة الأمر أنك تنحو بالإنكار نحو الفعل (١) .

وقد سبق هبـ القاهر الجرجاني بكثير من الإشارات الهامة في دراسة
الاستفهام ، فقد ذكر الفراء بعض معاني الاستفهام .

يقول في قوله تعالى : كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ، رد على
وجه التعجب والتوبيخ لا على الاستفهام المحض أى ويحكم كيف تكفرون وهو
كقوله فآين تذهبون (٢) وقد تكررت إشارات سيبويه إلى معاني الاستفهام .
من ذلك قوله في باب ما جرى من الأسماء التي لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء
التي أخذت من الفعل . . . وذلك قولك أتميميا مرة وقيسيا أخرى ؟ وإنما هذا
لأنك رأيت رجلاً في حال تلون وتنقل فقلت أتميميا مرة وقيسيا أخرى ؟ كأنك
قلت أتحول تميميا مرة وقيسيا أخرى ؟ فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا
له وهو عندك في تلك الحال في تلون وتنقل ، وليس يسأله مسترشداً عن أمر هو
جاهل به ليفهمه إياه ويخبره عنه ولكنه وبخه بذلك ، وحدثنا بعض العرب أن
رجلاً من بني أسد قال يوم جيلة واستقبله بعير أعور فتطير منه فقال يا بني أسد
أعور وذا ناب ؟ فلم يرد أن يسترشد لم يخبروه عن عوره وصحته ولكنه نبههم
كأنه قال أتستقبلون أعور وذا ناب ؟ والاستقبال في حال تنبهه إيام كان واقفاً كما

(١) دلائل الإعجاز ص ٨٠

(٢) معاني القرآن للفراء ج ١ ص ٢٤

كان التلوين والتنقل عندك ثابتين في الحال الأولى (١) .

وقد ذكر دلالة الاستفهام على التسوية وهو يتحدث عن دلالة النداء على الاختصاص وقاس خروج النداء إلى الاختصاص على خروج الاستفهام إلى التسوية . وهو هنا يحاول أن يربط بين المعنى الذي دل عليه الاستفهام والنداء وبين المعنى الأصلي لكل منهما ، فهناك مناسبة بين الاستفهام الحقيقي والتسوية كما أن هناك مناسبة بين النداء والاختصاص ، وهذه محاولة مبكرة وهامة ولعلها من الأصول التي اعتمد عليها المتأخرون في اعتبار معاني الاستفهام من المجاز ثم جهدوا في بيان علاقاته .

يقول سيديويه : هذا باب ماجرى على حرف النداء وصفا له وليس بمسأدى ينسبه غيره ولكنه اختص كما أن المنادى مختص من بين أمته لأمره أو نهيته أو خبره ، فالاختصاص أجرى هذا على حرف النداء ، كما أن التسوية أجرت ما ليس باستخبار ولا استفهام على حرف الاستفهام لأنك تسوى فيه كما تسوى في الاستفهام ، فالتسوية أجرته على حرف الاستفهام ، والاختصاص أجرى هذا على حرف النداء وذلك قولك ما أدري أفل أم لم يفعل ؟ لجرى هذا كقولك أزيد عندك أم عمرو ؟ وأزيد أفضل أم خاله ؟ إذا استفهمت لأن عندك قد استوى فيهما كما استوى عليك الأمران في الأول ، فهذا نظير الذي جرى على حرف النداء وذلك قولك أما أنا فأفعل كذا وكذا أيها الرجل ونفعل نحن كذا وكذا أيها القوم وعلى المضارب الوضيعة أيها البائع ، واللهم اغفر لنا أيها العصابة (٢) .

وقد أشار ابن جنى إلى خروج الاستفهام عن معناه وذكر في ذلك شواهد تسكرت كثيراً في هذا الباب ، وله فيه إشارات قيمة منها أن الاستفهام الذي يخرج عن معناه يظل ملاحظاً لهذا المعنى ناظراً إليه ، وهذه فكرة عامة شغل ببيانها عبد القاهر وأشار إليها في الاستفهام ، كما أشار إليها في باب الاستعارة حيث يقرر أن كلمة الأسد حين يراد بها الرجل الشجاع تستصحب كثيراً من

(١) الكتاب سيديويه ج ١ ص ١٧٢

(٢) كتاب سيديويه ج ١ ص ٣٢٦

معناها الأصلية أي الحيوان المفترس ، فلذلك ترميم في خيالك صورة الرجل في هيئة الأسد وعبالته .

يقول ابن جني ومثله خروج الهمزة عن الاستفهام إلى التقرير ، ألا ترى أن التقرير ضرب من الخبر وذلك ضد الاستفهام ، ويدل على أنه قد فارق الاستفهام امتناع النصب بالفاء في جوابه والجزم بغير الفاء في جوابه ولاجل ما ذكرنا من حديث همزة التقرير صارت تنقل النفي إلى الإثبات والإثبات إلى النفي وذلك كقوله :

أستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

أي أستم كذلك ، وكقول الله عز وجل ، والله أذن لكم ، ووأنت قلت للناس ، أي لم يأذن لكم ولم تقل للناس اتخذوني وأمي الهين ، ولو كانت استفهاماً محضاً لأقرت الإثبات على إثباته والنفي على نفيه واعلم أنه ليس شيء يخرج عن بابيه إلى غيره إلا لأمر قد كان وهو على بابيه ملاحظاً له وعلى صدد من الهجوم عليه (١) .

وقد أشار المبرد إلى خروج الاستفهام عن معناه وذكر جملة من هذه المعاني كتاب الكامل وأشار إلى بعضها في كتاب المقتضب .

وذكر قول الشاعر أنت أسمى ما لم تكن لي حاجة ، وبين أن الاستفهام هنا تقرير وذكر قوله تعالى ، أنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله ، وأشار إلى أن الاستفهام فيها للتوبيخ ، ثم قال : وقد ذكرنا التقرير الواقع باللفظ الاستفهام في عوضه من الكتاب المقتضب مستقصى . ونذكر منه جملة في هذا الكتاب إن شاء الله (٢) .

وأشار ابن عنتبة إلى دلالة الاستفهام على التقرير وذكر قوله سبحانه وأنت قلت للناس ، وقوله ، وما أملاك يمينك يا موسى ، وقوله ، ما إذا أجبتم المرسلين ،

(١) الخصائص ج ٢ ص ٤٦٣ وما بعدها .

(٢) الكامل ج ١ ص ١٠٣ .

وذكر دلالة على التعجب ومثل له بقوله تعالى وهم يتساءلون ؟ عن النبي العظيم ،
وقوله تعالى ولاي يوم أجات ، وذكر دلالة على التزييح ومثل له بقوله تعالى :
« أتأتون الذكران من العالمين ، (١) .

ثم أن هناك أديباً ناقداً قد عرض لبعض صور خروج الاستفهام عن معناه .
وكانت تأملاته أقرب إلى روح عبدالقاهر من كل ما ذكرنا . ذلك هو أبو القاسم
الحسن بن بشر الأمدى ، فقد أشار إلى خطأ أبي تمام في إصابة المعنى الذى يريد
بأداة الاستفهام ، وأشار كذلك إلى أن المفسرين قد يذكرون من معاني هذه
الأدوات ما لا يرضى عنه اللغويون ، وعرض صوراً وحللاً ، وهو في عرضه
وتحليله كأنه يلهم عبد القاهر الجرجاني في هذا الباب .

يقول أبو بشر : ومن خطئه قوله :

رضيت وهل أرضى إذا كان مسخطى من الأمر ما فيه رضى من له الأمر

فمعى هل في هذا البيت التقرير ، والتقرير على ضربين تقرير للمخاطب على
فعل قد مضى ووقع ، أو على فعل هو في الحال ليوجب المقرو ذلك ويحققه ،
ويقتضى من المخاطب في الجواب الإعراف به نحو قوله هل أكرمتك ؟ هل
أحسنيت إليك ؟ هل أودك وأوثرتك ؟ وهل أفضى حاجتك . وتقرير على فعل
يدفعه المقرر وينبئ أن يكون قد وقع نحو قوله هل كان قطـ إليك شئـ كرمته ؟
هل عرفت منى غير الجليل ؟ فقوله في البيت وهل أرضى تقرير لفصل يشفيه عن
نفسه وهو الرضا كما يقول القائل ، وهل يمكننى المقام على هذه الحال ، أى
لا يمكننى وهل يصبر الحر على النذل ؟ وهل يروى زيد أو هل يشبع عمرو ؟ وهذه
أفعال معناها النفي ، فقوله وهل أرضى إنما هو نفي للرضا فصار المعنى ولست
أرضى إذا كان الذى يسخطنى ما فيه رضا من له الأمر أى رضا الله تعالى وهذا
خطأ منه فاحش .

فإن قال قائل فلم لا يكون قوله وهل أرضى تقريراً على فعل هو في الحال

(١) ينظر تأويل شكل القرآن ص ٢١٥ وينظر مطول ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، نبيه الأيضاح

ليؤكد من نفسه نحو قوله هل أودك ، هل أوترك ؟ ونحو قول الشاعر
هل أكرم مشوي الضيف إن جاء طارقاً وأبذل معروفى له دون منكرى
قيل له ليس قول القائل لمن يخاطبه هل أودك هل أوترك وقوله سل عنى هل
أصلح للخير أو هل أكرم السر ؟ أو هل أقنع بالميسور مثل قول أبي تمام هل
رضيت ؟ وهل أرضى ؟ فإن صيغة هذا الكلام دالة على أنه قد نفي الرضا عن
نفسه بإدخاله الواو على هل وإنما يشبه هذا قول القائل ، وهل أرضى إذا كانت
أفعالك كذا ؟ وهل أصلح للخير عندك إذا كنت تعتقد غير ذلك ؟ وهل ينفع
في يد العتاب ؟ كقول الشاعر :

وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

وقول ذي الرمة :

وهل يرجع التسليم أو يكشف العمى ثلاث الأمانى والرسوم البلاغ
لأن الوره هنا كأنها عطفت جواباً على قول القائل إن فلانا سيصلح ويرجع
إلى الجليل فقال آخر وهل يصلح العطار ما أفسد الدهر

كقول ذي الرمة :

أمنزلى ميسى سلام عليكما هل الأزمى اللأى معين رواجع
لما علم أن التسليم غير نافع عاد على نفسه فقال وهل يرجع التسليم ، وكما قال
أمرؤ القيس :

وإن شفائي حيرة مهراقة . . ثم قال وهل عند رسم دارس من معول .

وكذلك قول أبي تمام رضيت ثم قال ، وهل أرضى إذا كان مسخلى

إنما معناه ولست أرضى فكان وجه الكلام أن يقول رضيت وكيف لا أرضى
إذا كان مسخلى ما فيه رضا الله تعالى . وكذا أراد فأخطأ في اللفظ وأحال المعنى
عن جهته إلى ضده .

فإن قيل أن هل هنا بمعنى قد ، وإنما أراد الطائي رضيت وقد أرضى كما قال
تعالى ، هل أتى على الإنسان حين من الدهر ، أى قد أتى ؟ قيل هذا إنما قاله قوم من

أهل التفسير وتبهم قوم من النحويين . . . وأهل اللغة جميعاً على خلاف ذلك إذ لم يأت في كلام العرب وأشعارها هل قام زيد بمعنى قد قام زيد (١) .

وقد نقلت هذا النص الكبير لأنه كما قلت أقرب الدراسات التي دارت حول الاستفهام إلى ما ذكره عبد القاهر . وقد كان عبد القاهر وهو يدرس دلائل الإعجاز يتأثر بما كتب في الأدب والشعر أكثر مما يتأثر بما كتب في إعجاز القرآن .

٣ - الأمر :

وكانت الإشارة إلى خروج صيغة الأمر عن معناها الأصلي إشارة مبكرة لأنها لا تحتاج إلى جهد وتعمق ، فليس الأمر فيها أكثر من إدراك دلالة اللفظ حتى يقال أن الأمر هنا بمعنى التهديد أو بمعنى الدعاء .

فقد أشار سيبويه إلى بعض معاني هذه الصيغة يقول في هذا ، واعلم أن الدعاء بمنزلة الأمر والنهي ، وإنما قيل دعاء لأنه استعظم أن يقال أمر أو نهي وذلك قولك اللهم زيذا فاغفر ذنبه ، وزيداً فأصلح شأنه . وعمراً ليحوزه الله خيراً ، ونقول زيذا قطع الله يده ، وزيداً أمر الله عليه العيش ، لأن معناه معنى زيداً ليقطع الله يده (٢) .

وذكر أبو عبيدة في مجاز القرآن بعض هذه الصور :

يقول في قوله تعالى : **داعملوا ما شئتم** ، وقوله **من شاء فليكفر** ، أن هذا ظاهره الأمر وباطنه الزجر ، وهو من سنن العرب تقول إذا لم تستح فافعل ما شئت (٣) .

وأشار ابن قتيبة إلى بعض صور ذلك .

يقول في باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه : **ومنه أن يأتي الكلام على لفظ**

(١) الموازنات ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) الكتاب ١٦ ص ٧١

(٣) عن كتاب تاريخ علوم البلاغة للشيخ المراهي ص ١٢

الأمور وهو تهديد كقوله «اعملوا ما شئتم» ، وأن يأتي على لفظ الأمر وهو تأديب كقوله «واشهدوا ذوى عدل منكم» ، «واهجروهن في المضاجع واضربوهن» ، وعلى لفظ الأمر وهو إباحة كقوله «فكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً» ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض» ، وعلى لفظ الأمر وهو فرض كقوله تعالى «واذكروا الله» ، «واقیموا الصلاة وآتوا الزكاة» (١) .

ويشير الشريف المرتضى إلى أن خروج الأمر عن معناه كثير في القرآن والشعر وكلام العرب ، يقول في قوله «تعالى انبثوق بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين» .

والوجه الثاني أن يكون الأمر وإن كان ظاهره أمر فتعير أمر على الحقيقة ، بل المراد به التقرير والتعبيه على مكان الحجية ، وقد يرد بصورة الأمر ما ليس بأمر والقرآن والشعر وكلام العرب يملوه بذلك (٢) .

وقد اهتم الفقهاء بمعاني هذه الصيغة كما اهتموا بمعاني صيغة النهي وذلك لانصافها بالأحكام الفقهية ، ولذلك نجد معنى الوجوب والتعريم والإباحة وكلها اصطلاحات فقهية تتكرر في محيط دراسة الأمر والنهي كما هو واضح في هذه النصوص ، وكما نجد في آمالى ابن السجري فقد ذكر دلالة الأمر على الندب والاستحباب ، وعرفهما ، ومثل ذلك بقوله تعالى «واذكروا الله كثيراً» ، وقوله تعالى «فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام» ، وذكر دلالة على الإباحة أى بإفادة الأمر لإباحة الشيء بعد حظره كقوله تعالى «فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض» ، وقوله «فاذا حللتم فاصطادوا» ، وما يذكر أن هبة الله كان معاصراً للزنجشري وله معه محادثات قد أشيرنا إليها ، وقد أشار ابن السجري إلى علماء المعاني وإلى تحديد يدهم دلالة هذه الصيغة بقوله فإن أصحاب المعاني قالوا الأمر لمن دونك والطلب والمسألة لمن فوقك ، وسموا هذه الصيغة إذا وجهت إلى الله تعالى دعاء ، ويقول أيضاً واعلم أن من أصحاب المعاني من قال أن صيغة الأمر مشتركة بين هذه المعاني ، وهذا غير صحيح لأن الذى يسبق إلى الفهم هو طلب

(١) غاويل شكل القرآن

(٢) آمال المرتضى ج ٣ ص ٦٥٦

الفعل فدل على أن الطالب حقيقة فيها دون غيره ولكنها حلت على غير الأمر
الواجب بدليل (١) .

٤ - الحذف :

كان حديث عبد القاهر في موضوع الحذف مرجعاً هاماً للدارسين من بعده،
وسوف نجد الزخشري يعتمد عليه كثيراً في هذا الباب .

وقد تعرض لهذا الموضوع كثير من البلاغيين قبل عبد القاهر وكان الإيجاز
هو البلاغة كما قالوا أو هو قسم من أقسامها العشرة كما ذكر الرماق .

وقد كثر حديث سيبويه عن الحذف، وبيان المحذوف، والمواضع التي يكثر
فيها الحذف ، ولو تتبعناه في هذا لاطال بنا الحديث ، ويكفي أن أقول أن دراسة
الحذف في كتابه صبغت بالصيغة النحوية، وإن كانت تنزع أحياناً منزوعاً فنياً بلاغياً،
وسيبيويه عالم مهتم ببيان نحو العرب في كلامها أي اتجاهاتها وطرائقها، لذلك نراه
يشير كثيراً إلى أن هذه طريقة تم ، وقد عقد أبواباً كثيرة للحذف، من ذلك باب
ما يحذف منه الفعل لكثرة في كلامهم حتى صار بمنزلة المثل ، ويقول فيه وذلك
قولك هذا ولا زعماتك أي ولا أتوهم زعماتك ، ومن ذلك قول الشاعر وهو
ذو الرمة وذكر المنازل والديار

ديار مية اذمى مساعفة ولا يرى مثلها هم ولا عرب
كأنه قال اذكر ديار مية ولكنه لا يذكر اذكر لسكرة ذلك في كلامهم... ومن
ذلك قول العرب كليهما وتمراً، فهذا مثل قد كثر في كلامهم واستعمل وترك ذكر
الفعل لما كان قبل ذلك من الكلام كأنه قال اعطني كليهما وتمراً (٢) .

ويذكر أبياتاً في الحذف أشار إليها عبد القاهر في صدر حديثه عن الحذف،
من ذلك قول سيبويه ، وقال الشاعر :

اعتاد قلبك من ليسلى هوائله وهاج أهولك المكنونة الطلل
ربح قواء أذاع المعصرات به وكل حيران سار حلقه نخشل

(١) ينظر الأمل في العجربة ج ١ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١

(٢) كتاب سيبويه ج ١ ص ١٤١ ، ١٤٢

كأنه أراد ذلك ربع أو هو ربع رفته على ذلك وما أشبهه وسميائه من يرويه عن العرب ، ومثله لعمر بن أبي ربيعة .

هل تعرف اليوم رسم الدار والطلا
دار لمروة إذ أملى وأهلهم
كما عرفت بجفن الصقل الخلالا
بالكاسية زعى اللهب والغزلا

فاذا رفعت فالذى في نفسك ما أظهرت ، وإذا نصبت فالذى في نفسك غير ما أظهرت (١) .

ويقول في باب استعمال الفعل في اللفظ لافي المعنى لا تساعهم في الكلام وللإيجاز والاختصار ، وبما جاء على اتساع الكلام والاختصار قوله تعالى ، وأسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها ، إنما يريد أهل القرية فاختصر عمل الفعل في القرية كما كان عاملا في الأهل لو كان ههنا ، ومثله بل مكر الليل والنهار وإنما المعنى بل مكرهم في الليل والنهار ، وقال تعالى ، ولكن البر من آمن بالله ، وإنما هو ولكن البر بر من آمن بالله . ومثله في الاتساع قوله عز وجل ، ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، فلم يشبهوا بما ينعق وإنما شبهوا بالمنعوق ، وإنما المعنى مثلكم ومثل الذين كفروا كمثل الناقع والمنعوق به الذي لا يسمع ، ولكنة جاء على سعة الكلام والإيجاز لعلم المخاطب بالمعنى ومثل ذلك من كلامهم بنو فلان يطؤم الطريق وإنما يطؤم أهل الطريق (٢) .

وسببويه في كل هذا ينظر إلى الكلام فيجد المعنى يتطلب تقدير محذوف فيشير إليه والمقدر كالمذكور ، وكثير من هذه الأمثلة من شواهد المجاز العقلي أو المجاز بالحذف أو المجاز المرسل ولسكننا لانجرح على القول بأن سببويه أشار إلى هذه الفنون لأنه درسها مثلا نحوية لبيان الحذف والتقدير فإذا رأى البلاغيون بعده في هذه الصور فنونا بلاغية أخرى فن المغالطة أن نقول أن سببويه تحدث عنها ، وفرق بين أن نقول أن سببويه أشار إلى صور هذه الفنون البلاغية ، وأن سببويه أشار إلى هذه الفنون البلاغية .

ثم أن سببويه قد ذكر صوراً كثيرة للحذف في باب ما يكون فيه المصدر

(١) شرح سببويه في باب الحذف

(٢) شرح سببويه في باب الحذف

(١) المرجع السابق ص ١٤٢ ، ١٤٣

(٢) كتاب سببويه ص ١٠٥ ، ١٠٦

حيناً لسعة الكلام والاختصار ص ١١٤ ج ١ وفي باب ما يكون من المصادر
منعولاً ص ١١٧ ج ١ وفي باب ما جرى من الأسماء مجرى المصادر التي يدعى بها
ص ١٥٨ ج ١ وفي باب ما أجرى مجرى المصادر المدعو بها من الصفات ص ١٥٩
ج ١ وفي باب ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره من المصادر في غير الغناء
ص ١٦٠ ج ١ ، ومثل هذه الطريقة التي يذكرها سيبويه في مواضع الحذف
نجدها عند الفراء فهو يشير إلى المحذوف وإلى أن هذه طريقة العرب .

يقول في قوله تعالى «واشربوا في قلوبهم العجل بكفرهم» فإنه أراد حب العجل ،
ومثل هذا مما تحذفه العرب كثيراً قال تعالى «واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي
أقبلنا فيها» والمعنى سل أهل القرية وأهل العير والشدة المفضل .

حسبت بغام راحلي عناقاً وما هي ويب غيرك بالعناق

ومعناه بغام عناق ومثله من كتاب الله . ولكن البر من آمن بالله معناه والله
أعلم ولكن البر من فعل هذه الأفعال التي وصف الله والعرب ، قد تقول إذا
سرك أن تنتظر إلى السخاء فانظر إلى هرم أو إلى حاتم (١) .

والمبرد يذكر الحذف بالطريقة التي لا تزيد عن بيان المحذوف والإشارة إلى
أن هذا مذهب واسع في كلامهم .

يقول في قوله تعالى «وتركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم» أو يقال له
هذا في الآخرين ، والعرب تحذف هذا الفعل من قال ويقول استغناء عنه قال الله
عن وجل «فأما الذين أسودت وجوههم أ كفرتم بعد إيمانكم» أي فيقال لهم ومثله
والذين اتخذوا من دونه أولياء «ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى» أي يقولون (٢)

وبذلك ابن جني الحذف في باب شجاعة العربية . ثم يحمل أمر الحذف في اللغة
يقول وقد حذف العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة ، وليس شيء في ذلك
إلا عن دليل وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته ، ثم يذكر
حذف الجملة فيشير إلى أنها تحذف في القسم مثل والله لأفعلن ، والله لقد فعلت

(١) في نسخة أخرى: «واسأل القرية التي كنا فيها والعير التي أقبلنا فيها»

(١) معاني القرآن ج ١ ص ٦١

(٢) السكاك ج ١ ص ١٨٠

وأحطه أقسم بالله فحذف الفعل والفاعل وبقيت الحال - من الجار والجواب
دليلاً على الجملة المحذوفة ، وتحذف الأفعال في الأمر والنهي والتنصيص نحو زيداً
إذا أردت أن أضرب زيداً ، ومنه إياك إذا حذرت أي احفظ نفسك ، والطريق
الطريق ، وحلا خيراً من ذلك . . . وتحذف في الشرط نحو الناس مجزيون بأعمالهم
إن خيراً فتخير وإن شراً فشر (١) .

ويذكر ابن جنى حذف المبتدأ ، وحذف الخبر ، والمضاف ، والمضاف إليه ،
والصفة والظرف والمفعول به ، والمعطوف ، والمعطوف عليه ، والمستثنى -
وخبر إن مع النسكرة خاصة ويحذف له بقول الأعرابي وهو مذكور في دلائل
الإعجاز .

إن محلاً وإن مرتحلاً وإن في السفر إذا مضوا مهلاً
أي إن لنا محلاً وإن لنا مرتحلاً .

وذكر حذف المتنادي ، والمميز وخبر كان ، وغير ذلك من هذه المواضع
التي تكلم فيها النحاة ثم يسكنون من ذكر أسرار الحذف فيها أولاً يعنون ببيان
مافي الحذف من الجهال بقدر عنايتهم ببيان المحذوف (٢) .

ولم تختلف طريقة البلاغيين عن طريقة النحاه كثيراً في دراسة المحذوف
فالمهم عندهم أن يسيروا إلى المحذوف وإلى أن العرب تفعل هذا الانساع والاختصار .
يقول أبو هلال ، وأما الحذف فعلى وجوه ، منها أن يحذف المضاف ويقوم
المضاف إليه مقامه كقوله تعالى وهو أسأل القرية أي أهلها وقوله تعالى وأشربوا في
قلوبهم العجول أي حبه ، وقوله عز وجل والحج أشهر معلومات أي وقت الحج ، وقوله
تعالى دبل مكر الليل والنهار أي مكر كم فيها . . . ومنها أن يوقع الفعل على شيئين
وهو لاحقهما ويضمر الآخر فعله وهو قوله تعالى فاجمعوا أركانكم وشركاءكم . . .
وقول الآخر :

إذا ما الغايات برزن يوماً . . . وزججمن الخواصب والميونا

(١) الخصائص ج ٢ ص ٣٦٠

(٢) ينظر الخصائص ج ٢ ص ٣٦٢ ، إلى ٣٧٢

ومنها أن يأتي الكلام على أن له جواباً فيحذف الجواب اختصاراً لعلم المخاطب
كقوله عز وجل ، ولو أن قرأنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به
الموتى بل لله الأمر جميعاً ، أراد لسكان هذا القرآن فحذف ... ومنها القسم بلا
جواب كقوله تعالى وق والقرآن المجيد ، بل عجبوا ، معناه والله أعلم والقرآن
المجيد لتبعض ، والشاهد ما جاء بعده من ذكر البعث في قوله تعالى ، أتذا متنا
وكتنازاً (١) .

ويقول الأمدى . والحذف لعمري كثير في كلام العرب إذا كان المحذوف
ما تدل عليه جملة الكلام ، قال الله عز وجل ، أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق
الله السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى ، أراد عز وجل أو لم يتفكروا
فيعلوا أنه ما خلق ذلك إلا بالحق ، أو لم يتفكروا فيقولوا ، وأشياء هذا كثير ،
ومن باب الحذف والاختصار قوله تعالى ، فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم
بعد إيمانكم ، وقوله عز وجل ، وإذا لأذناك ضعف الحياة وضعف المات ، يفسر
ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب المات وفي الشعر مثل هذا موجود . قال الشاعر

لو قلت ما في قومها لم تأثم يفضلها ما في حسب وميسم
يريد أحد يفضلها فحذف أحد لأن الكلام يدل عليه ذكر ذلك (٢)

ويشير قدامة بن جعفر إلى فساد الشعر الذي يكون دليل الحذف فيه فامعياً
ويسميه الإخلال ، وهو عنده من عيوب اللفظ والمعنى ، ومن أمثله قول عبد الله
ابن عتبة بن مسعود .

أعاذل عاجل ما اشتى أحب من الأكثر الرايت
فإنما أراد أن يقول عاجل ما اشتى مع القلة أحب إلى من الأكثر المبطل ،
فترك مع القلة وبه يتم المعنى ، ومثل ذلك قول عروة بن الورد .
صجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم ومقتلهم عند الوغى كان أهدوا
فإنما أراد أن يقول صجبت لهم إذ يقتلون نفوسهم في السلم ومقتلهم عند
الوغى أعذر فترك في السلم ، ومن هذا الجنس قول الحارث بن حلوة .

(١) الأمدى ، ص ١١٧ .

(٢) الأمدى ، ص ١١٧ .

(١) الصناعين ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٧٧ .

(٢) الأمدى ، ص ١١٧ .

(٢) الموازنة ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

والعيش خير في ظلال النوك من عاش كذا
فأراد أن يقول والعيش خير في ظلال النوك من العيش بكذا في ظلال العقل
فترك شيئاً (١) .

ولقد نجد في محيط الدراسات القرآنية إشارات إلى بلاغة الحذف وأسباب
تأثيره - فالباقلاني يذكر أن الإيجاز قسم من أقسام عشرة ذكرها بعضهم للبلاغة ،
ثم يقسم الإيجاز قسمين الحذف والقصر .

ثم يقول فالحذف الإسقاط للتخفيف كقوله تعالى و اسأل القرية، وقوله طاعة
وقول معروف وحذف الجواب كقوله ، ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت
به الأرض أو كلم به الموتى ، كأنه قيل لكان هذا القرآن والحذف أبلغ من الذكر
لأن النفس تذهب كل مذهب في القصد من الجواب (٢) .

ويقول الشريف المرتضى في آماله ، وفي القرآن من الحذف المعجبية
والاختصارات - الفصيحة ما لا يوجد في شيء من الكلام ، من ذلك قوله
تعالى في قصة يوسف عليه السلام والناجي من صاحبه في السجن ورويا الملك
البحر السمان والعجاف ، أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون يوسف أيها الصديق افتنا ،
ولو بسط الكلام فأورد محذوفه لقال أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ففعلوا فأتى
يوسف فقال يا يوسف أيها الصديق ومثله قوله في سورة الأنعام ، قل إني أمرت
أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين، أي وقيل لي ولا تكونن من
المشركين ، وكذلك قوله تعالى في قصة سليمان عليه الصلاة والسلام ولسليمان
الريح غدوها شهر ورواحها شهر ، إلى قوله تعالى ، اعملوا آل داود شكراً ، أي
وقيل لهم اعملوا آل داود شكراً (٣) .

وكان ابن قتيبة يسير على طريقة النحاة في بيان المحذوف والمواطن التي يكثر
فيها الحذف فيذكر حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه ويمثل له بقوله

(١) نقد الضرر ص ٢٤٥

(٢) إيجاز القرآن ص ١٦١

(٣) آمل المرتضى ص ٣٧

تعالى ، واسأل القرية ، وقوله تعالى «وأشربوا في قلوبهم العجل» ، ويشير إلى إيقاع الفعل على شيئين وهو لأحدهما وذلك كقوله سبحانه «يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين» ، ثم قال «وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يستهون وحمور عين» ، والفاكهة واللحم والحمور العين ، لا يطاق بها وإنما أراد ويؤتون بلحم طير ، ويشير إلى حذف الجواب للاختصار وعلم المخاطب ويمثل له بقوله تعالى «ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى بل لله الأمر جميعاً» ، أراد ، لكان هذا القرآن حذف . . ويذكر حذف الكلمة والكلمتين ويمثل له بقوله تعالى «فأما الذين أسودت وجوههم أكفرتم ، والمعنى فيقال لهم أكفرتم ، وقوله تعالى «ولو ترى إذ همومون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا» ، والمعنى يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا (١) ثم ذكر حذف جواب القسم وحذف لا والإضمار لغير المذكور وحذف الصفات ثم ذكر آيات من الكتاب العزيز بين فيها المحذوف .

والملاحظ أن أكثر الأمثلة التي تذكر في باب الحذف تتكرر في الكتب المختلفة والتأثر فيها واضح .

فإذا ما نظرنا إلى صنيع عبد القاهر في هذا الباب وجدنا أنه نقت فيه روح الجمال ، يقول مشيراً إلى قيمته البلاغية : هو باب دقيق المسلك ، لطيف المآخذ ، عجيب الأمر ، شبيه بالسحر ، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر ، والعصم عن الإفادة أزيد للإفادة ، وتجدك انطق ما تكون إذا لم تنطق ، وأمم ما تكون بياناً إذا لم تبين (٢) .

ثم نراه يبدأ الحديث فيه على طريقة النحاة بعد إشارته إلى قيمته البلاغية ، ويشير إلى كتاب سيبويه وما ذكره في هذه الآيات :

اعتاد قلبك من ليل هوائه وماج أهواءك المكنونة العليل
ربيع قواء أذاع المعصرات به وكل حيران سار ماؤه خضل
ثم يشير إلى أن هذه طريقة مستمرة عديم إذا ذكروا الديار والمنازل

(١) يقارن أويل شكل القرآن من ١١٩ وما بعدها

(٢) دلائل الاعتقاد من ٩٥

فإنهم يضمرون المبتدأ وقد يضمرون الفعل فينصبون كبيت الكتاب .
ديار مية إذا مى آساعفنا ولا يرى مثاها هجم ولا هرب
ثم يقول : ومن المواضيع التي يطرد فيها حذف المبتدأ القطع والاستثناء ،
يبدعون بذكر الرجل ويقومون ببعض أمره ثم يدعون الكلام الأول ويستأنفون
كلاماً آخر وإذا فعلوا ذلك أتوا في أكثر الأمر بخبر من غير مبتدأ مثال
ذلك قوله :

وعلت أنى يوم ذا ك منازل كعبا ونهدا
قوم إذا لبسوا الحد يد تنمروا حلقا وقدا

ثم يقول وبما اعتيد فيه أن يجهى خبراً قد بنى حل مبتدأ محذوف قولهم بعد
أن يذكروا الرجل فحق من صفته كذا وأخر من صفته كيت وكيت . كقوله .

ألا لافنى بعد ابن نائشة الفنى ولا حرف إلا قد تولى وأدبرا
حق حنظلي ما تزال ركابه تجود بمعروف وتنكر منكرا
وقوله : سأشكر عمراً إن تراخت منيى أياذى لم تمنن وأن هى جلت
فنى غير محبوب الفنى عن صديقه ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت

ومن ذلك قوله جميل :

وهل بثينة يا للناس قاضيق دينى وفاعلة خيراً فأجزئها
تمنوا بعيني مهابة أقصدت بهما قلبى ههية ترمينى وأرمها
هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة ربا العظام بلين العيش خاذها

وهذا كله بيان لطريقة القوم في الحذف وأتهم اعتادوه في أساليب معينة ،
ثم تراءى بقولك إلى الألفى الجمالى في الحذف ويكشف الحجب حتى يطلعك على حره
البلاغى متجاوزاً هذا المجال النحوى بطريقة النفسية للصيغة التي تستخرج من
نفسك الحكم ولا تعول فيه إلا على حسك .

يقول بعد ذكر الأمثلة التي أشرنا إليها وكثير مثلاً :

فتأمل الآن هذه الآيات كلها ، واستقرها واحداً واحداً ، وانظر إلى
موقعها في نفسك ، وإلى ما تجده من اللطف والظرف إن شاء الله عز وجل .

الحذف منها ، ثم قلبت النفس هما تجدد ، وألطفك النظر فيما تحس به ، ثم تكاف
أن ترد ما حذف الشاعر ، وأن تخرجه إلى لفظك ، وتوقعه في محلك ،
فإنك تعلم أن الذي قلت كما قلت ، وأن رب حذف هو فلاة الجهد ،
وقاعدة التجويد (١) .

وهذه الطريقة التي تكشف بلاغة الحذف بالموازنة بين الحذف والذكر
في المقامات المقتضية للحذف أخذ عبد القاهر يرشد إلى بلاغته وبين قيمته
وهو كما قلت لا يقول لنا فيه كلاماً صريحاً وإنما يرشدنا إلى أن نعود
إلى أنفسنا وأن نوازن بين صورتين لتدرك البلاغة بحسنا ، وتقع على
الحسن بأذواقنا .

ومن جيد ذلك قوله ، وإن أردت ما هو أصدق في ذلك شهادة وأدل
دلالة فلنظن إلى قول عبد الله بن الزبير يذكر فريماله قد ألح عليه .

عرضت على زيد لياً أخذ بعض ما يحاوله قبل اهتراس السواغل
فدب ديب البغل يألم ظهره وقال تعلم أنني غير فاعل
تثاب حتى قلت داسع نفسه وأخرج أياها له كالمعول

الأصل حتى قلت هو داسع نفسه أي حسبته من شدة الثأوب وبما به من
الجهد يقذف نفسه من جوفه ويخرجها من صدره ، كما يدسح اليمير جرته ، ثم
أنك ترى إصابة الكلام وهيأته تروم منك أن تنسى هذا المبتدأ وتباعده عن وهمك
وتجتهد ألا يدور في خالك ، ولا يعرض لخاطرك ، وتراك كأنك تتوقاه توفي
الشيء بكره ، والثقل يخشى هجومه (٢) .

وهذا الأصل الذي أتضح في حذف المبتدأ يجرى في كل حذف ، فإما من اسم
أو فعل تجده قد حذف ثم أصيب به موضعه ، وحذف في الحال التي ينبغي أن
يحذف فيها إلا وأنك تجده حذفه هناك أحسن من ذكره ، وترى إضماره في النفس
أولى وأنس من النطق به (٣) .

(١) ينظر الامجاز: ص ٩٦ إلى ٩٩

(٢) دلائل الامجاز: ص ٩٩ ، ١٠٠

(٣) المرجع السابق: ١٠١

ويضع عبدالقاهر تفسيراً هاماً لصفة الفعل بالمفعول وأنها كصفة الفعل بالفاعل فإذا كنت تقصد الإخبار بأن ضرباً قد وقع من زيد قلت ضرب زيد ، وكان كلامك مع من نفي أن يكون من زيد ضرب ، وإذا قصدت الإخبار بأن ضرباً قد وقع من زيد على عمرو قلت ضرب زيد عمراً ، ولم يكن كلامك مع من نفي أن يكون من زيد ضرب على أى وجه وإنما يكون مع من نفي أن يكون قد وقع ضرب من زيد على عمرو ، فإذا أردت الإخبار بأن ضرباً قد كان فقط غير ناظر إلى من وقع منه ولا إلى من وقع عليه ، فالعبارة عن ذلك أن تقول كان ضرب أو حدث ضرب ، وهكذا في كل مرتبة من مراتب التعلقات ، ثم يقول ، وإذا قد عرفت هذه الجملة فاعلم أن أغراض الناس تختلف في ذكر الأفعال المتعدية ، فهم يذكرونها تارة ومرادهم أن يقتصروا على إثبات المعاني التي اشتقت منها للفاعلين من غير أن يتمروا لذكر المفعولين . فإذا كان الأمر كذلك كان الفعل المتعدى كغير المتعدى مثلاً في أنك لا ترى له مفعولاً لا لفظاً ولا تقديراً ، ومثل ذلك قول الناس فلان يحمل ويهقد (١) .

فإذا كان القصد إلى مفعول معلوم إلا أنه يحذف من اللفظ لدليل الحال عليه فقد يكون جليلاً لا صنعة فيه مثل أصغيت إليه أى أذنت ، وقد يكون خفياً تدخله الصنعة ، وهذا الحق الذى تدخله الصنعة تختلف أسرار الحذف فيه . ثم يذكر عبدالقاهر في هذا القسم ما ذكره البلاغيون بعده في حذف المفعول ، وطريقته أدخل في دراسة النصوص ، وأقدر على كشف الأسرار ، وقد أفاد البلاغيين بعده بكثرة ما أورد من الشواهد والنصوص التي دارت حولها دراستهم في هذا الباب ، من ذلك وهي شواهد مشهورة .

قول البحترى : شجر حساده وغيظ عداه . . أن يرى مبصر ويسمع واع
وقول عمر بن معد يكر :

فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت
وقول ظفيل الفنوي لبني جعفر بن كلاب وقد تمثل به أبو بكر في حديثه
مع الأنصار وثناؤه عليهم :

جزى الله عنا جعفرًا حين أزلقت بنا نعمائنا في الواطين فزلت
أبو أن يملونا ولو أن أمنا تلاقى الذي لا قوة منا لك
هم خلطونا بالنفوس والجأوا إلى حجرات أدفات وأظلت

وقوله تعالى ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، ووجد
من دونهم امراةين تزدودان ، قال ما خطبكما قالتا لانسقى حتى يصدر الرعاء
وأبونا شيخ كبير ، فسقى لهما ، وقول البحترى :

لوشئت لم تفسد سماحة حاتم كرما ولم تهدم مآثر خاله
وقوله تعالى فلو شاء الله لجمعهم على الهدى ، وقوله تعالى ولو شاء لهداكم .

وقول حسان بن إسحاق الخريمى .

لوشئت أن أبكى دما لبكيتيه عليه ولاكن ساحة الصبر أوسع
وقول الجوهري :

فلم يبق منى الشوق غير تفكرى فلو شئت أن أبكى بكيت تفكرا
وقول البحترى :

قد طلبنا فلم نجد لك فى السوء دد والمجد والمكارم مثلا
وقول ذو الرمة :

وكم زدت عنى من تحامل حادث وسورة أيام حزنن إلى العظم
وغير ذلك كثير ، وسوف يتضح لنا أن الرعشى قد أفاد من هذا
فائدة كبيرة .

هـ — التكرير :

هذا فن من الفنون البلاغية التى ازدهرت دراستها فى ظل الدراسة القرآنية ،
وقد ذكره الطاعنون فى كتاب الله فكان لإماما على من تصدى الرد عليهم أن يدرس
هذا الأسلوب ، وأن يبين أسرارها ، وأن يشير إلى نظيره فى كلام العرب ، وقد
فعلوا ذلك . وما نلفت إليه أن المشتغلين بالدراسة الأدبية من البلاغيين لم يبسطوا
القول فيه على غرار ما فعل دارسوا القرآن ، سواء من مرضى التأويل مشكلة ،

أو عرض البيان إعجازاً ، وأن عبد القاهر الجرجاني وهو من عالجوا أمر الإيجاز لم يقف عند هذا الأسلوب ولم يشغل ببيان أسرارها ، وذلك راجع فيما اعتقد إلى أن من سبقوه قد تحدثوا في هذا ، ولم يصبح الأمر في حاجة إلى زيادة ، وقد عهدنا عبد القاهر لا يقف طويلاً عند الفنون التي كانت قد اكتنفت دراستها في زمانه ، وأنه كان منصرفاً إلى أن يحدث للناس فيها لا يعملون ، وهذه طريقة الممتازين من العلماء .

ومن أبرز من أشاروا إلى التكرير أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، فقد ذكر أنواعاً من التكرار وبين أسرارها ، فذكر تكرار قصص الأنبياء ، وأشار إلى دواعيها ، وبين أن الله عز وجل أنزل القرآن نهماً تيسيراً منه على العباد ، وتدرجاً لهم إلى كمال دينه ، ووعظهم وعظاً بعد وعظ تنبيهاً لهم من سنة الغفلة ، وشحذاً لقلوبهم بمتجدد الموعظة ، وأن الله لم يفرض على عباده أن يحفظوا القرآن كله ، ولا أن يحتموه في التعليم ، وإنما أنزله ليعملوا بحكمه ، ويؤمنوا بمشابهه ، ويأتروا بأمره . وينتهوا بجزره ، ويحفظوا للصلاة مقدار الطاقة ، ويقرأوا فيها الميسور ، ثم يقول : وكانت وفود العرب ترد على رسول الله ﷺ للإسلام فيقرؤهم المسلمون شيئاً من القرآن ، فيكون ذلك كافياً لهم ، وكان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة فلم تكن الأنبياء والقصص مشاةً ومكررة لوقعت قصة موسى إلى قوم وقصة عيسى إلى قوم وقصة نوح إلى قوم وقصة لوط إلى قوم فأراد الله بلطفه ورحمته أن يشهر هذه القصص في أطراف الأرض ويلقيها في كل سمع ويبشها في كل قلب ويزيد الحاضرين في الأفهام والتحذير (١) .

وذكر تكرار الكلام الذي يكون من جنس واحد ويعنى بعضه عن بعض كتكرار : قل يا أيها الكافرون ، ويقول في بيانه : فقد أعلمتك أن القرآن نزل بلسان القوم ، وعلى مذاهبيهم ومن مذاهبيهم التكرار إرادة التوكيد والإفهام ، كما أن من مذاهبيهم الاختصار إرادة التخفيف والإيجاز ، لأن افتتان المتكلم والخطيب في الفنون وخروجه من شيء إلى شيء أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد (٢) .

(١) تأويل مشكل القرآن ١٨٠ وما بعدها

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١٥٢

وأما تكرار ونبأى الآسويكما تكذبان، فإنه عدد في هذه السورة منها، وإذا ذكر عبادة آلامه، ونبيهم على قدرته ولطفه بخلقه، ثم اتبع ذكر كل خلة وصفها بهذه الآية، وجعلها بين كل نعمتين ليفهم النعم ويقررهم بها.. ومثل ذلك تكرار فهل من مدكر، في سورة اقتربت الساعة أي هل من معتبر متعظ (١).

ويذكر تكرار المعنى بلفظين مختلفين، وأن يكون لإشباع المعنى والاتساع في الالفاظ وذلك قول القائل أمرك بالوفاء وأنتاك عن الغدر، والأمر بالوفاء هو النهي عن الغدر، وأمركم بالتواصل وأنتا كم عن التقاطع، والأمر بالتواصل هو النهي عن التقاطع، وكقوله سبحانه وفيها فاكهة ونخل ورمان، والنخل والرمان من الفاكهة فأفادها من الجملة التي أدخلها فيها لفضلها وحسن موقعا (٢).

وقد درس القاضي عبد الجبار التكرار ودافع عن بلاغته، وذكر أن شيخه أبا علي قد أشبى القول فيه في مقدمة التفسير، فذكر أن العادة من الفصحاء جارية بأنهم قد يكررون القصة الواحدة في مواطن متفرقة بالفاظ مختلفة لأغراض تجدد في المواطن وفي الأحوال، وذلك من دلالة المفاخر والفضائل لامن دلالة المعانيب في الكلام (٣).

ثم يذكر القاضي رأي شيخه في تكرار قصص الأنبياء، وأن ذلك لزول القرآن مفرقا على رسول الله صلى الله وسلم في ثلاث وعشرين سنة، وأن الرسول عليه السلام كان يضيق صدره من الأمور العارضة له من الكفار والمعارضين فكان في حاجة إلى تثبيت القوادح حالاً بعد حال، فكانت حكايات أخبار المتقدمين تنزل حسب هذه الأحوال، وتكرر بتكرار المواقف، وثمة فرض آخر، هو أن يعرف أرباب الفصاحة عند تأمل هذه القصص التي تعاد صياغتها مرة بعد مرة منزلة القرآن من الفصاحة، لأن بلاغة القصص المتكرر أدخل في باب الإعجاز من القصص المتغيرة، وثمة فرض ثالث وهو حاجة المسلمين إلى تكرار المواقف

(١) تأويل شكل ص ١٨٥

(٢) المرجع السابق ص ١٨٦

(٣) المعنى ص ١٦٦-١٦٧

والقرآن في هذا كالأعظ والخطيب الذي يكرر مواعظه وعبره إيقاظاً للنفوس والتأثير فيها .

أما التكرار في سورة الرحمن فإن القاضي يروي عن شيخه أبي علي القول بنفي التكرار فيها ، وذلك لاختلاف الغرض في كل مرة ، وسوف نجد صدى هذا الرأي عند الإمام الزمخشري ، قال القاضي ، قال أبو علي فأما ما يكون في سورة الرحمن في قوله تعالى وفبأي آلاء ربكما تكذبان ، فليس بتكرار لأنه ذكرتهما بعد نعم وعطف كل نعمة من ذلك بهذا القول فسكانه قال فبأي آلاء ربكما التي ذكرتهما تكذبان ، وإنما عني بالثنائية الجن والإانس ، ثم أجرى الخطاب على هذا الحد في نعمة نعمة ونعمة ونعمة بكل قول غير ما هنا بالقول الأول وإن كان اللفظ متماثلاً وهذا كقول القائل لمن ينهيه عن قتل المسلم وظلمه ويذره من ذلك أنتقل زيداً وأنت تعرف فضله ، أنتقل عمراً وأنت تعرف صلاحه ويكرر ذلك فيكون حسناً ولا يمد تكراراً ، ولو أن أحدنا عظمت نعمته على ولده ورآه أخذاً في طريق العقوق لحسن أن يقبل عليه فيقول أنتفضني في كذا وقد أنعمت عليك أنتفضني في كذا وقد أنعمت عليك ، فيكون تكرار ذلك أبلغ في المراد حتى لو حذفه لنقص الغرض في هذا الباب ولم يكن بمنزلة (١)

وكذلك ما جاء في سورة المرسلات من التكرار في قوله تعالى ويل يومئذ للكذابين ، ليس من التكرار كما يروي القاضي عن شيخه أبي علي ، وذلك لأنه أراد بما ذكره أولاً ويل يومئذ للكذابين بهذه القصة ، وكلما أعاد قصة مختلفة ذكر مثله على هذا الحد فيه ، وبمنزلة من يقبل على غيره ، وقد قتل جماعة ويل يومئذ لمن قتل زيداً . . . لمن قتل عمراً ثم يجرى الخطاب على هذا النحو في أنه لا يعد تكراراً (٢) .

وقد ذكر القاضي أبو بكر بن الطيب أن تكرار القصص في القرآن نوع من أنواع التنبيه البلاغي ، فقد أشار إلى الإحجازيين في وقوع كلمات القرآن مواضعها وعرض آيات كثيرة يشير فيها إلى هذه البلاغة الفاتحة ، ثم دعا إلى النظر في سورة تامة والتعرف على التصريف في قصصها ثم عرض سورة النمل وقاله في ذلك .

(١) - المعنى ١٦٦ ، ص ٣٩٨ ، ٣٩٩

(٢) - المعنى ١٦٦ ، ص ٣٩٨ ، ٣٩٩

بدأ بذكر السورة إلى أن بين أن القرآن من عنده فقال وأنتك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ثم وصل بذلك قصة موسى عليه السلام وأنه رأى ناراً فقال لاهله أمكثوا إني آنست ناراً سأتيكم منها بخبر أو آتيكم بقبس لعالمكم تصطلون ، وقال في سورة طه في هذه القصة لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى ، وفي موضع لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعالمكم تصطلون ، وقد تصرف في وجوه وأتى بذكر القصة على ضرب ، ليعلمهم حيزم عن جميع طرق ذلك ، ولهذا قال فليأتوا بحديث مثله ، ليكون أبلغ في تهجيزهم ، وأظهر للحجة عليهم (١) .

ويذكر التكرار لونا من الون البديع ، ويقول ومن البديع التكرار
كقول الشاعر :

هلا سأت جرح كئدة يوم ولوا أين أين
وكقول الآخر :

وكانت فزارة تصلى بنا فأولى فزارة أولى فزار

ونظيره من القرآن كثير كقوله تعالى « فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً ، وكالتكرار في قوله تعالى « قل يا أيها الكافرون ، وهذا فيه معنى زائد على التكرار لأنه يفيد الإخبار عن الغيب (٢) .

٦ - الاعتراض :

أشار إليه العلامة ابن جنى وذكر موافقه وفائدته البلاغية ، ثم أشار إشارة هامة إلى دلالاته النفسية ، وكيف يكون الاعتراض دليلاً على قوة النفس ، وعلى التمكن من الفصاحة . وغزارة المادة وامتداد النفس في القوة .

يقول ابن جنى اعلم أن هذا القبيل من هذا العلم كثير قد جاء في القرآن وفصيح الشعر ومنثور الكلام ، وهو جار عند العرب بحرى التأكيد فلذلك لا يشنع عليهم ولا يستنكر عندهم أن يعترض به بين الفعل وفاعله والمبتدأ وخبره

(١) إيجاز القرآن : ص ١٨٩

(٢) إيجاز القرآن : ص ١٠٦

وغير ذلك مما لا يجوز فيه الفصل بغيره إلا شاذاً أو متأولاً ، قال الله سبحانه
وتعالى : فلا أقسم بمواقع النجوم ، وأنه لقسم لو تعلمون عظيم ، لأنه اعتراض به
بين القسم الذي هو قوله فلا أقسم بمواقع النجوم وبين جوابه الذي
هو قوله إنه لقرآن كريم وفي نفس هذا الاعتراض اعتراض آخر بين
الموضوع الذي هو قسم وبين صفة التي هي عظيم وهو قوله لو تعلمون فذاتك
اعتراضان كما ترى (٦) .

ثم ذكر أمثلة الاعتراض بين الفعل وفاعله ، وبين الموصول والصفة ،
وبين أن الاعتراض لا عمل له من الإهراب ولا يعمل فيه شيء من الكلام
المعتراض به بين بعضه وبعض ، ثم قال والاعتراض في شعر العرب ومثورها
كثير وحسن ودال على فصاحة المتكلم وقوة نفسه وامتداد نفسه ، وقد رأيت
في أشعار المحدثين وهو في شعر إبراهيم بن المهدي أكثر منه في شعر غيره من
المولدين (١) .

وقد حرمه أبو هلال في فصل خاص ولم يزد على ذكر بيانه وأنه اعتراض
كلام في كلام لم يتم ثم يرجع إليه فيتمه ، وذكر له أمثلة وشواهد منها .

قول كثير : لو أن الباخلين وأنت منهم رأوك تعلموا منك المطالاً
وقول لييد : أن الثمانيين وبلغتها أحوجت سمعي إلى ترجمان (٢)

وقد ذكر بعض الدارسين ومنهم قدامه الاعتراض في الالتفات وجعله
صورة من صورته . يقول قدامه : وعن نعوت المعاني الالتفات وهو أن يكون
الشاعر أخذاً في معنى ، فسكانه يمتزعه شك أو ظن بأن راداً يرد عليه أو سائلاً
يسأله عن سببه فيعود راجعاً على ما قدمه ، فيما أن يؤكد أو يذكر سببه أو يحل
الملك فيه (٣) .

(١) الخصال : ج ١ ص ٣٣٥

(٢) الخصال : ج ١ ص ٣٤١

(٣) الصناعات : ص ٣٨٥ وما بينهما .

(٤) غدد الشعر : ١٦٧

ثم ذكر قدامة من أمثله قول الرماح بن ميادة
فلا صرمة يبدو وفي النفس راحة ولا وحله يبدو لنا فكارمه
وهذا من الاعتراض قدامة يذكره في الالتفات .

وقد أشار ابن رشيقي إلى أن الالتفات هو الاعتراض عند قوم ، وقال في
بيانه ، وسبيله أن يكون الشاعر أخذاً في معنى ثم يعرض له غيره فيعدل عن
الأول إلى الثاني فيأتي به ثم يعود إلى الأول ثم ذكر من أمثله قول كثير
لو أن الباخلين وأنت منهم وأوك تعلموا منك المظالا
فقوله وأنت منهم اعتراض كلام في كلام ، ثم أشار ابن رشيقي إلى أن
أكثر البلاغيين على جمع الالتفات والاعتراض في شيء واحد ، وإن قليلا منهم
من يفرق بينهم (١) .

٧ - الالتفات :

والإشارة إلى الالتفات إشارة قديمة تعزى إلى الأصمعي فقد ذكر كثير
من الدراسين ما رواه محمد بن يحيى الصولي عن الأصمعي من قوله أتعرف
التفانات جرير ؟ قال الصولي قلت لا فما هي ؟

قال أنفسي إذا تودعنا سليبي يعود بشامة سقي البشام

تراه مقبلا على شعره ثم التفات إلى البشام فدعا له

وقوله طرب الحمام بندي الآراك فشاقتني . لا زلت في عال وأيك ناخذ

فالتفت إلى الحمام فدعا له (٢) .

ومن الواضح أن البلاغيين جعلوا هذا النوع من التذييل وهو قسم من الإطناب
وقد ذكرت إن بعض الدارسين أدخل الاعتراض في الالتفات وجعلها شيئاً
واحداً ، ومن شواهد الالتفات المشهورة قول النابغة الجعدي

ألا زحمت بنو سعد بأنى ألا كذبوا كبير السن فاني

(١) العدة ج ٢ ص ٤٥
(٢) الصناعتين ص ٣٨٣ وما بعدها ، وإيجاز القرآن بالآل ص ٩٩ والمقدمة ص ٤٦
(٣) من الإلهة التركية

قال : ومنه أن يخاطب الشاهد بشيء يجعل الخطاب له على لفظ التائب كقوله عز وجل وحتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها ، وقوله «وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون» وقوله تعالى ولكن الله يحب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم ، ثم قال وأولئك هم الراشدون ، ... ومنه أن يخاطب الرجل بشيء ثم يجعل الخطاب لغيره كقوله تعالى «فإن لم يستجيبوا لكم ، يخاطب النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال للكفار دافعوا إنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو ، ، يدلك على ذلك قوله فهل أأنتم مسلمون ، وقال «إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ثم قال لتؤمنوا بالله ورسوله (١) .

وقد أشار القاضى على بن هبى العزيز مناقشة حول قول أبى الطيب .

«إني إن قوم كان نفوسنا . بها أنف أن تسكن الاجم والمظنا

وذلك لأن ناقديه قد عاوه لما رجع من الغيبة إلى التكلم ثم ذكر ما اعتذر به المحتجون عنه حيث بينوا أن هذه طريقة العرب فهم يحملون الكلام على المعنى ويصرفون الضمير عن وجهه ، وذكروا من أمثلة ذلك قوله تعالى «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً ، وليس في الخبر ما يرجع إلى الأول ، ولو رددت الضمير إلى الأول ل قيل إنا لا نضيع أجرهم ، لكنه لما كان من أحسن عملاً المضمرون بهم الذين في أجرهم جاز أن ينوب أحدهما عن الآخر ، لأن من أحسن عملاً هو من آمن ، ومثل هذا قوله تعالى «والذين يسكنون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين ، لما كان معنى المصلحين معنى الذين يسكنون بالكتاب جاز أن يقام مقامه فيعود الذكر إليه في المعنى فكانه قال إنا لا نضيع أجرهم (٢) .

وهذا من إقامه المظهر مقام المضمرة ولسكننا سوف نجد الزمخشري يجعله من باب الالتفات ويتبعه في هذا ابن الأثير والعلامة العلوى .

ثم أن القاضى ربط هذا بقوله تعالى وحتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ، يقول

(١) تأويل شكل القرآن ص ٢٢٣

(٢) الوساطة ص ٤٤٦ ، ٤٤٧

قالوا وشيبه بهذا قوله تعالى وحتى إذا كنتم في الفلك وجريين بهم بريح طيبة عدل
عن ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب اعتماداً على ظهور المعنى .
ونلاحظ أن هذه الدراسة لا نجد فيها تلك اللمسة الفنية التي ترشدنا إلى
أثر هذا الأسلوب وقيمه البلاغية، وإنما المهم عندهم جميعاً أن يبينوا هذه الطريقة
وأن يستشهدوا لها من كلام العرب، وهذا هام عند المدافعين عن المتنبي، وليس
لعيد القاهر دراسة بيّنة في الالتفات، لذلك سوف يتضح لنا أثر الزمخشري فيها
بعد دراستنا لما آتاه في هذا الباب .

٨ - الفصل والوصل :

ولعل أقدم حديث ترويه لنا كتب الأدب في شأن فصل الكلام ووصله
ما يرويه الجاحظ في كتاب البيان والتبيين من حادثة الرجل الذي كان معه ثوب
ومرضى له أبو بكر رضى الله عنه فقال له أنبيع الثوب ؟ فأجابته لا عفاك الله
فأذى أبو بكر لأن اللفظ يومهم الدعاء عليه فقال له رضى الله عنه . لقد علمت لو
كنتم تعلمون قل لا وعفاك الله (١) .

وهذه الملاحظة تدخل في صميم بحث الفصل والوصل ، وهي من أنواع الوصل
الثلاثة ، وتسمى في اصطلاح البلاغيين كمال الانقطاع مع الإيهام .
وقد ذكر البلاغيون كلاماً في الفصل والوصل يعزى أقدمه إلى ما يرويه
الجاحظ من الفارسي الذي حصر البلاغة في الفصل والوصل .

ويعلق الأستاذ الخولي على رواية الجاحظ هذه بقوله وهل يفهم من ذلك أن
العرب لم تلتفت إليه قبل توجيه الفرس لها؟ ثم ينفى ذلك مستشهداً بكلام العسكري
الذي يروي عن أكنم ابن حبيبي والذي قال فيه لكتابه : أفصلوا بين كل منقضى
معنى وصلوا إذا كان الكلام معجوراً بمعنى بعض ، فالجاهليون إذن تجدوا عن
فصل الكلام ووصله ، وقول هذا البليغ القديم وصلوا إذا كان الكلام معجوراً بمعنى
بعض ، فيه تصور واضح لصلة الجمل وتدخالها حتى كأنها شيء واحد ، وكانها
أخذ بعضها بحجره بعض ، كما يقول بعض المتأخرين .

(١) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٦١

(٢) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٦١

(٣) البيان والتبيين ج ١ ص ٢٦١

انتم أن النظر فيما ذكره أبو هلال من روايات البلغاء وذوى الفن في أمر فصل الكلام ووصله يذكرنا بما يقرره القراء في الوصل والوقف في قراءة كتاب الله، فالأحنف بن قيس يدح عمرو بن العاص بأنه أى الأحنف ما رأى وجلا تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص رضى الله عنه، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام وأعطى حق المقام وغاص في استخراج المعنى بألف مخرج، حتى كان يقف عند المقطع وقفا يحول بينه وبين تبعه من الألفاظ (١).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يقول معاوية بتفقد مقاطع الكلام كتفقد العريم صريمته . . . وكان عبد الحميد الكاتب إذا استخبر الرجل في كتابه فكتب خبيرك . . . وحالك . . . وسلامتك . . . فصل بين هذه الأحرف ويقول قد استكمل كل حرف منها آله . ووقع الفصل عليه ، وكان صالح بن عبد الرحمن التميمي الكاتب يفصل بين الآيات كلها وبين تبعتهما من الكتاب كيف وقعت وكان يقول ما استؤنف وإنه ، إلا وقع الفصل وكان جبل . بن يزيد يفصل بين الفاءات كلها، وفصل المأمون هند حتى .

فالفصل كما أفهم من هذا الكلام في الكتابة ترقيم ، وفي الكلام وقف وهو في كل يحدد تمام العبارة ، وهذا قريب من الفصل في معناه العلى المحدد في البلاغة، ولسكنه ليس هو لأن الفصل عندنا ترك الوصل وقد يكون لشدة ارتباط الكلام وتآخيه، أو لشدة تباعده واختلافه، والفصل المذكور في الصناعتين قريب من الفصل البلاغى الذى يكون لشدة تباعد الكلام واختلافه، أعنى لسكال الانقطاع لأنه هو الذى يصح فيه الوقف :

فإذا اردنا أن نتبع نشأة البحث في الفصل والوصل بحثنا عليها كما هو مقروء في كتب البلاغة فسوف لا نجد شيئاً قبل القرن الخامس يمكن أن يعتمد به إذا استثنينا هذه الإشارات التى أشار إليها الرماني والباقلاني وليس فيها كبير عناء ، يقول الأستاذ الخولى ونحن إذا بحثنا فيما وصل إلينا من التأليف العربى من أول حديث من الفصل والوصل لمجدنا ولا نجدنا إذا بحثنا فيما وصل إلينا من مؤلفات القرن

الثاني التي تعرضت لبعض المباحث البلاغية كجواز القرآن لأبي عبيدة، ومعاني القرآن للفراء وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة (١).

نعم كانت هناك إشارات قد تكون أقرب إلى الروح العملية من إشارات الرماني والباقلاني وأبي هلال، ولكنها قليلة ونادرة.

من ذلك ما قاله الشريف المرتضى في أماليه في تأويل قوله تعالى وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا.

يقول المرتضى، ويمكن أيضا على هذا الوجه مع عطف الراسخين على ما تقدم وإلحاق العلم بالمشابه لهم أن قوله ويقولون آمنا به، استئناف جملة استغنى فيها عن حرف العطف كما استغنى في قوله ويقولون ثلاثة رابعهم، ونحو ذلك مما للجملة الثانية فيه التباس في الجملة الأولى فيستغنى به عن حرف العطف ولو عطف بحرف العطف كان حسنا ينزل المنتبس منزلة غير المنتبس (٢).

وهذه لمسة قريبة جداً من دراسات عبد القاهر في هذا الباب.

وعلينا أن نذكر أن النحاة درسوا الجملة الواقعة بدلا أو بيانا أو تأكيداً كما درسوا العطف للاستئناف، وغير ذلك مما صار أصولاً هامة تقوم عليها دراسة الفصل والوصل، في كتب البلاغيين، ولذلك نقول أن ما سوف تعرض له في إيجاز من كلام عبد القاهر في هذا الباب كانت له أصوله في كتب النحو وكانت له إشارات تبعد وتقرب في كتب البلاغيين، ولكن مهما يكن من أمر فقد كان عبد القاهر هو الذي نفت في الدراسة النحوية روح البلاغة كما بسط إشارات المتقدمين.

وقد بدأ عبد القاهر ببيان أهمية معرفة موضع فصل الجمل ووصلها، وأشار إلى أن هذا لا يدركه إلا من أوتي فنا من المعرفة في ذوق الكلام، ثم نظر في عطف المفرد فوجد أن ذلك يكون للاشراك في الحكم، فإذا كانت الجملة ذات محل من الإهراب لحكمها حكم المفرد، إذا أريد التشريك عطفت، وإذا لم يرد التشريك فصلت، والأمر في هذا سهل، والذي يشكل أمره هو الضرب الثاني وذلك أن

(١) صور من تطور البيان العربي ص ٤١

(٢) أمالي المرتضى ج ١ ص ٩٦ ط السادة

تعطف على الجملة العاوية الموضع من الإعراب جملة أخرى كقولك زيد قائم وحرر
قاعد والعلم حسن والجهل قبيح .

ثم يقرر عبد القاهر أن الإشكال يقع في العطف بالواو دون غيرها من
أدوات العطف ، وذلك لأن هذه الأدوات لها معان تفيدها مع العطف ، فالتقاء
الترتيب من غير تراخ ، وثم للترتيب مع التراخي ، وأو لتردد الفعل بين شيئين
إلى آخره فهي ليست منحصنة للتشريك كالواو ، وإذا كانت الواو لا معنى لها
سوى التشريك في الحكم فإذا لم يكن هناك حكم إعرابي عرض الإشكال .

وبهذا التحديد الذي أخرج الجمل التي لها عمل من الإعراب مما يفهم
ويعترض فيه الإشكال وأخرج كذلك غير الواو من أدوات العطف أخذ عبد
القاهر يدرس الفصل والوصل في هذه الدائرة التي حددها وكان ذلك اتجاها حار
فيه من بعده من البلاغيين .

ثم أخذ عبد القاهر يتحدث عن ضرورة أن يكون المتحدث عنه في
الجملتين بسبب من المتحدث عنه في الأخرى ، ولذلك غابوا أبا تمام في قوله :

لا والذي هو عالم أن النوى صبر وإن أبا الحسين كريم

وأن يكون الخبر عن الثاني بما يجرى مجرى الشبيه والتظير أو التقيض
لخبر عن الأول ، فلو قلت زيد طويل القامة وحرر وشاعر كان خلفا ، وجملة
الامر أنها لا تجيء ، حتى يكون المعنى في هذه الجملة لفظا لمعنى في الأخرى
ومضافا له مثل أن زيدا وعمرا إذا كالا آخرين أو نظيرين أو مشتبكي الأحوال
على الجملة كانت الحال التي يكون عليها أحدهما من قيام أو قعود أو ما شا كل
ذلك مضمومة في النفس إلى الحال التي عليها الآخر من غير شك ، وكذا
السييل أبدا والمعاني في ذلك كالأشخاص وإنما قلت مثلا العلم حسن
والجهل قبيح لأن العلم حسنا مضموما في العقول إلى كون الجهل
قبيحا (١) .

ثم يقول عبد القاهر واعلم أنه إذا كان الخبر عنه في الجملة واحدًا كقولنا

هو يقول ويقول ويضرب وينفخ وأشياء ذلك ازداد معنى الجمع قوة وظهوراً . .
وإذا وقع الفعلان في مثل هذا في الصلة ازداد الاشتباك والاقتران حتى لا يتصور
تقدير أفراد في أحدهما عن الآخر وذلك في مثل قولك العجب من أن أحسنت
وأسأت ، وأجسنت أن تنه عن شوء وتأتى مثله ، وذلك أنه لا تشبهه على عاقل أن
المعنى على جعل الفعلين في حكم فعل واحد (١) . .

وواضح أن الجمل هنا ذات محل من الإعراب فهي من النوع الذي لا يعرض
فيه الاشكال واسكن عبد القاهر يسكت عن هذا .

ثم أخذ يدرس دواعى الفصل وقاس الأمر في الجملة على الأمر في المفرد ،
فكما أن الصفة لا تحتاج إلى واصل يصل معناها بالذى قبله لأنها قائمة به فهي
متصلة به اتصالاً معنوياً يعني عن الرابطة عبر عنه عبد القاهر بقوله لاتصالها به
من ذات نفسها ، فكذلك الجمل منها ما يتصل بما قبله اتصال الصفة بالموصوف من
غير واصل يصله وضرب لذلك قوله تعالى ، ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، وقوله
تعالى وإن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ختم الله على
قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم ، وقوله تعالى ومن
الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر ، إلى آخر الآيات . وقوله تعالى وإذا
تلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن في أذنيه وقراء . وقد حلل كل
هذا تحليلاً دقيقاً وبصيراً بين فيه الروابط الخفية بينها ، وهو في هذا بصير كل
البصر بأحوال المعاني ومناسبات بعضها لبعض وما بينها من التفاوت في القوة
والوكادة ، فقوله كأن في أذنيه وقرأ أبلغ في الدلالة على عدم الإفادة من قوله
كأن لم يسمعها وقوله لا يؤمنون تأكيد لقوله سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم ،
وقوله ختم الله على قلوبهم تأكيد أن أبلغ من الأول ، وقوله إنما نحن مستهزئون
هو قوله أنا معكم أي لم نترك اليهودية .

وإذا كان ارتباط المعنى بما قبله يحتمل وجوهاً أشار إليها الجرجاني كما في
قوله تعالى ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ، وذلك أن قوله إن هذا إلا ملك
كريم مشابه لقوله ما هذا بشراً ودأخل في ضمنه من ثلاثة أوجه . وجهان هو

فيهما شبيه بالتأكيد ووجه هو فيه شبيه بالصفة ، فأحد وجهي كونه شبيهاً
بالتأكيد هو أنه إذا كان ملكاً لم يكن بشراً وإذا كان كذلك كانت إيجاب
كونه ملكاً حقيقة لا محالة وتأكيداً لنفي أن يكون بشراً ، والوجه الثاني أن الجاري
في العرف والمادة أنه إذا قيل ما هذا بشراً وما هذا بآدمي والحال حال تعظيم
وتعجب مما يشاهد في الإنسان من حسن خلق أو خلق أن يكون الغرض والمراد
من الكلام أن يقال أنه ملك وأن يكنى به عن ذلك حتى أنه يكون مفهوم اللفظ
قبل أن يذكر كان ذكره إذا ذكر تأكيداً لا محالة لأن حد التأكيد أن تحقق
باللفظ معنى قد فهم من لفظ آخر قد سبق منك ، أفلا ترى أنه إنما كان ذلك
في قولك جاءني القوم كلهم تأكيداً من حيث كان الذي فهم منه الشمول قد فهم
بديهاً من ظاهر لفظ القوم ، ولو أنه لم يكن فهم الشمول من لفظ القوم ولا كان هو
من توجيهه لم يكن كل تأكيداً ولما كان الشمول مستفاداً من كل ابتداء ، وأما الوجه
الثالث الذي هو فيه شبيه بالصفة فهو أنه إذا نفي أن يكون بشراً فقد أثبت له
جنس سواء إذ من المحال أن يخرج من جنس البشر ثم لا يدخل في جنس آخر
وإذا كان الأمر كذلك كان إثباته ملكاً تبييناً وتعييناً لذلك الجنس الذي
أريد إدخاله فيه (١) .

ثم يتكلم عبد القاهرة في ترك العطف في الجملة التي يكون حالها مع التي قبلها
حال ما يعطف ويقرن إلى ما قبله ، وإنما وجب فيها ترك العطف لأنه قد عرض
ما يوجب ذلك ويذكر قوله تعالى والله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ،
والظاهر أن يعطف على قوله تعالى وإنما نحن مستهزئون وهو في هذا نظير قوله تعالى
ويخادعون الله وهو خادعهم ، ومكروا ومكر الله ، وما أشبه ذلك مما يرد فيه
العجز على الصدر ، وإنما ترك العطف هنا لأن قوله وإنما نحن مستهزئون ، حكاية
عنهم وقوله والله يستهزئ بهم ، خبر عن الله والعطف حينئذ يمتنع لاستحالة أن يكون
الذي هو خبر عن الله معطوفاً على ما هو حكاية عنهم (٢) .

ثم ذكر قوله تعالى وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن
مصلحون إلا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، وبين أن العلة في امتناع

(١) دلائل الإجازة من ١٥١ ، ١٥٠ ، ١٥١

(٢) دلائل الإجازة من ١٥٢

خطاب أنهم هم المفسدون على قوله إنما نحن مصلحون وهو ما ذكره في الآية السابقة من كون إحداهما خبراً عن الله تعالى والآخر حكاية عنهم .

كذلك يتضح عطف الله يستهزئ بهم على قالوا لأن العطف يؤدي إلى إدخاله في حكم الشرط حيث كان قوله قالوا جواباً لقوله وإذا دخلوا إلى شياطينهم .

وبعد بيان هذه الأمور الدقيقة يذكر عبد القاهر وجهها ثانياً من وجهة القطع والاستئناف وهو وقوع الكلام جواباً لسؤال مقدر :

ويذكر في هذا قول الشاعر وهو من الشواهد المشهورة :

زعم العوازل إنني في غمرة صدقوا ولكن غمركي لا تنجل

وقول الآخر :

زعم العوازل أن ناقة جنذب بمنسوب خبت عريت وأجبت

ككذب العوازل لو رأينا مناغنا بالفادسية فلن أبع وزلت

ثم لحظ في البيتين الأخيرين معنى زائداً على البيت السابق ذلك هو وضع الظاهر موضع المضمحل لتأكيد أمر القطع من حيث وضع الكلام وضعاً لا يحتاج فيه إلى ما قبله وأتى به مأتى ما ليس قبله كلام .

ثم ذكر قول الآخر :

زعمتم أن أخوتكم فريش لهم ألف وليس لكم آلاف

وبين أن قوله ، لهم ألف وليس لكم آلاف بيان لمحدوف تقديره كذبتهم ولو عطف هذا وقال ولهم ألف لخرج من أن يكون جواب سؤال مقدر كما يخرج لو قال وكذبتهم ، ثم لحظ أنه لو صرح بالمحدوف وقال زعمتم أن أخوتكم فريش كذبتهم لحسن أن يجيء الفاء في قوله لهم ألف فيصير الكلام زعمتم أن أخوتكم فريش كذبتهم فلهم ألف وهو كلام مستقيم ، أما مع المحذف فلا مسأغ لدخول الفاء .

ثم ذكر قوله :

ملكته جبل ولكنك ألقاه من زهد على غارب

وقال إن في الهوى كاذب انتقم الله من الكاذب

واعتبره من الاستئناف اللطيف .

وقد كثرت الشواهد التي سافها لهذا النوع من الاستئناف وكان له في كل شاهد ملحوظ كما أشرنا ، ومن ذلك ما لحظه من ضرورة إعادة الفعل في جواب هذا السؤال المقدر ، يقول في قول الشاعر :

وما هفت الرياح له عملا عفاء من حدا بهم وساقا
وقوله: هرفت المنزل الخالي دفعا من بعد أحوال
عفاها كل حنان صوف الربل هطال

واعلم أن السؤال إذا كان ظاهراً مذكوراً في مثل هذا كان الأكثر ألا يذكر الفعل في الجواب ويقتصر على الإسم وحده ، فأما مع الأضمار فلا يجوز إلا أن يذكر الفعل . تفسير هذا أنه يجوز لك إذا قيل إن كانت الرياح لم تعفه فأعفاء؟ أن تقول من حدا بهم وساقا ولا تقول عفاء من حدا كما تقول في جواب من يقول من فعل هذا؟ زيد . ولا يجب أن تقول فعله زيد ، وأما إذا لم يكن السؤال مذكوراً كالذي عليه البيت فإنه لا يجوز أن يترك ذكر الفعل (١) .

ثم يقرر الجرجاني أن الفصل في أساليب المقابلة وارد على هذه الطريقة ، وذكر لهذا أمثلة كثيرة منها قوله تعالى ، قال فرعون وما رب العالمين قال رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين قال لمن حوله ألا تستمعون قال ربكم ورب آبائكم الأولين قال أن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون .

ثم لخص نتائج هذا البحث في قوله :

وإذ قد عرفت هذه الأصول والقوانين في شأن فصل الجمل ووصلها فاعلم أنا قد حصلنا من ذلك على أن الجمل على ثلاثة أضرب : جملة حالها مع التي قبلها حال الصفة مع الموصوف والتأكيد مع المؤكد ، فلا يكون فيها العطف البتة لشيء العطف فيها لو عطفك بعطف الشيء على نفسه ، وجملة حالها مع التي قبلها حال الإسم يكون غير الذي قبله إلا أنه يشاركه في حكم ويدخل معه في معنى مثل أن يكون كلا

الإسمين فاعلا أو مفعولا أو مضافاً إليه فيكون حقها العطف . وجملة ليست في شيء .
من الحالين بل سبيلها مع التي قبلها سبيل الإسم مع الإسم لا يكون منه في شيء . فلا
يكون إياه ولا مشاركا له في معنى بل هو شيء . إن ذكر لم يذكر إلا يأمر بتفرد
به ويكون ذكر الذي قبله وترك الذكر سواء في حاله لعدم التعلق بينه وبينه
رأساً ، وحق هذا ترك العطف ألبتة فترك العطف يكون إما الاتصال إلى الغاية
أو الانفصال إلى الغاية والعطف لما هو واسطة بين الأمرين وكان له حال بين حالين
فأعرفه (١) .

هذه هي الأصول التي استخرج منها المتأخرون قوايئهم في هذا الباب ولم
يرد جهدهم فيه عن التقسيم والتفريع ، كما كانت الشواهد التي قدمناها مادتهم في
بيان أقسامهم .

البحث في التشبيه :

قد تكلم الناس في التشبيه وفي إصابته وفي الأمثال السائرة منذ عنوا بالنظر
في شئون الأدب والشعر ، ولذلك كان التشبيه أسبق مباحث البلاغة وأولها ،
وقد تناولت فيه أقوال العلماء والنقاد ، ودارت حوله مباحث كثيرة قبل الزمخشري ،
ويمكن أن نقول أن بحث التشبيه قد استوى قبل كتاب الكشاف ، ولذلك لا نرى
للزمخشري فيه أمراً كبيراً ، كما نرى ذلك له في أبواب البلاغة الأخرى ، وإذا
نظرنا إلى دراسته للتشبيه كما حددنا ملاحظها فسوف لانجد فيها شيئاً جديداً يلفتنا
إليها ، اللهم إلا ما ينفذ إليه ببصيرته الأدبية في تحليل صور الأمثال في كتاب
الله ، وقد كنت أردت أن أعرض دراسة عبد القاهر للتشبيه في هذا البحث
مستغنياً بها عن غيرها من الدراسات السابقة لأنها بحق خلاصة مركزه لما سبقه
في هذا الباب مع إضافات وابتكارات ذات قيمة كبيرة ، فهي أكمل صورة لدراسة
التشبيه قبل الزمخشري ، إلا أنني رأيت أن أشير بإشارات قصيرة وموجزة إلى بعض
الجهود السابقة ، وقد كتب الأستاذ الخولي بحثاً مضافاً عن تطور دراسة
التشبيه وتلبيح في بصر مراحل هذا التطور . فعرض لدراسة أبي عبيدة واستخلص
في نهاية حديثه جهوده وركزها في قوله ويبدو من فهم أبي عبيدة للصورة البيانية

أنه لا يتعدى الفهم اللغوي فهو يتعرض للفن البياني بحسب ما تفسره اللغة، فكلمة
جواز عنده طريق المعنى، وكلمة تمثيل كما فسرتها اللغة ترادف كلمة تشبيه (١).

وكذلك يقول في تلخيص جهود الفراء ناظراً إلى ما أضافه إلى البحث بعد
أبي عبيدة مشيراً إلى أن الفراء قد خطا بالتشبية خطوة بعد أبي عبيدة الذي
اكتفى بذكر كلمة تشبيه أو تمثيل من غير زيادة أو تفصيل، لكننا نرى الفراء
قد تعرض للطرفين بشيء من التفصيل إلى حد أنه بين أن التشبيه في الآية الأولى—
يعنى قوله تعالى «فإذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان»، — من النوع المتعدد
وإن لم يصرح بذلك. فقد شبهت السماء بالوردة في التلون ثم شبهت الوردة بالدهن
أو الدهان، ثم أخذ يبين أحوال الوردة التي تتشابه مع أحوال السماء وبين وجه
الشبه في التشبيه (٢).

وهكذا يحدد لنا هذا البحث جهد كل إمام من الأئمة وما أضافه لاكتساب هذا
البناء العلمي لمبحث التشبيه. فنذكر الجاحظ ثم المبرد وبين منهجه في العناية بالشواهد
حتى كانت شواهد ذخرأمان درس التشبيه بعده، وذكر أنه لم يمن بتعريف ولا
تحديد ولا ضبط للأقسام، فهو إذا قسم عرف كل قسم بشواهد ومثله ولم يذكر
منابطاً واحداً فيما كتب عن التشبيه، وذكر أمام أهل الكوفة أبا العباس أحمد
ابن يحيى ثعلب وعرض جهوده، ولحظ أنه يذكر بعض شواهد المبرد، ثم ذكر
أنه لم يصف شيئاً إلى بحث التشبيه لأننا لا زلنا نتعرف التشبيه عنده بمثله وشواهد
من غير ضبط ولا تقسيم ولا بيان لأسلوب التشبيه. ثم عرض لجهد ابن المعتز
وقارن بينه وبين أستاذه المبرد وثعلب ولحظ أنه يجعل بعض صور الاستمارة
من التشبيه، ثم لخص جهود الأئمة حتى نهاية القرن الثالث بقوله: وهذا عرض
يوضح ملامح التشبيه في القرن الثالث لم يعرف ولم تحدد أقسامه برسوم تخصصها،
واعتمد في بيانه على عرض مثل لا تخصصه بل أدخل فيها بعض مثل الاستمارات،
وتمثل الفهم الأدبي في دراسة البلاغة الذي يعتمد على كثرة الشواهد من الشعر

(١) صور من تطور البيان العربي ص ٥٨.

(٢) المرجع السابق.

القديم والحديث ويتقص هذا العرض الرابع الجليل للبيان والتحليل لأسلوب التشبيه بيان لطرفيه ووجهه والغرض منه .

ثم يذكر جهد العلماء في القرن الرابع فيذكر في مطلعهم محمد بن أحمد بن طباطبا، ويعرض جهوده في التشبيه ثم يرى أن بحثه أكثر تفصيلاً مما رأيناه في القرن الثالث، وأنا وإن كنا رأينا تقسيماً للمبرد إلا أن تقسيم ابن طباطبا أقرب إلى صور التشبيه وأرواه المختلفة التي انتهى إليها، ثم يعرض لقدمائه ويذكر تلميحاً لدراسته في التشبيه ثم يعقب عليها بقوله وقد خطا قدامة بالتشبيه وتقدم به، فقد بين معناه وصفته وقسمه وميز كل قسم بما أضفى على الأقسام من خواص وصفات ولم يقتصر كعلماء القرن الثالث على إيراد المثل لحسب بل ذكر صوراً للتشبيه مميزة واضحة وعرض لما يحسن من التشبيه بإسهاب وإفاضة (٢) .

وبهذه الطريقة ذكر الأستاذ الفاضل جهد الرمانى وبين أخذ العلماء عنه، ثم ذكر جهد أبى هلال العسكري وعقب عليه بقوله : فأبو هلال عرض للتشبيه عرضاً مبسوطاً شاملاً فقد عرض التشبيه وذكر أدواته وبين فائدة التشبيه في الكلام وأنه كثير وجار على جميع الألسنة وتعرض لطريقة العرب في تشبيهاتهم وما أبقوا منها، وقسم التشبيه ونوعه وإن كان اعتمد في تقسيماته على ابن طباطبا وأبى الحسن الرمانى فتقسيم التشبيه باعتبار الصورة واللون والحركة قدمناه لابن طباطبا وتقسيم التشبيه على أربعة أوجه : إخراج ما لا يدرك بالحاسة إلى ما يدرك إلى آخر الأقسام قدمناه نقله بمخالفته عن أبى الحسن الرمانى، ولكن أبى هلال قد عرض للتشبيه الذي حذف منه الوجه والأداة المعروف عند المتأخرين بالتشبيه اليلخي وبين أنه تشبيه ولم يدخله في الاستعارة وإن كان قد أدخل مثلاً كثيرة من الاستعارة أورداً بعضها في باب التشبيه (٣) . وكنت قرأت بحث التشبيه في هذه الكتب وجمعت قدرأ صالحاً ما ذكره في هذا الباب .

(١) صور تطور البيان العربي ص ٧١ .

(٢) المرجع السابق ص ٧٦ .

(٣) صور عن تطور البيان العربي ٨٨ ، ٨٩ .

ثم رأيت أن الأسب في كتابة مقدمة مركزه عن بحث التشبيه أن أخرج
هذه الخلاصات ، وهذه النتائج التي انتهى إليها هذا البحث في دراسته لتطور
التشبيه وذلك يعني أنني لم أجد فيما قرأت وجمعت واستنبطت ما يخالف هذه
النتائج .

ثم أن هناك بعض جهرد هامة أريد أن أشير إليها في هذه الدراسة الموجزة .

من ذلك حديث عن التشبيه المقلوب أثاره العلامة ابن جني في محاولات
الغدة التي يحاول فيها ربط الخصائص النحوية بالمعاني الشعرية . يقول في باب هام
ترجمه بباب غلبة الفروع على الأصول : هذا فصل من فصول العربية طريف تجده
في معاني العرب كما تجده في معاني الإعراب ، ولا تكاد تجد شيئاً من ذلك
إلا والغرض فيه المبالغة ، فيما جاء فيه ذلك للعرب قول ذي الرمة :

ورمل كأوراك العذارى قطعته إذا ألبسته المظلمات الخنادى

أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الأصل فرعاً والفرع أصلاً وذلك أن العادة
والعرف في نحو هذا أن تشبه أعباز النساء بكشبان الأتقاء ، ألا ترى إلى قوله :

ليل قضيب تحته كئيب وفي الفلادة رشاً ريب

وإلى قول ذي الرمة أيضاً :

ترى خلفها نصفاً قناة قوية ونصفاً نقا يرتج أو يتمرمر

وقلب ذو الرمة العادة والعرف في هذا ، فشبه كشبان الأتقاء بأعباز النساء ،
وهذا كأنه يخرج مخزج المبالغة أي قد ثبت هذا الموضع وهذا المعنى لأعباز
النساء ، وصار كأنه الأصل فيه حتى شبه به كشبان الأتقاء . ومثله لطلاق الصنوبر .

في طلعة البدر شيء من محاسنها وللقضيب نصيب من تشبها (١)

ثم يقول وهذا المعنى عينه قد استعمله النحويون في صناعتهم فشبهاوا الأصل
بالفرع الذي أفاده ذلك الفرع من ذلك الأصل ألا ترى أن سيبويه أجاز في فوك
هذا الحسن الوجه أن يكون الجر في الوجه من موضعين أحدهما الإضافة والآخر

(١) في شرحه في كتابه في

(٢) في شرحه في كتابه في

(١) الخصائص ج ١ ص ٣٠٠ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .

بإمكان أطراده في بيان أوجه الإعراب ولكنه حيث وجد فهو طريف ، وبهنا
في هذا حديث التشبيه المقلوب الذي لم يكن بارزاً في دراسة المهتمين بالأدب
والشعر .

ثم إن هناك إشارات لابن رشيق قد يكون مسبوقاً بها لإعالة لأنها كثيرة
على السنة الرواة والنقاد وأهني بها الإشارة إلى نشوء فنون معينة من التشبيه
في الأدب العربي وبيان متى نشأت ومن ابتكرها وهذا نوع من تتبع الصور
البيانية على السنة الشعراء والأدباء ، وقد يكون هذا من صميم دراسة تاريخ
الأدب ولكن لا بأس بالإشارة إليه في علم البلاغة، والمهم أن تسجل هذه الظاهرة
في دراسة التشبيه ، فابن رشيق يقول في نشأة التشبيه المتعدد ، وأصل التشبيه مع
دخول السكاف وأمثالها أو كان وما شاكلها تشبيه الشيء بشيء في بيت واحد
إلى أن وضع امرؤ القيس في صفة العقاب .

كان قلوب الطير رطباً ويابساً لدى وكرها العناب والخمف الببال
فشبه شيتين بشيتين في بيت واحد وأتبعه الشعراء في ذلك . . . وحكى عن
بشنا رأيه قال ما قربني القرار مذ سمعت قول امرئ القيس كان قلوب الطير رطباً
ويابساً حتى صنعت :

كان مثار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها (١)
وقد كانت القاضى الجرجاني إشارات هامة انتفع بها عبد القاهر ومن جاء
بعده من البلاغيين من ذلك حديثه في الفرق بين التشبيه البليغ والاستعارة ، فقد
قال في هذا : وربما جاء من هذا الباب ما يظنه الناس استعارة وهو تشبيه
أو مثل ، فقد رأيت بعض أهل الأدب ذكر أنواعاً من الاستعارة عد فيها
قول أبي نواس :

والحب ظهر أنت راكبة . . . فإذا صرفت عنائه إنصرافاً
واست أرى هذا وما أشبهه استعارة ، وإنما معنى البيت إن الحب مثل ظهر

أو الحب كظهر تديره كيف شئت إذا ملكك عنانه فهو إما ضرب مثل أو تشبيه شيء بشيء ، وإنما الاستعارة ما اكتفى فيها بالإسم المستعار عن الأصل ونقلت العبارة فجعلت في مكان غيرها وملاكها تقريب الشبه ومناسبة المستعار له للمستعار منه وامتزاج اللفظ بالمعنى حتى لا يوجد بينهما منافرة ولا يبين في أحدهما لإعراض عن الآخر (١) .

وكان لهذا الكلام أثر بين فيما ذكره الجرجاني في هذا الموضوع وهو لم يخرج عنه في جملة وقد أفاد منه الزمخشري أيضاً حين تكلم عن الفرق بين التشبيه والاستعارة ؛ ومن إشارات القاضى الجرجاني التي كان لها أثر بين في دراسة عبد القاهر قوله وللشمراء في التشبيه أغراض فإذا شبهوا بالشمس في موضع الوصف بالحسن أرادوا به البهاء والرونق والضياء ونصوع اللون والتمام ، وإذا ذكروه في الوصف بالنباهة والشهرة أرادوا به عموم مطامها وانتشار شامها واشتراك النحاس والعام في معرفتها وتمظيمها ، وإذا قرنوه بالجلال والرفعة أرادوا به أنوارها وارتفاع محلها ، وإذا ذكروه في باب النفع والإرفاق قصدوا به تأثيرها في الذنوب والنماء والتحليل والتصفية ولكل واحد من هذه الوجوه باب مفرد وطريق متميز ، فقد يكون المشبه بالشمس في العلو والنباهة والنفع والجلالة أسوداً وقد يكون منير الفعالي كمد اللون واضح الأخلاق كاسف المنظر (٢) .

وقد تأثر بهذا عبد القاهر وهو يبين قيمة التمثيل ، وإنك تستطيع أن تأخذ من الشيء الواحد أشباها عدة ، يقول عبد القاهر ، وإنه ليأتيك من الشيء الواحد بأشياء عدة ويشق من الأصل الواحد أعضاناً في كل غصن ثم على حدة نحو إن الزند بإيرائه يعطيك شبه الجواد والذكي الفعان وشبه النجح في الأمور والظفر بالمراد ، وبإصلاحه البخيل الذي لا يعطيك شيئاً والبليد الذي لا يكون له خاطر ينتج فائدة ويخرج معنى ، وشبه من يخيب سعيه ويعطيك من القمر الشهرة في الرجل والنباهة والعر والرفعة ويعطيك السكال عن النقصان والنقصان بعد السكال كقولهم هلال نما فماد بدرا (٣) . . إلى آخره وكان أوضح عمل لعبد القاهر في باب

(١) الوساطة: ص ٤١ .

(٢) الوساطة: ص ٤٧٤ .

(٣) أسرار البلاغة: ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

التشبيه هو تقسيمه إلى تمثيل وتشبيه وجعل التشبيه عاماً والتمثيل خاصاً فكل تمثيل تشبيه وليس كل تشبيه تمثيلاً .

فالتمثيل هو ما يكون الشبه فيه محصلاً بضرب من التأول والتشبيه ما يكون الشبه فيه أمراً بينا لا يحتاج إلى تأول ، والذي أوجب أنقسام التشبيه إلى هذين القسمين هو أن الاشتراك قد يكون في الصفة نفسها وقد يكون في حكم لها . فالشجاع يشارك الأسد في الشجاعة ، والحمد يشارك الورد في الحمرة، والكلام لا يشارك العسل في الحلاوة في قولنا كلام كالعسل في الحلاوة وإنما يشاركه في حكم لها وأمر تقتضيه وهو ميل النفس ، ولهذا كان التشبيه أصلاً والتمثيل فرعاً ، ولأن الاشتراك في الصفة يسبق في التصور الاشتراك في مقتضى الصفة كما أن الصفة نفسها مقدمة في الوهم على مقتضاها ولأن المتبادر من كلام الناس هو التشبيه العريض دون التمثيل .

ثم تكلم عبد القاهر عن انتزاع الشبه العقلي من أمور عدة وذكر الآية المشهورة في هذا الباب وهي قوله تعالى ومثل الذين حملوا التوراة وحملها تحليلاً لم يسبق به في دراسات التشبيه الكثيرة التي سبق بها وبين في بصر وذلك قبة القيود في رسم صورة التشبيه وكيف روعي في الحمار فعل مخصوص وهو الحمل وكيف روعي في المحمول خصوصية معينة وهي كونه أسفاً للحكمة .

ثم يذكر صورة للشبه المنتزع من أمرين لا يقع فيهما هذا التشابك ولا هذا الاختلاط وهو التشبيه المتعدد ، وذلك قولهم هو بصفر ويكدر ويمر ويحلو ، وواضح أن هذه الصور من الاستعارة .

ثم يذكر أن الشبه قد ينتزع من الشيء لأمر يرجع إلى نفس ذلك الشيء وذلك كتشبيه الكلام بالعسل في الحلاوة فإذا كان وجه الشبه يرجع إلى ميل النفس وهي الصفة المشتركة بين الطرفين فإننا نجد أن الكلام نفسه يوصف بهذه الصفة ، والعسل نفسه يوصف بهذه الصفة . وقد ينتزع الشبه من الشيء لأمر لا يرجع إلى نفسه ومثاله أن يتعدى الفعل إلى الشيء مخصوصاً ويكون له من أجله

حكيم خاص كقولهم هو كالفابض على الماء فإن الوجه لا ينتزع من القبض نفسه وإنما ينتزع مما بين القبض والماء .

يقول عبد القاهر في هذا (واعلم أن الشبه إذا انتزع من الوصف لم يخل من وجهين أحدهما أن يكون لأمر يرجع إلى نفسه والآخر أن يكون لأمر لا يرجع إلى نفسه فالأول ما مضى من نحو تشبيه الكلام بالمسل في الحلاوة ، وذلك إن وجه الشبه هناك إن كل واحد منهما يوجب في النفس لذة وحالة محمودة ، ويصادف منها قبولاً . وهذا حكم واجب للحلاوة من حيث هي حلاوة أو للمسل من حيث هو عسل) .

وقد فهم الاستاذ المرحوم عبد الهادي العدل رحمه الله أن عبد القاهر يريد في هذا الفصل نوعاً خاصاً من التمثيل وهو ما كان المشبه به فيه وصفاً وأراد به الفعل والحدث سواء عبر عنه بفعل اصطلاحى أم باسم فاعل أم بمصدر أم بغيرهما ، ثم قال ، ولعل تمثيل الشيخ لهذا الضرب بقوله كلام كالمسل في الحلاوة سهو أو سبق قلم وكان ينبغي أن يمثل بنحو ما ذكرناه ، وذكر عتاب فلان كالضرب في الإيجاع وقولهم فلان حياة لأوليائه موت لأعدائه وقولك للغافل هو كالتائم والمضطرب في مشيه أو كلامه هو كالسكران .

وليس من الإلصاف أن نفترض مراداً معيناً لعبد القاهر فنقرر أنه يريد بهذا الفصل كذا ثم بعد ذلك نحكم عليه بالسهو أو سبق القلم لأن مثاله لم يطابق هذا المراد الذي افترضناه . ولعل الذى أوقع شيخنا رحمه الله في هذا هو ظنه أن الوصف في قول عبد القاهر اعلم أن الشبه إذا انتزع من الوصف يراد به الصفة وإن كان شيخنا افترض أيضاً توسع عبد القاهر في مدلولها لجعلها تشمل الفعل والحدث سواء عبر عنه بفعل اصطلاحى أم باسم فاعل أم بمصدر وفاته أن الوصف هنا هو المشبه به سواء كان وصفاً بالمعنى الاصطلاحى كالفابض على الماء أو كان غير وصف كالمسل لأن المشبه به وصف معنوى للمشبه وتمثيل عبد القاهر بكلام كالمسل دليل على أنه أراد بالوصف المشبه به مطلقاً وليس سهواً منه فقد ذكر في القسم الثانى أن الوصف الذى ينتزع منه الشبه لأمر لا يرجع إلى نفسه قوله تعالى ، مثل

الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الخمار يحمل أسفارا ، وليس المشبه به هنا وصفا بالمعنى المذكور .

أما قول عبد القاهر وهذا حكم واجب للحلاوة من حيث هي حلاوة أو للعسل من حيث هو عسل فليس ترددا فيما انتزع منه الشبه وليس منشؤه هو السهر أو سبق القلم بذكر هذا المثال وإلا فإن هذا التردد لو صح كان كفيلا بتنديبه ورجوعه عن سمو ، وليس هذا أيضا كلاما غير مفهوم كما يقول العلامة رحمه الله (١) .

والذي أفهمه من كلام عبد القاهر هذا أن وجه الشبه الحقيقي أى الذى تقع فيه الشراكة بين الطرفين فى التشبيه التمثيل له مأخذان كما قرر عبد القاهر ، فقد يؤخذ من الوصف الظاهر أى من وجه الشبه الظاهر كالحلاوة فى هذا المثال فأنها وجه شبه ظاهر لأن ميل النفس الذى هو الوجه الحقيقى حكم لها ومقتضى ، وقد يؤخذ من المشبه به مباشرة كانتزاع ميل النفس من العسل باعتبار وصفه بالحلاوة فعنى كلام عبد القاهر ، وهذا حكم أى وميل النفس حكم واجب للحلاوة من حيث هي حلاوة لأنها وصف ظاهر للعسل ولا يوصف بها الكلام إلا على طريق التاويل أو حكم واجب للعسل من حيث هو عسل موصوف بالحلاوة التى يلزمها ميل النفس .

ثم ذكر عبد القاهر للشبه الذى ينتزع من الصفة لأمر لا يرجع إلى الصفة قوله تعالى « كمثل الخمار يحمل أسفارا ، وبين أن الشبه لا ينتزع من الحمل وإنما لابد من مراعاة أمرين الأول تعديه للأسفار ، والثانى اقتران الجمل به ، ومثل هذا قولهم أخذ القوس باريها ، وقولهم مازال يقتل منه فى الذروة والغارب ، وقولهم هو كالراقم على الماء وكالحادى وليس له بعير وكبتنى الصيد فى عريسة الأسد ثم قال : وعلى الجملة فينبغى أن تعلم أن المثل الحقيقى والتشبيه الذى هو الأولى أن يسمى تمثيلا لبعده عن التشبيه الظاهر الصريح ما تجده لا يحصل لك إلا من جملة

(١) ينظر دراسات تفصيالية شاملة لبلاغة عبد القاهر فى النصب والتمثيل والتقديم والتأخير

ص ١٥٢ تأليف المرحوم الشيخ عبد الهادى العدل .

من الكلام أو جملتين أو أكثر حتى أن التشبيه كلما كان أوغل في كونه عقلياً
عضناً كانت الحاجة إلى الجملة أكثر .

ثم ذكر عبد القاهر قيمة التمثيل وأثره في توضيح المعنى وله في هذا كلام
مشهور من ذلك قوله واعلم أنه بما اتفق العقلاء عليه أن التمثيل إذا جاء في أعقاب
المعاني أو برزت هي باختصار في معرضه ونقلت عن صورتها الأصلية إلى صورته
كسماها أبهة وكسبها منقبة ورفع من أقدارها وشب من نارها وضاعف قواها
في تحريك النفوس لها ودعا القلوب إليها واستثار لها من أقصى الأفتدة صباية
وكلفا وقصر الطباع على أن تعطياها عجة وشغفا (١) .

ثم تحدث عن أثر التمثيل في فنون الشعر المختلفة وضرب له أمثلة وقارن بين
طريقة التمثيل في أداء المعنى والطريقة الظاهرة الواضحة .

ثم بسط القول في أسباب تأثير التمثيل ويدور حديثه في هذا على خبرة بشئون
النفوس وأحوالها فأفس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي وتأنبها
بصريح بعد مكني ، والعلم أتى النفوس أولاً من طريق الحواس والطباع ثم من
جهة النظر والرؤية ، ومن المركز في الطبع أن الشيء إذا نبيل بعد الطلب أو الاشتياق
إليه ومماناة الحنين نحو كان نبيله أحلى . ثم ذكر الجمع بين المتباهدين وهو من
أهم أسباب تأثير التمثيل . وذكر الفرق بين دقة الفكر وتعقيد اللفظ ، وذكر
اتنواع أوصاف عدة من شئ واحد ثم وجوه التفصيل في الشبه . ثم ذكر
التشبيه المركب من شيئين وذكر له قسمين أحدهما أن تقدر صورة بقدر المشبه
وهي بما لا يوجد ولا يكون كتشبيه الرجس بمداهن درحشوهن عقيق والثانية
أن تعبر في التشبيه هيئة تحصل من اقتران شيئين ، وذلك الاقتران مما يوجد
ويكون كقوله :

غدا والصبح تحب الليل باد كطرف اشهب ملق الجلال

ثم يقارن بين الحالتين معتبراً ما صنعه الخيال والوهم أدخل في باب الغرابة والحسن

ويعرض لهذا مثلا وشواهد . ثم يفاضل بين الصور المركبة بحسب حاجتها إلى التفصيل قلة وكثرة ويعرض لهذا قول بشار :

كان مشار النقع فوق رؤوسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكب
وقول المتنبي : يزور الأعدى في سماء عجاياة أستته في جانبها الكواكب
وقول كثوم بن عمرو العتاني :

تبنى سنا بكها من فوق أروسهم سقفا كواكب البيض المباتير

ثم فضل بيت بشار وذلك لأنه راعى ما لم يراعه غيره ، وهو أن جعل الكواكب تهاوى فأتم الشبه وهجر عن هيئة السيوف وقد سلت من الأغماد . وهي تعلو وترسب وتجهى وتذهب ، ولم يقتصر على أن يريك لمعانها في أثناء العجاياة كما فعل الآخرون ، وكان لهذه الزيادة التي زادها حظ من الدقة تجعلها في حكم تفصيل بعد تفصيل وذلك أنا وإن قلنا أن هذه الزيادة وهي إفادة هيئة السيوف في حركاتها إنما أتت في جملة لا تفصيل فيها فإن حقيقة تلك الهيئة لا تقوم في النفس إلا بالنظر إلى أكثر من جهة واحدة ، وذلك أن تعلم أن لها في حال احتدام الحرب واختلاف الأيدي بها في الضرب اضطرابا سديدا وحركات بسرعة ثم إن لتلك الحركات جهات مختلفة ، وأحوال تنقسم بين الاعوجاج والاستقامة والارتفاع والانخفاض ، وأن السيوف باختلاف هذه الأمور تتلاقى وتتداخل وتقع بعضها في بعض ويصدم بعضها بعضا ، فقد نظم هذه الدقائق كلها في نفسه ثم أحضرك صورها بلفظة واحدة ونبه عليها بأحسن التنبيه وأكمله بكلمة وهي قوله :

تهاوى كواكبها (١) . ولم تعهد الدراسة البلاغية تحليلا كهذا التحليل .

ثم يتسكلم في التشبيه الواقع في هيئات الحركات وهيئات السكون ، وله في هذا إشارات لطيفة وتلميحات مستحسنة .

وقد لحظ ما يكون لذبوع التشبيه وشيوعه من أثر في إغفال الناس ما بذل فيه من جهد حتى يصير كالمبتذل المشترك ، وحتى يجرى مع دقة تفصيل فيه

جرى الجمل الذي تقوله الوليدة الصغيرة والمعجوز الودعاء ، فإنك تعلم أن قولنا لا يشق غباره الآن في الابتدال كقولنا لا يلحق ولا يدرك وهو كالبرق ونحو ذلك إلا أنا إذا رجعنا إلى أنفسنا علمنا أنه لم يكن كذلك من أصله ، وإن هذا الابتدال أتاه بعد أن قضى زمانا بطراة الشباب وجدة الفتاء وبعرة الامتناع (١) .

ثم ذكر فصلا في التشبيه المتعدد والفرق بينه وبين المركب ، وبين في هذا أن من التشبيه المركب ما يصح التشبيه في جزئياته واسكن تعلم بعد ما بين الحالتين ومقدار الإحسان الذي يذهب من البين ، ثم أشار إلى القيمة البلاغية للتشبيه المتعدد وأنها محصورة في اختصار اللفظ وحسن الترتيب فيه لا لأن للجمع فائدة في عين التشبيه .

ثم عاد إلى توضيح الفرق بين التشبيه والتمثيل وذكر جعل الفرع أصلا وبين أنه يمكن أن يوجد في التشبيه الصريح ولا يمكن أن يوجد في التمثيل إلا بضرب من التأويل. ويعلق الأستاذ الخويل على دراسة عبد القاهر للتشبيه بقوله :

وهذا التقسيم للتشبيه إلى مفرد ومركب وقصد الصورة بجملتها في التشبيه وتخليل التشبيه المركب وجعله صورة لا ينظر فيها إلى مفرداتها إلا من حيث هي عكوفة للصورة ، ولا ينظر إليها في التشبيه أمر جديد ابتكره عبد القاهر . وهذا الحديث عن الفرق بين لطف التشبيه وغموض التعقيد وبيان طبيعة كل منهما أمر انفرد به عبد القاهر بالنسبة لسابقين ، وبحث التفصيل وبيان أنواعه وأثره في تأثير التمثيل بما انفرد به عبد القاهر ولم يسبق به (٢) .

البحث في المجاز :

لقد شغل البحث في المجاز كثيرا من الناصحين وقيل أن يسكت كتاب من المكتب التي طالبت علما من علوم هذه اللغة من الإشارة إلى المجاز والتوسع . فهي كثيرة في كتب النحاة وكثيرة في كتب البلاغيين وكثيرة في كتب اللغويين .

(١) أسرار البلاغة: ص ١٥٤ .

(٢) صود من تطور البيان العربي ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

وظاهر أن المشتغلين بالدراسة القرآنية سواء منهم من انغمس في تقنية الإيجاز ومن اهتم بالتفسير أو بالقأويل كانوا يهتمون اهتماماً واضحاً ببيان صور المجاز وأنواعه، لأن ذلك يساعدهم على فهم كثير من آيات الكتاب العزيز، ويعينهم في تخريج كثير من الآيات المتشابهات، والرد على كثير من الطاعنين الذين يقعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة.

وظاهر كذلك أن المشتغلين بأصول الفقه واستنباط الأحكام من الآيات السكرية قد نظروا في الحقيقة والمجاز حتى كان هذا البحث من مقدمات الأصوليين، ولا أستطيع أن أبسط في هذا التقديم هذه الجهود العظيمة التي بذلت في هذا الموضوع، وليس ذلك من واجبي، والذي تعينني الإشارة إليه هو تحديد دراسة المجاز في المرحلة التي سبقت كتاب الكشف كما فعلت في دراسة الفنون البلاغية الأخرى.

وقد عرف عبد القاهر المجاز فمكل كلمة أريد بها غير ما وقعت له في وضع واضعها للملاحظة بين الثاني والأول - فهي مجاز وإن شئت قلت كل كلمة جوت بها ما وضعت له في وضع الواضع إلى ما لم توضع له من غير أن تستأنف فيها وضعا للملاحظة ما تجوز بها إليه وبين أصلها الذي وضعت له في وضع واضعها فهي مجاز (١).

وهذا تعريف للمجاز في المفرد ويشمل في مفهومنا الاستعارة في المفرد والمجاز المرسل. ثم أن عبد القاهر قسم المجاز في موضع آخر إلى قسمين هما الاستعارة والتشثيل وقال وإنما يكون التشثيل مجازاً إذا جاء على حد الاستعارة (٢).

وبهذا يكون قد أضاف إلى أنواع المجاز نوعاً آخر هو الاستعارة التشيلية ثم قسم المجاز تقسيماً آخر بقوله واعلم أن المجاز على ضربين مجاز عن طريق اللفظ ومجاز عن طريق المعنى والمعقول (٣).

(١) أسرار البلاغة ص ٢٨١ :

(٢) دلائل الإيجاز ص ٤٥ .

(٣) أسرار البلاغة ص ٣٢٧ .

وقد وقف عبد القاهر عند المناسبة بين المعنى الأصلي والمعنى المراد وهي كما يقول تقوى وتضعف ، والمناسبة القوية هي ما جرت في صور الاستعارة ، والمناسبة الضعيفة هي ما جرت في صور المجاز المرسل وإن كان عبد القاهر لم يطلق هذا الاصطلاح على صور المجاز المرسل ولكنه ميزها تمييزاً بينا عن صور الاستعارة ، نعم قد أطلق الاستعارة غير المفيدة على بعض صوره ولكنه رجع عن ذلك في آخر كتابه وأشار إلى أنه إنما سماها استعارة - وهو ضنين عليها بهذا الإسم - لأنه وجد الناس يفعلون ذلك ففكره التثدد في الخلاف

ثم ذكر عبد القاهر صوراً من هذا التجوز ذي المناسبة غير القوية فذكر إطلاق اليد على النعمة واستدل على ضعف المناسبة بين اليد والنعمة بأنه لو تكاف متكاف فزعم أنه وضع مستأنف أو في حكم لفة مفردة لم يمكن دفعه إلا برفق ، ودليل آخر هو أن اليد لا تستعمل في النعمة إلا وفي الكلام إشارة إلى مصدر تلك النعمة وإلى المولى لها ولا تصلح حيث تراد النعمة مجردة من إضافة لها إلى المنعم أو تلويح به (١) .

وذكر قولهم في صفة الراعي : أن له عليها أصبماً ، .

والشد :

ضعيف المصا بادي العروق ترى له عليها إذا ما أجذب الناس أصبماً

أي أثر أصبغ وقولهم عليه خاتم الملك . قال الشاعر :

وقلن حرام قد أحل برنسا وترك أموالا عليها الخواتم

وكذا قول الآخر :

إذا فضت خواتمها وفكت يقال لهم دم الودج الذهب

ولمجد القاهر هنا إشارات حسنة ، من ذلك أن شيخه أبا علي الفارسي قد روى هذين البيتين حذف المضاف ، ثم ذكر عبد القاهر أن التقدير هنا بيان لما يقتضيه الكلام في أصله . دون أن يكون الأمر على خلاف ما ذكرت من جعل أثر الخاتم خاتماً ، وأنت إذا نظرت إلى الشعر من جهة الخاصة به وذوقته بالحاسة المباشرة

لمعرفة طعمه لم تشك في أن الأمر على ما أشرت لك إليه ، ويدل على أن المقادير قد وقع في المنسأة وصار كالشريعة المنسوخة تأييد الفعل في قوله إذا فضت خواتمها ولو كان حكمه باقياً لذكرت الفعل كما تذكره مع الأظهار (١) .

ثم ذكر عبد القاهر صوراً أخرى لهذا المجاز في حديثه عن الفرق بين النقل في الإعلام وبين النقل في المجاز وأن النقل في الثاني يكون للنسابة بخلاف تسمية الرجل حجراً وذلك أن الحجر لم يقع إسماً للرجل لالقياس كان بينه وبين الصخر على حسب ما كان بين اليد والنعمة وبينهما وبين القدرة ، ثم ذكر تسميتهم المزايدة راوية والبعير حفصاً والرجل عيناً والذاقة ناباً ، والنبت غيثاً والمطر سماء ، ثم يشير إلى أن المناسبة هنا أقوى من المناسبة في وقوع العقيرة على الصوت ، وقد أشار قبل ذلك أنها أضعف من مناسبة تسمية الشجاع أسداً ثم انتهى في هذا إلى أن المجاز أهم من الاستعارة وأن الصحيح من القضية في ذلك أن كل استعارة مجاز وليس كل مجاز استعارة وأن ما يقع في كلام العلماء من إدخال ما ليس طريق نقله التشبيه في الاستعارة كما صنع أبو بكر بن دريد حيث ذكر صوراً من هذا التجوز في باب عقده للاستعارات أمر لا يراعى فيه عرف القول ومثل ذلك إطلاق التمييز على الحال لأنك إذا قلت راكباً فقد ميزت المقصود وبينته (٢) .

وقد يقع مثل هذا التعميم في إطلاق الاستعارة على هذه الصورة في بعض عبارات المتخصصين من البلاغين كالأمدى ، ولكن هذا لا يكون عند ذكر القرواين وحيث تقرر الأصول (٣) وكان الفصل بين صور المجاز المرسل والاستعارة وتخصيص الثاني بما تكون علاقته المشابهة أمر تعرفه الدراسة البلاغية المتخصصة قبل الجرجاني .

والواقع أن الجرجاني كان منصفاً فلم يدع أنه أول من ميز بين هذه الصور ،

(١) ينظر أسرار البلاغة : ص ٢٧٤ ، ٢٨٥ .

(٢) ينظر أسرار البلاغة : ٣٧١ وما قبلها .

(٣) أسرار البلاغة : ص ٣١٧ .

وقد ذكر الأعدى صوراً من الجواز المرسل ولم يسمها استعارة ، يقول حاكياً رعد
أصحاب البحري على من عابوه في قوله :

ضحكات في أثرهن العطايا وبروق السحاب قبل رعوده

فأما قوله : وبروق السحاب قبل رعوده فإنه أقام الرعد مقام الغيث لأنه
مقدمة له وعلم من أعلامه ودليل من أقوى دلائله ، ألا ترى أن برق الخلب لا رعد
له . . . وإذا كان البرق ذا رعد فقلبا يخالف ، ومثل هذا في كلام العرب مما ينوب
فيه الشيء إذا كان متصلاً به أو سبباً من أسبابه أو مجاوراً له كثير فن ذلك قولهم
للمطر سماء ، ومنه قولهم وما زلنا نطأ السماء ، حتى أتيناكم . قال الشاعر :

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا فضابا

يريد إذا سقط المطر رعيناه يريد النبت الذي يكون عنه ، ولهذا سمي النبت
ندي لأنه من الندى يكون ، وقالوا ما به طرق ، أى ما به قوة ، والطرق الشحم
فوضعه موضع القوة ، لأن القوة عنه تكون وقولهم للمزادة راوية وإنما الرواية
البعير المنى يسقى عليه الماء ، فسمى الروعاء الذى يحمله باسمه ومن ذلك الحفوض
متاع البيت فسمى البعير الذى يحمله حفوضاً ، وهذا باب واسع وأيسر من أن
يحتاج إلى استقصائه (١) .

ويذكر الشريف المرتضى هذه الطريقة ويشير إلى أنها طريقة العرب فقد
يسمون الشيء باسم ما يقاربه ، ويصاحبه ، ويشتهد اختصاصه به وتعلقه به ، إذا
انكشف المعنى وأمن الإهام . ثم يذكر تسميتهم البعير رواية والمزادة المحمولة
على البعير رواية وقولهم جرعه الكأس ، فاستلبت عقله ، والكأس هي ظروف
الشراب والفعل الذى أضافوه إليها إنما هو مضاف إلى الشراب (٢) ،

ونجد صوراً من القسامح الذى أشار إليه عبد القاهر في كتاب متخصص
في هذه الدراسة فقد ذكر أبو هلال من الاستعارة قولهم النظر سماء
قال الشاعر :

(١) للرواية : من ٣٢ ، ٣٤ .

(٢) أطلق المرتضى : ج ٦ من ٤٦ ط المعادة .

إذا سقط السماء بأرضي بأرضي قوم رعيناه وإن كانوا غضاباً (٣)
ومن صور الخلق في الكتب غير المتخصصة ما يذكره ثعلب في شرح ديوان
زهير من أن الحلة الموضع الذي ينزل به ثم صير الناس ، ومثل هذا كثير يستمار
وأصله لغيره كما قالوا الراوية ، وكما قالوا العقيرة ، وأصل العقيرة أن رجلاً كانت
رجله عقيرة فرفعها ثم تنفى فيقال لكل من رفع عقيرته ، والراوية البعير ثم
قيل للمزادة راوية والظعينة البعير ثم قيل للمرأة ظعينة وهذا كثير (١) .

أما المجاز الذي علاقه المشابهة أعني الاستعارة فقد كان صنيع عبد القاهر فيها
صنيعاً منفرداً وأشير هنا بإشارات موجزة إلى أصول هامة درسها في هذا الباب،
من ذلك تقسيم الاستعارة إلى مفيدة وغير مفيدة وعرض كثير من صور الاستعارة
غير المفيدة وقد قلنا إن هذه الصور قسم من المجاز المرسل وإن عبد القاهر صن
باسم الاستعارة عليها ، وبقي أن أقول أن قدامة قد درس بعض هذه الصور في
باب المعازلة وعدها من فاحش الاستعارة من ذلك قول حمزة :

فما رقد الولدان حتى رأيت على البكر يمره بساق وحافر

وقول أوس بن حجر :

وذات هدم عار نواشرها تصمت باللاء قولاً جديلاً (١)

وقد كانت لابن قتيبة إشارات ذات صلة وثيقة بما ذكره الجرجاني في هذا
الباب . يقول ابن قتيبة في قوله تعالى : وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ، أي
كل ذي عظم من الظير وكل ذي حافر من الدواب كذلك قال المفسرون ، وسمى
الحافر ظفراً على الاستعارة كما قال الآخر وذكر ضيفاً طرفة :

فما رقد الولدان حتى رأيت على البكر يمره بساق وحافر

يلجحل الحافر موضع القدم ، وقال آخر :

سامعها أو سوف اجعل رحابها إلى ملكة أظلافه لم تقلم

(١) الضاعين ص ٢٦٨ ط صايح .

(٢) شرح ديوان زهير ص ٢٧ ط دار الكتب .

(٣) ينظر نقد الشعر لقدامة ص ٢٠ وأسرار البلاغة ص ٢٥ ، ٢٧ .

يريد بالأظلاف قدميه وإنما الأظلاف للشاة والبقر ، والبقر تقول للرجل
هو غليظ المشافر تريد الشفتين والمشافر للابل . قال الحطيثة :

قروا جارك العيان لما جفوته وقصص عن برد الشراب مشافره (١)
ثم ذكر عبد القاهر الاستعارة المفيدة وقيمتها البلاغية وأكثر في الأظراء
على طريقتهما ثم قسمها قسمة عامية ، وقال في بيان هذه العمومية ومعنى العامية
أنك لا تجد في هذه الاستعارة قسمة إلا أخص من هذه القسمة ، وأما قسمة
الاستعارة من حيث المعقول المتعارف في طبقات الناس وأصناف اللغات وما تجد
وتسمع أبداً نظيره من عوامهم كما تسمع من خواصهم ، وقد نظر في هذه القسمة
إلى اللفظ المستعار لأنه إما أن يكون اسماً وإما أن يكون فعلاً . فإذا كان اسماً
فهو على طريقين ، الطريق الأول أن تنقله عن مسماه الأصلي إلى شيء آخر ثابت
معلوم فتجربه عليه وتعمله متناولاً له تناول الصفة مثلاً للموصوف ، وذلك قولك
رأيت أسداً وهذا الطريق هو طريق الاستعارة التصريحية كما قال المتأخرون
والطريق الثاني أن يؤخذ الإسم عن حقيقته ويوضع موضعاً لا يبين فيه شيء
يشار إليه ، فيقال هذا هو المراد بالإسم والذي استعير له وجعل خليفة لاسمه
الأصلي ونائباً منابه ومثال قول لبيد :

وغداة ربيع قد كشفت وقررة إذ أصبحت بيد الشمال زمامها

وهذه هي الاستعارة التخيلية عند المتأخرين .

ثم بين الفرق بين هذين القسمين بياناً شافياً ثم قال وإذا تقرر أن الإسم في
كون استعارته على هذين القسمين فمن حقنا أن ننظر في الفعل هل يحتمل هذا
الانقسام ؟ والذي يجب العمل عليه أن الفعل لا يتصور فيه أن يتناول ذات الشيء
كما يتصور في الإسم ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذي اشتق منه للشيء في
الزمان الذي تدل صيغته عليه ، فإذا قلت ضرب زيد أثبت القرب لزيد في زمان
ماضٍ وإذا كان كذلك فإذا استعير الفعل لما ليس له في الأصل فإنه يثبت باستعارة
له وصفاً هو شبيه بالمعنى الذي ذلك الفعل مشتق منه (٢) .

(١) قوله جارك العيان لما جفوته

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ١١٦ .

(٣) ينظر أسرار البلاغة ص ٣١١ إلى ٣١٥ .

أى أن الاستعارة تجرى في المصدر وتبعا الاستعارة في الفعل وتلك هي الاستعارة التبعية وهذا يكون عبد القاهر قد أشار إلى الاستعارة التصريحية بنوعها الأصلية والتبعية كما أشار إلى الاستعارة التخيلية التي هي قرينة المكتبة .

ويجدر أن أشير هنا إلى أن الذي وضع هذه المصطلحات ليس هو السكاكي كما يتصور كثير من الباحثين وإنما هو ابن الخطيب الرازي وكان رحمه الله من أهلام الفكر الإسلامي ولم يكن من أعيان البلاغيين كما قلت .

ثم أخذ عبد القاهر يذكر أقسام الاستعارة بادئا بأقرب هذه الأقسام إلى الأصل أعنى الحقيقة فذكر استعارة الطهران للعدو لأن كلا منهما جنس واحد ، ومثله استعارة التمزيق والتقطيع للتفريق ، ثم ذكر الضرب الثاني الذي لا يكون فيه المستعار من جنس المستعار له بل هما جنسان إلا أن بينهما وصفا مشتركا كاستعارة الشمس للإنسان المتهلل الوجه في قولك رأيت شمسا ، ثم ذكر الضرب الثالث الذي هو الصميم الخالص من الاستعارة وحده أن يكون الشبه مأخوذاً من الصور العقلية وذلك كاستعارة النور للعلم .

وهذه الأقسام الثلاثة لا تجرى إلا في الاستعارة التصريحية كما هو واضح من الأمثلة (١) .

وقد كرر عبد القاهر الفرق بين طريقة الاستعارة التصريحية والمكتبة فقد ذكر في دلائل الإعجاز أن الاستعارة ، أن تريد تشبيه الشيء بالشيء فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره وتسمى إلى اسم المشبه به فتعبره المشبه وتجربة عليه تريد أن تقول رأيت رجلا هو كالأسد في شجاعته وقوة بطشه سواء . فتدع ذلك وتقول رأيت أسداً، وضرب آخر من الاستعارة وهو ما كان نحو قوله إذ أصبحت بيد الشمال زمامها ، هذا الضرب وإن كان الناس يضمونه إلى الأول حيث يذكرون الاستعارة فليسا سواء ، وذلك أنك في الأول تجعل الشيء ليس به وفي الضرب الثاني تجعل للشيء الشيء ليس له (٢) .

(١) ينظر أسرار البلاغة من ٣٧ إلى ٤٧ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٥ .

ثم بين عبد القاهر أن جعل الشيء للشيء ليس له يكون ثمرة تشبيهه بما جعل الشيء له بما هو له في الحقيقة أى تشبيه الشمال الذى جعلت لها اليد بالمدير المصرف .

يقول عبد القاهر ليس لك أكثر من أن تخيل إلى نفسك أن الشمال فى تصريف الغداة ، على حكم طبيعتها كالمدير المصرف لما زاماه بيده ومقادته فى كفه ، وذلك كله لا يتمدى التخيل والوهم والتقدير فى النفس من غير أن يكون هناك شيء يحس وذات فتحصل (١) .

وهذا بيان للاستعمار المكنية أو بيان لمذهب الخطيب فيها ، فقد ذكر الخطيب أن الاستعارة المكنية هى التشبه المضمرة فى النفس أى التشبه الذى لا يتمدى للتخيل والوهم والتقدير فى النفس كما يقول عبد القاهر .

وكانت فى دراسة البلاغيين قبل عبد القاهر إشارات إلى الفرق بين هذين الطريقتين ولكن هذه الإشارات كانت غائمة ، من ذلك قول القاضى على بن عبد العزيز الجرجاني فى الإفراط فى الاستعارة .

وقد كان بعض أصحابنا يجازين أباينا أبعده أبو الطيب فيها الاستعارة وخرج عن جد الاستعمال والعادة فكان مما عدد منها قوله :

مسرة فى قلوب الطيب مفرقا وحسرة فى قلوب البيض واليب
تجمعت فى فؤاده همم ملاً فؤادا الزمان أحدهما

فقد جعل للطيب والبيض واليب قلوباً والزمان فؤاداً وهذه استعارة لم تجر على تشبه قريب ولا بعيد وإنما نصح الاستعارة وتحمسن على وجه من المناسبة وظرف من التشبيه والمقارنة فقلت له هذا ابن أحمد يقول :

ولدت طيبه كل مصفة هو جاء ليس الباز بئر
فما الفصل بين من جعل الريح لباً ومن جعل للطيب والبيض قلباً .
وهذا أبو ربيعة يقول :

م ساعد الدهر الذي يتق به وهذا الكيوت يقول :
وما رأيت الدهر يقلب ظهره وشاتم الدهر العبقى يقول :
وما رأيت الدهر وعرا سهيله ومعرفة حصاء غير مفادة وجبهة فرد كالشراك ضئيلة
وما خير كف لا تنوء بسأده على بطنه فعل الممك بالمثل
وأبدى لنا ظهرا أجب مسحا عليه ولونا ذا حثاين أجدما وصمر خديه وأنفا مجدما
فمؤلا قد جعلوا الدهر شخصا متكامل الأعضاء تام الجوارح فكيف أنكرت على أبي الطيب أن جعل له فؤادا (١) .

وقد يبسط القاضي وجه هذه الاستعارات فيقول ، وذلك أن الريح لما خرجت بمصوفها من الاستقامة وزالت عن الترتيب شبهت بالأهوج الذي لا مسكة في عقله ولا زبر لبه ولما كان مدار الأهوج على تناسب العقل حسن مع هذا الوجه أن يجعل للريح عقلا (٢) ، وهذه إشارة قريبة إلى ما ذكره البلاغيون من أن اللازم المذكور في الاستعارة الممكنية هو ما يكون به قوام وجه الشبه أو كاله كنعق الحال وأظفار الموت .

وقد أشار أبو الفتح عثمان بن جنى إلى طريقة الاستعارة بالكناية ووجه التجوز فيها .

يقول في قوله تعالى وأسأل القرية التي كنا فيها ميينا أن الجاز فيها جاء لأغراضه الثلاثة أى التشبيه والانساع والتأكيد . يقول وأما التشبيه فلأنها شبهت بمن يصح سؤاله (٣) ويقول في قولهم بنو فلان يطؤم الطريق ، ووجه التشبيه أخبارك عن الطريق بما تخبر به عن سالكيه فشبهته بهم إذ كان هو المؤدى لهم فكأنه م (٤) .
ويقول شيخنا المرحوم محمد علي النجار مطلقا على هذا ، تراه يميل إلى

(١) الواسطة ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الحصائل ج ٢ ص ٤٤٢ .

(٤) المرجع السابق السابق ص ٤٤٩ .

الاستعارة بالكناية فهو يشبه الطريق بقوم سائرين وجعل الوطء دليل ذلك
التشبيه (١) ثم أنه بقي من أمر الاستعارة التخيلية شيء لا بأس من أن أشير إليه ذلك
هو أن ما ذهب إليه أبو يعقوب يوسف السكاكي من اعتبار قرينة المكنية
استعارة تصريحية تخيلية قد أشار إليه عبد القاهر بالرفض والاستحالة ولا يمنع
رفض عبد القاهر له واعتباره مستحيلاً أن يكون السكاكي قد تأثر به في ذلك .
يقول عبد القاهر في بيان أن النقل لا يتصور في الاستعارة التخيلية ، ذلك أنه
ليس ههنا شيء يزعم أنه شبهة باليد حتى يكون لفظ اليد مستعاراً له وكذلك
ليس فيه شيء يتوهم أن يكون قد شبهه بالزمام (٢) .

ويقول في موضع آخر ، فإنت الآن لا تستطيع أن تزعم في بيت الحماسة
أي قوله :

إذا مره في عظم قرن تملكت نواجذ أفواه المنايا الضواحك

أنه استعار لفظ النواجذ ولفظ الأفواه لأن ذلك يوجب المحال وهو أن
يكون في المنايا شيء قد شبهه بالنواجذ وشيء قد شبهه بالأفواه (٣) .

ويقول السكاكي مشتبهاً ما نفاه عبد القاهر ، وهي أي الاستعارة التخيلية —
أن تسمى باسم صورة متحققة صورة عندك رهمية محضة تقدرها مشابهة لها مفرداً
في الذكر في ضمن قرينة مانعة عن حمل الإسم على ما سبق منه إلى الفهم من كون
مماه شيئاً متحققاً ، وذلك مثل أن تشبه المنية بالسبع في اغتيال النفوس وانزاع
أرواحها بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاع وضرراً ولا رقة لمرحوم . . .
تشبيهاً بليغاً حتى كأنها سبع من السباع فيأخذ الوهم في تصويرها في صورة السبع
واختراع ما يلزم صورته ويتم به شكله من ضروب هيئات وفنون جوارح
وأعضاء وعلى الخصوص ما يكون قوام اغتيال السبع للنفوس بها وتتمام اقتراسه
الفرائس بها من الأنياب والمخالب ثم يطلق على مخترعات الوهم عندك أسماء
المتحققة على سبيل الأفراد بالذکر وأن تضيفها إلى المنية الشبيهة بالسبع ليكون

(١) حاشي المرجع السابق .

(٢) دلائل الإجازة من ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

(٣) دلائل الإجازة من ٢٢٥ .

إضافتها إليها فريضة مائة من إجرائها على ما سبق إلى الفهم منها من تحقيق مسمياتها(١).

ولم ترجع عظمة جهود عبد القاهر في دراسة البلاغة إلى إشاراته إلى أصول التسميات والتفريعات لحسب وإنما ترجع أيضاً إلى هذه التحليلات العالية التي يبسط فيها وجه التجوز ويتحدث فيها عن العلاقات بين الأشياء وكل ما ذكره عبد القاهر في دراسة الاستمارة يصلح شاهداً على قدرته البالغة في فهم النص وذوقه وتحليله .

وقد كانت الخصومات حول النصوص الأدبية حافزاً قوياً لإنهاضهم النقاد وشحن عقولهم ومد أبصارهم إلى جوانب النصوص وتحليل صورها وقد أمرت هذه الخصومات الدراسة البلاغة في هذا الجانب التطبيقى الهام ولا شك أن هذه الدراسة القيمة التي نهض بها أبو بشر الأمدى في كتابه الموازنة ، وهذه الجهود المشرفة التي أودعها القاضي علي بن عبد العزيز كتاب الوساطة من خير ما يعتز به تراثنا الأدبي . وقد كانت هذه التحليلات الهامة عوناً لعبد القاهر الجرجاني في بناء طريقته الفذة في مجال التحليل والعرض وقد يكون أبو بشر الأمدى أكثر النقاد تأثيراً في عبد القاهر في هذا المجال .

وحين ننظر في بعض النصوص التي تناولها الأمدى وتناولها من بعده عبد القاهر نجد شهاً في المنزع والروح وأن لم يكن تقليداً ولا محاكاة .

يقول الأمدى في قول امرئ القيس :

فقلت له لما تطلت بصلبه . . . وأردف أعجازاً وناء بكل كل .

وقد عاب امرؤ القيس بهذا المعنى من لم يعرف موضوعات المعاني ولا المجازات وهو في غاية الحسن والجودة والصحة، وهو إنما قصد وصف أجزاء الليل الطويل فذكر امتداد وسطه وتناقل صدره للذهاب والابحاث وترادف أعجازه وأواخره شيئاً فشيئاً ، وهذا عندي منتظم لجميع نعوت الليل الطويل على هيئته

وذلك أشد مما يكون على من يراعيه ويترقب تصرفه ، فلذا جعل له وسطاً يمتد
وأعجازاً رادقة للوسط وصدرأ مثاقلاً في نوحه حسن أن يستعير للوسط
اسم الصاب وجعله متطعياً من أجل امتداده لأن تغطى وتمدد بمنزلة واحدة وصلاح
أن يستعير للصدر اسم الكلكل من أجل نوحه ، وهذا أقرب الاستعارات من
الحقيقة وأشد ملاءمة لمعناها لما استعير له (١) .

ويقول عبد القاهر في هذا البيت :

وعما هو اصل في شرف الاستمارة أن ترى الشاعر قد جمع بين عدة استعارات
قصداً إلى أن يلحق الشكل وأن يتم المعنى والشبه فيها يريد مثاله قول
أمرى القيس :

فقلت له لما تغطى بصلبه وأردف أعجازاً وناء بكلكل
لما جعل الليل صلباً قد تغطى به ثنى ذلك فجعل له إعجازاً قد أردف بها
الصلب وثلاث فجعل له كالكلا قد نابها فاستوفى له جملة أركان الشخص وراعى
ما يراه الناظر من سواده إذا نظر قدمه وإذا نظر إلى خلفه وإذا رفع البصر
ومد في عرض الجوى (٢) .

وكثير من شواهد الاستعارة في كتابة عبد القاهر قد ناقشها الأمدى من ذلك
ما ذكره الأمدى في بيت زهير المشهور : وعرى أفراس الصبا ورواحله .
وما ذكره في قول طفيل الغنوى :

وجعلت كورى فوق ناجية يقنات شحم سنامها الرجل (٣)
فإن أن الخصومات حول النصوص الأدبية أثرت البحث البلاغى بجانب
هام من الدراسة النظرية التطبيقية ولست أقصد الخصومة التي قامت حول شعر
البحرئى وأبي تمام والمتنبي لحسب كما يتبادر إلى الأذهان ، وإنما أقصد بجانب
هذا تلك الخصومة الكبرى ، حول النص القرآنى ، ويجب أن نذكر هنا وقفات
هلى بن عيسى الرومانى عند صور الاستعارة وإشاراته الفظة إلى دلالاتها الأدبية .

(١) الموازنة ص ٣٤٠ .

(٢) دلائل الإعجاز ص ٥٤ .

(٣) تنظر الموازنة ص ٣٣٥ .

يقول في قوله تعالى بريح حمرصر عاتية حقيقته شديدة والعتو أبلغ منه لأن العتو شدة فيها تمرد ، ويقول في قوله تعالى دولما سكت عن موسى الغضب، حقيقته انتفاء الغضب ، والاستعارة أبلغ لأنه اتقى انتفاء مراصد بالعودة فهو كالسكوت على مراصد الكلام بما توجهه الحكمة في الحال فانتفى الغضب بالسكوت عما يكره .. واشتعل الرأس أصل الاشتعال للنار وهو في هذا الموضع أبلغ وحقيقته كثرة شيب الرأس إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد سريعاً صارت في الانتشار والإسراع كاشتعال النار وله موقع في البلاغة عجيب وذلك أنه انتشر في الرأس انتشاراً لا يتلافى كاشتعال النار ، وقال تعالى دبل نقذف بالحق على الباطل قديمه فإذا هو زاهق، قال نقذف والدمغ هنا مستعار وهو أبلغ وحقيقته بل نورد الحق على الباطل فيذهب ، وإنما كانت الاستعارة أبلغ لأن في القذف دليلاً على القهر لأنك إذا قلت قذف به إليه فإنما معناه القاء إليه على جهة الإكراه والقهر فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لأعلى جهة الشك والاضطراب ويدمغه أبلغ من يذهبه لما في يدمغه من التأثير فيه فهو أظهر في النكابة وأعلى في تأثير القوة (١) .

ويعلق الأستاذ الخولي على تحليلات الرماني لصور الاستعارة بقوله، ويستطيع الدارس لأثر الرماني في البيان العربي أن يقرر أن الرماني في دراسته القرآنية جاوز بالصورة البيانية مرحلة صباها وكاد يحقق لها شبابها فقد أبدى فباحث الجمال القرآني سافراً راعياً أخاذاً ولم يقف عند بيان المعنى الحقيقي والمجازي والعلاقة بينهما بل يعرض الحقيقة ويوازن بينها وبين الاستعارة ويبين لك مدى أثرها في النفوس ومبلغ إثارته للحس فعرض الرماني بحمل الوجدان ينقل بالصورة القرآنية بعد أن أبدى جمالها الممكنون (٢) .

قد أشرت إلى أن التمثيل الذي يكون على حد الاستعارة قسم من أقسام المجاز كما بين عبد القاهر وقد أشار عبد القاهر إلى صورها وميزها عن التمثيل الكائن على حد التشبيه يقول في هذا ، أما التمثيل الذي يكون مجازاً لمجيبك به على حد الاستعارة فثاله قولك للرجل يتردد في الشيء بين فعله وتركه أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى فالأصل في هذا أراك في ترددك كمن يقدم رجلاً ويؤخر أخرى ثم اختصر

(١) انسكت في إيجاز القرآن من ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ عن ثلاث وسائل .

(٢) أثر القرآن في تطور البلاغة من ٨٧ .

الكلام وجعل كأنه يقدم الرجل ويؤخرها على الحقيقة كما كان الأصل في قولك رأيت أسدا رأيت رجلا كالأسد (١) .

ثم ذكر قولهم أراك تنفخ في غير خم، وتخط على الماء، وما زال يقتل منه في الذروة والغارب حتى بلغ منه ما أراد، ثم يقول في نهاية الفصل وهكذا كل كلام رأيتم قد نحو فيه نحو التمثيل ثم لم يفصحوا بذلك وأخرجوا اللفظ مخرجة إذا لم يريدوا التمثيل (٢) .

ولم يحصر عبد القاهر التمثيل الذي جاء على حد الاستعارة في هذه الصور المركبة وإنما أجاز إطلاق التمثيل على الاستعارة في المفرد إذا كان الشبه فيها عقليا ومنع إطلاقه على الاستعارة في المفرد إذا لم يكن الشبه فيها عقليا أي إذا كانت الاستعارة مبنية على تشبيه صريح .

يقول عبد القاهر وإذا قد تقررت هذه الجملة فإذا كان الشبه بين المستعار منه والمستعار له من المحسوس والفرائز والطباع وما يجرى مجراها من الأوصاف المعروفة كان حتمها أن يقال إنها تتضمن التشبيه ولا يقال أن فيها تمثيلا وضرب مثل وإذا كان الشبه عقليا جاز إطلاق التمثيل فيها وأن يقال ضرب الإسم مثلا لكذا كقولنا ضرب النور مثلا للقرآن والحياة مثلا للعلم (٣) .

ويتحصل من هذا أن عبد القاهر يطلق المثل والتمثيل على التشبيه المؤل وما بني عليه من الاستعارة سواء كانت مفردة أو مركبة .

أما بحث التجوز في الإسناد فقد كان موضع اهتمام النحاة والمتكلمين والبلاغيين منذ بداية الاشتغال بعلوم النحو والكلام والبلاغة . اهتم به النحاة لأن موضوعه الحكم وهو موضع الإثبات والنفي في الجملة وهو مناط الفائدة فيها ، واهتم به المتكلمون لا اتصال صورته بموضوع خلافها وهو أفعال الله وأفعال العباد ، وإسناد الختم والنفي والإضلال وكل ما هو قبيح في نظرهم إلى المولى سبحانه فكان لا بد أن ينهض المانعون وأن يصرفوا هذا الإسناد عن وجهه وأن يبينوا

(١) خلال الإجاز ص ٤٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .

(٣) أسرار البلاغة ص ١٩٤ .

هذه الطريقة اللغوية وأن يفصلوا ملابسها وقرائنها ، وقد اهتم به الأدباء لأنه طريقة من طرق الاداء يجرى فيها الإسناد على غير المؤلف، وأشير هنا أشارات سريعة إلى الجهود التي سبقت عبد القاهر في هذا الباب والتي لا تشك في أنه أفاد منها الكثير ومن هذه الجهود ما عنمه سيويوه الذي وقف عند صور المجاز العقلي وبين ما فيها من تجوز وذكر أمثلة ترددت بعده في هذا الباب ومن ذلك قوله في بيت الخنساء :

ترتع ما غفلت حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبار

لجعلها الإقبال والإدبار مجازاً على سعة الكلام كقولك نهارك صائم وليك قائم (١) ، وكانت إشارات الفراء في دراسة صورته قريبة من دراسة المتأخرين ولذلك نجد شياً قوياً بين تحليلاته لهذه الصور وتحليلات الزمخشري من ذلك قوله في قوله تعالى وفاربحت تجارتهم: ربما قال القائل كيف أربح التجارة وإنما يربح الرجل التاجر؟ وذلك من كلام العرب ربح بيعك وخسر بيعك فحسن القول بذلك لأن الربح والخسران إنما يكونان في التجارة فلم معناه ، ومثله من كلام العرب ليل نائم ومثله من كتاب الله فإذا عزم الأمر وإنما العزيمة للرجال .. فلو قال قائل قد خسر عبدك لم يجوز ذلك إن كنت تريد أن تجعل العبد تجارة يربح فيه أو يوضع لأنه قد يكون العبد تاجراً فيربح أو يوضع فلا يعلم معناه إذا ربح هو من معناه إذا كان متجوزاً فيه فلو قال قائل قد ربحت دراهمك ودنانيرك وخسر برك ورقيقك كان جائزاً لدلالة بعضه على بعض (١) ، وفي هذا إشارة واضحة إلى علاقة المجاز الحسي وقرينته وقد أفاد الزمخشري من هذا النص في تفسير هذه الآية (٣).

وقد وقف ابن قتيبة عند صور هذا المجاز في باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه وقال ومنه أن يجيء المفعول به على لفظ الفاعل كقوله سبحانه ولا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم، أي لا معصوم من أمره، وقوله من ماء دافق أي مدفوق، وقوله في هيشه راضية أي مرضى بها ، وقوله أو لم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً أي

(١) الكتاب ج ١ ص ١٦٩ .

(٢) معاني القرآن للفراء ج ١ ص ١٤ .

(٣) ينظر الكتاب ج ١ ص ٥٣ .

مأمونا فيه ، وقوله وجعلنا آية النهار مبصرة أى مبصر آ بها ، والعرب تقول ليل
ناغم وسر كاتم ، ثم يقول ومنه أن يأتي الفاعل على لفظ المفعول به وهو قليل
كقوله إنه كان وعده ماتياً (١) .

ويقول في موطن آخر راداً على الطاعنين على القرآن بالمجاز .

والله تعالى يقول وفاذا عزم الأمر وإنما يعزم عليه ، ويقول تعالى وفا رجعت
تجارتهم ، وإنما يرج فيها ويقول وجاؤوا على قيصه بدم كذب ، وإنما كذب به (٢) ،

ويشير الآمدى إلى صور هذا المجاز ويرى أنه ينبغي أن ينتهى فيه إلى
ما انتهت العرب لأن اللغة لا يقاس عليها . يقول في قول الشاعر : فالدمع يذهب
بعض جهد الجاهد لو كان استقام له أن يقول بعض جهد المجهود لكان أحسن
والليق وهذا أغرب وأظرف ، ثم يقول الآمدى . وقد جاء أيضاً فاعل بمعنى مفعول
قالوا عيشة راضية بمعنى مرضية ، ولح باصر وإنما هو يبصر فيه ، وأشباه هذا
كثيرة معروفة ولكن ليس في كل حال يقال وإنما ينبغي أن ينتهى في اللغة إلى
حيث انتهوا ولا يتمدى إلى غيره لأن اللغة لا يقاس عليها (٣) .

وبواضح أن هذه الإشارات ضيقة ومحدودة ويظهر عليها الطابع النحوى
الذى يهتم بوقوع فاعل موقع مفعول وليست هنا نظرات في بيان قيمته وأمره
في الأسلوب ولا نظرات تفرق بينه وبين المجاز اللغوى كما أنه ليس فيه بسط
ولا تحليل لصوره ولا إبراز لملاحه كطريقة من طرق الآداء .

وقد بسط عبد القاهر القول في كل هذا ففرق بينه وبين المجاز اللغوى وبين
أنه مجاز من طريق المعنى والمقول وتوصف به الجملة ولا وجه لنسبته إلى اللغة
وقد طال شرحه في هذا الموضوع وأجهد نفسه وأجهد قارئه حتى يصل إلى أنه
مجاز مختلف عن المجاز المشهور في اللغة ثم ذكر حد هذا المجاز بقوله : وحده
أن كل جملة أخرجت الحكم المقاد بها عن موضعه في العقل لضرب من التأول

(١) فأويل شكل القرآن ص ٢٢٧ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٩ .

(٣) الوافية ص ٢٠٦ .

فهى مجاز (١) وأشار إلى أنه كثير فى القرآن وذكر له شواهد كثيرة بين فيها الفرق بين المجاز فى الإثبات والمجاز فى المثبت (٢) وقد ذكر هذا المجاز فى كتاب دلائل الإعجاز ولم يقف طويلا ليبين أنه مجاز من جهة العقل كما فعل فى أسرار البلاغة، ولكنه انصرف إلى بيان قيمته البلاغية ووازن بينه وبين الأسلوب العادى فى المعنى الذى جاء على طريقته ، ثم أشار إلى أنه ليس بلازم أن يكون للفعل فيه فاعل فى التقدير إذا أنت نقات الفعل إليه عدت به إلى الحقيقة ، وقد خالفه فى هذا المتأخرون وأولهم ابن الخطيب الرازى ثم أشار إلى أن التكلم قد يحتاج فى كثير من الأحيان إلى أن يهىء العبارة لهذا المجاز بشيء يتوخاه فى النظم كما يفعل فى المجاز اللغوى وضرب مثلا لذلك قول الشاعر :

تجوب له الظلما عين كأنها زجاجة شرب غير ملأى ولا صفر

فقال تجوب له وذكر هذا المتعلق ثم قال عين وقطعها عن الإضافة ، ولو قال

تجوب له الظلما عينه لم يكن بهذا الحسن ، ثم ذكر قول الخنساء :

ترتع ما غفقت حتى إذا ادكرت فانما هى إقبال وإدبار

ثم هلق عليه بقوله : واعلم أنه ليس بالوجه أن يعد هذا على الإطلاق معد

ما حذف منه المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه مثل قوله عز وجل ، وأسأل

القرية ، . وإن كنا نراهم يذكرونه حيث يذكرون حذف المضاف ويقولون أنه

فى تقدير فانما هى ذات إقبال وإدبار ، ثم يقول فى تعليق ضح تقدير المضاف

لأننا إذا جعلنا المعنى فيه الآن كالمعنى إذا نحن قلنا فانما هى ذات إقبال وإدبار

أفسدنا الشعر على أنفسنا وخرجنا إلى شئ مفسول وإلى كلام عامى مرفول ،

وبهذا يكون عبد القاهر قد وضع أصول هذا الباب (٣) .

ويقول الأستاذ الدكتور شوقى ضيف : والذى لا شك فيه أنه يعد مكتشف

المجاز الحكيمى فى مثل أثبت الربيع البقل وهو مجاز لافى الكلمات وإنما فى الإسناد

(١) أسرار البلاغة ص ٣٠٦ .

(٢) ينظر أسرار البلاغة ص ٢٩٢ إلى ٣٣٣ .

(٣) ينظر دلائل الإعجاز ص ١٩١ إلى ١٩٨ .

ولذلك سمى مجازاً حكماً أو عقلياً ، ثم لاحظ الأستاذ الفاضل إن فكرة هذا المجاز لم تكن قد اتضحت تماماً في نفسه ، ولعله اندفع في ذلك بعامل محاولته أن يرد كل شيء في مجال النظم إلى العقل ، ثم قال وإنما يدفعنا إلى هذا القول أننا نجد يدخل في المجاز الحكمي أو الإسنادي قولهم عن بعض الإبل في الرعى إنما هي إقبال وإدبار ، وأشد منه أيضاً قول المتنبي :

بدت قرأ ومالك خطوط بان وفاحت هنبرا ورنت غزالا

وقد علق عليه بأنه ليس على تقدير مثل قر ومثل هنبر وغزال ، وبذلك سلك البيت في المجاز الحكمي وهو من التشبيه البليغ ، ويمضي فيجعل من الكناية نوعاً يدخل في هذا المجاز الحكمي وهو الذي يأتي من إسناده لغيره كقول زياد الأعجم :

أن الساحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

ويجعل من هذا الضرب قول الشنفرى يصف امرأته بالعفة :

بيت بمنجاة من اللوم بيتها إذ ما بيوت بالملامة حلت

فقد توصل إلى نفي اللوم عنها وإبعادها عنه بأن نفاه عن بيتها وباعد بينها وبينه والفرق بينه وبين زياد أنه ينفي وزياذ يشبث وقد سمي البلاغيون بعده هذا اللون باسم الكناية عن نسبة (١).

وقد بعد هذا الكلام عن الصواب ببدأ بيناً حتى حسبت أن هنا خطأ في الكتاب أو في ترتيب صفحاته فقد هدت الأستاذ عافاه الله دقيفاً في فهمه لكثير من مسائل هذه اللغة ، أما أن عبس القاهر مكتشف المجاز الحكمي فذلك باطل يدل على ما قدمناه من جهود السابقين على عبس القاهر ولو أتيج لنا أن نستقصى القول في بيان جهود أخرى لوضعنا يد القارىء على دراسة وأعية لهذا الباب وخصوصاً في محاولات المعتزلة الذين يهتمون بصرف الإسناد عن ظاهره إذا كان هذا الظاهر يوجب إثبات أفعال لله يرون أنها للعبد ، وإذا نظر القارىء إلى كتاب أعالي المرتضى وكتاب تنزيه القرآن عن المطاحن ومشابه القرآن للفاخر

عبد الجبار فسوف يبعد من ذلك الكثير فضلاً عما أشرنا إليه . وأما أن عبد القاهر أدخل في المجاز الحكمي بيت الخنساء فليس هذا إلا تطبيقاً دقيقاً للحد الذي ذكره للمجاز العقلي فهو كما يقول كل جملة أخرجت الحكم المفادها عن موضعه في العقل لضرب من التأول ، وهذا الحد ينطبق تماماً على هذا البيت لأن الحكم فيه خارج عن موضعه في العقل ، نعم ليس قول الخنساء هذا داخلاً في المجاز العقلي عند الخطيب لأنه جملة خاصة بإسناد الفعل أو ما في معناه إلى غير ما هو له ، ولعل تصور الأستاذ الفاضل للمجاز العقلي عند الخطيب هو الذي دفعه إلى إنكار أن يكون البيت من المجاز عند عبد القاهر ، ثم إن هذا البيت مشهور في نسبه إلى الخنساء وقد ذكره عبد القاهر منسوباً إليها فكيف ينسبه العلامة إلى قولهم عن بعض الإبل في الرهي والبيت من أروع ما قيل في الرثاء ، وأما أن عبد القاهر قد أدخل بيت المتنبي :

بدت قمراً ومالت خوط بان وفاحت عنبراً ورونت غزالاً

في المجاز الحكمي فذلك ما لا يفهم من كلام عبد القاهر لأنه ذكر هذا البيت بعد ما بين أن تقدير المحذوف في بيت الخنساء يخرج الشعر إلى شيء مفسول وكلام عامي مردول ثم قال ، وكان سبيلنا سبيل من يزعم مثلاً في بيت المتنبي :

بدت قمراً ومالت خوط بان وفاحت عنبراً ورونت غزالاً

أنه في تقدير محذوف وإن معناه الآن كالمعنى إذا قلت بدت مثل قمر ومالت مثل خوط بان . . . في أنا نخرج إلى الغثاة وإلى شيء يعزل البلاغة عن سلطانها ولا يفهم من هذا أنه أدخل بيت المتنبي في المجاز الحكمي ، وإنما هو مثال لما يفسد بتقدير المحذوف كما يكون في بيت الخنساء .

وأما أن عبد القاهر جعل من الكناية نوعاً يدخل في هذا المجاز الحكمي وأن هذا النوع سماه البلاغيون بعده كناية عن نسبة فذلك أبعد عن الصواب من كل ما سبق لأن هذين البيتين المذكوران في فصل خاص بالكناية لم يذكر فيه المجاز الحكمي وعبارات عبد القاهر واضحة لا لبس فيها ولا غموض في أن هذه الصور من الكناية عن إثبات صفة لموصوف وهذا شيء والتجوز في الإسناد شيء آخر .

الكناية :

كانت دراسة عبد القاهر للكناية هي الصورة التي تناقشتها كتب المتأخرين ، وذلك لأنه حرر أقسامها وحلل مثلها ، وإن كان لم يتكلم عن اناوصوف ولكن كان دقيقةً فيما تكلم فيه ، وليست البلاغيين بعده حافظوا على طريقتة في التحليل والتمييز .

وقد أشار إلى أن العرب كما يتركون التصريح بالصفة إلى التعبير عنها بطريق الكناية والتعريض ، كذلك يذهبون في إثبات الصفة هذا المذهب وإذا فعلوا بدت هناك محاسن تملأ الطرف ودقائق تعجز الوصف ورأيت هناك شعراً وسعراً (١) ، ثم أخذ عبد القاهر في سوق الأمثلة وتحليلها وبيان الفروق الدقيقة بين الصور فذكر قول زياد الأعجم .

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

ثم بين أن الشاعر عدل في هذا عن إثبات هذه الخلال للممدوح بالطريق الواضح المكشوف — كأن يقول هي مجموعة فيه أو مقصورة عليه — إلى هذا الطريق فجعل كونها في القبة المضروبة عليه جبارة عن كونها فيه وكان لهذا فضل في جزالة هذا القول وفخامته ولو أنه أتى هذا المعنى من طريق التصريح لكان كلاماً غملاً وحديثاً ساذجاً . وهذه الصنعة في طريق الإثبات هي نظير الصنعة في المعاني إذا جاءت كنايةات عن معان آخر نحو قوله :

ومايك في من عيب فاني جبان الكلب مرزول الفصيل

فكما أنه إنما كان من فاخر الشعر وعما يقع في الاختيار لأجل أن أراد أن يذكر نفسه بالقرى والضيافة فكفى عن ذلك بجبان الكلب وهو الفصيل وترك أن يصرح فيقول قد عرف أن جاني مالوف وكلبي مؤدب لا يهرق في وجوه من ينفشان من الأضياف ، وإن أنهر التالي من أبي وأدع فصالحاً هو (٢) .

(١) دلائل الإجازة ص ١٦٦

(٢) دلائل الإجازة ص ٢٠٠ ، ٢٠١

ثم بين عبد القاهر للصور المتشابهة في السكتاية عن إثبات الصفة إلى اللوحروف
والصور المتشابهة في السكتاية عن الصفة نفسها فذكر أن قول زياد .

إن السباحة والمرودة والندى في فبة ضربت على ابن الحشرج

تظير قول يزيد بن الحكم بمدح الملب وهو في حبس الحجاج .

أصبح في قيدك السباحة والمجد وفضل الصلاح والحسب .

وقول عوف بن الأحوص :

زجرت كلابي أن يهر عقورهما .

شبيهه بالبيت السابق :

ومعايك في من عيب فاني جبان الكلب مهزول الفصيل

وقوله مهزول الفصيل وإن كان كناية عن الجود ليس كقوله جبان
الكلب فلا يلزم أن تكون الصور الواقعة كناية عن معنى واحد متشابهة وإنما
قوله مهزول الفصيل شبيه بقول ابن هرمة : لا أمتع العوذ بالفصال .

وقول نصيب : وكلبك آلس بالزائرين من آلام بالابنة الزائرة

تظير قول الآخر :

يكاد إذا ما أبصر الضيف مقبلا يكلمه من حبه وهو لعمري

وقوله : وحيثما بك أمر صالح . تسكن . تظير قوله :

يصير أبا ن قرين السما ح والمكرمات معا حيث صارنا

ومثله قول أبي نواس :

فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير (١)

وهذه الطريقة الفذة بسط عبد القاهر السكتاية في قسمين هامين من أقسامها
وكان التعمير عند مرادها لا يفرق بينهما كما كان التلويع كذلك .

(١) ينظر دلائل الإعجاز ٢٠١ له ٢٠٣

ومما لا ريب فيه أن عبد القاهر سبق بإشارات قديمة إلى هذه الدراسة
ولكنها لم تكن مثل أسلوبه الفنى المحدد .

فقد درس قدامة صوراً من الكناية وسماها الأرداف .

يقول ومن أنواع التللف للفظ والمعنى الأرداف وهو أن يريد الشاعر
دلالة على معنى من المعاني فلا يأتي باللفظ الدال على ذلك المعنى بل بلفظ يدل على
معنى هو ردفه وتابع له فإذا دل السابع أبان عن المتبوع ، ثم ذكر قول ابن
أبي ربيعة .

بعيدة مهوى القرط أما لنوفل أبوها وأما عبد شمس وهاتم

ولأنما أراد هذا الشاعر أن يصف طول الجيد فلم يذكره بلفظه الخاص به
بل أتى بمعنى هو تابع لطول الجيد وهو بعد مهوى القرط . ومثل ذلك قول
امرئ القيس :

وتضحى فتيت المسك فوق فراشها أثوم الضحى لم تنطق عن تفضل

ولأنما أراد امرؤ القيس أن يذكر ترفه هذه المرأة وأن لها من يكفيها
فقال أثوم الضحى وإن فتيت المسك يبقى إلى الضحى فوق فراشها ، وكذلك
سائر البيت (١) .

وهكذا ظل قدامة يعرض صوراً للكناية عن صفة ويبين وجه الدلالة فيها .
ثم عرض لكثرة الوسائط أو إخفاء التلازم التي لا يظهر فيها المطلوب بسرعة
ويبين أن هذا الباب إذا غمض لم يكن داخلاً في جملة ما ينسب إلى جيد الشعر وقد
أشار إلى أن هذه الطريقة في الدلالة هي طريقة التمثيل أيضاً وعرف التمثيل بأنه
أن يريد الشاعر إشارة إلى معنى فيضع كلاماً يدل على معنى آخر وذلك المعنى الآخر
والكلام متبنيان عما أراد أن يشير إليه مثل قول الراجح بن ميادة :

ألم أك في معنى يدريك جمعتي فلا تجملني بعدها في شمالك (٢)

(١) نقد الشعر ص ١٧٨

(٢) ينظر نقد الشعر ص ١٨١ ، ١٨٢

وقد أفاد الجرجاني من هذا حين أشار إلى أن الكلام على ضربين ضرب أنت
تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده كقولك خرج زيد وضرب آخر أنت
لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي
يقتضيه موضوعه في اللغة ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض ومدار
هذا الأمر على الكفاية والاستعارة والتمثيل (١)

وإذا نظرنا إلى تعريف عبد القاهر للكناية وجدناه لا يختلف كثيراً عما ذكره
قدامة في الإرداف . يقول عبد القاهر والمراد بالكناية هنا أن يريد المتكلم إثبات
معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة ولكن يجيء إلى معنى هو
تاليه وردفه في الوجود فيوميء إليه ويجهله دليلاً عليه . ثم ذكر أمثلة ومنها
تقوم الضمى (٢) .

وقد أفاد أبو هلال العسكري من كلام قدامة السابق فذكر أن الإرداف
والتوابع أن يريد المتكلم الدلالة على معنى فيتترك اللفظ الدال عليه الخاص بهويأتى
بلفظ هو ردفه وتابع له فيجعل عبارة عن المعنى الذي أراده ، وذلك مثل قول
الله تعالى : « فيهن قاصرات الطرف ، وقصور الطرف في الأصل موضوعه للعفاف
على جهة التوابع والإرداف ، وذلك أن المرأة إذا عصت قصرت طرفها عن
زوجها فكان قصور الطرف ردفاً للعفاف والعفاف ردف وتابع لقصور الطرف
ثم ذكر من أمثاله قولهم فلان كثير الرماد وقول الشاعر :

وما يك في من عيب فاني جبان الكلب مهزور الفصل (٣)

وقد أفاد من كلام قدامة ابن سنان الخفاجي وابن رشيح القيرواني وكلامهما
ناصر عبد القاهر الجرجاني . يقول ابن سنان ومن نعوت البلاغة والفصاحة أن
يراد الدلالة على المعنى فلا يستعمل اللفظ الخاص الموضوع له في اللغة بل يؤق

(١) ينظر دلائل الإعجاز ص ١٧١

(٢) دلائل الإعجاز ص ٤٤

(٣) الضامنين ص ٣٤١ ، ٣٤٢

بلفظ يتبع ذلك المعنى ضرورة فيكون في ذكر التابع دلالة على المتبوع وهذا
يسمى الإرداف والتبع ، ثم ذكر أمثلة منها قول عمر بن ربيعة ،

بميدة مهوى القرط أما لنوئل أروها وإما هبد شمس وهاشم

ويذكر بيت امرئ القيس :

وتضحي فتيت المسك فوق فراشها تؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

ويشير إلى الكناية عن الموصوف ويذكر شاهده المشهور :

فأوجرته أخرى فأضلت نصله بحيث يكون اللب والرعب والحقد

ويقول فلم يعبر عنه - يريد القلب - بأحده الموضوع له وعندل إلى الكناية

عنه بما يكون اللب والرعب والحقد فيه وكان ذلك أحسن :

ويذكر أيضاً :

الضاربين الكبش يبرق بيضه والطاعنين مجامع الأضغان

ويبين وجه الدلالة في كل هذا ويقارن بينه وبين أسلوب الحقيقة (١) .

ويقول ابن رشيق ومن أنواع الإشارة التبيين وقوم يسمونه التجاوز وهو
أن يريد الشاعر ذكر الشيء فيجأزه ويذكر ما يتبعه في الصفة وينوب عنه في
الدلالة عليه ثم يذكر :

ويضحي فتيت المسك فوق فراشها تؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فقوله يضحي فتيت المسك تبيين وقوله تؤوم الضحى تبيين ثان وقوله لم
تنتطق عن تفضل تبيين ثالث وأنه أراد أن يصفها بالترفة والنعمة وقلة الاقتران في
الخدمة وأنها شريفة مكفية المأزومة فجاء بما يتبع الصفة ويبدل حليها أوصل دلالة ثم
يذكر شواهد لهذا النوع من الكناية ويحفظها (٢) .

وابن رشيق يذكر الكناية مرادفة للتمثيل ولا يزيد في الموضوع الذي ذكرها

(١) صر الصاحبة من ٢٧١ وما بعدها .

(٢) ينظر السدة ج ١ من ٣١٢ وما بعدها .

فيه عن إيراد شاهدين لابن مقبل وكان جافياً في الدين يبكي أهل الجماعة وهو
مسلم فقيل له مرة في ذلك فقال :

ومأى لا أبكي الديار وأهلها وقد رادها روادك وحيرا
وجاء قطا الأحباب من كل جانب فوقع في أعطانا ثم طيرا

وقال معلقاً على هذين البيتين فكفى عما أحدثته الإسلام ومثل (١) .

وهذه إشارة ليس فيها غناء في هذا الباب ، أما أمثلة الكناية وشواهدا
التي ذكرها في باب التتبيع والإرداف فإنه لم يشر في دراستها إلى الكناية وكان
التتبيع والإرداف شيئاً والكناية شيء آخر . ومثله في هذا ابن سنان فقد ذكر
الكناية الحسننة التي تقع في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح ثم قال وإنما قلنا
في الموضع الذي لا يحسن فيه التصريح لأن مواضع الهزل والمجون وإيراد النوادر
يلقب بها ذلك ولا تكون الكناية فيها مرضية . ثم ذكر من ذلك الكناية من
الوطء بالسر والمرأة بالوديعة والأمانة ثم ذكر الكنايات القبيحة ، وقد أشرنا
إلى أنه ذكر صوراً من الكناية وليكنه لم يذكر الكناية وهو يخلل هذه الصور .

وكانت الكناية تطلق على صور من المجاز المرسل كما بينا وتطلق أيضاً بمعناها
اللغوية وترادف التورية والتعريض ، وقد ذكر المبرد أنها تقع على ثلاثة أضرب :

١ - الأولى التعمية والتغطية ومثاله قول أحد القرشيين .

وقد أرسلت في السران قد فضحتني وقد بحت باسمي في النسيب وما تكتي

والثاني وهو أحسنها الرغبة عن اللفظ الحسيس المتفحش إلى ما يدل على معناه

غيره ، ومنه قوله تعالى : أو لامستم النساء . .

والثالث التفضيم والتعظيم ومنه اشتقت الكناية (٢) .

وذلك واضح في كتاب الصناعتين وفي كتاب سر الفصاحة كما قلنا (٣) .

(١) الرجوع السابق ج ١ ص ٣٠٥ ج ٢

(٢) ينظر الكامل ج ٣ ص ٤٠

(٣) ينظر الصناعتين ص ٣٦٠ و سر الفصاحة ١٩٢

وما يذكر في هذا الباب أن ابن رشيقي قد ذكر التعريض منفصلاً عن
الكناية وذكره أمثلة لا تدخل في الإرداف والتقييع ، وقد عول في هذه الأمثلة
على السياق فهو الذي يحدد المعنى التعريض كما استقر عليه الرأي بين البلاغيين
المتأخرين ، قال ابن رشيقي ومن أنواعها - يعنى الإشارة - التعريض كقول
كتب بن زهير لرسول الله صلى الله عليه وسلم :

في فتية من قريش قال قائلهم
بيطن مكة لما أسلبوا زولوا

فعرض بعمر بن الخطاب وقيل بأبي بكر رضى الله عنه ، ومن مליح التعريض
قول أيمن بن خريم الأسدي لبشر بن مروان يمدحه ويمرض بكاف كان بوجه
أخيه عبد العزيز حين نفاه عن مصر على يدي نصيب الشاعر لمولاه :

كان التاج تاج بني هرقل جلوه لأعظم الأعياد عيداً
يضافح خد بشر حين يمسى إذا الظلماء باشرت الخدوداً

فهذا من خفي التعريض لأنه أوم السامع أنه إنما أراد المبالغة بذكر الظلماء
لأسيما وقد قال حين يمسى وإنما أراد الكلف (١) .

ولولا السياق في هذه الآيات ما استطاع النص أن يوضح هذه المعاني
التعريضية لأنها تفهم عند اللفظ لا به .

ويذكر ابن قتيبة مثلاً وشواهداً للتعريض من القرآن بعدما ذكر صوراً
للكناية لا تتصل بصورها الاصطلاحية وإنما تدور حول الكناية اللغوية . يقول
في قوله تعالى : لا تؤاخذني بما نسيت ، لم ينس ولكنها من معاريض الكلام
وهذا مروى عن ابن عباس ويقول في تفسيره - أراد بن عباس - أنه لم يقل
إني نسيت فيكون كاذباً ولكنه قال : لا تؤاخذني بما نسيت ، فأوم النسيان
ولم ينس ولم يكذب ولهذا قيل إن في المعاريض عن الكذب لمدوحة ، ومنه
قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، أنى سقيم أى ، ما سقيم لأن من كتب عليه الموت

فلا بد من أن يسقم ... وكذلك قوله ، بل فعله كبيرهم هذا فاسألوه إن كانوا ينطقون ، أراد بل فعله الكبير إن كانوا ينطقون فسلوه فجعل النطق شرطاً للفعل أى إن كانوا ينطقون فقد فعله وهو لا يعقل ولا ينطق (١) .

ثم يذكر من هذا الباب ما سماه البلاغيون الكلام المنصف وذلك كقول الله عز وجل وإنا أو أياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، والمعنى إنا لضالون أو مهتدون وإياكم أيضاً لضالون أو مهتدون ، وهو جل وعز يعلم أن رسوله المهتدى وإن مخالفه الضال ، وهذا كما نقول للرجل يكذبك ويخافك إن أهدنا لكافب وأنت تعنيه فكذبتة من وجه هو أحسن من التصريح كذلك قال الفراء (٢) .

وسوف نجد أثر هذه الدارسة فى بحث الكشاف ، والمهم أن نقول هنا أن التعريض كان ينفصل أحياناً عن الكناية ثم إن عبد القاهر جعله رديفاً لها ثم إن الزمخشري حدد الفرق بينهما تحديداً واضحاً كما سنبين إن شاء الله .

وخلصة ما يقال فى نهاية هذا الفصل إن عبد القاهر لم يوضح مباحث البلاغة فى المعانى والبيان وإن كان خطابهما خطوة واسعة تميزت بها دراسته عن الدارسة السابقة تميزاً واضحاً .

البحث فى ألوان البديع :

لاحتجاج ألوان البديع إلى ما تحتاج إليه فنون البيان من الدارسة والتحليل . فكل لون منها مستقل عن صاحبه فدارسة الجناس غير مرتبطة بدارسة العليات ، ودارسة المشاكلة غير مرتبطة بدارسة السجع ، فليس فن منها مبنياً على فن وليس فن منها قسماً لفن ، وذلك بخلاف ألوان البيان التى نجدتها متشابهة فالاستعارة مبنية على التشبيه والتشليل قسم من التشبيه والمجاز منه مجاز فى السكلة ومنه مجاز فى المحكم والمجاز فى السكلة ينقسم إلى مجاز مرسل واستعارة ، والكناية أخت المجاز وغير ذلك من الروابط بين هذه الفنون التى يتفرع

(١) أوائل شكل القرآن ص ٢٠٩

(٢) المرجع السابق

بعضها عن بعض ويستلزم بعضها بعضا ، لذلك كانت مباحث البيان كأنها مباحث واحد وكانت مباحث البديع كأنها مباحث متفرقة ، ومن هنا تأخر توضيح المباحث البيانية في حين سبقت مباحث ألوان البديع واكتملت تقريبا قبل عهد الجرجاني . اللهم إلا تلك الفنون التي أضافها المتأخرون في عصر البديعيات وهذه إضافات لم تغير شيئا فيما سبق العلماء إلى دراسته ، من هذه الألوان .

اذلك رأيت من التكلف أن أبسط دراسة واسعة أتبع فيها الشاة المباحث البديعية وتطورها إلى عصر الزرخشري لأن الدارسين جميعاً يعرفون أن هذه المباحث قد اكتملت قبل القرن الخامس الذي عاش فيه الجرجاني ، ولذلك لم يشغل عبد القاهر بدراسة البديع كما شغل بدراسة البيان ومسائل النظم . وهذا راجع إلى ما قلته من أنه ليست هناك حاجة للإضافة في دراسة البديع ، وظن بعض الدارسين أن هذا راجع إلى أنه لم يدخل البديع في قضية الإعجاز وسوف أناقش هذا الزعم في حديثي عن مذهب الزرخشري في البديع لأن كثيراً من الدارسين ربط بين المذهبين وهذا صواب ، أما بيانهم لمذهب الشينخين في البديع فذلك ما سوف نخالف فيه .

ولكى أؤكد ما ذهبت إليه من أن دراسة ألوان البديع ليست دراسة معقدة وإنما هي نظرات ترسل في أعطاف الأساليب فتبين أوصافها في غير هنا أقول أن فنونه كأنها تولد مكتملة فليست في حاجة إلى مراحل تاريخية وظروف ثقافية لتؤثر في نموها وازدهارها كما هو الحال في مسائل النظم والبيان ، وحين تعرض صوراً من دراسة ألوان البديع في الزمن القديم التي كانت فيه مسائل المعاني والبيان وحيماً وإشارة نرى هذه المباحث كأنها في صورتها الأخيرة .

من هذه الصورة ما ذكره الفراء في صور المشاكلة .

يقول رحمه الله فإن قال قائل : رأيت قوله فلا عدوان إلا على الظالمين ، عدوان هو وقد أباحه الله لهم ؟ قلت ليس بعدوان في المعنى إنما هو لفظ على مثل ما سبق قبله ألا ترى أنه قال فن اهدى عليكم فاهدوا عليه فالعدوان من

المشركين في اللفظ ظلم في المعنى والعدوان الذي أباحه الله وأمر به المسلمين إنما هو قصاص فلا يكون القصاص ظلماً وإن كان لفظه واحداً ، ومثله قوله تبارك وتعالى : جزاء سيئه سيئة مثلها ، وليست من الله على مثل معناها من المسيء لأنها جزاء (١) .

وهذا قريب جداً مما قاله المتأخرون وليس بيان هذه الطريقة في حاجة إلى أكثر من هذا اللهم إلا أن يوضع في قالب علمي محدد ، ثم أمنا لو قسمناه بإشارات الفراء في مسائل النظم والبيان لوجدنا كلامه هنا يسبق لإشاراته هناك سبقاً بينا وذلك راجع إلى ما قلته .

وقد أشار ابن قتيبة إلى صور المشاكلة أيضاً في باب مخالفة ظاهر اللفظ معناه وفي باب الاستعارة .

يقول في الباب الأول : « ومن ذلك الجزاء عن الفعل بمثل لفظه والمعنيان مختلفان نحو قوله تعالى : « إنما نحن مستهزئون الله يستهزئ بهم » ، أى يجازيهم جزاء الاستهزاء وكذلك سخر الله منهم ، ومكروا ومكر الله ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، هى من المبتدأ سيئة ومن الله عز وجل جزاء وقوله : « فن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، فالعدوان الأول ظلم والثاني جزاء ، والجزاء لا يكون ، ظلماً وإن كان لفظه كاللفظ الأول . . . وكذلك قوله نسوا الله فنسيهم » (١) .

ويقول في باب الاستعارة : « ومن ذلك قوله صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة يريد الختان فسماه صبغة لأن النصراني كانوا يصبغون أولادهم في ماء ويقولون هذا طهر لهم كالختان للحنفاء . فقال الله تعالى : صبغة الله ، أى الزموا صبغة الله لا صبغة النصراني أولادهم وأرادوا بها ملة إبراهيم عليه السلام » (٢) .

ويكاد يحث المشاكلة تم صورته الأخيرة وهو لا يزال في أحضان القرين

(١) معاني القرآن ص ١١٩ ، ١١٧

(٢) تأويل شكل القرآن ص ٢٢٥

(٣) المرجع السابق ص ١١٣

الثاني والثالث ويشير سيبويه إلى تأكيد المدح بما يشبه الذم إشارة تكاد تستوهب ما جاء به المتأخرون في هذا الباب . يقول في باب ما يكون (إلا) هل معنى ولكن .

وقوله عز وجل : وأخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ، ولكنهم يقولون ربنا الله وهذا الضرب في القرآن كثير . . ومثل ذلك من الشعر قول النابغة :

ولا عيب فيم غير أن سيوفهم بين فلول من قراع الكتاب

أى ولكن سيوفهم بين فلول .

وقال النابغة الجعدي :

ففي كمل أخلاقه غير أنه جواد فأ يبقى من المال باقيا

كأنه قال ولكنه مع ذلك جواد (١) .

ويتكلم على بن عبد العزيز الجرجاني في المطابقة والتجنيس ويكاد يصل بهما إلى الصورة الأخيرة التي انتهى إليها الدرس في هذين الفنين .

يقول في المطابقة : ومن أشهر أقسام المطابقة ما جرى مجرى قول دحبل :

لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكي

وقول مسلم بن الوليد :

منعبر يبكي على دمنة ورأسه يضحك فيه المشيب

وقال أبو تمام :

وتنظري نخب الركاب ينصبا محيي القريض إلى عيب المال

وقد يجرى منه جنس آخر تكون المطابقة فيه بالنفي كقول البحتري :

يتقيض لي من حيث لا أعلم الهوى ويسرى إلى الشوق من حيث أعلم

لما كان قوله لا أعلم كقوله أجهل وكان قوله أجهل مطابقة كان الآخر

بمثابته ، ومن أغرب ألفاظه وألطف ما وجدته منه قول أبي تمام :

(١) كتيب سيبويه ج ١ ص ٣٦٦ ، ٣٦٧

مها الوحش إلا أن هاتا أورانس فنا الخط إلا أن تلك ذوابل
فطابق بهاتا وتلك، واحدهما الحاضر والآخر للغائب فكانا تقيضين في المعنى
وبمنزلة الضدين (١) .

ويقول في التجنيس : وأما التجنيس فقد يكون منه المطلق ، وهو أشهر
أوصافه كقول النابتة :

وأقطع الخرقى بالخرقاء قد جعلت بعد الكلال تمكي الابن والساما
وقول رؤبة :

أحضرت أهل حضرموت لجانس في موضعين في بيت رجز

وقول أبي تمام :

تطل الطلول الدمع في كل موقف وتمثل بالصبر الديار المواصل
لجانس في المصراعين . . وقد يكون منه التجنيس المستوفى كقول أبي تمام :

مامات من كرم الزمان فإنه يحيى لدى يحيى بن عبد الله
لجانس بيحيا ويحيا ، وحروف كل واحد منهما مستوفاة في الآخر وإنما
هد في هذا الباب لاختلاف المعنيين لأن أحدهما فعل والآخرا اسم ولوانتق المعنيان
لم يعد تهنيسا وإنما كان لفظة مكررة .

ومن التجنيس الناقص قول الأخنس بن شهاب :

وحامى لواء قد قتلنا وحامل لواء منعتنا والسيوف شوارع
لجانس بحامى وحامل والحروف الأصلية في كل واحد منهما تنقص عن
الآخر ، ومثله قول أبي تمام :

يمدون من أيد هوامس هوامس تصول بأسياف قواض قواضب (٧)
لو نظرنا في كتب المتأخرين لوجدنا أن هذه الإشارات هي أهم ما في هذه
الابواب ، ولو قرأنا دراسة علي بن عبد العزيز المرحوم للتجنيس بدراسة

(١) الوساطة ص ٤٤

(٧) الوساطة ص ٤١

للاستعارة لوجدنا فرقا كبيرا فإن بحثه للتجنيس شارف الصورة الأخيرة لهذا
البحث ولم يكن كذلك بالنسبة لبحث الاستعارة التي ظلت في حاجة إلى مزيد
من الجهد . نعم كانت بينهم خلافات في التسمية فقد يطلق قدامة اسم المطابقة
على ما أطلق عليه غيره اسم التجنيس وقد يضيف قدامة إلى فنون البديع فنونا
أخرى ، وقد يدخل ابن قتيبة صور المشاكلة في الاستعارة ، ولكن هذا
لا يؤثر في جوهر ما نريد بيانه وهو أن مباحث هذه الألوان تكاد تبدأ كاملة ،
وسواء سميت صور التجنيس جناسا أو مطابقة وسواء استخرجها قدامة أو عبد الله
ابن المعتز فقد وجدت واضحة المعالم ، وفي حالة تفضل كثيرا الحال التي ظهر فيها
بحث التشبيه أو المجاز القليل أو التقديم أو غير ذلك من فنون علمي المعاني
والبيان .

الفصل الثاني

النظم في الكشاف

- تحديد المراد بالنظم وبيان موضوعه
- تحديد المراد بعلم المعاني وبيان موضوعه
- تحديد المراد بعلم البيان وبيان موضوعه
- علاقة علم النظم بعلم الإعراب

www.alkottob.com

الفصل الثاني

النظم في الكشف

أريد ان احدد في هذا الفصل مفهوم النظم وبيان موضوعه كما يصوره كتاب الكشف وإلى أى مدى يتصل هذا المفهوم بمفهوم علمى المعانى والبيان وعلم الإهراب . ولهذا الغرض تآبعت كلمة النظم في تفسير الكشف وكلمة علم المعانى وعلم البيان ، ثم أخذت في درسها ومناقشتها ولم يكن من الخير في بحشى هذا أن أذكر النتائج لحسب ، وإنما الخير في عرض هذه المجالات التى ذكرت فيها هذه المصطلحات لأنها ليست واضحة فى موضع معين فى كتابه فيسهل تصورهما وإنما هى مبثوثة هنا وهناك ، وعلينا أن نذكر دائماً أن الزمخشري يتكلم فى التفسير فهو ليس حريصاً على تحديد المصطلح العلمى وتحريره . وهذا اللون من الصعوبة ، قد واجهنا فى تحديد هذه المفاهيم ، ولكن الاستقصاء الكامل والمتابعة الدقيقة قد تميّنا على هذه الصعوبة .

وواضح كما بينت أن نظم القرآن قد شغل الدارسين قبل الزمخشري وإن كتباً تحمل هذه الترجمة قد ظهرت من القرن الثالث ، وأن النظم قد تواردت عليه مفاهيم مختلفة فى البيئات الفكرية المختلفة فالنظم له مفهوم عند القاضى عبدالجبار وله مفهوم عند على بن عيسى الرمانى وله مفهوم عند القاضى الباقلانى .

ثم أن الإمام عبد القاهر بسط درسه بسطاً علمياً دقيقاً وقد بينت أنه أفاد كثيراً من جهود العلماء قبله وأنه نظر إلى كلام الخطابى الذى يقول فيه وإنما يقوم الكلام بهذه الاشياء الثلاثة لفظ حامل ومعنى قائم وروابط لهما ناظم وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الامور منه فى غاية الشرف والفضيلة حتى لا ترى شيئاً من الالفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من الفاظه ولا ترى نظاماً أحسن تأليفاً وأشد تلازماً وتشاكلاً من نظمه (١) .

(١) بيان إجاز القرآن للخطابى ص ٢٤ ضمن ثلاث رسائل فى إجاز القرآن .

ويقول الخطابي في موضع آخر وأما رسوم النظم فالحاجة إلى الثقافة والحذق فيها أكثر لأنها لجام الالفاظ وزمام المعاني وبه تنتظم أجزاء الكلام ويلتزم بعضه ببعض فتقوم له صورة في النفس يتشكل بها البيان .

كما نظر إلى كلام عبد الجبار وأثابته أكثر وقد بسطت هذا في

الفصل السابق .

أما الإمام الزعزعي فقد استمد فهمه مما ذكره عبد القاهر الذي تعتبر

جهوده تلخيصاً مركزاً للجهود من سبقه .

فنظم الكلام كما يتصوره الزعزعي يعنى بيان الروابط والعلاقات بين

الجميل وكيف يدعو الكلام بعضه بعضاً وكيف يأخذ بعضه بحجزة بعض .

يقول في قوله تعالى : وألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين

يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وينفقون والذين يؤمنون بما أنزل

إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى من

ربهم وأولئك هم المفلحون ، أولئك على هدى من ربهم الجملة في محل

الرفع إن كان يؤمنون بالغيب مبتدأ ، وإلا فلا عمل لها ونظم الكلام على

الوجهين أنك إذا نويت الابتداء بالذين يؤمنون بالغيب فقد ذهبت به مذهب

الاستئناف ، وذلك أنه لما قيل هدى للمتقين وأختص المتقون بأن الكتاب لهم

هدى اتجه لسائل أن يسأل فيقول ما بال المتقين مخصوصين بذلك . فوقع قوله

الذين يؤمنون بالغيب إلى سابقه كأنه جواب لهذا السؤال المقدر وجيء بصفة

المتقين المنطوية تحتها خصائصهم التي استوجبوا بها من أن يلفظ بهم ويفعل

بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم أى الذين هم مؤمنون وعقائدهم وأعمالهم أحقاء

بأن يهديهم الله ويمطيمهم الفلاح ، ونظيره قولك أحب رسول الله صلى الله عليه

وسلم الأنصار الذين قارحوا دونه وكشفوا الكرب عن وجهه أولئك أهل المحبة ،

وإن جملة تابعاً للمتقين وقع الاستئناف على أولئك كأنه قيل ما للمستقلين هذه

الصفات قد اقتصروا بالهدى ؟ فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن

يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً وبالفلاح أجلاً ، فإن قلت هل يجوز

أن يجرى الموصوفون الأول على المتقين ، وأن يرتفع التام على الابتداء ، وأولئك

خبره ؟ قلت نعم هل إن يجعل اختصاصهم بالهدى والفلاح فهو أيضاً بأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بنبوته رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ظالمون أنهم على الهدى وطامعون أنهم ينالون الفلاح (١) .

فموضوع النظم هنا بحث علاقة الجملة بالجملة وبيان وجه ارتباطها بها ، وإذا كان الإحراب يبين لنا أن الذين يؤمنون بالغيب مبتدأ وأولئك على هدى في محل رفع خبراً لهذا المبتدأ أو أن الذين يؤمنون تابع للمتقين بدل منه ، وجملة أولئك لا محل لها لأنها وقعت موقع الاستئناف إذا كان علم الإحراب يبين لنا هذا فإن علم النظم هو الذى يبحث عما وراء هذه الصناعة النحوية ويقصرها ويكشف لنا ألوان المعاني التى وراءها ، ولهذا تراه يقول وإذا ارتفع الموصول الثانى على الابتداء - وهذا وجه ثالث من التخريجات النحوية - يعطى التركيب معنى جديداً يفهم من عرضه ويكون فيه غمراً لأهل الكتاب .

وعلم النظم هو الذى يبرز الأسرار والنكت فى أسلوب القرآن ويكشف الفروق المعنوية الدقيقة بين خصوصيات التراكيب ويربط هذه الخصوصيات بالسياق والغرض العام .

يقول فى قوله تعالى : فإذا مس الإنسان ضر دعائنا ثم إذا خولناه نعمه منا قال إنما أوتيته على علم ، فإن قلت ما السبب فى عطف هذه الآية بالفاء وحذف مثلها فى أول السورة بالوار ؟ قلت السبب فى ذلك أن هذه وقعت مسببة عن قوله دو إذا ذكر الله وحده اشمازت على معنى يشمئزون عند ذكر الله ويستبشرون بذكر الآلهة فإذا مس أحدهم ضر دعائنا من اشماز من ذكره دون من استبش بذكره وما بينها من الآى اعتراض فان قلت حق الاعتراض بأن يؤكد المعترض بينه وبينه ؟ قلت ما فى الاعتراض من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وبه بأمر منه وقوله أنت تحكم بينهم ثم ما عقبه من الوعيد العظيم تأكيداً لإنكار اشمازازهم واستبشارهم ورجوعهم إلى الله فى الشدائد دون آلتهم كأنه قيل قل يارب لا يحكم بينى وبين هؤلاء الذين يجترؤن عليك مثل هذه الجرأة

(١) سورة الفلاح (١) .

ويرتكبون مثل هذا المنكر إلا أنت ، وقوله : « ولو أن للذين ظلموا ، متناول لهم ولكل ظالم إن جعل مطلقاً أو إياهم خاصة إن عنيتهم به كأنه قيل . « ولو أن لهؤلاء الظالمين ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به حين أحكم عليهم بسوء العذاب وهذه الأمرار والنكت لا يبرزها إلا علم النظم وإلا بقيت محتجة في أكمامها (١) .

فعلم النظم هنا يبين صلة معاني الجمل المعترضة بالكلام الذي وقعت معترضة فيه . فالتسبيب بين آية « وإذا ذكر الله ، وآية « فإذا مس الإلسان ضر ، واضح وإن اعترضت بينهما هذه الجمل الطويلة لأن الاعتراض تأكيد الكلام وتقريره فهو جزء منه مرتبط به .

ومثل هذا البحث الذي يكون موضوعه علاقة الجمل المعترضة بجلاء هذه العلاقة حتى يظهر اتحاد الجمل والنتام بعضها ببعض وتخصيص هذا البحث بعلم النظم ، وأنه لا يطبق هذا البحث إلا من ارتاض بهذا العلم وتدريب على ذوق هذا النمط من التعبير الذي تتداخل جملة وتقوم بينها روابط قوية خفية وعلاقات وحيمة غامضة يذكرها الريحشري في قوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ، وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون ، يقول فإن قلت وهم لا يشعرون حال فما ذر حالها ؟ قلت ذر حالها آل فرعون وتقدير الكلام فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً وقالت امرأة فرعون كذا وهم لا يشعرون أنهم على خطأ عظيم في التقاطه ورجاء الذفع منه وتهميه وقوله « إن فرعون ، الآية جملة اعتراضية واقعة بين المعطوف والمعطوف عليه مؤكدة لمعنى خطئهم وما أحسن نظم هذا الكلام عند الارتاض بعلم محاسن النظم (٢) .

والكلام المنتظم هو الذي تتضح معانيه ويشف أسلوبه عن مدلوله والكلام المتناثر هو الذي تختفي مدلولاته ولا يقف الذهن منها على شيء ومهما تابع الجمل لا يستقيم عنده معنى متسق والنص القرآني قد يخفى فيه هذا المعنى المتسق إذا وقع

(١) الكتاب ١٠ ص ١٠٤

(٢) الكتاب ٢٠ ص ٢٠

الناظر عند ظاهر النص ولم يتغلغل في باطنه والزحشرى يقف مع هذه النصوص
ويبين لنا وجه تلاؤم النظم بقوله تعالى : د ص والقرآن ذى الذكر بل
الذين كفروا في عزة وشقاق ، فإن قلت د ص والقرآن ذى الذكر بل الذين كفروا
في عزة وشقاق ، كلام ظاهر متنافر غير منتظم فإ وجه انتظامه ؟

قلت فيه وجهان أحدهما أن يكون قد ذكر اسم هذا الحرف من حروف
المعجم على سبيل التحدى والتنبيه على الإعجاز كما مر في أول الكتاب ثم اتجه
القسم محذوف الجواب لدلالة التحدى عليه كأنه قال د والقرآن ذى الذكر لأنه
لكلام معجز ، والثاني أن يكون د ص ، خبر مبتدأ محذوف على أنها اسم للسورة
كأنه قال هذه د ص ، يعنى هذه السورة التى أصجرت العرب ، والقرآن ذى الذكر ،
كما تقول هذا حاتم والله تريد هذا هو المشهور بالسخاء والله أعلم (١) .

وبحث النظم هنا هو توضيح المدلول بتقدير المحذوف وتحديد مواقع الجمل
في نظام الكلام إذ أن جملة القسم قبل جوابها لا يظهر ارتباطها بقوله تعالى د بل
الذين كفروا ، كما لا يظهر ارتباطها بقوله د ص ، والذهن عند ذكر القسم ينتظر
الجواب ويتوقف متطلباً له ويعجز عن أن يتمثل للكلام المذكور معنى مستقياً
واضحاً يستشف منه الحيط الممتد الذى ينتظم هذه الجمل كما يوحى بذلك تساؤل
الزحشرى ، ومثل هذا النظم الذى يحتاج إلى شيء من الإيضاح حتى يستقيم المعنى
في أذهان غير المتخصصين أو في أذهان غير ذوى الفهم الناقد للأساليب الأدبية
قوله تعالى : د بل تمتت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين ولما جاءهم
الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ، .

يقول الزحشرى فإن قلت قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتع ثم أوقفه
قوله : د ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر فإ طريقة هذا النظم ومؤداه ؟ قلت
المراد بالتمتع ما هو سبب له وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته
فقال بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين فإ غاية

أنهم تذهبوا عندهما عن غفانهم لافتضاءها التثنية ، ثم ابتدا قصتهم فشد على الحق فقال : وولما جاءهم الحق جاءوا بما هو شر من غفانهم التي كانوا عليها (١) .

وبيان طريقة النظم هنا تعنى استقامة المعنى وتوضيح المفهوم من الكلام وربط بعضها ببعض بطريقة بالغة في الفهم والذكاء ، والوسيلة هي التحليل لمحتويات النص والكشف عن العلاقات والروابط ، وليست الوسيلة هنا هي الإعراب وبيان موقع الجمل بعضها من بعض من حيث التسبيب والاستئناف أو الاعتراض .

وتجاوب النظم يعنى انسجام المعاني وتقاربها ووضوح المشائج والصلات بينها وهذا سميت الأسلوب القرآني ولهذا فصل كتاب الله سوراً ، يقول الراجزي في بيان الأسرار التي من أجلها كان كتاب الله سوراً ، ومنها - أي ومن هذه الفوائد - أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها البعض وبذلك تلاحظ المعاني ويتجاوب النظم (٢) .

ويذكر تجاوب النظم أيضاً ويقصد به انسجام المعاني ووضوح المشائج والصلات بينها فإذا لم يكن هذا ظاهراً في النص القرآني ككشفه الراجزي وأبان عنه .

يقول في قوله تعالى : يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، فإن قلت فهلا قيل تعبدون لاجل اهدوا أو اتقوا المكان تتقون ليتجاوب طرقتا النظم ؟ قلت ليس التقوى غير العبادة حتى يؤدي إلى تنافر النظم وإنما التقوى قصارى أمر العابد ومنتهى جهده فإذا قال اعبدوا ربكم الذي خلقكم للاستيلاء على أقصى غايات العبادة كان أبعك على العبادة وأشد الزواماً لها وأثبت لها في النفوس ونحوه أن تقول لعبدك احمل خريطة المكتب فما ملكتك يعني إلا لغير الأقال ولو قلت احمل خريطة المكتب لم يقع من نفسه ذلك الموقع (٣) .

(١) الكشاف ٤ من ١٩٥

(٢) الكشاف ١٥ من ٧٤

(٣) الكشاف ١٥ من ٦٦

فعدول القرآن هنا عن العبادة إلى نوع خاص منها وهو التقوى التي هي قصارى أمر العابد جمل الأسلوب أقوى والمعنى أوقع كما قال في المثال الذي ساقه ، وذلك لأن الأمر بالعبادة أمر بأداء بعض ما خلقوا من أجله لأنهم لم يخلقوا ليبلغوا في عبوديتهم لله درجة العبادة لحسب وإنما خلقوا ليبلغوا في العبادة قايماً وهي التقوى . ومن البلاغة وسداد النظم أن يردف الأمر بما يحث النفس حثاً إلى الامتثال إليه وقد وقف الزمخشري عند قوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها ، ليسأل نفس السؤال ويجيب نفس الإجابة وكان هذه قاعدة بلاغية يهتم بتوضيحها في نظم القرآن قال فان قلت الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يحاء عقيب الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ويحث عليها فكيف كان خلقه لإيأم من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجباً للتقوى وداعياً لإيها ؟ قلت لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ، ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء ومن المقدورات عقاب العصاة فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتق القادر عابه ويحشى عقابه ولأنه يدل على النعمة السابقة عليهم فحتم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها أو أراد بالتقوى تقوى خاصة وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعون ما يجب عليهم وصله (١) .

وكان الزمخشري قد استنبط هذه القاعدة البلاغية في أسلوب الأمر من مثل قوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم ، فقد جاء عقيب الأمر بالتقوى بما يدفع النفس دفعا إليها بما صوره من هول هذه اللحظات الرهيبة .

ونظم الكلام هنا تأليفه ، وسداد النظم وجزالته مراعاة الأصول الفنية في هذا النظم أو هذا التأليف ، والبحث هنا كشف واستنباط لهذه الأصول التي تجري عليها أساليب البلاغ .

والنظم وجه من الحسن يدركه الزمخشري في قوة بناء الأسلوب وشدة تماسكه وعبارة الزمخشري فيه تقرب من عبارة عبد القاهر في فصل عقده للنمط العالي

والأسلوب الأعظم (١) ويلج الزمخشري في هذا الصدد أثراً جمالياً لبعض مواقع المصادر، يقول في قوله تعالى «وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء» فالنظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة إضماره ورصانة تفسيره وأخذ بمنه بحجة بعض كأننا أفرغ إفراهاً واحداً ، ولامر ما أهجز القوى وأخرس الشفاشق ، ونحو هذا المصدر إذا جاء عقيب كلام جاء كالشاهد بصحته ، والمنادى على سداده ، وإنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان ، الأثرى إلى قوله «صنع الله وصيغة الله» و «ووعده الله» و «فطرة الله» بعد ماوسمها بإضافتها إليه بسمه التعظيم كيف تلاها بقوله الذي أتقن كل شيء . ومن أحسن من الله صيغة لا يخلف الله الميعاد . لا تبديل لخلق الله (٢) .

وقد أشرنا كثيراً إلى اهتمامه ببيان ما ينطوى عليه أسلوب القرآن من شدة الروابط وقوة العلاقات . ولاهتمامه بهذا الأصل الفني في نظم الكلام يفضل قراءة على قراءة يقول في قوله تعالى «وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى» فان قلت ما تقول فيمن قرأ ولو كان ذو قربى على كان التامة كقوله تعالى «وإن كان ذو عسرة ؟ قلت نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأن المعنى على أن المثقلة أن دعيت أحداً إلى حملها لا يحمل منه شيء ، وإن كان مدهوماً ذا قربى ، وهذا معنى صحيح ملتئم ، ولو قلت ولو وجد ذو قربى لتفكك وخرج من اتساقه والتثامه (٣) .

قال الشهاب لا يلتئم معها النظم لأن هذه الجملة الشرطية كالتميميم والمبالغة في أن لا حيات أصلاً ولو قدر المدهو ذا قربى ، ولو قدرته إن تدع النفس المثقلة إلى تخفيف ما عليها لا تجهد معاً ولو وجد ذو قربى لم يحسن ذلك الحسن (٤) .
ونظم الكلام وترتب معانيه تراعى فيه أحوال النفس وتطبيق الكلام على

(١) ينظر دلائل الإعجاز من ٦٢ ، ٦٤

(٢) الكشاف ج ٢ من ٣٠٤ ، ٣٠٥

(٣) الكشاف ج ٢ من ٤٧٩

(٤) جامع الشهاب الخليلي ج ٧ من ٢٧٧

هذه الأحوال وله في هذا نظر ثاقب يدل على بصير بشتون النفس وما يعرض لها من أحوال الشعور والانفعال ، يقول في قوله تعالى : « أن تقول نفس يا حسرتنا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هدانا لنكنن من المتقين أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين بل قد جاءك آياتي فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين » ، وقوله تعالى : « بل قد جاءك آياتي ، جواب لقوله أو تقول لو أن الله هدانا لكنن من المتقين ، وبين الزمخشري لماذا تأخر جواب القرينة الثانية فيقول فإن قيل هلا قرن الجواب بما هو جواب له وهو قوله لو أن الله هدانا ، ولم يفصل بينهما بآية ، قلت لأنه لا يخلو إما أن يقدم على أخرى القرأتين الثلاث فيفرق بينهما ، وإما أن تؤخر القرينة الوسطى ، فلم يحسن الأول لما فيه من تبيير النظم بالجمع بين القرأتين ، وإما الثاني فلما فيه من نقص الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ، ثم التعلل بفقد الهداية ، ثم تمنى الرحمة ، فكان الصواب ما جاء عليه وهو أنه حتى أقوال النفس على ترتيبها ونظمها ثم أجاب من بينها عما اقتضى الجواب (١) .

والزمخشري يحرص على أن تكون القرأتين متجاورة والأى يفصل بينها بما هو جزء إحداهما حتى تتلاقى هذه النغمات الحزينة متجاورة متناغمة تتراجع اصداؤها الواهة في آفاق النفس المتألمة فتمس أعماقها البعيدة ، وأن يكون هذا الفيض من الحزن والأسى والندم الموجه في وحدة واحدة فيكون الكلام أقدم على إثارة النفس وتحريك الوجدان . ويحرص كذلك على ألا تتأخر الثانية مكان الثالثة لتجاور جوابها لأن ذلك يؤدي إلى اختلال ترتيب الكلام وعدم مطابقتها لترتيب المعاني في النفس ، وفي هذا يدرك هذا الناقد العظيم ترتيب المعاني النفسية ومراتب الأحوال الوجدانية وضرورة ترتيب الكلام على وفقها ونظامها ولكي لا يبعد عن موضوع حديثنا نقول إن النظم هنا كما في غيره من المواضع هو تأليف الكلام وترتيبه ، وسداد النظم هنا يتطلب منا هذه النظرة النفسية الدقيقة التي تحيط بما تشيعه هذه الآيات المتجاورة وتبعث نفثاتها الحزينة من هذا الفيض

الانفعال الذي ترسله النفس الإنسانية في انسياب وتتابع حينما تواجه هذا المصير المحتوم ، ثم أن الزمخشري يرى أن نظوم الكلام المختلفة توضع بإزاء معانٍ تركيبية مختلفة ويرتبط كل نظم من هذه النظوم في هذه اللغة بمعنى ، فأسلوب الكلام ونظمه يوضع لمعنى كذا ، وكذا أن الألفاظ المفردة توضع بإزاء معانيها الإفرادية ويرفها الخبير بهذه اللغة كذلك النظوم توضع بإزاء معانيها التركيبية ويتبين معناها الخبير بهذه التراكيب الممارس لها ويجب أن يكون أدق وأنفذ ، وأن تكون خبرته أوسع لدقة المعنى التركيبي وخفائه . ولهذا يقع الناس في الخطأ ويفهمون من النظم والأسلوب غير معناه وحينئذ يخرجون الكلام عن دلالاته البلاغية الشريفة . يقول الزمخشري مفصلاً عن كل هذا في تفسيره لقوله تعالى :
« قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » يقول وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل وهو المبالغة في نفي الولد والإطراب فيه والأيترك الناطق به شبيهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه خلق العبادة بكيونة الولد وهي محال في نفسها فكان المعلق بها محالاً مثلاً فهو في صورته لإثبات الكيونة والعبادة وفي معنى نفيها على أبلغ الوجوه وأقواها ونظيره أن يقول العدلى للمجبر إن كان الله تعالى خالقاً الكفر في القلوب ومعذباً عليه عذاباً سريداً فأنا أول من يقول هو شيطان وليس بإله ، فعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفي أن يكون الله تعالى خالقاً الكفر وتزيهه عن ذلك وتقديسه ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا مع الدلالة على سماحة المذهب وخلاصة الداهب إليه والشهادة القاطعة بإحاطته والإفصاح عن نفسه بالبرامة منه وغاية النفاذ والاشتمزاز من ارتكابه ، ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له أما والله لأبدلك بالدنيا ناراً تلتظي (لو عرفت أن ذلك لك ما جدت إلها غيرك) وقد تحمل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنسكت والقوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه فقيل إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول العابدين الموحدين لله المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه (١) . وقد لاحظنا في كل هذه الدراسة التي تدور حول النظم

أن النظم لا يخرج في مدلوله العام عن معناه النوى الذى هو التأليف وهم
الشئ إلى شئ. كما قال صاحب القاموس (١) . وقد قال الزمخشري في أساسه
أنه يستعمل في ضم الكلام بعضه إلى بعض على سبيل المجاز (٢) . كما لاحظنا أن
مباحثه تشمل روابط الجمل وعلاقات بعضها ببعض وهذا يعنى النظر في معانيها
ولمح ما بين هذه المعاني من صلوات ولا شك أن بحث الفصل والوصل باصطلاح
المتأخرين جزء وجزء هين في مباحث روابط الجمل هنا لأننا لاحظنا أن بحث
علاقات الجمل غير ناظر إلى كونها ذات عمل من الأهراب أولاً ، وغير ناظر
إلى كونها معطوفة بالوار أو بالفاء أو غير معطوفة ، كل هذه الأشياء التى اعتبرها
البلاغيون مبادئ أساسية لدراسة الفصل والوصل والى قيدها وجعلوه محدوداً
في دائرتها كان أفق هذا البحث أوسع من أن يتحدد بها ، لأن الذى يواجه النص
الأدبى ويعالجه علاجاً فنياً لا يستطيع أن يلتزم بهذه الدائرة الضيقة الخائفة ، كما
لاحظنا أن دراسة نظم الكلام تشمل ما تألف منه هذا النظم أعنى آحاده ومواقع
هذه الآحاد وإصابتها في هذا النظم كما في قوله تعالى : يا أيها الناس اعبدوا
ربكم ، ولحظنا أيضاً أنه ذكر أوصافاً للنظم الجيد ، منها سداد النظم وجزالة النظم
وتجاوب أطراف النظم وجعل هذا علماً وسماه علم محاسن النظم . كما ذكر
أوصافاً للنظم الردىء منها تنافر النظم وتبنيير النظم وتفكك النظم وخروجه عن
انساقه والتتامه .

وإذا كان النظم فيما ذكرنا وصفاً للجمل الكلام غالباً فإتينا نجدده وصفاً لبناء
الجملة أو الجملة الواحدة، ونجد الزمخشري يقف عندهما يتأمل تأليفها وما جاء عليه
نسقها ويستخرج من ذلك المعاني والإشارات ، وهو لا يفتل منها أيضاً عن
مفرداتها بل يضع بصره عليها وينفذ فيها ويستخرج منها ما تحمله وما توحى به ،
ثم تسكون له نظراته العامة لجملة معناها والفرض منها بقوله تعالى وإن الذين
يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم منفرة
د وأجر عظيم ، وهذه الآية ينظمها الذى رتب عليه من إيقاع القاصدين أصواتهم

(١) القاموس ج ٤ ص ١٨١ . المحقق

(٢) الأساس ص ٩٧٠ .

اسما لان المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفتين معا ، والمبتدأ اسم الإشارة ، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم ، وإيراد الجزاء لسكرة مهما أمره ، ناظر في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقرؤا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خفض أصواتهم ، وفي الإعلام ببلخ عزة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدر شرف منزلته وفيها تعريض بمعظم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء (١) .

وقد ينظر في نظم الجملة أعنى ترتيب كلماتها وما يفيد هذا الترتيب ويكشف عن مطابقتها لقصد المتكلم وإحاطته بدقيق خواطره وتصويره لخلجات نفسه . يقول في قوله تعالى وظنوا أنهم ما نعمتم حصونهم ، فإن قلت أى فرق بين وظنوا أن حصونهم تمنهم وبين النظم الذى جاء عليه ؟ قلت في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بمحصانها ومنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسما لان ، وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في انفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يزال معها أحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم ، وليس ذلك في قولهم وظنوا أن حصونهم تمنهم (٢) .

فقولنا وظنوا أن حصونهم ما نعمتم لا يصور ما في نفس المتكلم ولا يطابق حاله بخلاف ما جاء عليه ، فإن الخصوصيات التي رويها في بناء الجملة أشارت إلى كل ما في نفوسهم من خواطر القوة والمنعة والثوق بمحصانها .

ولو نظرنا إلى مثل هذا التحليل بشيء من التريث والأناة لقادنا إلى مقالة أبي يعقوب في تعريف علم المعاني حيث يقول وهو أى علم المعاني تتبع خواص تراكيب الكلام في الإفادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره (٣) وهذا التعريف قد شد به الخطيب في عبارته المتداولة حيث قال وهو علم يعرف به

(١) الكشاف ج ٤ ص ٣٨٣ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٣٩٤ .

(٣) مفتاح العلوم ٨٦

أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال (١) ، وليست مطابقة الكلام لمقتضى الحال إلا قدرة التعبير على تصوير ما يراد تصويره في المقامات المختلفة ولهذا كان تعريف البلاغة في أصح وأحدث صوره ، غير متجاوز لهذا المدى (٢) .

وبعد هذا الكلام الذي أطلناه عن النظم وموضوع درسه نمود إلى ما يفهم من كلمة المعاني ، وكلمة البيان ، وموضوع درسهما لتربط بين هذه المفاهيم .

ونقول في بداية هذا الحديث أن الزمخشري لم يذكر مصطلح على المعاني والبيان في مقدمة تفسير الكشاف حسب ما يوم وقوف كثير من الباحثين عند عبارته المشهورة . وإنما ذكر هذا المصطلح قبل تأليف الكشاف وكرره ذكره . في كتابه الصغير أعجب العجب وذكره في كتاب المفصل وكرره كثيراً في ديوان شعره ومدح الكثير بتبحره في على المعاني والبيان . وكل هذه الإشارات لا تكشف لنا مراده بهذين العليين كشفاً محمداً وان كانت تدلنا على أن هذا الاصطلاح كان قاراً في نفسه وواضحاً في إدراكه وأنه لم يقع في مقدمة التفسير هفواً والسياقاً وراء الكلام . وكنا نظن أن الشيخ العلامة السيد الشريف سيجئنا في هذا الموضوع بكلمة في حاشيته الفائقة على الكشاف عند ذكر هذا الاصطلاح ولكنه رحمه الله مر عليها غير ملتفت إليها لأن العناية بتاريخ العلوم لم تكن تلاقى كثيراً من اهتمامهم التي انصرفت إلى الفن ومسائله .

ونحاول الآن أن نقف على مدلول هذين العليين في تفسيره .

والزمخشري يذكر علماء المعاني ويعرض بهم العلماء القادرين على استخراج المعاني بفهم ونفاذ وذلك باستبطانهم لهذه النصوص وتغلغلهم فيها فهم قوم قد راضوا أذماتهم على هذا النوع من النظر ، يقول في قوله تعالى ، قالوا آآآت فعلت هذا بآآمتنا يا إبراهيم ، قال ، بل فعله كبيرهم هذا . هذا من معارض الكلام

(١) بنية الإيضاح ج ١ ص

(٢) الأسلوب للأستاذ الشاذلي .

ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصتم وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريض يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الخبيثة وتبكيتهم . وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتابا بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط أنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمى لا يحسن الخط ولا يقدر إلا على خرشة فاسدة فقلت له بل كتبتك أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به لا نفيه عنك وإثباته للأمرى أو الخمرش لأن إثباته والأمر دأثر بينكما للعاجز منكبا استهزاء به وإثبات للقادر (١) .

وإذا كانت هذه وظيفة علماء المعاني كما يحدثها هذا النص فإنه يمكن أن نقول إن علم المعاني هو العلم الذى يرشد إلى ما تحمله النصوص الأدبية من دقيق المعاني وخصي الإيحاءات وذلك بدراسة هذه النصوص وتقليب دلالاتها على وجوه مختلفة وتوضيح ما يعطيه متن النص أو جانبه . ونلاحظ هنا أن الأسلوب المدرس أسلوب التعريض وهو من فنون علم البيان كما حددها المتأخرون .

ويؤكد هذا المفهوم لهذا العلم قوله في آية ان يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ، يقول فان قلت من أين دل قوله ولا الملائكة المقربون على أن المعنى ولا من فوقه ؟ قلت من حيث أن علم المعاني لا يقتضى غير ذلك . وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية فوجب أن يقال لهم ان يترفع عيسى عن العبودية ولا من هو أرفع منه درجة . كأنه قيل ان يستنكف الملائكة المقربون من العبودية فكيف بالمسيح ، ويدل عليه دلالة ظاهرة بينة تخصيص المقربين لمكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلام منزلة ومثاله قول القائل :

وما مثله من يجاود حاتم ولا البحر ذوا الأمواج يلتج زائره

لا شبهة في أنه قصد بالبحر ذى الأمواج ما هو فوق حاتم في الجود ومن كان له ذوق فليدق مع هذه الآية قوله ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى

يعترف بالفرق البين (١) ثم ما علاقة هذا المفهوم بمفهوم النظم أو علم النظم ؟
نكون من المتكافئين إذا اتقنا هنا فرقاً فقد أوضحنا أن علم النظم هو الذي
يختص بإبراز الأسرار والنكت كما قال وليست الأسرار والنكت إلا تلك المعاني
الخفية التي تظل محتجبة حتى يبرزها راحة هذا العلم . وليس البحث عن علاقات
الجمال وروابط المعاني إلا تجلية لهذه الأسرار وتوضيحاً لها .

ثم إنه قد يخرج مفهوم علم المعاني أو علماء المعاني عن هذا المدلول
ويريد به العلم الذي ينظر في فنون الشعر ويحدد معاني كل فن وما يجب على
الشاعر أن يقوله إذا أراد المديح وما يجب عليه أن يقوله إذا قصد إلى الرثاء أو
الغزل إلى آخر ما هو معروف في فنون الشعر بما ذكره نقاده ، وجماع القول فيها
ما ذكره قدامة من وجوب كون المعنى مواجهاً للغرض المقصود غير عادل عن
الأمر المطلوب (٢) يقول الزمخشري في قوله تعالى : ولكن الله حبيب إليكم الإيمان
وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان ، وهو يحاول لإثبات أن -
الإيمان والكفر مخلوقان للعبد لا لله كما توهمه ظاهر الآية لأن كونهما مخلوقين لله
يؤدي إلى أن يمدح العبد بالإيمان وهو فعل الله وأن يذم بالكفر وهو فعل الله
ومدح الرجل ينبغى ألا يكون إلا بفعله وقد ذم القرآن من يجب المدح بما لم يفعل
فإذا رأيت العرب يمدحون الرجل بالجمال والوسامة وهذه أفعال الله فاعلم أنهم رأوا
حسن الوجه دليلاً على حسن الخلق وطهارة النفس وهذه مخلوقة للعبد فلذلك ساع
لهم المدح بالظاهر المخلوق لله لأنه دليل الباطن المخلوق للعبد ثم قال : على أن من
محققه الثمارة وعلماء المعاني من دفع صحة ذلك وخطأ المادح به وقصر النعت على
المدح بأهميات الخير وهي الفصاحة والشجاعة والعدل والعفة وما يتشعب منها
ويرجع إليها وجعل الوصف بالجمال والثروة وكثرة الحفدة والأعضاء وغير ذلك
بما ليس للإنسان فيه عمل غلطاً ومخالفة عن المعقول (٣) .
وكان الزمخشري يشير بهذا إلى قدامة الذي يقول : ولما كانت فضائل الناس

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٦٢ ، ٤٦٣

(٢) ينظر نقد الشعر ص ٦١ .

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٢٥٨ .

من حيث هم ناس لا من طريق ما هم مشتركون فيه مع سائر الحيوان على ما عليه أهل الآليات من الإتقان في ذلك إنما هي العقل والشجاعة والعدل والعفة كان القاصد لمدح الرجال بهذه الأربع الخصال مصيباً والمادح بغيرها مخطناً (١) .

ويشير الرمخسرى في موضع آخر إلى أن علماء المعاني هم الذين ينظرون في المعاني ويدرسونها أو يتبينون ما فيها من الصواب والاستقامة أو من الخطأ والتناقض والإحالة ، يقول في قوله تعالى ، أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً ، أى لكان الكثير منه مختلفاً متناقضاً قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه فكان بعضه بالفأ حد الإعجاز وبعضه قاصراً عنه يمكن معارضته وبعضه أخباراً بغيره قد وافق الخبر عنه وبعضه أخباراً مخالفاً للخبر عنه وبعضه دالاً على معنى صحيح عند علماء المعاني وبعضه دالاً على معنى فاسد غير ملتئم (٢) .

فعلماء المعاني في هذا النص هم الذين يعرفون صحة المعاني وفسادها ، وهم في النص السابق الذين يعرفون أنواع المعاني وأجناسها وكيف تلائم الأغراض وفنون الشعر ، وهم في النصوص التي هي أسبق الذين تتغلغل أذهانهم في النص ، فيستخرجون منه مراميها ومعانيه ويحددون مدلولاته لخبرتهم بالأساليب وخصائص صياغتها وعلم المعاني في هذا المدلول الأخير يطابق علم النظم أو علم محاسن النظم بل هما شيء واحد . ثم إن هذه الاطلاقات قد أفاد منها السكاكي ونقلها بنصها وتحرير بعض الباحثين في رجوع هذه العبارات إلى مصادرها وقال الدكتور أحمد مطلوب ويكرر السكاكي نفسه بعض العبارات مثل صناعة علم المعاني وعلم المعاني وأذهان الراضة من علماء المعاني وأئمة علم المعاني ولكن لم يحدد معاني هذه العبارات ولا ندرى ما المقصود بها ؟ ومن علماء المعاني وأئمة علم المعاني في تاريخ البلاغة قبل السكاكي على علماء اختصوا بالمعاني وبحشواً فيه كما بحثه وحددوا موضوعاته ولم تكن البلاغة قبله مقسمة إلى معان وبيان وبديع (٣) .

ونقول إن هذه العبارات منقولة من الكشاف وأنا أصبحنا ندرى ما المقصود

(١) نقد الشعر ٦٩ .

(٢) الكشاف ١٥ ص ٤٢٥ .

(٣) البلاغة عند السكاكي ص ٧١٥ الدكتور أحمد مطلوب .

بها ونعرف من علماء المعاني وأئمتنا وأئمتنا في تاريخ البلاغة على علماء اختصروا بالمعاني ومجسوا فيها .

أما علم البيان فأننا نلاحظ إطلاقه على مباحث التشبيه والتخييل والتصوير والكناية ويتردد هذا ويكثر ، فعلماء البيان هم الذين يفهمون أساليب التصوير والتخييل وتقع عيونهم على الزبدة والخلاصة من غير نظر إلى ما عليه الألفاظ من حقيقة ومجاز كما في قوله تعالى والارض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ويقول في هذا ولا ترى بابا في علم البيان أدق ولا أرق ولا أظن من هذا الباب ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السامية وكلام الأنبياء فان أكثره وحيلته تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديما وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتفكير حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علما لو قدره حق قدره لما خفى عليهم أن العلوم كلها مفتقرة إليه وعيال عليه إذ لا يحمل عقدها الموربة ولا يفك قيودها المكربة إلا هو ، وكل آية من آيات التنزيل وحديث من أحاديث الرسول قد ضميم وسيم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة لأن من تأول ليس من هذا العلم في غير ولا تفكير ولا يعرف قبلا منه من دبير (١) ،

وهذا الكلام يشير إلى أن علم البيان هو العلم الذي يعين على تأويل المشتبهات من كلام الله ويبين ما جاء منه على التخييل والتخييل ، ويوضح المراد من هذه الصور وأن الجهل بهذا العلم يؤدي إلى الزال في العقيدة والقول بالتشبيه ، فهو إذن علم دراسة الصور وما تحمله من الأغراض ، والمرامى ، وعالم البيان هو الذي يتفقد من هذه الصور ويتجاوزها ليصل إلى المراد منها ، وهذا هو موضوعه عند المتأخرين . ولكننا لا نجزم بالقول بأن الزهري خصص هذا العلم بدراسة الصور البيانية لأنه هو نفسه يقول في الفصل والوصل وهو باب من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه (٢) . ويسأل عن علاقة قوله تعالى قيل أدخل الجنة قال باليت قومى يعلمون ، بما قبله ، ويقول فإن قلت كيف مخرج هذا القول في علم البيان ؟ ويجب

(١) الكشاف ص ١١١ .

(٢) الكشاف ص ٢٢٢ .

بأن مخرجه مخرج الاستئناف (١) والبحث في التقديم ومعانيه من وظيفة علم البيان كما يقول في آية : قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى (٢) .

وعلم البيان يرادف نظم القرآن (٣) وقد سبق أن لاحظنا أن علم المعاني يتناول التعريض في آية وأنت فعلت هذا ، لهذا لا نستطيع أن نقول أن الزمخشري قد ميز مباحث هذه العلوم ، وغاية ما يمكن أن يقال بعد تتبع ومقارنة أن إطلاق علم المعاني على مباحث البيان قليل وإطلاق علم المعاني على مباحثه في مصطلح المتأخرين كثير وإن إطلاق علم البيان على مباحث علم المعاني قليل بالنسبة إلى إطلاقه على مباحث علم البيان على أننا نعني هنا علم المعاني الذي يدرس الصياغة وخصائصها ويبين مدلولاتها ، أما علم المعاني بهذا المفهوم الآخر الذي يعنى النظر في أنواع المعاني وأجناسها أو النظر في صحتها وخطئها فذلك بعيد قطعاً عن مفهوم علم البيان بل وعن مفهوم علم المعاني بهذا المعنى الذي حدده المتأخرون ونظروا فيه إلى كلامه كما رأينا ، وبهذا يصبح لعلم المعاني مفهوماً مغايراً لمفهوم علم البيان ، ولهذا ماخ له كثرة إطلاق مصطلح علمي المعاني والبيان مع خلطه بين مباحثهما أحياناً .

والفصاحة ترادف البلاغة ولا نجد لها مفهوماً يخالف مفهوم البلاغة فهي عنده وصف للمعنى يقول في قوله تعالى ولستم في القصاص حياة ، كلام فصيح لما فيه من الغرابة وهو أن القصاص قتل وتفويت للحياة وقد جعل مكاناً وظرفاً للحياة فقوله كلام فصيح معناه كلام بليغ وكلام حسن . فإذا خرجت الفصاحة في كلامه عن هذا المدلول ، أعني وصف الكلام بالبلاغة والحسن إلى وصف المفرد به إلى هذا كما نجد في قوله تعالى : ولا يجرمنكم شقاقى أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح ، أى لا يكسبكم شقاقى لإصابة العذاب ، وقرأ ابن كثير بضم الياء من أجرمته ذنباً إذا جعلته جارماً له أى كاسباً منقول من جرم المعتدى إلى معقول

(١) الكشاف ج ٤ ص ٨

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٥٤٣ .

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٤٠ .

واحد والقراءتان مستويتان في المعنى لا تفاوت بينهما إلا أن المشهورة أفصح لفظاً كما أن كسبته مالا أفصح من اكسبته والمراد بالفصاحة أنه على السنة الفصحاء من العرب الموثوق بعربيتهم أدور وهم له أكثر استعمالاً (١).

وبهذا تتلاقى مفاهيم الفصاحة والبلاغة والنظم وعلم المعاني وعلم البيان مع مراعاة ما أشرنا إليه . ثم أن الزمخشري الذي درس النظم في كتب من سبقه واستوحبه بل وتمثله من كتابة عبد القاهر وأتراه وأضاف إليه لم يكن يغفل الفرق الواضح بين علم النظم وعلم الأعراب فهو يقول أن النحوى وإن كان أخصى من سيبويه لا يصل إلى غرائب النسيك ومستودعات الأسرار في كتاب الله إلا إذا برع في هذين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان (٢) وهذا قول قاطع بالفرق بين علم النحو وعلم المعاني وإن كان نحو سيبويه الذي مزجته كثير من فنون البلاغة ، وقد كان في تطبيقاته لمعارفه النحوية والبلاغية حريصاً على ميز العالين .

فقد تتخلف القاعدة النحوية المستقلة ولا تنهض بأعراب القرآن لأن بعض وجوه الإعراب الجائزة قد تؤدي إلى إفساد النظم ، والنظم هو ميزة هذا الكلام المعجز وهو ما يدور النحو ويرشده ويحدد له وجهاً عن الإعراب دون وجه ، يقول في قوله تعالى : إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقتضيه في التابوت فأنذقيه في أليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدولى وعدوله، والضائر كلها راجعة إلى موسى ورجوع بعضها إليه وبعضها إلى التابوت فيه هجئة لما يؤدي إليه من تناقض النظم فان قلت المقذوف في البحر هو التابوت وكذلك الملقى إلى الساحل قلت ما ضرك لو قلت المقذوف والملقى هو موسى في جوف التابوت حتى لا تفرق الضائرتين فتناظر عليك النظم الذي هو أم إعجاز القرآن والقانون الذي وقع عليه التحدى ومراعاته أم ما يجب على المفسر (٣) .

ويرفض أقوال أئمة النحو في إعراب القرآن لأنها لا تراعى انساق نظمها يقول

(١) الكشاف ج ٩ ص ٢٢٩ - ٢٣٠

(٢) الكشاف المقدمة ج ١ ص ١٠

(٣) الكشاف ج ٣ ص ١٩٩

في قوله تعالى وقيله يارب أن هؤلاء قوم لا يؤمنون ، وقيله ، قرى بالحرركات الثلاث وذكر في النصب عن الأئمة أنه حمله على أم يحسبون ألا نسمع سرهم ونجواهم وقيله وعنه وقال قيله وعطفه الزجاج على عمل الساعة كما تقول صحبت من ضرب زيد وعمراً . وحمل الجر على لفظ الساعة والرفع على الابتداء والخبر ما بعده وجوز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف ومعناه عنده علم الساعة وعلم قيله . والذي قالوه ليس بقوى في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه ، إلا يحسن اعتراضاً ومع تنافر النظم وأقوى من ذلك وأوجه أن يكون الجر والنصب على اخبار حرف القسم وحذفه والرفع على قولهم إيمان الله وأمانة الله وبمين الله ولعمرك ، ويكون قوله أن هؤلاء قوم لا يؤمنون جواب القسم (١) .

وقد نجد النظم في كلامه يقرب من الإعراب حتى تصبهما مترادفين وإذا دقت النظر بدا لك وجه الفرق بينهما يقول في قوله تعالى وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا ، فإن قلت كيف نظم هذا الكلام قلت ما بعد حتى إلى فادفعوا إليهم أموالهم جعل غاية للابتلاء وهي حتى التي تقع بعدها الجمل كالتى في قوله :

فا زالت القتلى تمج دماؤها بدجلة حتى ماء بدجلة أشكل

والجمله الواقعة بعدها جملة شرطية لأن إذا متضمنة معنى الشرط وفعل الشرط بلغوا النكاح وقوله ، فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ، جملة من شرط وجزاء واقعة جواباً للشرط الأول الذى هو إذا بلغوا النكاح ، فكأنه قيل وابتلوا اليتامى إلى وقت بلوغهم فاستحقاقهم دفع أموالهم إليهم بشرط إيناس الرشيد (٢) .

والإعتراف في هذا النص لما أراد أن يبين نظم الكلام لم يرد عن إعرابه وكأنه يقصد بنظمه إعرابه ، ولكن الذى نراه أن هنا فرقا بين النظم والإعراب وأن قوله كيف نظمته يراد به السؤال عن استقامة معنى الكلام ووضوح المراد منه ، فإذا كان الجواب هو إعراب النص فلأن الإعراب هو الذى يكشف لنا

(١) الكتاب ٥ ، ص ٢١١ - ٢١٤

(٢) الكتاب ٥ ، ص ٢٦٥

المعنى في مثل هذا التركيب الذي أتى عليه تداخل أدوات الشرط شيئاً من
الغموض .

ونجد هذا التقارب بين النظم والإعراب في قوله في آية دقل أرايتم إن كان من
عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ،
فإن قلت أخبرني عن نظم هذا الكلام لأقف على معناه من جهة النظم ؟ قلت
الواو الأولى عاطفة لكفرتم على فعل الشرط كما عطفته ثم في قوله تعالى دقل أرايتم
إن كان من عند الله ثم كفرتم به ، . وكذلك الواو الأخرى عاطفة لاستكبرتم على
شهد شاهد وأما الواو في وشهد شاهد فقد عطفت جملة قوله شهد شاهد من بني إسرائيل
على مثله فآمن واستكبرتم على جملة قوله كان من عند الله وكفرتم ونظيره قوله
إن أحسنت إليك وأسأت وأقبلت عليك وأعرضت عني لم تنفق في أنك أخذت
ضميمتين فعطفتها على مثلها (١) .

فالنظم هنا مدخل لفهم المعنى لأنه يكشف عن نسق المعاني ويحدد أجواءها
ويربط جملة بجملة ثم يربط الجملتين أو الجمل بما قبلها وهذا غير عطف الجمل بعضها
على بعض دون نظر إلى هذا الترابط القائم بين كل اثنين منها ، وهذا النسق من
الكلام لا يدرك أثره إلا مرهف الحس يقظ النفس لمساح النظر .

ومن السهل أن يتصور الباحث أن النظم هنا معناه الإعراب لأنه لما سأل
عن نظم هذا الكلام أجاب بأعرابه فكان السؤال كما قلنا في النص السابق سؤال
عن الإعراب وعن بيان المعطوف والمعطوف عليه وهذا شأن النحو ، والواقع أن
بيان النظم هنا يكشف عن معنى الإعراب لا عن الإعراب ويبحث عما وراء النحو
من نسق المعاني وترابطها .

والزحشرى قد يلقى على النص نظرتين نظرة يتناول فيها إعرابه ونظرة يستخرج
منها مدلولاته وإشارات ، والنظرة الأولى نظرة علم الإعراب أو يقتضيا علم الإعراب
والثانية نظرة علم البيان ، يقول في قوله تعالى دقل لو أتمم تملكون خزائن وحة ربي
إذا لامسكم خشية الانفاق ، لو حقها أن تدخل على الأفعال دون الأسماء فلا بد

من فعل بعدها في لو أتم تملككون وتقديره لو تملككون فأضمر تملكك أضيماً على شريطة التفسير وأبدل من الضمير المتصل الذي هو الواو ضمير منفصل وهو أتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ فأنتم فاعل الفعل المضمر وتملككون تفسيره وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب ، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو إن أتم تملككون فيه دلالة على الاختصاص وأن الناس ، هم المختصون بالشح المتبالغ ، ونحوه قول حاتم :

لو ذات سوار اطمئنى . وقول الملتبس ولو غير أخوالى أرادوا اقيمتى .
وذلك لأن الفعل الأول لماسقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر (١) .

فعلم الإعراب يبين جريان الأسلوب على طريقة القوم ومطابقتها لقواعد النحو ، فإن من قواعد المقررة أن أدوات الشرط لا تدخل على الأسماء والأظواهر في الآية يخالف هذه القاعدة فلزم تقدير فعل ، وعليه يفترضون أن أصل التعبير كان كذا ثم صار إلى ما أشار إليه الزمخشري وهنا تنتهى مهمة علم الإعراب

أما استخراج المعنى الذى أوما إليه هذا الحذف أو ظهور المسند إليه في صورة المقدم بعد هذا الحذف وإن كان في الحقيقة مؤخراً بالنسبة لفاعله المحذوف فهو من عمل علم البيان لاعلم الإعراب .

وهذا تتضح لنا الفواصل بين علم الإعراب وعلم البيان . وقد أشار العلوى إلى هذا الفرق بقوله فإن النحوى وصاحب علم المعانى وإن اشتركا في تعلقهما بالالفاظ المركبة لكن نظر أحدهما مخالف لنظر الآخر فالنحوى ينظر في التركيب من أجل تحصيل الإعراب كالم الفائدة وصاحب علم المعانى ينظر في دلالاته الخاصة وهو ما يحصل عند التركيب من بلاغة المعانى وبلوغها أقصى المراتب (٢) .

أما علم اللغة فن الواضح أن مفهومه وموضوعه لا يلتبسان بمفهوم علم المعانى

(١) الكشاف ج ٢ ص ٥٤٣

(٢) الطراز ج ١ ص ١٧

ولا بموضوعه حتى يتناوله حديثنا في هذا الفصل الذي نحاول فيه تحديد مفاهيم مختلفة وبيان ما بينها من صلوات وليكن رأيت الزمخشري يشير إلى ضرورة معرفة هذا العلم والبصر به قبل التصدي لمعرفة بلاغة القول ونظمه ، وأنه إذا لم تحدد معاني المفردات تحديداً واضحاً فإنك لا تستطيع أن تستشرف مواطن الحسن والبلاغة ، وكان الزمخشري يوجب على البلاغي أن يستوعب هذه اللغة وأن يحيط خبراً بأوضاعها . وهذا يذكرنا بحديث المتأخرين في مقدمة البلاغة حينما يقولون إن علم اللغة يحترز به عن الغرابة وأن علم الصرف يحترز به عن مخالفة القياس وأن علم النحو يحترز به عن ضعف التأليف ليجلوا هذه العلوم من لوازم علم البلاغة كذلك الزمخشري هنا يضع على اللغة هذا الموضع . يقول الزمخشري في قوله تعالى والله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ، من مد الجيش وأمدّه إذا زاده والحق به ما يقويه ويكثره وكذلك مد الدورة وأمدّها زادها ما يصلحها ومددت السراج والأرض إذا استصلحتهما بالزيت والسياد ومدّه الشيطان في التغي وأمدّه إذا وصله بالسوس حتى يتلاحق غيه ويزداد أنهما كافيه . فإن قلت لم زعمت أنه من المدد دون المد في العمر والإملاء والإمهال قلت كفاك دليلاً على أنه من المدد دون المد قراءة ابن كثير وابن عيصن ، ويمدهم ، وقراءة نافع وإخوانهم يمدونهم على أن الذي بمعنى أمهله إنما هو مد له مع اللام كامل له . . . فإن قلت فما حلهم على تفسير المد في الطغيان بالإمهال وموضوع اللغة كما ذكرت لا يطالع عليه ؟ قلت استجرم إلى ذلك خوف الأقدام أن يسندوا إلى الله ما أسندوا إلى الشيطان ولكن المعنى الصحيح ما طابقه اللفظ وشهد بصحته وإلا كان منه بمنزلة الأروى من النعام ومن حق مفسر كتاب الله الباهر وكلامه المعجز أن يتعاهد في مذاهبه بقاء النظم على حسنه والبلاغة على كمالها وما وقع به التحدي سليمان من القادح ، فإذا لم يتعاهد أوضاع اللفه فهو من تعاهد النظم والبلاغة على مراحل (١) .

وهذا يكون قد بينا مفهوم علم النظم وعلم المعاني وعلم البيان وموضوع دراستهم ثم صلتهم بعلم الإعراب وعلم اللغة .

www.alkottob.com

الفصل الثالث

النظر في المفردات

ملاءمة الكلمة لسياقها من حيث مادتها

ملاءمة الكلمة لسياقها من حيث هيئتها :

(أ) الجمع والإفراد .

(ب) صيغ الأفعال .

(ج) أبنية المشتقات .

أدوات الربط :

(أ) ثم والوفا .

(ب) قد ورب .

(ج) حروف الجر .

(د) إن وإذا .

التعريف .

(أ) التعريف باللام .

(ب) التعريف بأعم الموصول .

(ج) التعريف باسم الإشارة .

(د) التعريف بالإضافة .

التنكير :

www.alkottob.com

الفصل الثالث

النظر في المفردات

وقف الزمخشري كثيراً عند مفردات النص القرآني يتأمل وقع كلماته وملاءمتها للسياق . والنظر في مفردات النص الأدبي من أوجب ما يجب على مفسره ودارسه لأنها مفتاح النص وزمام ما فيه من دقيق المعاني وخطى الإشارات . وكلما أحسن الدارس هذه الوقفات واستكشف من المفردات كل ما تعطيه وتلوح به من معنى ووحى ورمز كان أفدر على الاندماج والمشاركة وبهذا يصل نفسه بنفس منشئه ويحلق في آفائه ويتابع خطراته ويملك تهرته كاملة . وحينما يصل المفسر إلى هذه الدرجة فقد وصل إلى ما ينبغي أن يصل إليه .

لقد رأيت للزمخشري في هذا الصدد تراثاً ضخماً ومفيداً . وقد طال نظري وتأمل لهذه الوقفات فوجدت بعضاً منها يهتم بمادة الكلمة أي بمعناها المقاد من مادتها . وبعضاً منها يهتم بهيئة الكلمة أي بمعناها المقاد من هيئتها . وبعضاً منها يهتم بحروف المعاني وأدوات الربط . وبعضاً منها يهتم بما يفيد تعريفها بأي نوع من أنواع التعريف . وبعضاً منها يهتم بمعاني تنكيرها .

وسوف أعرض لكل نوع من هذه الأنواع . وليس كل مني أن أقول أن الزمخشري نظر إلى الكلمة المفردة من حيث مادتها وهيئتها وأن أذكر هذه الأنواع ومثلها من كلامه وإنما كل مني أن أصور من خلال هذا كله منه الدقيق بمفردات النصوص وعنايته بدراسة هذا النوع الهام الذي أهمله البلاغيون بعده . وأن أضع صورة دقيقة لبلاغته كما يصورها تفسيره وأن أبين إلى أي مدى أحاطت دراسته البلاغية بكل أجزاء النص الأدبي متبعة له من مفرداته إلى جملة ثم إلى جملة .

أما دراسته لمادة الكلمة وملاءمتها لسياقها فقد اجتهد الزمخشري في ربط مدلول الكلمة بسياقها حتى تكون ملائمة له على أحسن وجه من وجوه الالتماس

يقول في قوله تعالى ومن خشى الرحمن بالغيث، فإن قلت كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ قلت للثناء البليغ على الخاشي وهو خشيته مع علمه أنه الواسع الرحمة كما أثنى عليه بأنه خاشع مع أن الخشوع منه غائب وبحوره والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلت فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات (١).

فكلمة الرحمن لا تتلاءم في الظاهر مع الخشية وإنما يكون التلاؤم ظاهراً لو قال من خشى الجبار أو القهار ولكن الريحشري يدرك وراء هذا التباعد الظاهري تقارباً خفياً ملائماً أشد الملاءمة وأحسنها ومثل هذا ما يذكره في قوله تعالى: يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم، يقول فإن قلت ما معنى قوله ما غرك بربك الكريم وكيف طابق الوصف بالكريم إنكار الاغترار به وإنما يغتر بالكريم كما يروى عن علي رضي الله عنه أنه صاح بغلام له كرات فلم يلبه فنظر فإذا هو بالباب فقال له مالك لم تهمني؟ فقال لثقتي بحملك وأمنى من عقوبتك فاستحسن جوابه وأعتقه وقالوا من كرم الرجل سوء أدب غلباه؟ قلت معناه أن حق الإنسان ألا يغتر بتكريم الله عليه حيث خلقه حياً لينفعه ويتفضل عليه بذلك حتى يطمع بعد ما مكنته وكلفه فمضى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالشواب وطرح العقاب اغتراراً بالتفضل الأول فإنه منكراً خارج عن حد الحكمة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما تلاها غره جهله (٢).

وقد يعمد القرآن إلى إثبات المعنى بنفي ضده ويقف الريحشري عند هذا اللون ليكشف أن اللفظ إشاراته الخفية التي هي جزء من المعنى القائم به فكلمة فاسد لا ترمى فقط معنى غير صالح، ونحن وإن كنا نفسر الفساد بعدم الصلاح والصلاح بعدم الفساد فهذا هو تفسيرنا لظاهر المعنى الذي لا يكون وحده مراداً في النسق الذي يقول الريحشري في قوله تعالى إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح، فإن قلت فهلا قيل إنه عمل فاسد؟ قلت لما انفاه عن أهله نفي عنه صفتهم بكلمة النفي التي يشتمل معناها لفظ المنفي وأذن بذلك إنه إنما أنعم من أنعم من أهله لصلاحهم لا لأنهم أهلك وأقاربك وإن هذا لما انتفى عنه الصلاح لم تنعمه أبوتك كقوله وكانت تحت

(١) الكشاف ٤ ص ٣٠٩ - ٣١٠
(٢) الكشاف ٤ ص ٤١٢

هبدین من عبادنا صالحین فخانتهم فلم یغنینا عنهما من الله شیئاً ، (١) .
ولهذا الرمز الخفی یصف القرآن الکریم یوم القیامة بأنه صیر ، ثم یصفه
بأنه غیر یسیر علی الکافرین یقول تعالی : فاذا نقر فی النافور فذلک یومئذ یوم صیر
علی الکافرین غیر یسیر ، والزمنشری یعلق علی هذا بقوله فإن قلت فما قائله قوله
غیر یسیر وعسیر معن عنه ؟ قلت لما قال علی الکافرین فقصر العسر علیهم قال غیر
یسیر لیؤذن بأنه لا یشیر علیهم کما یشیر علی المؤمنین یسیراً هیناً لیجمع بین
وهید الکافرین وزیادة غیظهم وبشارة المؤمنین وتسلیة لهم . ویجوز أن یراد
أنه صیر لا یرجع یسیراً کما یرجع العسیر من أمور الدنیا (٢) .

ویقف الزمنشری عند استعمال القرآن لكلمة موج ، فقد دل بنفیها علی
إثبات الاستقامة للقرآن فی قوله تعالی قرآناً عربیاً غیر ذی عوج ، ویقارن بین هذا
المعنی و بین قولنا مستقیماً أو غیر معوج ویستخرج من تعبیر القرآن فائدتين الأولى
نفی أن یشیر فیه موج قط والثانية أن لفظ موج مختص بالمعانی دون
الاعیان (٣) .

ویقول القرآن فی موضع آخر الحمد لله الذی أنزل علی عبده الکتاب ولم یجعل
له عوجاً قیماً ، فیجمع بین نفی العوج وإثبات الاستقامة ویقول الزمنشری فإن
قلت ما فائدة الجمع بین نفی العوج وإثبات الاستقامة وفی أحدهما غنی عن الآخر؟
قلت فائدته التأكيد قرب مستقیم مشهود له بالاستقامة ولا یشیر من أدنی موج
عند السیر والتصفح (٤) .

فاذا ما نقل القرآن استعمال الكلمة من المعانی الی هی مختصة بها إلی الأعیان
اجتهد الزمنشری فی بیان ملامتها لسیانها ولماذا آثرها القرآن علی غیرها . یقول
فی قوله تعالی : ویسألونک عن الجبال فقل ینسفها ربی لسفاً فیذرها قاعاً صفصفاً
لا تری فیها عوجاً ولا أمناً ، فإن قلت قد فرقوا بین العوج والعوج فقالوا العوج

(١) الکشاف ج ٢ ص ٣١٢

(٢) الکشاف ج ٤ ص ٥١٧

(٣) یظفر الکشاف ج ٤ ص ٩٧

(٤) الکشاف ج ٧ ص ٥٤٨

بالكسر في المعازر والعيوج بالفتح في الإهيان والأرضين فكيف صح فيها المنكسور العين ؟ قلت اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الأعوجاج عنها على أبلغ ما يكون وذلك أنك لو عمدت إلى قطعة أرض فسويتها وبأنت في التسوية على عينك وعبون البصراء من الفلاحة واتفقتم هل أنه لم يبق فيها عوج قط ثم استطلعت رأي المهندس فيها وأمرته أن يعرض استواءها على المقاييس الهندسية لعثر فيها على عوج في غير موضع لا يدرك ذلك بحاسة البصر ولكن بالقياس الهندسي فنفي الله عز وجل ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك ، اللهم إلا بالقياس الذي يعرفه صاحب التقدير والهندسة وذلك الأعوجاج لما لم يدرك إلا بالقياس دون الإحساس لحق بالمعاني فتقبل عوج بالكسر (١) .

والكلمة الواحدة لها إجماعان مختلفان حسب سياقها فقد هرب القرآن الكريم بكلمة - سوق - في جانب الكافرين وسوقهم إلى جهنم زمرا وفي جانب المؤمنين وسوقهم إلى الجنة زمرا . ويقف الزمخشري عند هذا اللفظ في هذين المقامين المتباينين ليشير إلى إجماعه هنا وإجماعه هناك فيقول فإن قلت كيف هرب عن الذهاب بالفريقين جميعاً بلفظ السوق ؟ قلت المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان والذمف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان إذا سيقوا إلى حبس أو قتل ، والمراد بسوق أهل الجنة سوق مراكبهم لأنه لا يذهب بهم إلا راكبين وحشياً لإسراها بهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بن يشرف ويكرم من الوافدين على بعض الملوك فستان ما بين السواقين (٢) .

والزمخشري يجتهد كما قلنا في توضيح ما في اللفظ القرآني من تلويحات يبيت الحذر والإشفاق بها في قلوب المؤمنين حتى تستقيم نفوسهم على الجهاد ، واللفظ القرآني غني عنه الإجماعات لأنه كتاب تهذيب وتقويم وطريقته في التهذيب والتقويم هي النفاذ إلى النفس الإنسانية وقيادتها من داخلها وإقامتها قيمة على نفسها وطريقة التلويح والإيحاء طريقة لا تخفى في النفاذ إلى النفس وإيقاظها والتأثير فيها .

(١) الكشاف ٣ ص ٦٩

(٢) الكشاف ٤ ص ١١٤

يقول الزمخشري في قوله تعالى ، ووعى آدم ربه فنوى ، . بهذا الإطلاق والتصريح
وحيث لم يقل وزل آدم وأخطأ وما أشبه ذلك بما يعبر به عن الزلات والفرطات
فيه لطف بالمسكفين ومزجرة بليغة وموعظه كافة وكأنه قيل لهم انظروا واحترروا
كيف نعت على النبي المعصوم حبيب الله الذي لا يجوز عليه إلا اقتراف الصغيرة
غير المنفرة زلته بهذه العلظة وبهذا اللفظ الشنيع فلا تتهاونوا بما يفرض منكم من
السيئات والصغائر فضلا أن يجسروا على التورط في الكبائر (١) .

ومن هذا تعليل القرآن عقاب الكافرين بما هو أعم من السبب الحقيقي لهذا
العقاب فالذين استكبروا عن آيات الله لا يدخلون الجنة لعنادهم ، والقرآن لا يملأ
حرمانهم من الجنة بهذه العلة الحقيقية وإنما يقول ، إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا
عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط
وكذلك نهى المجرمين ، فيملأ هذا الخلود في النار بالإجرام ، والإجرام عام يشمل
التكذيب والاستكبار وغير ذلك من الذنوب والزمخشري يفصح عن سر المدول
إلى لفظ الإجرام وكيف يلوح لهم بهذا اللفظ فقد قال ونهى المجرمين ، ليؤذن أن
الإجرام هو السبب الموصل إلى العقاب وأن كل من أجرم هو قبيح وقد كرره فقال
، وكذلك نهى الظالمين ، لأن كل مجرم ظالم لنفسه (٢) .

ويقول في قوله تعالى ، وفي قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما
كانوا يكذبون ، والمراد بكذبهم قولهم آمننا بالله وباليوم الآخر وفيه رمز إلى قبح
الكذب وسماجته ، وتخيل أن العذاب الأليم لاحق بهم من أجل كذبهم ، ونحوه
قوله تعالى ، بما خطيئناهم أغرقوا فأدخلوا ناراً والقوم كفره وإنما خصت الخطيئات
استمظااما لها وتنفيها عن ارتكابها (٣) ،

ويوضح هذا المعنى في آية نوح ويقول وكفى به مزجرة لمن تكب الخطايا
فإن كفر قوم نوح كان واحدة من خطيئاتهم ، وإن كانت كبرا من وقد نعت عليهم
سائر خطيئاتهم كما نعى عليهم كفرهم ولم يفرق بينه وبينه في استيجاب العذاب اثلا

(١) الشكاف - ٣ - ص ٢٤

(٢) الشكاف - ٢ - ص ٨٢

(٣) الشكاف - ١ - ص ٤٦ - ٤٧

يتكلم المسلم الخاطيء على إسلامه ويعلم أن معه ما يستوجب به العذاب وإن خلا من الخطيئة الكبرى (١) .

وقد يذكر القرآن الكريم الانبياء المشهورين بانفط العبد الذي يشمل الناس جميعا برحم وفاجرهم ، ويلج الزمخشري المعنى الادبي وراء هذا الإطلاق ويبين مراد القرآن به وأنه تأصيل صفة البشرية والعبودية في هؤلاء المختارين وأنهم لم يرتقوا إلى درجاتهم إلا بصالح الاعمال يقول في قوله تعالى « ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وأمراة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين ، فإن قلت ما فائدة قوله من عبادنا ؟ قلت لما كان مبنى التمثيل على وجود الصلاح في الإنسان كائنا من كان وأنه وحده الذي يبلغ به الفوز وينال ما عند الله ، قال عبدين من عبادنا صالحين فذكر النبيين المشهورين العالين بأنهما عبدان لم يكونا إلا كسائر عبادنا من غير تفاوت بينهما وبينهم إلا بالصلاح وحده إظهاراً وإبانة لأن عبداً من العباد لا يرجح عنده إلا بالصلاح لا غير وأن ما سواه مما يرجح به الناس ليس بسبب للرجحان (٢) .

ويقف الزمخشري عند كلمة « طين » في قوله تعالى « فإن طين لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئاً ، وبين تصويرها لنفوس هؤلاء النسوة وما ينبغى أن يحتاط به الأزواج عند قبول الموهوب من نحاتن فيقول وفي الآية دليل على ضيق المسلك في ذلك ووجوب الاحتياط حيث بنى الشرط على طيب النفس فليل « فإن طين » ولم يقل فإن وهين وسمعن أعلاما بأن المراعى هو تحافى نفسها عن الموهوب طيبة وقيل « فإن طين لكم عن شيء » ولم يقل فإن طين لكم عنها بعثا لمن على تقليل الموهوب (٣) .

ويستوحى معاني الاحتقار والازدراء من كلمة أدبر الذي وصف بها القرآن فرعون في قوله تعالى « ثم أدبر يسمي » (٤) . ويكشف ما تلوح به كلمة وذراء من تهويل

(١) الكشاف ٤٤٦ ص ٤٩٦

(٢) الكشاف ٤٠ ص ٤٥٨

(٣) الكشاف ١ ص ٢٦٣

(٤) نظر الكشاف ٤ ص ٥٥٦

المشركين وغفلتم في قوله تعالى «وجعلوا لله ما ذرأ من الحنث والآنعام نصيباً» (١) .
ويشير إلى ما في كلمة أخ من معاني المحبة والمودة التي تحجب العنق إلى نفس ولي
الدم في قوله تعالى «فمن عني له من أخيه شيء» (٢) ويشير إلى ما في لفظ الخرطوم
من الاستخفاف والاستهانة في قوله تعالى «سفسسه على الخرطوم» (٣) وفي كلمة
بارئكم في نداء موسى عليه السلام لبني إسرائيل في قوله تعالى «فتوبوا إلى بارئكم
معنى التقرير واللوم لأنهم تركوا عبادة الباري أي الذي خلق الخلق برياً من التفاوت
إلى عبادة البقرة وهي مثل في البلاده» (٤) .

والزخشي يشير إلى الفروق بين دلالات الألفاظ المتقاربة ويبين في ضوء
هذه التفرة الدقيقة سر اختيار كل كلمة في موضعها .

يقول في قوله تعالى «الحمد لله الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات
والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون» والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه
معنى التقدير . . . وفي الجعل معنى التصيير كإلهاء شيء من شيء أو تصيير شيء
شيئاً أو نقله من مكان إلى مكان ، ومن ذلك «وجعل منها زوجها» ، وجعل
الظلمات والنور ، لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة والنور من التاوه ، وجعلناكم
أزواجاً ، أجعل الآلهة إلهاً واحداً (٥) . .

وقد تبدل كلمة مكان أخرى في آية مشابهة ويلحظ الزخشي هذا ويناقشه
ويبحث المقامين ويشرح أسلوب الآيتين وكيف اقتضى كل مقام من المقامين هذه
الكلمة بعينها وله في هذا كلام جيد يقول في قوله تعالى «قال وبى يعلم القول في السماء
والأرض وهو السميع العليم» .

فإن قلت هلا قيل يعلم السر لقوله وأسروا النجوى ؟ قلت القول عام يشمل
السر والجره فكان في العلم به العلم بالسر وزيادة فكان أكد في بيان الإطلاع

(١) ينظر الكشاف ج ٢ ص ٥٣

(٢) ينظر الكشاف ج ١ ص ١٦٧

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٤٧٣

(٤) ينظر الكشاف ج ٢ ص ١٠٥

(٥) الكشاف ج ١ ص ١٠٥

على نحوهم من أن يقول يعلم سرهم كما أن قوله يعلم السر أكد من أن يقول يعلم سرهم عم بين ذلك بأنه السميع العليم لذاته فكيف تخفى عليه خافية . فإن قلنا فلم ترك هذا الآكد في سورة الفرقان في قوله تعالى دقل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض ، ؟ قلت ليس بواجب أن يحمى بالآكد في كل موضع ولكن يحمى بالوكيدة تارة وبالآكد أخرى كما يحمى بالحسن في موضع وبالإحسن في غيره ليفتن الكلام افتنانا وتجميع الغاية ومادونها ، هل أن أسلوب تلك الآية خلاف أسلوب هذه من قبل أنه قدم ههنا أنهم أسروا النجوى فكانه أراد أن يقول إن ربي يعلم ما أسروه فوضع القول موضع ذلك للمبالغة ، ثم قصد وحف ذاته بأنه أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض فهو كقوله هلام الغيوب عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة (١) .

وفي هذا المنص يتضح رأيه في تفاوت بلاغة القرآن بين البليغ والأبليغ ، والحسن والأحسن ، ليجمع الغاية ومادونها كما يقول . وفيه نزعة اهتزالية لا تتعرض لها لأننا منصرفون إلى تجميع البحت البلاغي في هذا الكتاب أما أن الصفات عين الذات كما يقول أو غيرها كما يقول أهل السنة وكأرد بذلك ابن المنير في قوة جدل فذلك أمر لا نريد أن نزعم بحسنا به .

والزمتشري يعتمد في تفسير الحكمة على خبرته اللغوية وإحاطته بمفردات هذه اللغة ومعانيها وعلى فقه الأساليب وإدراك المقامات التي تجري فيها الحكمة وتكون فيها معروفة مشهورة ، ثم على ذوقه الذي يقبل ويرفض ، وله في هذا الكلمة العليا .

يقول في قوله تعالى دفن عفى له من أخيه شيء . ، فإن قلت هلا فسرت هني بترك حتى يكون شيء في معنى المفعول به ؟ قلت لأن عفى الشيء بمعنى تركه ليس يلبت ولكن إعفاءه ومنه قوله عليه الصلاة والسلام وأهفوا للحي . فإن قلت فقد عيت قولهم عفا أثره إذا معاه وأزاله فهلا جعلتم معناه فن عفى له من أخيه شيء ؟ قلت عبارة قلقة في مكانها والعفو في باب الجنائيات عبارة متدارلة

(١) الكشاف ٣ من ٥١ ونظر الفهاف الحفاجي ٦ من ٣٤١

مشهورة في الكتاب والسنة واستعمال الناس فلا يدل على أنها إلى أخرى قلقة نابعة
عن مكانها (١) .

وقد يشير في تفسير الكلمة إلى مدلولها الحسي ويربط بين هذا المدلول وبين
المراد منها ، وحسنه في هذا دقيق بالغ ، يقول في قوله تعالى «مذبذبين بين ذلك» .
ومعنى مذبذبين ذبذبهم الشيطان والهوى بين الايمان والكفر فهم مترددون بينهما
متحيرون ، وحقيقة المذبذب الذي يذب عن كلا الجانبين أى يزداد ويدفع فلا يقر
في جانب واحد كما قيل فلان يرمى به الرحوان ، إلا إن الذبذبة فيها تكرار
ليس في الذب كان المعنى كلما مال إلى جانب ذب عنه (٢) .

وقد يتبع الزمخشري الكلمة في معجم القرآن الكريم ويحدد دلالاتها
في ضوء هذا التبع ويرفض أن يكون المراد منها معنى آخر وإن أقرته اللغة ،
وهذا لفت قديم إلى وجوب النظر في ألفاظ القرآن في ضوء معجمه واستعمالات
ألفاظه ولكن هذا اللفظ القديم ظل غائماً ، ولو قدر لدراستنا الأدبية أن تلتفت
إلى هذه الطريقة لكان لدينا الآن تراث أكثر خصوصية في هذا المجال . ويقول
الزمخشري في قوله تعالى «الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة والزانية لا ينكحها
إلا زان أو مشرك» . وقيل المراد بالنكاح الوطء وليس بقول الأمرين
أحدهما أن هذه الكلمة أينما وردت في القرآن لم ترد إلا في معنى العقد . والثاني
فساد المعنى وآداؤه إلى قولك الزاني لا يزني إلا بزانية والزانية لا يزني
بإلا زان (٣) .

والزمخشري قد يخطئه حس الكلمة فيسوي بين لفظين في المعنى ، والحس
الراشد قد لا يعطى إلى هذه التسوية ، يقول في قوله تعالى : «إن تمسكتم حصة
نسؤم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها» ، فإن قلت كيف وصفت الحصة بالنس
والسيئة بالإصابة ؟ قلت المس مستعار لمعنى الإصابة فكان المعنى واحداً

(١) الكشاف ج ١ ص ١٦٧

(٢) الكشاف ج ١ ص ١٦٧

(٣) الكشاف ج ١ ص ١٦٧

(١) الكشاف ج ١ ص ١٦٧

(٢) الكشاف ج ١ ص ١٦٧

(٣) الكشاف ج ١ ص ١٦٧

الأتى إلى قوله ، إن تصيبك حسنة تسوءم وإن تصيبك مصيبة . . . ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك . . . إذا حسه العرجون وما وإذا حسه الخير منوها (١) .

وهو حينما يسوق هذه الآيات التي ذكرت فيها الإصابة مع الحسنة ومع السيئة وذكر فيها المس مع الشر لم يبحث الفرق بين سياق هذه الآيات وسياق الآية التي يتحدث فيها . إذ أنها تحذر المسلمين من الاطمئنان إلى الكافرين وأخذ الصق والتخيل منهم ، ثم تصور ما تنطوي عليه صدورهم من الكراهية والبغضاء وتعتب على المسلمين غفلاتهم وحبهم لهؤلاء الذين لا يحبونهم ، ثم رحمت صورتهم وهم في خلوتهم يعضون الأنامل من الغيظ . فكان مقتضى الحال كما صورها القرآن أن يكون مس الحسنة وهو أقل قدر من الخير ينال المسلمين ، مسيئاً لهم أبلغ إساءة ، وأن تكون إصابة السيئة وتمكنها من المؤمنين أمراً ساراً لهم ، فالمس لا يسارى الإصابة .

ولو رجعنا إلى الأصل اللغوي لوجدنا المس أقل من الإصابة فالمس هو اللس ، ومن مجازاته مس العذاب ومس الخير ، قال في القاموس مسسته بالكسر أمسه مساً ومسيساً ومسيسى كخليفى ومسسته كنهضته وربما قيل مسته يحذف سين أى مسته (٢) .

وقال الزمخشري في الأساس مسه مساً ومسيساً وماسة بماسة ومساماً وهما يتماثلان . . . ومن الجواز مسه الكبر والمرض ومسّه العذاب (٣) ، أما الإصابة فانها ترجع إلى إصابة الرمية أى رمى فأصاب ومنه إصابة المطر الأرض وهذا أبلغ من المس واللس .

وقد كثر استعمال المس في القرآن للإصابة الخفيفة كقوله تعالى دولن مسنهم ففحة من عذاب ربك ، وكقوله تعالى ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم

(١) الكشاف ج ٤ ص ٤١٢

(٢) القاموس ج ٢ ص ٣٥١

(٣) الأساس ص ٨١٩ - ٩٠٠

النار ، وقوله إن بمسككم قرح فقد مس القوم قرح مثله ، وقوله وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض ، وقوله وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه ، وقوله وإذا مسكم الضر فإليه تجأرون ، وقوله وإذا مس الإلسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، وقوله فإذا مسه الشر كان يؤوساً ، وقوله وإذا مسه الشر فيئوس قنوط ، وقوله إن الإلسان خلق هلوفاً إذا مسه الشر جزوعاً وإذا مسه الخير منوعاً ، وغير ذلك من الآيات التي يهدينا فيها التأمل البصير إلى أن المس فيها أقل من الإصابة . على أننا نجد بعض الآيات يستعمل فيها المس مع العذاب الآليم والعذاب العظيم كقوله تعالى حكاية عن أهل أنطاكية ومخاطبتهم لرسول عيسى عليه السلام ، وقالوا إنا نطيرنا بكم لأن لم نقتلوا لئلا نرجمكم ولئلا نقتلنا عذاب اليم ، وكقوله تعالى في آية الإفك ولولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ، وقوله تعالى والذين كذبوا بآياتنا يمسمهم العذاب بما كانوا يفسقون ، وقوله تعالى وأمم سمعتهم ثم يمسمهم منا عذاب اليم ، ويمكن أن يقال إن سياق هذه الآيات ومقام التهديد والوعيد فيها يكسب المس معنى أقوى وأبلغ ، وذلك بخلاف آية آل عمران التي تناقش الزمخشري فيها فإن سياقها يساعد على الذي قلناه .

وقد تنبه ابن المنير إلى هذا وقال يمكن أن يقال المس أقل تمكنا من الإصابة وكأنه أقل درجاتها ، فمكان الكلام والله أعلم أن تصبكم الحسنة أدنى إصابة لسؤم ومحسودكم عليها وإن تمكنت الإصابة منكم وانتهى الأمر فيها إلى الحد الذي يرئى الشامت عنده فهم لا يرمون لكم ولا ينفكون عن حدم^(١) .

وبما نرى الزمخشري فيه قد أخطأه حس المفرد وسوى بين المفردات وأغفل ما فيها من إشارات قوله في قوله تعالى وقال فأخرج منها فانك رجيم وإن عليك العنة إلى يوم الدين قال رب فأنظرفني إلى يوم يبعثون قال فانك من المنتظرين إلى يوم الوقع المعلوم قال الزمخشري ويوم الدين ويوم يبعثون ويوم الوقت المعلوم في معنى واحد ولكن خولف بين العبارات سلوكاً بالكلام طريقة المبالغة^(٢) .

(١) حاشية ابن المنير هامش الكتاب ص ١٤٣

(٢) الكتاب ص ١٥٥

وقد نلاحظ فروقا بين الكلمات الثلاث المضافة إلى اليوم فإن يوم الدين يشير إلى ما يلاقيه إبليس من الجزاء على معصيته وتمرده ، وهذه الإشارة لا تجدهما في الكلمتين الأخيرتين وإنما نراها في كلمة الدين ، ويوم يبعثون يشير إلى طلب أقصى المدة فإبليس يطلب الأنظار إلى يوم البعث لا إلى يوم تقوم الساعة ، ويوم الوقت المعلوم فيه نبرة تهديد لا تحطتها الأذن أي إلى يوم الوقت الذي تعرف ما فيه من العذاب والأخذ الشديد . فإذا كانت الكلمات الثلاث تشترك في المدلول العام فإن لكل كلمة خصوصية في الدلالة لامت موقعا ، فليست الكلمات الثلاث في معنى واحد كما يقول الزمخشري .

نظرات في هيئة الكلمة :

(١) الجمع والإفراد :

وفي نظرات الزمخشري للكلمة المفردة يبصر السر البلاغي لإفراد الكلمة وجمعها جمع قلة أو جمع كثيرة ويساعده على لمح ما في هذه الهيئات من وحى وإشارات حسن أدبي وذوق بصير .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ، . فإن قلت لم قيل من شجرة على التوحيد دون اسم الجنس الذي هو شجر ؟ قلت أريد تفصيل الشجر وتقسيمها شجرة شجرة حتى لا يبقى من جنس الشجر ولا واحدة إلا برت أقلاما (١)

ويقول في قوله تعالى وإنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا ، فإن قلت قد ذكرت جماعة فهلا قيل إنما أولياؤكم ؟ قلت أصل الكلام إنما وليكم الله فجعلت الولاية لله على طريق الإصالة ثم نظم في سلك إيمانها له إيمانها لرسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين على سبيل التبعية . ولو قيل إنما أولياؤكم الله ورسوله والذين آمنوا لم يكن في الكلام أصل وتبع (٢) .

ويلاحظ الزمخشري أن الكلمة الواحدة تقع مفردة مرة وجمعا مرة في سياق

(١) الكشاف ٣ ص ٢٩٦

(٢) الكشاف ١ ص ٥٠٥

واحد وآيات متحدة في الغرض ثم يجتهد في بيان ملاءمة صيغة الأفراد لركبها الخاص بها ، وملاءمة صيغة الجمع لموقعها الخاص بها .

يقول قوله تعالى ، قد أفجح ، المزمعون الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لغروجهم حافظون ، إلا على أزواجهم ، أو ما ملكت أيمانهم ، فأنهم غير ملومين ، فن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادرون ، والذين هم لإماناتهم وعهدهم راعون ، والذين هم على صلواتهم يحافظون ، يقول الزمخشري وأيضاً فقد وحدث - يعني الصلاة - أولاً ليفاد المشيوع في جنس الصلاة أي صلاة كانت ، وجمعت آخراً لتفاد المحافظة على أعدادها وهي الصلوات الخمس والوتر والعشرون المرتبة مع كل صلاة وصلاة الجمعة والعيدين والجنائز والاستسقاء (١) .

وكذلك يفسر الأفراد والجمع في المقام الواحد بما خبير من أخلاق الناس وعرف من أحوالهم وعاداتهم .

يقول في قوله تعالى ، فما لنا من شافعين ، ولا صديق حميم ، فإن قلت لم جمع الشافعين ووجد الصديق ؟ قلت لكثرة الشغفاء في العادة وقلة الصديق ، ألا ترى أن الرجل إذا امتحن بارهات ظالم نهضت جماعة وافرة من أهل بلده لتفادته ، رحمة له وحسبة ، وإن لم يسبق له بأكثرهم معرفة ، وأما الصديق وهو الصادق في ودائك الذي يهيم ما أهمك فأمر من بيض الأنوق وعن بعض الحكماء أنه سئل عن الصديق فقبل اسم لا معنى له (٢) .

وابن المنير وإن كان له ذوق في فهم الأساليب يتمجب من هذه الوقفة ويرى صعبه على أن كلية صديق تدل على الجمع كما تدل على المفرد ، ولكنه لم يدرك ما لفت الزمخشري وأبان عنه في دقة وهو الخلاف بين السكلتين من ناحية الجمع والإفراد وإن كانت كل واحدة دالة على الجمع . ونلاحظ في كلام ابن المنير روح الجدل الفقهي الذي لا يستسيغ هذه اللسعات الفنية ، كما نلاحظ فيه كلمات

(١) الكتاب ٣ من ١٤٠

(٢) الكتاب ٣ من ٢٥٤

انفعالية تدل على موافقه المتعصب ، يقول ابن المنير معلقا على كلام الزمخشري السابق والمعجب أن الصديق يقع على الواحد وعلى الجمع فالدليل على إرادة الأفراد ؟ ثم لو كان المراد الأفراد لكان أهم لأنه في سياق النفي فينفي الواحد وما زاد عليه إلى ما لا نهاية له (١) ، ولا ينقض هذا مع قوته اعتراضاً على الزمخشري لأن الصديق وإن كانت تطلق على الجمع فإن السؤال لماذا خالف القرآن بين الكلمتين وعمد إلى الجمع في شافعين والإفراد في صديق وإن كان مدلولهما واحداً ؟

وقد يلحظ الزمخشري في صيغة الجمع لمسة أخلاقية لا يدركها إلا من له بصيرة في ذوق الأسلوب يقول في قوله تعالى وإن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرم لا يعقلون ، -

ومناداتهم من وراءها يحتمل أنهم قد تفرقوا على الحجرات متطلبين له فناداه بعض من وراء هذه وبعض من وراء تلك وأنهم قد أتوا حجرة فنادوه من وراءها وأنهم نادوه من وراء الحجرة التي كان فيها ، ولكنها جمعت لإجلال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان حرمة (٢) .

فالزمخشري يدرك الفرق بين أن يكون التعبير أن الذين ينادونك من وراء حجرتك أو من وراء الحجرة وبين ما جاء عليه القرآن ، وأن في كلمة حجرة بهذا النص وهذا التحديد معنى يكره القرآن أن يواجه به محمد صلوات الله عليه لإجلاله لحرمة فيأتي بصيغة الجمع ليفهم هذا التنصيص ضمن مدلولها حتى لا يتجه إليه الفكر منفرداً ، وإنما يكتبني باللمسة الخفيفة والإشارة التي هي كالوحي في هذا المقام . ولهذا المعنى يقول الزمخشري معلقاً على هذه الآية ومنتجعاً بما تتضمنه من عناصر البلاغة وإعجاز الفن ، فورد الآية على النظم الذي وردت عليه في مالا يخفى على الناظر من بينات إكبار محل رسول الله صل الله عليه وسلم وإجلاله ، منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين بالسفه والجهل لما أقدموا عليه ، ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته ومقبله مع بعض

(١) حاشية ابن المنير على هامش المرجع السابق .

(٢) السكالك ج ٢ ص ٢٨٤

لسانه ، ومنها المرور على لفظها بالاختصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم (١) .

وصيغة الجمع قد تشعر بمعاني التعظيم والاجلال حينما يوضع ما للجسامة للواحد . وقد أشار النحاة إلى هذا المعنى في الضائر وقالوا إن ضمير جمع المتكلمين المتصل أو المنفصل قد يأتي للمتكلم المعظم نفسه . والزمخشري ينقل هذا من ضمائر الجمع إلى صيغة الجمع فيقول في قوله تعالى : ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون ، والجمع دليل العظمة والمعنى إنا أجبتنا أحسن الإجابة وأوصلها إلى مراده وبنيته من نصرته على أعدائه والانتقام منهم بأبلغ ما يكون (٢) .

وقد يأتي القرآن الكريم بجمع القلة مكان جمع الكثرة ليشير بهذا إلى معنى وقد يعكس هذا فيأتي بجمع الكثرة مكان جمع القلة ، والزمخشري يقف في هذه المقامات محاولاً كشف هذه الإشارات والإفصاح عن التكنة البلاغية وهو في هذا قد يصيب وقد يخطئ .

فن ذلك وهو فيه مصيب قوله تعالى : ولقد نصركم الله بيدروا أذلة ، قال والأذلة جمع قلة والإذلاء جمع الكثرة ، وجاء بجمع القلة ليدل على أنهم على ذلتهم كانوا قليلاً وذلتهم ما كان بهم من ضعف الحال وقلة السلاح والمساك المركوب (٣) .

ومنه ما قاله في قوله تعالى : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين ، قال وإنما قيل أعين دون عيون لأنه أراد أعين المتقين وهي قليلة بالإضافة إلى عيون غيرهم قال تعالى : وقليل من عبادي الشكور (٤) .

(١) نفس المرجع

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٣٧

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٣١٦

(٤) الكشاف ج ٢ ص ٢٢٢

فإذا وقف الزمخشري عند آية ، والمطلقات يترجمن بأنفسهن ثلاثة قروء ،
ورأى كلمة قروء - وهي جمع كثرة مستعملة في موطن جمع القلة أغفل هذه
الأسرار التي تنطوي عليها الكلمة القرآنية وحمل الأمر على الاتساع . وما كان
للزمخشري وهو الأديب المتذوق أن يهمل لحظة اللفظ أو يغفل عنها . فإنه من
مخالطة الحس أن نقول أن القرآن يستعمل كلمة مكان كلمة من باب الاتساع
والمعنى واحد . وقد سبق أن ذكر الزمخشري مثل هذا في قوله تعالى يوم الدين ،
« يوم يبعثون » ، يوم الوقت المعلوم ، ، وقد سبق أن رفضناه وحاولنا أن نفهم
بعض الفروق في الكلمات الثلاث ، وهنا يقول الزمخشري . فإن قلت لمسا جاء
المميز على جمع الكثرة دون القلة التي هي الإقراء ؟ قلت يتسمون في ذلك
فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لا اشتراكهما في الجمعية ألا ترى
إلى قوله بأنفسهن وما هي إلا نفوس كثيرة ولعل القروء كانت أكثر استعمالاً
في جمع قروء من الإقراء فأثر عليه تنزيلاً لقليل الاستعمال منزلة المهمل فيكون
مثل قولهم ثلاثة شيوخ (١) .

ونرى أن جمع الكثرة في قروء يشير إلى وجوب الاحتياط في استيفاء مدة
العدة حتى لا تتمحل المرأة المطلقة عدتها ، وقد أشار إلى هذا بعض النحاة . أما
إنهم يتسمون في هذا ويستعملون جمع الكثرة مكان جمع القلة فهذا يصح تعليلاً
في كلام الناس على أننا لا نعدم تلك الإشارات الفنية في صياغات الكلام
الموهوبين وقد تكون هذه الإشارات دون وهي منهم وإنما هو أثر الموهبة
الفنية والحس الغوي . أما في كلام الله فإننا نرفض مثل هذا التعليل . وليس
هذا الرفض مبنياً على حماس ديني وإنما هو النظر والتذوق ، أما قوله فيما ساقه
شاهداً على الاتساع ألا ترى إلى قوله بأنفسهن وما هي إلا نفوس كثيرة فقد
أغفل الزمخشري ، فيه أيضاً النكته البلاغية وذلك لأن الأنفس وهي جمع قلة
استعملت هنا مكان جمع الكثرة لتشير إلى معنى التقليل والتهوين من شأن هؤلاء
النساء ، فالآية الكريمة تحدد مدة المرأة المطلقة وتوحى بكامل هذه العدة وتتمامها

غاية التمام وأسلوبها فيه تشديد على المطلقة في هذا الموقف وفيه لذعات . فكلمة
يترصدن تشير إلى أنها تعالج أمر نفسها الطامحة إلى الزواج ، وكلمة بأنفسهن فيه
تبيين لمن ولادع يتوق نفوسهن إلى الرجل . وكان الذع الأسلوب أنكى حينما
قال ولا يحمل لمن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن ، وكأنه يشير إلى أن بعضهن
يفعلن هذا ، وقوله إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر ، شرط فيه قسوة . وفي هذا
السياق العام اطمئن إلى أن اختيار جمع القلة هنا في كلمة الانفس فيه إشارة
إلى التقليل والتهوين لتتلاءم هذه الخصوصية وتتجاوب مع هذا السياق .

(ب) المعاني البلاغية لصيغ الأفعال :

والزمخشري يلاحظ ما في صيغة المضارع من المعاني الأدبية ويشير إلى قدرتها
على التصوير وإحضار الحدث ، وكأنما تراه العين وتسمعه الأذن .

يقول في قوله تعالى : إنا سنخرنا الجبال معه يسبحن بالعشى والإشراق ، .
ويسبحن في معنى مسبحات على الحال ، فإن قلت هل من فرق بين يسبحن
ومسبحات ؟ قلت نعم وما اختير يسبحن على مسبحات إلا لذلك وهو الدلالة
على حدوث التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء ، وحالا بعد حال ، وكان السامع
محاضر تلك الحال يسبحا تسبح ، ومثله قول الأضى :

إلى ضوء نار في يفاع تحرق

ولو قال محرقة لم يكن شيئاً (١)

وقد تأثر الزمخشري في هذا بالإمام عبد القاهر الذي يذكّر الفرق بين
الأخبار بالفعل والأخبار بالاسم ويقول إنه فرق لطيف تمس الحاجة في علم
البلاغة إليه ثم يطلق على بيت الأضى المذكور في كلام الزمخشري بقوله معلوم
أنه لو قيل إلى ضوء نار متحرقة لتباعته الطبع وأنكرته النفس (٢) .

ومثل هذه المقارنة بين صيغة المضارع وصيغة اسم الفاعل تكرر في قوله

(١) الكشاف ج ٤ ص ٦٠-٦١

(٢) ينظر دلائل الإجازة ص ١١٤-١١٦

تعالى ، أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن ، يقول الزمخشري فإن قلت لم قيل ويقبضن ولم يقل قابضات ؟ قلت لأن الأصل في الطيران هو صف الاجتمحة لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها وأما القبض فطاريء على الهسوط للاستظهار به على التحرك لجيء بما هو طاريء غير أصل بلفظ الفعل على معنى أمن صافات ويكون منهن القبض تارة كما يكون من السابح (١) .

فالفعل يفيد التحدد والحدوث . والاسم يفيد الثبوت والاستمرار ، ولا معنى لإحضار الصورة هنا لأن ذلك يكون في حكاية الحال الماضية وما هنا ليس كذلك لأن الناس يرون الطير فوقهم صافات ويقبضن في كل زمان ، فالآية وصف صادق ودقيق للطير في حال طيرانه ، وقد يقع المضارع مكان الماضي فيقارن الزمخشري بين الصيقتين وبين دلالة المضارع وقبمتها في الأسلوب .

يقول في قوله تعالى ، والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه ، فإن قلت لم جاء فتثير على المضارع دون ما قبله وما بعده ؟ قلت ليحكي الحال التي تقع فيها لإثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة البديعية الدالة على القدرة الربانية وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تنهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شرأ .

بأنى تعد لغيت الفول تهوى بسهب كالصحيفة صحصان
فاضربها بلا دهن نخرت صريحا البدين والحران

لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها بزعمه على حرب الفول كأنه يبصرهم إياها ويظلمهم على كنهها مشاهدة التمتع من جرأته على كل هول
ولجأته عند كل شدة (١)

(١) الكشاف ج ٤ ص ٤٦٥

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٧٤

ومثل هذا يذكره في قوله تعالى مخاطباً بني إسرائيل ومنكراً عليهم جبارتهم
على أنبيائه عليهم السلام ، أفصلاً جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم
ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون ، قال الزمخشري فإن قلت ملاً فيل وفريقاً فلتتم ؟ قلت
هو هل وجهين إن مراد الحال الماضية لأن الأمر فطبيع فأريد استحضاره في النفوس
وتصويره في القلوب وإن يراد . (١)

وقد يقع المضارع موقع الماضي ولا يكون الغرض منه استحضار الصورة ،
ولما يشير إلى أن هذا الحدث مستمر ، وهنا فرق بين معنى الاستمرار
في الفعل المضارع ومعنى الاستمرار في صيغة الاسم . يقول في قوله تعالى
واهدوا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم ، فإن قلت فلم
قيل يطيعكم دون أطاعكم ؟ قلت للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على
ما يستصوبون وأنه كلما عن لهم رأى في أمر كان معمولاً عليه بدليل قوله في كثير
من الأمر ، كقولك فلان يقرئ الضيف ويحسى الحرير تريد أنه بما اعتاده ووجد
منه (٢) .

ومثل هذا المعنى للفعل المضارع الواقع موقع الماضي ما ذكره في قوله تعالى
إن الدين كنفروا يصدون عن سبيل الله ، قال يقال فلان يحسن إلى الفقراء وينعش
المضطهدين لا يراد حال ولا استقبال وإنما يراد استمرار وجود الحال منه
والنمشة في جميع أزمنته وأوقاته ؛ ومنه قوله تعالى ، ويصدون عن سبيل الله ،
أي الصدود منهم مستمر دائم (٣) .

ويلاحظ الشباب فرقا بين الاستمرار التجددي الذي يفهم من آية لو يطيعكم
والاستمرار في قوله يصدون ، لأن استمرار الصد غير متجدد ، فلا تتخلل قرات
انقطاع الحدث بل هو مستمر دائم . والاستمرار في الأولى تتخلل قرات انقطاع

(١) الكشاف ج ١ ص ١٢١

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٢٥٧

(٣) الكشاف ج ٣ ص ١١٩

بدليل قوله كلما عن لهم . قال البيضاوي في آية ويصدون مقتبساً من كلام الزمخشري أو مخصصاً له لا يريد به حالا ولا استقبالا وإنما يريد به استمرار الصدود منهم كقولهم فلان يعطى وينع وإذالك حسن عطفه على الماضي ، قال الشهاب جعل الفعل المضارع دالاً على الدوام كقولهم فلان يحسن إلى الفقراء . إذ المراد به استمرار وجود الإحسان كما في الكشاف . وهذا خير الاستمرار التجددي وغير دلالة الإسمية الخبرية فعلا على الثبوت لتصريحه به في قوله فاستكافوا لهم وما يفتضرون (١)

وتتكرر هذه الدلالة في صيغة المضارع وتكرر إشاراته إليها في قوله تعالى كذلك يوحى إليك ولم يقل أوحى ليدل على أن الوحي من عادة . وفي قوله تعالى ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، حيث قال فتصبح ولم يقل فأصبحت ليظهر إلى أن خضرتها تبقى وتتجدد زماناً بعد زمان كقولك أعمم على فلان فأروح وأغدوا في نعمة ولو قلت فرحت وغدوت لم يكن شيئاً (٢) .

وقد يختلف نوع الفعل في الآية الواحدة والمقام الواحد ويافئنا الزمخشري إلى السروراء هذا الاختلاف ويشير إلى محته الدالة .

يقول في قوله تعالى ، قال إني أشهد الله وأشهدوا أني برىء مما تشركون ، فإن قلت فلا قيل إني أشهد الله وأشهدكم ؟ قلت لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد معانده ؛ وأما إشهادهم فإسارو الاتهامون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم لحسب ، فعدل بهم عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ووحى به على لفظ الأمر بالمهادة كما تقول لمن يبس الثرى بينه وبينك أشهد على أني لا أحبك (٣) .

(١) حاشية الشهاب الحفاجي ج ٦ ص ٢٩١ ويظهر كلام البيضاوي في نفس الصفحة على الماضي .

(٢) ينظر الكشاف ج ٥ ص ١٦٣ ، ج ٢ ص ١٣٢

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٣١٥

ولزم مشرعي نظرات في صيغ الأفعال الماهية يدير فيها إلى المعاني البلاغية التي تفيدها هذه الصيغ في مقاماتها المختلفة . فالقرآن الكريم يختار صيغة فتحل على صيغة أفعل في قوله تعالى : وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، لأن المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم : وهو من مجازة لمكان التحدي ، وذلك أنهم كانوا يقولون لو كان هذا من عند الله مغالفاً لما يكون من عند الناس لم ينزل هكذا نهما سورة بعد سورة وآيات غب آيات على حسب النوازل وكفاء الحوادث وعلى سنن ما ترى عليه أهل الخطابة والشم من وجود ما يوجد منهم مفرقاً حيناً لحيناً وشيئاً فشيئاً حسب ما يعين لهم من الأحوال المتجددة والحاجات السائجة لا يلقى الناظم ديوان شعره دفعة ولا يرعى السائر بجموع خطبه أرومائه ضرباً فلو أنزله الله لأنزله خلاف هذه المادة جملة واحدة قال الله تعالى : وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، . فقيل إن ارتبتم في هذا الذي رفع إنزاله هكذا على مهل وتدرج فها تواتوا أنتم نوبة واحدة من نوبة وهاتوا نهما فرداً من نهما (١) .

ويفرق بين دلالة فعل واقفعل ويشير إلى ما فيها من معاني الاهتمام والاحتمال ولهذا تقع مع الأحداث التي تنجذب إليها النفوس وتكون موضع تعلقها واهتمامها يقول في قوله تعالى : لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت . . فان قلت لم خص الخبر بالكسب والشر بالاكتساب ؟ قلت في الاكتساب احتمال فلما كان الشر بما تشبهه النفس وهي منجذبة إليه وأماراة به كانت في تحصيله أحمل وأجد لجملة لذلك مكسبه فيه ولما لم تكن كذلك في باب الخير وصفت بما لا دلالة فيه على الاحتمال (٢) .

وقد يشير إلى أهمية صيغة الكلنة وإصابتها لمواعبها وأمرها في نفسه من غير أن يشرح هذه الأهمية ولا أن يوضح هذه الإصابتة ، وهذا لون من دراسة البلاغة التي يعتمد فيها على حسه ثم لا يعامل . وإذا كانت من عاداته أن

(١) الكشاف ج ١ ص ٧٣

(٢) الكشاف ج ١ ص ٧٥٤

يشرح عناصر الجودة وأسس البلاغة فلاضير أن يتركنا لأنفسنا في بعضها
وحسبه أن يشير إلى ما يجد .

يقول في قوله تعالى « أطلع الغيب » أطلع الغيب أم اتخذ هند الرحمن هذا ، . من قولهم
أطلع الجبل إذا ارتقى إلى أعلاه وأطلع الثنية قال جرير . لاقيت مطلع الجبال
وهورا . ويقولون مرّ معلما لذلك الأمر عاليا له ، مالمكاه ؛ ولاختيار هذه
الكلمة شأن (١) .

وبناء الماضي للمجهول له مواقع أدبية يلصقها الزمخشري ويشير إليها ويربطها
بالموقف الذي تصوره الآية ويكشف عن أهميتها في المعنى . فالسحرة لما رأوا
آية موسى عليه السلام واستيقنوها بعد ما سحرورا أهين الناس واسترهبوم
بادروا بالانقياد والسجود لله سبحانه . والقرآن يصور هذه المفاجأة العظيمة وهذه
السرعة الفائقة في الانقياد والاستسلام في هذا الموقف الذي تمثل فيه الصراع بين حق
موسى وباطل فرعون واجتمع الناس فيهم لعلمهم يتبعون السحرة إن كانوا هم الغالبين ،
يقول سبحانه « فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون فقلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين
وأتى السحرة ساجدين ، . والزمخشري يعلق على هذا بكلمة موجزة تكشف عن هذا
الموقف العجيب ويستوحى حركة بناء الفعل الماضي للمجهول ويقول « أتى السحرة
خروا سجدا كأنما أقام ملق لشدة خروهم ، وقيل لم يتما لكوا بما رأوا فكأنهم
ألقوا (٢) . ويستوحى هذا البناء في قوله تعالى « وقيل يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء
أقلعي وغيضي الماء وفضي الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين ، .

يقول ويحيى أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلالة والكبرياء
وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكون مكون قاهر
وأن قاطبها قاهر واحد لا يشارك في أفعاله . فلا يذهب الوم إلى أن يقول غيره
يا أرض أبلعي ماءك ويا سماء أقلعي ولا أن يقضي ذلك الأمر المهائل غيره ولا أن
تستوى للسفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره (٣) .

(١) الكشاف ٢٣ ص ٢٠

(٢) الكشاف ٢٣ ص ١١١

(٣) الكشاف ٢٣ ص ٢١١

وهناك نظر آخر لصيغة الماضي لا يتعلق ببنائها للمعلوم ولل مجهول ولا بجمعيتها على أفعل أو فاعل أو افتعل وإنما يتناول هذه الصيغة من حيث وقوعها موقع المضارع وهو غير ناظر في هذا إلى كون هذا الاستعمال حقيقة أو مجازاً وإنما هو ناظر إلى ما يفيد هذا الاستعمال من المعاني وما يوحى به من الإيحاءات التي تمد النص بمزيد من الأسرار والإشارات فيزداد بذلك خصوصية ونماء يقول في قوله تعالى : أن يتفقوكم بكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وأسنتهم بالسوء وودوا لو تكفروا . فإن قلت كيف أورد جواب الشرط مضارعاً مثله ثم قال وودوا بلفظ الماضي ؟ قلت الماضي وإن كان يجرى في باب الشرط يجرى المضارع في علم الإعراب فإن فيه مسكنة كأنه قيل وودوا قبل كل شيء كفرتم وارتدادكم . يعني أنهم يريدون أن يلحقوا بكم مضار الدنيا والدين جميعاً من قتل الأنفس وتمزيق الأعراس وردكم كفاراً . وردكم كفاراً أسبق المضار عندهم . وأولها لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم لأنكم بذالون لها دونه والعدو أم شيء عنده أن يقصد أعز شيء عند صاحبه (١) .

وقد يقع الماضي موقع المضارع لأن الحدث محقق الوقوع ثم يلحق الزمخشري ما في هذا التعبير من الدلالة على علو شأن المخبر . يقول في قوله تعالى : إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً هو فتح مكة وقد ازلت مرجع رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح وجرى به على لفظ الماضي على عادة رب المزة سبحانه في إخباره لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة السكينة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى (١) .

المعالي البلاغية في أبنية المشتقات :

ويقف الزمخشري عند أبنية المشتقات وبين سر إثمار بناء على بناء ، وقيمتها في المعنى . وما يوحى به في المقام . وهو كغيره من الغويين والتهام يرى أن زيادة المبنى دليل على زيادة المعنى . وإن هذا الارتباط بين المبنى والمعنى أمر تفرقه الفطرة اللغوية .

(١) الكشاف ج ٤ ص ٤٠٩

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٢٩٧-٢٩٨

يقول في قوله تعالى والرحمن الرحيم ، وفي الرحمن من المبالغة ما ليس في الرحيم
ولذلك قالوا رحمن الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا : ويقولون إن الزيادة في البناء
لزيادة المعنى . وقال الزجاج في الغضبان الممتلئ غضبا . وما طن على أذى من
ملح العرب أنهم يسمون مركبا من مرا كهمم بالشغف وهو مركب خفيف ليس
في ثقل حامل العراق فقلت في طريق الطائف لرجل منهم ما اسم هذا الحمل ؟
أردت الحمل العراق فقال أليس ذلك اسمه الشغف ؟ قلت بلى فقال هذا اسمه
الشغنداف فزاد في بناء الاسم زيادة المسمى (١) .

وكلمة الشغنداف التي رواها عن العربي ليست من كلامهم كما قال صاحب
القاموس (٢) .

ويبين الفرق بين كلمة مرضعة ومرضع وأن في مرضعة خصوصية في المعنى لها
أمرها في سياق الآية ومرضعها ، فيقول في قوله تعالى يوم ترونها تذهل كل مرضعة
عما أرضعت ، . فإن قلت لم قبل مرضعة دون مرضع ؟ قلت المرضعة التي في حال
الإرضاع ملقمة لديها للصبى والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع
في حال وصفها ، فقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد
أقمت الرضيع لديها نزهته من فيه لما يلحقها من الدهشة . (٣)

ويصح ما في كلمة مطهرة وبنائها للفعول من المعنى فيقول في قوله تعالى ولهم
فيها أزواج مطهرة ، فإن قلت هلا قيل طاهرة ؟ قلت في مطهرة شامة اصغرت ليست
في طاهرة وهي الإضمار بأن مطهراً طهر من وليس ذلك إلا لله عز وجل (٤) .

وقديعبر القرآن عن الحدث باسم الفاعل في موضع وباسم المفعول في موضع
آخر ، والرخشري يشير إلى الفرق بين الموضعين وكيف اقتضى كل منهما صيغة
عينة . يقول في قوله تعالى وهى المولود له رزقهن ، فإن قلت لم قيل المولود

(١) الكشاف ج ١ ص ٥

(٢) القاموس المحيط ج ٣ ص ١٦٠ مطبعة دار المأمون

(٣) الكشاف ج ٤ ص ١١٤

(٤) الكشاف ج ١ ص ٥٢

له دون الوالد ؟ قلت ليعلم أن الولدات إنما ولدن لحم ، لأن الأولاد الآباء ،
ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات وأشد للمأمون بن الرشيد :

فإنما أمهات الناس أرحمة مستودعات وللآباء أيشاء .

فكان عليهم أن يرزقوهن ويكسوهن إذا أرضعن ولدهم كالأخيار الأتري
أنه ذكره باسم الوالد حيث لم يكن هذا المعنى وهو قوله تعالى : واخشوا يوماً
لا يجزي والد من ولده (١) .

ويوازن بين دلالة الفعل ودلالة اسم المفعول ليبين أن اسم المفعول أكثر
توكيداً للمعنى وإثباتاً له وتقريباً ، ويدهو إلى الموازنة والنظر في الصورتين
والرجوع إلى النفس لتعرف الفرق وتلس المغزى ، وأتلك أنجح الوسائل لفقه
اللغة وذوق التراكيب .

يقول في قوله تعالى ذلك يوم مجموع له الناس ، . فإن قلت لأمي فائدة أوثر
اسم المفعول على فعله ؟ قلت لما في اسم المفعول من دلالة على ثبات معنى الجمع لليوم
وأنه لا يبد من أن يكون مبيحاً مضرراً بجمع الناس له وأنه الموصوف بذلك صفة
لازمة ، وهو أثبت أيضاً لإثبات الجمع إلى الناس وأنهم لا ينفكون منه ونظيره
قول المتهدد إنك لمنهوب مالك محروب قومك فيه من تمكن الوصف وثباته مالميس
في الفعل ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى : يوم يجمعكم ليوم الجمع ، تعثر
على صحة ما قلت لك (٢) .

وأفضل التفضيل لا يدل على أن الشيء أفضل في نفسه وإنما هو أفضل بالنسبة
لوقفه على النفس أو بالنسبة إلى تلقيه ، يقول في قوله تعالى وليكفر الله عنهم أسوأ
الذي عملوا ويجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون ، . وأما التفضيل فإيمان
بأن الشيء الذي يفرط منهم من الصفات والذلات المكفرة هو عندهم الأسوأ
لاستعظامهم المعصية ، والحسن الذين يعملون هو عند الله الأحسن لحسن

(١) الكشاف ج ١ ص ٤١٢ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٣٢٤ .

إخلاصهم فيه ، فذلك ذكر سيئهم بالأسوأ وحسنهم بالاحسن (١) .
ويبلغ الرخاوة معنى اللين والرخاوة في الكلمات المؤنثة كما يلح معنى
الصلابة والقوة في الكلمات المذكورة .

يقول في قوله تعالى وهل من كاشفات ضره ، فإن قلت لم قيل كاشفات ومسكات
على التأنيث بعد قوله ويخوفونك بالدين من دوله ، ؟ قلت أمثون وكن إنانا ومن
اللات والعزى ومناة قال تعالى ، أفرأيتم الآلة والعزى ومناة الثالثة الأخرى الكم
الذكر وله الأثني ، ليضعفها ويمهزها زيادة تضييف وتبعيض عما طالبهم به من
كهف الضر وإمساك الرحمة ، لأن الأثنية من باب اللين والرخاوة كما أن الذكورة
من باب الشدة والصلابة كأنه قال الإناث اللاتي من اللات والعزى ومناة أضعف
بما تدهون لهن وأعجز وفيه تمهك أيضاً (٢) .

ويشير إلى مثل هذا المعنى في التأنيث في قوله تعالى ، قلنا رأى الشمس بازفة
قال هذا ربى هذا أكبر ، يقول فإن قلت ما وجه التذكير في قوله وهذا ربى ، والإشارة
للمس ؟ قلت جعل المبتدأ مثل الخبر لسكونهما عبارة عن شئ واحد كقولهم
ما جاءت حاجتك ومن كانت أمك ولم تكن فتنتم إلا إن قالوا ، وكان اختيار
هذه الطريقة واجباً لصيانة الرب عن شبهة التأنيث ألا ترام قالوا في صفة الله
حلام ولم يقولوا علامة وإن كان العلامة أبلغ احترازاً من علامة التأنيث (٣) .

أدوات الربط :

سوف نعرض هنا لملاحظاته الأدبية في دلالة ثم والوفاء وحتى من حروف
المطف ودلالة إن وإذا وكلما من أدوات الشرط ودلالة قد وربما وبعض
حروف الجر .

أما ثم فإننا حينما نتابع تحليله لمواقعها في الكتاب العزيز يتضح لنا أصلاً
يرجع بمعنى ثم غالباً إليهما . الأول الاستبعاد . وذلك يكون إذا كان ما بعد ثم
أمراً مستبعد الوقوع بالنسبة لما قبلها أو بعبارة أخرى إذا كان ما قبل ثم من

(١) الكشاف ج ٤ ص ١٩٩

(٢) الكشاف ج ٤ ص ١٠

(٣) الكشاف ج ٧ ص ٣٦

(١) الكشاف ج ٤ ص ١٩٩

(٢) الكشاف ج ٤ ص ١٠

(٣) الكشاف ج ٧ ص ٣٦

الأحداث والأفعال مرتباً لعدم حصول ما بعدها . وذلك مثل قوله تعالى . ومن أظلم
من ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، فإن الإعراض عن آيات الله مستبعد الوقوع
بالنسبة للتذكير بها . يقول الزمخشري . ثم في قوله ثم أعرض عنها للاستبعاد والمعنى
أن الإعراض عن مثل آيات الله في وضوحها وإنارتها وإرشادها إلى سواء السبيل
والفوز بالسعادة العظمى بعد التذكير بها مستبعد في العقل والعدل كما تقول لصاحبك
وجدت مثل تلك الفرصة ثم لم تنتهزها استبعاداً لتركه الانتهاز ، ومنه ثم في بيت
الحماسة .

لايكشف الغم إلا ابن الحرة يرى غمرات الموت ثم يزورها
استبعد أن يزور غمرات الموت بعد أن رآها واستيقنتها وأطلع على
شدتها (١) .

وقد تكرر هذا في قوله تعالى ويعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ، يقول فيها فإن
قلت ما معنى ثم ؟ قلت الدلالة على أن إنكارهم أمر مستبعد بعد حصول المعرفة
لأن حق من عرف النعمة أن يعترف لا أن ينكر (٢) .

ومثله ما يذكره في قوله تعالى ، وإذا أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا
تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أفررتم وأتم تشهدون ثم أتم هؤلاء تقتلون
أنفسكم (٣) .

الثاني : بيان البعد بين الأمرين وهذا غير الاستبعاد إذ المراد أن الأمرين من
جنس واحد ولكن ما بعد ثم أعلى مرتبة في هذا الجنس وأبلغ مما قبلها ، فليس بين
الأمرين منافاة كما في الاستبعاد وإنما بينهما تفاوت وهما من جنس واحد . ومن
ذلك ما ذكره في قوله تعالى ، خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها ، فقد
قال فإن قلت ما وجه قوله ثم جعل منها زوجها وما يعطيه من معنى التراخي ؟ قلت
هما آيتان من جملة الآيات التي عددها دالا على وحدانيته وقدرته ؛ تسميه هذا
الخلق الفائت المحصر من نفس آدم ، وخلق حواء من قصوره ؛ إلا أن أحدهما

(١) السكاه ج ٢ ص ٥٧

(٢) السكاه ج ٢ ص ٥٨

(٣) بنظر السكاه ج ١ ص ١١٩

جعلها الله عادة مستمرة ، والأخرى لم تجربها العادة ولم تخلق أنشئ غير حواء من قصيري رجل فكانت أدخل في كونها آية وأجلب لمجيب السامع فطغفها يتم على الآية الأولى للدلالة على مباينةها لما فضلا ومزية وتراخيها عنها فيما يرجع إلى زيادة كونها آية فهو من التراخي في الحال والمنزلة لا من التراخي في الوجود (١).

ومثله ما ذكره في قوله تعالى : ولو أنزلناه ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، فقد قال ومعنى ثم : بعد ما بين الأمرين قضاء الأمر وعدم الأنتظار ، جعل عدم الأنتظار أشد من قضاء الأمر لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة (٢) .

أما الغاء فإن أحسن مواقعها ما تدل فيه على المفاجأة . ولقد لحظ الزمخشري هذا وقال في قوله تعالى : فقد كذبوا بما تقولون ، . هذا المفاجأة بالاحتجاج والإلزام حسنة رائعة وخاصة إذا انضم إليها الالتفات وحذف القول ونحوها قوله تعالى : يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير ، وقول القائل :

قالوا خراسان أمضى ما يراد بنا ثم القبول فقد جئنا خراسانا (٣)

ويكرر هذا الكلام في هذه الغاء ويضيف إليه تحليلا نحوياً بين فيه حقيقتها يقول في قوله تعالى : لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث فإن قلت ما هذه الغاء وما حقيقتها قلت هي التي في قوله فقد جئنا خراسانا وحقيقتها إنها جواب شرط يدل عليه الكلام كأنه قال إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسانا وأن لنا أن نخلص وكذلك إن كنتم منكبين البعث فهذا يوم البعث أي فقد تبين بطلان قولكم (٤) .

وقوله هي التي في قوله فقد جئنا خراسانا إحالة على ما ذكره في الآية السابقة إلا أنه لما سكنت هناك من بيان حقيقتها النحوية حمد هنا إليه .

وقد أشار عبد القاهر إلى هذه الغاء وحسن موقعها وذكر هذا البيت ، ولكن عبد القاهر كان يبسط ففكرة عامة تكون هذه الغاء إحدى صورها الجزئية ، وهذه

(١) الكشاف ج ٤ ص ٨٨ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٥ .

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٢١٤ .

(٤) الكشاف ج ٣ ص ٣٥٤ .

الفكرة تعنى أن معانى النحو لا تحسن في كل موضع تقع فيه وإنما تحسن حيث تصيب
موقعها الأشكل بها ، وإن هذه المعانى كالأصابع يتهدى صانعها إلى مقاديرها
وكيفية مزجها وتخير مواضعها ، لهذا يكون نقش أعجب من نقش وصورة أغرب
من صورة ، وعلى هذا الأساس ننظر في الشعر لتعرف مدى إصابة الشاعر في
استخدام معانى النحو ، فن الشعراء من تقع الإصابة في معانيه كالأصابع المنفرقة
تتلاحق وينضم بعضها إلى بعض حتى تكثر في العين ، والمحكم على هذا الشاعر
بالإصابة والحدق ينبغى أن تتابع عدة أبيات حتى تجمع هذه المحاسن وتملأ العين
منها . ومن الشعراء من تفاجئك عبقريته الفنية فترى الحسن يهجم عليك دفعة
ويأتيك منه ما يملأ العين غرابة فتعرف من البيت الواحد مكان الرجل
من الفضل .

ثم يقول دئم إنك تحتاج إلى أن تستقرى عدة قصائد بل أن تغلى ديوانا
من الشعر حتى تجمع منه عدة أبيات ، وذلك ما كان مثل قول الأول وتمثل به
أبو بكر الصديق رضوان الله عليه حين أتاه كتاب خالد بالفتح في هزيمة الأعاجم .

تمسانا ليقتامنا بقوم تغال بياض لامهم السرابا

فقد لايفتنا فلقيت حربا هوانا تمنع الشيخ الشرابا

انظر إلى موضع الغاء في قوله فقد لايفتنا فرأيت حربا . ومثل قول العباس

ابن الأحنف :

قالوا خراسان أفضى ما يراد بنا ثم القبول فقد جئنا خراسانا

انظر إلى موضع الغاء وئم قبلها (١) .

فهذه الأبيات إذن من الأبيات العالية التي تتجلى فيها موهبة الصياغة ونبوغ
العبقرية والتي إذا أنشدتها وضعت فيها اليد على شيء فقلت هذا ، وما كان كذلك
فهو شعر الشاعر والكلام الفاخر والنمط الشريف .

ولكن عبد القاهر بعد هذا الكلام العميق في دراسة الشعر وتمييز منازل لم
يود في بيان الصفة التي هي سر الجودة على أن قال انظر إلى موضع الغاء . وقد
تكفيه هذه الإشارة لأنه يمثل لما يذكر ، ولأنه صاحب حسن عميق تكفى معه

(١) دلائل الإجازة ص ٦٤، ٦١ .

اللمحة ، ولأن المتفهمين للأدب في زمانه قد تافتهم هذه اللمحة إلى ما في النص من الحسن .

وقد طال أخذى من عبد القاهر لأنى أردت أن أبين في وضوح صليح الزمخشري في هذه الجزئيات مقترنا بصنيع الإمام عبد القاهر ، وقد لاحظنا أنه يبسط في هذه الجزئيات الهامة لإشارات عبد القاهر ويفسرها ويقربها من الأذواق ، ثم هو يعمقها ويشبها في الحقل البلاغي حينما يثريها بالتطبيق على نصوص مختلفة . ولو نظرنا إلى تفسيره لإشارات عبد القاهر الغامضة لمواقع هذه الفاء لوجدناه يثبت قوياً مشرقاً بين تفسيرات المحدثين . فقد قال الأستاذ محمد ناييل معلقاً على كلام الجرجاني إن الفاء التي تحدث عنها عبد القاهر في الآيات السابقة أغنت عناء جهل كثيرة ذلك عليها براءة وأوحى بها في روعة إن فاء ابن الأحنف تطوى وراءها التبرم بالمطلة وأخلاف الوعد في أن تكون خراسان آخر الرحلة ونهاية المتاهب يعودون بعدها إلى ديارهم ومع هذا التبرم ترقب وتطلع واستنجاز كل هذا وأكثر منه نهضت به الفاء رمزاً إليه ودليلاً عليه (١) .

وجزه هام من هذا الكلام الطيب بينه الزمخشري في بيان حقيقة الفاء حينما أشار إلى أنها جواب شرط مقدر فهو تطوى وراءها كلاماً ثم إن المفاجأة بالاحتجاج التي ذكرها الزمخشري هي سر الجمال والخلافة في هذه الفاءات كلها ولذلك نرى أن كلام الزمخشري يتميز بالإصابة والتعميم وأن كلام الأستاذ ناييل قد انحصر في فاء ابن الأحنف وأنه لا ينطبق على غيرها وإن أصاب في تفسيرها كل الإصابة .

وقد دالة على التوقع وإذا دخلت على المضارع كانت بمعنى ربما فوافقتما في الخروج إلى معنى التكثير . يقول في قوله تعالى ، ألا إن لله ما في السموات والأرض ، قد يعلم ما أنتم عليه أدخل قد ليقو كد عليه بما هم عليه من المخالفة عن الدين والنفاق ومرجع التوكيد العلم إلى توكيد الوعيد ، وذلك أن قد إذا دخلت على المضارع كانت بمعنى التكثير في نحو قوله .

(١) نظرية العلاقات بين عبد القاهر والنقد العربي الحديث للأستاذ محمد ناييل ص ٥٩ - ٦٠

فان تمس مهجور الفناء فرجما أقام به بعد الوفود وفود
ونحو قول زهير :

أخو ثقة لا تهلك الخرماله ولكنك قد يهلك المال نائله
وتتكرر هذه الفكرة في قوله تعالى ، قد نعلم أنه ليجزئك الذين يقولون .
يقول قد في قد نعلم بمعنى ربما الذي يعنى . لزيادة الفعل وكثرته كقوله :

أخو ثقة لا تهلك الخرماله ولكنك قد يهلك المال نائله (١)
ويشرح معنى التقليل في ربما إذا كانت مستعملة في مقام التكثير كما في قوله
تعالى ، ربما يود الذين كفروا لو كانوا مؤمنين .

يقول في هذه الآية فان قلت فما معنى التقليل ؟ قلت هو وارد على مذهب
العرب في قولهم لملك ستندم على فعلك وربما ندم الإنسان على ما فعل ولا يشكون
في تدممه ولا يقصدون تقليله ولسكنهم أرادوا لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان
قليلاً لحق عليك ألا تفعل هذا الفعل لأن العقلاء يتحرزون من التعرض لغم المظنون
كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية
لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة فبالحرى أن يسارعوا إليه فكيف وهم يودونه
في كل ساعة (٢) .

وللزعشري نظرات صائبة في حروف الجر يوضح فيها دلالاتها الأدبية
توضيح الناقد المتذوق وقد يمتد بصره فيحيط بالكتاب كله ليستبطن
خصوصيات هذه الحروف ، وسوف تعرض صوراً من هذه النظرات وهذه
الاستنباطات .

فنظرانه الصائبة في حروف الجر قدوله في قوله تعالى ، وإنا أو إياكم لعل
هدى أو في ضلال مبين ، فان قلت كيف خولف بين حرفي الجر الداخلين على الحق
والضلال . قلت لأن صاحب الحق كأنه مستعمل على فرس جواد يركضه حيث شاء
والضلال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه (٣) .

ولا احسب أحداً يستطيع أن يقول في هذين الحرفين كلاماً أعلى من هذا

(١) الكشاف ج ٢ ص ١٣ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٤٤٤ ، ٤٤٣ .

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٤٥٩ .

الكلام . وقد طالعت وقرأته مع كلمة على حين تقع في موقع يمكن أن يكون غير ما
مكانها فيه فن ذلك قوله في قوله تعالى واتكروا شهداء على الناس ويكون الرسول
عليكم شهيداً، فان قلت فهلا قيل لكم شهيداً وشهادته لهم لا هيهم . قلت لما كان الشهيد
كالرقيب والمهيم على المشهود له جاء بكلمة الاستعلاء ومنه قوله تعالى والله
على كل شيء شهيد، كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد، (١) .
ويقول في قوله تعالى فتنادرا مصبحين أن أخذوا على حرثكم ، فان قيل أخذوا
إلى حرثكم وما معنى هل . قلت لما كان العدو إليه ليصره ويقتطعه كان أخذوا
عليه لا له كما تقول غدا عليه العدو (٢) .

والفعل يتعدى مرة باللام ومرة بعلى ويقف الزخشر ليعمل هذا وليبين المطابقة
يقول في قوله تعالى وأملك إلا من سبق عليه القول ، جاء بعلى مع سبق
الضار كما جاء باللام مع سبق النافع قال الله تعالى وإن الذين سبقتم لهم منا
الحسنى، ولقد سبقتم كتبنا لعبادنا المرسلين ، ونحو قوله تعالى ولما ما كسبت
وعليها اكتسبت، وقول عمر رضى الله عنه إيتها كانت كفافاً لا على ولا لياً (٣) .

ولام الجر يستشف منها الزخشرى معنى أدبياً خلافاً في قوله تعالى أكان للناس
حجياً أن أوحينا إلى رجل منهم، يقول فإن قلت فما معنى اللام في قوله أكان للناس
حجياً وما هو الفرق بينه وبين قولك أكان عند الناس حجياً ؟ قلت معناه أنهم جعلوه
لهم أهجوبة يتمحبون منها ولصبره علماً لهم يوجهون نحوه استزاهم وانكارهم
وليس في عند الناس هذا المعنى (٤) .

فإذا كان الفعل يتعدى مرة باللام ومرة بإلى فإن الزخشرى يبين دلالة كل
في موضعه ، يقول في قوله تعالى ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن، فإن قلت ماله

- (١) الكتاب ج ١ ص ١٤٩ .
- (٢) الكتاب ج ٤ ص ٤٢٣ .
- (٣) الكتاب ج ٣ ص ١٥٤ .
- (٤) الكتاب ج ٢ ص ٧٥٧ .

عدى إلى وقد عدى باللام في قوله تعالى دلي من أسلم وجهه لله ، ؟ قلت معناه مع اللام أنه جعل وجهه وهو ذاته سالماً لله أي خالصاً له ، ومعناه مع إلى أنه أسلم إليه نفسه كما يسلم المتاع إلى الرجل إذا دفع إليه (١) .

ويتمد نظره كما قلنا فيحيط بالكتاب كله فيدرك أن فعل المغفرة لا يعدى بمن إلا في خطاب الكافرين ويعدى بدونها في خطاب المؤمنين ليشمل كل خطابهم يقول في قوله تعالى د يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ، . فإن قلت ما معنى التبويض في قوله من ذنوبكم؟ قلت ما علمته جاء هكذا إلا في خطاب الكافرين كقوله ولاتقوه وأطيعون يغفر لكم من ذنوبكم ، د ياقومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ، وقال في خطاب المؤمنين هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم إلى أن قال يغفر لكم ذنوبكم ، وغير ذلك مما يفتك عليه الاستقراء وكان ذلك لتفرقة بين الخطأ بين ، ولتلا يسوي بين الفريقين في المبدأ ، (٢) .

وهذه الفتة إلى النظر في القرآن كله والإحاطة به وتبين سمات أساليبه . ومثلها ما يلحظه في فعل الإيمان وأنه يعدى باللام لغير الله تعالى . يقول في قوله تعالى ويؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، فإن قلت لم يعدى فعل الإيمان بالباء إلى الله تعالى وإلى المؤمنين باللام ؟ قلت لأنه قصد التصديق بالله الذي هو تقيض الكفر به فعدى بالباء وقصد السماع من المؤمنين وأن يسلم لهم ما يقولونه ويصدقه لكونهم صادقين عنده فعدى باللام ، ألا ترى إلى قوله د وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين ، ما اباه عن الباء ، ونحوه د فإمن لموسى إلا ذرية من قومه ، أنؤمن لك واتبعك الأرذلون ، آمنت له قبل أن آذن لكم ، (٣) .

ثم يقرر هذه القاعدة في قوله تعالى وآمنت له قبل أن آذن لكم ، فيقول باللام مع الإيمان في كتاب الله لغير الله تعالى كقوله ويؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ، (٤) . وأدانا الشرط أن وإذا يقرر الزمخشري فيما هذا المضي المشهور وهو أن

(١) الكشاف ج ٢ ص ٣٩٤ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٤٧٣ .

(٤) الكشاف ج ٢ ص ٦٠ .

و أن ، للشرط المشكوك فيه ، وإذا ، للشرط المتيقن ويجهتد الزمخشري ليبين هذه الدلالة وإصابتها للغرض والمقام ويفسر في ضوئها خصوصيات الكلمات في التركيب . يقول في قوله تعالى فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وأن تصيهم سيئة يطير وجموس ومن معه ، فإن قلت كيف قيل فإذا جاءتهم الحسنة باذا وتعريف الحسنة وأن تصيهم سيئة بأن وتنكير السيئة ؟ قلت لأن جنس الحسنة وقوعه كالواجب لسكوته وانسائه أما السيئة فلا تقع إلا في الندرة ولا يقع إلا شيء منها ومنة قول بعضهم قد حدثت أيام البلاء فهل حدثت أيام الرخاء (١) .

وقد يرمز الذكر الحكيم باستعمال « إن » ، إلى شيء مما كانت تحتويه الحياة العربية من أخلاق وعادات في شيء من اللوم والتعنيف ثم نجد الزمخشري يتأهبه إلى هذا وينبها إليه وهو لم يتجاوز شرح المعنى الأصلي للاداة ، يقول في قوله تعالى ، ولا تكرر هوا فتياتكم على البناء إن أردن تحصنا ، فإن قلت لم أنعم قوله أن أردنا تحصنا ؟ قلت لأن الإكراه لا يتأق إلا مع إرادة التحصن وأمر الطبيعة الموانية للبناء لا يسمى مكرها ولا أمره إكراها ، وكلمة إن وإيثارها على كلمة إذا إيدان بأن المساعيات كن يفعلن ذلك برغبة وطواهيته منهن (٢) .

وفي ضوء هذه الدلالة لأن « وإذا » يرفض أقوال بعض المفسرين للآية كما في قوله تعالى « وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا » . قال بدلنا أمثالهم في شدة الأسر يعني النشأة الأخرى وقيل معناه بدلنا غيرهم من يطيع وحقه أن يجيء « إن لا إذا » كقوله « وإن تقولوا يستبدل قوما غيركم ، أن يشأ يذهبكم » (٣) .

• • •

وفي ضوء هذه الدلالة يعيب الشعر وينقد الشعراء يقول وللجهل بموقع إن وإذا يزبغ كثير من الخاصة عن الصواب فيغلطون ، ألا ترى إلى عبد الرحمن بن حسان كيف أخطأ بهما الموقع في قوله يخاطب بعض الولاة ، وقد سأله حاجة فلم يقضها ثم شفع له فيها فمضاها .

ذمت ولم محمد وأدركت حاجتي قولي سواكم أجرها واصطناعها

(١) الكشاف ج ٢ ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) الكشاف ج ٣ ص ١٤٩ .

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٤٠ .

أبي لك كسب الحمد رأى مقصر
ورفس أحاق الله بالخير باعها
إذا هي حشته على الخير مرة
مصاماً وإن همم بشر أطاعها
فلو عكس لأصاب (١)

وقد تستعمل إن في الشرط المقطوع به وحينئذ تخرج عن دلالتها الأصلية والوعشى يكشف سر هذا الخروج ومفراه . يقول في قوله تعالى فإن لم تعملوا وإن تعملوا فإن قلت انتفاء إتيانهم بالسورة واجب فهل جازم . فإذا الذي للوجوب دون إن الذي للشك ؟ قلت فيه وجهان أحدهما أن يساق القول معهم على حسب حساباتهم وطعمهم . . والثاني أن يتهم بهم كما يقول الموصوف بالقوة الواثق من نفسه بالغبلة على من يقاويه إن غلبتك لم أبق عليك وهو يعلم أنه غالبه ويقينه (٢) . وظاهر أن الوجه الأول فيه بيان أن الأداة لم تخرج عن استعمالها الأصلي لأنها جاءت على وفق ما يعتقدون . أما الوجه الثاني فإنه بيان لسر استعمالها في غير موضعها لمعنى بلاغى هو التهمك بهم وبقدراتهم .

وقد يكون في هذه الطريقة معنى تأكيد الشرط وتقريره فضلاً عن أنه مقطوع به يقول في قوله تعالى : أفنضرب عنكم الذكر صفحاً إن كنتم قوماً مسرفين . ، فإن قلت كيف استقام معنى إن الشرطية وقد كانوا مسرفين على البت ؟ قلت هو من الشرط الذى ذكرت أنه يصدر عن المدل بصحة الأمر المتحقق لثبوته . كما يقول الأجير إن كنت عملت لك فوفنى حقى وهو عالم بذلك ، ولكنه يخيل في كلامه أن تفرطك في الخروج عن الحق فعل من له شك في الاستحقاق مع وضوح استعماله (٣) .

وقد كرر هذا المعنى في قوله تعالى : إنا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا أن كنا أول المؤمنين ، حيث يقول وقرىء إن أ كنا بالسكسر وهو من الشرط الذى يعنى به المدل بأمره المتحقق لصحته وهم كانوا متحققين أنهم أول المؤمنين ونظيره قول العامل إن يؤخر جمعه إن كنت عملت لك فوفنى حقى . ومنه قوله تعالى : إن

(١) بنية الأيضاح ج ١ ص ١٧٨ - ١٨٩

(٢) السكتاف ج ١ ص ٧٦ .

(٣) السكتاف ج ١ ص ١٨٦ .

كتم خرجتم جهاداً في سبيل وابتغاء مرضاتي ، مع علمه أنهم لم يخرجوا إلا لذلك (١) .

وقد تستعمل إن في الشرط المقطوع بدمه وبين الرعشى أيضاً سر استعمالها ويصدر في تفسيره لموقعها عن أصل واحد كما كان في بيان استعمالها في الشرط المقطوع به يقول في قوله تعالى ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، فقيل فإن آمنوا بكلمة الشك على سبيل الفرض والتقدير أي فإن حصلوا ديناً آخر مثل دينكم مساوياً له في الصحة والسداد فقد اهتدوا وفيه أن دينهم الذي هم عليه وكل دين سواء مغاير له غير مماثل لأنه حق وهدي وما سواه باطل وضلال ونحوه قولك للرجل الذي تشير عليه هذا هو الرأي الصواب فإن كان عندك رأي أصوب منه فأعمل به ، وقد علمت إلا أصوب من رأيك ولكنك تريد تبكيت صاحبك وتوقيفه على أن ما رأيت لا رأي وراه (٢) .

ويقول في قوله تعالى ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، . إن استطاعوا استبعاد لا استطاعتهم كقول الرجل لعدوه إن ظفرت بي فلا تبقي على ، وهو واثق بأنه لا يظفر به (٣) .

وواضح أن هذا البحث في هاتين الآيتين قد انتقل إلى كتب المتأخرين ولم يزيدوا شيئاً ذا شأن .

التعريف :

وله في التعريف بال واسم الموصول واسم الإشارة والإضافة ملاحظات بلاغية يلحها من دلالة هذه الطرق . وهذه الملاحظات البلاغية وأمثالها جزء هام في الدراسة البلاغية نعم قد يشوب هذا الدرس شيء من البحث النحوي ، ولكننا لا نرى ضيراً في هذا لأننا إذا أردنا أن نستشف ما وراء هذه الأدوات من المعاني فإنه من الضروري أن نطرق هذه الأصول النحوية ولكن لتجاوزها لا لتقف عندها .

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٤٧ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ١٤٦ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ١٤٩ .

ويتألف هذا الموضوع في موطن آخر في قوله تعالى «كل آمن بالله وملائكته»
قال واقرأ ابن عباس وكتابه يريد القرآن أو الجنس وعنه الكتاب أكثر من
الكتب فإن قلت كيف يكون الواحد أكثر من الجمع ؟ قلت لأنه إذا أريد
بالواحد الجنس والجنسية قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء فأما الجمع
فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من المجموع (١) .

ولست أرى فرقا بين هذين النصين فكلاهما يقرر أن الواحد إذا أريد به
الجنس صح أن يراد به آحاده أي الأفراد وأن الجمع إذا أريد به الجنس صح أن يراد
به آحاده أي المجموع لأن الجمعية في جنس الجنس لا في وحدانه . ولهذا أرفض
كلام سعد الدين حينما يقرر أن الرعشري أورد هذا توجيها للكلام ابن عباس
رضي الله عنه ولم يقصد أنه مذهبه (١) .

وذلك لأننا رأينا الرعشري يذكر نفس الفكرة في موطن آخر ليس فيه
كلام ابن عباس وقد تردد بهاء الدين السبكي في نسبة هذا الكلام لابن عباس وقال
ولو ثبت أمكن تأويله على المعنى الثالث ويكون معنى كونه أكثر أن دلالة هل
الاستغراق أقوى كما سبق ولا يمتنع أن يقال مال زيد أكثر من مال عمر إذا
كان مال زيد أجل وأبرك وإن استويا في الكلمة (٢) ، ويقصد بالمعنى الثالث
وبما سبق قوله لا شك أن قولنا استغراق المفرد أشمل تارة يعني به أن المفرد دل
هل فرد زائد لم يدل عليه الجمع ، وتارة يعني به أن مجموع جزئيات المفرد أكثر
هدداً من مجموع جزئيات الجمع ، وتارة يعني به أن دلالة المفرد على الشمول أقوى
من دلالة الجمع عليه (٣) .

وحمل كلام ابن عباس على هذا المعنى الثالث بعيد لأن كلمة أكثر تدل بمادتها على
الكثرة ولأنها في الكتاب والكتب غيرها في مال زيد وعمر كما ذكر إذ يتأتى
هناك معنى أجل وأبرك ولا يتأتى هنا . وتفسير كلام ابن عباس أحسن تفسير هو
مأذكرة الرعشري وهو مذهبه بدليل ذكره كما قلنا في آية أخرى . وقد اعتمد

(١) الكتاب ج ١ ص ٢٥٣ — ٢٥٤

(٢) المطول بنظر ص ٨٦

(٣) غرر النخب ج ١ ص ٢٥٠

على هذا في تفسيره لقوله تعالى «والمملك على أرجائها» حيث يقول فإن قلت ما الفرق بين قوله «والمملك» وبين أن يقال «والملائكة»؟ قلت الملك أهم من الملائكة ألا ترى أن قولك ما من ملك إلا وهو شاهد أهم من قولك من الملائكة (١) . ولا فرق بين قوله «والمملك أهم من الملائكة» وقول ابن عباس والكتاب أكثر من الكتب.

نعم قد ذكر الزمخشري دلالة الجمع المعرف على كل واحد من الأفراد لا من الجموع كما في قوله تعالى «والله يحب المحسنين» قال الزمخشري يجوز أن تكون الجففس فيتناول كل محسن ويدخل تحته هؤلاء المذكورين (٢) . وقال يقال فلان يركب الخيل ويلبس البرود وماله إلا فرس واحد وبرد فرد (٣) .

وقال سعد الدين إفادة الجمع المحلى باللام تطلق المحكم بكل فرد مما هو مقرر في علم الأصول والنحو وكلامه في الكشف أيضا مشعرون به حيث قال في قوله تعالى «والله يحب المحسنين» أنه جمع ليتناول كل محسن وفي قوله تعالى «وما الله يريد ظلما للعالمين» أنه نكر ظلما وجمع العالمين على معنى ما يريد شيئا من الظلم لأحد من خلقه، وفي قوله تعالى «ولا تكن للنعائنين خصيما» أي ولا تخاصم على خائن نط وفي قوله تعالى «رب العالمين» أنه جمع ليشمل كل جنس مما سمي بالعالم يعني لو أفرد لتوهم أنه إشارة إلى هذا العالم المحسوس المشاهد لجمع ليفيد الشمول والإحاطة (٤) .

وقال ابن يعقوب قد نص الأئمة على أن الجمع المحلى يعم المحكم فيه كل فرد وهو في ذلك أقوى من المفرد فإذا قيل إن أحب المسلمين إلا زيدا فالمراد كل فرد لا كل جمع وإلا قيل في الاستثناء إلا الجمع الفلاني، وليست دلالة في ذلك أضغف من قولنا إن أحب المسلم، وقد صرح بذلك النحويون وأهل اللغة وصرح به أئمة التفسير في كل ما وقع في القرآن العزيز من هذا القبيل نحو، أعلم فيب السموات والأرض، وعلم آدم الأسماء كلها، وإذ قلنا للملائكة، والله يحب المحسنين، وغير ذلك مما لا ينحصر (٥) .

(١) نفس المرجع

(٢) الكشف ج ٤ ص ٤٨٠

(٣) الكشف ج ١ ص ٣٢٠

(٤) الكشف ج ١ ص ٣٤٠

(٥) المطول ص ٨٦

وابن يعقوب وإن لم يصرح بأن دلالة الجمع المعلى باله على مفرداته مذهب
الزمخشري وغيره فإن ذكر أئمة اللغة والنحو والتفسير وذكر الآيات التي ذكرها
يدلنا على أنه فهم هذا من كلام الزمخشري كما فهمه من كلام غيره . والعلامة
سعد الدين يكرر هذه الفكرة ويشير إلى أنها مذهب الزمخشري وغيره فيقول
فالقول بأن الجمع يفيد تعلق الحكم بكل واحد من الأفراد مثبتا كان أو منقيا
ما قرره الأئمة وشهد به الاستعمال وصرح به صاحب الكشاف في غير موضع
ولا وجه لرفض جميع ذلك بكلام صدر عن صاحب المفتاح (١) .

فقد ثبت من كل ما ذكرنا أن الزمخشري يقرر دلالة الجمع المعلى باللام
على كل فرد من أفراده بل وقد يطلق ويراد به فرد واحد كما ذكر في البرود
والخيل وثبت أن الأئمة فهموا هذا من كلامه وقرروه وثبت أيضا أن الزمخشري
ذكر في آية الصالحات وفي رواية ابن عباس وفي آية الملك أن الجمع المعلى باللام
صالح لأن يتناول جميع الجنس وأن يتناول بعضه لا إلى الواحد منه وقد صرح
بهذا في غير لبس وفي غير غموض ، وبهذا نرى للزمخشري رأيين مختلفين في
مسألة واحدة اللهم إلا إذا لجأنا إلى التأويل وحمل كلامه على خلاف ظاهره وبما
نرجح به ما ذهبنا إليه أن سعد الدين لما لحظ اختلافا بين كلام الزمخشري في أكثر
الآيات وكلامه في توجيه ما روى عن ابن عباس قال هذا الكلام مبنى على
ما هو المعتمد عند البعض من أن الجمع المعروف باللام بمعنى كل جماعة أوردته
توجيها لكلام ابن عباس ولم يقصد أنه مذهبه بدليل أنه صرح بخلافه (٢) .

فالزمخشري صرح بخلاف ما ذكره توجيها لكلام ابن عباس وهذا صحيح
أما أنه ليس مذهبه فهذا ما لا نوافق عليه كما قلنا ، وقد لاحظنا أن الزمخشري
ذكر هذه الفكرة قبل تعرضه لحديث ابن عباس إذا صح ما نتوجه من أن
الزمخشري بدأ في تفسير الفاتحة ثم ما يليها من السور فقد ذكر الفكرة أولا
ووضعها في سورة البقرة في آية ٢٥ وذكر كلام ابن عباس في السورة نفسها
في آية ٢٨٥ هذا وقد كثرت إشارات الزمخشري إلى أن لام الجنس تفيد معنى

(١) شروح النخعيين ج ١ ص ٢٥٠

(٢) المطول ص ٤٦

السكّاء في الصفة يقول في قوله تعالى وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس، أي كما آمن السكّاءون في الإنسانية، أو جعل المؤمنون كأنهم الناس على الحقيقة ومن هدام كالبهايم في فقد التمييز بين الحق والباطل (١).

وقال في أولئك هم الكافرون أي السكّاءون (٢) في الكفر وفي قوله تعالى درما أولئك بالمؤمنين، أي بالسكّاءين في الإيمان (٣).

ويشير إلى معنيين هامين للتعريف باللام لا نجد صعوبة في أن ترجع بكلامه فهما إلى كلام عبد القاهر الجرجاني وقد نبه بعضهم إلى ذلك، يقول في قوله تعالى وأولئك هم المفلحون. والتعريف في المفلحون للدلالة على أن المتقين هم الناس الذين عنهم بلغك أنهم يفلحون في الآخرة، كما إذا بلغك أن لسانا قد تاب من أهل بلدك فاستخبرت من هو؟ فقبل زيد التائب أي هو الذي اخبرت بتوبته. أو هل أنهم الذين إن حصلت صفة المفلحين وتحققوا ما هم وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يمدون تلك الحقيقة، كما تقول لصاحبك هل عرفت الأسد وما جبل عليه من فرط الإقدام؟ إن زيدا هو هو. والوجه الأول مأخوذ من كلام الإمام عبد القاهر في حديثه عن الفرق بين زيد منطلق وزيد المنطلق حيث يقول: إذا قلت زيد المنطلق... فانت في حديث انطلاق قد كان وحرف السامع كونه إلا أنه لم يعلم أمن زيد كان أم من عمرو فاذا قلت زيد المنطلق أزلت عنه الشك وجماعته يقطع بأنه كان من زيد بعد أن كان يرى ذلك على سبيل الجواز (٤).

فالتعريف يشير إلى أن السامع قد عرف الحدث وبلغه أمره إلا أنه شك في الفاعل من هو فقبل له زيد المنطلق بتقديم الفاعل الذي يشك فيه والحكم عليه بالحدث المعرف وكلام الزمخشري لا يخرج عن هذا، لأن المخاطب قد بلغه أمر الحدث أي فلاح قوم والسكّاء لا يعرف صاحب هذا الوصف فقبل له إن المتقين هم المفلحون أي الذين بلغك أنهم يفلحون. والمعنى الثاني الذي أشار إليه الزمخشري في تعريف المفلحون مأخوذ من قول عبد القاهر، وأعلم أن الخبر المعرف بالالف

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٩

(٢) الكشاف ج ١ ص ٤٥١

(٣) الكشاف ج ١ ص ٤٩٤

(٤) دلائل الإعجاز ص ١٢٣

واللام معنى غير ما ذكرت لك وله مسلك ثم دقيق ولمحة كالحلس يكون المتأمل عنده كما يقال يعرف وينكر وذلك قولك هو البطل المحامي وهو المتق المرتجى وأنت لا تقصد شيئاً بما تقدم ... ولكنك تريد أن تقول لصاحبك هل سمعت بالبطل المحامي وهل حصلت معنى هذه الصفة وكيف ينبغي أن يكون الرجل حتى يستحق أن يقال ذلك له . وفيه فإن كنت قبلته عاماً وتصويره حق تصوره فعليك صاحبك واشدد به يدك فهو ضالتك وعنده بنيتك وطريقه كطريق قولك هل سمعت بالأسد وهل تعرف ما هو فإن كنت تعرفه فزيد هو بمعيته (١) .

ولست في حاجة إلى توضيح ما بين الكلامين من صلة فإن كلام الزمخشري لا يزيد عن أن يكون تلخيصاً لهذا الكلام وقد تنبه إلى هذا السيد الشريف في حاشيته (٢) .

هل أن من المتأخرين من ذهب إلى أن كلام الزمخشري يفيد دلالة ضمير الفصل على قصر المسند إليه واحتجوا لذلك بقوله فهم لا يعدون تلك الحقيقة وقد نقض سعد الدين هذا الفهم وبين صلة هذا الكلام بكلام عبد القاهر على ما ذكرنا (٣) .

وصلة الموصول يجب أن تكون معلومة عند المخاطب لأنها معرفة ولا يعرف بالجهول يقول في قوله تعالى فأتقوه النار التي وقودها الناس والحجارة . فإن قلت صلة الذي والى يجب أن تكون قصة معلومة للمخاطب فكيف علم أولئك أن نار الآخرة توقد بالناس والحجارة ؟ قلت لا يمتنع أن يتقدم لهم بذلك سماع من أهل الكتاب أو سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم أو سمعوا قبل هذه الآية قوله تعالى في سورة التحريم ناراً وقودها الناس والحجارة (٤) .

ويتناقش الزمخشري أسرار التعبير باسم الموصول مناقشة يتصل بعضها بهذه

(١) دلائل الإعجاز ص ١٢٠

(٢) حاشية السيد الشريف على هامش الكشاف - ج ١ ص ١١٤ . وحاشيته على المطول

ص ١٤٠ .

(٣) المطول ص ١٤٠ وينظر حاشية السيد أيضاً هامش المطول .

(٤) الكشاف ج ١ ص ٧٧ .

القاعدة أى ضرورة سبق العلم بالصلة وله في هذه المناشآت لمحات أدبية صافية يقول في قوله تعالى دقل لهم شهداء كم الذين يشهدون أن الله حرم هذا فان شهدوا فلا تشهد معهم ، فان قلت هلا قيل قل لهم شهداء يشهدون أن الله حرم هذا ؟ قلت المراد أنهم يحضرون شهداء هم الذين علم أنهم يشهدون لهم وينصرون قولهم ... وجيء بالذين للدلالة على أنهم شهداء معروفون موسومون بالشهادة لهم وبنصرة مذهبهم والدليل عليه قوله تعالى فان شهدوا فلا تشهد معهم . ولو قيل لهم شهداء يشهدون لكان معناها هاتوا اناسا يشهدون بتحريم ذلك ، فكان الظاهر طلب شهداء بالحق وذلك ليس بالفرض ويناقضه قوله تعالى فان شهدوا فلا تشهد معهم (١) .

وقد تكون في جملة الصلة من المعاني ما يحرص المتكلم على إبرازها وتوضيحها فيعدل إلى التحريف بالصلة دون غيرها . والزمخشري ينبه إلى هذا في قوله تعالى ومن الذين قالوا إنا نصارى ، يقول فان قلت فهلا قيل من النصارى اقلت لانهم سموا أنفسهم بذلك ادعاء لنصرة الله وهم الذين قالوا لعيسى نحن انصار الله ثم اختلفوا بعدد سطورية ويمقوية وملكانية انصاراً للشيطان (٢) .

فالصلة هنا تشير إلى ذم هؤلاء القوم بنقضهم ما الزموا به أنفسهم من نصرة دين الله لانهم هم الذين قالوا إنا نصارى .

ومن العناية بإبراز ما في الصلة من المعاني لانها ذات قيمة في سياق الكلام والمراد منه ما ذكره في قوله تعالى ولكن اعبدوا الذى يتوفاكم ، يقول الزمخشري وإنما وصفه بالتوفى ليريم أنه الحقيقى بأن يخاف ويتقى فيعبد دون ما لا يقدر على شيء (٣) .

ومن الموصولات ما ترجع روحته في التعبير إلى ما يكتف دلالته من الغموض ، والزمخشري يقف عند هذه الأسماء ويسجل ما وجدته في نفسه من

(١) الكشاف ج ٢ ص ٦١ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٤٧٩ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٢٩٣ .

آثارها يقول في قوله تعالى: «إِذْ يَغْشَى السُّدُورَ مَا يَغْشَى» . ما يغشى تعظيم وتكثير لما يغشاها فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وبجلاله أشياء لا يكتننها النعت ولا يحيط بها الوصف (١) .

وهذا الغروض قد يلح فيه الزمخشري معنيين متناقضين يقول في قوله تعالى: «وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا» وقوله ما في يمينك ولم يقل مصاك جائز أن يكون تصغيراً لها أي لا تبالي بكثرة حبالهم وعصيهم وألق العويد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك فإنه بقدرته الله يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمتها . وجائزاً أن يكون تعظيماً لها أي لا تحتفل بهذه الأجرام الكبيرة الكثيرة فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزروه عنده فآلقه يتلقفها باذن الله ويحفظها (٢) .

والعلامة ابن المنير يصيب حيناً يربط بين ما ذكره الزمخشري من معنى التصغير للمصا وبين مذهب العرب في سوق المعاني وتأكيدها وطريقهم في تحليلها وتفصيلها يقول ولأصحاب البلاغة طريق في غلو المدح بتعظيم جيش العدو المدحوح ليلزم من ذلك تعظيم جيش المدحوق وقد قهره واستولى عليه فصغر الله أمر المصا ليلزم منه تصغير كيد السحرة الداخض بها في طرفه حين (٣) .

وقد يعدل القرآن الكريم إلى كلمة ما دون من حين يتحدث عن العقلاء . والزمخشري يهاول كشف ما وراء هذا العدول مبيناً الدلالة الأدبية التي توحى بها معنى الوصفية في (ما) يقول في قوله تعالى: «وَالدُّرُومَ وَالْأَوْلَادَ» . فإن قلت هلا قيل ومن ولد ؟ قلت فيه ما في قوله والله أعلم بما وضعت أي بأى شيء وضعت يعني موضعها عجيب الشأن (٤) .

ويقول في قوله تعالى: «وَالسَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا» وما بناها والأرض وما أطعها ونفس وما سواها

(١) الكشاف ج ٤ ص ٣٣٥ .

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٥٨ .

(٣) حاشية ابن المنير على إمام الكشاف ج ٣ ص ٥٥ .

(٤) الكشاف ج ٤ ص ٦٠٢ .

والوجه أن تكون موصولة وإنما أوثرت على من، لإرادة معنى الوصفية كأنه قيل
والسما والقدار العظيم الذي بناها ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها
وفي كلامهم سبحانه ما سخر كن لنا (١) .

واسم الإشارة قد يفيد توكيد استحقاق المبتدأ للخبر وذلك إذا تقدمه تعديد
صفات للمبتدأ كل صفة منها ترشحه لاستحقاق هذا الخبر . وهذا المعنى واضح في
كتب المتأخرين بل قد أخذ بلفظه ومعناه من كتاب الكشاف .

يقول الزمخشري في قوله تعالى ، أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم
المفلحون ، . وفي إسم الإشارة الذي هو أولئك إيدان بأن ما يرد عليه
فالمذكورون قبله أهل لا كتسابه من أجل الخصال التي حددت لهم كما قال حاتم
ولله صلوك ثم عدد خصالا فاضلة ثم عقب تعديدها بقوله :

فذلك أن يهلك حسنى ثناؤه وإن عاش لم يقعد ضعيفاً مذمماً (٢) .

وقد يرمز إسم الإشارة إلى تصوير المعاني حتى تكون كأنها سرية فيشير
إليها وذلك في مواقف التأكيد والتقرير . يقول الزمخشري في قوله تعالى ، هذا
فراق بيني وبينك ، فإن قلت هذا إشارة إلى ماذا ؟ قلت قد تصور فراق بينهما
عند حلول ميعاده على ما قال موسى عليه السلام ، إن سألتك عن شيء بعدها
فلا تصاحبني ، فأشار إليه وجعله مبتدأ وأخبر عنه كما تقول هذا أخوك فلا
يكون هذا إشارة إلى غير الآخر (٣) .

وقد يشير إسم الإشارة إلى معنى التعظيم والتنويه سواء كان للقریب أم للبعيد
كما أنه قد يشير إلى معنى التحقير والتصغير . والسياق هو الذي يكشف عن هذه
الإشارات ويبرزها وله في هذا كلام جيد .

فن دلالة إسم الإشارة على التعظيم قوله تعالى ، إنما أمرت أن أعبد رب
هذه البلدة ، يقول الزمخشري وأشار إليها إشارة تعظيم وتقريب دالا على أنها

(١) الكشاف ج ٤ ص ٦٠٥ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٣٤ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٥٧٨ .

موطن نبيه ومهبط وحيه (١) .

ومنه ما ذكر في قوله تعالى ، فذلكم الذي لمتنى فيه ، ولم تقل فهذا وهو حاضر رفعا لمزله في الحسن واستحقاق أن يحب ويفتن به ، وربنا بحاله واسلبه ماداً لماله (٢) .

ومن دلالة إسم الإشارة على التحقير والإهانة ما ذكره في قوله تعالى ، ماذا أراد الله بهذا مثلا ، يقول استرذال واستحقار كما قالت عائشة رضی الله عنها في عبد الله بن عمرو بن العاص يا حبيبا لابن عمرو هذا (٣) .

والإضافة قد تفيد تعظيم المضاف وتفضيحه كما في قوله تعالى ، تلك آيات القرآن وكتاب مبين ، يقول الزمخشري وإضافة الآيات إلى القرآن والكتاب المبين هل سبيل التفضيح لها والتعظيم لأن المضاف إلى العظيم يعظم بالإضافة إليه (٤) .

وكافي قوله تعالى ، ناقة الله ، فإنها إنما أضيفت إلى إسم الله تعظيما وتفضيحا لشأنها وأنها جاءت من عنده لكونه من غير غل وطروقه آية من آياته (٥) .

وقد تفيد توبيخ المخاطب والاستهزاء به كما في قوله تعالى ، ثم يوم القيامة يخزيهم ويقول أين شركائ ، يقول شركائي على الإضافة إلى نفسه حكاية لإضافتهم ليؤيخهم بها على طريق الاستهزاء بهم (٦) . ومثله قوله تعالى ، ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم ، يقول وإضافة الشركاء إليه على زعمهم توبيخاً لهم (٧) .

وقد توحى الكلمة المضافة بما يوظف النفس والوجدان ، وينبذ الفطرة ويستثيرها ، ويلفتها إلى نفسها فتأني لأمر الله طوعا ، والزمخشري يتنبه إلى هذا بقوله في قوله تعالى لا تضار والدة بولدها .

(١) الكشاف ج ٣ ص ٣٠٦

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٣٦٤

(٣) الكشاف ج ١ ص ٨٨

(٤) الكشاف ج ٣ ص ٣٧٣

(٥) الكشاف ج ٢ ص ٥٩

(٦) الكشاف ج ٢ ص ٤٦٩

(٧) الكشاف ج ٢ ص ٥٦٨

فإن قلت كيف قيل بولدها ؟ قلت لما نهيت المرأة عن المضارة أضيف إليها الولد استعطافاً لها عليه وأنه ليس بأجنبي منها فن حقا أن تشفق عليه وكذلك الوالد (١) .

ويقول في قوله تعالى ، قال يا ابن أمي إن القوم استضعفوني . . وقيل كان أخاه لآبيه وأمه فإن صح فإنما أضافه إلى الأم إشارة إلى أنها من بطن واحدة وذلك ادعى إلى العطف والرحمة وأعظم للحق الواجب ولأنها كانت مؤمنة فاعتد بنفسها ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها (٢) .

وقد تفيد الإضافة معنى الاستحقاق أي ما يستحقه المضاف إليه من معنى المضاف وما يستوجبه ، وهذا المعنى في الإضافة له وقع الأدبي وقيمه البلاغية . والزمخشري ينبه إلى هذا في قوله تعالى ، إذا زلزلت الأرض زلزالها ، يقول فإن قلت ما معنى زلزالها بالإضافة ؟ قلت معناه زلزالها الذي تستوجبه في الحكمة ومشية الله وهو الزلزال الشديد الذي ليس بعده ، ونحوه فذلك أكرم التقى إكرامه ، وأهن الفاسق إهانته . تريد ما يستوجبانه من الإكرام والإهانة أو زلزالها كله وجميع ما هو ممكن (٣)

التشكيك :

وفي بحثه لمفردات النص يقف عند كثير من النكرات لبحث سر تشكيكها وما أفاده من معنى أدبي وباستقصائنا لتفسيره وتبعنا لكلماته نستطيع أن نشهد هنا المعاني الأساسية التي يدور حولها معاني التشكيك كما يتصورها الزمخشري أو كما يصورها تفسيره وسوف يتضح لنا أن هذه المعاني وأمثلتها كانت مادة أساسية في بلاغة المتأخرين وأنهم اعتمدوا عليه في هذا الأمر اعتقاداً كبيراً .

فالتشكيك قد يفيد معنى الإبهام والإبهام من عناصر الإثارة في الكلام . وقد كثر حديث الزمخشري عن الإبهام وأثره في النفس . وقد أشار إلى هذا في تأملاته لمعاني الموصولات كما أشرنا . يقول الزمخشري في قوله تعالى ، أولئك

(١) الكشاف ج ١ ص ٢١٣

(٢) الكشاف ج ٢ ص ١٢٤

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٦٢٤ وما بعدها

على هدى من ربه ، وبتكر هدى ليفيد ضرباً مبهماً لا يبلغ كنهه ولا يقادر قدره كأنه قيل على أي هدى ، كما تقول لو أبصرت فلاناً لأبصرت رجلاً وقول الهذلي :

فلا وأبي الطير المربة بالضحى على خالد لقد وقعت على لحم (١)

ويبلغ هذا المعنى ويصيب غاية الإصابة في قوله تعالى « اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً ، يقول أرضاً منكورة بجهولة بميدة عن العمران وهو معنى تنكيرها وإخلاتها من الوصف . ولإبهامها من هذا الوجه نصبت نصب الظروف المبهمة (٢)

وعبارة الزمخشري هنا مصورة لنفوس الأخوة وهم يتآمرون وذلك بلبسه معنى التنكير .

وكلمة بعض كلمة مبهمة في مدلولها ولهذا نجد لها وقماً في استعمالات القرآن وفي كلام الفحول والزمخشري يفتيه إلى هذا في قوله تعالى « فإن تولوا فاعلم إنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم ، يعني بذاب التولي من حكم الله وإرادة خلافه فوضع ببعض ذنوبهم موضع ذلك وأراد أن لهم ذنوباً جمة كثيرة العدد وأن هذا الذنب مع عظمه ببعضها . وواحد منها أو هذا الإبهام لتعظيم التولي واستمراره في ارتكابه ، ونحو البعض في هذا الكلام ما في قول لبيد أو يرتبط ببعض النفوس حمامها أراد نفسه وإنما قصد تفخيم شأنها بهذا الإبهام كأنه قال نفساً كبيرة ونفساً أي نفس فكان أن التنكير يعطى معنى التكثير وهو معنى البعض فكذلك إذا صرح بالبعض (٣) .

ويتكرر هذا في قوله تعالى « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ، يقول والظاهر أنه أراد عمداً صلى الله عليه وسلم لأنه هو الفضل عليهم .

(١) الكشاف ١٥٠ ص ٣٥

(٢) الكشاف ٧٥ ص ٣٤٨

(٣) الكشاف ١٥٠ ص ٤٩٨

نفس ما قدمت لقد ، ويبين أن تكبير العقدة وتكبير النفس لغرض التقليل (١) .
وقد يفيد التكبير معنى التكثير ، والمعشى يبين وجه هذه الدلالة وكيف
يكون التكبير وهو في الاصل دال على الوحدة مفيداً لمعنى التكثير . يقول في
قوله تعالى « هلئت نفس ما أحضرت » ، فإن قلت كل نفس تعلم ما أحضرت كقوله تعالى
« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً » ، لا نفس واحدة ، فما معنى قوله هلئت
نفس ؟ قلت هو من عكس كلامهم الذي يقصدون به الإفراط فيما يعكس عنه ومنه
قوله عز وجل « ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين » ومعناه كم وأبلغ منه قول
القاتل « قد أترك القرن مصفراً أنامله » وتقول لبعض قواد الصاكر كم عندك من
الفرسان فيقول رب فارس عندي ، أو لا تعدم عندي فارساً ، وعنده المقاب وقصده
بذلك التماهي في تكثير فرسانه وإمكانه أراد إظهار براءته من التزبد وأنه من
يقلل كثير ما حسده فضلاً أن يتزبد بجاء بالفظ التقليل ففهم منه معنى الكثرة على
الصحة واليقين (٢) .

ويكرر هذا في قوله تعالى « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب
الله » فيجوز أن يكون المراد بها بعض الأنفس وهي نفس الكافر أو أن يراد بها
نفس متميزة بلجاج في الكفر أو أن يراد التكثير كما قال الأصبغ :
ورب بقيق لو هنتت بحوه أنا في كريم ينفض الرأس منضبا
وهو يريد أفواجاً من الكرام ينصرونه لا كريماً واحداً ، ونظيره رب بلد
قطعت ورب بطل قارعت وقد اختاس العلمنة ولا يقصد إلا التكثير (٣) .
وقد يفيد التكبير معنى قلة الالتفات وأن المنكر أمر تائه يغفل الناس عنه ولا
يلتفتون إليه يقول في قوله تعالى « هل ندلكم على رجل ينبشكم إذا مزقتم كل عرق
لأنكم لئن خلق جديد ، يقول فإن قلت كان رسول الله ﷺ مشهوراً علماً في قريش
وكان أنباءه بالبعث شامعاً عندهم فما معنى قوله « هل ندلكم على رجل ينبشكم » ،
فذكروه لهم وعرضوا عليهم الدلالة عليه كما يدل على مجهول في أمر مجهول ، قلت

(١) ينظر الكشاف ج ٣ ص ٤٨ ، ج ٤ ص ٤٠٦ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٤٦٦ - ٤٦٧ .

(٣) الكشاف ج ٤ ص ١٠٥ .

كانوا يقصدون بذلك العنز والسخرية فأخرجوه عن التحلي ببعض الاحاجي التي
يتحاجي بها الضحك والتلبي متجاهلين به وبأمره (١) .

ولم تكن دراسة التشكير مقصورة على بيان المعاني البلاغية التي تفيدها الكلمة
النكرة في النص ، وإنما كانت له وقفات يشير فيها إلى حسن الكلمة وإصابتها في
موقعها . وقد رأينا إشاراتنا في هذا فيما قدمنا من النصوص ومن أحسنها ما قاله
في قوله تعالى ، وإنما على ذهاب به لقادرون ، يقول من أوقع النكرات وأحوها
للفصل والمعنى على وجه من وجوه الذهاب وطريق من طرقه وفيه إيدان بأقذاره
وأنه لا يتغنى عليه شيء إذا أراده وهو أبلغ في الإيعاد من قوله دقل أرايم إن
أصبح ماؤكم غورا فن يأتكم بما معين ، (٢) .

وقد ذهب أحد المشتغلين بالدراسات البلاغية من المعاصرين إلى رأى في التشكير
خالف فيه البلاغيين ، يقول صاحب هذا الرأى .

وقفت طويلا عند الإسم النكرة أتبين ما قد يدل عليه التشكير من معنى
و درست ما ذكر العلماء من معان قالوا إن هذا التشكير يفيدها ، وبداءى من هذا
التأمل الطويل أن النكرة يراد بها واحد من أفراد الجنس ويؤق بها عندما لا يراد
تعيين هذا الفرد كقوله سبحانه وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى ، وقال ياموسى
إن الملائم يأمرون بك ليقتلوك فأخرج إلى لك من الناصحين . فليس المراد هنا تعيين
الرجل ، ولكن يراد هنا أن يصل إلى موسى نبا الإتيار عليه بالقتل .

والنكرة بعدئذ تفيد معناها مطلقاً من كل قيد ، أما ما يذكره علماء البلاغة
من معان استفيدت من النكرة فإنها لم تفيدها بطبيعتها وإنما استفادت من المقام
الذى وردت فيه ، فكأنما المقام هو الذى يصف النكرة ويحدد معناها (٣) .

ثم أخذ يسوق أمثلة ويشرحها في ضوء فكرته هذه ، وقبل أن تناقش أمثله
يلزمنا أن نقف قليلاً عندما ذهب إليه عما أمبناه ، فقوله أنه بداله من التأمل الطويل
أن النكرة يراد بها واحد من أفراد الجنس ويؤق بها عندما لا يراد تعيين هذا الفرد

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٥٠ .

(٢) الكشاف ج ٣ ص ١٤١ .

(٣) من بلاغة القرآن للأستاذ المرحوم أحمد بدوي ص ١٢٨ .

كلام ذكره النحاة والبلاغيون ولستكنهم ذكروا أيضاً أنها تدل على الجنس فهي صالحة عندم للدلالة على الجنس أو على واحد من أفراده كقولك جاءني رجل لا رجلاًن فهي هنا دالة على الواحد وكقولك جاءني رجل لا امرأة فهي هنا دالة على الجنس . وقد كثر كلام عبد القاهر في بيان دلالتها على الجنس وهو يفرق بين قولنا أجهك رجل وأرجل جهك وأن الأول يكون حين تريد أن تسأله هل كان يجيء من أحد من الرجال إليه والثاني يكون حين تريد أن تسأله عن جنس من جهاه أرجل هو أم امرأة . وقد ذكر الفرق الدقيق بين دلالة النكرة على الجنس ودلالة المعرف بأل على الجنس فقال واعلم أنا لم نرد بما قلناه من أنه إنما حسن الابتداء بالنكرة في قولهم شر أهر ذا ناب لأنه أريد به الجنس إن معنى شر والشر سواء وإنما أردنا أن الغرض من الكلام أن نبين أن الذي أهر ذا الناب هو من جنس الشر لا من جنس الخير ، كما أنا إذا قلنا في قولهم أرجل أهلك أم امرأة أن السؤال عن الجنس لم نرد بذلك أنه بمنزلة أن يقال الرجل أم المرأة أناك؟ ولكننا نعني أن المعنى على أنك سألت عن الآتي أهر من جنس الرجال أم من جنس النساء (١) .

فكان التعريف يدل على عموم الجنس بخلاف النكرة فإنها لا تدل على عموم الجنس وإنما هي وليبان جنس المذكور يقول عبد القاهر ، فالنكرة إذن على أصلها من كونها لواحد من الجنس إلا أن القصد منك لم يقع إلى كونه واحداً وإنما وقع إلى كونه من جنس الرجال وعكس هذا أنك إذا قلت أرجل أهلك أم رجلاًن كان القصد منك إلى كونه واحداً دون رجلاًن فاعرف ذلك أصلاً وهو أنه قد يكون في اللفظ دليل على أمرين ثم يقع القصد إلى أحدهما دون الآخر فيصير ذلك الآخر بأن لم يدخل في القصد كأنه لم يدخل في دلالة اللفظ (٢) .

فالذي ذكره العلامة رحمه الله فيه إهمال لأحد جزئي دلالة النكرة أعني دلالتها على الجنس لا على فرد من أفراده .

وقد ذكر البلاغيون أيضاً أن النكرة لا تتجاوز هذا المعنى الأصلي في كل موضع تكون فيه إلى معنى بلاغي وإنما ترى هذا في القليل دون الكثير .

(١) دلائل الإعجاز ص ٩٥ .

(٢) المرجع السابق .

وما ذكره الأستاذ المرحوم ينطبق على حال من أحوال استعمال النكرة دون أن يشمل كل أحوال استعمالها كما قلنا . والآية التي ذكرها لا يراد فيها بالنكرة أكثر من هذا المعنى المشار إليه أى واحد من جنس الرجال ، وهذا الاستعمال لا يقف هذه البلاغيون ليقولوا شيئاً في معنى تنكيره ، أما أن النكرة تفيد معناها مطلقاً من كل قيد في كل المقامات والأحوال فهذا ما لا نوافق الأستاذ المرحوم عليه وهو ما تأباه طبيعة الأساليب ويرفضه ذوقها .

وأما أن هذه المعاني لم تفدها النكرة بطبيعتها فإن البلاغيين لا يقولون خلاف هذا لأنها لو كانت تفيدها بطبيعتها ما تخلفت عنها ، ولكنهم يقولون مع هذا إن هذه المعاني تكن في النكرة والسياق هو الذى يخرجها ويكشفها ، والاعتداد على السياق وحده في إفادة هذه المعاني كما ذهب الأستاذ إلغاء لقيمة أحوال اللفظ وعلاقتها بالسياق ، ومن الواضح أن السياق له خطرة في الكشف عن خصائص الألفاظ والتراكيب وأنه كما يحدد معنى التنكير ويصفه كذلك يحدد معنى التعريف ويصفه ويحدد المراد من الذكر والمراد من الحذف والمراد من التقديم والمراد من الاستفهام بل والمراد من التشبيه وأبواب المجاز فإذا رأى العلامة إلغاء دلالة التنكير فعليه أن يلغى دلالة التعريف وباقي الخصوصيات البلاغية .

ويذكر المرحوم فيما ذكر من الأدلة قوله تعالى فأذنوا بحرب من الله ورسوله ويقول فكلمة حرب منكرة لا تدل على أكثر من حقيقتها وإذا كان ثمة تعظيم لهذه الحرب فنشؤه وصفها بأنها من الله ورسوله وأن حرباً يثيرها الله جدية أن تبعث في النفس أشد ألوان الفزع والرهب (١) .

وإذا كانت كلمة حرب لا تدل على أكثر من حقيقتها وأن التعظيم غير مفاد من التنكير وإنما هو مفاد من السياق ووصفها بأنها من الله ورسوله فهل يبقى هذا المعنى إذا زال التنكير وبقي السياق والوصف أعنى هل يفيد قولنا فأذنوا بحرب الله أو بالحرب من الله ورسوله ما تفيد الآية ولم يحدث أكثر من ذهاب التنكير؟ . ويقول الأستاذ دل المقام على تعظيم الإسم المشكر في قوله تعالى وجاء السحرة فرعون قالوا إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين، ذلك إنهم يطلبون مكافأة على عمل

منهم يقومون به هو إبطال دهوة موسى والإبقاء على دين طرمون أولاً يكون
مواكب ذلك حظياً يناسبه ؟ فهلا يرى الأستاذ أن المقام صالح للدلالة على التعظيم
لو ذهب التنكير الذى لا يدل إلا على مطلق معناه ؟

والواقع أن البلاغيين كانوا فى هذا المقام أكثر فهماً وأنفذ إدراكاً لخصائص
التنكير بما ظن بهم الأستاذ ، وكان كشفهم عن مغزى التنكير ووجه يقوم فى الغالب
على الموازنة بين أسلوب التنكير وبين ما يمكن أن يكون عليه الكلام بعد ذهاب
خصوصية التنكير وبقاء السياق ثم يلحظون ذهاب معنى كبير من الكلمة بذهاب
التنكير ، والسياق باق والمقام هو ومن ذلك فى تفسير الكشاف تلك الموازنة بين
القراءة المشهورة وقراءة أبى فى قوله تعالى ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ،
يقول الزمخشري ولذلك كانت القراءة بها أى بكلمة حياة منكراً أوقع من قراءة
أبى على الحياة ، وقوله ولذلك أى ولأن التنكير يفيد حياة مخصوصة أى حياة
مطاوله (١) .

الفصل الرابع

البحث في نظم الجملة

الوصف	التعجب	التقديم
الحذف	الكلام المنصف	الاستفهام
الذكر	النفي	الأمر
التوكيد	القصر	النهى
النظر في المعنى	المطف	النداء
	البدل	القسم

www.alkottob.com

الفصل الرابع

البحث في نظم الجملة

أريد في هذا الفصل أن أدرس ما ذكره الوجيه في نظم الجملة مما يتصل ببلاغتها وحسنها سواء كان هذا معالجة لإعراب أو تفسيراً لتركيب أو بحثاً في أسرار نظم، لذلك سوف أنظم في هذا الفصل حديثه في التقديم والتأخير، وحديثه في الاستفهام، وصور النفي، وصور التوكيد ودواعيه بالنسبة للمتكلم والمخاطب، وأساليب الأمر، والنهي، والقسم، والقصر، والنداء، ومواطن الحذف والذكر، وأسرار الأعراب البلاغية، في الصفات، والبدل، والبيان، وما سماه القول المنصف، والدلالات الجائبة للجملة، والنظر في المعنى والتذوق الأدبي لبناء الجملة.

ومن الخير أن نشير إلى أن دراسة الجملة قد استغفدت جهداً كبيراً من علماء النحو والبلاغة وقد امتزجت الدراسات النحوية بمسائل بلاغية كما قامت الدراسات البلاغية في كثير من الحالات على دراسات نحوية بصيرة واعية. لذلك كان من الصعب على من يتصدى لدراسة الجملة دراسة أدبية بلاغية أن يفصل بحثه عن الدراسة النحوية أو يحدد بين اللونين تحديداً كاملاً وتاماً.

والوجيه وهو نحوي بصير بالنحو وفنونه قامت دراسته البلاغية للجملة على أسس نحوية وسوف يتضح لنا هذا المزج الذي بين الفكرة النحوية والروح الجمالية في دراسته للجملة.

وبدأ بدراسته للتقديم:

انسمت نظرة الوجيه في دراسة التقديم تفرجت عن دائرة الجملة وشملت تقديم جملة على جملة وترتيب الجمل، ولكنني رأيت أن أضرب هذه النظرة المقسمة في دراسة هذا اللون إلى إخوانها من نظرائه الأخرى التي جعلت لها فصلاً عاماً

بالبحث في الجمل . لذلك سأتناول في بحث التقديم هنا ما يتعلق بالجملة ، وليس هـمى في هذه الدراسة أن استخلص القواعد والاحكام فإن هذا إفساد لهذا البحث وقتل لروحه الفنية ، وإنما هـمى أن أعرض روح البحث البلاغى ، أهنى روحه الأدبية التى تمنى بالتعليق على كل صورة وتحليل كل مثال فى ضوء سياقه تحليلاً لا يفتنى عنه غيره ولا يختصر فى قاعدة لذلك سوف أذكر كثيراً من النصوص والشواهد حتى أستطيع أن أضع الأعين على بلاغته .

وبحث التقديم يهمله لوران :

١ - التقديم بين جزئى الجملة .

٢ - التقديم فى المتعلقات .

والتقديم بين جزئى الجملة يشمل تقديم الخبر على المبتدأ سواء كان مفرداً أو جاراً ومجروراً أو ظرفاً ، كما يشمل تقديم المبتدأ على الخبر سواء كان هذا الخبر فعلاً أو اسماً .

وقد يبدو إطلاق التقديم على هذا النوع غريباً لأن المبتدأ حينما يتقدم على خبره يكون قد وافق الأصل وما جاء على الأصل لا يسأل عن علته ، والزحشرى نفسه صاحب تلك العبارة المشهورة التى تقرر أنه إنما يقال مقدم ومؤخر للزال لا للقار . وكأنه بها يخالف عبد القاهر مخالفة صريحة لأن عبد القاهر قسم التقديم إلى قسمين : قسم يكون فيه المقدم باقياً على حكمه قبل التقديم كقولك زيداً ضربت وقسم يزول حكمه ويصير له حكم آخر كأن تعتمد إلى هذا المثال فترفع زيدا على الابتداء وتعمل الفعل فى ضميره وتقول زيد ضربته ، إلا أن الزحشرى أطلق التقديم على القار كما أطلقه على المزال . وقد أحسن حينما خاف هذا التحديد الضيق لمفهوم التقديم والذى يجعله خاصاً بالمزال لا بالقار فقد رجع بهذه المخالفة إلى طريقة عبد القاهر لأن البلاغة تبحت أسرار وقوع الكلمات فى مواقعها ما جاء منها على الأصل وما جاء على خلافه لأنها يمكن أن تقول لم جاء هذا الأسلوب على الأصل وكان يمكن فيه المخالفة ؟ فالسكوت عن السؤال عن علة ما جاء على الأصل أمر لا يطمئن إليه الدارس المتشوق إلى معرفة أسرار اللغة ، ولعل الزحشرى حين قال عبارته السابقة التى خالف مفهومها فى تفسيره كان متأثراً بالمسكرة النحوية أكثر مما هو متأثر بالروح البلاغية .

أما تقديم الخبر وهو جار ومجرور فقد أبان الزمخشري عن الغرض منه في مواطن متعددة فذكر دلالة على الاختصاص .

يقول في قوله تعالى ذلك حشر علينا يسير ، تقديم الظرف يدل على الاختصاص ؛ يعنى لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذى لا يشغله شأن عن شأن ، كما قال تعالى وما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة (١) .
ويقول في قوله تعالى إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم . فإن قلت مامضى تقديم الظرف ؟ قلت معناه التشديد في الوعيد وأن إيابهم ليس إلا إلى الجبار المقتدر على الانتقام ، وإن حسابهم ليس بواجب إلا عليه وهو الذى يحاسب على النقيير والقطمير ومعنى الوجوب ، الوجوب في الحكمة (٢) .

ودلالة تقديم الخبر الظرف على الاختصاص يذكرها أيضاً في قوله تعالى له الملك وله الحمد (٣) وفي قوله تعالى ولله غيب السموات والأرض (٤) وفي مواطن أخرى كثيرة . ويؤكد هذا المعنى في قوله تعالى وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة ، ولأجل ضرورة دلالة التقديم هنا على الاختصاص اتجه إلى صرف النظر إلى معنى الانتظار والترقب لأنه لو كان بمعنى الرؤية للزم عليه أن هذه الوجوه لا تنظر إلى ربها كما هو مقتضى التقديم ، والواقع إن هذه الوجوه تنظر يوم القيامة إلى أشياء كثيرة لأن أصحابها آمنون ، وهم نظارة ذلك اليوم (٥) .

ويقول في قوله تعالى ولا ريب فيه ، فإن قلت فهلا قدم الظرف على الرؤية كما قدم على القول في قوله تعالى ولا فيها غول ، ؟ قلت لأن القصد في إيلاء الريب حرف النفي الريب منه وإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب كما كان المشركون يدعون ولو أولى الظرف لقصد إلى ما يبعد عن المراد ، وهو أن كتاباً آخر فيه ريب لافيه كما قصد في قوله ولا فيها غول ، تفضيل خمر الجنة على الدنيا بأنها لا تقتال

-
- (١) الكشاف ج ٤ ص ٣١٢ .
 - (٢) الكشاف ج ٤ ص ٥٩٥ .
 - (٣) الكشاف ج ٤ ص ٤٣٦ .
 - (٤) الكشاف ج ٣ ص ٤٥٦ .
 - (٥) ينظر الكشاف ج ٤ ص .

القول كما تتأطا هي كانه قيل ليس فيها ماني غير هامن هذا العيب والنقيصة (١) .
وهذا الكلام صريح في لزوم الاختصاص لهذا النوع من التقديم وإن كان
هناك فرق بين هذا المثال وبين ما سبقه لأن هنا التقديم في التثني وهناك
في الإثبات .

وقد رفض أبو حيان مذهب الزمخشري في دلالة التقديم على الاختصاص
وناقشه في هذه الآية نفسها . وقال بعد ما لخص كلامه فيها (وقد انتقل الزمخشري
من دعوى الاختصاص بتقديم المفعول إلى دعواه بتقديم الخبر ولا نعلم أحداً
يفرق بين ليس في الدار رجل وليس رجل في الدار وعلى ما ذكر من أن نحر الجنة
لا يقتال وقد وصفت العرب بذلك نحر الدنيا قال عافمة بن عبده :

تسنى الصداق ولا يؤذيك طالبا ولا يخاطها في الرأي تدويم (٢)

ولم يكن أبو حيان على حق حينما رفض كلام الزمخشري في هذه الآية وحينما
ادعى التسوية بين قولنا ليس في الدار رجل وليس رجل في الدار وقوله لا نعلم
أحداً يفرق بين قولنا . . . الخ ليس كلاماً دقيقاً لأن أئمة هذا الفن قد فرقوا بين
تقديم الشيء وتأخيره . وقد قال عبد القاهر إذا ثبت أن هناك معنى للتقديم في
مثال فيجب أن يثبت هذا المعنى للتقديم في كل مثال . وإذا كنا قد رأينا أن
كلام الزمخشري يدل صراحة على لزوم التقديم من هذا النوع للاختصاص فإن
الزمخشري يرى أن السياق له أثره الأكبر في تحديد هذه الدلالة، ذلك تراه بسكت
عن الاختصاص في سياق آخر لا يجد له فيه معنى . يقول في قوله تعالى واهلوا
أن فيكم رسول الله، فإن قلت ما فائدة تقديم خبر إن على إسما ؟ قلت القصد إلى
توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأي رسول الله ﷺ
لأرائهم فوجب تقديمه لانهصاب الغرض إليه (٣) .

فإن معنى الاختصاص هنا لا يستقيم إلا بشيء من التأويل ولذلك لم تكن

(١) الكشاف - ١ ص ٢٧ .

(٢) البحر المحيط - ١ ص ٣٧ .

(٣) الكشاف - ٤ ص ٢٨٧ .

عبارة الزمخشري مشهورة به واكتفى ببيان أن الخبر هو المقصود الأهم ، فوجب تقديمه . لذلك أميل حين أقرر رأيه في هذا الموضوع إلى القول بأنه يرى دلالة التقديم على الاختصاص غالباً وهذا هو رأى الجمهور الذى صاغه الخطيب في قوله والتخصيص لازم للتقديم غالباً وقد قال العصام أن عبارة الخطيب هذه فيها حرازة لأنه لا معنى لكلمة اللزوم مادام الأمر مبنيًا على الغالب (١) .

والاختصاص فيما أثبتناه من كلامه يعنى قصر المسند إليه على المسند وهذا هو المشهور في دلالة قولنا تميمى أنا ، وقد لحظ العلامة سعد الدين في شرحه للكشاف أن كلام الزمخشري يشعر أحياناً أن التقدم يفيد قصر المسند على المسند إليه كافي قوله تعالى ولها ما كسبت ، ولكم ما كسبتم ، قال الزمخشري والمعنى أن أحداً لا ينفعه كسب غيره يشعر بأن في لها ما كسبت ولكم ما كسبتم قصر المسند على المسند إليه أى لها كسبها لا كسب غيرها ولكم كسبكم لا كسب غيركم ، وهذا كما قيل في لكم دينكم أى لا ديني ، ولديني ، أى لا دينكم ، وقال فيه أيضاً في تفسير قوله تعالى ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، أى لنا أعمالنا لا أعمالكم وبالعكس أو لنا أعمالنا لا لكم وبالعكس (٢) .

وقد رجع البلاغيون بهذا إلى السياق وقالوا : وذلك يتوقف على أن استفادة القصر بقسميه من نفس التقديم لا من المقام يبين المقصود منها كما في المشترك (٣) . وقد لحظ الزمخشري أن بعض التراكيب يصير فيها المسند مستنداً إليه أو بعبارة أوضح يصير فيها ما حقه أن يكون مستنداً مستنداً إليه ، ثم يناقش التركيب ويبين سر هذا العدول .

يقول في قوله تعالى إن خير من استأجرت القوى الأمين . . . هذا كلام جامع لا يزداد عليه . . . فإن قلت كيف جعل خير من استأجرت إسمًا لأن والقوى الأمين خبراً ؟ قلت هو مثل قوله :

ألا أن خير الناس حياً ومالكا أسير ثقيف عندهم في السلاسل

(١) ينظر تقرير الإنباي ج ٢ ص ٢٧

(٢) تقرير الإنباي ج ٢ ص ١٢٩

(٣) المرجع السابق (١٥٢ - البلاغة التراثية)

في أن العناية هي سبب التقديم (١) .

وينظر الزمخشري في تركيب الجملة فيرى أن حملها على وجه نحوى أولى من غيره لفائدة بلاغية فيقول عليه وإن كان خلاف المشهور بين النحاة تفضيلاً للوجه الذى هو أخصب معنى وأوفر دلالة ، يقول فى قوله ، أراغب أنت عن الحق يا إبراهيم ، لأنه كان أهم عنده وهو عنده أعنى وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبته عن آلهته وأن آلهته ما يذنبى أن يرغب عنها أحد (٢) . واعتبار راغب خبراً وأنت مبتدأ لا يرضى عنه ابن مالك وأبو البقاء وغيرهم لأنه يترتب عليه إما الفصل بين العامل ومعموله (أى راغب وعن آلهتى) بأجنبي وهو المبتدأ ، وأما الحاجة إلى تقدير عامل وهو خلاف الأصل ، وقد قالوا فى توجيهه ما ذهب إليه الزمخشري إن المبتدأ ليس أجنبياً من كل وجه ولا سيما والمفصول ظرف متوسع فيه والمقدم فى نية التأخير ، والبليغ يلتفت لفت المعنى بعد أن كان لما يرتكبه وجه مساغ ، وهذا الأسلوب قريب من ترجيح الاستحسان على القياس لقوة أثره ، وأن زيادة الإنكار إنما تنشأ من تقديم الخبر كأنه قيل أراغب أنت عنها لا طالب لها راغب فيها منبها له على الخطأ فى ذلك ، ولو قيل أترغب لم يكن من هذا الباب فى شيء فتدبر (٣) .

وتوجيه النحاة لما ذهب إليه الزمخشري إدراك للروح الادبى التى تأثر بها توجيهاته الإهرابية .

أما تقديم المسند إليه ، فإن الكلام فيه يشمل تقديم الإسم على الفعل وتقديم الإسم على المشتق ، أما تقديم الإسم على الفعل فقد أشار إليه فى مواطن كثيرة منها قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث ، قال وأيقاع اسم الله مبتدأ وبناء نزل عليه فيه تفخيم لأحسن الحديث وتأكيد لاستناده إلى الله وأنه من عنده وأن مثله لا يحوز أن يصدر إلا عنه (٤) .

والتقديم هنا لا يفيد الاختصاص حسب وإنما يفيد تلك المعانى التى أشار

(٢) الكتاب ج ٢ ص ١٥

(٤) الكتاب ج ٤ ص ٩٥ .

(١) للكشاف ج ٣ ص ٣١٢

(٣) جامع الصحاح ج ٦ ص ١٢٣

إليها من التفخيم والتأكيد ، ويقول في قوله ، تعالى ومن أهل المدينة مردوا على
الذئباق لا تعلمهم نحن نعلمهم ، أى يخفون عليك مع فطنتك وشهامتك وصدق
فراستك لفرط تنوهم في تحاشي ما يشكك في أمرهم . ثم قال سبحانه ، نحن
نعلمهم ، أى لا يعلمهم إلا الله ولا يطالع على سرهم غيره (١) . فالتقديم هنا دال على
الاختصاص وقد يكون الاختصاص مفهوماً من النقي والإثبات الصريحين في قوله
لا تعلمهم نحن نعلمهم .

ويقول في قوله تعالى ، إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلاً ، إنا نحن نكبر
الضمير بمد إيقاعه إسمياً لأن تأكيد على تأكيد معنى اختصاص الله بالتنزيل ليقرر
في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيلاً على
أى وجه نزل إلا حكمة وصواباً كأنه ما نزل عليك القرآن تنزيلاً مفرقاً منجماً إلا
أنا لا غيرى وقد عرفتنى حكماً فاعلا لكل ما أفعله بدواعى الحكمة (٢) .

وقد قال مثل ذلك في قوله تعالى هو ، أنشأكم من الأرض (٣) ، وفي قوله تعالى
والله يبسط الرزق (٤) ، وفي قوله تعالى ، هم ينشرون (٥) ، . وفي قوله تعالى ، ألم
يعلموا أن الله هو يقبل التوبة (٦) .

وإذا كان كلامه في هذه الآيات صريحاً في دلالة هذا النوع من التقديم على
الاختصاص فلا شك أن السياق هنا أيضاً هو الذى حدد هذه الدلالة وأن خصوصية
المادة في كل منها دالة على الاختصاص على أن الزمخشري قد ذكر دلالة هذا
النوع على الاختصاص في قوله تعالى ، قل لو أنتم تملكون ، بمد ما قدر ما يقتضيه
الإعراب والإسم في الحقيقة ليس مقدماً على الفعل لأنه فاعل فعل محذوف والكلام
في الحقيقة لا تقديم فيه ، يقول الزمخشري في هذا : لو سلمنا أن تدخل على الأفعال دون
الأسماء فلا بد من فعل بعدها في لو أنتم تملكون ، وتقديره لو تملكون تملكون
فأضمر تملك أضمراً على شريطة التفسير وأبدل من الضمير المتصل الذى هو الواو
ضمير منفصل وهو أنتم لسقوط ما يتصل به من اللفظ ، فأنتم فاعل الفعل المضمر

(١) الكشاف ج ٤ ص ٢٩

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٤١١

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٤٤٦

(١) الكشاف ج ١ ص ٥٤٠

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٢١٨

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٨٦

وتملكون تفسيره ، وهذا هو الوجه الذي يقتضيه علم الإعراب ، فأما ما يقتضيه علم البيان فهو إن أتم تملكون فيه دلالة على الاختصاص وأن الناس هم المختصون بالشرح المتبالغ ، ونحوه قول حاتم لو ذات سوار لطمتى . وقول المتلس لو غير أخوال أراءدوا نقيصتى ، وذلك لأن الفعل الأول لما سقط لأجل المفسر برز الكلام في صورة المبتدأ والخبر (١) ،

وهذا الكلام صريح في أن التركيب إذا كان في صورة المبتدأ والخبر أفاد الاختصاص مادام الخبر فعلاً وإن كان تقدير الكلام يخالف هذه الصورة ، وهذه مغالاة من صاحبنا في هذه الدلالة لأننا نرى أن هذا التركيب لا يفيد الاختصاص وأن المعنى الذي ذكره للاختصاص غريب على هذا النص لأن التقديم هنا بين أتم وتملكون ففقتضى الاختصاص . أن يكون اختصاص الناس بالملك ويكون المعنى لو لم يملك خزائن الله إلا أتم لكان كذا ، أما الشرح المتبالغ — فذلك واقع في جواب لو وليس في جملة الاختصاص وقد تنبه إلى هذا ونبه إليه تقي الدين السبكي في عروس الأفراح ، وقد أشار الشهاب الخفاجي إلى شيء من هذا في قوله وقد قيل عليه إنه وإن كان في صورة المبتدأ والخبر لكنه إنما يفيد لو كان معنى كذلك ، حتى يقدر فيه التقديم والتأخير المفيد لما ذكر ، وهذا فاعل لفعل مقدر فكما لا يفيد ذلك إذا ذكر لا يفيد بعد حذفه . وأجيب عنه بأن أتم بعينه ضمير تملكون المؤخر فهو في المعنى فاعل مقدم وتقديم الفاعل المعنوي يفيد الاختصاص إذا ناسب المقام (٢) .

وهذا الجواب الذي ذكره الشهاب فيه اعتراف بالاعتراض وتسليم به وانحراف في الجواب لأن كلام الزمخشري لا يفهم منه أن أتم فاعل ضمير تملكون المؤخر . على أن الزمخشري يذهب في كثير من الصور إلى أن التقديم فيها يفيد التقوية والتوكيد ويسكت عن الاختصاص ، يقول في قوله تعالى والمطلقات يتربصن بأنفسهن ، وبنائوه على المبتدأ ممازاده أيضاً فضل تأكيد ، ولو قيل ويتربصن المطلقات لم يكن بتلك الوكادة (٣) ويقول سعد الدين في شرحه للكشاف

(١) الكشاف ج ٢

(٢) حاشية الشهاب ج ٦ ص ٦٤

(٣) الكشاف ج ١ ص ٢٠٥ ، ٦٤

في قوله « ولا هم ينصرون »، قوله « ولا ينصروهم » أحد إشارة إلى أن التقديم في « ولا هم ينصرون » ليس للحصر بل للتقوى ورعاية الفاعلة (١).

وتقديم المبتدأ على الخبر المشتق يتضح رأى الزمخشري في إفادته للتخصيص من قوله في آية « وما أنت علينا بعزيز » حيث يقول أي لا نمر علينا ولا تكرم حتى نكرمك من القتل ونرفعك عن الرجم وإنما يعز علينا وهلك لأنهم أهل ديننا لم يختاروك علينا ولم يقبعوك دوننا وقد دل إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام واقع في الفاعل لافي الفعل كأنه قيل وما أنت علينا بعزيز بل وهلك هم الأهزة علينا ولذلك قال في جوابهم « وأرسلنا أعز عليكم من الله » ولو قيل وما هزرت علينا لم يصح هذا الجواب (٢). وقد نص هنا على أهمية النفي في إفادة التركيب للاختصاص وكأنا ناظر إلى كلام عبد القاهر في هذا الموضوع. وإذا كان هذا التركيب يفيد الاختصاص فأننا نلاحظ إفادته التقوى فقط آية أخرى حيث يقول في قوله تعالى « وما هم بخارجين من النار » هم بمنزلة في قولهم هم يفرشون اللبد كل طمرة في دلالة على قوة أمرهم فيما أسند إليهم لا على الاختصاص (٣).

وقد شمر به السبكي في هذه الآية ولم يكن على حق في كل ما قاله ، يقول السبكي أن ما ذكره الزمخشري في قوله تعالى « وما هم بخارجين من النار » فيه دسيسة اهتزالية لأنه لو جعل للاختصاص لزمه تخصيص عدم الخروج من النار بالكفار فيلزم خروج أصحاب الكبائر كما هو مذهب أهل السنة ، والزمخشري أكثر الناس أخذاً بالاختصاص في مثله فإذا عارضه الاعتزال فزع منه (٤).

ولا تنكر أن الزمخشري يصرف دلالة هذا التركيب عن الاختصاص تشيماً لعقيدته وإنما تنكر أنه من أكثر الناس أخذاً بالاختصاص في مثله فالزمخشري يصرف دلالة هذا التركيب عن الاختصاص في آية أخرى لا تمس الجانب الاعتزالي

(١) شرح سعد الدين للـكشاف ورقة ٨١ غلط .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٣٣١ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٩٥٩ .

(٤) حاشية القراء ج ١ ص ٣٠٨ .

حيث يقول في قوله تعالى ، ومن الناس من يقول آمنا بالله واليوم الآخر وما هم بمؤمنين ، فإن قلت كيف طابق قوله وما هم بمؤمنين قولهم آمنا بالله والاول في ذكر شأن الفعل لا الفاعل ، والثاني في ذكر شأن الفاعل لا الفعل ؟ قلت القصد الى إنكار ما ادعوه ونعيه فسلك في ذلك طريقا أدى الى الغرض المطلوب وفيه من التوكيد والمبالغة ما ليس في غيره وهو إخراج ذواتهم من أن تكون طائفة من طوائف المؤمنين لما علم من حالهم المنافية لحال الداخلين في الإيمان وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة فقد انطوى تحت الشهادة عليهم بذلك نفى ما انتحلوا لإيمانه لأنفسهم على سبيل البت والقطع ونحوه قوله تعالى يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ، هو أبلغ من قولك يخرجون منها (١) . وقد لحظ الشباب الحفاجي أن ربط الزمخشري بين الصورتين يدل دلالة قاطعة على أن هذه الصورة لا تفيد الاختصاص ، ونسب هذا أيضا إلى الفاضلين في شرح الكشاف ورد كثيرا من التفسير التي ذهبت بكلام الزمخشري مذهب الاختصاص .

على أن وجه دلالة هذا التركيب على التأكيد قد استنفدت جهدا كبيرا من الشراح وأقحموها في باب الكناية الإيمانية وكان قول الزمخشري ، وإذا شهد عليهم بأنهم في أنفسهم على هذه الصفة فقد انطوى إلى آخره موطننا خصبا للحديث في دلالة اللازم والملزوم . وقد أفاض سعد الدين في هذا المجال وذكر مسألة هو مشغوف بها وهي نفى التأكيد وتأكيده النفي وفي كل هذا ملاحظات ذهنية فذة ، إلا أننا لا نجد لها صلة بالبحث البلاغي (٢) .

والمهم أن الزمخشري لم يأخذ بالاختصاص في هذه الآية مع عدم صلتها بأمور النحلة ولم يأخذ كذلك به في قوله تعالى ، وما أنت عليهم بجبار (٣) .
وفي قوله تعالى ، وما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون (٤) ، فلا وجه لما ذهب إليه السبكي رحمه الله .

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٢ .

(٢) ينظر حاشية الشباب ج ٤ ص ٣٠٨ .

(٣) ينظر الكشاف ج ٤ ص ٣٣١ .

(٤) ينظر الكشاف ج ٤ ص ٣٧٨ .

والزمخشري يلاحظ أن موقع الكلمة قد يتغير في آيتين فيقدم المتأخر
ثم يؤخر المتقدم ثم يقف ليتأمل ويستكشف السر وراء هذا العدول مستعينا
بسياق الآية والغرض منها ومستعينا بخبرته بشئون النفس وأحوال الناس . يقول
في قوله تعالى : الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذوا
بهما رافة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة
من المؤمنين الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة .

فإن قلت كيف قدمت الزانية على الزاني أولاً ثم قدمه عليها ثانياً ؟ قلت سبقت
تلك الآية لعقوبتهما على ما جئنا والمرأة هي المادة التي منها نشأت الجنابة لأنها
لو لم تطمع الرجل . ولم تومض له ولم تمسكه لم يطمح ولم يتمكن . قلنا كانت
أصلاً وأولاً في ذلك بدىء بذكرها . وأما الثانية فسوقة لذكر النكاح والرجل
أصل فيه لأنه هو الراغب والمخاطب ومنه يبدأ الطلب (١) .

وأما التقديم في المتعلقات فإن الكلام فيها ينقسم قسمين :

الأول تقديم المتعلقات على العامل . والثاني تقديم بعض المتعلقات على بعض
والزمخشري يبين فائدة تقديم المعمول على العامل ويشرح ما تتضمنه من معنى
الاختصاص في مواطن كثيرة منهما قوله في آية : وعلامات وبالنجم هم يهتدون .
فإن قلت قوله وبالنجم هم يهتدون خرج عن سنن الخطاب مقدم فيه النجم مقدم
فيه هم كأنه قيل وبالنجم خصوصاً هؤلاء خصوصاً يهتدون فن المراد ؟ قلت
كأنه أراد قريشاً كان لهم اهتداء بالنجوم في مسائرهم . وكان لهم بذلك علم لم يكن
لغيرهم . فكان الشكر أوجب عليهم والاعتبار الزم لهم خصوصاً (٢) .

ويقول في قوله تعالى : ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا . فإن
قلت فأى فائدة في تقديم الظروف حتى أوقع فصلاً ؟ قلت الفائدة فيه بيان أنه كان
الواجب عليهم أن يتفادوا أول ما سمعوا بالإفك عن التكلم به . فلما كان ذكر الوقت
أم وجب التقديم (٣) .

ويذكر دلالة هذا التقديم على الاختصاص في قوله تعالى وأنه على رجمه

(١) الكشاف ج ٣ ص ١٦٧ - ١٦٨

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٤٦٦ .

(٣) الكشاف ج ٣ ص ١٧٢ .

لقادر (١). وفي قوله تعالى « فبهذا هم اقتده » (٢) وفي قوله تعالى « وما رؤيتناهم
ينفقون » (٣) وفي قوله تعالى « ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً
فاسلكوه » (٤).

وليس المحصر عند محصوراً للحدث في الشيء دون كل ما عداه وإنما هو محصر له
في شيء ، دون ما يظن إثباته له أي هو محصر إضافي لا حقيقي ، هو محصر للحدث
في الأهم وما عداه كغير الملتفت إليه ولذلك تراه يقول بالمحصر في قوله تعالى « وأخرجنا
منها حباً فنه يا كلون ، وفي قوله تعالى « والآنعام خلقتها لكم فيها دافع ومنافع ومنها
تأكلون ، فالأكل محصور في الحب لأنه هو الشيء الذي يتعاق به معظم العيش ويقوم
بالارتزاق منه صلاح الألس ، وإذا قل جاء القحط ووقع الضر وإذا فقد جاء الهلاك
ونزل البلاء (٥) والأكل محصور في الآنعام ، لأن الأكل منها هو الأصل الذي
يعتمد عليه الناس في معاشهم ، وأما الأكل من غيرها من الدجاج والبط وصيد
البر والبحر فكغير المعتمد به وكالجاري مجرى التفكة (٦) . ويشير إلى أن القصر في
هذه الآية يحتمل أن يكون قصراً حقيقياً على معنى ، أن طعمتكم منها لأنكم تموتون
بالبحر فالحب والثار التي تأكلونها منها وتكتسبون بإكراء الإبل وتبيعون نتاجها
والبانها وجلودها (٦) .

ويلاحظ الزحشرى أن القرآن قد يخالف السنن العربي الفصيح لسر بلاغى حين
يقدم الظرف الذى هو لغو ، ويجهتد في بيان هذا السر ، يقول في قوله تعالى « ولم يكن له
كفوراً أحد ، فان قلت الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذى هو لغو غير
مستقر ولا يقدم ، وقد نص سيديويه على ذلك في كتابه فإباله مقدماً في أفصح كلام
وأهر به ؟ قلت هذا الكلام إنما سبق لنى المكافأة عن ذات البارى سبحانه ، وهذا
اللفظ مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أم شيء وأحقه بالتقديم
وأحراره (٥) .

وقد يقدم المتعاق في آية ويؤخر في أخرى ، وفي هذا تظهر براعة الزحشرى

(٧) ينظر الكشاف ج ٢ ص ٣٤
(٨) ينظر الكشاف ج ٣ ص ٤٨٤ .
(٦) الكشاف ج ٢ ص ٤٦٢
(٨) الكشاف ج ٤ ص ٦٥٤

(١) ينظر الكشاف ج ٤ ص ٥٨٧
(٣) ينظر الكشاف ج ١ ص ٣٢
(٥) الكشاف ج ٤ ص ١٢
(٧) ليس المرجع .

في بيان ما يقتضيه كل مقام، وكيف طابق كل بناء مقتضاه يقول في قوله تعالى «لنكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً»، فإن قلت لم أخرت صلة الشهادة أولاً وقدمت آخرها؟ قلت لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم، وفي الآخر اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم (١).

ويقول في قوله تعالى «وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه»، فإن قلت لم أخرت الصلة في قوله وهو أهون عليه وقدمت في قوله هو على هين؟ قلت هناك قصد الاختصاص وهو محزه فقيل هو على هين وإن كان مستصعباً عندكم أن يولد بين هرم وعافر، وأما ههنا فلا معنى للاختصاص كيف والأمر مبني على ما يعقلون من أن الإعادة أسهل من الابتداء فلو قدمت الصلة لتغير المعنى (٢).

وقد أصاب ابن المنير حين علق على هذا بقوله كلام نفيس يستحق أن يكتب بذوب التبر لا بالخبر (٣). وفي تقدير العامل المحذوف يشير في بعض المواضع إلى وجوب تقديره متأخراً ليفيد معنى التخصيص يقول في قوله تعالى «ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون»، فإن قلت بم يتعلق ليحق الحق؟ قلت بمحذوف تقديره ليحق الحق ويبطل الباطل فعل ذلك ما فعله إلا لهما وهو إثبات الإسلام وإظهاره وإبطال الكفر ومحقه... ويجب أن يقدر المحذوف متأخراً حتى يفيد معنى الاختصاص فينطبق عليه المعنى (٤) ويذكر مثله في قوله تعالى «بسم الله الرحمن الرحيم» (٥). وقد بسكت عن دلالة تقديم المفعول على الاختصاص ويكتفى بذكر الأهمية كما في قوله «أفغير دين الله يبغون»، يقول فيها وقدم المفعول الذي هو غير دين الله على فعله لأنه أم من حيث أن الإنكار الذي هو معنى الهزيمة متوجه إلى المعبود بالباطل (٦).

وقد رفض أبو حيان دلالة تقديم المفعول على الاختصاص كما يقول الزمخشري واحتج بحجج وأهية. يقول أبو حيان والتقديم على العامل عنده - يعني الزمخشري - يوجب الاختصاص وليس كما زعم، قال سيبويه وقد تكلم على

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٤٧٥

(٤) الكشاف ج ٢ ص ٩٥٠

(٥) الكشاف ج ١ ص ٩٩١

(١) الكشاف ج ١ ص ١٤٩

(٢) حاشية ابن المنير في المرحم السابق.

(٣) الكشاف ج ١ ص ٣

ضربت زيداً مانصه وإذا قدمت الإسم فهو عربي جيد كما كان ذلك يعنى تأخيره
عربياً جيداً وذلك قولك زيداً ضربت والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير
سواء مثله في ضرب زيد عمراً وضرب زيداً عمرو (١) .

وعاد أبو حيان إلى مناقشة الزمخشري في قوله تعالى إياك نعبد قال والزمخشري
يزعم أنه لا يقدم على العامل إلا للتخصيص فكأنه قال ما نعبد إلا إياك وقد تقدم
الرد عليه في تقديره باسم الله أتلو وذكرنا نص سيبويه هناك فالتقديم عندنا إنما
هو للاعتناء والاهتمام بالمفعول وسب أعرابي آخر فأعرض عنه وقال إياك أعنى
فقال له وعنتك أعرض فقدم الأهم (٢) .

والهجة التي أقامها أبو حيان لرفض كلام الزمخشري حجة مرفوضة وذلك
لأنه لا يحتاج برأى على رأى على أننا لا نرى في كلام سيبويه ما يعارض كلام
الزمخشري لأن سيبويه يشهد العناية والاهتمام لدلالة صورة التقديم وهذه العناية
لا تعنى أن الصورة لا تفيد التخصيص لأنه لا منافاة بينهما ، ومن المقرر عندنا أن
النكات لا تتزاحم ، وليس في كلام سيبويه ما يرفض دلالة الاختصاص كما أنه
ليس في كلام الزمخشري ما يرفض دلالة العناية والاهتمام . أما حكاية الأعرابي
فإننا نفهم منها دلالة التخصيص . فقد قال لصاحبه لما رآه منصرفاً عنه رغم تعمدته
إياه بالسب إياك أعنى أى لا أقصد بهذا الشتم سواك فكيف تعرض؟ وقول صاحبه له
وعنتك أعرض أى أعرض عنك خصوصاً وقول أبي حيان والتقديم عنده يوجب
الاختصاص ليس كلاماً دقيقاً لأن التقديم عنده يفيد الاختصاص ولا يوجبه
والذلك تراه يسكت عن الاختصاص في بعض الآيات كما رأينا في آية وأفغير دين
الله يبقون ، وكما قال في قوله تعالى وأغير الله أتخذولياً (٣) وفي قوله تعالى أفغير الله
أمروني أعبد ، فإنه جعل التقديم في كل هذا الأهمية وسكت عن دلالة الاختصاص
لأن المراد إنكار أن يكون غير الله بمثابة أن يتخذولياً وأن يكون غير دين الله
بمثابة أن يقصد ويطلب وأن يكون غير الله كذلك أهلاً لأن يعبد . وكان التقديم
ليتوجه الإنكار إلى المقدم فيفيد ما ذكرنا ولنا دراسة في باب الاستفهام سوف
نبين فيها تعدد دلالات التقديم في باب الاستفهام .

(٢) نفس المرجع ص ٢٤

(١) البحر المحیط ج ١ ص ١

(٢) السكف ج ٢ ص ٢

أما تقديم بعض المعمولات على بعض فإننا حين نتابع مواعدها في الكشف
نلاحظ أن - الزمخشري أدار حديثه فيها على أصول .

منها مراعاة أحوال النفس في نسق الكلام وترتيبه فالقرآن حين يهيب
بالنفس الإنسانية أن تعطي حق الله والناس إنما يواجهها بما يظن أنها تنصرف
عنه ويورده في النسق مقدماً على ما اطمانت النفس إلى بذله يقول في قوله تعالى
ومن بعد وصية يوصون بها أو دين . . فإن قلت لم قدمت الوصية على الدين .
والدين مقدم عليها في الشريعة ؟ قلت لما كانت الوصية مشبهة للميراث في كونها
مأخوذة من غير عوض كان إخراجها بما يشق على الورثة ويتعاطفهم ولا تطيب
أنفسهم بها كان آداؤها مظنة للتفريط بخلاف الدين فإن نفوسهم مطمئنة إلى آدائه
فلذلك قدمت على الدين بعضاً على وجوبها والمساورة إلى إخراجها مع الدين ولذلك
جاء بكلمة أو للتسوية بينهما في الوجوب . (١)

وفي مقام دفع النفس إلى محاربة شهواتها وبجاهدة شرورها يقدم في نبيه
ما يمكن أن يكون سبباً للخطيئة ومؤدياً لإيها ، يقول في قوله تعالى وقل للؤمنات
يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ، فإن قلت لم قدم غض الأبصار على
حفظ الفروج ؟ قلت لأن النظر بريد الزنى ورائد الفجور ، والبلى فيه أشد
وأكثر (٢) .

وحينما يصف القرآن أحوال يوم القيامة وشغل كل امرئ بنفسه وفراره
من أهله يقول سبحانه . يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه ،
وفي هذا الترتيب يلاحظ الزمخشري أحوال إحساس النفس بالهول وتدرجها في هذه
الأحوال وفرارها من أصناف الأهل على وفق مراتب شعورها بالهول يقول
وبداً بالأخ ثم بالابوين لأنهما أقرب منه ثم بالصاحبة والبنين لأنهم أقرب
منه وأحب كآله قال يفر من أخيه بل من أبويه بل من صاحبته وبنيه (٣) .

(١) الكشف ج ١ ص ٢٧٣

(٢) الكشف ج ٣ ص ١٨١

(٣) الكشف ج ٤ ص ٢٦٣

ونجد ترتيباً يقرب من عكس هذا الترتيب في آية أخرى ، ونجد الزمخشري يفسره تفسيراً وجدانياً ويبين مواقع الكلمات على وفق منازلتها في النفس يقول في قوله تعالى : قل تعالوا ندع أبناءنا وأبنائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسكم ، وخص الأبناء والنساء لأنهم أحر الأهل والصقوم بالقلوب وربما فداهم الرجل بنفسه وحارب دونهم حتى يقتل ، ومن ثم كانوا يسوقون مع أنفسهم القطعائن لتنتهم من الحرب ويسعون الزادة منهم بأرواحهم حماة الحقائق وقدمهم في الذكر على الأنفس لينبه على لطيف مكانهم وقرب منزلتهم وليؤذن بأنهم مقدمون على الأنفس مقدرون بها (١) .

ومنها تقديم الأفضل يقول في قوله تعالى وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ، . فإن قلت لم قدم رسول الله ﷺ على نوح فمن بعده؟ قلت هذا العطف لبيان فضيلة الأنبياء الذين هم مشاهيرهم وذرايرهم فلما كان محمد ﷺ أفضل هؤلاء المفضلين قدم عليهم لبيان أنه أفضاهم ، ولولا ذلك لقدم من قدمه زمانه فإن قلت فقد قدم عليه نوح عليه السلام في الآية التي هي أخت هذه الآية وهي قوله تعالى وشرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك ، ثم قدم على غيره؟ قلت مورد هذه الآية على طريقة خلاف طريقة تلك ، وذلك أن الله تعالى إنما أوردتها لوصف دين الإسلام بالأصالة والاستقامة - فكانه قال شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم وبعث عليه محمد خاتم الأنبياء في العهد الحديث وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء المشاهير (٢) .

ولاهتمامه بتقديم الأفضل يبعث سر تأخيره في بعض الصور مبيناً كيف غالب القرآن هذا الأصل الهام في التقديم ، يقول في قوله تعالى وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ، فإن قلت لم قدمت الأرض على السماء بخلاف قوله تعالى في سورة سبأ وهام الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ،؟ قلت حق السماء أن تقدم على الأرض ، ولكنه لما ذكر شهادته

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٨٣ .

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٤١٥ .

على شئون أهل الأرض وأحوالهم وأعمالهم ووصل بذلك لا يعزب عنه لام ذلك أن قدم الأرض على السماء (١) .

ومنها أهمية المقدم بالنسبة للغرض المسوق له الكلام . يقول في قوله تعالى ، خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً . وقدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين يديه . فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض المسوق له الآية أم (٢) .

ومنه قوله تعالى ولحكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون يقول فإن قلت لم قدمت الإراحة على التسريح ؟ قلت لأن الجمال في الإراحة أظهر . إذا أقبلت ملائ البطون حافلة الضروع ثم آورت إلى المظائر حاضرة لأهلها (٣) . وعلى هذا الأساس أى تقديم الأهم بالنسبة للغرض المسوق له الكلام يفسر جملتين مختلفتا في تركيب الكلمات ويربط أهمية كل مقدم بسياقه يقول في قوله تعالى ، لقد وعدنا هذا نحن وآباؤنا من قبل ، فإن قلت قدم في هذه الآية هذا على نحن وآباؤنا وفي آية أخرى قدم نحن وآباؤنا على هذا ؟ قلت التقديم دليل على أن المقدم هو الغرض المعتمد بالذكر وأن الكلام إنما سبق لأجله . ففي إحدى الآيتين دل على أن اتخاذ البعث هو الذى تعمد بالكلام . وفي الأخرى على أن اتخاذ المبعوث بذلك الصدد (٤) .

ومنها أى ومن الأصول التى اعتبرها الزمخشري فى التقديم ودار حولها درسه - تقديم الأدخل فى الوصف المسوق له الكلام كما فى قوله تعالى ، لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ، يقول الزمخشري وصف الله شدة شكيمه اليهود وصعوبة إجابتهم إلى الحق ولين عريكة النصارى وسهولة أروعائهم وميلهم إلى الإسلام ، وجعل اليهود فرقاء المشركين فى شدة العداوة للذومنين بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا ، وكذلك فعل فى قوله ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا (٥) ، فإنه لما كان

(١) الكشاف: ج ٢ ص ٢٧٨

(٢) الكشاف: ج ٤ ص ٤٦١

(٣) الكشاف: ج ١ ص ٤٦٢

(٤) الكشاف: ج ٣ ص ٢٩٩

(٥) الكشاف: ج ١ ص ٥٤٠

اليهود أدخل في وصف العداوة قدمهم القرآن وكذلك في الحرص على الحياة .
ومنها تقديم الأخرى في الوصف كما في قوله تعالى « وسخرنا مع داود الجبال
يسبحن والطير » يقول الزمخشري فإن قلت لم قدمت الجبال على الطير ؟ قلت لأن
تسخيرها وتسبيحها أعجب وأدل على القدرة وأدخل في الإعجاز لأنها جماد
والطير حيوان إلا أنه خير ناطق (١) .

ومن تقديم الأخرى في الصفة ما أشار إليه في قوله تعالى « إن الذين آمنوا
والذين هادوا والصابغون والنصارى من آمن منهم بالله واليوم الآخر » . يقول
الزمخشري فإن قلت ما التقديم والتأخير إلا لفائدة ، فما فائدة هذا التقديم ؟ قلت
فائدته التفضيل على أن الصابغين يتاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح
فما الظن بغيرهم وذلك أن الصابغين أبين هؤلاء - المعدودين ضلالا وأشدهم غيا
وما سموا صابغين إلا لأنهم صبغوا عن الأديان كلها أي خرجوا ، كما أن الشاعر
قد قدم قوله وأنتم - يعني قوله :

وإلا فاعلوا أنا وأنتم بغاة ما بقينا في شقاق

منبأ على أن المخاطبين أوغل في الوصف بالبغاة من قومه حيث عاجل بهم
قبيل الخبر الذي هو البغاة لئلا يدخل قومه في البغى قبلهم مع كونهم أوغل فيه
منهم وأثبت قداما فإن قلت فلو قيل والصابغين وإياكم لكان التقديم حاصلًا ؟ قلت
لو قيل هذا لم يكن من التقديم في شيء لأنه لا إزالة فيه عن موضعه وإنما يقال
مقدم ومؤخر للزال لا للقرار في مكانه (٢) . ومنها مراعاة ما ينبغي أن يكون
عليه حال المؤمن في الضراعة والتوسل .

يقول في قوله تعالى « ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا
والدعاء بالاستغفار منها مقدم على تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة
على العدو ليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاة وطهارة وخضوع وأقرب إلى
الاستجابة (٣) .

(١) الكشاف ج ٣ ص ١٠١

(٢) الكشاف ج ١ ص ٥١٥

(٣) الكشاف ج ١ ص ٢٢٢

وعمما ما يؤديه التقديم فى بعض الصور من تقوية المعنى وتوكيده . وذلك
لخصوصية فى المقدم كما فى قوله تعالى فلا تحسبن الله يخلف وعده رسله ، يقول
الزمخشري فإن قلت هلا قيل يخلف رسله وعده ولم قدم المفعول الثانى على الاول؟
قلت قدم الوعد ليعلم أنه لا يخلف الوعد أصلا كقوله أن الله لا يخلف الميعاد ثم
قال رسله ليؤذن أنه إذا لم يخلف وعده أحداً وليس من شأنه إخلاف المواعد
كيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته (١) .

وبعد هذه المحاولات الجادة والمثمرة التى بذلها الزمخشري لكشف أسرار
التقديم فى نطاق الجملة والتى حاول فيها أن يجد لكل صورة معنى يشير إليه
التقديم نجلده موقفاً جريئاً فى هذا الباب يخالف فيه الإمام عبد القاهر مخالفة
واضحة. ذلك أنه يرى أن التقديم لا يجب أن يكون لمعنى فى كل صورة وهذا قول
جريء وخصوصاً بالنسبة للجملة القرآنية التى أودعها الله من أسرار البلاغة
ما أعجز الإنسان فى كل عصوره . يقول الزمخشري فى قوله تعالى تلك آيات
القرآن وكتاب مبين، فإن قلت ما الفرق بين هذا وبين قوله الرنك آيات الكتاب
وقرآن مبين، ا قلت لا فرق بينهما إلا ما فى المعطوف عليه من التقديم والتأخر
وذلك على ضربين ضرب جار مجرى التثنية لا يرجع فيه جانب على جانب
وضرب فيه ترجيح ، فالأول نحو قوله تعالى درقولوا حطة وادخلوا الباب سجداً
ومنه ما نحن بصدده، والثانى نحو قوله تعالى شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة
وألوا العلم ، (٢) .

ومثل هذا ما قاله فى المقارنة بين قوله تعالى وما يعزب عن ربك من مثقال
ذرة فى الأرض ولا فى السماء وقوله تعالى وما يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض وما
رجع بعد ما ذكر وجهها حسناً أشرنا إليه سابقاً فقال على أن المعطوف بالواو حكمه
حكم التثنية (٣) .

وقد روى فى قوله تعالى ، فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٧٣

(١) الكشاف ج ٢ ص ٤٤٠

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٢٧٨

مشقال ذرة شرايره ، حكاية الاعرابى الذى آخر (خيراً يره) فقيل له قدمت
وأخرت فقال :

خذنا بطن هرشى أو قفاها فإنه كلا جانبي هرشى لمن طريق
ولم يعلق عليها . وقد نظرت في بيان وجه التقديم في هذه الآيات ولستنى
لم أعتد إلى شيء . أطمئن إليه في الترتيب بين السكتاب وقرآن مبين وإن كنت أتق
أن هناك سرا محجبا لم يرني الله إياه ولم أستطع أن أقول في آية وقولوا حطة
أكثر من أن التقديم للاهتمام فلما كان القول أم قدم على الدخول أما آية الزلزلة
فإنى أرى لها وجها مانعها أن الآيات السابقة تصف أهوال هذا اليوم ، وهى
أهوال تنخلع لها قلوب المؤمنين ، وقد يادر القرآن بذكر من يعمل مشقال ذرة
خيراً يره لتطمئن القلوب المؤمنة وسط هذه المفزعات .

وقد حام العلامة الطبرى قديماً حول هذا الرأى الذى ذكره الزمخشرى وقال
في جواب سؤال أورده في قوله تعالى : « إياك نعبد وإياك نستعين » حيث إن
النظر يقتضى تقديم طلب المعونة على العبادة لأن العبادة تكون بها قال الطبرى
(لما كان معلوماً أن العبادة لا سبيل للعبد إليها إلا بمعونة من الله جل ثناؤه
وكان محالاً أن يكون العبد هابداً إلا وهو على العبادة معان وأن يكون معاناً
عليها إلا وهو فاعل كان سواء تقديم ما قدم منها على صاحبه كما سواء قولك للرجل
إذا قضى حاجتك فأحسن إليك في فضائها قضيت حاجتى فأحسنيت إلى ، فقدمت
ذكر قضاء حاجتك إذ قلت أحسنيت إلى فقضيت حاجتى فقدمت ذكر الإحسان
على ذكر قضاء الحاجة ، لأنه لا يكون قاضياً حاجتك إلا وهو إليك محسن
ولا محسناً إلا وهو لحاجتك قاض ، فكذلك سواء قول القائل اللهم إياك نعبد
فأهنا على عبادتك وقوله اللهم أعنا على عبادتك فإننا إياك نعبد (١) .

وكان الطبرى وهو يرى التقديم والتأخير هنا سواء يحد شيئاً في نفسه بمنه من
التصريح بأن تقديم إحدى الجملتين على الأخرى كتأخيرها عنها ولهذا مثل بالإحسان
وقضاء الحاجة ويقول القائل اللهم إنا إياك نعبد . . إلى آخره لأن قداسة النص
القرآنى لا تسمح للمسلم أن يقول أكثر من هذا .

الاستفهام :

وبالتتابع المستقصى لحديثه في الاستفهام نستطيع أن نقول أن البحث فيه يتفرع إلى فروع ثلاثة : الأول التقديم في الاستفهام أو بناء الجملة مع أدوات الاستفهام ، الثاني دراسة المعاني التي تفيدها جملة الاستفهام ، الثالث : دراسة جواب الاستفهام وبيان موافقته أو مخالفته للسؤال وما وراء المخالفة من أسرار .

أما التقديم في الاستفهام فإن الزمخشري كثره من البلاغيين يرى أن المستفهم عنه هو مايل الهمزة . وحينما يدخل معنى جديد على حرف الاستفهام كالإنكار أو التعجب فإن الذي يلي هذا الحرف هو المقصود بهذا المعنى الجديد .

يقول الزمخشري في قول تعالى ومنهم من يستمعون إليك أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ومنهم من ينظر إليك أفأنت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون .

وقوله أفأنت . . . أفأنت . . . دلالة على أنه لا يقدر على إسماعهم وهدايتهم إلا الله عز وجل بالقر والالإجاء كما لا يقدر على رد الأصم والأعمى المسلوب العقل حديدى السمع والبصر واجمى العقل إلا الله وحده (١) .

ويقول في قوله تعالى وأفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين أفأنت تكره الناس بإدخال همزة الإنكار على المكروه دون فعله دليل على أن الله وحده هو القادر على هذا الإكراه دون غيره (٢) .

وقد تدخل همزة الاستفهام على المفعول فيكون هو المراد بمعناها كما كان الحال مع الفاعل في المثالين السابقين .

يقول في قوله تعالى ، أغير الله اتخذوا ولياً ، أولى غير الله همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو اتخذ لأن الإنكار في اتخذ غير الله ولياً لا في اتخذ الولي فكان أولى بالتقديم ونحوه ، أفغير الله تأمروني أعبداً لها الجاهلون ، والله أذن لكم (٣) .

ومثل إيلاء الهمزة المفعول لإيلائها الجار والمجرور والظرف يقول في قوله تعالى وآئذا ما مت لسوف أخرج حياً ، وتقديم الظرف وإيلائه حرف الإنكار

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٦٥ .

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٧٤ .

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٧٠ .

من قبل أن ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكورة ومته جاء إنكارهم فهو
كقولك للمسيء إلى المحسن أحيان تمت عليك نعمة فلان أسأت إليه (١) .

قلت أن القسم الأول من بحث الاستفهام يتعلق ببناء الجملة مع أدوات
الاستفهام أو التقديم في الاستفهام . ويجدر أن أشير هنا إلى أن خصائص الصياغة
وأحوال الكلمات في الجملة تظل مؤدية مع الاستفهام أغراضها ودلالاتها التي
كانت تؤديها في الخبر المثبت والمنفي ، فالتمكيز والتعريف والحذف والذكر وغير
ذلك من الخصائص يظل محتفظاً بدلالاته ، لذلك لم يعن الزمخشري بالحديث عن
هذه الخصائص وإنما تكلم في التقديم مع الهمزة . وإذا كان البلاغيون كما ذكرت
قد قرروا أن المستفهم عنه أو المقرر به أو المنكر هو ما يلى الهمزة ، سواء كان
فعلاً أو فاعلاً أو مفعولاً أو ظرفاً فإننا نلاحظ هنا تنازعا بين هذا الشرط أو هذه
الدلالة ودلالات التقديم التي أشيرنا إليها والتي تدور حول العناية والاهتمام
أو التقوية والاختصاص ، فتقديم الفاعل المعنوي في قولنا أنت قلت هذا قد
يكون للتقوى وقد يكون للتخصيص كما ذكرنا وتقديم المفعول في زيدا ضربت
يكون للاختصاص غالباً وهذا واضح في الخبر مثبتاً أو منفيماً .

أما إذا قلت أنت قلت هذا ؟ أو زيدا ضربت ؟ سواء كان استفهاماً حقيقياً
أو إنكارياً أو تقريرياً فإننا لانتم حينئذ بالقول بأن التقديم للتقوية أو الاختصاص
وإنما نقول إنه قدم الفاعل لأنه هو المستفهم عنه أو المنكر أو المقرر به وكذلك
نقول في تقديم المفعول ولسكت غالباً عن دلالة الاختصاص أو التقوية ، وكذلك
فعل عبد القاهر الجرجاني فقد كان اهتمامه في بحث التقديم في الاستفهام منصباً على
توضيح أن ما يلى الهمزة يكون دائماً هو المراد بمعناها أصلياً أو غير أصلي كما
ذكر في قوله تعالى ، أنت فعلت هذا بآلئنا يا إبراهيم ، وقوله تعالى ، قل آلذكرين
حرم أم الإنشيين ، وقوله تعالى ، أنزل مكموها وأنتم لها كارهون ، وقوله تعالى ، وأغير
الله أخذ ولياً ، وقوله تعالى ، أغير الله تدفون ، وقوله تعالى ، قالوا أهبأ منا
واحد قبيحاً .

(١) في نسخة أخرى : (١) .

فهل يعنى هذا أن التقديم مع همزة الاستفهام يفقد دلالة على التثوية والتخصيص ويتخصص لهذا الغرض ، أعني لأنه المستول عنه أو المقرر به إلى آخره ، أم أن دلالة على التخصيص والتأكيد باقية ؟

وبعد التأمل في كلام عبد القاهر لم أجد فيه ما يشير إلا دلالة التقديم على الاستفهام على الاختصاص إلا ما ذكره في قوله تعالى « أفأنت تسمع الصم » .

فقد قال بعد ما بين مجيئها على سبيل الغرض والتشليل ، ثم المعنى في تقدم الإسم وإن لم يقل أتسمع الصم هو أن يقال النبي ﷺ أنت خصوصاً قد أوتيت أن تسمع الصم وأن يجعل في ظنه أنه يستطيع أسمعهم بمثابة من يظن أنه قد أوتي قدرة على أسمع الصم (١) .

وكلامه هنا لا يبعد أن يفهم منه إضافة التقديم لمعنى الاختصاص كما أن كلام الزمخشري الذي أبتناه في هذه الآية وفي قوله تعالى « أفأنت تسمعه الناس » لا يبعد أن يفهم منه أيضاً إضافة التقديم لمعنى الاختصاص .

ومهما يكن من أمر فإن اهتمام عبد القاهر والزمخشري كان منصرفاً أو كالمصرف عن فائدة الاختصاص في تقديم صور الاستفهام فلم يكرروا حديث الاختصاص في هذه الصور كما كرروه في صور الخبر مثبتاً كان أو منقياً .

وكلام السكاكي والبلاغيين بعده ينص على أن دلالة التقديم على الاختصاص تظل باقية مع أدوات الاستفهام ، وبذلك عللوا قبح قولنا هل زيداً ضربت . يقول صاحب المفتاح « وقبح هل رجل عرف وهل زيداً عرفت دون هل زيداً عرفه ولم يقبح أرجل عرف وأزيد عرفت لما سبق أن التقديم يستدعى حصول التصديق بنفس الفعل فيبينه وبين هل تدافع وإذا استحضرت ما سبق من التفاصيل في صور التقديم عساك تهتدى لما طويت ذكره أنا (٢) .

ويكرر الخطيب هذا التعليل في إيضاحه ويعترض عليه بشأنه يلزم عليه ألا يقبح هل زيد عرف لا متناع تقدير التقديم فيه على مذهب السكاكي مع أن ذلك

(١) دلال الأفعال ص ٩٦٧

(٢) مفتاح العلوم ص ٩٦٧ .

فيجيب بالتفاني التحاة . ويدفع سعد الدين هذا الاعتراض بأن الغلة التي ذكرها السكاكي لا يلزم أن تطرد في كل مثال والمهم أن اعتراض الخطيب على السكاكي ورد سعد الدين لم يتصلا بما نحن فيه فدعاهم يقرون أن التقديم في هل زيدا حرفت يفيد الاختصاص ولذلك فيجيب هذا الاستعمال لتدافع دلالة الاختصاص مع دلالة هل التي يسأل بها عن التصديق قال ابن يعقوب المغربي في شرح قول الخطيب وجعل السكاكي فيجيب هل رجل عرف لذلك قال وهو كون التقديم لتخصيص المفيد للعلم بأصل الثبوت المنافي لمقتضى هل (١) .

وكما ذكرنا لإفادة التقديم للاختصاص مع هل ذكرها أيضاً مع الهمزة التي هي لتصور أحد طرفي النسبة فالسكاكي يحذر من الغلة عن خصوصيات تركيب الجملة قبل الاستفهام فيقول بعد ما ذكر صور التقرير والإنكار بالهمزة ، وإياك أن يزل عن خاطر كالتفصيل الذي سبق في نحو أنا ضربت وأنت ضربت وهو ضرب من احتمال الابتداء واحتمال التقديم وتفاوت المعنى في الوجهين فلا تحمل نحو قوله تعالى ، الله أذن لكم على التقديم فليس المراد أن الأذن ينسكركم من الله دون غيره . ولكن أحمله على الابتداء مراداً منه تقوية حكم الإنكار وانظم في هذا المسلك قوله تعالى ، أفأنت تكفرون بالله ، وقوله تعالى ، أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمى ، وقوله ، أم يقسمون رحمة ربك ، وما جرى مجراه (٢) .

وقال سعد الدين في بيان أن المنسكركم هو ما يلي الهمزة :

• وكسنا إذا قدم المرفوع على الفعل فقد يكون الإنكار على نفس الفاعل بحمل التقديم على التخصيص كما مر وقد يكون لإنكار الحكم على أن يكون التقديم لمجرد التعمير وجعل صاحب المفتاح قوله تعالى ، أفأنت تسمع الصم ، من دليل تقوية حكم الإنكار نظراً إلى أن المخاطب وهو النبي ﷺ لم يعتقد اشتراكه في ذلك ولا انفراد به .

ثم قال سعد الدين مشيراً إلى كلام الزمخشري الذي أثبتناه وأنه يفيد أن

(١) شرح التلخيص شرح ابن يعقوب ج ٤ ص ٢٥٨ . وراجع هذا البحث في دوامتنا للنصر والاشارة .

(٢) المفتاح ص ١٧١ .

التقديم فيه للاختصاص مع أن الإنكار موجه للفاعل المقدم على سبيل التثليل كما ذكرنا يقول سعد الدين وجعلها صاحب الكشاف من قبيل التخصيص نظراً إلى أنه عليه السلام لفرط شغفه بإيمانهم . وتبالغ حرصه على ذلك . كأنه يعتقد قدرته على ذلك .

ثم أشار إلى إمكان القول بتأكيد دلالة التقديم في الاستفهام الإنكاري على التخصيص . وذلك بتزويل هذا الاستفهام منزلة النفي فقال لا يقال همزة الإنكار بمنزلة حرف النفي وقد مر أن ما يلي حرف النفي يفيد التخصيص مطلقاً فكيف يعمله السكاكي على التقوى دون التخصيص ؟ لانا نقول لو سلم أن همزة بمنزلة حرف النفي في ذلك فالسكاكي لم يفرق بين ما يلي حرف النفي وغيره بل جعل الجميع محتلاً للتقوى والتخصيص إن كان المقدم مضمراً ، ومفيداً للتخصيص إن كان مظهراً منكرأ ، والتقوى إن كان معرفاً (١) .

وقال بهاء الدين السبكي في هروس الأفراح ، وحل الزمخشري تقديم الإسم في قوله تعالى وأفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ، وقوله تعالى وأفانت تسمع الصم أو تهدي العمى ، على أن المعنى أفانت تقدر على إكراههم على سبيل القصر . أي إنما يقدر على ذلك الله . ولم يقدر السكاكي فيه تقديماً بل حمله على الابتداء دون تقدير التقديم كما هو أحد الاحتمالين الذين ذكرهما في أناقته فلا يفيد غير تقوى الحكم (٢) .

فتلخص من كل ما ذكرنا أن التقديم مع همزة الاستفهام يكون لبيان المطلوب بمعناه ويكون أيضاً لإفادة التقوى والتخصيص ولا تراحم بين النكت إلا أننا في تحليل هذه الصورة نهتم ببيان معنى الاستفهام أو التقرير ، وتوجهه إلى الفاعل أو المفعول ، لأن ذلك هو الأهم في الجملة . وقد يكون مناط الفائدة فيها ، والعلامة سعد الدين ملاحظة دقيقة في هذه المسألة . فقد لحظ أن الإنكار حين يتوجه إلى المفعول المقدم للاختصاص قد تظن أن القصد فيه إنكار الاختصاص لأن الاختصاص

(١) المطول ص ٢٣٧ .

(٢) هروس الأفراح في سروح الخليل ج ٢ ص ٣٠٠ .

قيد والإنكار نفي والنفي إنما يتوجه إلى القيد دون المقيد ثم أجاب عن هذا اللفظ
إجابة فيها كثير من التكلف .

يقول سعد الدين في شرحه للكشاف معلقاً على قوله في آية «أفغير الله تأمروني
أعبد» فإن قلت لو كان التقديم في الآيتين للاختصاص لكان مدلول الكلام إنكار
اختصاص الغير بالعبادة والربوبية ، وهو لا يفيد إنكار الشركة بل ربما يفيد
جوازها بناء على ما تقرر عندهم من أن النفي إذا أدخل في كلام فيه قيد توجه
إلى القيد خاصة وأفاد ثبوت أصل الحكم ؟ قلت ذلك إنما يكون إذا اعتبر القيد
أولاً ثم نفي وأما إذا اعتبر النفي أولاً ثم قيد فلا والتعويل على القرأتين فهنا اعتبر
النفي والإنكار ثم الاختصاص فكان لاختصاص الغير بالإنكار بمعنى أن المنكر
هو الأمر بعبادة الغير ألا ترى قولنا ما زيد اضربت ، وما أنا قلت هذا معناه
ولكن ضربت غيره وقلت أنا وغيري وإن قوله تعالى «وما هم بمؤمنين» لتأكيد
النفي لا لنفي التأكيد (١) .

وهذا التحقيق صورة من البحث البلاغي الذي استغرقه النظر العقل وهو كلام
لا نستطيع إنكاره ، لأنه يقوم على النظر والمنطق وما يقوم على هذين يصعب
إبطاله ولكننا مطمئنون إلى أن لدراسة اللغة وفهم الأساليب منطقاً آخر ، وهذا
المنطق كما أتصوره هو منطق الإحساس والقطرة ، هو ما يتبادر إلى الذهن عند
سماع التعبير وعليه حول سعد الدين في هذه المناقشة حين قال والتعويل على القرأتين ،
أما أن يكون الكلام قد روى فيه القيد أولاً ثم نفي فيكون النفي منصباً على
القيد أو أنه نفي ثم قيد فيكون لتقييد النفي لا لنفي التقييد فهذه أمور لا يراعيها
الناس في إنشائهم ولا تخطر بخيال متكلم وما أشبه هذا بقول من قال أن قولنا
ضرب زيد فيه مجازاً لأن الضارب يده وقولنا ضربت عمراً فيه مجازاً لأنك تضرب
يده أو رأسه لا كله . كل هذه ملاحظات قد يستجيب لها المنطق ولكنها تكلف
في دراسة الأساليب .

أما البحث الثاني من مباحث الاستفهام فهو بحث يتماق ببيان المعاني التي
تفيدها أداة الاستفهام ، وهو غير معناه الحقيقي . وواضح أن الاستفهام بمعناه

(١) حاجته سعد الدين على الكشاف ورقة ١٦

الأصل لا يقع في كلام رب العزة لأن إحاطة هذه شاملة ولهذا كثر حديث الزمخشري عن المعاني التي تفهم من صورة الاستفهام . نعم قد يقع الاستفهام الحقيقي في القرآن حين يحكي مواقف أو يفصل مقارلات . والمهم أن أكثر أساليب الاستفهام في الكتاب العزيز جاءت لغير المعنى الحقيقي للاستفهام .

فالاستفهام قد يفيد تفخيم شأن المستفهم عنه كما في قوله تعالى عما يتساءلون ومعنى هذا الاستفهام تفخيم الشأن كأنه قال من أي شيء يتساءلون ونحوه - ما - في قولك زيد ما زيد جعلته لا لقطع قرينه وعدم نظيره كأنه شيء خفى عليك جنسه فانت تسأل عن جنسه وتفحص عن جوهره كما تقول ما الغول وما العنقاء تريد أي شيء هو من الأشياء هذا أصله ثم جرد العبارة عن التفخيم حتى وقع في كلام من لا تخفى عليه خافية (١) والناظر في كتب البلاغين المتأخرين يجد أثر هذا الكلام واضحا في حديثهم عن ما الاستفهامية .

وقد يكون لتبكيك المخاطب كقوله تعالى قال أكنذبتم بآياتي ولم تحيطوا بها علما أم ماذا كنتم تعملون لتبكيك لا غير ذلك أنهم لم يعملوا إلا التكذيب فلا يقدر أن يكذبوا ويقولوا قد صدقنا بها وليس إلا التصديق بها أو التكذيب . ومثاله أن تقول لراعيك وقد عرفته رويحي سواه أنا كل نعمي أم ماذا تعمل بها ؟ فتعجل ما تبدي به وتجعله أصل كلامك وأساسه هو الذي صح عندك من أكله وفساده وترمي بقولك أم ماذا تعمل بها مع عليك أنه لا يعمل بها إلا الأكل لتبته وتعلمه عليك بأنه لا يجيء منه إلا أكلها وأنه لا يقدر أن يدعي الحفظ والإصلاح لما شمر من خلاف ذلك أو أراد أما كان لهم عمل في الدنيا إلا الكفر والتكذيب بآيات الله أم ماذا كنتم تعملون من غير ذلك ؟ يعني أنه لم يكن لهم عمل غيره كأنهم لم يخلقوا إلا للكفر والمعصية وإنما خلقوا للإيمان والطاعة (٢) .

وقد يفيد التحقيق كما في قوله تعالى إلا أنهم هم المفسدون يقول الزمخشري ألا مركبه من همزة الاستفهام وحرف النفي لإعطاء معنى التنبيه على تحقق ما بعدها والاستفهام إذا أدخل على النفي أفاد تحقيقا كقوله ليس ذلك بقادر، ولكونها في هذا المنصب من التحقيق لا تكاد تقع الجملة بعدها إلا مصدرة بنحو ما يتلقى به القسم . واختها التي هي ما من مقدمات الإيمان وطلاتها .

(٢) الكتاب ج ٢ ص ٢٠٤

(١) الكتاب ج ٤ ص ٥٤٢

أما والذي لا يعلم الغيب غيره . أما والذي أبكى وأضحك (١)
وقد يفيد الاستبعاد كقوله تعالى قالت يا رب اني ألد وأنا عجوز يقول وهو
استبعاد من حيث العادة التي اجراها الله وانما انكرت عليها الملائكة تعجبها فقالوا
أتعجبين من أمر الله لانها كانت في بيت الآيات ومهبط المعجزات والأمر
التخارفة للمعادن (٢) .

وقد يفيد الإنكار كما في قوله تعالى أفأصفاكم ربكم بالبنين قال الزمخشري
والحمزة للإنكار يعنى أخصكم ربكم على وجه الخلوص والصفاء بأفضل الأولاد
وهم البنون لم يجعل فيهم لصيبا لنفسه وأتخذ أدونهم وهى البنات وهذا خلاف
الحكمة وما عليه معقولكم وهاداتكم (٣) .

وقد يفيد التعميم كما في قوله تعالى كيف كان عاقبة المنذرين ، يقول تعظيم
لما جرى عليهم وتحذير لمن انذروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن مثله
وتسالية له (٤) .

وقد يفيد التوبيخ كما في قوله تعالى يا معشر الجن والانس ألم يأتكم
رسول منكم قال الزمخشري يقال لهم يوم القيامة هل جهة التوبيخ ألم يأتكم
رسل منكم (٥) .

وقد يفيد المبالغة في طلب الفعل والحض عليه كما في قوله تعالى فهل أنتم
مهتمون . قال الزمخشري من أبلغ ما ينهى به كأنه قيل قد تلى عليكم ما فيها من
أنواع الصوارف والموانع فهل أنتم مع هذه الصوارف مهتمون أم أنتم على ما كنتم
عليه كأن لم توهظوا ولم تزجروا (٦) .

وقد يفيد التقرير كما في قوله تعالى سل بنى إسرائيل ، قال وهذا السؤال سؤال
تقرير كما تسأل الكفرة يوم القيامة (٧) .

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٨ - ٤٩ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٣١٧ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٥٤١ .

(٤) الكشاف ج ١ ص ٢٨٦ .

(٥) الكشاف ج ٢ ص ٥٢٢ .

(٦) الكشاف ج ١ ص ٥٢٦ .

(٧) الكشاف ج ١ ص ١٩٦ .

وقد يفيد التعبير كما في قوله تعالى أحكم الجاهلية يبنون . قال الزمخشري بعد ما ذكر وجهها لهذا الاستفهام ، والثاني أن يكون تعبيراً لليهود بأنهم أهل كتاب وعلم وهم يبنون حكم الملة الجاهلية التي هي هوى وجمل ، لا تصدر عن كتاب ولا ترجع إلى وحى من الله تعالى (١) .

وقد يفيد التهجيب كما في قوله تعالى وكيف يحكونك وعندهم التوراة فيها حكم الله . يقول وكيف يحكونك تعجيب من تحكيمهم لمن لا يؤمنون به ويكتابه مع أن الحكم منصوص في كتابهم الذي يدعون الإيمان به (٢) وقد يفيد التقرير كما في قوله تعالى وهل عسيتم أن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ، يقول الزمخشري والمعنى هل قاربتم ألا تقاتلوا يعني هل الأمر كما توقعه انكم لا تقاتلون أراد أن يقول هل عسيتم ألا تقاتلوا بمعنى اتوقع حينئذ من القتال ، فادخل هل مستقهما مما هو متوقع عنده ومظنون وأراد بالاستفهام التقرير ، وثبت أن المتوقع كأن ، وأنه صائب في توقعه ، كقوله تعالى هل أتى على الإنسان حين من الدهر معناه التقرير .

وقد يفيد التسوية كما في قوله تعالى وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذروهم لا يؤمنون ، يقول والهمزة وأم مجردتان لمعنى الاستواء وقد السخ عنهما معنى الاستفهام رأساً ، قال سيبويه جرى هذا على حرف الاستفهام كما جرى على حرف النداء قولك اللهم اغفر لنا ايها العصابة يعني أن هذا جرى على صورة الاستفهام ولا استفهام كما أن ذلك جرى على صورة النداء ولا نداء ، ومعنى الاستواء استوائهما في علم المستفهم عنهما ، لأنه قد علم أن أحد الأمرين كأن أما الإنذار وأما عدمه ولكن لا بعينه فكلاهما معلوم بعلم غير معين (٣) .

وقد يفيد الاستفهام أن المستفهم عنه أمر مشهور والعلم به شائع كما في قوله تعالى وهل أتاك بآء الخصم ، قال ظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنبياء العجيبة التي حقها أن أشيع ولا تخفى على أحد ، والتشويق إلى استماعه (٤) .

(١) - الكشاف ج ١ ص ٤٩٨ .

(٢) الكشاف ج ٠ ص ٤٩٤ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٤٧ .

(٤) الكشاف ج ٤ ص ٧٩ .

وقد يفيد الاستبطاء كما في قوله تعالى وقيل للناس هل أنتم بجمعون استبطاء لهم في الاجتماع والمراد منه استعجالهم واستعجالتهم كما يقول الرجل لغلظه هل أنت منطلق إذا أراد أن يحرك منه ويحثه على الاطلاق ، كأنما يخيل إليه أن الناس قد انطلقوا وهو واقف ومنه قول تأبط شرا .

هل أنت باعك دينار لحاجتنا أو هب رب أخا عون به عراق
يريد بعته إلينا سريعا ولا تبطروا (١) .

وقد يفيد الاستفهام عدة معان كالتقرير والتوبيخ والتعجيب كما في قوله تعالى وأتأمرون الناس بالبر ، يقول الهمزة للتقرير والتوبيخ والتعجيب من حالهم (٢) .

وقد يفيد الإنكار والتعجيب كما في قوله تعالى كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم يقول معنى الهمزة في كيف مثله في قولك أتكفرون بالله ومعكم بما يصرف عن الكفر ويدعو إلى الإيمان وهو الإنكار والتعجيب ، ونظيره قولك أظهير بغير جناح ؛ فإن قلت قولك أظهير بغير جناح إنكار للطيران لأنه مستحيل مع ما ذكر من الأمانة والأحياء ؛ قلت قد أخرج في صورة المستحيل لما قوى من الصارف عن الكفر والداهي إلى الإيمان (٣) .

وقد يفيد الاستقصار والتمييز، والتوبيخ، كما في قوله تعالى وقل للذين أتوا الكتاب والاميين أسلمتم، يقول يعنى أنه قد أتاكم من البيئات ما يوجب الإسلام ويتقضى حصوله لا محالة فهل أسلمتم أم أنتم بعد على كفركم؟ وهذا كقولك لمن لحصته المسألة ولم تبق من طرق البيان والكشف طريقا إلا سلكته هل فهمتها لا أم لك؟ ، ومنه قوله عز وعلا وفهل أنتم منتهون، بعد ما ذكر الصوارف عن الخروا ليسروني هذا الاستفهام استقصار وتعمير بالمعاني وقوله الانصاف لأن المنصف إذا تجلت له الحقيقة لم يتوقف إذعان الحق . وكذلك في فهل فهمتها توبيخ بالبلادة

(١) الكشاف ج ٣ ص ٢٤٥ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٩٩ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٩١ .

وكلة القرينة وفي فهل أنتم مشتهون بالتقاعد عن الانتباه والحرص الشديد على
تعالى المنهى عنه (١) .

وقد يفيد التوبيخ والتقريع كما في قوله تعالى فلنسان الذين أرسل إليهم
ولنسان المرسلين، يقول فإن قلت فإذا كان عالماً بذلك وكان يقصه عليهم فما معنى
سؤالهم ؟ قلت معناه التوبيخ والتقريع والتقرير إذا فاهوا به بالاستفهام وشهد
عليهم أنبياءهم (٢) . وقد يراد بهذه المعاني غير المخاطب كأن يكون الخطاب
موجهاً إلى الرسل عليهم السلام والمراد توبيخ من كذب بها وهذا النوع قريب
من التعميرض .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء
إياكم كانوا يعبدون . هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار وورد على
المثل السائر إياك أعنى واسمعى يا جارة ، ونحوه قوله تعالى أنت قلت للناس
 اتخذوني وأمي الهين من دون الله وقد علم سبحانه كونه الملائكة وعيسى منزهين
برءاء عما وجه عليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، والغرض أن يقول ويقولوا
ويسأل ويحيبوا فيكون تقريعهم أشد وتعميرهم أبلغ وشيخهم أعظم (٣) .

ومنه قوله تعالى : يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجيتم ، يقول فإن قلت
ما معنى سؤالهم ؟ قلت توبيخ قومهم كما كان سؤال المؤودة توبيخاً للوائد (٤) .
وقد يكون للسؤال مقصد ومعزى غير حقيقة الاستفهام وغير هذه المعاني

التي أشرنا إليها كان يراد لفت المسئول إلى المسئول عنه ليتبينه أشد التبيين تمهيداً
لإحداث أمر عظيم فيه كما في سؤال المولى لموسى عليه السلام عما في يمينه في قوله
تعالى وما تلك بيمينك يا موسى ، يقول الزمخشري إنما سأله ليريه عظم ما يخترعه
من وعلا في الخشبة اليابسة من قلبها حية نضاضة ، وليقرر في نفسه الميائنة البعيدة
بين المقلوب عنه والمقلوب إليه وينبهه على قدرته الباهرة ، ونظيره أن يريك

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٦٦ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٦٩ .

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٤٦٣ - ٤٦٤ .

(٤) الكشاف ج ٣ ص ٥٤٧ .

الزبراد زبرة من حديد ويقول لك ما هي ؟ فتقول زبرة حديد ثم يريك بعد أيام لبوساً مسروداً فيقول لك هي تلك الزبرة صيرتها إلى ما ترى من عجيب الصنعة وأنيق السرد (١) .

وقد يكون الجواب نفسه هو المقصد من السؤال لأن للجواب أثر في سياق الكلام والفرض منه كما في قوله تعالى وقال ربني أني يكون لي غلام وامرأتى عاقرة وقد بلغت من الكبر عتياً . قال الزمخشري فإن قلت لم طلب أولاً وهو امرأته على صفة العق والعتى فلما أسعف بطلته استبعد واستعجب ؟ قلت ليحباب بما أجيب به فيزداد المؤمنون إيقاناً ويرتدع المبطلون وإلا فاعتقد زكريا أولاً وأخيراً كان على منهاج واحد في أن الله غنى عن الأسباب (٢) .

ويجدر بنا الآن أن نسأل كيف تفيد أدوات الاستفهام هذه المعاني ؟ أي ما نوع دلالتها؟ ولا تجد جواباً قاطعاً في كلام الزمخشري على هذا السؤال أي أنه لم يبين لنا أن إفادة أداة الاستفهام هذه المعاني جاء على طريق المجاز أو على طريق الحقيقة نعم قد قال أن الأداة السلخ عنها معنى الاستفهام رأساً ، وروى عن سيبويه أنها جرت على حرف الاستفهام ولا استفهام كما جرى حرف النداء على صورة النداء ولا نداء . وهذا صريح في أن الأداة - صارت خالية من معنى الاستفهام وأنها صارت تحمل معنى آخر جديداً أي أن هناك نقلاً لها ، ثم إنه يقول في ما الاستفهامية في قوله تعالى فيم تبشرون وهي ما الاستفهامية دخلها معنى التعجب (٣) .

وقد يفهم من هذا أن ما لم تنسلخ عن الاستفهام رأساً وإنما ظل يكن فيها الاستفهام بعد ما دخلها معنى التعجب . وسواء كانت الأداة قد انسلخت أم لم تنسلخ فإن الزمخشري لم يذكر لنا وجه التجوز وإذا كان من أوائل من اهتموا بالتجوز في الحروف كما نعتقد فلماذا بسكت هنا عن ذكر المجاز ؟ ولما جاء الشراح بعده اجهدوا أنفسهم واجهدوا الناس في بيان العلاقة بين هذه المعاني ومعنى الاستفهام وقد تصفروا في هذا الباب يقول السيد الشريف معلقاً على قول الزمخشري في قوله

(١) الكشاف ج ٣ ص ٤٤٠ .

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٤٠٠ .

(٣) الكشاف

تعالى ، وأغبر الله اتخذ ولياً إنكار الشيء بمعنى كراهته والنفرة عن وقوعه في أحد
الآزمئة وادعاء أنه عما لا ينبغي أن يقع يستلزم عدم توجه الذهن إليه المستهدى
للمجمل به المفضى إلى الاستفهام عنه . أو نقول الاستفهام عنه يستلزم الجمل به
المستلزم لعدم توجه الذهن إليه المناسب للكراهية والنفرة عنه وادعاء أنه بما
لا ينبغي أن يكون واقعاً وفس حال الإنكار بمعنى التكذيب عليه (١) .

والسيد رحمه الله يحاول أن يبين وجه التجوز على أنه رغم تجشم هذه المشاق
الواضحة في الربط بين المعاني بأوهى الروابط يقول أنه في هذا الموضع الصعب
سيحاول توضيح وجه المجاز في بعضها ويستعين بهذا البعض على ما هداه (٢)
أى أنه لا يستطيع بيان وجه التجوز في كل موضع رغم ما في طريقته من
تكلف شديد .

وقد سرى هذا الاتجاه التعسفي وأغرم به كثير من يهيمون بالرياضة اللغوية
وعلى رأسهم ابن يعقوب المغربي وقد اقتبس منه بعض المحدثين في كتبهم التي
يقدمونها لصغار الطلاب رغم أن من المتقدمين من قال وتحقيق كيفية هذا المجاز
وبيان أنه من أى نوع من أنواعه لم يهجم أحد حوله (٣) . على أن نوعاً آخر من
الصعوبة يواجه من يتصدى لتحقيق وجه الدلالة في هذه الأدوات ذلك ما لحظناه
من أن الاستفهام قد يفيد معاني متعددة كالتقريع والتوبيخ والتعجيب في نص
واحد فإذا أدعينا أن الأداة مجاز في إحدى هذه المعاني فما موقنا من غيرها ؟
وهل يمكن أن نقول أنها نقلت من معناه الأصلي إلى هذه المعاني مجتمعة ؟ الواقع
أن اللفظ في المجاز ينقل من معناه إلى معنى آخر لا إلى جملة معان وقد أدرك هذا
بعض القدماء وأشاروا إليه يقول الشهاب تعليقاً على قول البيضاوى المختصر من
كلام الزمخشري في قوله تعالى وأنتنم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى ، يقول قوله
تقرير لهم مع إنكار واستبعاد سبق أن التقرير بمعنى التشييت أو الخلل على الإقرار
والإنكار يكون بمعنى التكذيب وأنه لم يقع وبمعنى أنه لا ينبغي وقوعه والمراد

(١) حاشية الشهاب ج ٣ ص ٤٦ .

(٢) نظر حاشية السيد على المطول ص ٢٢٥ .

(٣) المطول ص ٢٢٥ .

هنا أنه تثبيت وتسجيل له وأنه بما لا يليق وفيه جمع بين معاني الاستفهام وهي معان مجازية لا يجمع بينها وأن في ذلك التجوز خفاء حتى قيل أنه لم يحم أحد حوله وأنه من أي أنواعه وقد حققه السيد الشريف قدس سره في محله إلا أن يقال أنه يستعمل في أحد هذه المعاني وغيره مأخوذ من السياق فليتأول (١) وهذا الجواب الذي ذكره للخروج من هذا المخرج مرفوض لأنه لا يفهم من كلام الزمخشري .

وقد فكرت فيما قال هؤلاء المدققون فلم أجد في نفسي إقتناعاً به ولا قبولاً له وأحسب أنهم أنفسهم غير مقتنعين به ولا متقبلين له وقد ذكر العلامة عبدالحكيم وجوهاً من الاحتمالات قد يكون أحدها أقرب من غيره أو أقل اغراباً منها قال عبد الحكيم أنه قد يراد منها تلك المعاني بطريق الكناية وقد تراد بطريق أنها من مستقدمات التراكيب كما تراد بطريق المجاز (١) . وهذا التردد دليل على غموض وجه هذه الدلالة وعلى عدم اقتناعه بوحدة معناها وإن كان أولها اعتبار أنها من مستقدمات التراكيب وإن كان القول به لا يسلم من ورود اعتراض عليه .

والزمخشري أكثر تحرراً في بحثه من المتأخرين لا يقف عند الكلمة في كل موضع ليقول أنها هنا حقيقة أو مجاز ويكفيه أن يحيط بالفرض والمقصود من الكلام في بعض المقامات غير ملتفت إلى وجه الاستعمال (٢) .

والقسم الثالث في دراسة الاستفهام هو البحث في مطابقة الجواب للسؤال . وقد لحظ الزمخشري في هذا ملاحظات دقيقة وبين كيف يعدل الكلام البليغ من الجواب المباشر إلى غيره بما هو أهم وهذا قريب من أسلوب الحكيم الذي فصل البلاغيون القول فيه بعد عصر الزمخشري وليس هو لأن العدول فيه ليس لأنه الأهم كما قالوا في أسلوب الحكيم ولهذا استحق هذه التسمية . أما ما نحن فيه فإن العدول لمان كثيرة .

يقول الزمخشري في قوله تعالى إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناماً فنظال لها ما كفين ، فإن قلت ما تعبدون سؤال عن المعبود لحسب فكان

(١) حاشية الذهب ج ٤ من ٣٧ .

(٢) تقرير اللبس الألباني ج ٣ من ١٤٨ .

(٣) ينظر الكشاف ج ٢ من ١١١، ١١٠ .

القياس أن يقولوا أصحاً كقوله تعالى «و يسألونك ماذا ينفقون قال العفو» ماذا قال
وبكم قالوا الحق، ماذا انزل وبكم قالوا خيراً؟ قلت هؤلاء قد جاؤوا بقصة أمرهم
كاملة كالمبتدئين بها والمفتخرين، فاشتملت على جواب إبراهيم وعلى ما قصده من
أظهار ما في نفوسهم من الإبتهاج والافتخار ألا تراهم كيف عطفوا على قوله تعبد
فبظلالها عاكفين ولم يقتصروا على زيادة تعبد وحده، ومثاله أن تقول لبعض
الشطار ما تلبس في بلادك فيقول البس البرد الاتحسى فأجر ذيله بين جوارى
الحى (١).

والمدول هنا يعني الزيادة والتعميم عما يتطلبه السؤال. ومثل هذا جواب
إبليس حينما سأله الباري قائلاً ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه
خلقته من نار وخلقته من طين فإنه ذكر قصته مبتهجاً بها وهي تنطوي على قلة
امتناعه (٢).

وقد يكون الجواب ناظراً إلى أحد معاني السؤال مغفلاً غير ما كان في قوله
تعالى «وما أعجلك عن قومك يا موسى قال هم أولاء على أثرى و جعلت إليك ربي
لترضى» قال الزمخشري: فإن قلت وما أعجلك سؤال عن سبب العجلة فكان الذي
ينطبق عليه من الجواب أن يقال طلب زيادة رضاك أو الشوق إلى كلامك وتنجيز
موعدك وقوله هم أولاء على أثرى كما ترى غير منطبق عليه؟ قلت قد تضمن ماواجه
به رب العزة شيئين أحدهما إنكار العجلة في نفسها. والثاني السؤال عن سبب المستنكر
والحامل عليه فكان أهم الأمرين إلى موسى بسط العذر وتمهيد العلة في نفس ما انكر
عليه فاعتل بأنه لم يوجد منه إلا تقدم يسير مثله لا يعتد به ولا يحتفل به وليس
بين وبين من سبقته إلا مسافة قريبة يتقدم بمثلها الوفد رأسهم ومقدمهم ثم عقبه
بجواب السؤال فقال و جعلت إليك ربي لترضى (٣).

وقد يكون الجواب ناظراً إلى ما في الاستفهام من معنى فرعى غير معناه
الأصلي كما في قوله تعالى «ويقولون متى هذا الوعد أن كنتم صادقين قل لكم ميعاد

(١) - الكهاف ج ٣ ص ٧٥٠.

(٢) - الكهاف ج ٧ ص ٧٠.

(٣) - الكهاف ج ٣ ص ٦٤ - ٦٤.

يوم ، يقول الزمخشري فإن قلت كيف انطبق هذا جواب عن سؤالهم ؟ قلت ما سألوها عن ذلك وهم منكرون له الا تمتعنا لا استرشادا لجاء الجواب عن طريق التهديد مطابقتاً لجيء السؤال على سبيل الإنكار والتمنع وانهم مرصدون ليوم يفاجئهم فلا يستطيعون تأخراً عنه ولا تقدماً (١) .

وقد يعدل المتكلم عن الجواب لادعاء أن الامر في عبوته وتقرره واضح لاشبهه فيه وأن السؤال عنه لاوجه له ثم يذكر ما يفتنى على هذه الدعوى ويجعله جواباً وفي هذه الطريقة تأكيد للجواب وتقرير له .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : أتعملون أن صالحاً نرسل من ربه قالوا إنا بما أرسلنا به مؤمنون ، فإن قلت كيف صح قولهم إنا بما أرسلنا به مؤمنون جواباً عنه ، قلت سألتهم عن العلم بإرساله فجعلوا إرساله أمراً معلوماً مكشوفاً مسلماً لا يدخله ريب كأنهم قالوا العلم بإرساله وبما أرسلنا به ما لا كلام فيه ولا شبهة تدخله لوضوحه وإنارته وإنما الكلام في وجوب الإيمان به فنخبرهم أنا به مؤمنون ولذلك كان جواب الكفرة إنا بالذي آمنتم به كافرين فوضعوا آمنتم به موضع أرسلنا به رداً لما جعله المؤمنون معلوماً واخذوه مسلماً .

الامر :

وصيغ الامر في القرآن كانت موضع عناية الأصوليين والفقهاء وذلك لاهتمامها ببيان ما يراد بها في أمور الدين من ناحية الوجوب والتدب والإباحة وكان المنهج الفقهي غالباً على كثير من المفكرين المسلمين في شتى ميادين الثقافة الإسلامية لذلك كانت مباحث الامر في بعض الدراسات اللغوية والأدبية تقف عند الحد الفقهي فلا تتجاوز الوجوب والتدب والإباحة وكان بحث الزمخشري لمعاتها ادخل في باب اللفظ والبلاغة ولم يمس معناها التشريعي إلا مساً خفيفاً .

والزمخشري يشرح لنا معنى الامر الذي هو طلب الفعل والعلاقة بينه وبين الامر بمعنى الشأن من الشئون فيقول في قوله تعالى : ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، فإن قلت ما الامر ؟ قلت هو طلب الفعل عن هو دونك وبمته عليه وبه سمي الامر الذي هو واحد الامور لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه

بأمر يأمره به ف قيل له أمر تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به كما قيل له شأن والشأن الطاب والقصد يقال شأنت شأنه أى قصدت قصده (١) .

وبين الزمخشري أن هذا الأمر الذى هو طلب الفعل من هو دونك قد يقيد معانى أخرى منها التهمك كما فى قوله تعالى وادعوا شهداءكم من دون الله، يقولون فى أمرهم أن يستظهروا بالجماد الذى لا ينطق فى معارضة القرآن بفصاحته غاية التهمك (٢) ومنها التبكيت كما فى قوله تعالى و أنبئوني بأسماء هؤلاء، يقولون إنما استنبأهم وقد علم عجزهم عن الأبناء على سبيل التبكيت (٣) .

ومنها الاستهزاء كما فى قوله تعالى دقل فادروا عن أنفسكم الموت، يقول استهزاء بهم أى إن كنتم رجالا دافعين لأسباب الموت فادروا جميع أسبابه حتى لا تموتوا .

ومنها طلب الثبات على الفعل والزيادة منه كما فى قوله تعالى يا أيها الناس أعبدوا ربكم ، يقول فإن قلت لا يخلو الأمر بالعبادة من أن يكون متوجهاً إلى المؤمنين والكافرين جميعاً أو إلى كفار مكة خاصة وعلى ما روى عن علقمة والحسن فالؤمنون عابدون ربهم فكيف أمروا بما هم ملتبسون به ؟ وهل هو إلا كقول القائل : قلوا أنى فعلت كذبت من تسأله وهو قائم أن يقوم .

أما الكفار فلا يعرفون الله ولا يقرون به فكيف يعبدونه ؟ قلت المراد بعبادة المؤمنين ازديادهم منها وإقبالهم وثباتهم عليها وأما عبادة الكفار فشرط فيها ما لا بد منه وهو الإفراز كما يشترط على المأمور بالصلاة شرائطها من الوضوء والنية وغيرها وما لا بد للفعل منه فهو مندرج تحت الأمر به (٤) .

ومنها الإباحة كما فى قوله تعالى وإذا حللتم فاصطادوا، يقول إباحة للاصطياد بعد حظره عليهم كأنه قيل وإذا حللتم فلا جناح عليكم أن تصطادوا (٥) .

(١) الكشاف ج ١ ص ٩١ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٧٦ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٩٤ .

(٤) الكشاف ج ١ ص ٣٣٨ .

(٥) الكشاف ج ١ ص ٦٨ .

ويرافض أن تكون صيغة الأمر مشتمة على معنيين مختلفين ويرى أن هذا من باب الالغاز والتمسية وخصوصا إذا كانت للصيغة مشتمة في مجال التشريع يقول في قوله تعالى « وإذا قتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم، هل يجوز أن يكون الأمر شاملا للمحدثين وغيرهم لهؤلاء على وجه الإيجاب ولهؤلاء على وجه النذب ؟ قلت لا لأن تناول الكلمة لمعنيين مختلفين من باب الالغاز والتمسية (١) .

وكلامه في الإباحة والوجوب والنذب مظهر لما أشرنا إليه من تأثر دراسة هذه الصيغة بالدراسة الفقهية .

ومن المعاني البلاغية التي أشار إليها في صيغة الأمر الحيرة والاضطراب في حال الشدة يقول في قوله تعالى « ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة ان أفيضوا علينا من الماء . . وإنما يطلبون ذلك مع بأسهم من الإجابة إليه حيرة في أمرهم كما يفعل المضطر المتعثر (٢) .

ومنها الاستعجال كما في قوله تعالى « فأتانا بما تمدنا ، يقول استعجال منهم للعذاب (٣) .

ومنها الدعاء كما في قوله تعالى « قل موتوا بغيظكم ، قال دعاء عليهم بأن يزداد غيظهم حتى يهلكوا به (٤) .

وقد يكون الدعاء بما علم أنه واقع لا محالة فيكون من باب اللجأ والضراعة إلى الله كما في قوله تعالى « ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ، فإنه من باب اللجأ إلى الله والخضوع له كما كان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يستغفرون مع هلمهم أنهم مغفون لهم يقصدون بذلك التذلل لهم والتضرع له والملاجأ الذي هو سببا العبودية (٥) . ومن الدعاء بما علم أنه واقع لا محالة ما كان من بعض الأنبياء عليهم

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٧٤

(٢) الكشاف ج ٧ ص ٥٨٥ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٩٧ .

(٤) الكشاف ج ١ ص ٣١٣ .

(٥) الكشاف ج ١ ص ٣٥١ .

السلام لما أفرغوا عظيم لجهدهم في الدعوة وما وجدوا من أقوامهم إلا إصراراً وعناداً كقوله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام «ربنا إنك أتيت فرعون وملائه زينة وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس على أموالهم وأشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم» . يقول فإن قلت ما معنى قوله ربنا ليضلوا عن سبيلك ؟ قلت هو دعاء بلفظ الأمر كقوله ربنا اطمس وأشدد وذلك أنه لما عرض عليهم آيات الله وبيناته عرضاً مكرراً وردد عليهم النصائح والمواظع زمناً طويلاً وحذرهم عذاب الله وانتقامه وأنذرهم عاقبة ما كانوا عليه من الكفر والضلال المبين ورآهم لا يزيدون على عرض الآيات إلا كفراً وعلى الإنذار إلا استكباراً وعلى النصيحة إلا نبوا لم يبق له مطمع فيهم وعلم بالتجربة وطول الصحبة أنه لا يجيء منهم إلا النفي والضلال وأن إيمانهم كالحمال الذي لا يدخل تحت الصحة أو علم ذلك بوحي من الله اشتد غضبه عليهم وأفرط مقتته وكرهته لحالهم فدعا الله عليهم بما علم أنه لا يكون غيره كما تقول لعن الله إبليس وأخزي الله الكافر مع علمك أنه لا يكون غير ذلك وليشهد عليهم بأنه لم يبق له فيهم صلة وأنهم لا يستأهلون إلا أن يخذلوا ويخلى بينهم وبين ضلالهم يتسكعون فيه (١) .

ومن معاني صيغة الأمر الدلالة على تنامي السخط من الأمر وذلك إذا كان الأمر به غير مرغوب فيه كما في قوله تعالى وليكفروا بما آتيناكم وليتمتعوا فسوف يعلمون . قال الزمخشري فإن قلت كيف جاز أن يأمر الله تعالى بالكفر وبأن يعمل العصاة ما شاءوا وهو ناه عن ذلك ومتوعد عليه ؟ قلت هو جاز عن الخذلان والتخليه وأن ذلك الأمر متسخط إلى غاية ومثاله أن ترى الرجل قد عزم على أمر وعندك أن ذلك الأمر خطأ وأنه يؤدي إلى ضرر عظيم فتبالغ في نصحه واستنزاله عن رأيه فإذا لم تر منه إلا الإباء والتصميم حردت عليه وقلت أنت وشأنك وافعل ما شئت فلا تريد بهذا حقيقة الأمر وكيف الأمر بالشئ مرید له وأنت شديد الكراهية منهصر ولكفك كأنك تقول له فإذا قد أتت قد أتت فيقول

(١) الكشاف ٢ ص ٢٨٦ .

(٢) الكشاف ٢ ص ٢٨٦ .

(١) الكشاف ٢ ص ٢٨٦ .

التصبيحة قامت أهل ليقال لك أفعل ما شئت وبعث عليه ليتبين لك إذا فطنت
صحة رأى الناصح وفساد رأيك (١) .

ومنها الترغيب في المأمور به وذلك إذا كان الأمر بالشىء عقب النهى عن
تقيضه كما في قوله تعالى ولا تنقصوا المكيال والميزان أنى أراكم بخير وانى أخاف
عليكم عذاب يوم عظيم ويا قوم أوفوا المكيال والميزان . . يقول الزمخشري فإن
قلت النهى عن النقصان أمر بالإيفاء فما فائدة قوله أوفوا ؟ قلت نهوا أولا عن
هين التبيح الذى كانوا عليه من نقص المكيال والميزان لأن فى التصريح بالتبيح
تعبا على النهى وتعبيرا له ثم ورد الأمر بالإيفاء الذى هو حسن فى العقول معرفا
بلفظه لزيادة ترغيب فيه وبعث عليه (٢) .

وقد يكون الأمر بمعنى الخبر فى صورة الأمر وذلك لمعان منها الإشارة
إلى التسوية بين فعل المأمور به وتركه وهذا دال على نهاية السخط على المأمور
ورد أعماله إليه، أو دال على نهاية الرضا والقبول، يقول فى قوله تعالى دقل انفقوا
طوعا أو كرها أن يتقبل منكم ، فإن قلت كيف أمرهم بالإنفاق ثم قال أن
يتقبل منكم ؟ قلت هو أمر فى معنى الخبر كقوله تبارك وتعالى دقل من كان
فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا ، ومعناه أن يتقبل منكم انفقتم طوعا أو كرها
وتحوه قوله واستغفر لهم أولا تستغفر لهم ، وقوله اسئبنا أو احسنى . . لاملومة .
أى أن يغفر الله لهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم ولا تلومك أسأت إلينا
أم أحسنت . فإذا قلت متى يجوز نحو هذا ؟ قلت إذا دل الكلام عليه كما جاز
هكسه فى قولك رحم الله زيدا وغفر له فإن قلت لم فعل ذلك ؟ قلت لسنكتة فيه
وهى أن كثير آكأه يقول لمرآة امتحنى لطف محلك عندى وقوة محبى لك وعاملينى
بالإساءة والاحسان وأنظرى هل يتفاوت حالى معك مسيئة كنت أم محسنة وفى
معناه قول القائل :

أخوك الذى أنفت بالسيف هامدا لتضربه لم يستفتك فى الود

(١) الكشاف ٣ ص ٣٦٥ .

(٢) الكشاف ١ ص ٣٦٦ .

وكذلك المعنى انفقوا وانظروا هل يتقبل منكم ؟ واستغفر لهم وانظروا هل ترى اختلافا بين حال الاستغفار وتركه (١) .

ويكرر هذا التحليل في قوله تعالى استغفر لهم أولا تستغفر لهم (٢) .

وقد تشير هذه الطريقة إلى معنى إهانة المأمور واحتقاره وازدرائه وأنه لا يلتفت إلى فعله يقول في قوله تعالى : قل آمنوا به أولا تؤمنوا . أمر بالأعراض عنهم واحتقارهم والازدراء بشأنهم وإلا يكثر بهم وبايمانهم وبامتاعهم عنه وانهم أن لم يدخلوا في الإيمان ولم يصدقوا بالقرآن وهم أهل جاهلية وشرك فإن خيرا منهم وأفضل وهم العلماء الذين قرؤوا الكتب وعملوا بالوحي وبالشرائع قد آمنوا به وصدقوه (٣) .

ومن معاني مجيء الخبر في صورة الأمر الدلالة على أنه حتم واجب كما في قوله تعالى : فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا ، يقول معناه فيضحكون قليلا ويبكون كثيرا (جزاء) إلا أنه أخرج على لفظ الأمر للدلالة على أنه حتم واجب لا يكون غيره (٤) .

وقد يعكس هذا فيقع الأمر في صورة الخبر كما في قوله تعالى : يقاتلون في سبيل الله يقول الزمخشري يقاتلون فيه معنى الأمر كقوله تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم (٥) .

وبلاغة هذه الطريقة أن المأمور كما يقول الزمخشري (كأنه سورع إلى الامتثال والالتفاء فهو يخبر عنه (٦) ويقول أيضا (وإنما يخرج الأمر في صورة الخبر للبالغة في إيجاب إجماد المأمور به فيجعل كأنه يوجد فهو يخبر عنه (٧) .

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢١٨ — ٢١٩ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٢٧٠ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٥٤٥ .

(٤) الكشاف ج ٢ ص ٢٢٣ .

(٥) الكشاف ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٦) الكشاف ج ١ ص ١١٨ .

(٧) الكشاف ج ٢ ص ٢٧٢ .

وقد يعبر القرآن عن حدث وقع بصيغة الأمر لتشير هذه الصيغة إلى كيفية وقوع هذا الحدث ، يقول في قوله تعالى ، فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم ، فإن قلت ما معنى قوله فقال لهم موتوا ؟ قلت معناه فأماهم وإنما جرى به على هذه العبارة للدلالة على أنهم ماتوا ميتة رجل واحد بأمر الله ومشيئته وتلك ميتة خارجة عن العادة كأنهم أمروا بشيء فامتثلوه امتثالاً من غير إباء ولا توقف كقوله تعالى وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون (١) .

ويلاحظ الزمخشري أن تعميم الخطاب في صيغة الأمر دال على شرف المأمور به ونظامته . يقول في قوله تعالى وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، فإن قلت من المأمور بقوله تعالى وبشر ؟ قلت يجوز أن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يكون كل واحد كإل عليه الصلاة والسلام بشر المشائين إلى المساجد في الظلم بالظلم التام يوم القيامة ولم يأمر بذلك واحداً بعينه وإنما كل أحد مأمور به وهذا الوجه أحسن وأجزل لأنه يؤذن بأن الأمر لعظمه ونظامته شأنه محقوق بأن يبشر به كل من قدر على البشارة به (٢) .

ومن خصائص صيغة الأمر كما يقول الزمخشري أن يقع حقيقتها ما يجب عليها ويدعو إليها ليختم الكلام ويأخذ بعضها بحجزة بعض يقول في قوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة . فإن قلت الذي يقتضيه سداد نظم الكلام وجزالته أن يجاء بحقيقتي الأمر بالتقوى بما يوجبها أو يدعو إليها ؟ ويبعث عليها فكيف كان خلقه أيام من نفس واحدة على التفصيل الذي ذكره موجباً للتقوى وداعياً إليها ؟ قلت لأن ذلك مما يدل على القدرة العظيمة ومن قدر على نحوه كان قادراً على كل شيء ومن المقدورات عقاب العصاة فالنظر فيه يؤدي إلى أن يتقى القادر عليه ويخشى عقابه ولأنه يدل على النعمة السابقة عليهم أن يتقوه في كفرانها والتفريط فيما يلزمهم من القيام بشكرها ، أو أراد بالتقوى خاصة وهي أن يتقوه فيما يتصل بحفظ الحقوق بينهم فلا يقطعوا ما يجب عليهم وصله فقول اتقوا ربكم الذي وصل بينكم حيث

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٦١

(٢) الكشاف ج ١ ص ٨٧

جعلكم صنوفا مفرعة من أرومة واحدة فيما يجب على بعضكم لبعض حافظوا عليه ولا تنقلوا عنه وهذا المعنى مطابق لمعاني السورة (١) .

النهى :

وقد يكون النهى عن الفعل دالا على شدة الرغبة في وقوعه موصوفاً بصفة معينة حتى كأنه بدون هذه الصفة منهى عنه وفي هذه الحالة تكون أداة الاستثناء مع النهى . وقد تؤدي صيغة الأمر هذا المعنى فيقع الأمر بالشئ والمراد الحرص على الوصف بصفة معينة وكان هذا الشئ بهذه الصفة أمر جدير بالبحث عنه والجد في طلبه يقول الزمخشري في قوله تعالى ، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، فالنهى في الحقيقة عن كونهم على خلاف حال الإسلام إذا ماتوا كقولك لا تصل إلا وأنت خاشع فلا تنهأ عن الصلاة ولكن عن ترك الخشوع في حال صلاته . فإن قلت فأى نكته في إدخال حرف النهى عن الصلاة وليس بمنهى عنها ؟ قلت النكته فيه إظهار أن الصلاة التي لا خشوع فيها كلا صلاة فكانه قال أنك إذا لم تصلها على هذه الحالة ألا ترى إلى قوله عليه الصلاة والسلام لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد فإنه كالنصريح بقولك لجار المسجد لا تصل إلا في المسجد وكذلك المعنى في الآية إظهار أن موتهم لا على حال الثبات على الإسلام موت لا خير فيه وأله ليس بموت السعداء وإن من حق هذا الموت ألا يحل فيهم وتقول في الأمر أيضاً مت وأنت شهيد وليس مرادك الأمر بالموت ولكن بالكون على صفة الشهداء إذا مات وإنما أمرته بالموت اعتداداً منك بميته وإظهاراً لفضائلها على غيرها وأنها حقيقة بأن يبحث عنها (٢) .

وقد يراد بالنهى عن الفعل الاستمرار على الحال التي عليها المخاطب وذلك إذا كان المخاطب غير متصف بالمنهى عنه كما في قوله تعالى ، لا يغرتك تغلب الذين كفروا في البلاد يقول ، الزمخشري فيه وجهان . . . والثاني أن رسول الله ﷺ كان غير مفرور بمآلهم فأكد عليه ما كان عليه وثبت على التزامه كقوله ، ولا تكونن من المشركين ولا تطع المكذبين وهذا في النهى نظير قوله في الأمر أهدنا الصراط المستقيم يا أيها الذين آمنوا (٣) .

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٥٥ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ١٤٣ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٣٥٤ .

وهذا الأسلوب نفسه الذي نهى به رسول الله ﷺ عن أفعال لا يجوز عليه التلبس بها يلحظ الزمخشري فيه معنى الإلهاب والتهيبج والإثارة لشدة التمسك بما هو عليه .

يقول في قوله تعالى : لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله ، ، فأثبت ودُم على ما أنت عليه من انتفاء المزية هناك والتكذيب بآيات الله ويجوز أن يكون على طريقة التهيبج والإلهاب كقوله : فلا تكونن ظهيراً للكافرين ولا يصدك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك ، ولزيادة التثبيت والمعصمة .

وقد عمد البليغ إلى صورة من صور الفعل فيسلط التقى عليها ومراده النهي عن الفعل بصوره كلها إلا أن هذه الصورة التي اختارها البليغ أقبج صور الفعل وأبغضها عند النفس فاستجابة النفس إلى الكف عنها أطوع وأسرع وقد تنبه الزمخشري إلى هذه الطريقة في آيات القرآن التي يراد فيها مواجهة النفس الإنسانية برذائلها المنقرة وتصوير هذه الرذائل أمامها في صورة منكرة كريهة حتى تنكف عنها وتلزم طريق الخير . يقول الزمخشري في قوله تعالى : ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، فإن قلت قد حرم عليهم أكل مال اليتامى وحده ومع أموالهم فلم ورد النهي عن أكله معها ؟ قلت لأنهم إذا كانوا مستغنين عن أموال اليتامى بما رزقهم الله من مال حلال وهم على ذلك يطمعون فيها كان القبح أبلغ والذم أحق ولأنهم كانوا يفعلون كذلك فنمى عليهم فعلهم وسمع بهم ليسكون أزجر لحم (١) .

وقد ينهى المخاطب عن السؤال عن الشيء ويكون في هذا النهي معنى تهويل حال الشيء وإن ما صار إليه من الشدة والهلول أمر لا يسأل عنه لفظاً عنه وبشاعته كما في قوله تعالى ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ، : قال الزمخشري معلقاً على قراءة النهي وقيل معناه تعظيم ما وقع فيه الكفار من العذاب كما تقول كيف فلان سائلاً عن الواقع في بلية فيقال لك لا تسأل عنه ؛ ووجه التعظيم أن المستخبر يجرع أن يجرى على لسانه ما هو فيه لفظاً عنه فلا تسأله ولا تكلفه

ما يضجره أو أنت يا مستخبر لا تقدر على استماع خبره لإيجاشه السامع وأصجاره
فلا تسأل عنه (١) .

النداء :

وقد أدار الزمخشري حول هذه الصيغة لونا من الدوامه النحوية
الادبية وبين خصوصيات في نداء القرآن الكريم وحلها وربطها بموضوعه
ورسائله .

يقول في قوله تعالى : يا أيها الناس أعبدوا ربكم ، خطاب لمشركي مكة ،
ويأحرف نداء ، وضع في أصله لنداء البعيد صوت يهتف به الرجل بمن يناديه ،
وأما نداء القريب فله أي والهمزة .

ثم استعمل في متاداة من سها وغفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بعد ، فإذا
نودي به القريب المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنى به
جداً . فإن قلت فما بال الداعي يقول في جوواره يارب ويا الله وهو أقرب إليه
من جبل الوريد وأسمع به وأبصر ؟ قلت هو استقصار منه واستبعاد لما من مظان
الزلقى وما يقربه إلى رضوان الله ومنازل المقربين منعا لنفسه وإقراراً عليها
بالتفريط في جنب الله مع فرط التهالك على استجابة دعوته والإذن لندائه
وابتهاله وأي وصلة إلى نداء ما فيه الآف واللام وهو اسم مبهم مفترق
إلى ما يوضحه ويذيل أبهامه فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف
به حق يصح المقصود بالنداء وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب
من التأكيد والتشديد وكلمة التنبية المقحمة بين الصفة وموصوفها لقائدين
معاذة حرف النداء ومكانته بتأكيد معناه ووقوعها عوضاً عما يستحقه أي من
الإضافة . فإن قلت لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثرف
غيره ؟ قلت لاستقلاله بأوجه من التأكيد وأسباب من المبالغة لأن كل ما لادى
الله له عبادة من أوامره ونواهي وعظاته وزواجره ووعدده ووعدده واقتماس
أخبار الأمم الدارجة عليها وغير ذلك مما انطلق به كتابه أمور عظام وخطوب
جسام ومعان عليهم أن يلقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها وهم عنها

خالفون فاقترضت الحلال أن ينادوا بالآكد الأبلغ (١).

ويذكر الزمخشري إن نداء الجهاد في القرآن مظهر من مظاهر استعلاء الربوبية وانقياد الأشياء لها ، ولهذا يعتمد القرآن إلى هذا الأسلوب وله منه مندوحة ليك في النفوس هيبة الربوبية ، ويطبع فيها الشعور بعزتها وكبرياتها . يقول في قوله تعالى دو لقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير . فإن قلت أي فرق بين هذا النظم وبين أن يقال وآتينا داود منا فضلا تأويب الجبال معه والطير؟ قلت كم بينهما ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى من الدلالة على عزة الربوبية وكبرياء الألوهية حيث جمعت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا دعاهم سمعوا وأجابوا إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد وناطق وصامت إلا وهو منقاد لمشيئته غير متمتع عن إرادته (٢).

أما نداء الرسول عليه السلام فقد لحظ الزمخشري أنه لم يناد بأسمه كما نودي غيره من الأنبياء عليهم السلام وذلك تشریفاً له ورفعاً لمحله يقول في قوله تعالى يا أيها النبي أتق الله ، جعل نداءه بالنبي والرسول في قوله يا أيها النبي أتق الله ويا أيها النبي لم تحرم ويا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وتترك نداءه بأسمه كما قال يا آدم يا موسى يا عيسى يا داود كرامة له وتشریفاً وربناً محله وتنويهاً بفضلته فإن قلت إن لم يوقع اسمه في النداء فقد أوقعه في الأخبار وفي قوله محمد رسول الله ، وما محمد إلا رسول ؟ قلت ذلك لتعليم الناس بأنه رسول الله وتلقين لهم أن يسموه بذلك ويدهوه به فلا تفاوت بين النداء والأخبار ألا ترى إلى ما لم يقصد به التعليم والتلقين من الأخبار كيف ذكره بنحو ذكره في النداء ولقد جاءكم رسول من أنفسكم ، وقال الرسول يا رب ، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، والله ورسوله أحق أن يرضوه (٣) .

وإذا حذف حرف النداء ترى الزمخشري يلحظ في هذا الحذف معنى

(١) الكتاب ج ١ ص ٦٨ .

(٢) الكتاب ج ٣ ص ٤٥١ .

(٣) الكتاب ج ٣ ص ٤١٠ .

التقريب والملاطفة يقول في قوله تعالى يوسف أعرض عن هذا . . . حذف
منه حرف النداء لأنه منادى قريب مقاطن للحديث وفيه تقريب له وتلطيف
لمحله (١) .

القسم :

وقد تحدث الزمخشري في صور القسم عن العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه
وبين أن أحسن القسم ما وضحت فيه هذه العلاقة يقول في قوله تعالى وحم والكتاب
المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً ، أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل قوله
إنا جعلناه قرآناً عربياً جواباً للقسم ، وهو من الإيمان الحسنة البديعة لتناسب
القسم والمقسم عليه وكونهما من واحد ، واطهرة قول أبي تمام وثناياك
إنها أغريض (٢) .

ويذكر العلاقة بين وصف المقسم به والمقسم عليه ويرى أن هذا الوصف
ينبغي أن يكون له نوع علاقة بالمقسم عليه في الكلام البليغ ، يقول في قوله تعالى
وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب لا يعزب
عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، فإن قلت هل للوصف الذي وصف
به المقسم به وجه اختصاص بهذا المعنى ، قلت نعم ، وذلك إن قيام الساعة من
مشاهير الغيوب ، وأدخلها في الخفية ، وأولها مسارعة إلى القاب إذا قيل عالم الغيب ،
حين أقسم باسمه على إنبات أنه كائن لا محالة ثم وصف بما يرجع إلى الغيب وأنه
لا يفوته علم شيء من الخفيات وأندرج تحت إحاطته بوقت قيام الساعة لجزء
ما تطلبه من وجه الاختصاص بيميناً واضحاً (٣) .

التمجيب :

وقد لحظ الزمخشري ما في طريقة التمجيب من غير لفظه من قوة في الأداء
ونفاذ إل أدق مواطن الإدراك في النفس حين تواجهها بنقائصها ووذائها

(١) الكشاف ج ٧ ص ٣٦٠

(٢) الكشاف ج ٤ ص ١٨٥

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٤٤٨

مواجهة فيها حدة وفيها قوة ليلتفت الإنسان إلى فطرته فيعود إليها. يقول الزمخشري في قوله تعالى «كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون» .

وهذا من أفصح كلام وأبلغه في معناه ، قصد في كبر التعجب من لفظه كقوله هلأت تاب كليب بواؤها ومنى التعجب تعظيم الأمر في قلوب السامعين لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله ، وأستدل إلى أن تقولوا ونصب مقتا على تفسيره ، دلالة على أن قولهم ما لا يفعلون مقت خاص لا شوب فيه لفرط تمكن المقت منه ، واختير لفظ المقت لأنه أشد البغض وأبلغه (١) .

الكلام المنصف :

وطريقة الكلام المنصف تكون غالباً في مقامات الحوار والجدل ولاشك أن في إنصاف الخصم ما يستدرجه إلى الحق ويفرده إليه وقد اعتمد النيبون واتباعهم في أداء رسالتهم الكبيرة على هذا الأسلوب المذهب . . . وكان الزمخشري أديباً متذوقاً في فقه هذه الطريقة ويرى فهمها خاصاً بالأدباء وذوى الحس البصير وقد صف أباً عبيدة بأنه أجفى من أن يفقه ما يقول فيها . . . يقول الزمخشري في قوله تعالى وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذى يعدكم فإن قلت لم قال بعض الذى يعدكم وهو نبي صادق لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كاه لا بعضه ؟ قلت لأنه احتجاج في مقابلة خصوم موسى ومناكريه إلى أن يلاوصهم ويداريهم ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ويأتيهم من وجهة المناصحة فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمتهم لقوله ، وأدخل في تصديقهم له وقبولهم منه فقال وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذى يعدكم ، وهو كلام المنصف في مقاله فير المشتط فيه ليسمعوا منه ولا يردوا عليه وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد ، ولكنه أردفه يصيبكم بعض الذى يعدكم ليمضه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافية فضلاً أن يتمصب له أو يرمى بالخصا من ورائه وتقديم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل وكذلك قوله «إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب» . فإن قلت فمن أبي عبيدة أنه فسر البعض بالكل وأنشد بيت لبيد .

تراك أمكنة إذا لم أرضها . . . أو يرتبط بعض النفوس حمامها

(١) الكشاف ج ٤ ص ٣١٧-٣١٨ (٢) الكشاف ج ٣ ص ٥٦١

قلت إن صحت الرواية عنه فقد حق فيه قول المازني في مسألة العلقى كان أجنى
من أن يفقه ما أقول له (١) .

وهذه الطريقة توحى بمقصود المتكلم بما هو مخالف لظاهر العبارة فيها ، وقد
أشار الزمخشري إلى أن الإيحاء بمقصود المتكلم أفعال في نفس السامع وإن كان
معانداً وأجاب له وإن كان مشتتاً في أعراضه . يقول في قوله تعالى وإنا أولياكم
لعل هدى أو في ضلال مبين ، وهذا من الكلام المنتصف الذي كل من سمعه من موال
أو مناف قال لمن خوطب به قد أنصفك صاحبك ، وفي درجة بعد مقدمة ما قدم
من التقرير البليغ دلالة غير خفية على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو
في الضلال المبين ، ولكن التعريض والتورية أفضى بالمجادل إلى الغرض وأهجم به
على الغلبة مع قلة شغب الخصم وقل شوكته بالهويناء ونحوه قول الرجل لصاحبه علم
الله الصادق مني ومنك وإن أحدنا لكاذب ومنه بيت حسان .

أتهجوه ولست له بكفء فشركا لخيركا القداء (٢)

وقد حلق ابن المنير على هذا بقوله (وهذا تفسير مهذب واقتنان مستعذب
رددته على مسمى فزاد رونقا بالترديد واستعادته الخاطر كأنى بطيء التهم حين
يعيد (٣) .

الثاني :

يشير الزمخشري إلى أن النقي قد يأتي في صورة الإثبات وهو حينئذ يدل على
أبلغ الجحود والإنكار يقول في قوله تعالى وأهذا الذي بعث الله رسولا ، وبعث الله
رسولا وإخراجه في معرض التسليم والإقرار وهم على غاية الجحود والإنكار
سخيرية واستهزاء . ولولم يستمزنوا لقالوا أهذا الذي زعم أو ادعى أنه مبعوث
من عند الله رسولا (٤) .

وقد يحذف حرف الإنكار الدال على النقي ليكون النقي أبلغ وأكثر وفلك

(١) الكشاف ج ٤ ص ١٢٧

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٤٥٩

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٤٦٦

(٤) حاشية ابن الفير في نفس الصفحة .

كقوله تعالى ومثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن، يقول الزجاجي
فإن قلت ما معنى قوله تعالى مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار كمن هو خالد
في النار؟ قلت هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإسكار لانطوائه تحت
حكم كلام مصور بحرف الإسكار ودخوله في حيزه وانخراطه في مصالحة، وهو
قوله تعالى وأمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله، فكأنه قيل أمثل الجنة
كمن هو خالد في النار أي كمثل جزاء من هو خالد في النار فإن قلت فلم عرى من
حرف الإسكار وما فائدة التعرية؟ قلت تعريته من حرف الإسكار فيها زيادة
تصوير المسكوبة من يسوى بين التمسك بالبينية والتابع لحواه وأنه بمنزلة من يشبه
التسوية بين الجنة التي تجري فيها تلك الأنهار وبين النار التي يسقى أهلها الحميم
ونظيره قول القائل:

أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورت ذودا شصائصا نبلا

هو كلام منكر لأفرح برزية الكرام وورائة الزود مع تعريته عن حرف
الإسكار لانطوائه تحت حكم قول من قال أفرح بموت أخيك وورائة إبله والذي
طرح لأجله حرف الإسكار لإرادة أن يصور قبح ما أذن به فكأنه قال له نعم فمثل
يفرح بمرزأة الكرام وبأن يسقبدل منه زودا يقل طائله وهو من القسليم الذي
تحمته كل إنكار (١).

وقد يتوجه النفي إلى معنى ثابت ليفيد بهذا أن وجوده مخالف لما ينبغي أن
أن يكون وأن الأصل في مثله أن يكون منفيًا وذلك في قوله تعالى ولا تعبد قوما
يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله، من باب التخييل خيل أن
من الممتنع المحال أن نجد قوما مؤمنين يوالون المشركين والغرض به أنه لا ينبغي
أن يكون ذلك وحقه أن يتمنع ولا يوجد بحال مبالغة في النهي عنه والرجوع عن
ملايسته والتوصية بالتغلب في محاربة أعداء الله ومباعدتهم والاحتراس عن مخالطتهم
ومعاشرتهم (٢).

وقد يتوجه النفي إلى الفعل في حالة من حالاته وليس المراد تخصيص النفي

(١) السكاف ج ٤ ص ٢٥٥

(٢) السكاف ج ٤ ص ٢٦٦

بهذه الحالة وإنما المراد نفيه في كل الأحوال وخصت هذه الحال لأن القفل معها أقبح فالنفس في طواعيتها لمجانبتها أسرع . يقول في قوله تعالى فلا رفك ولا فسوق ولا جدال في الحج، وإنما أمر باجتنب ذلك وهو واجب الاجتناب في كل حال لأنه مع الحج أسمح كلبس الحرير في الصلاة والنظير في قراءة القرآن ، والمراد بالنفي وجوب انتفاتها وأنها حقيقة بالأ تكون (١) .

وقد يعمد البليغ إلى نفي تقيض الشيء قصداً إلى إثباته ، وفي هذه الطريقة يدرك الزمخشري لمسات فنية لها وقع ولها نفاذ، يقول في قوله تعالى وإن لك ألا تمحوع فيها ولا تعرى وإنك لا تعلمها فيها ولا تضحى، الشبح والرى والسكوة والكن هي الأقطاب التي يدور عليها كفاف الإلسان فذكره استجاءها له في الجنة وأنه مكفى لا يحتاج إلى كفاية كاف ولا إلى كسب كاسب كما يحتاج إلى ذلك أهل الدنيا وذكرها بلفظ النفي لتقائضها التي هي الجوع والعري والظلم والضحوة ليطرق سمعه بأسامي أصناف الشقوة التي حذره منها حتى يتحامي السبب الموقع فيها كراهة لها (٢) .

وقد يتوجه النفي إلى مقيد فيوم أن المراد نفي المقيد في حالة قيده خصوصاً ولكن المراد هو نفي المقيد والمقيد في كل الأحوال، يقول في قوله تعالى ولا يسألون الناس إلحافاً ، وهو نفي للسؤال والإلحاف جميعاً كقوله ، على لا حب لا يهتدى بمناره، يريد نفي المنار والاهتداء به (٣) وبين ما في هذه الطريقة من المبالغة في نفي القيد ويحتمل هذا ويبسطه يقول في قوله تعالى ما للظالمين من حميم ولا شفيح يطاع فإن قلت ما معنى قوله تعالى ولا شفيح يطاع ؟ قلت يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معاً وأن يتناول الطاعة دون الشفاعة كما تقول ما عندي كتاب يباع فهو محتمل نفي البيع وحده وإن عندك كتاباً إلا أنك لا تبيعه، ونفيهما جميعاً وأن لا كتاب عندك ولا كونه مبيعاً ونحوه .

(١) الكشاف ج ١ ص ١٨٤

(٢) د ج ٣ ص ٧٦-٧٧

(٣) د ج ١ ص ٢٤٣

ولا ترى الضب بها يتجهر .

يريد نفي الضب وانجساره فإن قلت فهل أى الاحتمالين يجب حمله ؟ قلت على نفي الأمرين جميعاً من قبيل أن الشفاء هم أولياء الله وأولياء الله لا يحبون ولا يرضون إلا من أحبه الله ورضيه وإن الله لا يحب الظالمين فلا يحبونهم وإذا لم ينصروهم ولم يشفوا لهم . . فإن قلت الغرض حاصل بذكر الشفيع ونفيه فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها ؟ قلت في ذكرها فائدة جليلة وهي أنها ضمت إليه ايقام انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة لأن الصفة لا تنأى بدون موصوفها فيكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف. بيانه أنك إذا عوتبت على القعود عن الفزوفات مالى فرس أركبه ولا معنى سلاح أحارب به فقد جعلت عدم الفرس وفقد السلاح علة مانعة من الركوب والمحاربة كأنك تقول كيف يتأق من الركوب والمحاربة ولا فرس لى ولا سلاح معنى فكذلك ولا شفيع يطاع معناه كيف يتأق الشفيع ولا شفيع فكان ذكر الشفيع والاستشهاد على عدم تأنيه بعدم الشفيع وضماً لا انتفاء الشفيع موضع الأمر المعروف غير المتكرر الذى لا ينبغي أن يتوهم خلافه (١) .

وقد يراد تعميم النفي وشموله فيتجه النفي إلى أخص حالات المنفى التى يلزم من نفيها نفي ما عداها وذلك كما في قوله تعالى « ليس بى ضلالة » يقول الرعشى فإن قلت لم قال ليس بى ضلالة ولم يقل ضلال كما قالوا ، قلت الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كأنه قال ليس بى شيء من الضلال كما لو قيل لك ألك تمر ، قلت مالى تمره (٢) .

وقد يتجه النفي إلى أبلغ حالات المنفى والمراد نفيه في حالاته كلها ونفي الأبلغ لا يقتضى نفي ما هو دونه ولكن المتكلم يعمد إلى هذه الطريقة ليلفت إلى أن البلوغ إلى أبلغ الحالات في هذا الفعل المنفى حقيق بمن هو في مثل حاله مثال ذلك قوله تعالى « وله من فى السموات والأرض ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون » فقد نفي عنهم الاستحسار الذى هو مخالفة فى الحسور

(١) الكشاف ج ٤ ص ١٢٢ — ١٢٤

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٨٩

والمراد نفي أدنى مراتب الحسور لا أبلغها ، ونفي الأبلغ كما قلنا لا يستلزم نفي الأقل ولسكنه عمد إلى هذا ليشير إلى أن ما هم فيه من مواصلة العبادة حقيق بأن يصيهم بغاية الضعف والكلال ، يقول الزمخشري فإن قلت الاستحسار مبالغة في الحسور فكان الأبلغ في وصفهم أن ينفي عنهم أدنى الحسور ، قلت في الاستحسار بيان أن ما هم فيه يوجب غاية الحسور واقصاه وأنهم أحقوا لتلك العبادات الباهظة بأن يستحسروا فيما يفعلون أي تسيبهم متصل دائم في جميع أوقاتهم لا يتخلله فترة بفراغ أو شغل آخر (١) .

وقد يتجه النفي إلى ما علم نفيه وذلك للفت السامع إلى نفسه ومراجعة فكره حتى يرجع إلى الحق ، وفيه ضرب من التهمك وذلك كما في قوله تعالى . وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون . يقول الزمخشري فإن قلت لم نفيتم المشاهدة وانتفاؤها معلوم بغير شبهة ، وترك نفي استماع الأنبياء من حفاظها وهو موهوم ، قلت كان معلوماً عندهم علماً يقينياً أنه ليس من أهل السماع والقراءة وكانوا منكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع ولا قراءة ، ونحوه وما كنت بجانب الغربي ، وما كنت بجانب الطور ، وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم (٢) .

وتتكرر هذه الضورة من النفي ويكرر الزمخشري هذا التحليل الواضح في قوله تعالى ذلك من أنبياء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون . قال الزمخشري والمعنى أن هذا النبأ غيب لم يحصل لك إلا من جهة الوحي لا أنك لم تحضر بني يعقوب حين أجمعوا أمرهم وهو القارئ أخاهم في البئر كقوله وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب ، وهذا تهكم بقريش وبمن كذبه لأنه لم يخف هل أحد من المكذبين أنه لم يكن من حملة هذا الحديث وأشباهه ولا لقي فيها أحداً ، ولا سمع فيه ولم يكن من علم قومه ، فإذا أخبر به وقص هذا القصص العجيب الذي أعجز حمانه ورواته لم تقع شبهة في أنه ليس منه وأنه من جهة الوحي ، فإذا انكروه تهكم بهم وقيل لهم علمتم بالمكابرة أنه لم يكن شاهداً لما مضى من القرون الخالية ونحوه وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر (٣) .

(١) الكهف ج ١ ص ٢٧٨

(٢) الكهف ج ٣ ص ٨٥

(٣) الكهف ج ٢ ص ٣٩٥

القصر :

تسكلم الزمخشري عن إفادة صرر التقديم لمعنى الاختصاص وقد بينا رأيه في هذا وقد حاول بعض الدراسين أن يحدد فرقا بين الاختصاص والحصر وقال التخصيص قصد المتكلم إفادة السامع خصوص شيء من غير تعرض لغيره بإثبات ولا نفي بسبب اعتناء المتكلم بذلك الشيء وتقديمه له في كلامه ، فإذا قلت زيدا ضربت كان المقصود الأعم إفادة خصوص وقوع الضرب على زيد لا إفادة حصول الضرب منك ولا تعرض في الكلام لغير زيد بإثبات ولا نفي وأما الحصر فعناه نفي غير المذكور وإثبات المذكور ويعبر عنه بما وإلا وبإنما فهو زائد على الاختصاص ولا يستفاد بمجرد التقديم (١) وهذا الكلام غير صحيح لأنه ليس وصفا دقيقا لمفاد الأساليب فضلا عن أنه يخالف فهم الثقات في دراسة التراكيب .

وتسكلم الزمخشري عن النفي والاستثناء ومن الواضح أن البلاغيين درسوا النفي والاستثناء في موضعين الأول القصر حيث بينوا القصر الإضافي وقصر الصفة على الموصوف والموصوف على الصفة وكان النفي والاستثناء كأنه رأس باب القصر ، والثاني في علم البديع حين ذكروا تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه . وكأنها في تصورهم لا تستعمل في الأساليب البليغة إلا في هذين الموضعين وأن معانيها الأدبية والبلاغية لا تمدوها .

وقد أشار الزمخشري إلى إفادتها التأكيد أى تأكيد ما استعملت فيه وليس تأكيد المدح بما يشبه الذم ولا عكسه فقط وهذا التأكيد هو الذى تفرعت عنه دلالة القصر لأنه تأكيد على تأكيد ثم إنه يتجدد معناه تبعا لتجدد الجملة واختلاف سياقها . فن ذلك التأكيد في مقام النصح والارشاد ، كما في قوله تعالى وقل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا .

قال الزمخشري لإفعل من شاء واستثنائه عن الأجر قول ذى شفقة عليك قد سعى لك في تحصيل مال ما أطلب منك هو أبنا على ما سميت إلا أن تحفظ هذا المال ولا تضعه فليس تحفظك المال لنفسك من جنس الثواب لكن صوره هو

(١) تقرير الشمس الابواب ج ٢ ص ٢٧

بصورة الثواب وسماه باسمه فأفاد قائمتين أحدهما خلع شبهة الطمع في الثواب من أصله كأنه يقول لك إن كان حفظك لمالك ثوابا فأني أطلب الثواب والثانية اظهار الشفقة بالبائسة وأنتك إن حفظت مالك اهدت بحفظك ثوابا ورضى به كما يرضى المثاب بالثواب (١) .

ويلاحظ أنها أحسن ما تكون موقعا إذا كان ما بعد إلا غير داخل فيها قبلها أى في حال الاستثناء المنقطع وكان البلاغيين وأكثرهم من مقدمى النحاة لما قصروا البحث فيها على هذين الموضوعين أستلهموا باب الاستثناء في النحو وكان بحث القصر امتداد للاستثناء المتصل غير الموجب ، وبحث تأكيد المدح في أحد وجوه امتداد الاستثناء المنقطع غير الموجب ، وإذا كنا نلاحظ أنها أحسن ما تكون موقعا في حالة الاستثناء المنقطع فإن هذا يعنى أن البلاغيين أهملوا بحث أحسن مواقفها لأنهم لم يدرسوا من هذه الأحوال حالا واحدة هى تأكيد المدح بما يشبه الذم وعكسه ولست ادرى لماذا اختص البلاغيون هذه الحالة ودرسوها وأهملوا غيرها من حالات التأكيد وهى جد كثيرة في كتاب الله الذى هو غرض الأغراض من الدراسة البلاغية . وهناك كثير من الصور التى تنبى إليها الزمخشري ونبه إليها وهى كما قلت تدور حول فائدة التأكيد يقول الزمخشري في قوله تعالى وليس لهم طعام إلا من ضريع لا يسمن ولا يفنى من جوعه أو أريد لا إطعام أصلا ، لأن الضريع ليس بطعام للبهائم فضلا عن الاليس لأن الطعام ما أشبع أو أسمن وهو منهما بمنزلة كما تقول ليس لفلان ظل إلا الشمس تريد نفي الظل هل التوكيد (٢) .

ويقول في قوله تعالى دقل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله . فإن قلت لهم رفع اسم الله والله يتعالى أن يكون من فى السموات والأرض ؟ قلت دعوت إليه تسكته سرية . . . ليمول المعنى إلى قولك أن كان الله من فى السموات والأرض ، فهم يعلمون الغيب يعنى أن عليهم الغيب فى استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم كما أن معنى ما فى البيت — يعنى قوله :

(١) الكشاف ج ٣ ص ٢٢٧

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٢٩٥

وبلدة ليس بها أييس إلا اليعاقير وإلا العيس
إن كانت اليعاقير أييسا ففيها أييس بتنا لقول بخلوها عن الأييس (١) وبيان وجه
الدلالة على التوكيد في هذه الجملة هو ما ذكره البلاغيون في بيان وجه الدلالة في
توكيد المدح بما يشبه الذم .

ثم إن الزمخشري يربط هذه الطريقة من التوكيد بطريقة أخرى يسميها العكس
أحيانا ، وقد سماها البلاغيون طريقة التنويع واختلفوا في موضعها وهم يصنفون
فنون البلاغة على علومها الثلاثة . يقول في قوله تعالى «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من
أتى الله بقلب سليم» وهو من قولهم تحية بينهم ضرب وجيع وما ثوابه إلا السيف
وبيانها أن يقال لك هل لزيد مال وبنون فنقول ماله وبنوه سلامة قلبه تريد أفي
المال والبنين هنه وإثبات سلامة القلب له بدلا من ذلك (٢) .

ويقول في قوله تعالى «وما أقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد»
وما أقموا منهم وما عابوا منهم وما أنكروا إلا الإييمان كقوله ولا عيب فيهم غير
أن سيوفهم . قال قيس الرقيات :

ما أقموا من بني أمية إلا أنهم يحملون إن غضبوا (٣)

وواضح أن ما ذكره في هذه الآية مر أمثلة البلاغيين في باب البديع حين
يتكلمون في تأكيد المدح بما يشبه الذم .

فلنا إن الزمخشري تكلم في التقديم وبين إفادته للاختصاص وتكلم في الذم
والاستثناء وأشار إلى معاني هذه الأداة الأدبية وحسن موقعها في باب التوكيد .
ونقول إنه في هذا المجال يذكر ويشير إلى أنها تفيد قصر الصفة على الموصوف
يقول في قوله تعالى «إنما نحن مصلحون» . وإنما لقصر الحكم على شيء كقولك
«إنما ينطلق زيد» أو «قصر الشيء على حكم كقولك «إنما زيد كاتب ومعنى «إنما نحن
مصلحون أن صفة المصلحين خلصت لهم وتمحضت من غير شائبة قادح فيها من وجه

(١) الكشاف ج ٣ ص ٢٩٢ .

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٥٢ .

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٥٨٤ .

من وجوه الفساد (١) .

ويشير الى ما فيها من معنى التعريض ، ذلك المعنى الذي شرحه عبد القاهر شرحاً مبسوطاً وجعله أحسن مواقعها ، يقول في قوله تعالى وإنما يستجيب الذين يسمعون .
يعنى أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمنزلة الموقى الذين لا يسمعون وإنما يستجيب من يسمع كقوله إنك لا تسمع الموقى (٢) .

والمقصور عليه في وإنما هو المتأخر يقول في قوله تعالى وإنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها ، قصر لجنس الصدقات على الأصناف المحدودة وإنما مختصة بها لا يتجاوزها الى غيرها كأنه قيل إنما هي لهم لا لغيرهم ونحوه قولك إنما الخلافة لقريش ، تريد لا تعداهم ولا تكون لغيرهم (٣) .

وقد فهم بعض البلاغيين من كلامه في غير هذا الموضع أن المقصود عليه في إنما ليس بلازم أن يكون متأخراً بل قد يكون هو المتقدم وذلك كما في قوله في آية إنما سكرت أبصارنا ، وقالوا إنما ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيراً للأبصار (٤) .

وقد جمع الشباب الحفاجي جملة من آراء البلاغيين في هذه المسألة وذكر موقف بعضهم من كلام الزمخشري ، يقول الشباب بين الزمخشري الحصر بقوله يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيراً وتبمه بعض المتأخرين وأورد عليه العلامة أن إنما تفيد الحصر في المذكور آخراً فيكون الحصر في الأبصار لا في التسكير فكأنهم قالوا سكرت أبصارنا لا عقولنا فنحن وأن تخيلنا هذه الأشياء بأبصارنا لكن نعلم بعقولنا في الحال بخلافه ثم اضربوا عن الحصر في الأبصار وقالوا بل تجاوز ذلك إلى عقولنا وكذا قال الإمام أيضاً وهذا مبنى على أن تقديم المقصود على المقصود عليه لازم ، أو خلافه ممتنع ، وقد قال المحقق في شرح التلخيص أنه يجوز

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٨ .

(٢) الكشاف ج ٧ ص ١٥ .

(٣) الكشاف ج ٧ ص ٢٢١ .

(٤) الكشاف ج ٧ ص ٤٤٧ .

إذا كان نفس التقديم مفيداً للقصر كما في قولنا إنما زيداً ضربت فإنه لقصر الضرب
على زيد . قال أبو الطيب .

أساميا لم تزد معرفة إنما لدة ذكرناها
أي ما ذكرناها إلا لده ، وأجاب بأن الكلام فيما إذا كان القصر مستفاداً من
إنما وهذا ليس كذلك وجوابه غير مسلم فإنه قال في هروس الأفراح إن هذا الحكم
غير مسلم فإن قولك إنما قت معناه لم يقع إلا القيام فهو لحصر الفعل وليس بأخير
ولو قصد حصر الفاعل لا انفصل ثم أورد أمثلة متعددة من كلام المفسرين تدل على
خلاف ما قاله أهل المعاني في هذه المسألة فالظاهر أن الزعخشري لا يرى ما قالوه
مضطرباً وهم قد غفلوا عن مراده هنا (١) .

وكلامه لا يدل على ما فهموه منه فليس فيه شيء يتعلق بالمقصود عليه أو
المقصود وإنما هو بيان لما تضمنته كلام المعاندين وأكدوه وإنما ليشبتوا أن ذلك
تسكير وليس بآية دالة على صدق النبي ، أما أن التسكير في الأبصار لا في العقول
فهذا شيء لم يعن الزعخشري ببيانه وإنما عنايته ببيان ما قالوه عن الحجة المبينة
ولو أراد الزعخشري ما فهموه من قصر الأبصار على التسكير لقال ليدل على
أنهم يبتون القول بأن أبصارهم ليست إلا مسكرة أما قوله بأن ذلك ليس إلا
تسكيراً للأبصار فعناه أن ما رآه ليس إلا تسكيراً للأبصار لا يتعداه إلى كونه
آية فهو قصر ما رآه على التسكير لئني أن يكون حجة .

المطف :

ويلاحظ الزعخشري في المطف بالوار معاني أدبية لم يستخرجها النحاة غالباً
ولم يلتفتوا إليها لأنها تتصل بالناحية الجمالية أكثر من اتصالها بالصواب والخطأ .

فن ذلك أن المعطوف عليه بالوار لا يكون مقصوداً بالحكم وإنما يذكر
للدلالة على قوة صلته بالمعطوف وأنه منه يمكن وذلك كما في قوله تعالى يا أيها
الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله . يقول الزعخشري ويهوز أن يجرى
بجرى قولك مني زيد وحسن حاله وأعجبت بمروره وكرمه ، وفائدة هذا الأسلوب

الدلالة على قوة الاختصاص ولما كان رسول الله عليه السلام من الله بالمكان الذي لا يخفى سلك به ذلك المسلك (١) .

ويقول في قوله تعالى : ليحطمنكم سليمان وجنوده ، أراد ليحطمنكم جنود سليمان فجاء بما هو أبلغ ، ونحوه عجبت من نفس ومن اشفاقها (٢) .

وقد أخذ البلاغيون من كلامه في تحليل هذه الطريقة أنه إذا ذكر اسمان متعاطفان والحكم انما هو لاحدهما افاد قوة اختصاص المعطوف بالمعطوف عليه وانها بمنزلة شيء واحد بحيث يصح نسبة اوصاف احدهما واحواله إلى الآخر وأن هذه الطريقة غير طريقة البدل لان الثاني هو المقصود بالنسبة فيها ففرق بين قوله أعجبت زيد وكرمه وأعجبت زيد وكرمه (٣) .

ومن ذلك أي ومن مواقع الواو البلاغية - أن المعطوف قد لا يراد تشريكه في الحكم مع المعطوف عليه وانما يراد اللفظ إلى معنى يحدده سياق الكلام . يقول الزمخشري في قوله تعالى : فامسحوا برؤوسكم وأرجلكم ، فإرجاعكم بالنصب فدل على أن الأرجل مغسولة ، فان قلت : فإصنع بقراءة الجزم ودخولها في حكم المسح ؟ قلت الأرجل من بين الأضواء الثلاثة المغسولة تنسل يصب الماء عليها فكأن مظنة الإسراف المذموم المنهى عنه فنعطف على الثالث المسح لا تمسح ولكن لينبه على وجوب الإقتصار في صب الماء عليها (٤) .

وقد تدخل الواو على الجملة الواقعة صفة للنكرة وحينئذ تفيد تأكيد وصف الموصوف بالصفة يقول في قوله تعالى : سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربي أعلم بعدتهم ، فان قلت : فإ هذه الواو الداخلة على الجملة الثالثة ، ولم تدخل عليها دون الأولى ؟ قلت هي الواو التي تدخل على الجملة الواقعة صفة للنكرة كما تدخل على الواقعة حالاً عن المعرفة في نحو قولك جاءني رجل ومعها آخر ومررت بزيد وفي يده سيف ، ومنه

(١) الكشاف ج ٤ ص ٧٧٨

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٨١

(٣) منظر حاشية الضم ١ ج ٩ ص ٣٩٤ والكشاف ج ٣ ص ١٩٥ - ١٩٦ .

(٤) الكشاف ج ١ ص ٤٧٤

قوله تعالى ، وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم ، وفائدتها تأكيد حصول
الصفة بالموصوف والدلالة على أن اتصافه بها أمر ثابت مستقر ، وهذه الواو هي
التي أدت بأن الذين قالوا سبعة وثمانتهم كلهم قالوا عن ثبات وعلم وطمأنينة نفس
ولم يرجعوا بالظن كما قال غيرهم والدليل عليه أن الله سبحانه اتبع القولين
الأوليين قوله رجعا بالغيب واتبع القول الثالث قوله وما يعلمهم إلا قليل وقال
ابن عباس رضي الله عنه حين وقعت الواو انقطعت العدة لم يبق بعدها عدة عاد
يلتفت إليه (١) .

ويكرر هذا الكلام في قوله تعالى وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب
معلوم (٢) .

وقد تقع الواو فاصلة في ذكر الشيء بالفاظ متعددة كل منها مشعر بوصف
من أوصافه فتفيد هذه الواو أن هذا المذكور جامع لكل هذه الصفات يقول في قوله
تعالى ، وإذا آتينا موسى الكتاب والفرقان ، يعني الجامع بين كونه كتاباً منزلاً
وفرقاناً يفرق بين الحق والباطل يعني التوراة كقولك رأيت الغيث والغيث تريد
الرجل الجامع بين الجود والجرأة ، ونحوه قوله تعالى ، ولقد آتينا موسى
وهرون الفرقان وضياء وذكرى للتيقن قوى يعني الجامع بين كونه فرقاناً وضياء
وذكرى (٣) .

وقد تقع الواو بين الصفات للإشارة إلى أن الموصوف بلغ السكالات في كل
صفة منها يقول في قوله تعالى ، الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين
والمستغفرين بالأسحار ، والواو المتوسطة بين الصفات للدلالة على كمالهم في كل
واحدة (٤) منها .

وقد تفيد الواو أن أحد المتعاطفين قد بلغ في الوصف المراد بياته مبلغ الآخر
الذي عرف وشهر ببلوغه الغاية في هذا الوصف ، يقول في قوله تعالى ، واتقوا الله

(١) الكشاف ج ٢ ص ٥٥٧

(٢) ينظر الكشاف ج ١ ص ٤٤٤ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ١٠٥ .

(٤) الكشاف ج ١ ص ٢٦٣

الذى تساءلون به والارحام . وقد آذن عز وجل إذ قرن الارحام باسمه ان صلتها منه بمكان كما قال لا تعبدوا إلا الله وبالوالدين إحسانا (١) .

ويقول في قوله تعالى سنكتب ما قالوا وقتلهم الانبياء بغير حق، وجعل قلوبهم الانبياء قرينة له لئذانا بأنهما في العظم إخوان (٢) .

وقد تأتي الصفات متتابعة لا يفصلها عاطف ثم تقع الواو بين صفتين منها وهذا يختلف لسق هاتين الصفتين عن باقى الصفات ويبحث الزخشرى عن هذه المخالفة . يقول في قوله تعالى رحم تنزيل الكتاب من الله العزيز الغافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى العول . فإن قلت ما بال الواو في قوله وقابل التوب ؟ قلت فيها نكتة جليلة وهي إفادة الجمع للذنب التائب بين رحمتين بين أن يقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات وأن يجعلها محامة للذوب كأن لم يذنب كأنه قال جامع المغفرة والقبول (٣) .

وقد تقع الواو بين صفتين من الصفات المتتابعة بدون عاطف لا للإشارة إلى أن المذكور يجمع بين الصفتين كما في الآية السابقة ولكن الإشارة إلى أنه لا يمكن الجمع بينهما لتنافي المعنى فيما يقول في قوله تعالى عسى ربه إن طلقكن أن يبدل أزواجهن خيراً منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات ساجدات ثيبات وأبكاراً . فإن قلت لم أخليت الصفات كلها عن العاطف ووسط بين الثيبات والأبكار ؟ قلت لأنهما صفتان متنافيتان لا يجتمعن فيما اجتماعهن في سائر الصفات فلم يكن بد من الواو (٤) .

وقد أشار الزخشرى إلى ما يفيد عطف البيان من معنى التوكيد والتعريف وذلك لأن البيان يعنى أن المبين هو عين الشيء المتقدم لأنه تفسير له وتبيين وبهذا يتكرر ذكره ثم إنه قد يكون في المعطوف عليه معنى من المعاني التي يتميز بها فيصير هذا المعنى وصفاً للمعطوف وعلامة له . يقول في قوله تعالى وإذ نادى

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٥٦

(٢) الكشاف ج ١ ص ٢٤٣ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ١١٩ .

(٤) الكشاف ج ٤ ص ٤٥٤ - ٤٥٥ .

وبك موسى أن امت القوم الظالمين قوم فرعون، سجل عليهم باظلم بأن قدم القوم الظالمين ثم عطفهم عليهم عطف البيان كأن معنى القوم الظالمين وترجمته قوم فرعون (١). ويقول في قوله تعالى ألا بعدا لعاد قوم هود (قوم هود عطف بيان لعاد فإن قلت ما الفائدة في هذا البيان والبيان حاصل بدونه ؟ قلت الفائدة فيه أن يوسموا بهذه الدعوى وسما وتعمل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه (٢).

البديل :

وطريقة البديل لا تكاد تختلف من الناحية البلاغية عن طريقة عطف البيان فكلاهما فيه تشبيه وتأكيد، لأن فيه جمعا بين المفسر والتفسير، وكلاهما مشعر بأن الثاني هو عين الأول وكأنه ترجمته وإن كان أخص منه في بعض صورته، وكلام الزمخشري في البديل لا يختلف كثيراً عن كلامه في عطف البيان. يقول في قوله تعالى واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم (صراط الذين أنعمت عليهم) بديل من الصراط المستقيم، وهو في حكم تكرير العامل، كأنه قيل اهدنا الصراط المستقيم اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم كما قال الذين استضعفوا لمن آمن منهم فإن قلت ما فائدة البديل ؟ وهلا قيل اهدنا صراط الذين أنعمت عليهم ؟ قلت فائدته التوكيد، لما فيه من التثنية، والتكرير، والإشعار، بأن الطريق المستقيم بياناً وتفسيره صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وأكثره كما تقول هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ؟ فلان: فيكون ذلك في وصفه بالكرم والفضل من قولك هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل لأنك تثبت ذكره بجملا أولاً ومفصلاً ثانياً وأوقعت فلانا تفسيراً وإيضاحاً للأكرم الأفضل فجعلته هدأً في الكرم والفضل فكأنك قلت من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين فعليه بفلان فهو الشخص المعين لاجتماعهما غير مدافع ولا منازع (٣).

ولا نهدده قد ذكر فائدة البديل في تفسيره بمثل ما ذكره هنا وما ذكره في غير

(١) الكتاب ج ٣ ص ٢٣٧ .

(٢) الكتاب ج ٢ ص ٣١٧ .

(٣) الكتاب ج ١ ص ١٣ .

هذا الموضع لا يبدو أن يكون تلخيصاً لبعض ما ذكره هنا ، كما يقول في قوله تعالى ، ولا بويه لكل واحد منهما السدس ، ، فإن قلت فهلا قيل ولكل واحد من أبويه السدس وأى فائدة في ذكر - لابويه أولاً - ثم في الإبدال منهما ؟ قلت لأن في الإبدال والتفصيل بعد الإجمال تأكيداً وتشديداً كالذي تراه في الجمع بين المفسر والتفسير (١) .

الوصف :

وقد لاحظ الزعشمري أن الصفة قد تكون للدلال على تعظيم الموصوف كما في قوله تعالى ، ولا آمين البيت الحرام يهتفون فضلاً من ربهم ورضواناً ، يقول أى لا يتعرضون لقوم هذه صفتهم تعظيماً لهم واستنكاراً أن يتعرضوا لمثلهم (٢) .

وقد تكون المدح الموصوف فيكون الموصوف مدحاً لها وذلك إذا أجريت صفة عظيمة على موصوف عظيم يقول في قوله تعالى ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا ، صفة أجريت على النبيين على سبيل المدح كالصفات الجارية على القديم سبحانه لا للتفصيل والتوضيح ، وأريد بإجرائها التعريض باليهود وأنهم بعداء عن ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء كلهم في القديم والحديث (٣) . والتعريض باليهود وبأنهم بعداء عن ملة الإسلام التي هي دين الأنبياء لا يكون إلا لأن الصفة قد أفادها الموصوف مزيداً من التعظيم والتقدير ، فالمدح الذي ذكره الزعشمري مدح للصفة والموصوف معاً وقد علق ابن المنير على هذا بما يفيد اعتراضه على كلام الزعشمري من حيث إن الصفات الجارية على القديم سبحانه وعلى النبيين عليهم السلام والملائكة المقربين إنما هي لإعظام الصفات بالموصوفين لا لإعظام الموصوفين بالصفات وأن الغرض منها هو حث الناس على اكتسابهم لها وترغيبهم فيها لأنها صفات العظماء وإذا كانت النبوة أعلى من الإسلام فإن مدحهم بالإسلام بعدها يكون نزولاً من الأعلى إلى الأدنى وهذا عكس قانون البلاغة في الترقى في الصفات من الأدنى إلى الأعلى وهذا أضى مدح الصفات

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٧٦

(٢) الكشاف ج ١ ص ٤٦٤

(٣) الكشاف ج ١ ص ٤٩٤ - ٤٩٥

بالموصوفين طريقة عرفها الشعراء وعلينا قول القائل في مدح المصطفى عليه السلام:

ما إن مدحت محمدا بقصيدتي لكن مدحت قصيدتي بمحمد

وهذا ملخص ما ذكره ابن المنير وهو كلام طيب ولاكننى كما قلت أرى أن كلام الزمخشري يفيد ما اعترض عليه به من أن الوصف هنا لمدح الموصوفين والصفات بدليل ما ذكره من التعريض ولأن فضل النبوة على الإسلام لا يغيب عنه ولأن الترقى من الأدنى إلى الأعلى أمر لا يجهله كما سنجين وأنه لا خير علينا إن قلنا إن صفات القديم سبحانه مدح له لأنها خاصة به كالقدرة والرزق والاحياء إلى آخرها كما أن وصف النبيين بالإسلام مدح لهم لأن الله قد اختاره لهم فلا حل إذن لما اعترض به ابن المنير .

وقد يكون الوصف للإفادة بأن الموصوف أمر يستعظم وقوعه ويستبعد حدوث مثله كما في قوله تعالى كبرت كلمة تخرج من أفواههم . قال الزمخشري ووصفه له - كلمة - تفيد استعظاما لاجترأتهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم فإن كثيراً مما يوسوسه الشيطان في قلوب الناس ويحدثون به أنفسهم من المنكرات لا يتماثلون أن يتفوهوا به ويطلقوا به السنتهم بل يكظمون عليه ثشورا من إظهاره فكيف بمثل هذا المنكر (١) .

وقد يكون الوصف لزيادة التعميم والإحاطة كما في قوله تعالى : وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم . يقول فإن قلت وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم وما معنى زيادة قوله في الأرض ويطير بجناحيه؟ قلت معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة كأنه قيل وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها (٢) .

وقد يكون الوصف لتحديد المراد من الموصوف وتمييز مدلوله وذلك إذا كان دالا على أمرين والمراد تخصيص أحدهما كما في قوله تعالى : وقال الله لا تتخذوا الهين اثنين إنما هو إله واحد قال الزمخشري فإن قلت إنما جمعوا بين

(١) الكشاف ج ٢ ص ٤٤٩

(٢) الكشاف ج ٢ ص ١٦

العدد والمعدود فيما وراء الواحد والإثنين فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد ورجلان اثنان فما وجه قوله الهين اثنين؟ قلت الاسم الحامل لمعنى الأفراد والتثنية دال على شيئين على الجنسية والعدد المنصوص فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما والذي يساق له الحديث هو العدد شفع بما يؤكد فدل به على القصد إليه به ألا ترى أنك لو قلت إنما هو إله ولم تؤكد بواحد لم يحسن وتخيل أنك تثبت الألوهية لا الوحدانية (١).

ويدرك الزمخشري الملائمة الدقيقة بين الصفات والموصوفين ويعينه على هذا تأمل بصير لمندلول الكائنات وإيجاءاتها ، يقول في قوله تعالى « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار . فإن قلت لم جعلت الشمس غير مدركة والقمر غير سابق؟ قلت لأن الشمس لا تقطع فلسكها إلا في سنة والقمر يقطع فلسكها في شهر فكائنات الشمس جديرة بأن توصف بالإدراك لتباطئ سيرها عن سير القمر وكان القمر خليقاً بأن يوصف بالسبق لسرعة سيره (٢) .

وقد يوصف الموصوف بصفتين متباينتين دالتين على معنى واحد دلالة عامة إلا أن إحداهما أبلغ من الأخرى ، وحينئذ يبين الزمخشري أن الأصل في مثل هذا النوع من الصفات أن يرتبه المتكلم ترتيباً ينتقل فيه من الأدنى إلى الأعلى فيقال هو أبيض ناصع ولا يقال هو ناصع أبيض فإذا جاء الكلام البليغ على غير هذا الترتيب فذلك اغرض يكشف عنه النظر الواهي يقول في قوله تعالى «بسم الله الرحمن الرحيم . فإن قلت فلم قدم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه والقياس الترقى من الأدنى إلى الأعلى كقولهم فلان عالم تحرير وشجاع باسل وجواد فياض؟ قلت لما قال الرحمن فتناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها أودفها الرحمن كالتممة والرديف ليقناول مارق منها وبطن (٣) .

(١) الكشاف ج ٧ ص ٤٧٥

(٢) الكشاف ج ٤ ص ١٤

(٣) الكشاف ج ١ ص ٧

الحذف :

والحذف لا يكون إلا عند العلم وأمن الإلباس والشبهة إذا علم وشهر موقعه سهل حذفه واستقاطه، والزمخشري يقرر هذا الأساس في قوله تعالى ولو أشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون، يقول فإن قلت لم أدخلت اللام على جواب لو في قوله تعالى ولو أشاء جعلناه حطاما ونزعت فيه هنا؟ قلت إن لو لما كانت داخلة على جملتين معاقبة ثابتهما بالأولى تعلق الجزاء بالشرط ولم تكن مخصصة للشرط كإن ولا عاملة مثلها وإنما سرى فيها معنى الشرط اتفاقا من حيث إفادتها في مضمون جملتها أن الثاني امتنع لامتناع الأول افتقرت في جوابها إلى ما ينصب علما على هذا التعلق فزيدت هذه اللام لتسكون علما على ذلك فإذا حذفته بعد ما صارت علما مشهورا مكانه فلأن الشيء إذا علم وشهر موقعه وصار مألوقا وما نوسا به لم يبال باستقاطه عن اللفظ استثناء (١) .

ولم يكن كلام الزمخشري في الحذف مقصورا على بيان المحذوف كما هو الحال عند كثير من البلاغيين وإنما كان يبحث سره دائما ويكشف ما ينطوى عليه من معنى بلاغي . فالخبر قد يحذف ليفيد حذفه مزيدا من التقوية والتوكيد يقول في قوله تعالى وواعلوا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسة ، فإن لله مبتدأ خبره محذوف تقديره لحق أو فواجب أن لله خمسة وروى الجعفي عن أبي عمرو فإن الله بالسكسر وتقوية قراءة النخعي فله خمسة والمشهوره آ كدوأثبت للإيجاب كأنه قيل فلا بد من ثبات الخمس فيه ولا سبيل إلى الإخلال به والتفريط فيه من حيث أنه إذا حذف الخبر واحتمل غير واحد من المقدرات كقولك ثابت واجب حق لازم وما أشبه ذلك كان أقوى لإيجابه من النص على واحد (٢) .

والحذف الموصوف في بعض المواقع ذوق يدركه صاحب الحس ولا يخطئه والزمخشري يشير إلى هذا ويعال هذا الحسن بما في الحذف من الإبهام يقول في قوله تعالى وأن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، للحالة التي هي قوم الحالات وأسدها أو للملة أو للطريقة وأيما قدرت لم تجد مع الإثبات ذوق البلاغة الذي تجده مع

(١) الكتاب ج ٤ ص ٣٧١ .

(٢) الكتاب ج ٢ ص ٢٤٢ .

الحذف لما في إبهام الموصوف بحذفه من نخامة تفقد مع إيضاحه (١) .

وفي حذف المفعول ملاحظات قيمة تبلغ الغاية في الدقة وسمو الإدراك يقول في قوله تعالى وقال ربنا إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى . . أو أن يطغى بالتخطى إلى أن يقول فيك مالا ينبغي لجرته عليك وقسوة قلبه وفي الجوى . به هكذا على الإطلاق وعلى سبيل الرمز باب من حسن الأدب وتحاش من التفوه بالمعظمة (٢) .

وقد يكون حذف المفعول للدلالة على عظمة المحذوف حتى إنه لا يمكنه ولا يحيط به وصف كما يقول في قوله تعالى وإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم . . وورود الفعل غير معدى إلى المبدئين لإعلام بأن أفعاله هذه يتبين بها من قدرته وعلمه مالا يكتبه الذكر ولا يحيط به الوصف (٣) .

وقد يكون حذفه للدلالة على التعميم وإنه يتناول كل ما يصح أن يدخل تحت هذا الفعل فليس ذكر البعض بأول من الآخر كما في قوله تعالى إياك نستعين . يقول فإن قلت لم أطلقت الاستعانة به وبتوقيفه على أداء العبادة ويكون قوله أهدنا بيانا للمطلوب من المعونة كأنه قيل كيف أعينكم ؟ فقالوا أهدنا الصراط المستقيم وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض (٤) .

ومما شاع حذفه حتى لا يكاد يذكر مفعول شاء وأراد يقول في قوله تعالى ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم ومفعول شاء محذوف لأن الجواب يدك عليه والمعنى ولو شاء الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لذهب بها ولقد تكلم هذا الحذف في شاء وأراد لا يسكدون يبرزون المفعول إلا في الشيء المستغرب كنهو قوله :

(١) الكشاف ج ٧ ص ٨٠٥ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٢٦٦ .

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٥١ .

(٤) الكشاف ج ٣ ص ١١٤ .

فلو شئت أن أبكي دما لبكيتي . . .

وقوله تعالى لو أردنا أن نتخذ لهم آياتنا من لدنا ، لو أراد الله أن

يتخذ ولدا (١) .

ويعترض أبو حيان على ما ذهب إليه الزمخشري من أن مفعول المشيئة في الآية
والبيت إنما وجب ذكره لأنه أمر مستغرب لا يصح أن يكون المذكور دليلاً
عليه ، يعترض أبو حيان على هذا ويقول إن الذكر هنا ليس لما ذكره الزمخشري
ولأنما هو يعود الضمير إذ لو لم يذكر لم يكن للضمير ما يعود عليه (٢) .

وكلام أبو حيان مرفوض ، لأن عود الضمير لا يوجب ذكر المفعول مقدماً
عليه إذ يمكن ذكر اللفظ الصريح بدل الضمير ويكون البيت لو شئت لبكيت دما
وتكون الآية لو أردنا لا نتخذنا لهم آياتنا من لدنا وهذا كلام غامض لأنه ليس فيه
ما يدل على المحذوف لمرابته فقد ذكر المفعول هنا متعين كما قال الزمخشري والسبب
الذي ذكره .

والزمخشري يدل على ضرورة أن يكون المقدر من جنس المذكور الدال عليه
ولا ينظر في هذا فقرات الأخرى إذا كانت تدافع دلالة المذكور بقوله
تعالى وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا متر فيها ففسقوا فيها . أمرناهم بالفسق ففسقوا
والأمر مجاز فإن قلت فلا زعمت أن معناه أمرناهم بالطاعة ففسقوا ؟ قلت لأن
ملا دليل عليه غير جائز فكيف يحذف ما الدليل قائم على نقيضه ، وذلك أن
المأمور به إنما حذف لأن فسقوا يدل عليه وهو كلام مستفيض يقال أمرته فقرأ
لا تفهم منه إلا أن المأمور به قيام أو قرأة ولو ذهبت تقدر غيره فقد رمت من
مخاطبك علم الغيب . . .

فإن قلت فلا كان لموت العلم بأن الله لا يأمر بالفسق . وإنما يأمر بالقصد
والخير دليلاً على أن المراد أمرناهم بالخير ففسقوا ؟ قلت لا يصح ذلك لأن قوله
فسقوا يدافعه فكأنك أظهرت شيئاً وأنت تدعي اضمار خلافه . . . ونظير أمر
شأن في أن مفعوله استفاض فيه الحذف لدلالة ما بعده عليه تقول لو شاء لا حسن

(١) الكشاف ج ١ ص ٦٦ .

(٢) نظام البحر المحيط ج ١ ص ٨٩ .

إليك ولو شاء لاساء إليك تريد لو شاء الإحسان ولو شاء الإساءة فلو ذهب
تضمير خلاف ما أظهرت وقالت قد دلت حال من أسندت إليه المشيئة أنه من أهل
الإحسان أو من أهل الإساءة فأتزك الظاهر المنطوق به وأضمر ما دلت عليه
حال صاحب المشيئة لم تمكن على سداد (١) .

وقد يحذف المفعول لأن القصد إلى الفعل غير معتمد إلى شيء يقول في قوله
تعالى ديا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله، وفي قوله لا تقدموا من
غير ذكر مفعول وجهان أحدهما أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس عما
يقدم ، والثاني ألا يقصد قصد مفعول ولا حذفه ويتوجه بالنهي إلى نفس التقدم
كأنه قيل لا تقدموا هل التلبس بهذا الفعل ولا تجعلوه منكم بسبيل كقوله تعالى
وهو الذي يحيي ويميت (٢) .

والزخشرى كثيرا ما يردد حذف المفعول بين فرضين الأول إرادة العموم
فيحذف ليشمل كل ما يمكن أن يقع عليه الفعل والثاني ألا يراد له مفعول أصلا
وهذا واضح في الآية السابقة ويقول مثله في قوله تعالى وأقرأ باسم ربك الذي خلق
خلق الإنسان من علق (٣) .

ومن الواضح أن الزخشرى يستمد أكثر ما ذكره في هذا الموضوع من
كلام عبد القاهر في دلائل الأفعال وأن أكثر شواهد هنا من شواهد
عبد القاهر هناك (٤) .

ويشير الزخشرى إلى مواقع الجملة المحذوفة ويبين أسرار حذفها .
فقد تحذف الجملة المعطوف عليها لظهور معناها واسر بلاغى يتجدد بتجدد
مقامات الكلام يقول في قوله تعالى د وأوحينا إلى موسى إذا استسقاؤه فوه أنه
أضرب بمصالح الحجر فانبجست، فإن قلت فهلا قيل فاضرب فانبجست ؟ قلت لعدم
الإلباس وليجهل الانبجاس مسببا عن الإيجاء بضرب الحجر للدلالة على أن الموحى
إليه لم يتوقف عن اتباع الأمر (٥) .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٢٧٧

(١) الكشاف ج ٢ ص ٥١٠

(٣) ينظر الكشاف ج ٤ ص ٦٨١

(٤) ينظر دلائل الأفعال من ص ٩٥ إلى ١١٢

(٥) الكشاف ج ٢ ص ١٣٦

وقد تحذف جملة الشرط وتعدل عليها فاء النصيحة التي لا تقع إلا في الكلام البليغ يقول في قوله تعالى « فقلنا أضرب بعصاك الحجر فانفجرت » الفاء متعلقة بمحذوف أي فضرب فانفجرت كما ذكرنا في قوله فتأب عليه السلام وهي على هذا فاء نصيحة لا تقع إلا في كلام بليغ (١) .

ومحذوف الشرط مواقع يكون حذفه فيها من أحسن المحذوف كما يقول (٢) .

وقد يحذف جواب - لما - لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس وفي حذفه من الإيجاز وقوة الدلالة ما ليس في ذكره يقول في قوله تعالى « قلنا أضرب ما حوله ذهب الله بنورهم » فإن قلت أين جواب لما ؟ قلت فيه وجهان أحدهما أن جوابه ذهب الله بنورهم والثاني أنه محذوف كما حذف في قوله « قلنا ذهبوا به » وإنما جاز حذفه لاستطالة الكلام مع أمن الإلباس للدال عليه وكان الحذف أولى من الإلبات لما فيه من الوجازة مع الإهراب عن الصفة التي حصل عليها المستوقد بما هو أبلغ من اللفظ في أداء المعنى كأنه قيل قلنا أضرب ما حوله نحدث فيقروا خابطين في ظلام متحسرين على فوت الضوء خائبين بعد السكوح في إحياء النار (٣) .

وقد يحذف جواب لو للإشارة إلى أنه أمر فظيع لا يحيط به وصف يقول في قوله تعالى « ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب » أي لو يعلم هؤلاء الذين ارتكبوا الظلم العظيم بشركهم أن القدرة كلها لله على كل شيء من العذاب والثواب دون أندادهم ويملمون شدة عقابه للظالمين إذا عاينوا العذاب يوم القيامة لكان منهم ما لا يدخل تحت الوصف من الندم والحسرة ووقوع العلم بظلمهم وخطأهم محذوف الجواب كما في قوله « ولو ترى إذ وقعوا » وقولهم لو رأيت فلانا والسياط تأخذه (٤) وقد براد ذكر أشياء كثيرة فيعمد المتكلم إلى بعضها ويذكره ويستقط غيره ويحرص البليغ على أن يكون في كلامه ما يرشد إلى مقصده كأن يذكر أقساما ولا يستوفيا .

(١) الكشاف ج ١ ص ١٠٨ .

(٢) ينظر الكشاف ج ٢ ص ٦٤ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٥٥ .

(٤) الكشاف ج ١ ص ١٥٩ .

يقول الزمخشري في قوله تعالى وفيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، . ويجوز أن تذكر هاتان الآيتان ويطوى ذكر غيرهما دلالة على تكرار الآيات كأنه قيل فيه آيات مقام إبراهيم وأمن من دخله وكثير سواهما ، ونحوه في طي الذكر قول جرير :

كانت حنيقة أئالنا فثلثهموا من العبيد وثلك من موالها
ومنه قوله عليه السلام حبيب إلى من دنيا كم ثلاث الطيب والنساء وقرة هيني
في الصلاة (١) .

وقد تكون الكلمة في الجملة ذات مدلول واسع فتساعد المتكلم على التركيز والايجاز يقول في قوله تعالى دعوان بين ذلك، فإن قلت بين يقتضى شيئين فصاعدا فن ابن جاز دخوله على ذلك ؟ قلت لأنه في معنى شيئين حيث وقع مشارا به إلى ما ذكر من الفارض والبكر فإن قلت كيف جاز أن يشار به إلى المؤمنين وإنما هو للإشارة إلى واحد مذكر ؟ قلت جاز ذلك على تأويل ما ذكر وما تقدم للاختصار في الكلام كما جعلوا فعل نائبا عن أفعال جملة تذكر قبله تقول للرجل نعم ماقلت وقد ذكرتك أفعالا كثيرة وقصة طويلة كما تقول له ما احسن ذلك (٢) .

الذكر :

وينبذ الزمخشري إلى ما تفيده متعلقات الأفعال من تحديد المعنى وتصويره أو توكيده ورفع احتمال ، ويشير في هذا إلى أن ما يقصده المتكلم في كلامه يكون هو الجزء الأهم في الجملة ولذلك يذكره وينص عليه وخلافه من الإجزاء التي يمكن أن تتعلق بالأفعال تكون مطروحة ملقاة لا يلتفت إليها مادام الغرض لم يتعلق بها وفي هذا تحديد لاهمية متعلقات الأفعال على حسب أغراض الكلام ومقاصده ، وهذه المتعلقات سماها النحاة فضلات وهي تسمية فيها إشعار بقلتها شأنها في الجمل يقول الزمخشري في قوله تعالى ، وإذا أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث ، فإن قلت لم ذكر المفعول به ؟ قلت لأن الغرض ذكر المعزز به وهو شعمون وما لطف فيه من التدبير حتى عز الحق وذل الباطل . وإذا كان الكلام

(١) الكشاف ج ١ ص ١٥٩ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ١١٢ .

فمنسباً إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه كأن ما سواه مر فوض
مطرح ونظيره قولك حكم السلطان اليوم بالحق الغرض المسوق إليه قولك بالحق
فلذلك رفضت ذكر المحكوم له والمحكوم عليه (١) .

وقد يكون القيد لتقرير المعنى وتأكيده ولذلك يخاطب به المنكر كما يخاطب
بالكلام المؤكد بمؤكدات حسب الإنكار يقول في قوله تعالى وقول للذين يكتبون
الكتاب بأيديهم « — بأيديهم تأكيده وهو من مجاز التأكيده كما تقول لمن ينكر
معرفة ما كتبه يا هذا كتبه بيمينك هذه (١) .

ويلاحظ زيادة القيد على حسب حال المخاطب من الإنكار في قوله تعالى
« قال ألم أقل أنك لن تستطيع معي صبرا . . قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع
معى صبرا . . » حيث زاد قوله لك في المخالفة الثانية وذلك لزيادة المكافحة بالعتاب
على رفض الوصية والوسم بقلة الصبر عند الكرة الثانية (٢) .

وهذا القيد كما يفيد تأكيد الكلام المثبت يفيد كذلك تأكيد الكلام المنفي
يقول الزمخشري في قوله تعالى « وما كنت تنل من قبله من كتاب ولا تحطه بيمينك ،
فإن قلت ما فائدة قوله بيمينك ؟ قلت ذكر اليمين وهي الجارحة التي يزاول بها
الخط زيادة تصوير لما نفي عنه من كونه كاتباً ألا ترى أنك إذا قلت في الإثبات
رأيت الأمر بخط هذا الكتاب بيمينه كان أشد لإثباتك أنه تولى كتابته
فكذلك النفي (٣) .

ويشير إلى ما في هذا القيد من توضيح للمعنى وتصوير له حتى كأنه أمام
السامع صورة شاخصة يتأملها بوجوده فيتمتع بالمعنى في نفسه ، يقول في قوله
تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه فإن قلت أى فائدة في ذكر الجوف ؟
قلت الفائدة فيه كالفائدة في قولك فى القلوب التي فى الصدور ، وذلك ما يحصل
للسامع من زيادة التصور والتجلى للمدلول عليه لأنه إذا سمع به صور لنفسه
جوفاً يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار (٤) .

(١) الكتاب ج ٢ ص ١١٢

(٢) ينظر الكتاب ج ٢ ص ٥٧٤

(٣) الكتاب ج ٢ ص ٣٦١

(٤) الكتاب ج ٢ ص ١١٢

وقد يكون القيد للإيضاح بعد الإبهام وهذه طريقة حسنة في بناء الكلام وتركيبه ويرجع فضلها كما يقول الزعزعي إلى التأكيد والتفصيل. يقول في قوله تعالى «قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري». فإن قلت لي في قوله اشرح لي صدري ويسر لي أمري ما جدواه والكلام بدونه مستتب ؟ قلت قد أبهم الكلام أولاً فقبل اشرح لي ويسر لي فعلم أن ثم مشروحا وميسراً ثم بين ودفع الإبهام بذكرهما فكان أكد اطلب الشرح والتيسير لصدوره وأمره من أن يقول اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الساذج لأنه تكرير للمعنى الواحد من طريقي الاجمال والتفصيل (١).

ويكرر هذا التحليل في قوله تعالى ألم اشرح لك صدرك (٢).

وقد يكون القيد لتأكيد المعنى لغرابته ولجبهته على طريقة المجاز فيحتاج إلى زيادة كشف وتوضيح وتصوير، فيكون هذا القيد مؤدياً كل هذه الأغراض يقول في قوله تعالى «فإنها لا تعمي الا بصار ولكن نعى القلوب التي في الصدور» فإن قلت أي فائدة في ذكر الصدور ؟ قلت الذي قد تعرف واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها واستعماله في القلب مثل . فلما أريد اثبات ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة وانفيه عن الابصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الابصار كما تقول ليس المضاء للسيف ولكنه لسانك الذي بين فكيك فوقك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيته لسانه وتثبيت لأن عمل الإضاءة هو لا غير وكأنك قلت ما نفيت المضاء من السيف وأثبتته لسانك فلت ولا سهوا ولكن تعمدت به إياه تعمداً (٣).

وقد يكون القيد لإثارة النفس وبعثها على الطاعة والالتزام كما في قوله تعالى «والمطافات يترصدن بأنفسهن ثلاثه قرؤ» يقول فإن قلت هلا قيل يترصدن ثلاثة قرؤ.

(١) الكشاف ج ٣ ص ٤٧ .

(٢) بنظر الكشاف ج ٤ ص ٦٩٤ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ١٢٨ .

كما قيل تربص أربعة أشهر وما معنى ذكر الأنف ؟ قلت في ذكر الأنف ترويح
لن على التربص وزيادة بعث لأن فيه ما يستنكف منه فيحمان على أن يتربصن
وذلك أن أنف النساء طوامح إلى الرجال فأمرن أن يقمن أنفسهن ويغلبن على
الطاموح ويحبرنها على التربص (١) .

التوكيد :

ويعنيق في بحث التوكيد أن أبين أمرين :

الأول دواعي التوكيد وأغراضه . والثاني عناصر التوكيد أو مظاهره .

أما الأمر الأول فقد ضاق صدرى بمحدث المتأخرين حينما اداروه حول
مواجهة انكار المخاطب التحقيق أو الاعتباري ، وكان جواب أبي العباس المبرد
على سؤال الكندي المتفلسف كان عيظا بدواعي التوكيد وأسراه في هذه اللغة
لجاء كلامهم ترديدا أو شرحا لهذا الجواب . وهذا قصور كثير في فهم هذه
الخصوصية التي هي من أدق الخصائص البلاغية وأكثرها صلة بالحس والشعور .
وقد ذكر الزمخشري دواعي كثيرة لتوكيد تجاوزت هذا الأفق الذي حددته
لإجابة أبي العباس المبرد منها أن التوكيد قد يكون لتقرير المعنى في نفس المخاطب
وتثبيته وإن كانت خالية من كل أثر للانكار أو الشك كما في قوله تعالى وإنا نحن
نزلنا عليك القرآن تنزيلا ، يقول الزمخشري تكرير الضمير بعد إيقاعه أسما لأن
تأكيد على تأكيد المعنى اختصاص الله بالتنزيل ليتقرر في نفس رسول الله صلى الله
عليه وسلم أنه إذا كان هو المنزل لم يكن تنزيله على أي وجه نزل إلا حكمة
ومؤابا ولقد دعيت حكمة بالغة إلى أن أنزل عليك الأمر بالقتال والانتقام
بعد حين (٢) .

ومنها أن التأكيد قد يكون لتحقيق المعنى عند المتكلم وهو يريد أن يوطن
نفس المخاطب لتلقيه وقبوله كما في قوله تعالى وإني آتيت نارا لعل آتيكم منها بقبس ،
قال الزمخشري لما وجد منه الأيناس فكان مقطوعا متيقنا حقيقه لهم بكلية إن
ليوطن أنفسهم ولما كان الإتيان بالقبس وجود الهدى مترقبين متوقعين بنى الأمر

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٠٦ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٤٣٩ .

فيمما على الرجاء والطمع (١) .

ومنها مواجهة إنكار المخاطب كما في جواب أبي العباس وتكون أدوات التوكيد بمقدار الانكار قوة أضعفا يقول في قوله تعالى : إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون قالوا ما ائتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شيء إن ائتم إلا تكذبون قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون فإن قلت لم قيل إنا إليكم مرسلون أولا وإنا إليكم لمرسلون أخرا؟ قلت لأن الأول ابتداء أخبار والثاني جواب عن إنكار (٢) .

وقد جعل الأقل تأكيدا ابتداء أخبار؛ وهذا خلاف المتعارف من أن ابتداء الأخبار لا يحتاج إلى شيء من التوكيد كما أن سياق الآية التي معنا ينافي أن يكون الأول ابتداء أخبار لأنهم كذبوا اثنين فجاء بالثالث ، ولعل الزمخشري يقصد بكونه ابتداء أخبار أنهم بدؤهم بالحديث بأنهم مرسلون إليهم ولم تكن بينهم محاوراة بخلاف مقام الخطاب الثاني فإنه كان مقام محاور ومحاورة وإنكار وهذا لا ينافي أن يكونوا مع الأول منكرين .

ومن دراهم التوكيد إمالة الشبهة لغرابة الخبر وحاجته إلى التقرير والتحقيق يقول في قوله : تعالى فلما آتاهم نودي يا موسى إني أنا ربك، تكرير الضمير في إني أنا ربك لتوكيد الدلالة وتحقيق المعرفة وإمالة الشبهة (٣) .

وقد يكون التوكيد مظهراً لتعلق النفس بالخبر واهتمامها به وأنه جدير عندها بالتقوية والتقرير وأن المخاطب متقبل له غير منكر ولا مدافع كما أن إرسال الكلام غفلا من التأكيد لأن النفس غير متعلقة به ولا صادقة الرغبة فيه وأن المخاطب ينكره إنكاراً لا ينفع معه أبلغ صور التوكيد . يقول في قوله تعالى : وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم . فإن قلت لم كانت مخاطبتهم المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالاسمية محففة بأن؟ قلت ليس ما خاطبوا به المؤمنين جديراً بأقوى الكلامين وأركدهما لأنهم في إعطاء حدوث

(١) الكتاب ج ٣ ص ٤١ .

(٢) الكتاب ج ٤ ص ٦ .

(٣) الكتاب ج ٣ ص ٤٢ .

الإيمان منهم واسمه من قبلهم لا في ادعاء انهم ارحديون في الإيمان غير مشقوق فيه غبارهم ، وذلك إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه إذ ليس لهم من عقائدهم باهت وحرك وهكذا كل قول لم يصدر عن أريحيه وصدق رغبة واعتقاد ، وأما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة وكيف يقولون ويظلمون في رواجه وهم بين ظهرائي المهاجرين والانصار الذين مثلهم في التوراة والإنجيل ، ألا ترى حكاية الله قول المؤمنين وربنا اننا آمناء وإما مخاطبة اخوانهم فهم فيما اخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اليهودية والقرار على اعتقاد الكفر والبهمة من أن يرالوا عنه عن صدق رغبة ووفور نشاط وارتياح للتكلم به ، وما قالوه من ذلك فهو رائج عنهم متقبل منهم فكان مظنة للتحقيق ومثنة للتوكيد (١) .

وقد يكون التوكيد لمواجهة تطلعات النفس وحسب آمالها واطماعها كما في قوله تعالى يا ايها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، فإن قلت قوله ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً وارد على طريق من التوكيد لم يرد عليه ما هو معطوف عليه ؟ قلت الامر كذلك لان الجملة الاسمية آكد من الفعلية وقد انضم إلى ذلك قوله هو وقوله مولود والسبب في مجيئه على هذا السنن أن الخطاب للمؤمنين وعليتهم قبض آباؤهم على الكفر وعلى الدين الجاهل فأريد حسم اطماعهم واطماع الناس فيهم أن يتفغوا آباءهم في الآخرة وأن يفتنوا عنهم من الله شيئاً فلذلك جرى به على الطريق الآكد (٢) .

وقد يكون التوكيد لتقرير وعد الله وتثبيتته حتى تزداد النفوس اطمئنانا إليه ووثوقاً فيه فلا تلتفت إلى أمانى الشيطان ووعدده لأوليائه ، يقول في قوله تعالى «والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار وعد الله حقاً ومن أصدق من الله قيلاً» وعد الله حقاً مصدران، الأول مؤكد لنفسه والثاني مؤكد للغيره ومن أصدق من الله قيلاً توكيد ثالث بليغ . فإن قلت ما فائدة هذه التوكيدات ؟ قلت معارضة مواهيد الشيطان الكاذبة وأمانيه الباطلة لقراءته بوعد الله الصادق لأوليائه . ترغيباً للعباد في ايتاء ما يستحقون به تنجيز وعد الله على

(١) الكشاف ج ١ ص ٥٠ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٣٩٨ .

ما يتجرعون عاقبته غصص إخلاف مواعيد الشيطان (١) .

وقد يتجه المتكلم إلى تصوير ما في نفوس الآخرين من خواطر وأفكار فيأتي تصويره في عبارات مؤكدة ليشير بهذا إلى أن هذه الخواطر والأفكار متقررة في هذه النفوس ومنتكئة منها كما في قوله تعالى «وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم» . يقول الزمخشري فإن قلت أي فرق بين قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو ما نعتهم وبين النظم الذي جاء عليه ؟ قلت في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بمصانئها ومنعها إياهم وفي تصيير ضميرهم اسماً لأن واستناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في انفسهم أنهم في عزة ومنعة لا يبالي معهم بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم وليس ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم (٢) .

عناصر التوكيد :

والمؤكدات كثيرة لا يمكن الإحاطة بها فان كثيراً من طرق بناء الكلام تعطيه تقوية ووكادة فالذكر قد يفيد توكيداً والحذف قد يفيد توكيداً والوصل والفصل والتكرار والإعراض والإلتفات وصور التشبيه والاستعارة وأنواع المجاز والكناية كل هذه وغيرها تفيد أنواعاً من التوكيد والمبالغة في تثبيت المعنى أو نفيه ولذلك سوف اذكر هنا صوراً من مظاهر التوكيد في التعبير سواء كان هذا التوكيد بأداة من أدوات التوكيد أو كان بصورة من صور البناء أو كان بحال من أحوال اللفظ .

وغرضي في هذا أن أوضح رؤيته لعناصر القوة في القول ولا استقصي في هذا وإنما أشهد إليه . ولا شك أن كثيراً مما ذكرناه يصح أن يكون نماذج لأنواع من المؤكدات . ونضيف هنا ما يلاحظه في دلالة الكلمة لموضوع معناها على التوكيد يقول في قوله تعالى « لا تخف أنك أنت الأعلى » فيه تقرير لعلته وقهره وتوكيد بالاستئناس وبكلمة التشديد وبتكرير الضمير ولام التعريف ولفظ الملو وهو الغلبة الظاهرة وبالتفضيل (٣) . فكلمة الملو هنا أفادت التوكيد بمعناها ومبناها . ويلاحظ في الجملة الاسمية قوة الدلالة وتوكيد المعنى بقول في قوله تعالى « فن يؤمن

(١) الكهاف ج ١ ص ٤٤٠ .

(٢) الكهاف ج ٤ ص ٣٩٨ .

(٣) الكهاف ج ٣ ص ٥٧ .

بربه فلا يخاف بضمها ولا رهاقاً، فإن قلت أي فائدة في رفع الفعل وتقدير مبتدأ قبله حتى يقع خبراً له ووجوب إدخال الفاء وكان ذلك كله مستغنى عنه بأن يقال لا تخف ؟ قلت الفائدة فيه أنه إذا فعل ذلك فكأنه قيل فهو لا يخاف فكأنه دال على تحقيق أن المؤمن ناج لا محالة وأنه هو المختص بذلك دون غيره (١) .

والجملة الاسمية تفيد الثبات والاستمرار وهما من عناصر القوة والتوكيد يقول في قوله تعالى : ولو أنهم آمنوا واتقوا لثوبنا ، فإن قلت كيف أثمرت الجملة الاسمية على الفعلية في جواب لو ؟ قلت لم في ذلك من الدلالة على ثبات المثوبة واستمرارها كما عدل عن النصب إلى الرفع في سلام عليكم (٢) .

وواضح أن التوكيد في الجملة الاسمية لا يكون ملحوظاً في كل حال لأننا لا نقول في قولنا زيد قائم إنه كلام مؤكد بدليل أنه لا يخاطب به المنكر وإنما نقول ذلك إذا انضم إليه شيء آخر من مؤكدات القول أو دعا المقام إلى ملح شيء من التأكيد فيه . وقد تكون الجملة المؤكدة بأن منطوية على عناصر أخرى من عناصر القوة والوكادة كأن يكون خبرها جملة دالة على التوكيد بتركيبها وأحوال الفاظها . يقول في قوله تعالى : إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، وهذه الآية بنظمها الذي رتب عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم إسمياً لأن المؤكدة وتصيير خبرها جملة من مبتدأ وخبر معرفين معاً والمبتدأ اسم إشارة واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤه على هملهم وإيراد الجزاء نكرة مبهماً أمره ناظرة في الدلالة على غاية الإعتداد والإرتضاء . لما فعل الذين وقرؤا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم من خفض أصواتهم ، وفي الأعلام يبلغ عزة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وقدر شرف منزلته ، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم عند ما استوجب هؤلاء (٣) ، ويشير إلى هذه العناصر في قوله تعالى : إن هؤلاء متبرهائم فيه ، حيث قدم خبر الجملة الواقعة خبراً لها وجعل اسم الإشارة إسمياً لها

(١) الكشاف ج ١ ص ٥٠٧ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ١٣٠ .

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٧٨٣ .

ليؤكد أنهم معرضون للتبليغ وأنه لا يعدوم البتة وأنه لهم ضربة لازب (١) وكان تقع جملة خبر إن مؤكدة كذلك بيان كما في قوله تعالى : إن الذين آمنوا والذين هادوا والصائبين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة ، يقول الزمخشري وأدخلت إن على كل واحد من جزئي الجملة لزيادة التوكيد ، ونحوه قول جرير :

إن الخليفة إن الله مر به سريال ملك به ترجى الخواتم (٢)

ومن عناصر القوة في الجملة الحروف الزائدة مثل لا في قوله تعالى : ما منعك إلا تسجد ، يقول الزمخشري لا في ألا تسجد صلة بدليل قوله ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي ومثلها لثلا يعلم أهل الكتاب بمعنى ليعلم فإن قلت ما فائدة زيادتها؟ قلت توكيد معنى الفعل الذي تدخل عليه وتحقيقه ، كأنه قيل ليحقق علم أهل الكتاب ، وما منعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك (٣) .

ومثل اللام التي تزداد في تعدية الأفعال كما في قوله تعالى : أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم ، يقول الزمخشري يقال نصحتك ونصحت له وفي زيادة اللام مبالغة ودلالة على إحاطة النصيحة وأنها زمت خالصة للنصوح له مقصود بها جانبه لا غير .

ومثل أن الزائدة بعد لما في قوله تعالى : ولما أن جاءت وسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا ، يقول أن صلة أكدت وجود الفعلين مترتبا أحدهما على الآخر في وقتين متجاورين لا فاصل بينهما كأنهما وجدا في جزء واحد من الزمان كأنه قيل لما أحس بمجيئهم فاجأته المساءة من غير ريب خيفة عليهم من قومه (٤) .

ومن عناصر القوة في الجملة كلمة أما يقول الزمخشري وفائدته في الكلام أنه يعطيه فضل توكيد تقول زيد ذاهب ، فإذا قصدت توكيد ذلك وأنه لا محالة ذاهب وأنه

(١) ينظر الكشاف ج ٢ ص ١١٨

(٢) الكشاف ج ٣ ص ١١٧

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٧٠

(٤) الكشاف ج ٣ ص ٢٥٦

بصدد الذهب وأنه منه عزيمة قالت أما زيد فذهب (١) .

ويلاحظ الزمخشري أن الجملة القرآنية قد تتزاحم فيها عناصر التوكيد والتقريب سواء منها ما كان بأداة أو بطريقة نظم أو باختيار لفظ ، وذلك لتأكيد ما حرم الله حتى تنكف عنه النفوس المؤمنة أو لتأكيد ما أحل الله حتى تندفع نحوه .

يقول في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه ، أكد تحريم الخمر والميسر وجوها من التأكيد منها تصدير الجملة بإنما ومنها أنه قرنهما بعبادة الأصنام . . ومنها أنه جعلها رجسا . . ومنها أنه جعلها من عمل الشيطان والشيطان لا يأتي منه إلا الشر البحت ، ومنها أنه أمر بالإجتنب ، ومنها أنه جعل الإجتنب من الفلاح وإذا كان الإجتنب فلاحا كان الإرتكاب خيبة وعقبة ، ومنها أنه ذكر ما ينتج منها من الوبال وهو وقوع التعادى والتباغض (٢) .

ويقول في آية الحث على الحج : والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا .

وفي هذا الكلام أنواع من التوكيد والتشديد ، منها قوله تعالى : والله على الناس حج البيت ، يعنى أنه حق واجب في رقاب الناس لا ينفكون عن أداءه والخروج من عهده ، ومنها أنه ذكر الناس ثم أبدل عنه من استطاع إليه سبيلا ، وفيه ضربان من التأكيد أحدهما أن الإبدال تشبیه للمراد وتكريره ، والثاني أن الإيضاح بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال لإيراد له في صورتين مختلفتين ، ومنها قوله تعالى : ومن كفر مكان ومن لم يحج تغليظا على تارك الحج . . . ومنها ذكر الاستغناء عنه وذلك بما يدل على المقصود والخطأ والخذلان ، ومنها قوله عن العالمين وإن لم يقل عنه ، وما فيه من الدلالة على الاستغناء عنه برهان لأنه إذا استغنى عن العالمين تناوله الاستغناء الكامل فكان أدل على عظم الخطأ الذى وقع عبارة عنه (٣) .

(١) الكتاب ج ١ ص ٨٨

(٢) الكتاب ج ١ ص ٢٥

(٣) الكتاب ج ١ ص ٢٩٩

النظر في المعنى :

ولما كان استخراج مافى الجملة من المعنى هو المقصد الأهل في الدراسة اللغوية بجميع فروعها ، ولما كانت الدراسة البلاغية بوجه خاص تعنى يبحث أسرار التراكيب أى كشف ما وراء كل خصوصية من معنى ، رأيت أن اعتبر من البحث البلاغى فى الكشفاف هذا اللون من البحث الخاص بتفسير الجملة وتوضيح مدلولها وقصدت هذا التفسير الذى يشير فيه الزمخشري إلى معنى بعيد لا يفهم من متن اللفظ وإنما يدركه الخاصة من ذوى الثقافة العالية .

ومن الواضح أن البلاغيين المتأخرين كان لهم نظر فى تحديد المعانى وبيان مرامى القول وأنهم درسوا لذلك أغراض الخبر وإن صبغوه صبغه منطقيه حين حصرها قصد الخبر بخبره فى أمرين ، وإن تجاوز البحث بعد ذلك هذا الأفق المحدود . وما أكتبه الآن من نظرات الزمخشري فى تحديد المعانى يتصل أكثره ببحث أغراض الخبر عند المتأخرين مما يلفتنا إلى أنهم اعتمدوا عليه فى كثير من هذا الباب .

وقد بين الزمخشري أن الخبر قد يوجه إلى العالم به تنزيلا لعله منزلة عدمه لقصد تنبيهه من غفلته حتى يلتفت إلى ما يعلم فيعمل به ، يقول فى قوله تعالى ولا يستوى أصحاب النار وأصحاب الجنة . هذا تنبيه للناس وايدان لهم بأنهم لفرط غفلتهم وقلة فكرهم فى العاقبة وتهاونهم على إيثار العاجلة واتباع الشهوات كأنهم لا يعرفون الفرق بين الجنة والنار ، واليون العظيم بين أصحابهما ، وأن القوز مع أصحاب الجنة ، فن حقههم أن يعلموا ذلك ويذنبوا عليه ، كما تقول لمن يعنى أباه هو أبوك تجعله بمنزلة من لا يعرفه فتنبه بذلك على حق الأبوة (١) .

ومن الآيات المشهورة فى هذه المعنى قوله تعالى ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ولبئس ما شروا به انفسهم لو كانوا يعلمون . يقول الزمخشري فإن قلت كيف أثبت لهم العلم أولا فى قوله ولقد علموا على سبيل التوكيد القسمنى ثم نفاء عنهم فى قوله لو كانوا يعلمون ؟ قلت معناه لو كانوا يعلمون بعلمهم جعلهم حين لم يعملوا به كأنهم متسلخون عنه (٢) .

(١) الكتاب ج ٤ ص ٤٠٦

(٢) الكتاب ج ١ ص ١٦٩

وقد يراد بالخبر حث النفوس وإثارتها الأخذ بأمر والتمسك به كما في قوله تعالى : **وَلَنْ اتَّبِعْتُمْ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَاقٍ** ، يقول الزمخشري وهذا من باب الإطباب والتهيج والبعث للسامعين على الثبات في الدين والتصلب فيه ، **وَالْأَيْزَلُ زَالٌ** عند الشبهة بعد استمساكه بالحق ، **وَالْإِلَّا** فكان الرسول صلى الله عليه وسلم من شدة الشكيمة بمكان (١) .

وقد يكون الخبر للاذكار بما علم تلبيها للنفس وإيقاظها ولفتها إلى ما هي فيه من المنزلة الدون حتى تألف وترفع عنها . يقول في قوله تعالى : **لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرَ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، فَإِنْ قُتِلُوا مَعْلُومٌ أَنْ الْقَاعِدَ بغير هذر والمجاهد لا يستويان ، لما فائدة تفي الاستواء ؟ قلت معناه للاذكار بما بينهما من التفاوت العظيم والبون البعيد لياتي القاعد ويرفع بنفسه عن انحطاط منزلته فيمتز للجهاد ويرغب فيه وفي ارتفاع طبقتة ، ونحوه هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون أريد به التحريك من حمية الجاهل ، وأنفته ليهاب به إلى التعلم ولينهض بنفسه عن صفة الجهل إلى شرف العلم (٢) .**

وقد يراد بالخبر التسمية والتعبر كما في قوله تعالى : **فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِرِسَالِ اللَّهِ** ، يقول وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم من تكذيب قومه وتكذيب اليهود (٣) . وقد يراد به التحسر كما في قوله تعالى : **رَبِّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَلِيَّ مَائِدَةَ الْفِرْعَوْنِ وَتَلِيَّ مَائِدَةَ الْكُفْرَانِ** ، **وَمَا أَرَادَتْ إِلَىٰ هَذَا الْقَوْلِ ؟** قلت قالته تصمراً هل ما رأيت من خيبة رجائها وعكس تقديرها فتعزنت إلى ربها لأنها كانت ترجو وتقدر أن تلد ذكراً ، ولذلك نذرتة محرراً للسنانة وتكلمها بذلك هل وجه التحسر والتعزنت قال الله تعالى والله أعلم بما وضعت تعظيماً لموضوعها وتجهيلاً لما يقدر ما وهب لها منه ، ومعناه والله أعلم بالشئ الذي وضعتة وما خلق به من عظامم الامور وأن يجعله وولده آية للعالمين

(١) الكشاف ج ٢ ص ٤١٥

(٢) الكشاف ج ١ ص ٤٦٩

(٣) الكشاف ج ١ ص ٣٤٥

وهي جاهلة بذلك لا تعلم شيئاً فذلك تحزنت (١) .

وقد يراد البث والحزن والشكوى كما في قوله تعالى : قال رب أنى لا أمك
إلا نفسى وأخى ، يقول وهذا من البث والحزن والشكوى إلى الله والحسرة وورقة
القلب التى بمثلها تستجلب الرحمة وتستقزل النصرة (٢) .

وقد يراد توطين النفوس وتثبيتها للشدائد كما في قوله تعالى : وما الحياة
الدنيا إلا متاع الغرور ، يقول خوطب المؤمنون بذلك ليوطنوا أنفسهم على
احتمال ما سيقعون من الأذى والشدائد والصبر عليها حتى إذا لقوها وهم مستعدون
لا يرهقهم ما يرهق من تبعته الشدة بغته فينكرها وتشمئز منها نفسه (٣) .

وقد يراد به الوعد أو الوعيد يقول في قوله تعالى : أولئك أعدتنا لهم عذاباً أليماً
أولئك أعدتنا لهم في الوعيد نظير فأولئك يتوب الله عليهم في الوعد ليتبين أن
الأميرين كائنان لا محالة (٤) .

وقد يراد التخويف وبيان الاقدار كما في قوله تعالى : إن يشأ يذهبكم
أيها الناس ويأت بآخرين ، قال وهذا غضب عليهم وتخويف وبيان لاقدارهم (٥) ،
وأغراض الكلام لا تضبط ولا تحصر لأنها مظهر لحواطر النفس ومشاعرها
وهذه الحواطر والمشاعر لا سبيل إلى حصرها .

وكان الزمخشري قوى الحس بالجملة وإيماءاتها ولهذا يستخرج منها أدق أسرارها
ويشذ منها إلى الأبعاد الغائمة في مستقر نفس قائلها يقول في قوله تعالى : قالوا
أجئتنا لنخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى ، يلوح من جيب قوله اجئتنا لنخرجنا
من أرضنا بسحرك أن فرائضه كانت ترعد خوفاً بما جاء به موسى عليه السلام لعلته
وإيقانه أنه على الحق وأن الحق لو أراد قود الجبال لا تقادت ، وأن مثله لا يفتذل
ولا يقل ناصره ، وأنه غالبه على ملكه لا محالة ، وقوله بسحرك تعلى وتحمير

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٢٣

(٢) الكشاف ج ١ ص ٢٨٢

(٣) الكشاف ج ١ ص ٤٤٦

(٤) الكشاف ج ١ ص ٢٧٨

(٥) الكشاف ج ١ ص ٤٤٥

والأفكيف يخفى عليه أن ساحرا لا يقدر أن يخرج ملكا مثله من أرضه ويغلبه على ملكه بالسحر (١) .

ويدرك هذا التحير والدهش في أعماق نفس فرعون في خطاب آخر لقومه يقول في قوله تعالى : « إن هذا لساحر عليم يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فإذا تأمروني ، ، واقد تحير فرعون لما أبصر الآيتين وبقي لا يدري أى طرفيه أطول حتى زال عنه ذكر دعوى الألوهية وحط عن منسكبيه كبرياء الربوبية وارتعدت فرائصه وانفتح سحره خوفا وفرقا وبلغت به الاستكاثرة لقومه الذين هم بوجهه عبيده وهو المهم أن طفق يؤامرهم ويعترف لهم بما حذره وتوقعه وأحس به من جهة موسى عليه السلام وغلبته على ملكه وأرضه ، وقوله إن هذا لساحر عليم قول باهت إذا غاب ومتمهل إذا لزم (٢) .

وفي موقف آخر من مواقف فرعون وخطابه للسحرة يلجح الزمخشري وراء العبارة نفسا ثانية فيها صلف وكبرياء يقول في قوله تعالى ولتعلن أيضا أشد هذا با وأبقي .

وفيه نفاجة باقتداره ، وقهره وما ألفه وضربى به من تعذيب الناس بأنواع العذاب وتوضيح لموسى واستضعاف له من الجزء به لأن موسى لم يكن قط من التعذيب في شيء (٣) .

وقد يجد الزمخشري في ظاهر معنى الجملة شيئا من الغموض والتناقض فيحلله تحليلا أدبيا مبيئا وجه استقامته على طريقة الأدب ، يقول في قوله تعالى « وما نريهم من آية إلا هي إلا هي أكبر من اختها ، . فإن قلت هو كلام متناقض لأن معناه ما من آية إلا هي أكبر من كل واحدة منها فتكون واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة ؟ قلت الغرض بهذا الكلام أنهم موصوفات بالسكبر لا يكمن يتفاوتن فيه وكذلك المادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذلك ، فعمل

(١) الكشاف ج ٣ ص ٥٤

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٤٤

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٦٠

ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا رأيت رجلا بعضهم أفضل من بعض وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك ومنه بيت الحماسة :

من تلقى منهم قتل لا قيت سيدم مثل النجوم التي يسرى بها السارى
وقد فاضلت الانمارية بين الكلمة من بنيتها ، ثم قالت لما أبصرت مراتبهم
متدانية قليلة التفاوت ثمكنتهم إن كنت أعلم أيهم أفضل ، ثم كالحلقة المفرغة
لا يدري أين طرفاها (١) .

وقد ينظر الزمخشري إلى ما في الجملة من حكمة ومعنى جامع ويكون هذا المدلول أساس أعجابه بها يقول في قوله تعالى ، إن خير من استأجرت القوي الأمين ، كلام حكيم جامع لا يزداد عليه لأنه إذا اجتمعت هاتان الحصلتان ، أعنى الكفاية والأمانة في القائم بأمرك فقد فرغ بالك وتم مرادك ، وقد استغنت بإرسال هذا الكلام الذى سياقه سياق المثل والحكمة أن تقول استأجره لقوته وأمانته (٢) .

وقد يعتمد الزمخشري على الموازنة بين صورتين لمعنيين يتشابهان في الظاهر وذلك ليستعين بهذه الموازنة على إخراج كل ما في التركيب من معنى وكشف جميع جوانبه ، يقول فإن قلت ما الفرق بين معنى قوله : دولاتزر وازره وزر أخرى ، وبين معنى : وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ، ؟ قلت الأول في الدلالة على هدل الله تعالى في حكمه وأنه تعالى لا يؤاخذ نفسا بغير ذنبها . والثاني في أن لاغيث يومئذ لمن استغاث حتى إن نفسا قد أثقلتها الأوزار وبهفتها لودعت إلى أن تخنق بعض وفرها لم تهب ولم تثق وأن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ (٣) .

يقول في قوله تعالى : قال لمن اتخذت إلهة غيري لأجعلنك من المسجونين ، فإن قلت ألم يكن لاسجنتك أخصر من لأجعلنك من المسجونين ومؤدبا مؤداه ؟

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٠١ - ٢٠٢

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٣١٦

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٢٧٩

قلت أما اخصر فتعلم وأما مؤدياً مؤداه فلا ، لأن معناه لا جملتك واحداً من
عرفت حالهم في سجوني وكان من عادته أن يأخذ من يريد سجنه فيطرحه في حوة
ذاهية في الأرض بعيدة العمق فرداً لا يبصر فيها ولا يسمع فكان ذلك أشد
من القتل (١) .

وفي نهاية البحث في نظم الجملة أعرض صوراً من تذوقه البلاغى للجملة القرآنية
أرواها خير ما يقال في دراسة النص الأدبي . يقول في قوله تعالى : ألا يظن أولئك
أنهم مبعثون ليوم عظيم يوم يقوم الناس لرب العالمين ، وفي هذا الإنكار ، والتعجب
وكلمة الظن ، ووصف اليوم بالعظيم ، وقيام الناس فيه لله خاضعين ، ووصفه
ذاته رب العالمين ، بيان بليغ لعظم الذنب وتفاقم الأثم في التظريف (٢) .

ويقول في قوله تعالى : وقال الذين كفروا لالحق لما جاءهم ، وفي قوله وقال
الذين كفروا وفي أن لم يقل وقالوا في قوله لالحق لما جاءهم وفي اللامين من الإشارة
إلى القائلين والمقول فيه وفي لما من المبادأة بالكفر دليل على صدور الكلام
عن إنكار عظيم وغضب شديد وتعجب من أمرهم بليغ (٣) .

ويقول في قوله تعالى : إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم
لا يعقلون ، فوررد الآية على النظم الذي وردت عليه فيه ما لا يخفى على الناظر
من بينات اكبار محل رسول الله ﷺ وإجلاله ، منها مجيئها على النظم المسجل
على الصائحين بالسفه والجهل لما أقدموا عليه ، ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها
كناية عن موضع خلوته ومقبله مع بعض لسانه ، ومنها المرور على لفظها
بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم ، ومنها التعريف باللام دون
الإضافة ، ومنها أنه شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع
التعريف في المخاطبات تهوئناً للخطب على رسول الله ﷺ ونسبية له وإمالة لما
تداخله من إيحاء تعجرهم وسوء أدبهم (٤) .

(١) الكشاف ج ٣ ص ٢٤٣

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٥٧٥

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٤٦٤

(٤) الكشاف ج ٤ ص ٢٨٤

ويقول في قوله تعالى : أوقدني يا هامان على الطين . ولم يقل أطيخ لي الأجر
واتخذته لأنه أول من عمل الأجر فهو يعمله الصنعة ، ولأن هذه العبارة أحسن
طابقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقتة وأشبه بكلام الجبارة ، وأمر هامان
وهو وزيره ورديفه بالإيقاد على الطين منادياً باسمه بـ د ياء ، في وسط الكلام
دليل التعظم والتجبر (١) .

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الفصل الخامس

البحث في الجمل

—

الاعتراض	الفصل والوصل
الاختصار	القواصل القرآنية
ترتيب الجمل	الالتفات
تفسير النص	التكرار

www.alkottob.com

الفصل الخامس

البحث في الجمل

وقد تناول البحث البلاغى في تفسير المكشاف الجمل المتتابعة كما تناول المفرد والجمله الواحدة .

ولم يكن بحث الفصل والوصل وحده هو مظهر خروج البحث البلاغى من نطاق الجملة الواحدة . بل هناك محاولات كثيرة لدراسة الجمل وال فقرات في علم البلاغة . منها بحث الفواصل القرآنية وملاءمتها لمضامين الآيات ، ومنها دراسة المعاني وملاءمة بعضها لبعض ، ومنها بحث اختصار القصص ، ومنها بحث التكرار الذى يمثل ظاهرة فنية بارزة في أسلوب القرآن ، ومنها بحث الاعتراض من حيث كنهه ومن حيث مواقفه وفوائده ، ومنها ما نلاحظه في تحليل النصوص تحليلاً خاصاً يبرز مواطن القوة والتأثير في الآيات المتتابعة إلى غير ذلك فما لستمين الله على توضيحه في هذا البحث .

الفصل والوصل :

وليس مرادى فيه ما حدده بعد الدين وغيره من خصوص الجمل التي لا عمل لها من الاعراب وخصوص الوار من بين سائر حروف العطف وإنما أردت عطف الجمل مطلقاً بالوار وغيره ما دام في هذا العطف أو عدمه سر بلاغى يشير إليه الزمخشري .

ويلاحظنا الزمخشري إلى أن الفصل وصل تقديرى خفى وأنه أقوى من الوصل الظاهر بحروف العطف وأن التذبه إلى هذا الوصل الخفى باب دقيق من أبواب علم البيان تتكاثر محاسنه .

يقول في قوله تعالى **وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ** إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب . ، فإن قلت أى فرق بين إدخال الفاء ونزها في سوف تعلمون ؟ قلت إدخال الفاء وصل ظاهر بحرف موضوع للوصل ونزها وصل خفى تقديرى بالاستئناف الذى هو جواب لسؤال مقدر ، كأنهم

قالوا فإذا يكون إذا عملنا نحن على مكانتنا وحملات أنت فقال سوف تعلمون فوصل
تارة بالفاء وتارة بالاستئناف للفتن في البلاغة كما هو عادة بالفاء العرب وأتوى
الواصلين وأبانهما الاستئناف وهو باب من أبواب علم البيان تتكرر محاسنه (١) .

والواو تقع بين الجملتين لتفصل بين معنييهما فتكون كل واحدة ذات معنى
مستقل عن الآخر ومتميز عنه ، فإذا تكررت الجملتان في مقام آخر وسقطت
هذه الواو كان الكلام كلاماً واحداً يقرر بعضه بعضاً .

يقول في قوله تعالى : قالوا إنما أنت من المسحرين وما أنت إلا بشر مثنا ،
فإن قلت هل اختلاف المعنى بإدخال الواو هنا وتركها في قصة ثمود؟ قلت إذا
أدخلت الواو فقد قصد معنيان كلاهما منان للرسالة عندهم . التسخير والبشرية
وأن الرسول لا يجوز أن يكون مسحراً ولا يجوز أن يكون بشراً وإذا تركت
فلم يقصد إلا معنى واحد وهو كونه مسحراً ثم قرر بكونه بشراً مثلهم (٢) .

والواو في المقاولات تشير أيضاً إلى التمييز بين المعنيين ليوازن السامع بينهما
ويدرك مافى كل من الصواب والخطأ فإذا سقطت الواو كان الكلام على الاستئناف
وهو كلام واحد يتولد بعضه من بعض .

يقول في قوله تعالى : فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات قالوا ما هذا إلا سحر
مفتري وما سمعنا بهذا في آياتنا الأولى وقال موسى رب أعلم بمن جاء بالهدى من
عنده ومن تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون .

وقرأ ابن كثير قال موسى بغير واو على مافى مصاحف أهل مكة وهي قراءة
حسنة لأن الموضع موضع سؤال وبحث عما أجابهم به موسى عليه السلام عند
تسميتهم مثل تلك الآيات الباهرة سحراً مفتري ووجه الأخرى أنهم قالوا ذلك
وقال موسى عليه السلام هذا ليوازن الناظر بين القول والمقول ويتبصر فساد
أحدهما وصحة الآخر وبضدها تمييز الأشياء (٣) .

ويتابع الزمخشري الآية الواحدة التي تتكرر في سور مختلفة مفتونة بالعاطف

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٣١ ، ٢٣٢

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٧٦٢ .

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٣٢٤ .

مرة وخالية منه مرة أخرى ويفسر في هذه المتابعة ما وراء الواو من دقائق .
يقول فإن قلت في سورة البقرة يذبحون وفي الأعراف يقتلون وههنا يذبحون مع
الواو فما الفرق ؟ قلت الفرق أن التذبيح حيث طرح الواو جعل تفسيراً للعذاب
وبياناً له وحيث أثبت جعل التذبيح لأنه أوفى على جنس العذاب وزاد عليه زيادة
ظاهرة كأنه جنس آخر (١) .

وينظر في الآيات التي يتكرر فيها نص معين في السورة الواحدة وهذا النص
يختلف نوع حرف الوصل فيه فيفسر اختلاف هذا الحرف ولماذا جاء بالواو
مرة وبالفاء أخرى ؟ كما يقول في سورة هود وفيها قصص الأنبياء عليهم السلام
ويتكرر فيها قوله تعالى ولما جاء أمرنا ، ويلحظ أن هذه الآية تكررت في أربع
مواطن من آية ٥٨ إلى آية ٤٤ وقد جاءت بالواو مرتين وبالفاء مرتين وقال في
هذا فإن قلت ما بال ساقى قصة عاد وقصة مدين جاءت بالواو والساقى الوسيطان
بالفاء ؟ قلت وقعت الوسيطان بعد ذكر الوعد وذلك قوله أن موعدهم الصبح ،
ذلك وعد غير مكذوب فجاء بالفاء الذي هو السبب كما تقول وعدته فلما جاء
الميعاد كانت كيت وكيت وأما الأخيرتان فلم تقع بتلك المثابة وإنما وقعتا مبتدأتين
فكان حقهما أن تعطف بحرف الجمع على ما قبلهما كما تعطف قصة على قصة (٢) .

وقد يكون سقوط العاطف تخيلاً باستقلال الجمل في معانيها كما قلنا واتكون
كل واحدة منها كأنها كافية في الغرض المسوق له الكلام .

يقول في قوله تعالى « الرحمن » علم القرآن خلق الإنسان عليه البيان الشمس
والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان ، ... الرحمن مبتدأ وهذه الأفعال مع
ضمائمها أخبار مترادفة وإخلاقها من العاطف لجيئها على نمط التهديد كما تقول
زيد أغناك بعد فقره أهلك بعد ذل كثيرك بعد قلة فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد
فا تنسك من إحسانه . . فان قلت كيف أدخل بالعاطف في الجمل الأول ثم جيء
به بعد ؟ قلت بكى بتلك الجمل الأول وارادة على سنن التهديد ليكون كل واحدة

(١) الكشاف ج ٢ ص ٤٢٤ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٤٢٤ .

من تلك الجمل مستقلة في تقرير الذين أنكروا الرحمن وآلاه كما بيئت منكر ابادى
المنعم عليه بتعديدها عليه في المثال الذى قدمته ثم رد الكلام الى منواجه بعد
التبكييت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب بالمعطف (١) .

ويذكر اللمخضرى أن الجمل الذى يقرر بعضها بعضها تناسق من داخلها ويأخذ
بعضها بعنى بعض ، وهذا التناسق الداخلى أقوى في ترابطها من ذكر حرف
النسق ، ولذلك كان اعتباره ادخل في البلاغة من غيره ، وفي ترتيب هذا النوع
من الجمل وبناء بعضه على بعض ما يبين منه قوة الكلام وجوده بلاغته .
يقول في قوله تعالى : ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، .

والذى هو أرسخ عرفاً في البلاغة أن يضرب عن هذه الخمال صفحاً وأن يقال
إن قوله ألم جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها ، وذلك
الكتاب جملة ثانية ، ولا ريب فيه جملة ثالثة ، وهدى للمتقين رابعة ، وقد أصيب
بترتيبها مفصل البلاغة وموجب حسن النظم حتى جرى بها متناسقة متكدا من غير
لسق وذلك لجيئها متآخية آخداً بعضها بعنى بعض فالثانية متحدة بالاولى معتنقة لها
وهلم جرى إلى الثالثة والرابعة ، بيان ذلك أنه نبه أولاً على أنه الكلام المتهدى
به ، ثم أشير بأنه الكتاب المنعوت بغاية الكمال فكان تقريراً لجهة التهدى وشداً
من أعضاده ، ثم نفى عنه أن يتشبه به طرف من الريب فكان شهادة وتسجيلاً
يكاله لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهه ،
وتقيل لبعض العلماء فهم لذلك ، فتمسأل في حجة تقبيلهم انضاحاً وفي شبهة تضاد
انضاحاً ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين فقرر بذلك كونه يقيناً لا يحوم الشك
حوله وحققاً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم لم تقل كل واحدة
عن الأربع بعد أن رتب هذا الترتيب الاثني ونظمت هذا النظم السرى من
مكنه ذات جملته (٢) .

والجمل الذى تنوارد على سبيل البيان لا حاجة فيها إلى ذكر لفظ يدل على

(١) الكشاف ج ٤ ص ٣٥٤ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٢٩ .

الربط لأنها ما دامت كذلك فهي قوة واحدة ، أرمي كما يتصور الزمخشري جسم واحد فإذا داخلها حرف لسق كان غريباً وشاذاً في هذا الجسم .

يقول فإن قلت كيف ترتبت الجمل في آية الكرمي من غير عطف ؟ قلت ما منها جملة إلا وهي واردة على سبيل البيان لما ترتبت عليه . والبيان متحد بالمبين فلو توسط بينهما عطف لكان كما تقول العرب بين العصا ولحائها ، فالأولى بيان لقيامه بتدبير الخلق وكونه مهيمنا عليه غير ساه عنه والثانية لكونه مالكا لما يدبره والثالثة لتكبرياء شأنه والرابعة لا حاطته بأحوال خلقه وعمله بالمرتضى منه المستوجب للشفاعة وغير المرتضى والخامسة لسعة علمه وتعلقه بالمعلومات كلها أو لجلاله وعظم قدره (١) .

وقد يلحظ الزمخشري في الاستئناف قوة ونخامة حين يكون هذا الاستئناف رداً لكلام سابق ورعيذاً للذاهب إليه كما في قوله تعالى : إنما نحن مستزتون الله يستزء بهم ، يقول فإن قلت كيف ابتدئ قوله الله يستزء بهم ولم يعطف على الكلام قبله ؟ قلت هو استئناف في غاية الجزالة والنفخامة وفيه أن الله عز وجل هو الذي يستزء بهم الاستمزاء الأبلغ الذي ليس استمزاءهم إليه باستمزاء ولا يؤبه له في مقابلته لما ينزل بهم من النكال ويحل بهم من الموان والذل وفيه إن الله هو الذي يتسولى الاستمزاء بهم انتقاماً للذومنين ولا يحوج المؤمنون أن يعارضوهم باستمزاء مثله (٢) .

وقد ينطوي هذا النوع من الاستئناف على شيء من التعجب فيزيد الأسلوب حسنا وقوة تأمير يقول في قوله تعالى : وقال للذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم ، واللام جواب قسم محذوف وهذه الجملة في حسن استئنافها غاية وفي أسلوبها قول القائل .
وجارة حساس أبانا بنابها ... كلييا غلت ناب كليب بواؤها
وفي فخرى هذا الفعل دليل على التعجب من غير لفظ التعجب ألا ترى أن

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٧

(٢) الكشاف ج ١ ص ٥

المعنى ما أشد استكبارهم وما أكبر عتوهم . وما أغل نأبأ بواؤها كليب (١) .
ثم إن هذا الاستئناف قد يكون تعليلاً للكلام السابق وفي هذا التعليل
توكيد له وتقرير ويكون هذا النوع تارة بإعادة اسم من استأنف عنه الحديث
وتارة بإعادة صفة . يقول في قوله تعالى : ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى
للمتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما رزقناهم ينفقون والذين
يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون أولئك على هدى
من ربهم ، أولئك على هدى الجملة في محل الرفع إن كان الذين يؤمنون بالغيب
مبتدأ ، وإلا فلا محل له .. ونظم الكلام على الوجهين أنك إذا نويت الإبتداء بالذين
يؤمنون بالغيب ، فقد ذهبت به مذهب الاستئناف ، وذلك أنه لما قيل هدى
للمتقين ، واختص المتقون بأن الكتاب لهم هدى ، اتجه لسائل أن يسأل فيقول
ما بال المتقين مخصوصين بذلك ، فوقع قوله الذين يؤمنون بالغيب إلى سابقه كأنه
جواب لهذا السؤال المقدر ، وجرى بصفة المتقين المنطوية عليهم خصائصهم التي
استوجبوا بها من الله أن يلاطف بهم ، ويفعل بهم ما لا يفعل بمن ليسوا على صفتهم ،
أى الذين هؤلاء عقائدهم وأعمالهم أحقاء بأن يهديهم الله ويعطيهم الفلاح ، ونظيره
قولك أحب رسول الله صلى الله عليه الأنصار الذين قارعوا دونه وكشفوا الكرب
عن وجهه أولئك أهل السحبة ، وإن جعلته تابعاً للمتقين وقع الاستئناف على
أولئك ، كأنه قيل ما بال المستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى فأجيب بأن
أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً وبالفلاح
آجلاً ، وأعلم أن هذا النوع من الاستئناف يجرى تارة بإعادة اسم من استأنف
عنه الحديث ، كقولك قد أحسنت إلى زيد زيد حقيق بالإحسان وتارة بإعادة
صفته ، كقولك أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل ذلك ، فيكون الاستئناف
بإعادة الصفة أحسن وأبلغ لانطوائها على بيان الموجب وتلخيصه (٢) .

والرغمشى قد يفسر قائمة الاستئناف تفسيراً إهزالياً يخضع فيه النص
للمعقده ، والنص بهيد هما ذهب إليه من المعنى .

(١) الكشاف ج ٣ ص ٢١٤ ، ٢١٦

(٢) الكشاف ج ١ ص ٢٤

يقول في قوله تعالى : شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم إن الدين عند الله الإسلام . وقوله إن الدين عند الله الإسلام جملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى فإن قلت ما فائدة هذا التوكيد ؟ قلت فائدته إن قوله لا إله إلا هو توحيد ، وقوله قائماً بالقسط تعديل ، فإذا أردفه قوله إن الدين عند الله الإسلام فقد أذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد . وهو الدين عند الله وما عداه فليس عنده في شيء من الدين . وفيه أن من ذهب إلى تشبيهه أو ما يؤدي إليه كإجازة الرؤية أو ذهب إلى الجبر الذي هو محض الجور لم يكن على دين الله الذي هو الإسلام . وهذا بين جلي كما ترى (١) وهذا تعسف لا يقتضيه النظم كما يقول الشيخ عليان (٢) ولست أدري كيف يذيل كلامه بقوله وهذا بين جلي كما ترى .

الجامع :

ويرى الزعزعي أن حرف العطف يستلزم أن يكون بين الجملتين قدر من الاتفاق يصحح الربط بينهما ، ولكنه لا يكون اتفاقاً قوياً حتى يصل إلى اتحاد الجملتين في المعنى أو نشوء إحداهما عن الأخرى ، ولذلك وقع الفصل بين قصة الذين كفروا والحديث عن الكتاب الذي لا ريب فيه .

يقول في قوله تعالى : إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذروهم لا يؤمنون ، فإن قلت لم قطعت قصة الكفار عن قصة المؤمنين ولم تعطف كتحو قوله : إن الأبرار لا في نعم وإن الفجار لا في جحيم ، وغيره من الآي الكثيرة؟ قلت ليس وزان هاتين وزان ما ذكرت . لأن الأولى فيما نحن فيه مسوقة لذكر الكتاب . وأنه هدى للمتقين . وسيقت الثانية لأن الكفار من صفتهم كيت وكيت . فبين الجملتين تباين في الغرض والأسلوب . وهما على حد لا مجال فيه للعاطف . فإن قلت هذا إذا زعمت أن الذين يؤمنون جاز على المتقين فأما إذا ابتدأته وبنيت الكلام لصفة المؤمنين ثم عقبته بكلام آخر في صفة أضدادهم كان

(١) الكشاف ج ٩ ص ٤٦٤ ، ٤٦٥

(٢) نظر حاشية الشيخ عليان على هامش الكشاف ج ٩ ص ٤٦٤ .

مثل ذلك الاسم المتلوه؟ قلت قد مر لي أن الكلام المبتدأ عقيب المتقين سبيله سبيل الاستئناف وأنه مبنى على تقدير سؤال فذلك إدراج له في حكم المتقين . وتابع له في المعنى . وإن كان مبتدأ في اللفظ فهو في الحقيقة كالجارى عليه (١) .

ويؤكد ضرورة الجامع أو التناسب بين الجملتين وأنه ليس هناك عاطف بين الجمل المتصلة غاية الإتصال . وليس هناك عاطف كذلك بين الجمل المنفصلة غاية الإتصال ؛ وإنما هو في الجمل التي تتوسط بين الغائتين كما قال المتأخرون وهذه الفكرة هي التي دار حولها درس الفصل والوصل في البلاغة المتأخرة .

يقول الزمخشري في قوله تعالى د أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، فإن قلت لما جاء مع العاطف وما الفرق بينه وبين قوله أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ؟ قلت قد اختلف الخبران فهنا فلذلك دخل العاطف بخلاف الخبرين ثمة فانهما متفقان لأن التسجيل عليهم بالفقلة ونشبيهم بالبهائم شيء واحد فكالت الجملة الثانية مقررة لمعاني الأولى فهي من العطف بمزول (٢)

ويبحث التناسب بين أجزاء الجمل المتعاطفة وقد يكون التناسب بالتقابل وقد يكون بعيدا وفيه شيء من الخفاء يقول في قوله تعالى د والشمس والقمر بحسبان والنجم والشجر يسجدان ، فإن قلت أي تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف ؟ قلت إن الشمس والقمر سماويان ، والنجم والشجر أرضيان فبين القميين تناسب من حيث التقابل وأن السماء والأرض لا تزالان تذكران قريبتين وإن جرى الشمس والقمر بحسبان من جنس الإنقياد لأمر الله فهو مناسب لسجود الشمس والقمر (٣) .

وليس من اللازم أن تتناسب الجملتان خبرا والشاء فقد يعطف الإلشاء على الخبر إذا لم يكن المعتمد بالعطف هي الألفاظ . وإنما مضمون الجملة . يقول في قوله تعالى د فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٦

(٢) الكشاف ج ١ ص ٣٥

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٢٥٢

أعدت للكافرين وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، فإن قلت هلام عطف هذا الأمر ولم يسبق أمر ولا نهي يصح عطفه عليه؟ قلت ليس الذي اعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطالب له مشاكل من أمر ونهي يعطف عليه إنما اعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين كما تقول زيد يعاقب بالقييد والإرهاب ويشعر عمرا بالعمو والإطلاق (١) .

وقد أشار الخطيب إلى أن في هذا الكلام نظراً لا يخفى على المتأمل . ثم رأى أن يكون وبشر معطوفاً على مقدر أي أنذرهم وبشر . ولست أجد لهذا التقدير ذلك المذاق الذي أجده لتحليل الزمخشري كما لا أجد مذاقاً لتقدير السكاكي إن العطف على قل مقداراً قبل يا أيها الناس والزمخشري يشير في هذا إلى عطف القصة على القصة وأنه يكتفى في مثله بالتناسب بين الفعيتين ولا ينظر فيه إلى التناسب بين الألفاظ . وقد اطلقت مثل هذه القيسات في بلاغة الزمخشري كما رأينا عند الشيخين وعطف القصة على القصة من أجل مباحث الفصل والوصل وقد المعنا إلى ذلك في دراستنا لسورة الأحزاب (٢) .

الفواصل القرآنية :

ويختلفت الزمخشري إلى الفواصل القرآنية وبين وجه الملازمة بين مدلولها ومدلول الآيات السابقة وله في هذه الفئات نفاذ إلى المعاني . وبيان لأجاسها . يقول في قوله تعالى ، وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، فإن قلت فلم فصلت هذه الآية بلا يعلمون والتي قبلها بلا يشعرون؟ قلت لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتب الناظر المعرفة . وأما النفاق وما فيه من البنى المؤدى إلى الفتنة والفساد في الأرض

(١) الكشف ج ١ ص ٧٨

(٢) ينظر من التفسير الفنى - د . محمد أبو موسى .

فأمر ديبوي مبني على العادات معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب في جاهليتهم
وما كان قائماً بينهم من التفاور والتناصر والنحارب والتجارب فهو كالمحسوس
المشاهد . ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً (١) .

ويبلغت إلى فواصل الآيات التي تشير إلى آثار قدرة الله في هذا الكون .
ويبين في ذلك كيف تكون الفاصلة مشيرة لإشارة واعية إلى مدى دلالة هذه الآثار .
فتسائل الإنسانية من نفس واحدة أدق صنعة والطف تدبيراً من تسخير النجوم
للاهداء بها في ظلمات البر والبحر . لذلك كانت فاصلة آية النجوم ب يعلمون
وفاصلة آية النشأة ب يفقهون والفقه أدق من العالم .

يقول في قوله تعالى : وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر
والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فستقر
ومستودع قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون ، فإن قلتم لم قيل يعلمون مع ذكر
النجوم ويفقهون مع ذكر انشاء بني آدم؟ قلت كان إنشاء الألسن من نفس واحدة
وتصريفهم بين أحوال مختلفة ألطف وأدق صنعة وتدبيراً فكان ذكر الفقه الذي
هو استعمال فطنة وتدقيق نظر مطابقاً له (١) .

ويقول في قوله تعالى : وهو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه
شجر فيه تسميون ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل
الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر
والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، وقال إن في ذلك
لآيات لقوم يعقلون فجمع الآية وذكر العقل لأن الآثار العلوية أظهر دلالة على
القدرة الباهرة وأبين شهادة للكبرياء العظيمة (٢) .

وقد تكون الفاصلة غير مطابقة لسياق الآيات مطابقة تامة في الظاهر
فيكشف الزعمشري هذه الملائمة .

(١) السكشاف ج ١ ص ٤٩

(١) السكشاف ج ٢ ص ٣٩ .

(٢) السكشاف ج ٢ ص ٤٦٥ .

يقول في قوله تعالى : قل انزله الذي يعلم السر في السموات والارضى إنه كان غفوراً رحيمًا ، فإن قلت كيف طابق قوله إنه كان غفوراً رحيمًا هذا المعنى ؟ قلت لما كان ما تقدم في معنى الوعيد عقبه بما يدل على القدرة عليه لأنه لا يوصف بالمنفرة والرحمة إلا القادر على العقوبة أو هو تفضيه على انهم استوجبوا بمكابرتهم هذه أن يصب عليهم العذاب صبا ولكن صرف ذلك عنهم إنه غفور رحيم يهل ولا بماجل (١) .

ويلحظ الزمخشري أن القرآن قد يعدل عن لفظ إلى لفظ مراعاة لحق الفاصلة إذ أن الفواصل القرآنية في سور كثيرة يتحد نغمها الصوق ، وفي وحدة التغم هذه تأثير يبلغ مداه في نفس قارئه وسامعه واست أرفض أن يراعى القرآن حتى الفاصلة فيبدل في كلمة أو يضع مكانها أخرى لأن هذا ليس أمراً لفظياً هينا كما فهمه كثير من البلاغيين ، وقليل منهم تنبه إلى قيمة الأثر الصوق أو الأثر الموسيقي في التأثير والإيحاء وظل أكثرهم يفهم أن شئون اللفظ لا تعدوا أن تكون محسنات سطحية لا تتصل بجوهر البلاغة .

وليس من الخطأ في الدين ولا في البلاغة أن نقول إن القرآن يهتم بالناحية اللفظية لأنها جزء من أسلوبه ولأنها من دواعي التأثير وتلك وظيفة القرآن الكبرى فالغرض منه أولا هو قيادة النفس الإنسانية إلى سبيل الهدى فمن الحتم أن يأخذ كل سبيل إلى هذه الغاية فلا يهل هذا الجانب الهام في بلاغته ، والزمخشري من قلة من البلاغيين يرون هذا الرأي لذلك يفسر بعض الخصائص القرآنية تفسيراً مبنيًا على اهتمامه بالناحية الصوتية .

يقول في قوله تعالى : وتبتل إليه تبتلا ، وانقطع إليه فإن قلت كيف قيل تبتلا مكان تبتلا ؟ قلت لأن معنى تبتل بتل نفسه لجره به على معناه مراعاة لحق الفواصل (٢) .

ويقول في قوله تعالى ربنا اطعنا سادتنا وكرهنا فأصلون السبيلا . وزيادة الآلاف لاطلاق الصوت جمعت فواصل الاى كقواف الشعر وقائدتها الوقوف

(١) الكشاف ج ٣ ص ٤٠٩ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٥١٧ .

والدلالة على أن الكلام قد انقطع وأن ما بعده مستأنف (١) .

الالتفات :

ويدرك الزمخشري أن إيقاظ النفس وتحريكها من أهم أغراض النص الأدبي ، ولذلك كانت كل خصوصية من خصائص الصياغة تحدث لونها من التأثير والإيقاظ هي خصوصية بلاغية ممتازة يحرص عليها المتكلم الأديب ، ويدرك الزمخشري أن الالتفات في الأسلوب كإبهامه ضربة على أوتار النفس يزيدونها وإيقاظاً أو هزاً وتحريكاً كما يقول ، وله في هذا تحليلات جيدة .

والبلاغيون قد درسوا هذا الباب وتنبهوا له منذ زمن بعيد والواقع أنه لم ينبه أحد إلى قيمته البلاغية بالطريقة المفصلة الواضحة التي درسه بها الزمخشري . وجرت كتب المتأخرين على دراسة مذهبين في الالتفات ، مذهب الجمهور ، ومذهب السكاكي . والواقع أن المذهب المنسوب إلى السكاكي هو طريقة الزمخشري وارتضاها السكاكي وسار عليها (٢) .

يقول الزمخشري مبيناً أن الالتفات هو مخالفة ظاهر الحال ولو كان ابتداء كلام كما هو المذهب المنسوب إلى أبي يعقوب . فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب (يعني قوله تعالى مالك يوم الدين إياك نعبد) قلت هذا يسمى الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ، ومن الخطاب إلى الغيبة . ومن الغيبة إلى التكلم . كقوله تعالى : حق إذا كنتم في الفلك وجرين بهم . وقوله تعالى : والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه ، وقد التفت امرؤ القيس ثلاثة التفاتات في ثلاثة أبيات .

تطاول	ليتك	بالأمم	وبات الخلى	ولم ترقد
وبات	وبات	له	ليلة	كليلة
وذلك	من	بأ	جاني	وخبرته
			عن	أبي الأسود

(١) الكشاف ج ٤ ص ٤٤٤ .

(٢) ينظر المفاتيح ص ١٠٦ ونبذة الأيضاح ج ١ ص ١٥١ وما بعدها ولله هنا إلى أن السكاكي لم يضع تعريفاً محدداً للالتفات وإنما ذكر أن النقل من الخطاب إلى الغيبة لا يفتقر بالمسند إليه ولا بهذا المعنى بل الحكاية والخطاب والغيبة لا يفتقر كل واحد منها إلى الآخر ويسمى هذا الالتفات وقد ذكر الخطيب أن هذا المذهب يفهم من تفسير السكاكي .

وذلك على عادة اقتنائهم في الكلام وتصرفهم فيه . ولأن الكلام إذ نزل من أسلوب إلى أسلوب كان أحسن نظرية لنشاط السامع وإيقاظاً للاصغاء إليه من اجرائه على أسلوب واحد . وقد تختص مواقفه بفوائد . وما اختص به هذا الموضوع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستماعة في المهمات . فخرطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات . فقيل اياك يا من هذه صفاته نخس بالعبادة والاستماعة لا نعبد غيرك ولا نستعينه . ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحقق العبادة إلا به (١) .

ولسمع هنا حديث النظرية لنشاط السامع والإيقاظ للاصغاء إليه وهذه الصفات من أم خصائص الأسلوب الأدبي . ومن أم ما يعول عليه في البلاغ والتأثير .

ويعود الرعشري فيبين أثر طريقة الالتفات في نفس السامع وأن هذا الأسلوب يبرز من طبعه ويحرك حسه وهو لهذا فن من الكلام جزل .

يقول في قوله تعالى : ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه إلى قوله تعالى يا أيها الناس اتقوا ربكم آية ٢١ . لما هدده الله تعالى فرق المكلفين من المؤمنين ، والكفار ، والمنافقين ، وذكر صفاتهم وإحوالهم ومصارف أمورهم ، وما اختصت به كل فرقة بما يسعدها ، ويشقيها ، وبخطايا عند الله ، ويردها . أقبل عليهم بالخطاب . وهو من الالتفات المذكور عند قوله اياك نعبد واياك نستعين . وهو فن من الكلام جزل فيه عز وتحريك من السامع . كما أنك إذا قلت لصاحبك حاكياً عن ثالث لئلا إن فلاناً من قصته كيت وكيت فقصت عليه ما فرط منه ثم عدت بخطابك إلى الثالث فقلت يا فلان من حقتك أن تلوم الطريقة الحميدة في مجارى أمورك وتستوى على جادة السداد في مصادرك ومواردك تهتمه بالفتانك نحوه فضل تنبيه . واستدعيته اصفاء وإرشادك زيادة استدعاء ، وأوجدته بالالتفات من الغيبة إلى المواجهة هازلاً من طبعه فالأجدده إذا استمررت على لفظ الغيبة . وهكذا الاقتنان في الحديث والخروج منه من صنف

إلى وصف يستفتح الأذان الاستماع ويستش الآنف للقبول (١) .
وهذا شرح للقيمة البلاغية لهذا الأسلوب يعتمد على النفس ومعرفة أحوالها .
وإذا كان الالتفات إلى الغيبة أدرك الزمخشري منه معنى التشهير والنداء حتى
كأن المتكلم بهذا الالتفات يخيل أنه يحسكي هذا الأمر الهام ويرويه لكل عاقل
ليستكره ويستبجحه .

يقول في قوله تعالى : « حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم ، فإن قلت ما فائدة
صرف الكلام عن الخطاب إلى الغيبة ؟ قلت المبالغة كأنه يذكر لتقيرهم حالهم
ليسهبهم منها ويستدهي منهم الإنكار والتفجيع (٢) .

ويقول في قوله تعالى « وإنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا
تعلمون وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، لهم - الضمير للناس وعدل بالخطاب
عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم ، لأنه لا ضالة أضل من المقلد ،
كأنه يقول للمقلد انظروا إلى هؤلاء الحق ما ذا يقولون (٣) .

والانصراف إلى الغيبة قد يكون في مقام المدح والثناء أمدح وأعظم ثناء
وكأن المتكلم يروى الأمر الآخرين تعجباً واستمظاناً .

يقول في قوله تعالى : « وما آتيتهم من زكاة يريدون وجهه الله فأولئك هم
المضعفون ، أولئك هم المضعفون التفات حسن كأنه قال للملائكة وخوادم خلقه
فأولئك الذين يريدون وجه الله بصدقائهم هم المضعفون فهو أمدح لهم من أن يقول
فأنتم المضعفون (٤) .

وقد يعدل المتكلم إلى الخطاب تخميلاً بالاقبال على المخاطب ومواجهته بزيادة
الأمم والإنتكار ، يقول في قوله تعالى : « عيسى وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك
لعله يركى ، وفي الأخبار هما فرط منه ثم الاقبال عليه بالخطاب دليل على زيادة
الانتكار ، كمن يشكو إلى الناس جانباً جنى عليه ثم يقبل على الجاني إذا حى في

(١) الكتاب ج ١ ص ٦٧ .

(٢) الكتاب ج ٢ ص ٢٦٦ .

(٣) الكتاب ج ١ ص ١٦٠ .

(٤) الكتاب ج ٣ ص ٣٤٩ .

الشكايه مواجهها له بالتوبيخ والزام الحجته (١) .

ومن أحسن ما قاله في قيمة هذا النوع من الالتفات قوله تعالى : « وإذ نادى ربك موسى أن ائت القوم الظالمين قوم فرعون لا يتقون ، وأما من قرأ الالتفات على الخطاب فعل طريقة الالتفات إليهم ، أو جبههم وضرب وجوههم بالانكار والتعجب عليهم كما ترى من يشكو من ركب جنابة إلى بعض أخصائه والجاني حاضر فإذا اندفع في الشكايه وحر مزاجه وحى غضبه قطع مباته صاحبه وأقبل على الجاني يوبخه ويعنف به ويقول له ألم تتق الله ألم تستح من الناس (٢) .

وقد يعدل المتكلم إلى الاسم الظاهر ليتمكن من إجراء صفات على هذا الاسم وفيه تفخيم للماتفت إليه . يقول في قوله تعالى : « يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فآمنوا بالله ورسوله النبي الامى ، فإن قلت هلا قيل فآمنوا بالله وبى ، بعد قوله أنى رسول الله إليكم جميعا ؟ قلت عدل عن المضمرة إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التى أجريت عليه ، ولم فى طريقة الالتفات من مزية البلاغة . ويقول في قوله تعالى : « ولو أنهم إذ جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، ولم يقل واستغفرت لهم وعدل عنه إلى طريقة الالتفات تفخيماً لشأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعظيماً لاستغفاره وتنبيهاً على أن شفاعته من اسمه الرسول من الله بمكان (٣) .

التكرار :

والتكرار طريقة واضحة فى أسلوب القرآن . وقد وقف الزمخشري عند كثير من صورته ليفسر أثره البلاغى فى مواقفه المختلفة ، فقد أشار إلى التكرار فى مقام الوعظ والنصيحة ، وفى مقام دفع الشبهة ، وفى القصص ، وفى مقام الوعيد ، وفى مواقف الكف والنهى ، وفى ذكر مظاهر القدرة ، وغير ذلك مما سئله كرهه ، وكانت المعانى التى لحظها الزمخشري فى هذه الطريقة مستمدة من صلتها المباشرة بنفس السامع أو المتكلم .

(١) الكهف ج ٤ ص ٥٦٠ .

(٢) الكهف ج ٣ ص ٧٣٧ .

(٣) الكهف ج ١ ص ٤٠٨ .

يقول الزمخشري مبيثا فائدة التكرير في أسلوب النداء في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم ، إعادة النداء عليهم استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد ، وطريقة الانصات لكل حكم نازل ، وتحريك منهم لئلا يفترقوا ويفلوا عن تأملهم ، وما أخذوا به . عند حضور مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بمظيم الجدوى في دينهم (١) .

ويفسر تكرار النداء في سورة غافر مستوحيا اللفظ المكرر وما له من أثر في استجابة النفس فيقول في قوله تعالى : وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ... يا قوم مالي أدهوكم إلى النجاة ... فإن قلت لم كرر نداء قومه ... قلت أما تكرير النداء ففيه زيادة تنبيه لهم وإيقاظ عن سنة الغفلة ، وفيه أنهم قومه وحشيتهم وهم فيما يوبقهم وهو يعلم وجه خلاصهم ونصيحتهم عليه واجبة ، فهو يتحزن لهم ، ويتلطف بهم ، ويستدعي بذلك إلا يتموه فإن سرورهم سروره ، وغمهم غمه ، وينزلوا على نصيحتهم بهم كما كرر إبراهيم عليه السلام في نصيحة أبيه يا أبت (٢) .

ويبين الزمخشري أن دفع النفوس إلى الخير وإتقائها له من الأشياء الصعبة لذلك كان حل الواعظين أن يصبروا على تكرار ما يعظون به ، تمهدا لهذه النفوس وتبعا لما بالنصيحة ، حتى تنقاد إلى أمر الله ، وهذا هو السرفي أن الله جعل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاق .

يقول الزمخشري فإن قلت ما فائدة التثنية والتكرير ؟ قلت النفوس أنفر شيء من حديث الوعظ والنصيحة ، فإن لم يكرر عليها عودا على بدء لم يرسخ فيها ولم يعمل عمله ومن ثم كانت عادة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكرر عليهم ما كان يعظ به ، وينصح ، ثلاث مرات ، وسبعا ، ليركزه في قلوبهم ويغرسه في صدورهم (٣) .

(١) السكاهل ج ٤ ص ٢٧٩

(٢) السكاهل ج ٤ ص ١٣١

(٣) السكاهل ج ٤ ص ١٤٠

(٤) السكاهل ج ٤ ص ١٤٠

(٥) السكاهل ج ٤ ص ١٤٠

(٦) السكاهل ج ٤ ص ١٤٠

ويرى الزمخشري أن هناك من الحالات ما هو غريب هل النفس وهي وإن كانت لا تنكره لأنه لا مجال فيه للإنكار إلا أنها محتاجة إلى مزيد من الاطمئنان والتقرير وهذا موطن من مواطن التكرير وفرض من أغراضه .

يقول في قوله تعالى ، ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وأنه لاحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره . . وهذا التكرير لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان ، والحاجة إلى التفصّل بينه وبين البداء ، فكرر عليهم لينبها ويعزموا ويمجدوا (١) .

والتكرير في آيات الوعيد والتهديد متابعة للنفس وتجديد التذكير لها . يقول فإن قلت ما فائدة تكرير قوله ، فذوقوا عذابي ونذر ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر ، قلت فائدته أن يمددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين إذكاراً وانماظاً ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظاً ، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعق لهم الشن تارات ، لتلايغهم السهو ، ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهذا حكم التكرير كقوله ، فبأى آلاء ربك أنك كذبان ، عند كل نعمة عدها في سورة الرحمن وقوله ، ويل يومئذ للكافرين ، عند كل آية أوردتها في سورة المرسلات وكذلك تكرير الأنباء والقصاص في أنفسها لتكون تلك العبر حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في كل أوان (٢) .

ويشير الزمخشري إلى نوع من التكرير في القصص القرآني أخص تكرير آية أو آيتين في كل قصة من قصص الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم كما في سورة الشعراء حيث تختم كل قصة بقوله تعالى ، إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين وإن ربك هو العزيز الرحيم . . والزمخشري يفسر هذا اللون من التكرار بقوله فإن قلت كيف كرر في هذه الصورة في أول كل قصة وآخرها ما كرر ؟ قلت كل قصة منها كتتميزيل برأسه وفيها من الاعتبار مثل ما في غيرها ، فكانت كل

(١) الكشاف ج ١ ص ١٥٤

(٢) الكشاف ج ١ ص ٢٤٩ .

واحدة منها تدل بحق في أن تفتح بما افتتحت به صاحبها ، وأن تختتم بما اختتمت به ، ولأن في التكرير تقريراً للمعاني في الأنفس وتثبيتاً لها في الصدور ، ألا ترى أنه لا طريق إلى تحفظ العلوم إلا ترديد ما يراد تحفظه منها ، وكلما زاد ترديده كان أمكن له في القلب ، وأرسخ في الفهم ، وأثبت للذكر ، وأبعد من النسيان ولأن هذه الفصص طرقت بها آذان وقر عن الإنصات للحق وقلوب غفل عن تدبره فكوثر بالوعظ والتذكير ، ورجعت بالترديد والتكرير ، لعل ذلك يفتح أذنان ، أو يفتح ذهناً أو يصقل عقلاً ، طال هده أو مجلو فهما قد غطى عليه تراكم الصدأ (١) .

وقد تتكرر الجملة مع اختلاف في صياغتها وهذا تكرير حسن كما يقول الهمخشي لأن الاختلاف في الصياغة من عناصر القوة في التكرير يقول في قوله تعالى ، كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذو الأرتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب إن كل إلا كذب الرسل فحق عقاب ، ولقد ذكر تكذيبهم أولاً في الجملة الخيرية على وجه الإبهام ثم جاء بالجملة الاستثنائية فأوضحه فيها بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل لأنهم إذا كذبوا واحدا منهم فقد كذبهم جميعاً ، وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إبهامه والتنويع في تكريره بالجملة الخيرية أولاً وبالاستثنائية ثانياً ، وما في الاستثنائية من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص ، أنواع من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العقاب وأبلغه (٢) .

وهناك التكرير الذي يضاف فيه مع الكلام المكرر جملة جديدة ذات أهمية في المعنى وهذه طريقة العلماء فيما يكتبون لا يكررون الكلام إلا لفائدة ، يقول في قوله تعالى ، يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يعلمها لوقتها إلا هو ثقلت في السموات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حنى عنها ، فإن قلت لم يكرر يسألونك وإنما علمها عند الله ؟ قلت التأكيد ولم جاء به من زيادة قوله كأنك حنى عنها وعلى هذا تكرير العلماء المحققين في كتبهم

(١) الكشاف ج ٣ ص ٢٦٤

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٥٩

لا يخلون المكرر من فائدة زائدة منهم محمد بن الحسن صاحب أبي خنيفة
رحمهما الله (٤) .

الاعتراض :

ويلتفت الزمخشري إلى الجملة أو الجمل المعارضة مبينا مواقعها ، وفيبتها
البلاغية ، وعلاقتها بمعاني الكلام المعارضة فيه .

فقد تقع الجملة أو الجمل المعارضة في أثناء الكلام ، فتكون بين المبتدأ
وغيره كما في قوله تعالى ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا تكلف نفساً إلا
وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، يقول لا تكلف نفساً إلا وسعها
جملة معترضة بين المبتدأ والخبر للترغيب في اكتساب مالا يكتنبه وصف الواصف
من النعم الخالد (٢) .

وقد يكون بين الفعل ومفعوله كما في قوله تعالى ، وإن أصابكم فضل من الله
ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة ياليتنى كنت معهم فأفوز فوزاً عظيماً ،
يقول الزمخشري كأن لم تكن بينكم وبينه مودة اعتراض بين الفعل الذي هو
ليقولن وبين مفعوله وهو ياليتنى (٣) .

ويقع بين البدل والمبدل منه كما في قوله تعالى ، وإذ كر في الكتاب إبراهيم
إله كان صديقاً نبياً إذ قال لآبيه يا آبت ، يقول وهذه الجملة وقعت اعتراضاً بين
المبدل منه وبدله أعنى إبراهيم ، وإذ قال نحو قولك رأيت زيدا نعم الرجل
أخاك (٤) .

ويقع بين القسم والمقسم عليه كما في قوله تعالى ، فلا أقسم بمواقع النجوم وإله
لقسم لو تعلمون عظيم ، يقول وقوله وإله لقسم لو تعلمون عظيم اعتراض
في اعتراض لأنه اعترض به بين القسم والمقسم عليه وهو قوله إله لقرآن كريم

(١) الكشاف ج ٢ ص ٤٥

(٢) الكشاف ج ٦ ص ٨٣

(٣) الكشاف ج ١ ص ٤١٣

(٤) الكشاف ج ٢ ص ٣٩٥

واعترض بلو تعلمون بين الموصوف وصفته (١) .

وقد تقع جملة من الكلام معترضة في كلام آخر على سبيل الاستطراد كما في قوله تعالى : ، وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك انظم عظيم ووصينا الانسان بوالديه ، فإن قلت هذا الكلام كيف وقع في أثناء وصية لقمان ؟ قلت هو كلام اعترض على سبيل الاستطراد تأكيديا لما في وصية لقمان من النهي عن الشرك (٢) .

وقد يقع الاعتراض في آخر الكلام وهذا مسلك الزعزعي وهو فيه مخالف لطريقة الجمهور يقول في قوله تعالى : ، كذا رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأوتوا به متشابها ، فإن قلت كيف وقع قوله وأوتوا به متشابها من نظم الكلام ؟ قلت هو كقولك فلان أحسن بفلان وانعم ما فعل ورأى كذا وكان صوابا ومنه قوله تعالى وجعلوا أهزة أهلها أذلة وكذلك يفعلون ، وما أشبه ذلك من الجمل التي تساق في الكلام معترضة للتقرير (٣) .

وهذا النوع من الاعتراض يسميه البلاغيون تذييلا يقول الشهاب نقلا عن شرح الفاضل للكشاف في هذه الآية : هذا على تجويز الاعتراض في آخر الكلام والأكثرين يسمونه تذييلا والعلامة يجهل الاعتراض شاملا للتذييل كما يعرفه من تتبع كلامه فلا يرد الاعتراض عليه بأنه لا شبهة أنه تذييل ، وهو أن يعقب الكلام بما يشمل معناه توكيدا ولا محل له من الأعراب ولا مشاحة في الاصطلاح (٤) .

والشهاب يفسر آخر الكلام بتمامه وانقطاعه . كآخر السور والخطب والقصائد لا آخر الجمل المنقطعة عما بعدها ، وعليه يكون الاعتراض في قوله تعالى : ، والله محيط بالكافرين ، اعتراض في وسط الكلام لا في آخره وبالقياض على هذا يكون الاعتراض في وكذلك يفعلون ، منه ، أي من الاعتراض في وسط الكلام

(١) الكشاف ج ٢ ص ٥٨

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٣٩٠

(٣) الكشاف ج ١ ص ٨٤

(٤) حاشية الفهاف ج ٣ ص ٣٩٠

فلا يصح أن يكون المذكور في آية وكذلك يفعلون دليلا على صلته في الاعتراض كما ذهب الشارح العلامة ، وأنه يقع آخر الكلام ولكن المثالين المذكورين في كلامه يدلان دلالة واضحة على أن الاعتراض يكون في آخر الكلام .

والجمل الاعتراضية كما يقول الزمخشري لا بد لها من الاتصال بالكلام الذي واعدت معترضة فيه لأنها مسوقة لتوكيده وتقريره يقول في قوله تعالى : **وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ الصَّالِحِينَ** ومن المعز اثنتين **قُلْ أَتَدْعُونَ مَنْ دُونِ اللَّهِ** أم ما اشتملت عليه أرحام الإنس والجن **يَوْمَ تَكُونُ الْأَنْجَارُ كَالْعِهَابِ مُنْتَثِرَةً** ومن الإبل اثنتين ومن البقر اثنتين ، فإن قلت كيف فصل بين بعض المحدود وبعضه ولم يوال بيته ؟ قلت قد وقع الفاصل بينهما اعتراضا غير أجنبي من المحدود وذلك أن الله عز وجل **مَنْ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَشَاءُ** الأفعال المنافهم بإباحتها لهم ، فاعتراض بالاستحجاج على من حرّمها والاستحجاج على من حرّمها تأكيد شديد للتعليل والاعتراضات في الكلام لا تساق إلا للتوكيد (١) .

ثم إنه قد أشار إلى هذا وبين أيضا أن الاعتراض طريقة من طرق توكيد الكلام يقول في قوله تعالى : **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ** ، فإن قلت ما موقع هذه الجملة ؟ قلت هي جملة اعتراضية لا محل لها من الأعراب كنعو ما يجيء في الشعر من قولهم **والحوادث جمة** ، فائدتها تأكيد وجوب اتباع ملته لأن من بلغ الزاني عند الله أن اتخذه خليلا كان جديرا بأن تنبع ملته وطريقته (٢) .

وإذا كانت الجملة أو الجمل المعترضة غير واضحة الصلة بالكلام المسوقة فيه عند النظرة الأولى وقف الزمخشري ليبين قوة صلتها بها وأنها مسوقة لتوكيد والتقرير ، يقول في قوله تعالى **وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ** ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون **إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا** إن الذين تعبدون من دون الله لايملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون وأن تكفروا فقد كذب أمم من من قبلكم وما على الرسول إلا البلاغ المبين أولم يروا كيف يبدأ الله الخلق ثم يعيده إن ذلك على الله

(١) الكشاف ج ٢ ص ٥٨

(٢) الكشاف ج ١ ص ٥٢١

يسير قل سيروا في الارض . وهذه الآية وإن تكذبوا فقد كذب أمم والآيات التي بعدها إلى قوله فما كان جواب قومه محتملة أن تكون من جملة قول إبراهيم صلوات الله عليه لقومه . وأن تكون آيات وقعت معترضة في شأن رسول الله ﷺ وشأن قريش بين أول قصة إبراهيم وآخرها ... فإن قلت فإذا كانت خطابا لقريش فما وجه توسطهما بين طرفي قصة إبراهيم والجميل الاعتراضية لا بد لها من الاتصال بما وقعت معترضة فيه ألا تراك لا تقول مكة وزيد أبوه قائم خير بلاد الله ؟ قلت إيراد قصة إبراهيم ليس إلا لإرادة التنفيس عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وأن تكون مسلاة له ومتفرجا بأن أباه إبراهيم خليل الله كان ممنوا بنحو مامنى به من شرك قومه وعبادتهم الأوثان . فاعترض بقوله وأن تكذبوا على معنى ألكم يا معشر قريش أن تكذبوا محمدا فقد كذب إبراهيم وكل أمة نبيها لأن قوله فقد كذب أمم من قبلكم لا بد من تناوله لامة إبراهيم وهو كما ترى اعتراض واقع متصل ثم سائر الآيات الواطئة حقيها من أذيالها وتوابعها لسكونها ناطقة بالتوحيد ودلائله وهدم الشرك وتوهين قواعده واصفة قدرة الله وسلطانه ووضوح حجته وبرهانه (١) .

وقد أشرنا في كلامنا في النظم إلى كثير من المحاولات التي كان يهدف بها الزمخشري إلى كشف العلاقة بين الكلام المعترض وما وقع فيه معترضاً .

اللاختصار :

ذكرت في بحث الجملة ما يتعلق بالحذف في أحد أجزائها سواء كان مبتدأ أو خبراً أو مفعولاً . وذكرت كذلك حذف الجملة بتامها . وأذكر هنا ما يتعلق بحذف جملة من الكلام حين يعتمد المتكلم إلى طريقة الإيجاز في أثناء كلامه كثيراً من أجل .

والزمخشري يشير إلى أن هناك مواطن تقتضي الإيجاز والاكتفاء بالإشارة والوحى . وأن هناك مواطن تحتاج إلى أن يفصل القول فيها تفصيلاً . وأن يشيع المتكلم الحديث إشباعاً . يقول في قوله تعالى د أو كهيب من السماء ثم نرى

سببانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كاشفاً لحالهم بعد كشف وإيضاح غيب إيضاح
وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجعل ويوجز فكذلك الواجب
عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشيع . أتعهد الملاحظ :

يوحون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقباء
ومما نفى من التمثيل في التزليل قوله ، وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات
ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات . ألا ترى إلى
ذى الرمة كيف صنع قصيدته

أذك أم نمش بالوشى ...

أذاك أم غاضب بالعى مرتعه ... (١)

وينبه إلى المواطن التي يفصل القرآن فيها القول ويبسطه وينبه كذلك إلى غيره
بما يوجز الحديث فيه ويطويه .

يقوله في قوله تعالى ، ألم ذلك الكتاب ، إلى آخر آية إحدى وعشرين مبيناً
ما في هذه الآيات من أغراض ثلاثة تناولت مواقف الناس جميعاً من دين الله
فتحدثت عن المتقين ثم الكافرين ثم المنافقين . وقد اختلف البيان القرآني في هذه
المواقف إيجازاً واشباعاً .

يقول الزمخشري افتتح سبحانه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله وواطأت فيه
قلوبهم الستهم . ووافق سرهم علمهم . وفعلهم قولهم . ثم نسي بالذين محضوا
الكفر ظاهراً وباطناً قلوباً والسنة ثم تلك بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن
قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا وهم الذين قال فيهم مذبذبين بين ذلك لا إلى
هؤلاء ولا إلى هؤلاء وسماه المنافقين . وكانوا أخبت الكفرة وأبغضهم إليه
وأعقبتهم عنده لأنهم خاطوا بالكفر تمويهاً وتدليساً وبالشرك استهزاء وخداعاً
ولذلك أنزل فيهم إن المنافقين في الدوك الأسفل من النار ووصف حال الذين
كفروا في آيتين وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية واستجهلهم واستهزأ بهم
وتهمك بفعلهم وسجل بطغيانهم وعمهم ودعاهم صماً يكماً عياً وضرب لهم من الأمثال

الشيعة وقصة المنافقين عن آخرها مطوقة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة (١) .

ويشير إلى طريقة القرآن في اختصار القصة وحذف اجزائها غير الهامة . والنص منها على أهم المواقف فيها . يقول في قوله تعالى : ولقد آتينا موسى الكتاب وجعلنا معه أخاه هرون وزيراً فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً ، والمعنى فذهبا إليهم فكذبوهما فدمرناهم . كقوله اضرب بعصاك البحر فانطلق أراد اختصار القصة فذكر حاشيتها أولها وآخرها لأنها المقصود من القصة بطولها أعنى إلزام الحججة ببعثة الرسل واستحقاق التدبير بتكذيبهم (٢)

ويكرر هذا في قوله تعالى : ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هرون ، وهذا كلام مختصر وقد بسطه في غير هذا الموضع وقد أحسن الاختصار حيث قال فأرسل إلى هرون فجاء بما يتضمن الاستنباه . ومثله في تفسير الطويلة والحسن قوله تعالى : فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا فدمرناهم تدميراً ، حيث اقتصر على ذكر طرفي القصة أولها وآخرها وهما الإنذار والتدبير ودل بذكرهما على ما هو الغرض من القصة الطويلة كلها وهو أنهم قوم كذبوا بآيات الله إلزام الحججة عليهم فبعث إليهم رسولين فكذبوهما فأهلكهم (٣) .

ترتيب الجمل والآيات :

وقد اهتم الزعخشري ببيان الأسس التي سار عليها لسق الجمل وترتيبها في القرآن كما اهتم كذلك ببيان ترتيب الآيات . وهذا اللون من البحث جدير بالاهتمام والتوضيح وهو في صميمه نظر في المعاني وتتابعها وكيف يهد سابقها للاحتقار وهو أيضاً غير واضح في الدراسة البلاغية وإن كان متصلاً بصميمها .

والزعخشري لم يقف عند كل جملتين . ولا أشار إلى وجه الترتيب بين كل آيتين . وإنما كانت له وقفات عند كثير من الجمل والآيات المتتابعة . ينظر في

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٤ ، ٤٣

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٧٠ ، ٢٧١

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٢٢٥

معانيها . ووجه ترتيب بعضها على بعض وبين في هذا أن الجملة قد تقدم على الأخرى لأنها أدل على الغرض المسوق له الكلام .

يقول في قوله تعالى « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع » . فإن قلت لم جاءت الأجناس الثلاثة على هذا الترتيب ؟ قلت قدم ما هو أعرق في القدرة وهو الماشى بغير آلة مشى من أرجل أو قوائم ثم الماشى على الرجلين ثم الماشى على أربع (١)

وقد تقدم الجملة لأنها تدل على الأكثر عدداً كما في قوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات » . بإذن الله . يقول فإن قلت لم قدم الظالم ؟ ثم المقتصد ثم السابق ؟ قلت للايقان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقون أقل من القليل (٢) .

والآيات التي تتحدث عن نعم الله وتمدهما قد يتقدم منها ما هو أكثر أثراً في حياة الناس المادية والروحية كما في قوله تعالى « لنحيي به بلدة ميتا ولسقيه من خافقنا انعاماً وأناس كثيراً » يقول فإن قلت لم قدم لإحياء الأرض وسقى الانعام على الاناس ؟ قلت لان حياة الاناس بحياة أرضهم وحياة انعامهم فقدم ما هو سبب حياتهم وتعيشهم على مسقيهم ، ولأنهم إذا ظفروا بما يكون سقياً أرضهم ومواشيهم لم يعدوا سقيهم (١) وكما في قوله تعالى « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان عليه البيان الشمس والقمر بحسبان » يقول عدد الله عز وجل آلائه فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قدما من ضروب آلائه وأصناف نعمائه وهي نعمة الدين ، فقدم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وأعلى مراقبها وهو إنعامه بالقرآن وتزويله وتعليمه لانه أعظم وحى الله رتبة ، وأعلاء منزلة ، وأحسنه في أبواب الدين أثراً ، وهو سنام الكتب السماوية ومصدقها والمبار عليها ، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ثم أتبعه آياه ليعلم أنه إنما خلقه للدين وليحيط علماً بوجبه وكتبه وما خلق الإنسان من أجله وكان الغرض في إنشائه كان

(١) الكشاف ج ٤ ص ٤٩٥ .

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٤٥٥ .

مقدما عليه وسابقا له ، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان وهو المنطق
الفصيح المعرب عما في الضمير (١) .

وقد يكون ترتيب الجمل على أساس ما يعين للنفس من خواطر وأفكار فتقع
الجمل مرتبة على وفق ترتيب هذه الخطرات . يقول في قوله تعالى : ما يفعل الله
بمذابكم إن شكرتم وآمنتم ، فإن قلت لم قدم الشكر على الإيمان؟ قلت لأن العاقل
ينظر إلى ما عليه من النعمة العظيمة في خلقه وتمريضة للبنافع فيشكر شكراً مبهما ،
فإذا انتهى به النظر إلى معرفة المنعم آمن به ثم شكر شكراً مفصلاً ، فكان الشكر
متقدماً على الإيمان وكأنه أصل التكليف ومداره (٢) .

وقد يختلف ترتيب الآيات في الظاهر وهو في الحقيقة موافق لحوال النفس
وما يمرض لها في المراتب الصعبة من مشاعر وخواطر ، وللخمشرى كلام جيد
في كشف تطبيق الآيات على وفق هذه الأحوال .

يقول في قوله تعالى : أن تقول نفسي يا حمرتا على ما فرطت في جنب الله وإن
كنت لمن الساخرين أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين أو تقول حين
ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين بل قد جاءتك آياتي فكذبت بها
واستكبرت وكنت من الكافرين . فان قلت هلا قرن الجواب بما هو جواب له ،
وهو قوله لو أن الله هداني ، ولم يفصل بينهما بآية؟ قلت لا يخلو إما أن يقدم على
أخرى القرائن الثلاث فيفرق بينهما ، وإما أن تؤخر القرينة الوسطى . فلم يحسن
الأول لما فيه من تبشير النظم بالجمع بين القرائن ، وأما الثاني فلم فيه من النقص
بين الترتيب وهو التحسر على التفريط في الطاعة ثم التعلل بفقد الهداية ثم تمنى
الرجعة فكان الصواب ما جاء عليه ، وهو أنه حكى أقوال النفس على ترتيبها ونظامها
ثم أجاب عن بعضها على ما اقتضى الجواب (٣) .

وفي مواقف تهذيب النفس وإرشادها إلى طريق البر واخذ الوسائل التي تبعد
بها عن مواطن الرذيلة يلمح الرمشرى ترتيباً يلائم طبيعة النفس ويتسق مع
أحوالها حيث تقو إلى الأوامر وتتصاعد حسب الأحوال والشئون .

(٢) الكفاب ج ١ ص ٤٥١

(١) الكفاب ج ٤ ص ٣٥٣

(٣) الكفاب ج ٤ ص ١٠٧

يقول في قوله تعالى : قل للؤمنين يغضوا من أبصارهم ، إلى قوله تعالى : وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً حتى يغنيهم الله من فضله . وما أحسن ما ترتب هذه الأوامر حيث أمر أولاً بما يعصم من الفتنة ويبعد عن موافقة المعصية وهو غض البصر ، ثم بالنكاح الذي يحصن به الدين ويقع به الاستغناء بالخلال عن الحرام ، ثم بالجل على النفس الأمانة بالسوء ، وعزفها عن الطموح ، إلى الشهوة عند المعجز عن النكاح إلى أن يرزق القدرة عليه (١) .

ويدرك الزمخشري أن القرآن حين يواجه النفس الإنسانية بأخطائها لا إنما معنفاً أو هادياً مترقفاً إنما يرتب الآيات ترتيباً حسناً وعجيباً فتكون كل آية كأنها مهددة للآخرى وبساط لها ، يقول في آيات الحجرات التي يراجه القرآن فيها الصائمين برسول الله يتأدونه من وراء الحجرات ، فتأمل كيف ابتدئ به بما يجاب أن تكون الأمور التي تنتمى إلى الله ورسوله متقدمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد ، ثم أورد ذلك النهي عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر كان الأول بساطاً للثاني ووطاء لذكره ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم دلالة على عظيم موقعه عند الله ، ثم جرى على عقب ذلك بما هو أظلم وهجنته أتم من الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم في حال خلوته ببعض حرمانه من وراء الجدران كما يصاح بأهون الناس قدراً لينبه على فظاعة من أجروا إليه وجسروا عليه لأن من رفع الله قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جملة المهاجرين والأنصار بأخى السرار كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغاً ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب (٢) .

وحينما يكون المقام مقام مناظرات فكرية بين التوحيد والشرك يلحظ الزمخشري أفكاراً تتصاعد في هذا المجال فتبدأ بالسؤال البسيط وتنتهي بإبطال المعتقد الباطل وتحقيق الحق .

وقد وقف الزمخشري عند مناقشات إبراهيم عليه السلام لآيئه وقومه وبين كيف رتب إبراهيم عليه السلام أفكاره ومعانيه يقول في قوله تعالى : وائل عليهم

(١) الكشاف ج ٣ ص ١٨٨

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

بأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظلم لها ما كفتين
قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون ، قالوا بل وجدنا آباءنا
كذلك يفعلون ، وما أحسن ما رتب إبراهيم عليه السلام كلامه مع المشركين حين
سألهم أولاً عما يعبدون سؤال مقرر لاستفهام ، ثم أنحى على آلتهم فأبطل أمرها
بأنها لا تنفع ولا تضر ولا تنفع ولا تبصر ولا تسمع على تقليد آباءهم الأقدمين ، فكسره
وأخرجه من أن يكون شبهة فضلاً أن يكون حجة ، ثم صور المسألة في نفسه ودونهم
حتى تخلص منها إلى ذكر الله عز وجل فمظلم شأنه وعدد نعمته من لدن خلقه
والشأنه إلى حين وفاته مع ما يرجى في الآخرة من رحمة ، ثم أتبع ذلك أن دعا
بדعوات المخلصين وابتدل إليه إبتال الأوابين ، ثم وصله بذكر يوم القيامة وثواب
الله وعقابه ، وما يدفع إليه المشركون يومئذ من الندم والحسرة على ما كانوا فيه
من الضلال ، وتمنى السكرة إلى الدنيا ليؤمنوا ويطيعوا . (١)

وفي مناقحة إبراهيم عليه السلام لأبيه ودعوته إلى التوحيد يلحظ الزمخشري
ترتيب المعاني وتلاحقها كما يلحظ أسلوب الدعوة الهادي والمجاملة اللينة والأدب
الحسن وإن كان في أحرفه صراعاً بين الحق والباطل ، كما يناقش القضايا التي ساقها
لإبراهيم عليه السلام ويبين وجه قوتها ودلائلها ، وقد طالت دراسته لمعاني هذه
المناقحة وترتيب أفكارها وقد أغفل المتأخرون هذا اللون من النظر في الدراسة
البلاغية ، كما أغفلوا كثيراً من مباحثها ، وإذا كنا بصدد توضيح عنايته بدراسة
المعاني ومناقشتها فمن الخير أن أذكر هذا النص القيم وإن طال حديثه فيه .

يقول في قوله تعالى ، واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال
لأبيه يا أباي لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً يا أباي إنى قد جاءني
من العلم عالم يأتك فانبغي أهدك صراط سويًا ، إلى آخر الآيات .

يقول انظر حين أراد أن ينصح أباه ويعظه فيما كان متورطاً فيه من الخطأ
العظيم والارتكاب الشنيع الذي عصى فيه أمر العقلاء ، وانسلخ عن قضية التمييز
وعن الثبوت التي ليس بعدها قباورة كيف رتب الكلام معه في أحسن التساق ،

وصاقه أرشق مساق ، مع استعمال المجاملة والاعطف والرفق واللين والأدب الجميل
والخلق الحسن منتصحا في ذلك بنصيحة ربه عز وعلا . . . وذلك أنه طلب منه :
أولا العلة في خطئه طلب منه على تماديه ، موقظ لإفراطه وتناهيه ، لأن
المعبود لو كان حيا مميّزا سمعياً بصيراً مقتدرأ على الثواب والعقاب ، ناقماً
ضاراً ، إلا أنه بعض الخلق لاستخف عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية ،
ولسجل عليه بالغى المبين والأظلم العظيم وإن كان أشرف الخلق وأعلام
منزلة كالملائكة والنبين قال الله تعالى ، ولا يأسرکم أن تتخذوا الملائكة والنبيين
أربابا أي امرکم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ، وذلك أن العبادة هي غاية
التعظيم فلا تحقق إلا لمن له غاية الإتمام وهو الخالق الرازق المحي المميت
والمثيب المعاقب الذي منه أصول النعم وفروعها فإذا وجهت إلى غيره - وتعالى
علواً كبيراً أن تكون هذه الصفة لغيره لم يكن إلا ظلماً ، وهتوا ، وغيا ،
وكفرا ، وجحوداً ، وخروجاً عن الصحيح المنير إلى الفاسد المظلم ، فساظنك به
من وجه عبادته إلى جماد ليس به حس ولا شعور ؟ . . ثم ثنى بدهوته إلى الحق
مترقفاً به متلطفاً فلم يسم أباه بالجميل المفرط ولا نفسه بالعلم الفائق ولكنه قال
أن معنى طائفة من العلم وشيئا منه ليس معك وذلك علم الدلالة على الطريق السوي
فلا تستنكف وهب أني وإياك في مسير وعندى معرفة بالهداية دونك فأتبعني
أنحك من أن تضل ، ثم تلك بتبسيطه ونبيه عما كان عليه بأن الشيطان الذي استعصى
على ربك الرحمن الذي جميع ما عندك من النعم من عنده ، وهو عدوك الذي
لا يريد بك إلا كل هلاك ، وخزي ، ونكال ، وعدو أهلك آدم وأبناء جنسك
كلهم ، هو الذي ورطك في هذه الضلالة ، وأمرك بها ، وزينها لك ، فأنت إن
حققت النظر عابد الشيطان ، إلا أن إبراهيم عليه السلام لإيمانه في الإخلاص
ولارتقاء همنه في الربانية لم يذكر من جناب الشيطان إلا التي تخص منها برب
العزة من عصيانه واستكباره ولم يلتفت إلى ذكر معاداته لآدم وذريته كأن النظر
في عظم ما ارتكب من ذلك غره فسكروه وأطبق على ذهنه ، ثم ربيع بتخوينه سوء
العاقبة وما يجره ما هو فيه من التبعة والوبال . ولم يغفل ذلك من حسن الأدب
حيث لم يصرح بأن العقاب لاحق له وأن العذاب لاصق به . ولكنه قال أعاقب
أن يمسك عذاب ، فذكر الخوف ، والمس ، وسكر العذاب ، وجعل ولاية

الشيطان ، ودخوله في جملة أشياعه وأوليائه ، أكبر من العذاب ، وذلك أن رضوان الله أكبر من الثواب نفسه وسماه الله تعالى المشهود له بالفوز العظيم حيث قال « ورضوان الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم ، فكذلك ولاية الشيطان التي هي معارضة رضوان الله أكبر من العذاب نفسه وأعظم . وصدق كل نصيحة من النصائح الأربع بقوله « يا أبت ، توسلا إليه واستعطافا (١) .

وسوف نجد أثر هذا التحليل القيم في كتابي المثل السائر والطراز .

تفسير النص :

من الواضح أن كل ما ذكرته من النظر البلاغي في كتاب الكشف صالح لأن يكون نوما من تحليل النص ، سواء كان ذلك نظرا في المفرد أو بحثا في الجملة أو الجمل وسواء كان ذلك دراسة لفنون بلاغية كالالتفات والتقديم وأكثر ما ذكرنا أو كان نظرا في المعاني وتحليلها ، وأريد هنا أن أزيد هذا الجانب بيانا وتوضيحا لتبين لنا قدرته البلاغية في ضوء شرح النص وتحليله وكون هذا البحث أعنى شرح النص داخلا في بلاغته فذلك أمر لا أعتقد أن أحدا يخالفني فيه . لأن الزمخشري نفسه ذكر في مقدمة تفسيره أن أداة المفسر الأولى هي علم البيان وعلم المعاني ، وحدد المعنى المراد من النص وقال إن هذا ما يقتضيه علم المعاني كما في آية « لن يستنكف المسيح ،

ومن الواضح أيضا أن هذا البحث أعنى شرح النص وتفسيره لا يدخل الآن دائرة البحث البلاغي إلا في حدود تحليل الأمثلة وشرحها ، وأن هذا البحث أيضا هو أكبر وظائف النقد الأدبي على أن بعض الدارسين يحصر مهمة النقد في هذه الوظيفة إذ جعل الواجب الرئيسي للناقد هو العرض (٢) .

والزمخشري في تفسيره للنصوص يستصحب مقاييس جمالية عرفتها الدراسة البلاغية قبله ، من ذلك أن أمارات التفوق في الأسلوب أن يكون الكلام متماسكا أشد التماسك مرتبطا أقوى ارتباط كما أنه بناء متين يشد بعضه بعضا .

(١) الكشف ج ٣ ص ١٤ ، ١٥

(٢) النقد الأدبي للأستاذ المرحوم أحمد أمين ص ٣٨٠

يقول في قوله تعالى : « ويوم ينفخ في الصور ففرح من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون ، من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ، ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار ، يقول الزمخشري : صنع الله من المصادر المؤكدة كقوله وعد الله وصيغة الله إلا أن مؤكده محذوف وهو الناصب ليوم ينفخ ، والمعنى ويوم ينفخ في الصور وكان كبت وكبت أثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين ، ثم قال « صنع الله » يريد الإنابة والمعاقبة وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والثواب حيث قال : صنع الله الذي أتقن كل شيء يعني أن مقابلة الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب من جملة أحكامه للأشياء وأتقانه لها وإجرائه لها على تضييق الحكمة أنه عالم بما يفعل العباد وبما يستوجبون عليه فيكافئهم على حسب ذلك ، ثم لخص ذلك بقوله : « من جاء بالحسنة ، إلى آخر الآيتين ، فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن نظمه وترتيبه ومكانة إخماده ورصانة تفسيره واخذ بعضه بحجة بعض كأنما أفرغ إفراغا واحدا ولامر ما أعجز القوى وأخرس الشفاشق ونحو هذا المصدر إذا جاء حقيبه كلام جاء كالشاهد بصحته والمنادى على سداده وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان . ألا ترى إلى قوله صنع الله ، وصيغة الله ، وفطرة الله ، بعدما وسمها باضافتها إليه بسملة التعظيم كيف تلاها بقوله الذي أتقن كل شيء ، ومن أحسن من الله صيغة ، لا يغلف الله الميعاد ، لا تبديل لخلق الله (١) .

وهذا الأساس الذي يشير إليه الزمخشري في كثير من المواضع قد ذكره عبد القاهر وبسط القول فيه وسماه النقط العالي والباب الأعظم وقال ولا ترى سلطان المزية يعظم في شيء كمظمة فيه (٢) وسبب المزية في هذا النوع غرضي المسلك ودقة النظر والتأمل في الصنعة والاحتفال بصياغة القول .

والزمخشري يذكر الأسلوب الصحيح المحكم الذي يقرر بعضه بعضا ، يقول في قوله تعالى « ألم تنزل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتتذرع قوما ما أتاكم من نذير من قبلك ، وهذا أسلوب صحيح

حسبك أثبت أولا أن تنزيهه عن رب العالمين وأن ذلك ما لا ريب فيه ، ثم أضرب
عن ذلك إلى قوله أم يقولون افتراه ، لأن أم هي المنقطعة السكائنة بمعنى بل والهمزة
الإكرا لبقوله وتعجيبا منه لظهور أمره في عجز بلغائهم عن ثلاث آيات منه ، ثم
أضرب عن الإنكار إلى إثبات أنه الحق من ربك ، ونظيره أن يعال العالم في المسألة
بملة صحيحة جامعة قد احترز فيها أنواع الاحتراز كقول المتكلمين النظر أول
الأفعال الواجبة على الإطلاق التي لا يعرى عن وجوبها مكاف ثم يعترض عليه
فيها ببعض ما وقع احترازه منه فيرده بتلخيص أنه احترز من ذلك ثم يعود إلى
تقرير كلامه وتمثيه (١) .

ويذكر كذلك الأسلوب الحشن والغليظ ، وله إحساس دقيق بمواقع السكليات
وإصابتها ، وتفاعل صادق مع ما تحتويه . يقول في قوله تعالى : قتل الإنسان ما
أكفره ، دعاء عليه وهو من أشنع دعواتهم لأن القتل قصارى شدائد الدنيا
ورفائنها ، وما أكفره : تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله ، ولا ترى أسلوبا
أغلظ منه ، ولا أحسن مسا ، ولا أدل على سنخ ، ولا أبعث شوطا في المذمة ، مع
تقارب طرفيه ، ولا أجمع للأئمة على قصر منته (٢) .

والزغشري يعتمد حكم الذوق ويستجيب له ، ويقف عند هذا الحكم غير محمل
ولا موضح ، ويرفض تأويل المخالفين ووجه فهم النص ، ولا حجة له أحيانا
إلا الذوق ، والاعتماد عليه في نظره اعتماد على أساس متين ، وكأنه المرجع الذي
يرجع إليه المختلفون مهما كانت درجة خلافهم . يقول في رده على أهل السنة ،
وجه تفسيره لقوله تعالى : ولقد كررنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم
من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا . ومن ارتكبهم أنهم فمروا
كثيرا بمعنى جميع في هذه الآية ، وخذلوا ، حتى سلجوا الذوق فلم يحسوا ببشاعة قولهم
وفضلناهم على جميع ممن خلقنا (٣) .

ويذكر صفات الأسلوب فيها إبهام وإجمال ثم يبين ويحلل ما أجهل وما أجهل
يقول في قوله تعالى : : بمنون عليك أن أسلبوا قل لا تمنوا على إسلامكم بل الله

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٥٦١

(١) الكشاف ج ٣ ص ٤٠٩

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٥٣٧

ين عليكم أن هداكم للإيمان ، ، وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة وذلك أن
السكان من الأمازيغ قد سماه الله إسلاما ونفى أن يكون كما زعموا إيمانا فلما
منوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما كان منهم قال الله سبحانه وتعالى لرسوله
عليه السلام إن هؤلاء يعتدون عليك بما ليس جديرا بالاعتداد به من حديثهم الذي
حق تسميته أن يقال له إسلام ، فقل لهم لا تعتدوا على إسلامكم أي حديثكم المسمى
إسلاما عندي لإيمانا ، ثم قال بل الله يعتد عليكم أن أمركم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان
على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووقفتم له إن صح زعمكم وصدقت
دهواكم إلا أنكم تزعمون وتدعون والله عليم بخلافه وفي إضافة الاسم إليهم
وإيراد الإيمان غير مضاف ما لا يخفى على المتأمل (١) .

ويوازن بين النص الذي بشرحه والنصوص التي تشابهه في معناه وفي غرضه
ويدهو إلى النظر المتثبت في النصوص الأدبية والموازنة الدقيقة بين ما تشابه منها حتى
يتسنى لنا أن نعرف أحوالها في فرضها . يقول في آيات الإفك: ولوقليت القرآن كله
وقفتت مما أوعده به من العصاة لم تر الله تعالى قد غلظ في شيء تغليظه في إفك
عائشة رضوان الله عليها ولا أنزل من الآيات القوارع المشحونة بالوعيد الشديد
والعتاب البليغ والزجر العنيف واستعظام ما ركب من ذلك واستفطاع ما أقدم
عليه ما أنزل فيه على طرق مختلفة ، وأساليب مفتنة ، كل واحد منها كاف في بابه
ولو لم ينزل إلا هذه الثلاث لكتفى بها حيث جعل القذفة ملعونين في الدارين جميعاً
وتوعدهم بالعذاب العظيم في الآخرة وبأن السنتهم وأيديهم وأرجلهم تشهد عليهم
بما أفكروا وبنهوا وأنه يوفى بهم جزاءهم الحق الواجب الذي هم أهلوه حتى يعلموا عند
ذلك أنه الحق المبين : فأوجز في ذلك وأشبع ، وفصل وأجل ، وأكد وكرر ،
وجاء بما لم يقع في وعيد المشركين عبدة الأوثان إلا ما هو دونه في الفظاحة .
وما ذلك إلا الأمر (٢) .

ويلتفت الزمخشري في تحليله للنص إلى أهمية المقابلات بين المعاني وكيف
اعتمد القرآن عليها في بث الرغبة والرهبة . يقول في قوله تعالى : وبشر الذين

(١) الكشاف - ٤ ص ٣٠٠ .

(٢) الكشاف ج ٣ ص ١٧٦ .

آمنوا وعملوا الصالحات ، من عادته عز وجل في كتابه أن يذكر الترغيب مع
الترهيب ويشفع البشارة بالإبذار إرادة التنشيط لا كغساب ما يضاف والتنشيط
من إقتراف ما يتأف (١) .

وحيثما يتابع الزمخشري كلمات الآيات بالنظر والتحليل ترى في هذه المتابعة
لونا من الدراسة البلاغية الممتعة ونجد ذوقاً وحساً نادريين نرفع صاحبهما إلى
درجة الأفاضل من المتذوقين ولا نجد كثيراً من يفضلون الزمخشري في هذا الباب
مع شغفنا بقتب هذا اللون من الدراسة الأدبية وحرصنا على أن نقرأ ما نعرض
عليه من تحليل النصوص تحليلاً بلاغياً بصيراً سواء كان هذا في شرح الدواوين
والنصوص الأدبية القديمة أو كان عند المعاصرين من يتعرضون في أثناء بسط
النظريات النقدية إلى أنواع من التطبيق وضرب الأمثلة . أقول إن الزمخشري
من الأفاضل المتذوقين في هذا الباب وله تحليلات ما استطاع الزمن الطويل ولا
تطور الدراسات الأدبية أن يذهب شيئاً من بهائم وزهائمها . وقد ترى صدق هذه
الدعوى في كثير من النصوص التي أثبتنا في المواضع المختلفة وقد يكون مسبقاً
بتحليلات بلاغية لبعض النصوص القرآنية فيقع عليها ويكون جهده حينئذ تلخيصاً
لما كتب . أو بسطاً له . مع إضافات بسيرة . ثم يشير إلى أنه لهذا الذي ذكر
استفصح علماء البلاغة هذه الآية .

يقول في قوله تعالى ، ربى إني وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ، .
وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى
وتساقط قوته . ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أو وهن .
ووجد لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية وقصده إلى أن هذا الجنس الذي
هو العمود والقوام وأشد ما تركيب منه الجسد قد أصابه الوهن . ولو جمع لكان
قصداً إلى معنى آخر وهو أنه لم يكن منه بعض عظامه ولكن كلها . . . وشبه
الشيب بشواظ النار في بياضه وإفاناره وانتشاره في الشعر وفشوه فيه وأخذه
منه كحل يأخذ باشتعال النار ثم أخرجه مخرج الاستعارة . ثم أسند الاشتعال إلى
مكان الشعر ومعنيتيه . وهو الرأس . وأخرج الشيب ميمراً ولم يصف الرأس اكتفاء

يعلم المخاطب أنه رأس زكريا . فن تم فصحت هذه الآية وشهد لها بالبلاغة (١) .

ولو نظرنا إلى ما كتبه عبد القاهر في هذه الآية لتبين لنا أن جزءاً كبيراً من كلام الزمخشري ليس إلا تلخيصاً لكلام عبد القاهر (٢)

ويقول الزمخشري في قوله تعالى ، وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء ألقى وغيض الماء وقضى الأمر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين .

نداء للأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المبرز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالمخاطب من بين سائر المخلوقات . وهو قوله يا أرض ويا سماء . ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله ابلعي ماءك وألقى . من الدلالة على الافتقار العظيم . وأن السموات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يقضاه غير متممة عليه كأنها عقلاء يميزون قد عرفوا عظمتهم وجلالهم . وثوابه . وعقابه . وقدرته على كل مقدور . وتبينوا تخمط طاعته عليهم وانقيادهم له وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له والنزول على مشيئته على الفور من غير ويث ، فكلمنا يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء . والبلع عبارة عن النشف والإقلاع والإمساك . يقال ألقى المطر وألقى الحمى . وغيض الماء من غاضه إذا نقصه . وقضى الأمر وأنجز ما وعد نوحاً من هلاك قومه واستوت واستقرت السفينة على الجودي وهو جبل بالموصل وجمي . أخباره على الفعل المبني للمفعول للدلالة على الجلالة والكبرياء وأن تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر . وتكوين مكون قاهر . وأن فاعلها فاعل واحد لا يشارك في أفعاله . فلا يذهب الوم إلى أن يقول غيره يا أرض ابلعي ماءك . ويا سماء ألقى . ولا أن يقضى ذلك الأمر الخائل غيره . ولا أن تستوى السفينة على متن الجودي وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره . ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية . أو رقصوا لها وروسهم . لا لتجاسس الكلمتين وهما ابلعي وألقى وذلك وإن كان

(١) الكشاف ج ٣ ص ٣

(٢) ينظر دلائل الإيجاز ص ٦٩ و ٧٠

لا يخفى الكلام من حسن فهو كثير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب
وما عداها قشور (١)

ولو نظرنا أيضاً إلى ما قاله عبد القاهر في هذه الآية ، لوجدنا ما ذكره
الزمخشري بسطاً وتفصيلاً لما ذكره عبد القاهر (٢)

(١) الكشاف ج ٢ ص ٣١١ .
(٢) ينظر دلائل الإعجاز ص ٢٣ ، ٢٤ .

الفصل السادس

البحث في صور البيان

التشبيه :

- (أ) التشبيه التخيلي
- (ب) التشبيه المفرد والمركب والمتعدد
- (ج) التشبيه والتمثيل
- (د) بلاغة التشبيه
- (هـ) العلاقة بين الطرفين
- (و) التشبيه المقلوب
- (ز) أداة التشبيه
- (ح) قيمة القيود في التشبيه
- (ط) الفروق بين التشبيه والاستعارة

المجاز :

- (أ) الاستعارة بالكناية
- (ب) الاستعارة التبعية
- (ج) الاستعارة الأصلية
- (د) الترشيح والتجريد
- (هـ) الاستعارة اللفظية
- (و) صور الاستعارة الضدية (العكس في الكلام)
- (ز) التمثيل
- (ح) التخويل
- (ط) المجاز المرسل
- (ي) المجاز المحكي

الكناية
التعريف

www.alkottob.com

الفصل السادس

البحث في صور البيان

تتابع في هذا الفصل دراسة الزمخشري لصور البيان من التشبيه والمجاز بأقسامه والسكناية والتعريض .

وعليتنا أن نذكر أن صور البيان في القرآن والأدب قد درست دراسة مفصلة ، وكانت موضع اهتمام المشتغلين بدراسة الأدب ونقده ، ولا شك أنها كانت أوفر حظا من الدراسة الخاصة بحمال النظم ، وبلاغة الصوغ ، لأن النحو جذب الباحثين في الصياغة والنظم إلى آفاقه ولون دراستهم بروحه ومزاجه .

وإذا كانت دراسة ألوان البيان دراسة مفصلة قد تمت قبل القرن الذي طاش فيه الزمخشري فإننا نرى فيما ذكره الدارسون اختلاف الألوان وتمايز الاتجاهات وذلك لأن دراسة الفنون البلاغية تتأثر تأثرا واضحا بروح الدارس وذوقه ، لأنها ليست دراسة علمية خالصة ، بل للفن فيها نصيب كبير ، لذلك يدرك المتأني فرقا كبيرا بين دراسة التشبيه في الكتب المختلفة وإن ذكر الجميع أن التشبيه ينقسم إلى مفرد ومركب ، وحسي وعقلي ، وتشبيه في الشكل ، وفي اللون ، إلى آخر هذه التفريعات العلمية .

وهذا التصور نحاول أن نبرز دراسة الزمخشري لصور البيان تلك الدراسة التي تعكس على صفحاتها ذوقه وروحه محاولين المحافظة على صورتها الحقيقية جامعين في تنسيقها وتنظيمها .

التشبيه

درس الزمخشري التشبيه المركب والمتعدد والمفرد ، ودرس تشبيه التخييل ، وفرق بين الاستمارة والتشبيه ، وبين القيمة البلاغية للقيود في الصورة ، ودرس العلاقة بين الطرفين ، في حال التمدد ، والإفراد والتركيب ، وبين قيمة التخييل ، كما أشار إلى التشبيه المقلوب .

التشبيه التجييل :

وهو ما يكون المشبه به أمرا قد صنمه الخيال المحض كما في قوله تعالى ، طلعا
كأنه رؤوس الشياطين ، . يقول الزمخشري : وشبه رؤوس الشياطين دلالة على تناهيه
في الكراهة وقبح المنظر لأن الشيطان مكروه مستقبح في طباع الناس لاعتقادهم
أنه شر عرض لا يخاطه خير ، فيقولون في القبيح الصورة كأنه وجه شيطان كأنه
رأس شيطان وإذا صوره المصورون جاؤا بصورته على أفبح ما يقدرون وأهوله
كما أنهم اعتقدوا في الملك أنه خير عرض لا شر فيه ، فشبوا به الصورة المحسنة
قال الله تعالى وما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم ، وهذا تشبيه تجييل (١) .

ويشير إلى هذا اللون من التشبيه في قوله تعالى دقل أتدعون من دون الله مالا
ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذي استهوته الشياطين
في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى انقضاء ، يقول كالذي ذهب به فرقة
الجن الغيلاق في الأرض المهمة حيران تائها ضالا عن الجادة لا يدري كيف
يصنع .. وهذا مبني على ما تزعمه العرب وتعتقده أن الجن تستهوى الإنسان ،
والغيلاق تستولى عليه كقوله كالذي يتخبطه الشيطان من المس (٢) ، وهذه صورتها
تأثيرها القوي في النفوس وكذلك كل تشبيه يبني على هذا اللون من الاعتقاد
الساذج الذي يشير إلى مراحل الطفولة الفكرية في حياة الأمم ، وما أروع الصورة
حين تعود بنا إلى طفولتنا الأولى .

المفرد والركب والمتعدد :

وقد أشار الزمخشري إلى التشبيه المفرد في مواطن كثيرة ، من ذلك ما أشرنا
إليه في التشبيه التجييل في آية رؤوس للشياطين ، وقد ناقش أبا الملاء في قوله :
حراء ساطعة الذوائب في الدجى . : ترمى بكل شرارة كطراف
فشيها بالطراف وهو بيت الأدم في العظم والحجرة وكأنه قصد بخبثه أن يزيد
على تشبيه القرآن ، ولتبيحه بما سول له من توهم الزيادة جاء في صدر بيته بقوله
حراء توخلة لها ومناداة عايم وتنبها للساميين على مكائما ، ولقد عسى - جمع الله له

(١) الكشاف ج ٣ ص ٤٢ .

(٢) نظر الكشاف ج ٤ ص ٢٤٥ .

هى الدارين - عن قوله جل وعلا: كأنه جمالات صفراء، فإنه بمنزلة قوله كبيت أحمر، وعلى أن فى التشبيه بالقصر وهى الحصن تشبيها من جهتين من جهة العظم ومن جهة الطول فى الهواء وفى التشبيه بالجمالات وهى القلوص تشبيه من ثلاث جهات من جهة العظم والطول والصفرة فأبعد الله إغرابه فى طرافه وما انفج شدقيه من استطرافه (١)

والفرق بين تشبيه الشرارة بالقصر وتشبيها بالطراف لا يقف عندها هذا الظاهر. وذلك لأن تشبيه القرآن فيه تصوير للهول والفرع توحى به ضخامة القصر وهو يقذف ويرمى به وسقوط الطراف ليس كسقوط القصر. على أننا لا نجد مبررا كما يقول الدكتور أحمد الحوفى لهذه الحملة العنيفة على المعرى فإنه لم يدع أن تشبيهه يسامى تشبيه القرآن الكريم.

ويردد الزمخشري كثيرا من صور التشبيه فى القرآن بين التشبيه المركب والتشبيه المفرق، وهذا التردد يرجع فى نظرى إلى الرغبة فى تحليل الجزئيات والوقوف عند المفردات وهذا الميل نتاج التفكير النحوى والدراسة اللغوية، إذ أن هذين اللوين من الدراسة يكونان فى الدارس ميلا شديدا إلى التدقيق والوقوف عند الجزئيات، وهذا أدق منهج فى فهم التراكيب كما نعتقد وإن عابه المتعجلون.

يقول الزمخشري فى قوله تعالى: ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق، يجوز فى هذا التشبيه أن يكون من المركب والمفرق فإن كان تشبيها مركبا فكأنه قال: من أشرك بالله فقد أملاك نفسه أملاكا ليس بعده نهاية بأن صور حاله بصورة من خر من السماء فاختلفته الطير فتفرق مزعا فى حواصلها أو عصفت به الريح حتى هوت به فى بعض المطارح البعيدة.

وإن كان مفرقا فقد شبه الإيمان فى علوه بالسماء والذى ترك الإيمان وأشرك بالله بالساقط من السماء والأهواء التى تتوزع أفكاره بالطير المتخطفة والشيطان الذى يطوح به فى وادى الضلالة بالريح التى تهوى بما عصفت به فى بعض المهابى المتلفة (٧)

(١) الكشاف ج ٣ ص ٥٤٥.

(٧) الكشاف ج ٣ ص ١٢٧.

ويقول في قوله تعالى « ومثل الذين يتفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فماتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ، والمضى مثل نفقة هؤلاء في زكاتها عند الله كمثل جنة وهي البستان بربوة بمكان مرتفع ، وخصها لأن الشجر فيها أزكى وأحسن ثمراً ، أصابها وابل ، مطر عظيم ، فماتت أكلها ، ثمرتها ، ضعفين مثلاً كانت تثمر بسبب الواابل ، فإن لم يصبها وابل فطل ، فطر صغير الفطر يكفيها لسكرم منبتها ، أو مثل حالهم عند الله بالجنة على الربوة ونفقتهم الكثيرة والقليلة بالواابل والطل ، وكما أن كل واحد من المطرين يضعف أكل الجنة فكذلك نفقتهم كثيرة كانت أو قليلة بعد أن يطلب بها وجه الله ويبدل فيها الوسع زاكية عند الله زائدة في زلفاهم وحسن حالهم عنده (١).

ويصور القرآن حال المنافقين في صورتين متتاليتين وفي كل صورة منها إذا نظرت إليها متناسفة متكاملة تصوير قوى وواضح لحيرتهم وضلالهم والزمنشرى يحاول أن يجد شبيهاً بين جزئيات الصورة وأحوال في المشبه ثم يعدل عن هذا إلى المذهب الجزل الذي عليه العلماء لا يتخطونه يقول في قوله تعالى « مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون وصم بهم عسى فهم لا يرجعون ، أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يمحولون أصابهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين ، فإن قالت: فيم شبهت حالهم بحال المستوقد؟ قلت في أنهم غب الإضاءة خبطوا في ظلمة وتورطوا في حيرة ، فإن قالت: وأين الإضاءة في حال المنافق؟ وهل هو أبداً إلا جائر خابط في ظلمات الكفر؟ قلت المراد ما استضاء ، وإبه قليلاً من الارتفاع بالكلمة المجرأة على السنتهم ووراء استضاء بهم بنور هذه الكلمة ظلمة النفاق التي ترمى بهم إلى ظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمدي ، ويجوز أن يشبه بذهاب الله بنور المستوقد اطلاع الله على أسرارهم وما افترضوا به بين المؤمنين وأسموا به من سمة النفاق ، والأوجه أن يراد الطبع ، لقوله صم بهم عسى ، وفي الآية تفسير آخر ، وهو أنهم لما وصفوا بأنهم اشتروا الضلالة بالمهدي ، عقب ذلك بهذا ، التمثيل ليثل هدام الذي ياعوه بالنار الماضية ما حول المستوقد ، والضلالة التي اشتروها وطبع بها على قلوبهم بذهاب

الله بنورهم وتركه إياه في الظلمات (١) .

ويقول في الصورة الثانية فإن قلت قد شبه المنافق في التمثيل الأول بالمستوفد نارا ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، فإذا شبه بالتمثيل الثاني بالصيب وبالظلمات وبالرعد والبرق وبالصواعق ؟ قلت لتعادل أن يقول شبه دين الإسلام بالصيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر ، وما يتعاقب به من شبه الكفار بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفار من الإفزاع ، والبلايا ، والفتن ، من جهة أهل الإسلام بالصواعق ، والمعنى أو كمثل ذوى صيب ، والمراد كمثل قوم أخطتهم السماء على هذه الصفة فاتقوا منها ما اتقوا . فإن قلت هذا تشبيه أشياء بأشياء فأين ذكر المشبهات ؟ وهنا صرح به كما في قوله تعالى : وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسوء ، وفي قول امرئ القيس :

كأن قلوب الطير رطبا ويابساً . . . لدى ركرها العناب والحشف البالي :

قلت كما جاء صريحا فقد جاء مطويا ذكره على سنن الاستعارة كقوله تعالى : وما يستوى البحران هذا هذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج وضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون ورجلا سلما لرجل ، والصحيح الذي عليه علماء البيان لا يتخطونه أن التمثيلين جميعا من جملة التمثيلات المركبة دون المفردة لا يتكلف الواحد واحد شيء يقدر شبهه به ، وهو القول الفحل والمذهب الجزل ، بيانه أن العرب تأخذ أشياء فرادى معزولا بعضها من بعض ، لم يأخذ هذا بحجة ذلك ، فتشبهها بنظائرها ، كما فعل امرؤ القيس ، وجاء في القرآن وتشبه كيفية حاصلة من مجموع أشياء قد تضامت ، وتلاصقت ، حتى عادت شيئا واحدا ، بأخرى مثلها كقوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ، الآية الغرض تشبيه حال اليهود في جهلها بما معها من التوراة وآياتها الباهرة ، بحال الحمار في جهله بما يحمل من أسفار الحكمة ، وتساريف الحالتين عنده من حمل أسفار الحكمة وحمل ما سواها من الأوقار ، لا يشعر من ذلك إلا بما يمر بدفيه من السكدة والتعب ، وكقوله تعالى : « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء ، المراد قلة بقاء زهرة

الديبا كقطة بقاء الحضر ، فأما أن يراد تشبيه الأفراد بالأفراد غير مشروط بعضها ببعض ومصيره شيئا واحدا ، فلا ، فكذلك لما وصف وقوع المناققين في ضلالتهم وما خبطوا فيه من العمرة والدمعة ، شبهت حيرتهم ، وشدة الأمر عليهم بما يكابد من طفنت ناره ، بعد إيقادها في ظلمة الليل وكذلك من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق وخوف من الصواعق (١) .

التمثيل والتشبيه :

ذكر الناس أن الزمخشري لم يفرق بين التشبيه والتمثيل بخلاف عبد القاهر الذي أجهد نفسه في بيان التمثيل وتمييزه من التشبيه الصريح ، وتبعه الرازي والسكاكي والخطيب كلهم يفرقون بين التمثيل والتشبيه الصريح وإن اختلفوا في التحديد ، والزمخشري وتبعه ابن الأثير لم يفرق بينهما ، ولتمثيل مدلولات كثيرة في بلاغة الكشف وهي أقرب إلى الاستعمال اللغوي فهو يطلقه على التشبيه ، وعلى الاستعارة التمثيلية ، وعلى الاستعارة في المفرد ، وعلى فرض المعاني .

وقد عنيت ببيان راية في التشبيه والتمثيل ليتحقق عندي ما ذكره الناس من أنه لا يفرق بينهما ، وكان الذي يشبه هذا هو أن أراه قد أطلق اصطلاح التمثيل على صورة أو صور اتفق على أنها من التشبيه الصريح ، ولا يمكن أن يقول أن المثل والمثل والتمثيل كالشبه والشبه والتشبيه ، لأن هذه تفسيرات لغوية لا تدل على مفهوم اصطلاح معين ، وقد تسامح أكثر البلاغيين حينما سافوا مثل هذا القول دليلا على أن التشبيه والتمثيل عنده سواء ، ولا يمكن كذلك أن يطلق التشبيه على صور التمثيل لمعوم التشبيه عند من يفرق بينهما .

وقد قال الزمخشري في قوله تعالى : إن أسكر الأصوات لصوت الحجر ، فتشبيه الراققين أصواتهم بالحجر ، وتمثيل أصواتهم بالهناق ، ثم إخلاء الكلام من لفظ التشبيه ، وإخراج مخرج الاستعارة وإن جعلوا حجرا وصوتهم هناقا ، مبالغة شديدة في الدم والنهجين ، وإفراط في التثبيط عن رفع الصوت .

وتشبيه الأصوات بالهناق تشبيه صريح ، وليسكن الزمخشري سواه تمثيلا وذلك

لأنه كما قالوا لا يفرق بينهما ، ولست أعتقد أن هناك دليلا واضحا على صحة هذه الدعوى أي عدم التفريق بينهما إلا كلامه في هذه الآية فذلك هو الدليل الذي لا يتطرق إليه الاحتمال .

وهذه المسألة مسألة اصطلاحية هينة لا تتصل بأساس من أسس الفن ولذلك تجد الذين يفرقون بين التشبيه والتشبيه يختلفون في وجه الفرق فما كان تمثيلا عند أحدهم لا يكون تمثيلا عند غيره ، ولا ضير على البلاغة في هذا الاتفاق أو الاختلاف .

التصوير والتشكيل :

ويحدثنا الزمخشري عن أثر التشبيه في تصوير المعاني وتشخيصها وسوقها في سياق من صنعة الأسلوب فكشفها وتحققها ، وهو في هذا عالم بصير بأحوال الأساليب وقيمة فعلها في نفس متلقيها . يقول في هذا واضرب العرب الأمثال ، واستحضار العلماء المثل والنظائر ، شأن ليس بالحق في إبراز خفيات المعاني ، ورفع الاستار عن الحقائق ، حتى تريك التخيل في صورة المحقق ، والمنوم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد ، وفيه نبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجراح الابن ، ولا مرما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله ، وفشت في كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلام الأنبياء ، والحكام ، قال الله تعالى : وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ، ومن سورة الإنجيل سورة الأمثال ، والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل وهو النظر . يقال مثل ومثل ومثيل كشبه ، وشبه ، وشبيه ، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربة بمورده مثل ، ولم يضربوا مثلا ولا رأوه أهلا للتفسير ولا جديرا بالتداول ، والقبول لإقواله فيه غرابة من بعض الوجوه ، ومن ثم حوفظ عليه وحى من التفسير (١) .

ويقول والتشبيهات إنما هي الطرق إلى المعاني المحتجبة في الأشياء حتى يبرزها وتكشف عنها ، وتصورها للأفهام (٢) .

(١) الكشاف ج ١ ص ٥٤ .

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٥٥ .

ويقول لأن التمثيل بما يكشف المعاني ويوضحها لأنه بمنزلة التصوير والتفصيل لها ، ألا ترى كيف صور الشرك بالصورة المشوهة (١) .

وهذا لا يخرج عن بيان ما في صور التشبيه من توضيح المعنى وقوة كشفه وتقديره حتى يؤثر في النفس ، وينفذ إلى مواطن الشعور والحس ، بقوة التصوير والتشكيل ، ويقول في ثنية الأمثال والانتقال فيها من البليغ إلى الأبلغ ، كما في آية المنافقين في سورة البقرة ثم ثنى الله سبحانه في شأنهم بتمثيل آخر ليكون كشفاً لحالهم بعد كشف ، وإيضاحاً غب إيضاح ، وكما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يحمل ويوجز ، فمكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع . . . أنشد الجاحظ :

يوحون بالخطب الطوال وتارة وحى الملاحظ خيفة الرقيب .

وما ثنى من التمثيل في التزليل قوله تعالى : وما يستوى الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور وما يستوى الأحياء ولا الأموات ، (٢) .

العلاقة بين التشبيه والتشبيه به :

ولما كان الفرض الأعظم من التشبيه هو الكشف ، والإيضاح ، كان من الضروري أن تكون الملائمة بين المشبه والمشبه به ملائمة واضحة ، حتى يؤدي التشبيه إلى الفرض منه ، فإذا كان المشبه عظيمًا ووجب أن يكون المشبه به كذلك ، وإذا كان حقيرًا ووجب أن يكون المشبه به كذلك ، والزختمرى حينما يشرح هذه العلاقة يحوم حول الربط المعنوي أو النفسى بين طرفي التشبيه ، ويتجاوز الربط الشكلى الحسى الذى هو به كثير من البلاغيين ، وعنى به هو أيضاً في مناقشته لأبي العلاء ، وهذا للربط المعنوي هو ما تعنى به الدراسة الأدبية التي تريد للأدب أن يكون فناً نابهاً من الوجدان وأحماق النفس ، لا خداعاً ولا لعباً بالألفاظ كما يصنع كثير من الشعراء .

ولعل دراسته للصورة القرآنية وهي لا تعتمد في تمثيلها وتصويرها إلا

(١) الكشاف ج ٣ ص ٣٢٢ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٥٩ .

هل هذا الأساس النفسى ، لعل دراسته هذه هى التى جاءت به حول هذا الأساس النفسى العظيم ، وإن كان لم يتناوله مباشرة وبصراحة ، ولكنه على كل حال لم يدع ما يحجبه عن الانكشاف إلا غلالة رقيقة .

يقول فى قوله تعالى « إن الله لا يستعجى أن يضرب مثلاً ما بعرضة فأقربها ، إن التمثيل إنما يضار إليه لما فيه من كشف المعنى ورفع الحجاب عن الغرض المطلوب ، وأدناء المتوهم من المشاهد ، فإن كان المتمثل له عظماً كان المتمثل به مثله ، وإن كان حقيراً كان المتمثل به كذلك ، فليس العظم والحقارة فى المضروب به المثل إذن إلا أمراً نستدعيه حال المتمثل به ، وتستجره إل نفسها ، فيعمل الضارب للمثل على حسب تلك القضية ، ألا ترى الحق لما كان واضحاً جلياً أبلغ كيف تمثل له بالاضياء والنور ، وإلى الباطل لما كان بضد صفته كيف تمثل له بالظلمة ، ولما كانت حال الآلهة التى جعلها الكفار أنداداً لله تعالى لا حال أحقر منها وأقل ، ولذلك جعل بيت المنكوبات مثلها فى الضعف والوهن ، وجعلت أقل من الذباب ، وأخس قدرأ وضربت لها البعوضة فالذى دونها مثلاً ، لم يستكر ولم يستبدع ، ولم يقل للتمثل استعجى من تمثيلها بالبعوضة لانه مصيب فى تمثيله ، بحق فى قوله ، سائق للمثل فى قضية مضربه ، عند على مثال ما يحتمكه (١) ويستدعيه .

فالعظم والحقارة فى المشبه ، تستدعى لنفسها ما يلائمها من مشبه به ، والضارب للمثل يعمل على حسب تلك القضية ، فيربط بين الطرفين رباطاً نفسياً ، فلا يجلب مشبهاً به له فى النفس إحساس التعظيم والتكبير ، لمشبهه له فى النفس إحساس يخاف هذا ، أو يناقضه ، فالحق الواضح الأبلغ يشبه النور ، والباطل يشبه الظلمة ، والوقع النفسى واحد فى الطرفين .

ويشير الزمخشري إلى أن المشابهة بمائلة فى بعض الأوصاف ، دون كل الأوصاف ، وأن الوصف الذى يشترك فيه الطرفان قد يكون أقوى فى المشبه به من المشبه ، فيشبه الغريب بالأغرب ، يقول فى قوله تعالى « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه الله من تراب ، فإن قلت كيف شبه به وقد وجد هو من غير

أب ووجد آدم من غير أب وأم ؟ قلت هو مثيله في إحدى الطرفين ، فلا يمنع اختصاصه بونه بالطرف الآخر من تشبيهه به ، لأن المماثلة مشاركة في بعض الأوصاف ، ولأنه مشبه به لأنه وجد وجوداً خارجاً عن العادة المستمرة ، وهما في ذلك نظيران ، لأن الوجود من غير أب وأم أغرب وأخرق لعادة من الوجود بغير أب ، فشيء الغريب بالأغرب ليكون أفظح للخصم وأحسم لمادة شبيهته ، إذا نظر فيها هو أغرب بما استغر به (١) .

التشبيه المثلوب :

بين الزمخشري عكس التشبيه في آية البيع والربا ، ويشير إلى سر العدول عن الأصل ، وأنه ادعاء المبالغة حتى صار ما حقه أن يكون فرعاً مقبلاً عندهم أصلاً مقبلاً عليه .

يقول في قوله تعالى : إنما البيع مثل الربا ، فإن قلت فلا قيل إنما الربا مثل البيع لأن السكالة في الربا لا في البيع فوجب أن يقال إنما شبهوا الربا بالبيع فاستحلوه ، وكانت شبهتهم أنهم قالوا لو اشترى الرجل مالا يساوي إلا درهما بدرهمين جاز ، فكذلك إذا باع درهما بدرهمين ؟ قلت جرى به على طريق المبالغة ، وهو أنه قد بولغ في اعتقادهم في حل الربا أنهم جعلوه أصلاً وقانوناً في الحل حتى شبهوا به البيع (٢) .

أداة التشبيه :

يذكر الزمخشري أن أداة التشبيه في التشبيه المركب لا يجب أن تلي مفرداً يتأق التشبيه به ، لأنه فيه تراخي الكيفية المنتزعة ، وإذا كان التشبيه مفرقاً فإنه كثيراً ما يقدر محذوفاً حتى يستقيم الكلام .

يقول في قوله تعالى : أو كصيبٍ من السماء فيه ظلمات ، فإن قلت الذي تقدره في المفرق من التشبيه من حذف المضاف وهو قولك أو كمثل ذوى صيب هل تقدر مثله في المركب منه ؟ قلت لولا طلب الراجع في قوله تعالى : يجعلون أصابعهم في آذانهم ما يرجع إليه لكانت مستغنياً عن تقديره ، لأنى أراعي الكيفية المنتزعة من مجموع الكلام ، فلا تلي أولى حرف التشبيه مفرداً يتأق التشبيه به أم لم يله ،

(٢) السكالك ج ١ ص ٢٨١

(١) السكالك ج ١ ص ٢٨١

الأثرى إلى قوله تعالى ، وإنما مثل الحياة الدنيا ، الآية كيف ولي الماء الكاف وليس
الغرض تشبيه الدنيا بالماء ولا بمفرد آخر يتحمل لتقريره ، وما هو مبين في هذا
القول ليبد :

وما الناس إلا كالديار وأهلها بها يوم حلوما وغدوا بلاقع
لم يشبه الناس بالديار ، وإنما شبه وجودهم في الدنيا ، وسرعة زوالهم
وفنائهم ، بحلول أهل الديار فيها ، ووشك نهوضهم عنها وتركها خلاء خاوية (١)
والمثل يحذف على الاتساع في الكلام ، وحذفه شائع مستفيض . يقول في
قوله تعالى ، إنى أريد أن تبوء بأثمي وإثمك ، فإن فات كيف يحمل إثم قتله له
ولا تزور وازرة وزر أخرى ؟ قلت المراد بمثل أثمي على اتساع في الكلام كما
تقول قرأت قراءة فلان وكتبت كتابته زيد المثل وهو اتساع فاش مستفيض
لا يكاد يستعمل غيره .

يقول في موضع آخر والمثل يحذف كثيراً في كلامهم ، كقولك ضربته ضرب
زيد ، تريد مثل ضربه ، وأبو يوسف وأبو حنيفة ، تريد مثله ، ولا هيثم اللبلة
للمطى ، وقضية ولا أبا حسن لها ، تريد ولا مثل هيثم ولا مثل أبي حسن (٢) .

القيمة البلاغية للقيود في التشبيه به :

من عادة القرآن في رسم صورة التشبيه أن يذكر فيها من القيود وأحوال
الصياغة ما يجعلها معبرة تعبيرا دقيقا عن الغرض المسوقة فيه ، ولهذا القيود
والأحوال شأن في صورة التشبيه لا يتنبه إليها إلا المعنى بابرز نواحي الجمال
وسر البلاغة في الأسلوب ، وللمنخشي وقفات في هذا المجال يدرك فيها أسرار
هذه القيود ، ومعانيها الأدبية الدقيقة .

يقول في قوله تعالى ، مثل ما ينفقون في الحياة الدنيا كمثل ريح فيها حر
أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته ، وشبه بحرث قوم ظلموا أنفسهم
فأهلكه هقوبة لهم على معصيتهم لأن الهلاك من سخط أسوأ وأبلغ (٣) .

(١) الكتاب ج ١ ص ٤٨٥

(٢) الكتاب ج ١ ص ٢٩٤ .

(٣) الكتاب ج ١ ص ٢٥٩

وبين قيمة وصفه المشبه به في قوله تعالى « وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة ، وكيف أفاد هذا الوصف قوة في أداء المعنى ، وأنهم لا تفتح لهم ولا خبير فيهم ، يقول: فإن قلت ما معنى قوله تعالى « كأنهم خشب مسندة »؟ قلت شبهوا في إسنادهم وما هم إلا أجرام خالية عن الإيمان والخير بالخشب المسندة إلى الحائط ولأن الخشب إذا انتفع به كان في سقف ، أو جدار ، أو غيرهما من مظان الانتفاع وما دام متروكا فارغا غير منتفع به أسند إلى الحائط ، فسيهوا به في عدم الانتفاع (١) .

وكما رأيناه يشرح ويفسر قيمة وصف المشبه به ، نراه كذلك يشرح ويفسر أحوال مفرداته من التعريف أو التنكير ، مبينا دلالة هذه الأحوال ، وأثرها في الصورة البيانية ، يقول في قوله تعالى « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ... » يقول بعد ما بين أن هذا مثل ضربه الله للحق وأمله والباطل وحزبه . وبعد ما وضع قيمة الماء والفلز الذي مثل الله بهما الحق ، فإن قلت لما ذكرت الأودية؟ قلت لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين القاع، فيسيل بعض أودية الأرض دون بعض (٢) . ويشير إلى سر تنكير الصيب في آية المنافقين ويقول وتنكير الصيب لأنه أريد نوع من المطر شديد، كما نسكت النار في التثنية الأولى (٣)

ويشير كذلك إلى تنكير الظلمات ، والرعد ، والبرق، في هذه الصورة نفسها، ويقول وإنما جاءت هذه الأشياء منكرات لأن المراد أنواع منها كأنه قيل فيه ظلمات داخية ، ورعد قاصف ، وبرق خاطف (٤) .

الفرق بين التشبيه والاستعارة :

درس البلاغيون هذا الموضوع قبل الزمخشري، وكان لهم فيه رأى مختلف، لذلك نراه يشير إلى هذا الخلاف ، ويميل إلى رأى طائفة سماها المحققين من علماء

(١) الكشاف ج ٤ ص ٤٢٢

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٤٠٧

(٣) الكشاف ج ١ ص ٦٤

(٤) الكشاف ج ١ ص ٦٣

البيان ، وهؤلاء المحققون في نظننا ، هل بن عبد العزيز الجرجاني ، وهب القاهر الجرجاني (١) يقول في قوله تعالى وهم بكم عمى ، فإن قلت كيف طرقت عند هنا ، البيان ؟ قلت طريقة قولهم هم ليوث للشجعان ، وبحور للأصفياء ، إلا أن هذا في الصفات ، وذلك في الأسماء ، وقد جاءت الاستعارة في الأسماء ، والصفات ، والأفعال ، جميعا تقول رأيت ليوثا ، ولقيت صما عن الخبر ، ودجا الإسلام ، وأضاء الحق ، فإن قلت هل يسمى ما في الآية استعارة ؟ قلت مختلف فيه ، والمحققون على تسميته تشبيها بليغا لا استعارة ، لأن المستعار له مذكور ، وهم المناقون ، والاستعارة إنما تطاق حيث يطوى ذكر المستعار له ، ويجعل الكلام مخلوا عنه ، صالحا أن يراد به المنقول عنه ، والمنقول إليه . لولا دلالة الحال ، أو لحوى الكلام كقول زهير .

لدى أسد شاكي السلاح مقذف له لبد أظفاره لم تقلم
ومن ثم ترى المفلقين السحرة منهم كأنهم يتناسون التشبية ، ويعضرون من
توهمه صفحا ، قال أبو تمام

ويصعد حتى يظن الجهول بأن له حاجة في السماء
وبعضهم : لا تحسبوا أن في سر بالرجال
وليس لقائل أن يقول طوى ذكرهم ، عن الجملة بمحذف المبتدأ ، فأنسق بذلك
إلى تسميته استعارة ، لأنه في حكم المنطوق به . نظير قول من يخاطب الحجاج :
أسد على وفي الحروب نعامه فنخاء تنفر من صغير الصافر (٢)

وقد كان الزمخشري بصيرا في تطبيق هذا الأساس الذي ارتضاه فرقا بين التشبيه والاستعارة . فقد يجرى الكلام على ما يوم طرح المشبه وإسقاطه ، فيظن أنه من باب الاستعارة ثم يقع في الكلام ما يجعله من باب التشبيه ، يقول في قوله تعالى وحتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، والخيط الأبيض هو أول ما يبدو من الفجر المعترض في الأفق كالخيط الممدود ، والخيط الأسود ما يمتد معه من غيش الليل ، شبا بخيطين أبيض وأسود وقال أبو داود :
فلا أضأت لنا سدفة ولاح من الصبح خيط أمارا

(١) ينظر الرسامة ص ٤١ وأسرار البلاغة ص ٢٥٨ إلى ٢٦١

(٢) الكشاف ج ١ ص ٥٨ ، ٥٩

وقوله من الفجر بيان للخيط الأبيض ، واكتفى به عن بيان الخيط الأسود ، لان بيان أحدهما بيان للثاني ، ويجوز أن تسكون من للتبويض ، لانه بعض الفجر وأوله ، فإن قلت أمدا من باب الاستعارة أم من باب التشبيه ؟ قلت قوله من الفجر أخرجه من باب الاستعارة ، كما أن قولك رأيت أسداً مجازاً ، فإذا زدت من فلان ، رجح تشبيهاً ، فإن قلت فلم زيد من الفجر حتى كان تشبيهاً ؟ وملا اقتصر به على الاستعارة التي هي أبلغ من التشبيه ، وأدخل في الفصاحة؟ قلت لأن من شرط المستعار أن يدل عليه الحال أو الكلام ولو لم يدل كرم من الفجر لم يعلم أن الخيطين مستعاران فزيد من الفجر فكان تشبيهاً بلينا وخرج من أن يكون استعارة (١) .

وقد يجهى المشبه في التشبيه مطوريا ذكره على سنن الاستعارة ، كقوله تعالى : وما يستوى البحران هذا عذب فرات ... ، وضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون (٢) .

وقد وضع سعد الدين في شرحه لهذه العبارة قاعدة هامة ، تعين على التفرقة بين التشبيه والاستعارة ، وبين أن مصدر الفرق ، أن اسم المشبه به في الاستعارة مستعمل في المشبه ، مراد به ذلك ، بحيث لو أفيم مقامه اسم المشبه استقام الكلام وفي التشبيه يكون مستعملا في معناه الحقيقي ، مراد به ذلك ، فلو قلنا في آية المنافقين : مثاهم كمثل ذى دين حق ، تتعلق به مشبهات وفيه وعد ووعد لم يكن له معنى ، وكذا لو قلنا في آية : وما يستوى البحران ، وما يستوى المؤمن والكافر ، لأن قوله : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، إلى قوله : وترى الفلك فيه مواخر ، دليل على أن المراد بهما المعنى الحقيقي فيكون الكلام تشبيهاً أى لا يستوى الإسلام والكفر ، اللذان هما كالبحرين الموصوفين ، وكذا قوله تعالى : وضرب الله مثلا ، الآية ، معناه جعل الله عبداً يملكه شركاء متشاكسون مثلا لعباد الأصنام ، وجعل عبداً سالماً لواحد مثلا لله وحده ، فذكر المشبه مطوريا ، والمشبه به مستعمل في معناه الحقيقي ، ثم قال سعد الدين ولحقاء ذلك ذهب كثير من الناس إلى أن

(١) الكشاف ج ٧ ص ١٧٤ - ١٧٥ .
(٢) الكشاف ج ١ ص ٦١ .

الآيتين من قبيل الاستعارة. وأن صاحب الكشاف أوردهما مثالين للاستعارة، ولا يخفى ضعفه على من تأمل لفظ الكشاف (١).

ومع هذه التفرقة الدقيقة، والتنبيه اليقظ، للفرق بين الأسلوبين، نرى في كلام الزمخشري ما يؤم عدم مراعاة هذه الفروق، حيث يطلق المجاز على صورة التشبيه البليغ في قوله تعالى: «سأزكم حنث لکم»، يقول: فيها مواضع حنث لکم، وهذا مجاز شبهه بالحنث، تشبيها لما يلقى في أرحامهن من النطف التي منها النسل بالبدور (٢).

وقد تردد العلماء في تفسير كلامه هذا، لأنه وضع رأيه في مثل زيد أسد، وأنه من التشبيه، فكيف يطلق المجاز على مثله، فقالوا إن المجاز باعتبار إطلاقه الحنث على موضع الحنث، أو باعتبار تغير حكم الكلمة في الإعراب بسبب حذف المضاف، كما في «وأسأل القرية»، أو باعتبار حمل المشبه بعد حذف الأداة، كما في زيد أسد، فكثير ما يقال له المجاز، وقد قالوا أيضا أن المراد بالمجاز هنا الاستعارة بالكتابة، لأن جعل النساء حنث دلالة على أن النطق ببدور، وقد أشار إلى ذلك بقوله تشبيها لما يلقى في أرحامهن بالبدور، وقد اعترض على هذا بأن الاستعارة بالكناية يذكر فيها المشبه صريحا، والمشبه به مكنا، وهنالم يذكر المشبه صريحا، نعم يستقيم هذا الرأي لو كان النص لسأزكم حنث لتظنكم، ولو قيل إن الحنث يدل على البدور دلالة قوية تجعله في حكم الملفوظ، كما جئنا إليه من جعله استعارة مكنية، لكان هذا قسم من المكنية، لا يذكر فيه الطرفان وهو غريب، وذهبوا إلى أنه تمثيل على سبيل الكناية، والقوم قد اغفلوا هذا النوع وبيانه هنا أنه تشبيه مترتب على تشبيه متروك، وهو تشبيه النطف بالبدور ترتب اللازم على المألوم (٣).

ولست أجد مبرراً لهذه التفسيرات ولعل أقربها إلى الحق هو القول بأنه أطلق المجاز هنا باعتبار حمل المشبه به على المشبه، فيكون قد أطلق المجاز على صورة

-
- (١) تنظر حاشية سعد الدين على الكشاف مخطوطة ورقة ٤٦ وتنظر حاشية أخرى على الكشاف مخطوطة ورقة ١٣٧ أم يعلم مؤلفها وينظر الطول ص ٣٩٠
(٢) الكشاف ج ١ ص ٢٠٤
(٣) تنظر حاشية سعد الدين على الكشاف مخطوطة ورقة ١٣٧ وحاشية الغراب ج ١ ص ٣٠

التشبيه تساملاً ، وعدم التزام برأى المحققين فقد قال هذا مجاز شبهه بالمحارث
وهذا تفسير واضح لظاهر التركيب (اساوكم حرث لكم) ولعل بناء هذا التشبيه
على تشبيه آخر هو الذي ساعد على هذا التساهل .

وقد يتسامح العلماء في غير مواطن التحقيق ، فالخطيب القزويني يطلق الاستمارة
على اليد في قول النبي ﷺ المؤمنون تنكأوا بماؤم ويسمى بذنتهم أديانهم وهم يد على
من سواهم (١) .

وواضح أن هذا من التشبيه البليغ كما يذكر المحققون ، ومنهم الخطيب .
والإمام عبد القاهر وهو خير من حقق الفرق بين التشبيه والاستمارة ، يذكر
قولهم هو يصفو ويمكس ، ويمر ويحلو ، ويشج ويأسو ، ويسرج ويلجم ،
مثالاً لما يحىء فيه التشبيه معقوداً على أمرين أو أمور لا تشابك أشابك المركب (٢)
وواضح أيضاً أن هذا من قبيل الاستمارة الممكنية . كما يذكر في أمثلة التشبيه
التمثيل الذي ينتزع فيه الشبه من الوصف لأمر لا يرجع إلى نفسه قولهم أخذ
القوس باريها وقولهم ما زال يفتل منه في الذروة والغارب (٣) .

وواضح أيضاً أن هذا من قبيل الاستمارة التمثيلية كما حقق عبد القاهر نفسه .
وقد أشار عبد القاهر إلى هذا الذي نقوله ، فذكر أن المنخصصين في هذا
الشان قد يتسامحون ، ولكن ذلك لا يكون عند ذكر القوانين ، وحيث تقرر
الأصول ، ثم ذكر كلاماً للامدى فيه هذا التسامح (١) .

المجاز :

كان الإغشوى يبذل الجهد الأكبر ليصرف القول عن ظاهره ، ليحقق به فكرة
اعتزالية ، ولم تكن غايته تناول قضايا الاعتزال ، ومواقف النصوص القرآنية منها ،
حتى أتوسع في هذا الموضوع وإغماهي هو بيان ملامح البحث البلاغي في تفسير
الكشاف ، وحسب أن أشير إشارة سريعة إلى هذا الأمر الاعتزالي ، وذلك

(١) إيضاح ص ٩٧ ج ٢

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٤

(٣) نظر أسرار البلاغة ص ٥٥

(٤) نظر ص ٣٧٥ و ٣٧٧ أسرار البلاغة

في النصوص التي نسوقها مصورين بها بحثاً بلاغياً ، إذا كان في هذه النصوص ما يتصل بالناحية العقيدية فهي إذن تأتي تبعاً في بحثنا .

والرغم من قسم المجاز إلى قسمين : استعارة وتمثيل .

يقول في قوله تعالى : ختم الله على قلوبهم ، فإن قلت ما معنى الختم على القلوب والاسماع ونفسيه الابصار ؟ قلت لا ختم ولا نفسيه ثم على الحقيقة ، وإنما هو من باب المجاز ، ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه ، وهما الاستعارة والتشبيح ، أما الاستعارة فإن تحمل قلوبهم لأن الحق لا ينفذ فيها ، ولا يخلص إلى ضمائرهما ، من قبل إعراضهم عنه ، واستكبارهم عن قبوله ، واعتقاده وأسماعهم لأنها تمجده وتذبوا عن الإصغاء إليه ، وتعاف استماعه ، كأنها مستوتقة منها بالختم ، وأبصارهم لأنها لا تحتل آيات الله المعروضة ودلائله المنصوبة ، كما تحتلها عين المتعبرين المستبصرين ، كأنما غطى عليها ، وحيل بينها ، وبين الإدراك ، وأما التشبيح فإن تمثل حيث لم ينقفوا بها في الأغراض الدينية التي كلفوها ، وخلقوا من أجلها ، بأشياء ضرب حجاب بينها وبين الاستفاح بها ، بالختم والتغطية ، وقد جعل بعض المازنيين الحبة في اللسان والى ختما عليه فقال :

ختم الإله على لسان عذافر حتما فليس على الكلام بقادر
وإذا أراد النطق خلت لسانه لحما يحركه لتقر بأقر (١)

ونرى أن الاستعارة هنا هي ما سماها المتأخرون الاستعارة المكنية ، حيث ذكر شبه القلوب والاسماع بأشياء يستوتق منها بالختم ، فصارت كأنها مستوتقة منها كما يقول ، إلا أن العلامة سعد الدين لا يرضى بهذا الذي نفهمه ويقول إنه يريد تشبيهه عدم نفوذ الحق إلى القلوب وتحقق نبو الاسماع عن قبوله بالختم عليها ، أي بكونها محتوما عليها على ما ينبغي عنه قوله كأنها مستوتقة منها بالختم ، ويشبه عدم اجتلاء الابصار للآيات والأدلة بالنفسيه عليها ، ثم يقول وقد يتوهم من ظاهر عبارة الكتاب أن المشبه هو القلوب والاسماع ، ومن ههنا ذهب بعضهم في القول الأول إلى أن القلوب استعارة بالسكناية والختم تمثيل . . ولا يخفى على من له قدم في علم البيان أن الأولى ما ذكرنا ، وأن قوله تجعل القلوب إل آخره بمنزلة

فذلك يجعل الحال لتكونها دالة على كذا كأنها ناطقة به - وأن عبارته ظاهرة في أن الحتم والتشبية مجاز (١).

وقول الرمخشري يجعل القلوب نخ ، لا يصح تمزيقه منزله فقولك تجعل الحال لتكونها دالة كأنها ناطقة ، وذلك لأن هذا يكون في الحال بعد بيان الاستعارة في نطق ، وحينئذ يكون جعلها كأنها ناطقة تبعاً لهذه الاستعارة ، أما أن نقول ابتداء في نطق الحال ، جعل الحال كأنها ناطقة ، فإنه لا يفهم منه إلا طريق الاستعارة المسكنية ، فإذا كان كلام الرمخشري خالياً عما يدل على أن التشبيه في لفظ الحتم فليس ما يدهو إلى جعل كلامه عن القلوب والأسماع بمنزلة القول في نطق ، لأنه يأتي هناك تبعاً كما قلت .

وقد نقل الشهاب الخفاجي كلام سعد الدين ، وعلق عليه ، بقوله وهو كلام حسن ، ثم ذكر أصلاً يفرق به بين المسكنية والتبعية ، وهو أصل دقيق ، وأظن أن صاحبه الأول العلامة السيد الشريف ، وخلاصته أنه يصار إلى المسكنية إذا كان اللازم المذكور قد اشتهر أنه من لوازم المشبه به ، وكان تشبيه المذكور بالاستعارة منه المحذوف تشبيهاً شائعاً ، كما في قوله تعالى : ينقضون عهد الله ، وقولنا عالم يفتري منه الناس ، إذ كون النقض والافتراء من لوازم الخيل والبحر أمراً مشهوراً ، وتشبيه العهد بالخيل والعالم بالبحر تشبيه كذلك مستفيض ، وليس الأمر كذلك في تشبيه القلوب بالأواني فإنه إنما يفهم من إيقاع الحتم عليها (٢) .

وهذا أصل قوى ودقيق كما قلت ، والأول أن تكون الآية من قبيل التبعية ، كما يقول الأئمة ، إلا أن هذا شيء والقول بأن كلام الرمخشري يفيد شيء آخر ، والعمل الخلط بين ما قاله الرمخشري في هذه الآية ، وما ينبغي أن يقوله فيها ، هو الذي رجح عند الأئمة تفسيره على وجه الاستعارة المسكنية .

أما مراده بالتمثيل في الآية فقد بينه سعد الدين ، وهو مصيب ، حيث يقول أما وجه التمثيل فهو أن يشبه حال القلوب والأسماع والأبصار بحال أشياء متخولة

(١) حاشية سعد الدين ورقة ٣٧

(٢) ينظر حاشية الشهاب ج ١ ص ٢٨١

للانفعال بها مع المنع عن ذلك بطريق الختم والتغطية ، ثم استعمل في المشبه اللفظ الدال على المشبه به (١) أى التمثيل هنا استعارة تشبيهية .

هل أننا نعهد المجاز الذى يقسم إلى هذين القسمين مجازا ضيقا ، لا يتسع إلى كل ألوان المجاز ، وقد ذكر هو نفسه فتونا من المجاز المرسل ، وقابلها بالاستعارة وبسط الكلام فى المجاز الحكى ، ومع وضوح هذين النوعين من المجاز فى بلاغته فقد أغفلهما حين قسم المجاز إلى استعارة ، وتمثيل ، ومن المعروف أن الذى ينقسم إلى الاستعارة والتمثيل هو الاستعارة نفسها ، فإنها تنقسم إلى استعارة تمثيلية ، وغير تمثيلية ، وهذه تشمل التصريحية والمكنية .

وسوف أعرض الآن حديثه فى قسمى المجاز الذين ذكرتهما ، ثم حديثه فى باقى أنواعه .

الاستعارة :

ذكر الزمخشري صور الاستعارة التصريحية بقسميها الثبعية والأصلية وذكر صور الاستعارة المكنية كما ذكر الترشيح والتجريد .

ومن أبرز ما اهتم به الزمخشري فى الاستعارة ذلك الذى ترامى يسكتون فيه عن اللفظ المستعار ، ثم يرمزون إليه بذكر شيء من روادقه ، وهذا النوع من أسرار البلاغة ولطائفها كما يقول ، وقد أشار فى أكثر من موضع إلى حسن هذه الاستعارة وفصاحتها .

يقول فى قوله تعالى ، الذين ينقضون عهد الله ، فإن قلت من أين ساغ استعمال النقض فى إبطال العهد ؟ قلت من حيث تسميتهم العهد بالحبل على سبيل الاستعارة ، لما فيه من ثبات الوصلة بين المتعاهدين ، ومنه قول ابن التبان فى بيعة العقبة ، يارسول الله إن بيننا وبين القوم جبالا ونحن قاطعوها ، فنخشى إن الله عز وجل أعزك ، وأظهرك ، أن ترجع إلى قومك . وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادقه ، فيذهبوا بتلك الرزمة على مكانه ، ونحوه فذلك شجاع يفترس أقرانه ، وطالم

(١) حاشية سعد الدين فى الصلحة .

يُعرف منه الناس . . لم تقل هذا إلا وقد نبهت على الشجاع والعالم بأههما أسد
وبحر (١) .

وقد خلق السيد الشريف على هذا بقوله يريد بيان الاستعارة بالكناية ،
وكذلك قال سعد الدين (٢) ثم ذكر كل منهما ما دار حول الاستعارة بالكناية
وقرئتها من خلاف ،

وإذا كان اصطلاح الاستعارة بالكناية لم يعرف إلا في كتاب نهاية الإيجاز ،
وهو كتاب كتب بعد الكشاف بما يقرب من قرن ، فليس لنا أن نقول إن
الزحشري يريد الاستعارة بالكناية ، إلا على معنى أنه يريد مسمى الاستعارة
بالكناية ، وحققتها ، لأن تسميتها بالإصطلاحية كانت لم تكن معروفة في
زمانه . وقد قلت هذا لأن كثيراً من المعلقين على عبارات الزحشري يفسرونها
في ضوء التقسيمات التي تحدت حقائقها وأصولها في عصره . وتحدت مصطلحاتها
بعد عصره ، لذلك وجب التلبيه إلى هذا أصلاً في فهم هذه التعليقات .

وفهم من كلام الزحشري هذا أن قرينة الاستعارة الممكنة قد تكون
استعارة تصريحية ، وذلك لأنه يرى أن النقص مستعمل في إبطال العهد ، وإذا
كانت القرينة مراداً بها معنى مجازي فإنها لا تنهض دليلاً على المحذوف ، فإذا
كان النقص مراداً به إبطال العهد فليس هناك ما يدعونا إلى اعتبار العهد مشبهاً
بالحبل ، لأن الكلام حينئذ يكون كلاماً مستقيماً ، إذ التقدير يبطلون عهد الله ،
لذلك قال السيد الشريف مجيباً على هذا الإشكال الوارد على كلام الزحشري
حين اعتبر القرائن مجازات ، إن هذه الاستعارات من حيث إنها متفرغة على
الاستعارات الأخر صارت ككنايات عنها ، فإن النقص إنما شاع استعماله في إبطال
العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل ، فلما نزل العهد منزلة الحبل ، وسمى باسمه ،
نزل إبطاله منزلة نقضه ، فلولا استعارة الحبل للعهد لم يحسن ، بل لم يصح استعارة
النقص الأبطال ، ونس على ذلك استعارة الأفراس والاضتراف ، فإنها تابعة
لاستعارة الأسد للشجاع والبحر للعالم ، ولما كانت هذه الاستعارات تابعة لتلك

(١) الكشاف ج ١ ص ٩٠

(٢) نظر حاشية الشهاب ج ٢ ص ١٤٠ وخطوط النفاذ ج ١ ص ٩٥

الاستعارات الأخرى . ولم تكن مقصودة في أنفسها ، بل قصد بها الدلالة على تلك الاستعارات الأخرى ، كانت كناية عنها ، وذلك لا يناق كونها في أنفسها ، استعارات ، هل قياس ما عرفت من أن الكناية لا تناق إرادة الحقيقة ، فالافتراض مع كونه استعارة مصرحاً بها كناية عن استعارة الأسد للشجاع (١) .

ويقول السيد مبينا وجهة الزمخشري في أن الرادف المذكور لا يشترط فيه إرادة المعنى الأصلي ، يقول فإن قلت لو كان النقص مثلاً مستعملاً في أبطال العهد لم يكن شيء من روادف المستعار المسكوت عنه أعنى الجبل مذكوراً فلا يصح قوله ثم يرزون إليه بذكر شيء من روادفه ، فوجب أن يكون النقص ونظائره من قرائن الاستعارة بالكناية مستعملة في معانيها الحقيقية ، التي هي من روادف المستعار المسكوت عنه ، وحينئذ يكون إثباتها للمستعار له على سبيل التخييل ، فصح أن الاستعارة المسكوت عنها تستلزم التخيلية ؟ قلت لما صرح باستعمال النقص في أبطال العهد علم أنه أراد بذكر الرادف ما هو أهم من أن يراد به معناه الأصلي الذي هو الرادف الحقيقي ، أو يراد به ما هو مشبه بذلك المعنى ، منزل منزلته ، فإن النقص من روادف الجبل ، أما إذا أريد به معناه الحقيقي فظاهر ، وأما إذا أريد به معناه المجازي فلأنه إذ أنزل منزلة المعنى الحقيقي وعبر عنه باسمه صار رادفاً للجبل أيضاً ، فالرادف على الأول مذكور لفظاً ومعنى حقيقة ، وعلى الثاني مذكور لفظاً حقيقة ، ومعنى ادعاء ، وكلاهما يصلحان قرينة الاستعارة بالكناية (٢) .

ومهما يكن من شيء فإن اعتبار الاستعارة في الرادف يضمف التخييل ، وتصوير المشبه في صورة المشبه به ، وتمثله في الخيال مصوراً بصورته ، وهذا هو سر بلاغة المسكوت ، إذ إنها تكون في أكثر أحوالها مظهراً لتصوير الحياة في الجماد ، أو تصوير المعاني وتمسيدها ، أو تشخيصها ، كشهيق جهنم ، وكأظفار المنية ، ويد الشمال ، وكفى اليأس ، وهذا اللون من التصوير له سحره وتأثيره ، والذي يعين على ذلك كما قلت هو كون هذه الروادف مستعملة في معانيها

(١) حاشية السيد الشريف على المطول ٢٨٤ (٢) نفس المرجع (٣) (م ٢٧ - البلاغة الرأية)

الطبيعية ، فالافتراس في قولنا شجاع يفترس أقرانه يكون أعوت على تصورنا
للشجاع في صورة الأسد ، وهيئته ، وعياله ، مادمتنا غير منصرفين عن معناه
الحقيقي الذي هو فعل الأسد ، أما إذا انصرفنا نفوسنا إلى معنى مجازي للافتراس
أي شدة القتل مثلا فإن التصور حينئذ يكون أضعف في نفوسنا من الأول ، وهذا
لا يثنى ما يقرره فقهاء هذا الفن من أن اللفظ المستعمل في غير معناه لعلاقة المشابهة
لا يتجرد من معناه الأصل ، فاللفظ الأسد يصور في النفس صورة الحيوان المفترس
وإن كان منقولاً إلى الرجل الشجاع .

والزخشي يدرك ما في هذه الاستعارة من القدرة على التصوير والتشخيص ،
ويظهر ذلك في شرحه لاساليبها ، يقول في قوله تعالى : وهو الذي مرج البحرين
هذا عذب فرات سائح ثرابه وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً
محجوراً ، جعل كل واحد منهما في صورة الباغي على صاحبه فهو يتعوذ منه ، وهي
من أحسن الاستعارات وأشدها على البلاغة (١) .

ويقول في قوله تعالى : ولما سكنت عن موسى الغضب ، هذا مثل ، كان الغضب
كان يضربه على ما فعل ، ويقول له قل لقومك كذا ، وألق الألواح ، وجر برأس
أخيك إليك ، فترك النطق بذلك ، وقطع الإغراء ، ولم يستحسن هذه الكلمة
ولم يستفصحا كل ذي طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ، ولأنه من قبيل شعب
البلاغة ، وإلنا لقراءة معاوية بن قرة ولما سكن عن موسى الغضب لا تجد النفس
عندها شيئاً من تلك الهزة ، وطرفاً من تلك الروعة (٢) .

وقد عرض الزخشي لمثل الاستعارة الأصلية والتبعية ولما سكنه لم يفصل القول
فيها ويشير استعارة المصادر فيما يكون الفعل فيه مجازاً .

يقول في قوله تعالى : وأسأل من أرسلنا قبلك من رسلنا ليس المراد بسؤال
الرسول حقيقة السؤال لإحاطته ، ولما سكنه مجاز عن النظر في أديانهم ، والفحص

(١) الكتاب ج ٣ ص ٣٧٦

(٢) الكتاب ج ٧ ص ١٢٨

هن ملهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء ، والسؤال الواقعي
مجازاً عن النظر حيث لا يصح السؤال على الحقيقة كثير ، منه مسألة الصحراء
الديار ، والرسوم والأطلال ، وقول من قال سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس
أشجارك ، وجنى ثمارك ، فإنها إن لم تهبك حواراً ، أجابتك اعتباراً (١) .
ويقول في قوله تعالى ووالله أنبتكم من الأرض نباتاً استعير الإنبات للإشياء
كما يقال زرعك الله للخير (٢) .

وأشار إلى الاستعارة في الحرف ، وكان من أوائل من أبرزوا في دراستهم
هذا الفن يقول في قوله تعالى ، فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ،
اللام في ليكون هي لام كي التي معناها التعليل ، كقولك جئتكَ لتكرمني سواء
بسواء ، واسكن معنى التعليل فيها واردة على طريق المجاز ، دون الحقيقة ، لأنهم
لم يكن داعيهم إلى الالتقاط أن يكون لهم عدواً وحزناً ، ولكن المحبة والتبني ،
غير أن ذلك لما كان نتيجة التقاطهم له وثمرته شبه بالداعي الذي يفعل الفعل لأجله ،
وهو الإكرام الذي هو نتيجة المعجزة ، والتأديب الذي هو ثمرة الضرب في قولك
ضربته ليتأديب ، وتحريره أن هذه اللام حكما حكم الأسد ، حيث استعيرت
لما يشبه التعليل ، كما يستعار الأسد لما يشبه الأسد (٣) .

وإجراء التشبيه في العداوة والحزن ، والمحبة والتبني ، يشعرنا بأن الاستعارة
والتشبيه السابق عليها يجران في مدخول الحرف ، إلا أن قوله وتحريره أن
هذه اللام حكما حكم الأسد الخ لم يترك مجالاً للاجتهاد ، وإنما هو نص صريح
على أن موطن التجوز هو الحرف نفسه ، ويقرب منه قوله في قوله تعالى ولاصلبكم
في جذوع النخل ، يقول شبه تممكن المصلوب في الجذوع يتمكن الشيء المرعى في
وعائه ، فلذلك قيل في جذوع النخل (٤) .

ومن إجراء الاستعارة في مدخول الحرف قوله في قوله تعالى ، إنا أترك
في سفاهه ، حيث يقول في خفة حلم وسخافة عقل ، حيث تهجر دين قومك إلى دين

(١) الكشاف ج ٤ ص ٤٩٥

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٢٠١

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٣٠٩

(٤) الكشاف ج ٣ ص ٦٥

آخر ، وجعلت السخامة ظرفا على طريق الجواز ، أراد أنه متمكن فيما غير مختلف عنها (١) .

وقد فكرت كثيرا في كلام الزمخشري في هذا الموضوع لاقف على مراده ، وأبين في أيهما يكون التشبيه والاستعارة ، في الحرف أم في مدخوله ، وكلا قوى في نظري وجه نظرت فوجدت الآخر لا يقل عنه قوة ، فكلامه صريح في أن التشبيه والاستعارة يجران في مدخول الحرف ، وكلامه صريح أيضا في أن اللام مستعارة كاستعارة الأسد للرجل الشجاع ، وقد بان لي أن كلام الزمخشري يصح أن يستدل به على الوجهين ، ومن الخطأ أن يحمل على وجهة دون أخرى ، وليس في هذا قدح لأن هذه المسألة لم تكن محددة في زمانه ، وإذا قيل إن الزمخشري يجرى الاستعارة في قرينة الممكنة كما أجراها في النقص في آية ينتقون عهد الله فإذا كان قد أجراها في اللام فليس هذا دليلا على أن التشبيه عنده لا يكون في مدخول اللام ، قلنا إنه اقتصر في قوله تعالى ولا صلبنكم في جذوع النخل ، على جريان التشبيه في مدلول الحرف .

أما تعرضه لصور الاستعارة الأصلية ، فنه قوله في قوله تعالى وربنا ولا تحمل علينا إصرا ، والإصر العبء الذي يأصر حامله أي يحبسه ، فكأنه لا يستقل به ثقله ، استعير للتكليف الشاق من نحو قتل النفس ، وقطع موضع النجاسة من الجلد ، والثوب وغير ذلك (٢) .

ويقول في قوله تعالى وفي قلوبهم مرض ، واستعمال المرض في القلوب يجوز أن يكون حقيقة ومجازا ، فالحقيقة أن يراد الألم ، كما تقول في جوفه مرض ، والمجاز أن يستعار لبعض أعراض القلب كسوء الاعتقاد ، والغل ، والحسد ، والميل إلى المعاصي ، والعزم عليها ، واستشعار الهوى ، والجبن ، والضعف ، وغير ذلك مما هو فساد وآفة شبت بالمرض كما استعيرت الصحة والسلامة في نقائص ذلك (٣) .

(١) الكشاف ج ٢ ص ٩٤

(٢) الكشاف ج ١ ص ١٥٦

(٣) الكشاف ج ١ ص ٤٥

وغير ذلك كثير وكثير ، إلا أننا لا نجد فيه تفصيلا عليا لهذين النوعين من الاستعارة إذا استثنينا الاستعارة في الحرف ، فإنه كما أهدم من أوائل من بسطوا الحديث فيها وأشاروا إلى جريان التشبيه في الحرف أو في مدخوله كما قلنا .

وله لمحات متذوقة يدرك فيها ما تنطوي عليه الكلمة المستعارة من وحى ، وإشارة ، وأكثر النصوص التي ذكرناها وخاصة تفسيره لصور الاستعارة الممكنة مليء بمثل هذه الفتات ومنها قوله في قوله تعالى : إنما يأمرمك بالسوء والفحشاء ، يقول فإن قلت كيف كان الشيطان آمراً مع قوله ليس لك عليهم سلطان ؟ قلت شبه تزيينه وبعثه على الشر بأمر الأمر كما تقول أمرتني نفسي بكذا وتمتته رمز إلى أنك منه بمنزلة المأمورين لطاعتكم وقبولكم وسامعه (١) .

الترشيح والتجريد :

قد درس الزمخشري الترشيح في المجاز ، كما درس التجريد ، وبين مذهب العرب في هذين اللونين ، ولم أجد دراسة الترشيح والتجريد مبسطة بهذه الروح الأدبية المتذوقة في كتاب قبل الكشف .

وكلام الزمخشري في الترشيح مشعر بأن هذا الفن من أبلغ الفنون البلاغية إن لم يكن أبلغها ، وأنه حين يقع موقعه لا نجد كلاماً أحسن منه ، ولا أكثر ماء ورونقا ، وأنه من الصنعة البديعية التي يبلغ المجاز معها الذروة العليا ، يقول في قوله تعالى : أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين ، فإن قلت هب أن شراء الضلالة بالهدى وقع مجازاً في معنى الاستبدال ، فما معنى ذكر الرج والتجارة ؟ كأن ثمة مبايعة على الحقيقة ؟ قلت هذا من الصنعة البديعية التي تبلغ بالمجاز الذروة العليا ، وهو أن تساق كلمة مساق المجاز ، ثم تقف بأشكالها وأخواتها ، إذا تلاحقن لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة ، وأكثر ماء ورونقا ، وهو المجاز المرشح ، وذلك نحو قول العرب في البليد كان أذن قلبه نخل ، فقد جعلوه كالخار ، مشاهدة معاينة ونحوه :

ولما رأيت الفرس عز ابن دابة وعشش في وكريه جاشله صدري

لما شبه الغيب بالنسر والشعر الفاحم بالغراب أتبعه ذكر التعشيش والوكر،
ونحو قول بعض فذاكم في أمه .

فما أم الدين وأن أدلت بطلانة بأخلاق الكرام
إذا الشيطان نصع في قفاها تنفقناه بالحبل النوام

أى إذا دخل الشيطان في قفاها استخرجناه من نافقائه بالحبل المثق المحكم ،
إذا مردت وأساءت الخلق اجتهدنا في إزالة غضبها ، وإماطة ما يسوء من
خلقها ، استمرار التصحيح أولاً ثم ضم إليه التنفق ، ثم الحبل النوام ، فكذلك
لما ذكر سبحانه الشراء أتبعه ما يشاء كله ، ويواخيه وما يكمل ويتم بانضمامه إليه
تمثيلاً لحسارهم وتصويراً لحقيقته (١) .

والترشيح في الاستعارة المركبة يضيف إلى صورتها إضافات هامة ،
تسكتمل بها الصورة ويزداد تأثيرها في توضيح المعنى وتقويته .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان
خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم ، . فإن قلت
فما معنى قوله فانهار به في نار جهنم قلت لما جعل الجرف الهائر مجازاً عن الباطل
فيل : فانهار به في نار جهنم ، على معنى فطاح به الباطل في نار جهنم ، إلا أنه
رشح المجاز ، فجاء بلفظ الانهيار الذي هو الجرف ، وليصور أن المبطل كأنه
أسس بنيانه على شفا جرف من أودية جهنم فانهار به ذلك الجرف فهو في قعرها ..
ولا ترى أبلغ من هذا الكلام ، ولا أدل على حقيقة الباطل وكنه أمره (٢) .

والترشيح عنده لا يكون استعارة ، فإذا أجريت فيه الاستعارة ، أخرجته
من أن يكون ترشيحاً ، وهذا كلام مصيب ، لأن المبالغة في الترشيح لا تكون
إلا باعتبار حقيقته ، التي تخيل إلينا أن هناك اشتراء على الحقيقة ، وأن هناك
تأسيس بناء كما مر في المثالين السابقين . يقول الزمخشري في قوله تعالى
: واهتمسوا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، يجوز أن يكون الحبل استعارة للعهد

(١) الكشاف ج ١ ص ٥٣ - ٥٤

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٢٤٤

والاعتصام استعارة للوثوق بالعهد ، أو هو ترشيح لاستعارة الحبل لما يناسبه (١) .
وحين أراد أن يبين طريقة التجريد ذكر الطريقتين معا ، وذكر ضرورة
فهمهما ، حتى لا ننكر ما يحىء عليهما من كلام العرب . يقول في قوله تعالى
« فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » ، فإن قلت الإذاقة واللباس استعارتان
فما وجه صحتهما ؟ والإذاقة المستعارة موقعة على اللباس المستعار فما وجه صحة
إيقاعها ؟ قلت أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة لشيوعها في البلايا
والشدائد وما يمس الناس منها ، فيقولون ذاق فلان البؤس ، والضر ، وإذاقة
العذاب ، شبه ما يدرك من أثر الضرر والالم بما يدرك من طعم المر البشع ،
وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس ما غشى الإنسان والتبس به من
بعض الحوادث ، وأما إيقاع الإذاقة على لباس الجوع والخوف فلأنه لما وقع
عبارة عما يفشى منها ، ويلابس فكأنه قيل فأذاقه ما غشيه من الجوع والخوف ،
ولحم في نحو هذا طريقان لا بد من الإحاطة بهما ، فإن الاستنكار لا يقع إلا
لمن فقدهما ، أحدهما أن ينظر فيه إلى المستعار له كما نظر إليه هنا ونحوه
قول كثير :

غمر الرداء إذا تبسم ضاحكا غلقت اضحكته رقاب المال
استعار الرداء للمعروف لأنه يصون عرض صاحبه صون الرداء لما يلتقي
عليه ، ووصفه بالغمر الذي هو وصف المعروف والنوال ، لاصفة الرداء نظراً
إلى المستعار له .

والثاني أن ينظر فيه إلى المستعار كقوله :
ينازعي ردائي حيد عمرو ودويدك يا أخا عمر بن بكر
لي الشطر الذي ملكت يميني ودونك فاعتجر منه بشرط
أراد بردائه سيفه ، ثم قال فاعتجر منه بشرط ، فنظر إلى المستعار في لفظ
الاعتجار ، ولو نظر إليه فيما نحن فيه لقيل فكسامة لباس الجوع والخوف ،
ولقال كثير ضاني الرداء إذا تبسم ضاحكا (٢) .

(١) الكشف ج ١ ص ٢٠٢

(٢) الكشف ج ٢ ص ٤٩٨ ، ٤٩٩

وقد اعترض على الزمخشري في يدك كثير ، وذلك لأن الضمير يوصف به
الرداء كما يوصف به العطاء مجازاً في كليهما وقد أشار الزمخشري إلى هذا
في الأساس ، فلا يصح أن يكون تجريداً لأنه ليس من أوصاف المستعار له
فقط ، بل هو من أوصافهما ، وأجيب على هذا ، بأنه وإن كان من أوصافهما
إلا أنه شاع في النوال وهذا يكفي ، وهناك اعتراضات أخرى لا نجد في التعرض
لها غناء وقد أحسن الشهاب حين قال وهذا المثال المستشهد به يشبه ما في الآية
في أن التجريد ليس تجريداً محضاً (١)

الاستعارة اللفظية

قد ذكر عبد القاهر الاستعارة غير المفيدة وسماها الاستعارة اللفظية ،
وذكر لها أمثلة ، وحملها ، وأشار إلى أنها تجرى بين الأسماء التي تتحد أجناس
مسمياتها ، كالشفة والجحفلة والمشفر ، والقدم ، والحافر ، والأظلاف والأظافر ،
والتولب والولد ، والأطلا ، وما شابه ذلك مما يكون منشؤه اختصاص الأسم
بما وضع له من طريق أريد به التوسع في أوضاع اللغة والتفوق في مراعاة دقائق
في الفروق في المعاني المداويل عليها ، ونبه أيضاً إلى أن هذه الدقائق في الفروق قد
تكون معتبرة في هذا التصرف ، فيكون استعارة مفيدة ، كإطلاق المشفر على
الشفة الغليظة في مقام الذم ، أو إطلاق الحافر على القدم بقصد التشبيه ، وقد
ذكرنا أن عبد القاهر رجع عن إطلاق اسم الاستعارة على هذا النوع من
التصرف ، وحن باسم الاستعارة عليه . وقال وأعلم أن الواجب ألا أعد وضع
الشفة موضع الجحفلة ، والجحفلة في مكان المشفر ونظائره التي قدمت ذكرها
في الاستعارة وأحن باسمها أن يقع عليهما ولاكني رأيتهم قد خلطوه بالاستعارة ،
وهدوه معهما ، فسكرت التشدد في الخلاف ، واعتدلت به في الجملة وبهت
على منصف أمره بأن سميته استعارة مفيدة (٢) .

ولعله يقصد بقوله رأيتهم قد خلطوه بالاستعارة وهدوه معهما قدامة
ابن جعفر ، وابن قتيبة فقد قدمت في الفصل الأول من هذا الباب أنهما درسا
شواهد عبد القاهر في هذا النوع من الاستعارة .

(١) انظر حاشية الشهاب ج ٥ ص ٣٧٦ .

(٢) أسرار البلاغة ص ٣٢٥ .

والمهم أن نذكر هنا أن الزمخشري قد ذكر هذه الاستعارة ، ونبه إلى أنها تدور بين أسماء هذه الأجناس ، ولم يصف إليها شيئاً ، لأن صورها أثر تصرف لفظي ليس وراءه اعتبارات بلاغية يراعها المتكلم ، فهي أشبه بالعمل اللغوي منه بالعمل الأدبي .

وكانت إشاراتنا إليها إشارات بجملة ، من ذلك قوله في قوله تعالى « فتم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع » ، فإن قلت لم سمى الزحف على البطن مشياً ؟ قلت على سبيل الاستعارة ، كما قالوا في الأمر المستمر قد مشى هذا الأمر ونحوه استعارة الشفة مكان الجحفة ، والمشفر مكان الشفة ، ونحو ذلك (١) .

ويقول في قوله تعالى « والعاديات ضبحاً » ، بعد ما ذكر تفسير ابن عباس لها بالتحيل ، وإنكار على رضى الله عنه عليه هذا التفسير ، وقوله في تفسيرها لأنها الإبل من هرفة إلى المزدلفة ، ومن المزدلفة إلى منى ، يقول بعد هذا (فإن صحت الرواية فقد استعير الصبح للإبل كما استعير المشافر والحافر للسان والشفتان للبر والثغر للشورة وما أشبه ذلك) .

وهذان النصفان المذكوران ليس فيهما تصريح بأن هذه استعارة لفظية ، أو استعارة غير مفيدة ، ولكن تنظير الزمخشري باستعارة الشفة مكان الجحفة والمشفر مكان الشفة والحافر مكان القدم وقوله في الأول ونحو ذلك ، وفي الثاني وما أشبه ذلك ، ولم نعهده يذكر مثل هذه الألفاظ في مواطن الاستعارة تعرض لها وهي كثيرة جداً . كل ذلك يشير إلى أنها استعارة تدور بين الأسماء التي تتعد أجناس مسمياتها . كما أنه لم يشر إلى ابتنائها على التشبيه ، ولا إلى شيء من بلاغتها ، حتى يمكن القول بأنها من النوع المفيد الذي روى فيه التشبيه .

وقد صرح في مواطن آخر بإسقاط الاستعارة اللفظية ، بأنها يمكن أن تحمل على الاستعارة المعنوية . يقول في قوله تعالى « طلعتها كأنه رؤوس الشياطين » ،

والطالع للنبغة فاستعير لما طلع من شجر الزقوم من حملها إما استعارة لفظية
أو معنوية (١) .

العكس في الكلام :

أشار الزمخشري إلى أن العكس في الكلام مذهب واسع ، وأن العرب كثيرا
ما يضعون الشيء مكان غيره ، ويدهون للشيء جنسا غير جنسه .

يقول في قوله تعالى « فيشرم بعذاب أليم » ، وأما فيشرم بعذاب أليم فن العكس
في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزا به ، وتألمه ، واغتمامه ،
كما يقول الرجل لعدوه أبشر بقتل ذريتك ، ونهب مالك ، ومنه فاعتبوا
بالصيلم (٢) .

ويقول في قوله تعالى « وقالوا يا أيها الذي نزل عليه الذكر إنك لمجنون » .
والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهمك مذهب واسع ، وقد جاء في كتاب الله
سبعائه وتعالى في مواقع ، منها « فيشرم بعذاب أليم » ، « إنك لانت الحليم
الرشيد » وقد يوجد كثيرا في كلام المعجم (٣) .

وهذه صورة الاستعارة العنادية (التهكمية) كاذب إلى ذلك السكاكي وغيره
ولست أجد لهذا النوع مذاق الاستعارة ، ولست أستسيغ أيضا تكلف إجرائها
في هذه الأساليب ، وأن طريقة الزمخشري هذه التي تسكتني ببيان أصل هذه
الطريقة ، وأنها من العكس في الكلام وأن القوم كثيرا ما يذهبون إليها ، وهم
ليسوا أبدا في هذا ، فإن غيرهم من الأعاجم قد يعكس في كلامه ، لاشك أن هذه
الطريقة خير من تكلف الاستعارة التي ينزل فيها التضاد منزلة التناصب .

وقد ذكر الدكتور شوقي ضيف أن من إضافات الزمخشري في علم البيان
الاستعارة التي سميت بعبده بالعنادية ، وذكر الآية وغيرها ، وظن أن كلام
الزمخشري هذا يفيد أن العكس من باب الاستعارة ، وليس في كلامه ما يدل على

(١) الكشاف ج ٤ ص ٣٦

(٢) الكشاف ج ١ ص ٧٩

(٣) الكشاف ج ١ ص ٤٤٤

هذا بل إنني تتبعت كلامه في هذه الصور ، وهو كثير لاناكد من أنه لم يجم
بهذا الفن حول الاستمارة ، واكتفى بأن جعله من العكس في الكلام وجعل من
هذا الباب أيضاً الاساليب التي سماها المتأخرون التنويح .

يقول في قوله تعالى : وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاءً وتصديداً ، فإن قلت
ما وجه هذا الكلام ؟ قلت هو نحو قوله :

وما كنت أخشى أن يكون عطاؤه أدام سودا أو عدرجة حمرا

والمعنى أنه وضع القيود والسياط موضع العطاء ، ووضعوا المكاء والتصديداً
موضع الصلاة (١) .

ويقول في قوله تعالى : يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ،
وهو من قولهم تحمية بيئهم ضرب وجيع ، وماثوا به إلا السيف ، ويأناه أن يقال
لك هل لزيد مال وبنون ؟ فنقول ماله وبنوه سلامة قلبه ، تريدني المال والبنين
ههنا ، وإثبات سلامة القلب له بدلا عن ذلك (٢) .

ويقول في قوله تعالى : والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير مردا ،
فإن قلت كيف قيل خير ثوابا كأن لماخرتهم ثوابا حتى يجعل ثواب الصالحات خيراً
منه ؟ قلت كأنه قيل ثوابهم النار ، على طريقة قولهم فاعتبوا بالصيلم ، وقوله .

شجعاء جرتها الزميل تلوكه أصلا إذا راح المطنى غراما

وقوله تحمية بيئهم ضرب وجيع ، ثم بنى عليه خير ثوابا ، وفيه ضرب من
التهكم الذي هو أغبط للستمزي . من أن يقال له هقابك النار (٣) .

وقد سهل على المتأخرين أن يعتبروا بعض هذه الصور من الاستمارة الضاربة ،
وصعب عليهم أن يمدوا لبعضها وجها من وجوه البيان ، إذ استعمل التشبيه
والاستمارة على مثل فاعتبوا بالصيلم ، وقال الشهاب في هذا النوع الذي صعب

(١) الكشاف ج ٢ ص ١٧٠

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٤٥٧

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٤٩

عليهم تكلف التشبيه والاستمارة فيه ، قال (وفيه تسكب العبرات) إشارة إلى صموية تخرجه ، واختلاف آراء القوم فيه ، وقد كان عبد القاهر من خير من درسوا هذا النوع ، وبين خطأ حمله على الاستمارة ، ويقول الشهاب في هذا وليس الشيخ - يعنى عبد القاهر - أبا عذراته ، فإنه مصرح به في باب الاستثناء من كتاب سيبويه ، وقد نبه عليه السكاكي أيضاً في قسم الاستدلال ، وفصله العلامة الزمخشري في تفسير قوله تعالى : يوم لا ينفع مال ولا بنون ، (١) .

ويقول أيضاً وهذا نوع من خلاف مقتضى الظاهر ، يقال له التنويع ، وهو ادعاء أن اللمسى نوعين ، متعارف ، وغير متعارف ، هل طريق التخييل ويجرى في مواطن شتى ،

وهذا التنويع كما قلت هو العكس الذي ذكره الزمخشري لأن أمثلة العكس تصلح كلها للتنويع ، بل هي أهم نوع فيه ، والذي إذا أطلق التنويع انصرف إليه ، يقول الشهاب وأهم نوع في التنويع هو أن ينزل ما يقع في موقع شيء بدلا عنه منزلته بلا تشبيه ، ولا استمارة ، كما في الاستثناء المنقطع ، وما يضاهيه ، سواء كان بطريق الحمل ، كما في قوله تهيئة بينهم ضرب وجميع ، أو بدونه كما في قولهم فاعتبوا بالصليم ، وحيث أطلق التنويع فالمراد به هذا (٢) .

فباب العكس كما يتصوره الزمخشري يشمل الاستمارة العنادية ، والتنويع ، فهو إذن لم يصف الاستمارة العنادية ، كما ذكر الأستاذ الدكتور شوقي ضيف ، وإن كان يقصد أن الزمخشري درس صورها فليس هو أول من درس صور الاستمارة العنادية أعني أمثلتها بل إن عبد القاهر تحدث كثيرا عن استمارة الحمى للبيت الذي بقي في الناس ذكره ، واستمارة الميت للحمى الذي لا نفع فيه ، وذكر أن من المعروف المتمكن في العادات أن ينزل الوجود منزلة العدم إذا أريد المبالغة في حط الشيء والوضع منه ، وله في هذا كلام كثير (٣) .

(١) حاشية الشهاب ج ٤ ص ٦٠ ، ٦٢ .

(٢) نفس المرجع وانظر مذكرة في البيان للرحوم الشيخ سليمان نوار ص ١٧٥ .

(٣) انظر أسرار البلاغة ص ٥٦ إلى ٥٩ .

التمثيل

قلنا إن الزمخشري قسم المجاز إلى استعارة ، وتمثيل ، وذكرنا من نصوص كلامه ما يدل على هذا ، واتفقنا مع شراحه على أنه يراد بالتمثيل فيما ذكر صورة الاستعارة التي سماها المتأخرون استعارة تمثيلية ، والآن نقول هل حافظ الزمخشري على هذا المدلول الاصطلاحي الذي حدده لكلمة التمثيل ، والذي جعله قسيما للاستعارة ، فيكون بهذا قد خالفه المتأخرون في شيء ، ووافقوه في آخر ، خالفوه حين جعلوا التمثيل قسيما من الاستعارة ، وقد جعله هو قسيما لها ، ووافقوه حين سماوا الاستعارة المركبة تمثيلا ، أم أن الزمخشري خالف هذا المصطلح الذي حدده هو وأطلق كلمة التمثيل على غير صورة الاستعارة المركبة .

١ - يقول الزمخشري في قوله تعالى : كأنهم جراد منتشر ، الجراد مثل في السكثرة والتفج ، يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض جاموا كالجراد (١) .

٢ - ويقول في قوله تعالى : وما يستوى الأعمى والبصير ، ضرب الأعمى والبصير مثلا للمحسن والمسيء (٢) .

ويقول في قوله تعالى : فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ، أولو فضل وخير ، وسمى الفضل والجودة بقية لأن الرجل يسبق بما يخرجه أجوده وأفضله فصار مثلا في الجودة والفضل ، يقال فلان من بقية القوم ، أي من خيارهم ، ومنه فسر بيت الحماسة :

أن تدبوا ثم يأتيني بقتيتكم . . .

ومنه قولهم في الزوايا خبايا وفي الرجال بقايا (٣) .

٣ - ويقول في قوله تعالى : ولما سكك عن موسى الفضب ، هذا مثل كأن الفضب كان يغريه هل ما فعل ، ويقول له قل لقومك كذا ، وأنت الأبراح . وجر برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك وقطع الإغراء ، ولم يستحسن

(١) الكشاف ج ٤ ص ٣٤٤ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ١٣٦ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٣٤١ .

هذه الحكمة ، ولم يستفصحا كل ذى طبع سليم ، وذوق صحيح ، إلا لذلك ، ولأنه من قبيل شعب البلاغة ، وإلا فإقراء معاوية بن قرة ، ولما سكن عن موسى الغضب لا تجمد النفس عندهما شيئا من تلك الهزة وطرفا من تلك الروعة (١) .

قال الشهاب معلقا على هذا الكلام يعنى أنه شبه الغضب بشخص أمرناه ، فهو استعارة مكنية وأثبت له السكوت على طريق التخييل (٢) .

٤ - ويقول فى قوله تعالى « إن الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليقندوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم ، وهذا تمثيل لزوم العذاب لهم ، وأنه لا سبيل لهم إلى النجاة بوجه (٣) .

قال الشهاب قال القطب أى كناية عن لزوم العذاب ، فإن لزوم العذاب من لوازمه أن ما فى الأرض جميعا ومثله معه لو افتدى به منه لم يقبل منهم . . . ولعل التمثيل يطلق على الكفاية إذا كانت بالتمثيل ، وقال التحرير لا يريد الاستعارة التمثيلية ، بل لإيراد مثال وحكم يفهم منه لزوم العذاب لهم (٤) .

٥ - ويذكر التمثيل بالأفعال والحركات فى قصة داود عليه السلام مع الخصمين اللذين بنى بعضهما على بعض ، وينبئ إلى أهمية هذا النوع من التمثيل . وإلى ماله من إيحاء قوى ، وتأثير بالغ ، فى التوجيه والتهديب ، وينبئ إلى الأثر القوى فى تصوير المعانى فى مشاهد متحركة ، أو بين أشخاص تتحاور وتتجادل والحقيقة المرادة وراء هذا التحاور ، يشف عنها كآه غشاء رقيق ، وينبئ إلى وجوب أن يكون فى المشهد التمثيل رمز يشير إلى الغرض الذى يدور حوله هذا المشهد ، يقول الزمخشري فى قوله تعالى « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففرغ منهم قالوا لا تخف خصمان بنى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ، ولا تشطط ، واهدنا إلى سواء الصراط ، إن هذا أخصى له أسمع وتسعون لغة ولى لغة واحدة ، فقال أكفانيها ، وعزنى فى الخطاب ،

(١) الكشاف ج ٢ ص ١٧٨ .

(٢) حاشية الشهاب ج ٤ ص ٢٢٤ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٤٨٨ .

(٤) الكشاف ج ٣ ص ٢٤٠ .

قال لقد ظلمتك بسؤال نمجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخطباء ليبتغي بعضهم
على بعض ، إلا الذين آمنوا و عملوا الصالحات ، ولليل ما هم ، وظن داود أنما
فتناه ، فاستغفر ربه وخر راكعاً واناب ، .

يقول فإن قلت ما معنى ذكر النعجة ؟ قلت كان نحا كهم في نفسه تمثيلاً ،
وروجه التمثيل فيه أن مثلت قصة أوربا مع داود ، بقصة رجل له نعجة واحدة ،
ولخليطه تسع وتسعون ، فأراد صاحبه تمتع المائة ، فطمع في نعجة خليطه ،
وأراد على الخروج من ملكها إليه ، وحاجه في ذلك محاجة حريص على بلوغ
مراده ، والدليل عليه قوله وإن كثيراً من الخطباء ، وإنما خص هذه القصة
لما فيها من الرمز إلى الفرض بذكر النعجة (١) .

ويقول فإن قلت لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح ؟
قلت لسكونها أبلغ في التوبيخ ؛ من قبل أن الناظر إذا أداه إلى الشعور بالمعرض به
كان أوقع في نفسه وأشد تمكناً من قلبه ، وأعظم أثراً فيه ، وأجلب لاجتسامه
وحياؤه ، وأدهى إلى التنبه على الخطأ فيه من أن يبادره به صريحاً ، مع مراعاة
حسن الأدب بترك المجاهرة ، ألا ترى إلى الحكماء وكيف أوصوا في سياسة
الولد إذا وجدت منه هنة منكرة أن يعرض له بانكارها عليه ، ولا يصرح
وأن تهكمى له بحكاية ملاحظة لحاله إذا تأملها استسمح صاحب الحكاية ، فاستسمح
حال نفسه ، وذلك أزجر له لأنه ينصب ذلك مثالا لحالته ، ومقياساً لشأنه ،
فيتصور قبح ما وجد منه بصورة مكشوفة ، مع أنه أصون لما بين الوالد والولد
من حجاب الحشمة . فإن قلت فلم كان ذلك على وجه التعاكم إليه ؟ قلت ليحكم
بما حكم به من قوله لقد ظلمتك بسؤال نمجتك إلى نعاجه ، حتى يكون محجوجاً
بحكمه ومعترفاً على نفسه بظلمه (٢) .

وهذا التحليل يتناول التمثيل الذي هو فن الحركة والأداء ، يقول سعد الدين
في شرحه للكشاف كان نحا كهم في نفسه تمثيلاً ، يعني أنه في الأفعال بمنزلة

(١) الكشاف ج ٤ ص ٦٤ .

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٦٤ .

الاستعارة التمثيلية في الأقوال ، حيث لم يكن المقصود من تحاكمهم ما هو ظاهر الحال (١) .

٦ - ويقول في قوله تعالى « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » ، وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لفرض ، وهو المبالغة في نفي الولد ، والإطناب فيه ، وألا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة ، مع الترجمة عن نفسه بلبات القدم في باب التوحيد . . . ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه الله للحجاج حين قال له أما والله لأبدلك بالدنيا ناراً تطفى - لو عرفت أن ذلك إليك ما عبت لها غيرك (٢) .

ومن غير ريب أن التمثيل في هذه الأنواع التي ذكرناها ليس تمثيلاً بالمعنى الاصطلاحي الذي حدده الزمخشري ، وجعله قسماً من المجاز ، وقسيم الاستعارة ، وإنما هو في النوع الأول تشبيه ، وفي الثاني من الاستعارة في المفرد وفي الثالث من الاستعارة بالكناية ، وفي الرابع من الكناية ، وفي الخامس من التمثيل بالأفعال ، وفي السادس من الكلام الوارد على سبيل الفرض وهو من الحقيقة المفروضة .

والزمخشري يقسّمها في استعمال المصطلحات العلمية التي حدد هو نفسه مدلولها ، ومرجع هذا إلى ميله للمعنى اللغوي الذي يدل به كثيراً عن الاصطلاح المحدد ، أما صور التمثيل الذي هو قسم الاستعارة في اصطلاحه فقد أشار إليه في مواضع كثيرة .

يقول في قوله تعالى « وقد منا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً » ليس ههنا قدوم ولا ما يشبه القدوم ، ولكن مثلت حال هؤلاء وأعمالهم التي عملوها في كفرهم من صلة رحم ، وإغاثة ملهوف ، وقرى ضيف ، ومن على أسير ، وغير ذلك من مكارمهم ، ومحاسنهم ، بحال قوم خالفوا سلطانهم واستصوا عليه ، فقدم إلى أشيائهم وقصد إلى أشيائهم ، وقصد إلى ما تحت أيديهم ، فأفسدها ومزقها كل ممزق ، ولم يترك لها أثراً ولا عثيراً (٣) .

(١) شرح الكتاب العلامة سعد الدين ورقة ٣٧ مخطوط .

(٢) الكتاب ج ٣ ص ٤٠٩ .

(٣) الكتاب ج ٣ ص ٤١٦ .

ويقول في قوله تعالى: «وجاء ربك والملك صفاً صفاً»، فإن قلت ما معنى إسناد
المجيء إلى الله والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان في جهة؟ قلت هو تمثيل
لظهور آيات اقتداره، وتبين آثار قهره، وسلطانه، مثلت حاله في ذلك بهال
ملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة، والسياسة، ما لا يظهر
بمحضور مساكره كلها، ووزرائه، وخواصه، هن بكرة أبيهم (١).

ويشرح صورة المثل في ضوء صور الحياة التي هي منبع هذا التصور، ومن
الواضح أن صور البيان جزء من حياة العرب ترمز كل واحدة منها إلى شيء في
حياتهم الواقعية، أو النفسية، وليس هذا محتاجاً إلى بيان. والمهم هو أن تقول
أن ربط التعبير البياني بحياة القوم وعاداتهم، وما في بيئاتهم من الصور،
والأحداث، أمر عني به الزمخشري وأشار إليه، حين ذكر أصول هذه الصور
وهي جزء من الحياة في بيئتهم قبل أن تكون بياناً في لغتهم.

يقول في قوله تعالى «يوم يكشف عن ساق»، الكشف عن الساق والإبداء
عن الخدام مثل في شدة الأمر وصعوبة الخطب، وأصله في الروع والمزجعة
وتشهير المخدرات عن سوقهن في الهرب، وإبداء خدامهن عند ذلك.
قال حاتم:

أخو الحرب إن هضت به الحرب عضها
وإن شمرت عن ساقها الحرب شمرها

وقال ابن الرقيات:

تذهل الشيخ عن بنيه وتبدي عن خدام العقيلة المقراء
فمضى يوم يكشف عن ساق في معنى يوم يشتد الأمر ويتعاقم، ولا
كشف ثمة ولا ساق، كما تقول للأفطح الشحيح يده مفلولة ولا يدهم يولاعل،
ولإنما هو مثل في البخل، وأما من شبه فلفظيق عطنه وقلة نظره في علم البيان (٢).

ويقول في قوله تعالى «واخفض لها جناح الذل من الرحمة»،
الطائر إذا أراد أن ينحط للرفوع كسر جناحه وخفضه، وإذا أراد أن

(١) الكشاف ج ٤ ص ٦٠٠

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٤٧٥

ينفض الطيران ورفع جناحه، فجعل خفض جناحه عند الانعطاف مثلاً في التواضع ،
وإين الجانب ، ومنه قول بعضهم :

وأنت الشهير بخفض الجناح فلا تك في رفقه أبداً

ينهاه عن التكبر بعد التواضع (١) .

ويبين قيمة التصوير الحسي المعاني الذهنية الاستدلالية ، وكيف يكون هذا
التصوير أدهى للاعتقاد واليقين ، يقول في قوله تعالى : ومن يسلم وجهه إلى الله فهو
محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى ، بالعروة الوثقى من الحبل الوثيق المحكم
المأمون انفصالها . أي انقطاعها ، وهذا تمثيل للمعلوم بالنظر والاستدلال بالمشاهد
المحسوس ، حتى يتصوره السامع كأنه ينظر إليه بعينه ، فيحكم اعتقاده
واليقين به (٢) .

والكلام إذا جرى على سنن الحقيقة وخلا من فائدة هذا التصوير البياني بسميه
الرمخشري كلاماً هريانياً ، وهذه التسمية فيها لمسة الفن وروح الأدب .

يقول في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله ،
وحقيقة قولهم جلس بين يدي فلان أن يجلس بين الجهتين المسامتين ليمينه وشماله
قريباً منه ، فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين ، مع القرب منهما
توسعاً كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوزه وداناه في غير موضع ، وقد جرت
هذه العبارة هنا على سنن ضرب من المجاز هو الذي يسميه أهل البيان تمثيلاً ،
ولجريانها هكذا فائدة ليست في الكلام العريان ، وهي تصوير الهجة والشناعة
فما نورا عن الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب
والسنن (٣) .

وحين يمارض ظاهر النص مبداً من مبادئ المعتزلة يصرفه الرمخشري عن
ظاهرة ، فيلجأ أحياناً إلى طريقة التمثيل ، ويجعل الكلام عليها ، من ذلك قوله

(١) الكتاب ج ٣ ص ٤٦٨

(٢) الكتاب ج ١ ص ٤٣٣

(٣) الكتاب ج ١ ص ٤٧٧

في قوله تعالى ، ختم الله على قلوبهم ، وقد مر بيان وجه المجاز في هذا الأسلوب ،
وأنه يحتمل أن يكون من الاستعارة ، وأن يكون من التمثيل ، وقد ذكرت
ذلك ، ولكنه نظر فوجد الختم مسنداً إلى الله سبحانه ، فبحث عن وجه يعرف به
الكلام عن ظاهره ، لأن الله منزّه عن فعل القبيح ، يقول في ذلك فإن قلت لم أسند
الختم إلى الله تعالى وإسناده إليه يدل على المنع من قبول الحق ، والتوصل إليه
بطرقه وهو قبيح ، والله يتعالى عن فعل القبيح علواً كبيراً لعله بقبحه ، وعلمه
بغناه عنه ، وقد نص على تنزيهه ذاته بقوله ، وما أنا بظلام للعبيد ، وما ظلماتنا
ولكن كانوا هم الظالمين ، وإن الله لا يأمر بالفحشاء ، ونظائر ذلك مما نعلق به
التنزيل ؟ ... ويجوز أن يضرب الجملة كما هي ختم الله على قلوبهم مثلاً ، كقولهم
سال به الوادي ، إذا هلك وطارت به العنقاء إذا أطال الغيبة ، وليس للوادي
ولا للعنقاء عمل في هلاكه ، ولا في طول غيبته ، وإنما هو تمثيل ، مثلت حاله في
هلاكه بحال من سال به الوادي ، وفي طول غيبته بحال من طارت به العنقاء ، فكذلك
مثلت حال قلوبهم فيما كانت عليه من التجاني عن الحق بحال قلوب ختم الله عليها
نحو قلوب الأغنام التي هي في خلوها عن الفطن كقلوب البهائم أنفسها ، أو بحال
قلوب مقدر ختم الله عليها لا تعي شيئاً ولا تفقهه ، وليس له عز وجل فعل
في تجاهها ، عن الحق ونبوها عن قبره ، وهو متعال عن ذلك (١) .

التمثيل والتخييل :

يذكر الزمخشري التمثيل والتخييل وكأنه لا يفرق بينهما في كثير من
المواضع ، يقول في قوله تعالى ، واذا أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرياتهم
والأشهادهم هل أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى ، .
من باب التخييل والتمثيل ، ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ،
ووحدايته ، وشهدت بها عقولهم ، وبصائرهم ، التي ركبها فيهم ، وجعلها مميزة
بين الضلال والهدى ، فكانه أشهدهم على أنفسهم ، وأفرادهم ، وقال لهم ألست بربكم
وكانهم قالوا بلى ألست ربنا شهدنا على أنفسنا ، وأقررنا بوحدايتك ، وباب
التمثيل واسع في كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام ، وفي كلام العرب ، ونظيره

قوله ، تعالى إنما قولنا لشيء إذا أردنا أن نقول له كن فيكون ، فقال لها
والأرض أتقيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين ، وقوله إذ قالت الألسع
اللبان الخلق ، وقالت له ريح الصبا هرقار ، ومعلوم أنه لا قول ثم وإنما هو تشييل
وتصوير للمعنى (١) .

ويقول في قوله تعالى ، وسع كرسيه السموات والأرض ، لم يضق عن
السموات والأرض لبسطته وسعته ، وما هو إلا تصوير لمظلمته ، وتخييل فقط ،
ولا كرسي ثمة ولا عمود ولا قاعد ، كقوله ، وما قدروا الله حق قدره والأرض
جيدا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، من غير تصوير قبضة
وخطى ويدين ، وإنما هو تخييل لمظلمة شأنه ، وتمثيل بحسى ، ألا ترى إلى قوله
تعالى : وما قدروا الله حق قدره (٢) .

ويقول كان حول البيت ثلاثمائة وستون صنماً ، صنم كل قوم بحياهم ، وعن
ابن عباس رضى الله عنهما كانت لقبائل العرب يحجون إليها ، وينحرون لها فشكا
البيت إلى الله عز وجل فقال أى ربى حتى متى تعبد هذه الأصنام ؟ حول ذلك
فأوحى الله إلى البيت أنى ما حدث لك نوبة جديدة فأملك خدوداً سجداً ، يدفون
إليك دفيق النسور ، ويحنون إليك حنين الطير إلى بيضها لهم عجاج حولك
بالتلبية ... وشكاية البيت والوحى إليه تمثيل وتخييل (٣) .

وإذا كنا نجد لا يفرق بينهما في هذه النصوص التى ذكرناها وغيرها كثير
فإننا نراه أحياناً يفرق بينهما ويجعل الكلام إما من التمثيل ، أو من التخييل ،
ومن ذلك قوله في قوله تعالى ، فقال لها والأرض أتقيا طوعا أو كرها قالتا
أتينا طائعين ، ومعنى أمر السماء والأرض بالإيمان وامتثالهما أنه أراد تمكويتهما
فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا في ذلك كالأشياء المطيع إذا ورد
عليه فعل الأمر المطاع ، وهو من المجاز الذى يسمى التمثيل ، ويجوز أن يكون
تخييلا ، ويبين الأمر فيه هل أن الله تعالى كلم السماء والأرض وقال لهما أتقيا
على الطوع لا على الكره ، والفرض تصوير أثر قدرته فى التدويرات لأفقر من

(١) الكشاف ج ٢ ص ١٣٧ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٢٢٩ .

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٥٣٧ .

غير أن يحقق شيء من الخطاب والجواب ، ونحوه قول القائل قال الجدار الوعد
لم تشقني ، قال الوعد أسأل من يدفق قلم يتركني ورائي الحجر الذي ورائي (١) .
ونلاحظ أن هذه الآية التي جعلها من قبيل التمثيل أو من قبيل التخييل قد
ذكرها مثالا للتمثيل والتخييل في النصوص التي أوردناها وقلنا أنه يذكر التمثيل
والتخييل وكأنه لا يفرق بينهما ، كما نلاحظ فرقا بين تحليل الأسلوب على طريقة
التمثيل في هذا الموضع وبين تحليله على طريقة التخييل ، فطريقة التمثيل هي طريقة
الاستعارة التمثيلية في مفهوم المتأخرين أما طريقة التخييل فهي أقرب إلى فرض
الاشياء وتخيلها كالمحاورة بين الجدار والوعد ، ونداء الأرض وإجابتها ، ومقاومة
جهنم ، وشكاية البيت ، والوحى إليه ، وقد يكون منه القصص على السنة الحيوان
فهو باب الخيال الطليق الحر ، الذي يبعد في التحليق عن الخيال المحدود في صور
الاستعارة ، وقد لاحظ هذا بعض القدماء ، قال الشهاب تعليقا على قول البيهقي
الملخص من كلام الكشاف في قوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره والأرض
جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، والمراد بالتخييل ما يقابل
التصديق كما في قولهم الناس للتخييل أطوع منهم للتصديق ، وهو ما سلف من
المقدمات المتخيلة ، لا تخييل الاستعارة بالكناية ، كما يوهمه تشبيهه بقولهم شابت
لمة الليل ، فاقبل في كتب القوم إن القياسات الشعرية وإن أفادت الترغيب
والترهيب لا ينبغي للنبي صلى الله عليه وسلم لأن مدارها على الكذب ، ولذا قيل
أخذه أكذبه ، نوع ١ . ٥ .

والزمخشري يذهب إلى أن التمثيل كما يكون بالأمور المحققة يكون كذلك
بالأمور المتخيلة المفروضة ، وقد سبق أن ذكر في التشبيه نوعا سماه التشبيه
التخييلي ، وقلنا إنه يقصد به ما كان المشبه به فيه خياليا محضا ، كرووس الشياطين
ولعله أراد هنا التمثيل التخييل أي ما تكون صورة المشبه به المستعارة خيالية
مفروضة .

يقول الزمخشري في قوله تعالى : إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض
والجبال فأبين أن يحملها وأشفقن منها ، والثاني أن ما كلفه الإنسان بلغ من
عظمه وثقل عمله أنه عرض على أعظم ما خلق الله من الأجرام وأقراء وأشدوا أن

يتعدله ويستقل به ، فأبى حمله والاستقلال به ، واشفق منه ، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته ، إنة كان ظلوما جمولا ، حيث حمل الأمانة ثم لم يفت بها وضمنها ثم خاس بضمانه فيها ، ونحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب وما جاء القرآن إلا على طريقهم ، وأساليبهم ، من ذلك قولهم لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوى العوج ، وكم وكم لم من أمثال هل السنة الهائم والجمادات ، وتصور عقارلة الشحم حال ، واسكن الغرض أن السمن في الحيوان بما يحسن قبيحه كما أن العجف بما يقبح حسنه فصور أثر السمن فيه تصويرا هو أوقع في نفس السامع وهي به آس ، وله أقبل وعلى حقيقته أوقف وكذلك تصوير عظم الأمانة وصعوبة أمرها ، وثقل حملها ، والوفاء بها ، فإن قلت قد علم وجه التمثيل في قولهم للذي لا يثبت على رأى واحد أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، لأنه مثلت حاله في تميله وترجمه بين الرأبين وتركه المضى على أحدهما بحال من يتردد في ذهابه فلا يجمع رجليه للمضى في وجهه وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة ، والمعرفة ، وليس كذلك ما في هذه الآية فان عرض الأمانة على الجماد ، وأباده واشفاقه ، بحال في نفسه غير مستقيم فكيف صح بناء التمثيل على الحال ، وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئا والمشبه به غير معقول ؟ قلت الممثل به في الآية ، وفي قولهم لو قيل للشحم أين تذهب ، وفي نظائره ، مفروض ، والمفروضات تخيل في الذهن كما في المحققات ، مثلت حال التكليف في صعوبته وثقل محله ، بحاله المفروضة ، لو عرضت على السموات والأرض والجهال لا بين أن يحملنها وأشفقن منها (١) .

ويقول الشهاب معلقا على هذا ومنه ظهر أن التخيل التمثيل خاص والتصوير لا ينافي كونه تمثيلا ... وهذا أبسط موضع حقق المصنف فيه التمثيل فليحد على مثاله (٢) .

ويلخص الشهاب استعمالات التخيل ، فيقول للتخييل له استعمالات كما ذكره الشريف في حواشي شرح المفتاح حيث قال أنه يطابق على التمثيل بالأمور المفروضة وعلى فرض المعاني الحقيقية وعلى طريقة الاستعارة المسكنية (٣) .

(١) الكشاف ج ٣ ص ٤٤٦ .

(٢) حاشية الشهاب ج ٧ ص ١٨٢ .

(٣) حاشية الشهاب ج ٦ ص ٣٠ .

ويقول في موطن آخر بالتنخيل له ثلاث معان ، التمثيل بالأمور المقروضة ،
وفرض المعاني الحقيقية ، وقرينة الممكنة فيقول (١) .

ويذكر التمثيل التنخيل فيقول والتنخيل نوع من التمثيل ، إلا أنه تمثيل خاص
يكون المشبه به فيه أمراً مفروضاً ... ثم إن كان الممثل بجميع أجزائه مفروضاً
كما نحن فيه وكقولهم لو قيل للفحم أين تذهب لقال أسوى العوج فهو التمثيل
التنخيل ، وإلا فهو الاستعارة التمثيلية أو التابعة للاستعارة بالكناية ، واسم
التمثيل يقع عليها (٢) .

وقد يطلق التنخيل على بعض صور حسن التعليل ، يقول الزمخشري في حديث
ما من مولود يولد إلا والشيطان يمه فيه حين يولد ، فيستهل صارخاً من مس الشيطان
إياه ، إلا مريم وابنها يقول : الله أعلم بصحته ، واستهلاله صارخاً من مسه
تنخيل وتصوير ، لطمعه فيه كأنما يمه ويضرب بيده عليه ويقول هذا من أخريه ،
ونحوه من التنخيل قول ابن الرومي :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد (٣)

وقد يطلق على ما ليس من صور البيان وإنما هو من الحقائق المقروضة يقول
في قوله تعالى ولا تهمد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله
ورسوله ، من باب التنخيل خيل أن من الممتنع المحال أن يمد قوما مؤمنين يوالون
المشركين ، والغرض به أنه لا ينبغي أن يكون ذلك ، وحقه أن يمتنع ولا يوجد
بمحال ، مباينة في النهى عنه ، والزجر عن ملاسته (٤) .

ولعل إطلاقه على مثل هذا النوع هو المراد بقول الشهاب ، إنه يطلق على فرض
المعاني الحقيقية .

وتراه حين يذكر طريقة التنخيل يرشد القارىء إلى أخذ الزبدة من الكلام
واستشعار ما يوحى به من المعاني ، غير ملتفت إلى ما عليه حال المفرد من الحقيقة

(١) حاشية الشهاب ج ٧ ص ٢٥١

(٢) حاشية الشهاب ج ٢ ص ٣٣٥

(٣) الكشاف ج ١ ص ٢٧٤

(٤) الكشاف ج ٤ ص ٣٩٦

والعجاز ، وإنما تصرف منك كله إلى ما وراء هذا التصوير من غرض إساق له الكلام ، وهذا تفكير جيد في فهم التصوير البياني جعله الزمنخشي أدق وألطف أبواب علم البيان ، وأنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات .

يقول في قوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، ثم يفهم على عظمتهم وجلالة شأنه ، على طريقة التخييل ، فقال : والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه ، والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو هو بجملة وبمجموعه ، تصوير عظمتهم ، والتوقيف على كنهه جلالة لا غير من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة ، أو جهة مجاز ، وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات والأرض يوم القيامة على إصبع ، والجبال على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول أنا الملك ، فضحك رسول الله ﷺ تعجباً عما قال ثم قرأ تصديقاً له وما قدروا الله حق قدره .. وإنما ضحك أفصح العرب ﷺ وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهم علماء البيان من غير تصور لمسك ولا إصبع ولا هز ولا شيء من ذلك ، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والمخلصة التي هي الدلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ، ولا تسكتها الأرقام ، هيئة عليه هو أن لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل ، ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا ألطف من هذا الباب ، ولا أنفع وأعون على تعاطي تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى في القرآن وسائر الكتب السماوية وكلام الأنبياء ، فإن أكثره وعليته تخيلات قد زلت فيها الأقدام قديماً ، وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث والتنقيب حتى يعلموا أن في عداد العلوم الدقيقة علماً لو قدروه حق قدره لما خفي عليهم أن العلوم كلها مفقورة إليه ، وعيال عليه ، إذ لا يجل مقدما المورية ، ولا يفك قيودها المكربة ، إلا هو ، وكم آية من آيات التنزيل ، وحديث من أحاديث الرسول ، قد ضم وسم الخسف بالتأويلات الغثة والوجوه الرثة ، لأن من تأول ليس من هذا العلم في غير ولا غير ، ولا يعرف قبلاً منه عن دبير (١) .

وقد أطلق ابن السبكي على هذه الطريقة طريقة الاستعارة بالتحليل ، وقصر
المجاز في قول الزمخشري من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة
أو جهة مجاز بالمجاز المرسل ، ثم ذكر كلام الزمخشري الذي أجتناه مع ثوب من
التصرف ثم قال هذه بلفظ من كلام الزمخشري ذكرتها لحسنها (٩) .

ولا وجه لابن السبكي في تحديد المجاز في قول الزمخشري من غير ذهاب
بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة ، أو جهة مجاز - بالمجاز المرسل ، لأنه ليس
في كلام الزمخشري ما يشير إلى هذا التخصيص ، بل إن تخصيص المجاز هنا
بالمجاز المرسل بعد عن مراد الزمخشري ، لأن الذي يفهم من كلامه أنه في حال
التجاوز بالصورة المركبة لا توصف المفردات بالحقيقة أو المجاز مطلقا ، لأن
المفردات تصبح كأنها حروف في الكلمة المفردة ، وهذا أثر من آثار المزج بين
المفردات في الاستعارة المركبة ، فلا ينظر فيها إلى المفردات إلا من جهة مشاركتها
في تكوين الصورة .

المجاز المرسل :

لا أعرف أحداً ذكر هذا الاصطلاح لهذا اللون من التجوز قبل أبي يعقوب
يوسف السكاكي ، وإن كنت أعرف أن عبد القاهر فرق بين صوره وصور
الاستعارة وأطلق الاستعارة اللفظية غير المفيدة على ما كان التجوز فيه مبنياً على
علاقة التقييد والإطلاق ، كما أطلق المشفر على الشفة ، من غير نظر إلى تشبيهه ، ثم صن
بهذا الاسم على هذا التجوز كما ذكرنا ، وأسكر على ابن دويد ذكر قولهم وحينا
الغيث ، وتسميتهم الهودج والبحير ظمينة ، وغير ذلك مما ليس طريق نقله التشبيه
أسكر عليه ذكر هذا ونحوه ضرباً من ضروب الاستعارة ؛ وذكر أنه لم يراع
عرف القوم كغيره من اللغويين (١٠) .

أما الزمخشري فقد ذكر أنواعاً من العلاقات ، وفرق أيضاً بين صوره
وصور الاستعارة حيث يقول في قوله تعالى يا أيها الذين آمنوا إن كثيراً من

(١) ينظر مروس الأفراس ص ٣٥ وما بعدها ج ٤ ضمن شروح الغنيم .

(٢) ينظر أسرار البلاغة ص ٧٠ إلى ٧٩ ، ص ٣١٦ إلى ٣٢٥ .

الاحبار والرهبان ليا تكون أموال الناس بالباطل ، يقول معنى أكل الأموال
على وجهين إما أن يستعمار الأكل للأخذ ، ألا ترى إلى قولهم أخذوا الطعام وتناولوه ،
ولما على أن الأموال يؤكل بها فهي سبب الأكل ، ومنه قوله :
إن لنا أحرة عجافا يا كان كل ليلة إكافا

يريد هنا يشتري بضمن إكاف .

وتردد التجوز بين نوعين يعنى الفرق بينهما ، على أن الزمخشري ذكر صوراً
منه وسماها الاستعارة اللفظية كما فعل عبد القاهر ، وقد أشرنا إلى ذلك .

أما علاقات المجاز المرسل ، فقد ذكر الزمخشري منها :

٤ - علاقة السببية : أعنى إطلاق المسبب وإرادة السبب ، وإطلاق السبب
وإرادة المسبب ، أما إطلاق المسبب وإرادة السبب فقد ذكرها في مواطن كثيرة
منها قوله في قوله تعالى : ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، فإن قلت النسيان
والخطأ متجاوز عنهما فما معنى الدعاء بترك المؤاخذة بهما ؟ قلت ذكر
النسيان والخطأ والمراد بهما ما هما مسببان عنه من التفريط والإفحال ، ألا ترى
إلى قوله : وما ألسانيه إلا الشيطان ، والشيطان لا يقدر على فعل النسيان وإنما
يوسوس فتكون وسوسته سبباً للتفريط الذي منه للنسيان (١) .

ويقول في قوله تعالى : إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، إذا قمتم إلى
الصلاة كقولها فإذا قرأت القرآن فاستمعوا له ، وكقولك إذا ضربت فلانا فهو عليه
في أن المراد إرادة الفعل ، فإن قلت لم جاز أن يعبر عن إرادة الفعل بالفعل ؟ قلت
لأن الفعل يوجد بقدرة الفاعل عليه ، وإرادته له ، وهو قصد له إليه ، وميله ،
وخلوص دأبه ، كما عبر عن القدرة على الفعل بالفعل في قولهم الإنسان لا يطير ،
والأحمى لا يبصر ، أى لا يقدران على الطيران والإبصار ، ومنه قوله تعالى : وعداً
جلينا إنا كنا فاعلين ، يعنى إنا كنا قادرين على الإعادة ، كذلك عبر عن إرادة الفعل
بالفعل ، لأن الفعل مسبب عن القدرة ، والإرادة ، فأقم المسبب مقام السبب للملازمة
بينهما وإيجاز الكلام ، ونحوه من إقامة المسبب مقام السبب ، قولهم كما تدب تدان

(١) الكلام في ذلك

عبر عن الفعل المبتدأ الذي هو سبب الجزاء بانفاز الجزاء الذي هو مسبب
فيه (١).

وأما إطلاق السبب وإرادة المسبب ، فكقوله تعالى ذلك عيسى بن مريم
قول الحق ، ، يقول وإنما قيل لعيسى كلمة الله وقول الحق لأنه لم يولد إلا بكلمة
الله وحدها ، وهي قوله دكن من غير واسطة أب ، تسمية للسبب باسم السبب
كما سمي العشب بالسماء والشحم بالندى (٢)

ويقول الومحشرى وهم ينزلون كل واحد من السبب والمسبب منزلة الآخر
لالتباسهما واتصالهما (٣).

٢ - وقد ذكر منها إطلاق الكل وإرادة البعض :

يقول في قوله تعالى والنج أشهر ، فإن قلت كيف كان الشهران وبعض الثالث
أشهر آ ؟ .. وقيل نزل بعض الشهر منزلة كله ، كما يقال رأيتك سنة كذا أو على
هدى فلان (٤) ويذكر القيمة البلاغية لهذا التجوز أو لهذه العلاتة ، فيقول في
قوله تعالى د يحملون أصابعهم في آذانهم ، ، فإن قلت وأس الأصبع هو الذي
يحمل في الأذن فهلا قيل أنا ما هم ؟ قلت هذا من الاتساعات في اللغة التي لا يكاد
الخاصر يحصرها ، كقوله د فافسلوا وجوهكم وأيديكم ، د فانظروا أيديهما ، أراد
البعض الذي هو إلى المرفق ، والذي إلى الرسغ ، وأيضا ففي ذكر الأصابع من
المبالغة ما ليس في ذكر الأنامل (٥).

٣ - ويذكر إطلاق الجزء وإرادة الكل :

يقول في قوله تعالى د وفرآن الفجر ، صلاة الفجر ، سميت قرآنا وهي القراءة
لأنها ركن ، كما سميت ركوعا وسجودا وقنوتاً (٦).

ويقول في قوله تعالى د فمحرير رقبة ، والرقبة عبارة عن النسفة ، كما عبر

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٤٢

(٢) الكشاف ج ٢ ص ١٦

(٣) الكشاف ج ١ ص ٢٤٩

(٤) الكشاف ج ١ ص ١٥٢

(٥) الكشاف ج ١ ص ٦٤

(٦) الكشاف ج ٢ ص ٥٢٥

هنا بالرأس في قولهم فلان يملك كذا رأسا من الرقيق (١) .

٤ - ويذكر تسمية الشيء باعتبار ما كان عليه :

يقول في قوله تعالى : وآتوا اليتامى أموالهم ، فإن قلت فاعنى قوله وآتوا اليتامى أموالهم ، ؟ قلت إما أن يراد باليتامى الصغار ، وبإيتانهم للأموال ألا يطمع فيها الأولياء والأوصياء وولاية السوء وفضاته . . . وإما أن يراد الكبار تسمية لهم يتامى على القياس ، أو اقرب ههنا إذا بلغوا بالصغر ، كما لسمى الناقة عشراء بعد وحمها ، على أن فيه إشارة إلى أنه لا يؤخر دفع أموالهم إليهم من حد البلوغ ، ولا يطلوا إن أولس منهم الرشد ، وأن يؤتوها قبل أن يؤول ههنا اسم اليتامى (٢) .

٥ - ويذكر تسمية الشيء بما يؤول إليه :

يقول في قوله تعالى : إني أراي أعصر نخرا ، يعنى عنباً . تسمية للعنب بما يؤول إليه (٣) .

٦ - ويذكر تسمية الشيء بما يجاوره :

يقول في قوله تعالى : قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة ، حتى ضاية لئكذبوا لا خسروا ، لأن خسروا نام لا ضاية له أى ما زال بهم التكذيب إلى خسرتهم وقت مجيء الساعة . فإن قلت أما يتحصرون عندهم وهم ؟ قلت لما كان الموت وقوعها في أحوال الآخرة ومقدماتها جعل من جنس الساعة وسمى باسمها . ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من مات فقد قامت قيامته (٤) .

٧ - ويذكر تسمية الشيء باسم آله :

يقول في قوله تعالى : وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم .

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٢٦

(٢) الكشاف ج ١ ص ٣٥٧

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٣٦٥

(٤) الكشاف ج ٢ ص ١٢

قدم صدق عند ربهم أى سابقة ، وفضلا ، ومنزلة رفيعة ، فإن قلت لم سميت السابقة قدما ؟ قلت لما كان السعى والسبق بالقدم سميت المسعاة الجميلة والسابقة قدما ، كما سميت النعمة يداً لأنها تعطى باليد ، وباعا لأن صاحبها يبيع بها ، فقول فلان قدم في الخير (١) .

ويقول في قوله تعالى « وجعلنا لهم لسان صدق » لسان الصدق الثناء الحسن وعبر باللسان عما يوجد باللسان ، كما عبر باليد عما يطلق باليد وهي العلية ، قال : إن أتنق لسان لا أسر بها .

يريد الرسالة ، ولسان العرب لغتهم وكلامهم (٢) .

٨ - ويذكر تسمية الشيء بأسم محله :

يقول في قوله تعالى « إن كان كبر عليك مقامى .. »

مقامى مكانى يعنى نفسه ، كما تقول فعلت كذا لمكان فلان ، وفلان ثقيل

الظل ، ومنه وإن خاف مقام ربه بمعنى خاف ربه (٣) .

وهذه العلاقات التي ذكرها أنواع وأمثلة لعلاقة كبرى هي علاقة الملابس بين المعنيين ، وقد يكتفى في بيان وجه التجوز بذكر الملابس من غير أن يبين نوعها .

يقول في قوله تعالى « ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم » أى حائراً لما حلقتم عليه ، وسمى المحلوف عليه يمينا لتلبسه باليمين ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الله ابن سحرة إذا حلفت هل يمين فرايت غيرها خيراً منها فأت الذي هو خير ، وكفى عن يمينك ، أى هل شئ مما يحلف عليه (٤) .

ويقول في قوله تعالى « ما يأكلون في بطونهم إلا النار » :

لأنه إذا أكل ما يتلبس بالنار لكونها عقوبة له فكأنه أكل النار ، ومنه قولهم أكل فلان الدم إذا أكل الدية التي هي بدل منه ، أكل دما أن لم أرعك بضرة :

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٧٥

(٢) الكشاف ج ٢ ص ١٦

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٢٨١

(٤) الكشاف ج

وقال : يا كان كل ليلة إكافا .

أراد من الإكاف ، فسماه إكافا لتلبسه بكونه ثمنا له (١) .

وعلاقة الملابس هذه تنسج لكثير من الصور ، ولهذا لا نستطيع أن نقول إنه حصر علاقات الجواز المرسل فيما ذكر .

وقد ذكر الأستاذ الفاضل الدكتور شوقي ضيف أن الزمخشري أضاف إلى علاقات الجواز المرسل تسمية الجزء باسم الكل ، واعتبار ما كان ، واعتبار ما يؤول إليه الشيء (٢) . والواقع أن هذه العلاقات المذكورة ومفصلة في كتاب لأبي حامد الغزالي كتبه في أصول الفقه ، وأطلع عليه ابن الأثير ، ونقلها منه وناقشها . فقد ذكر الغزالي تسمية الشيء بما يؤول إليه ، وذكر الآية المشهورة : إني أراي أعصر خمرًا ، وتسمية الشيء باسم أصله كقولهم الأدمى مضغة ، وتسمية الشيء بكلمة (٣) .

وإذا كان أبو حامد الغزالي قد توفى في سنة ٥٠٥ هـ والإمام الزمخشري قد فرغ من تفسيره في سنة ٥٢٨ هـ فالأرجح فيما أراه أن الثاني قد أفاد من الأول ، ولا يصح أن نعتبر هذا من إضافاته .

الجواز الحكيم :

ويبحث الجواز الحكيم في تفسير الكشاف من أهم البحوث البلاغية التي هي بها الزمخشري ، لأن الأمر في إسناد الأفعال يتصل اتصالاً قوياً بقضايا هامة وخلافية في شئون العقيدة .

وإذا كان المعتزلة يرون أن إسناد الأفعال الفييحة إلى الله سبحانه أمر قاذح في التنزيه ، وإذا كان القرآن يذكر في كثير من آياته إسناد هذه الأفعال إلى الله سبحانه ، كان لا مناص من وقوف الزمخشري عند هذه الآيات وبيان وجه التجوز فيها .

(١) ٥٢٢ راجع في تفسيره

(٢) ٥٢٢ راجع في تفسيره

(٣) ٥٢٢ راجع في تفسيره

(٤) ٥٢٢ راجع في تفسيره

(١) الكشاف ج ١ ص ١٦٤ .

(٢) انظر البلاغة تطور وتاريخ ٢٦٢ .

(٣) انظر المثل السائر ج ٢ ص ٨٨ إلى ٩٣ .

ومن أم ما ذكره في هذا الباب قوله في قوله تعالى : ختم الله على قلوبهم . .
يقول الزمخشري ويحوز أن يستعار الإسناد في نفسه من غير الله الله فيكون
الختم مستنداً إلى اسم الله على سبيل المجاز ، وهو لغيره حقيقة ، تفسير هذا أن الفعل
ملايسات شق ، يلابس الفاعل ، والمفعول به ، والمصدر ، والزمان ، والمكان
والسبب ، فإسناده إلى الفاعل حقيقة ، وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق المجاز
المسمى استعارة ، وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملايسة الفعل كما يضاهاه الرجل
الأسد في جراته فيستعار إليه اسمه ، فيقال في المفعول به عيشة واضحة ، وماء
دافق ، وفي عكسه سيل مغمم وفي المصدر شعر شاعر ، وذيل فائل ، وفي الزمان
نهاره صائم ، وليله قائم ، وفي المكان طريق سائر ونهر جار ، وأهل مكة يقولون
صلى المقام وفي المسبب بنى الأمير المدينة ، وناقة ضبوث وحلوب وقال :
إذا ردد عافى القدر من يستعيرها .

فالشيطان هو الخاتم في الحقيقة أو الكافر إلا أن الله سبحانه لما كان هو الذي
أقدره ومكنه أسند إليه الختم كما يسند الفعل إلى السبب (١) .
ومن الواضح أن هذا النص لدقته وضبطه أفاد كثيراً من البلاغيين ، فنقلوه
في هذا الباب كما ذكره الزمخشري ، وعليه بنى مذهب الخطيب في تعريف المجاز
العقلى ، وبين يدي الآن كتاب الإيضاح ويدور درس المجاز العقلى فيه حول
هذا النص (٢) .

ونلاحظ هنا أن الزمخشري يقول في هذا المجاز ، إنه إسناد على طريق
المجاز المسمى استعارة ، وهو يعنى بهذا استعارة الإسناد بما هو له إلى غير
ما هو له ، وليس هذا خلطاً بين هذا المجاز والمجاز القوى إذ أننا سوف نرى له
نصوصاً واضحة في التفريق بينهما .

كما أننا نلاحظ هنا أن الزمخشري يجعل العلاقة بين الفاعل المجازى والفاعل
الحقيقى ، ويشير إلى أنها المشابهة في ملايسة الفعل .

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٩ ، ٤٠ ،
(٢) ينظر بشية الإيضاح ج ١ ص ٥٦

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٩ ، ٤٠ ،
(٢) ينظر بشية الإيضاح ج ١ ص ٥٦

وقد ذكر الزمخشري في هذا النص أنواعا من الملابس ، وقد وثق الخطيب عندهما كما قلنا ، وكذلك أكثر المتأخرين ولا زال السكاكيتون في المجاز العقلي من المعاصرين يقف أكثرهم عند هذه الملابس لا يتعداها ، ولكن الزمخشري الذي تأثروا به في هذا يعود فيذكر أنواعا كثيرة من الملابس .

من ذلك إسناد الفعل إلى الجنس كله وهو في الحقيقة مسند إلى بعضه ، يقول في قوله تعالى : ويقول الإنسان إننا نأمر أن يخرج حيا ، يشمل أن يراد بالإنسان الجنس بأسره ، وأن يراد ببعض الجنس ، وهم الكفرة ، فإن قلت لم جاز إرادة الأناص كلهم ، وكلام غير قائلين ذلك ؟ قلت لما كانت هذه المقالة موجودة فيمن هو من جنسهم صح إسناده إلى جميعهم كما يقولون بنو فلان قتلوا فلانا ، وإنما القاتل رجل منهم ، قال الفرزدق :

فسيف بن عبيس وقد ضربوا به نبا بيدي ورقاء عن رأس غارب
فقد أسند الضرب إلى بني عبيس مع قوله نبا بيدي ورقاء (١) .

ويقول في قوله تعالى : فمقرروا الناقة ، يقول أسند المقر إلى جميعهم لأنه كان يرخصهم وإن لم يباشره إلا بعضهم ، وقد يقال للقبيلة الضخمة أنتم فعلتم كذا ، وما فعله إلا واحد منهم (٢) .

ويقول في قوله تعالى : واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم حجلا ،

فإن قلت لم قيل واتخذ قوم موسى حجلا والمتخذ هو السامري ؟ قلت فيه وجهان أحدهما أن ينسب الفعل إليهم لأن رجلا منهم باشره ووجد فيما بين ظهرانيهم ، كما يقال بنو فلان قالوا كذا والفاعل واحد ، ولأنهم كانوا يريدون اتخاذه ، راضين به ، وكانهم أجمعوا عليه (٣) .

وقد يستند الفعل إلى الجارحة التي هي آله :

يقول في قوله تعالى : فإنه آثم قلبه ، فإن قلت هلا اقتصر على قوله آثم ؟ وما فائدة ذكر القلب والجملة هي الآثمة لا القلب وحده ؟ قلت كتمان الشهادة

(١) السكاه ج ٣ ص ٤٤ .

(٢) السكاه ج ٤ ص ٩٧ .

(٣) السكاه ج ٤ ص ١٧٥ .

هو أن يضمهما ولا يتكلم بها ، فلما كان إنما مقترفا بالقلب أسند إليه لأن
إسناد الفعل إلى الجارحة التي يعمل بها أبلغ ، ألا تراك تقول إذا أردت التوكيد :
هذا بما أبصرتة عيني ، وبما سمعته أذني ، وبما عرفه قلبي (١) .

وقد يسند الفعل إلى ماله مزيد اختصاص وقرب بالفاعل الحقيقي .

يقول في قوله تعالى : إلا امرأته قدرنا إنها لمن الغابرين . فإن قلت لم أسند
الملائكة فعل التقدير وهو لله وحده إلى أنفسهم ولم يقولوا قدره الله ؟ قلت لما لهم
من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم ، كما يقول خاصة الملائكة
ديرتنا كذا ، وأمرتنا بكذا ، والمدبر والامر هو الملك لام ، وإنما يظهرون
بذلك اختصاصهم ، وأنهم لا يتميزون عنه (٢) .

ويقول في قوله تعالى : وما جعلنا القبلة التي كنت عليها إلا لنعلم من يتبع
الرسول ، وقيل معناه يعلم رسول الله والمؤمنون وإنما أسند عليهم إلى ذاته
لأنهم خواصه وأهل الزاقي عنده (٣) .

ويشير إلى أن الإسناد في هذا المجاز الحكيم يكتفي فيه بنوع من الملابس .
يقول في قوله تعالى : إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زيننا لهم أعمالهم ، فإن
قلت كيف أسند تزيين أعمالهم إلى ذاته ، وقد أسنده إلى الشيطان في قوله وزين
لهم الشيطان أعمالهم ، قلت بين الإسنادين فرق ، وذلك أن إسناده إلى الشيطان
حقيقة ، وإسناده إلى الله عز وجل مجاز وله طريقان في علم البيان ، أحدهما أن
يكون من المجاز الذي يسمى استعارة ، والثاني أن يكون من المجاز الحكيم ،
فالطريق الأول . . . والطريق الثاني أن إمهاله الشيطان ، وتخيلته حتى يزين لهم
ملاسة ظاهرة للتزيين ، فأسند إليه ، لأن المجاز الحكيم يصححه بعض
الملابس (٤) .

ويشير إلى التجوز في وقوع الفعل على غير مفعوله الحقيقي ، وذلك

(١) الكشاف ج ١ ص ٢٥٢

(٢) الكشاف ج ٦ ص ٤٥٤

(٣) الكشاف ج ١ ص ١٥٠

(٤) الكشاف ج ٣ ص ٢٧٤

لملاقة بين المفعول به الحقيقي والمفعول به المجازي ، يقول في قوله تعالى
« وآتوهن أجورهن » .

فإن قلت الموالى هم ملاك مهورهن لانهن ، والواجب أدائها إليهم
لا إليهن ، فلم قيل وآتوهن ؟ قلت لأنهن وما في أيديهن مال الموالى ، فكان
أدائها إليهن أداء إلى الموالى (١) .

ويقول في قوله تعالى « ولا تطيعوا أمر المسرفين » ، أستعير لامتنال الأمر
وارتسامه طاعة الأمر المطاع ، أو جعل الأمر مطاعاً على المجاز الحكيم والمراد ،
الأمر ، ومنه قولهم لك على امرأة مطاعة ، وقوله تعالى « وأطيعوا أمرى » (٢) .
وقد أشار إلى التجوز في النسب الإضافية .

يقول في قوله تعالى « يا صاحبي السجن » يريد يا صاحبي في السجن فأضافها
إلى السجن كما تقول يا سارق الليلة ، فكما أن الليلة غير مسروقة فكذلك السجن
مصحوب فيه غير مصحوب ، وإنما المصحوب غيره ، وهو يوسف عليه السلام ،
ونحوه قولك لصاحبك يا صاحبي الصدق ، فتضيفهما إلى الصدق ، ولا تريد أنهما
صحباً الصدق ، ولكن كما تقول رجلاً صدق (٣) . ويشير إلى أن من المجاز
الحكيم وصف الشيء بوصف محدثه . يقول في قوله تعالى « تلك آيات الكتاب
الحكيم ، ذو الحكمة لا شماله عليها ، ونطقه بها ، أو وصف بصفة محدثه ، قال
الأهشي :

وخرية تأتي الملوك حكيمة قد قلنا ليقال من ذا قالها (٤)

ومنه إسناد ما في معنى الفعل إلى ما يتصل به بواسطة ، كقوله تعالى « في
ضلال بعيد » يقول فإن قلت فما معنى وصف الضلال بالبعد ؟ قلت هو من الإسناد
المجازي ، والبعد في الحقيقة للضال لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق ، فوصف به
فعله كما تقول جده (٥) .

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٨٢

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٥٨

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٣٦٧

(٤) الكشاف ج ٢ ص ٢٥٦

(٥) الكشاف ج ٢ ص ٤١٩

وهذا والذي قبله لا يتناول تعريف المجاز العقل عند الخطيب وكذلك التجوز في النسبة بين المبتدأ والخبر ، كما في قوله تعالى : **واكن البر من آمن** ، يقول الزمخشري ولكن البر من آمن هل تأويل حذف المضاف أي بر من آمن ، أو بتأويل البر بمعنى ذى البر ، أو كما قالت فإنما هي إقبال وإدبار (١) .

ويشرح كثيرا من الصور في ضوء العلاقات التي ذكرها في آية ختم الله على قلوبهم . فيذكر الإسناد إلى السبب في قوله تعالى : **وأخى هرون هو أفصح** مني لسانا فأرسله معي ردئا يصدقني ، فأسند التصديق إلى هرون لأنه السبب فيه إسنادا مجازيا ، ومعنى الإسناد المجازي أن التصديق حقيقة في المصدق فإسناده إليه حقيقة ، وليس في السبب تصديق ، ولكن استعير له الإسناد لأنه لا يس التصديق بالتسبب ، كما لا يسه الفاعل بالمباشرة (٢) .

ويذكر الإسناد إلى الزمان . يقول في قوله تعالى : **وإن خفتم شقاق بينهما** ، أصله شقاقا بينهما فأضيف الشقاق إلى الظرف على طريق الاتساع كقوله : **بل مكر الليل والنهار** ، وأصله بل مكر في الليل والنهار ، أو على أنه جعل بين شاقه والليل والنهار ما كرين ، على قولهم نهارك صائم (٣) . ويقول في قوله تعالى : **وفي يوم عاصف** ، جعل العاصف لليوم وهو لما فيه وهو الريح أو الرياح كقولك يوم ماطر ، ويلة ساكرة ، وإنما السكور لريحها (٤) .

ويذكر الإسناد إلى المكان ... يقول في قوله تعالى **وجنات تجري من تحتها الأنهار** ، وإسناد الجرى إلى الأنهار من الإسناد المجازي ، كقولهم بنو فلان يطؤم الطريق ، وصيد عليه يومان (٥) .

ويشير إلى القيمة البلاغية إلى هذا النوع من الإسناد ، وإلى أن مرجع الحسن فيه هو تخييل أن المكان يقع منه الحدث ، وفيه من المبالغة وقوة التأثير ما ليس في غيره .

(٢) الكشاف ج٤ ص ٣٧٧

(٤) الكشاف ج٧ ص ٦٤٦

(١) الكشاف ج١ ص ١٦٣

(٣) الكشاف ج١ ص ٣٩٢

(٥) الكشاف ج١ ص ٨٠

يقول في قوله تعالى ، تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً .
تفيض من الدمع كقولك تفيض دمعاً ، وهو أبلغ من يفيض دمعها ، لأن
العين جمعت كأن كلها دمع فائض (١) .
ويذكر الإسناد إلى المصدر .

يقول في قوله تعالى ، صفراء فاقع لونها ، ، فإن قلت فهلا قيل صفراء فاقعة ؟
وأى فائدة في ذكر اللون ؟ قلت الفائدة فيه التوكيد ، لأن اللون اسم للهيئة ،
وهي الصفرة فكانه قيل شديدة الصفرة صفرتها ، فهو من قولك جدد جده
وجنونك مجنون (٢) .

وأشار الزمخشري إلى أن هذا التجوز لا بد له من قرينة دالة عليه ومصححة
لإرادته ، يقول في قوله تعالى ، فما رحمت تجارتهم ، ، فإن قلت هل يصح ربح
هبتك ، وخسرت جارتك ، على الإسناد المجازي : قلت نعم إذا دلت الحال ،
وكذلك الشرط في صحة رأيت أسداً ، وإنما تريد المقدم إن لم تقم حال دالة لم
يصح (٣) .

ويبدل كلام الزمخشري في كثير من المواطن على أن الملابس تكون بين الفاعل
الحقيقي والفاعل المجازي ، من ذلك قوله وقد يسند إلى هذه الأشياء على طريق
المجاز المسمى استعارة ، وذلك لمضاهاتها للفاعل في ملابس الفعل (٤) . وقوله في
تعريف المجاز وهو أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له (٥) .

ويبدل أيضاً في كثير من المواطن على أن الملابس تكون بين الفاعل المجازي
وما أسند إليه من فعل أو غيره ، من ذلك قوله أسند التصديق إلى هرون لأنه
السبب فيه . . . وليس في السبب تصديق ، ولكن استعير له الإسناد ، لأنه
لا يس التصديق بالسبب كما لا يسه الفاعل بالمباشرة (٦) . وقوله إن إعماله

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٢٦ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ١١٢ .

(٣) الكشاف ج ١ ص ٥٣ .

(٤) الكشاف ج ١ ص ٤١ .

(٥) الكشاف ج ١ ص ٩٣ .

(٦) الكشاف ج ٢ ص ٢٢٢ .

الشیطان وتخلیته حتى یزین لهم ملبسة ظاهرة للتزيین ، فأسند إليه لأن المجاز الحکمی یصححه بعض الملبسات (١) وقوله وللفاعل ملبسات حتى یلبس الفاعل والمفعول به ، والزمان ، والمكان ، إلى آخر ما ذكرنا .

لذلك لا نستطيع أن نحصر كلامه فی إحدى هاتین الملبستین دون الأخری ، ونرى أن العلامة سعد الدين لم یصب كل الحق حين ذهب إلى أن المعتبر عند صاحب الكشف تلبس ما أسند إليه الفعل بفاعله الحقيقي (٢) . وذلك لانتا رأينا صاحب الكشف یعتبر الملبسة بین ما أسند إليه الفعل أى الفاعل المجازى ، وفاعله الحقيقي ، و بین ما أسند إليه الفعل والفعل نفسه أى بین الفاعل المجازى وما أسند إليه من فعل أو غيره . فكلام سعد الدين فيه نصف الحقيقة .

وأستطيع أن أقول إن ما ذهب إليه عبد القاهر فی تعريف المجاز الحکمی وأنه كل جملة أخرجت الحکم المفاد بها عن موضوعه فی العقل لضرب من التأويل (٣) هو ما يفهم من كلام الزمخشري فی هذا الباب ، حيث جعل مكان التجوز هو الإسناد ، وهو يستلزم مسنداً إليه ومستنداً ، ثم لم یخصه بإسناد الفعل كما رأينا ، وهو تعريف السكاکی الذى أنكره الخطيب وأن السكاکی كان أكثر فهماً فی تلخیص كلام الأصحاب .

وأما قول الزمخشري فی تعريفه هو أن یسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذى هو فی الحقيقة له ، والذى تأثر به الخطيب ، فليس تعريفاً جامعاً لكل صور المجاز العقلی كما يتصوره الزمخشري نفسه ، لما قدمناه ولا اعتراض عليه فی هذا ، فإنه كان يذكر من أصول البلاغة فی كل موقف ما يقتضيه هذا الموقف ، فإذا كان تفسير إسناد الربح إلى التجارة لا یحتاج إلى أكثر من هذا الذى ذكره اكتفى به ، ولذلك يقع الباحث فی الخطأ إذا توهم أن كلامه فی موطن واحد یوضح رأیه فی مسألة بلاغية مهما أسهب فی هذا الموطن .

(١) السكشاف ج ٢ ص ٢٧٤

(٢) المطول ص ٥٨

(٣) أسرار البلاغة ص ٩٠

قلت إن الزمخشري يفرق بين المجاز اللفوي والمجاز العقلي . ولذلك يردد صورة التركيب بين المجازين ، يقول في قوله تعالى : إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قطريراً ، . ووصف اليوم بالعبوس مجاز على طريقين أن يوصف بصفة أهله من الأشقياء كقولهم نهارك صائم ... وأن يشبهه في شدته وضرره بالأسد العبوس ، أو بالشجاع الباسل (١) .

وبقول في قوله تعالى : إن الذين لا يؤمنون بالآخرة زينا لهم أعمالهم ، .

فإن قلت كيف أسند تزوين أعمالهم إلى ذاته وقد أسنده إلى الشيطان في قوله : وزين لهم الشيطان أعمالهم ، ، قلت بين الإسنادين فرق ، وذلك أن إسناده إلى الشيطان حقيقة ، وإسناده إلى الله عز وجل مجاز ، وله طريقان في علم البيان أحدهما أن يكون من المجاز الذي يسمى الاستعارة ، والثاني أن يكون من المجاز الحكيم (٢) .

ولا يبعد أن تكون صحة الوجهين في هذه الصور المهمة أبا يعقوب السكاكي اختيار التجوز اللفوي على التجوز في الإسناد ، وقد جعله من الاستعارة المكنية التي رأينا الزمخشري يحال المثال الأول تحليلاً يشير إليها ، حيث يشبه اليوم بالأسد العبوس ، أو بالشجاع الباسل ثم نرى المذكور وصف الأسد أو الشجاع .

يقول السكاكي بعد تفصيل القول في المجاز الحكيم (هذا كله تقرير للكلام في هذا الفصل بحسب رأى الأصحاب من تقسيم المجاز إلى لفظي وعقلي . وإلا فالذي هندی هو نظم هذا النوع في سلك الاستعارة بالكناية . يجعل الربيع استعارة بالكناية عن الفاعل الحقيقي بواسطة المبالغة في التشبيه هل ما عليه عني الاستعارة كما عرفت ، وجعل نسبة الإنبات إليه قرينة الاستعارة بالكناية (٣) .

(١) الكشاف ج ٤ ص ٤٣٤

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٢٧٤

(٣) مفتاح العلوم ص ٢١٢

وقد رأينا الزمخشري يذكر ما لهذا المجاز من قيمة أدبية .

يقول في قوله تعالى : ناصية كاذبة خاطئة ، ووصفها بالكذب والخطأ على الإسناد المجازي ، وهو في الحقيقة لصاحبها وفيه من الحسن والجزالة ما ليس في قولك ناصية كاذب خاطئ (١) .

ويذكر فائدة أخرى أوحى بها رأيه الاعتزالي في نسبة الفعل غير الحسن إلى الله سبحانه يقول في قوله تعالى : وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله وجعلنا للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم كأنهم مجبولون عليه (٢) .

ويقول في قوله تعالى : كذلك سلكناهن قلوب المجرمين ، فإن قلت كيف أسند السلك بصفة التكذيب إلى ذاته ؟ قلت أراد به الدلالة على تمكنه مكتنباً في قلوبهم أشد التمكن وأثبتة فجعله بمنزلة أمر قد جبلوا عليه ، وفطروا ، ألا ترى إلى قوامهم هو مجبول على الشح ، يريدون تمكن الشح فيه ، لأن الأمور الخلقية أثبت على المعارضة ، والدليل عليه أنه أسند ترك الإيمان به إليهم على عقبه ، وهو قوله : لا يؤمنون (٣) .

وفي نهاية بحث المجاز بجميع أنواعه يهدر أن نشير إلى مسألتين :

المسألة الأولى بحث المجاز عن المجاز ، فقد كان الزمخشري أول من أشار إلى هذا التركيب في التجوز . وهذا راجع إلى ما يقوله في شيوخ المجاز أو السكناية حتى يكون الأسلوب كأنه حقيقة ، يقول في قوله تعالى : وإنكم لتأتوننا من اليمن . . . استعير لجهة الخير وجاوبه ، فقبل آناه عن اليمن أي من قبل الخير وناحيته ، فصدده عنه وأضله . . . فإن قلت قولهم آناه من جهة الخير وناحيته ، مجاز في نفسه فكيف جعلت اليمن مجازاً عن المجاز ؟ قلت من المجاز ما غلب في الاستعمال حتى ألحق بالحقائق ، وهذا من ذلك (٤) .

(١) الكشف ج٤ ص ٦٢٠

(٢) الكشف ج٢ ص ١٠

(٣) الكشف ج٢ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦

(٤) الكشف ج٤ ص ٣٩

والمسألة الثانية أن أئمة المعتزلة قد ذهبوا إلى جواز الجمع بين الحقيقة والجاز كما ذهب إلى هذا غيرهم من أئمة الفقه ، واللغة ، كالإمام الشافعي ، والغزالي .
وأبي الحسين ، وغيرهم كثير كما ذكر العلامة السبكي (١) ، أما الزمخشري فقد ذهب إلى ما يخالف هؤلاء جميعاً ورفض أن يكون اللفظ دالاً على معنيين حقيقين ويجازى في حال واحدة .

يقول في قوله تعالى : ألم تر أن الله يسجد له من في السموات ومن في الأرض ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، والجبال ، والشجر ، والدواب ، وكثير من الناس ، سميت مطاوعتها له فيما يحدث فيها من أفعاله ، ويجريها عليه من تدبيره وتسخيره لها سجوداً له ، تشبيهاً لمطاوعتها بإدخال أفعال المكاف في باب الطاعة والانقياد ، وهو للسجود الذي كل خضوع دونه . فإن قلت فما تصنع بقوله وكثير من الناس ، وبما فيه من الاعتراض ، أحدهما أن السجود على المعنى الذي فغيرته به لا يسجده بعض الناس دون بعض ، والثاني أن السجود قد أسند على سهول العموم إلى من في الأرض من الإنس والجن أولاً ، فإسناده إلى كثير منهم آخراً منافضة ؟ قلت لا أنظم كثيراً في المفردات المتناسقة الداخلة تحت حكم الفعل ، وإنما أرفعه بفعل مضمحل يدل عليه قوله يسجد ، أي يسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ، ولم أقل أفسر يسجد الذي هو ظاهر بمعنى الطاعة والعبادة في حق هؤلاء ، لأن اللفظ الواحد لا يصح استعماله في حالة واحدة على معنيين مختلفين (٢) ويقول في موضع آخر وإرادة المتكلم بعبارة واحدة حقيقة ويجازى غير صحيحة (٣) .

الكناية :

ذكر الزمخشري الكناية بمعناها الاصطلاحية ، وأشار إلى فائدتها وقيمتها الأدبية ، وذكر أقسامها الثلاثة المشهورة ، وفرق بينها وبين التعريض ، وذكر

(١) شرح الطخيس (شرح السبكي) ج ٤ ص ٢٣٩

(٢) الكشاف ج ٣ ص ١١٤

(٣) الكشاف ج ٣ ص ٢٩٥

الكناية في المفرد ، ومن أوضح ما يتميز به بحث الكناية في الكشف أنه أول من أثار موضوع ضرورة إمكان المعنى الحقيقي في طريقة الكناية ، وأول من ذكر المجاز عن الكناية ، وأول من فرق بين الكناية والتعريض تفرقةً علياً دقيقاً .

يقول الزمخشري في بيان طريقة الكناية وأنها شعبية من شعب البلاغة وأن قائمتها الإيجاز ، يقول في قوله تعالى : فإن لم تعملوا ولن تعملوا فاتقوا النار ، فإن قلت ما معنى اشتراطه في اتقاء النار إتيانهم بسورة من مثله ؟ قلت إنهم إذا لم يأتوا بها وتبين عجزهم عن المعارضة صح عندهم صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا صح عندهم صدقه ثم لزمو العناد ، ولم ينقادوا ولم يشايعوا استوجبوا العقاب بالنار ، ف قيل لهم إن استبقتم العجز فانركوا العناد ، فوضع فاتقوا النار موضعه لأن اتقاء العناد لصيقه وضميمة ترك العناد ، من حيث إنه من نتائجه لأن من اتقى النار ترك المعاندة ، ونظيره أن يقول الملك لحشمه إن أردتم الكرامة عندي فاحذروا سخطى ، يريد فأطيعوني واتبعوا أمرى وافعلوا ما هو نتيجة حذر السخط ، وهو من باب الكناية التي هي شعبية من شعب البلاغة ، وقائده الإيجاز الذي هو من حلية القرآن ، وبتهويل شأن العناد بإتابة اتقاء النار منابه ، وإبرازه في صورته ، مستتباً ذلك بتهويل صفة النار وتفضيح أمرها (١) .

وهذا الكلام يفيد أن الانتقال في الكناية من المألوم إلى اللازم ، لأن اتقاء النار هو المذكور والمراد به ترك المعاندة ، وترك المعاندة لازم لاتقاء النار .

ويقول في قوله تعالى : كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم . فإن قلت قد تبين أمر الهمزة وأنها لإنكار الفعل ، والإيدان باستحاثته في نفسه ، أو لقوة المصارف عنه ، فما تقول في كيف حيث كان إنكاراً للحال التي يقع عليها كفرهم ؟ قلت حال الشيء تابعة لذاته ، فإذا امتنع ثبوت الذات تبعه امتناع ثبوت الحال ، فكان إنكار حال المكفر لأنها تتبع ذات الكفر ، ورد فيها إنكاراً لذات الكفر وثباتها على طريق الكناية ، وذلك أقوى لإنكار المكفر ، وأبلغ ، وتحريره أنه إذا أنكر أن يكون لكفرهم حال يوجد عليها ، وقد علم أن كل موجود لا يبتك من حال

وصفة عند وجوده ، ومحال أن يوجد بغير صفة من الصفات ، كان إنكاراً لوجوده
هل الطريق البرهاني (١) .

وهذا واضح في أن الانتقال من اللازم إلى الملزوم ، وبذلك نطمئن إلى أنه
لا يحدد الانتقال في الكتابة بطريق دون آخر (٢) .

ويشير الزمخشري إلى أن المذكور وإن لم يكن هو المقصود بالإثبات والنتي
سواء كان لازماً أو ملزوماً فإنه ملحوظ في الإفادة ، وأنه يجعل التصوير أقوى
دلالة وأكثر إيماء ، فقوله تعالى : لن تقبل توبتهم ، في حق الذين كفروا بعد إيمانهم
ثم ازدادوا كفراً لا يراد به نفي قبول التوبة لو وجدت منهم ، كما هو ظاهر
العبارة ، وإنما يراد به أنهم ما تون على الكفر وأنهم لن يتوبوا فإن تقبل
توبتهم ، وإنما جاء على هذه الطريقة ، أهي أن كفى عن الموت على الكفر بامتناع
قبول التوبة ، لأن الفائدة فيها جليلة ، وهي التغايب في شأن أولئك الفريق من
الكفار ، وإبراز حالهم في صورة حالة الآيسين من الرحمة التي هي أغاظ الأحوال ،
وأشدها ، ألا ترى أن الموت على الكفر إنما يخاف من أجل اليأس من الرحمة (٣) .

وقوله تعالى : فضرب الرقاب ، وإن كان المراد به القتل وأن ضرب بهم
رقبته من المقاتل فإن في هذه العبارة من الغلظة والشدة ما ليس في لفظ القتل ،
لما فيه من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حن العنق ، وإطارة العضو الذي هو
رأس البدن ، وعلوه ، وأرجه أعضائه ، ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله :
فاضربوا فوق الأفتاق واضربوا منهم كل بنان ، (٤) .

ويشير الزمخشري إلى أن الرادف أو المسكن به يوضع موضع المردوف أو
المسكن عنه .

يقول في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتنا غير بيوتكم حتى
تستأسوا ، ... تستأسوا فيه وجهان : أحدهما أنه من الاستئناس الظاهر الذي

(١) الكشاف ج ١ ص ٩١

(٢) ينظر حاشية السيد الشريف ج ١ ص ١٩٢ ومخطوطة ورقة ١٧٧

(٣) الكشاف ج ١ ص ٢٩٣

(٤) الكشاف ج ٥ ص ٢٥١

هو خلاف الاستيعاش ، لأن الذى يطرق باب غيره لا يدري أيؤذن له أم لا ؟ فهو كالمستوحش من خفاء الحال عليه ، فإذا أذن له استأس ، فالعنى حتى يؤذن لكم ، كقوله لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم ، وهذا من باب الكناية والإرداف لأن هذا النوع من الاستئناس يردف الإذن فوضع موضع الإذن (١)

ولست أدري ماذا يراد بهذا الوضع ، هل هو كوضع السبب موضع السبب فيكون مستعملا فيها وحينئذ لا نجد فرقا بين طريقة الكناية وطريقة المجاز في أن في كل استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، وإن اختلفا بعد ذلك في استعانة إرادة المعنى الأصلي في المجاز وجوازه في الكناية ، أم أن هذا من التسامح في العبارة وأن المكتفى به مستعمل في معناه لينقل الذهن إلى المكتفى عنه كافر وكثير من البلاغيين ، وتكون الكناية من قبيل الحقيقة ؟ والحق أن هذا البحث وإن كان ذا أهمية كبيرة في نظر المدققين ، إلا أن الزعشرى لم يدل فيه بدلو ، ولا أستطيع أن أحدد له فيه رأيا لاني إذا اهتمدت على هذا النص وقلت إن اللفظ في الكتابة موضوع موضع مردوفه ، أو رادفه للمناسبة بينهما ، فهي كالمجاز من حيث استعمال اللفظ في غير ما وضع له ، وجدته يقرر في موضع آخر أن الكلمات في الكناية مستعملة في معانيها الحقيقية .

وما هو كالصريح في استعمال الفاظ الكتابة في معانيها الحقيقية لينقل منه الذهن إلى غيره ، قوله في قوله تعالى وإنما يعمر مساجد الله ، يقول وأما القراءة بالجمع ففيها وجهان ، أحدهما أن يراد المسجد الحرام ... والثاني أن يراد جنس المساجد ، وإذا لم يصلحوا لأن يعمروا جنسها دخل تحت ذلك ألا يعمروا المسجد الحرام الذى هو صدر الجنس ومقدمته ، وهو أكد ، لأن طريقته طريقة الكناية كما لو قلت فلان لا يقرأ كتب الله ، كنت أنى لقراءته القرآن من نصريحك بذلك (٢) ، وهذا النص كما قلت كالصريح في أن الكناية مستعملة في معانيها الحقيقية ، وأن المعنى الكنائى يفهم منه بطريق اللزوم ، فإذا كان الاستئناس

(١) الكشاف ج ٢ ص ١٢٥

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٤٩٥

هناك وضع موضع الإذن فالمساجد هنا لم توضع موضع المسجد الحرام ، وإنما استعملت في جنس المساجد كما هي دلالة الجمع ، وفهم المعنى السكتاني بطريق اللزوم .

وقد أشار الزمخشري إلى الكناية عن النسبة وبين أنها أبلغ من الدلالة الصريحة . يقول في قوله تعالى « أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً » جعلت الشرارة للكان وهي لأهلها ، وفيه مبالغة ليست في قولك أولئك شر وأضل ، لدخوله في باب الكناية التي هي أخص المجاز (١) .

ويقول في قوله تعالى « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله » . والجنب الجانب يقال : أنا في جنب فلان ، وجانبه ، وناحيته . وفلان لين جنب . والجانب ، ثم قالوا فرط في جنبه ، وفي جانبه يريدون حقه ، قال سابق البربري :

أما تتقين الله في جنب وامق له كبد حرى عليك تقطع

وهذا من باب الكناية لأنك إذا أثبت الأمر في مكان الرجل وحيزه فقدم أثبت فيه ، ألا ترى إلى قوله :

إن السماحة والمروءة والندى في قبة ضربت على ابن الحشرج

ومنه قول الناس لمكانك فعلت كذا يريدون لأجلك ، وفي الحديث من الشرك الخفي أن يصل الرجل لمكان الرجل ، وكذا فعلت هذا من جهتك ، فن حيث لم يبق فرق فيما يرجع إلى أداء الفرض بين ذكر المسكان وتركه ، قيل فرطت في جنب الله على معنى فرطت في ذم الله (٢) .

ويذكر الكناية عن الموصوف .. يقول في قوله تعالى « ولا يأتين ببهتان يفتريه بين أيديهم وأرجلهم » . كانت المرأة تلتقط المولود فتقول لزوجها هو ولدي منك ، كنى بالمهتان المفتري بين يديها ورجليها عن الولد الذي تلصقه بزوجها

(١) الكشاف ج ١ ص ٥٠٨

(٢) الكشاف ج ٤ ص ١٠٦

كذباً ، لأن بطنها الذي تحمل فيه بين اليدين ، وفرجها الذي تلد به بين الرجلين (١) .
ويبين أنه لا يصح الجمع بين الكناية والمكنى عنه في هذا القسم ، وأن
هذه الطريقة من فصيح الكلام وبديعة ، يقول في قوله تعالى : وحلناه على ذات
الواح ودسر ، . أراد السفينة وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصولات
فتنوب منابها ، وتؤدي مؤداها ، بحيث لا يفصل بينها وبينه ، ونحوه ، ولكن
قيصى مسرودة من حديد . أراد ولكن قيصى درع ، وكذلك . . ولو في عيون
النازيات بأكرع ، أراد ولو في عيون الجراد ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة
وبين هذه الصفة ، أو بين الدرع والجراد ، وهاتين الصفتين ، لم يصح ، وهذا من
فصيح الكلام وبديعة (٢) .

وقد ذكر المجاز عن الكناية ، وعن به صور الكناية التي يستحيل فيها لإرادة
المعنى الحقيقي للتركيب المكنى به ، إذ أنه يرى أن شرط الكناية صحة جواز
المعنى الحقيقي للتركيب ، وأن هذا هو مناط الفرق بينها وبين المجاز .

يقول في قوله تعالى : ولا ينظر إليهم يوم القيامة ، مجاز عن الاستهانة
والسخط عليهم . تقول فلان لا ينظر إل فلان ، تريد نفي اعتداده به وإحسانه
إليه ، فإن قلت أى فرق بين استعماله فيمن يجوز عليه النظر ، وفيمن لا يجوز
عليه ؟ قلت أصله فيمن يجوز عليه النظر كناية ، لأن من اعتد بإحسان النفس إليه
وأعاره نظر عينيه ، ثم كثر حتى صار عبارة عن الاعتداد ، والإحسان ، وإن لم
يكن ثم نظر ، ثم جاء فيمن لا يجوز عليه النظر مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما
وقع كناية عنه (٣) .

وهذا التفصيل في الكناية والمجاز عن الكناية رأيناه في المتنشرى يحصل
الإشارة إليه في الآيات المشابهة لهذه الآية ، ويجعل بعضها من المجاز ويسكت
عن الكناية ، كما يجعل البعض الآخر من الكناية ويسكت عن المجاز .

(١) الكشاف ج ٤ ص ٤١٥

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٣٤٥

(٣) الكشاف ج ١ ص ٢٨٨ .

يقول في قوله تعالى : وقالت اليهود يد الله مغلولة . غل اليد وبسطها مجاز
عن البخل والجود ومنه قوله تعالى : ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها
كل البسط ، ولا يقصد من يتكلم به إثبات يد ، ولا غل ، ولا بسط ، ولا فرق
هنا بين هذا الكلام وبين ما وقع مجازاً عنه ، لأنهما كلامان يتماقبان على حقيقة
واحدة ، حتى إنه يستعمله في ملك لا يعطى عطاء قسط ، ولا يمنه إلا بإشارته
من غير استعمال ، يد وبسطها ، وقبضها ، ولو أعطى الأقطع إلى المنكب عطاء
جزئياً لقالوا ما أبسط يده بالنوال ، لأن بسط اليد وقبضها هبارةتان وقعتا
متماقتين للبخل والجود ، وقد استعملوا ما حيث لا تصح اليد كقوله :

جاد الخي ، بسط اليدين بوابل شكرت نداء ، تلاه . ورواه

ولقد جعل ليبد للشمال يدا في قوله :

إذا أصبحت بيد الشمال زمامها

ويقال بسط اليأس كفيه في صدرى ، فجعلت اليأس الذى هو من المعاني لا من
الأيان كفان ، ومن لم ينظر في علم البيان عمى عن تبصر حجة الصواب في تأويل
أمثال هذه الآية ، ولم يتخلص من يد الطاعن إذا هبئت به (١) .

ويقول في قوله تعالى ، الرحمن هل العرش استوى ، .

لما كان الاستواء هل العرش وهو سرير الملك ما يردف الملك جمعوه كناية
عن الملك ، فقالوا استوى فلان هل العرش ، يريدون ملك ، وإن لم يقصد هل
السرير البتة ، وقالوه أيضاً لشهرته في ذلك المعنى ، ومساراته ملك في مؤداه ،
وإن كان أشرح ، وأبسط ، وأدل ، على صورة الأمر ، ونحوه قولك يد فلان
مبسوطة ، ويد فلان مغلولة ، بمعنى أنه جواد ، أو بخيل ، لا فرق بين العبارتين
إلا فيما قلت ، حتى إن من لم يبسط يده قط بالنوال ، أو لم تكن له يد رأساً قيل فيه
يده مبسوطة ، لمساراته هندم قوله هو جواد ، ومنه قوله عز وجل : وقالت
اليهود يد الله مغلولة ، أى هو بخيل بل يده مبسوطتان ، أى هو جواد ، من غير
تصور يد ولا غل ولا بسط (٢) .

ويقول في قوله تعالى : « ليس كمثل شيء » ، قالوا مثلك لا يبخل ، فقفوا البخل
من مثله ، وهم يريدون نفيه عن ذاته ، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به
طريق الكناية لأنهم إذا نفوه عن يده مسده وعن هو على أخص أوصافه فقد
نفوه عنه ، ونظيره قولك للعربي : العرب لا تخفر الدم ، كان أبلغ من قولك أنت
لا تخفر ، ومنه قولهم قد أيفعت لداته ، وبلغت أنرابه ، يريدون إيفاعه وبلوغه .
فإذا علم أنه من باب الكناية لم يقع فرق بين قوله ليس كالله شيء وبين قوله ليس
كمثل شيء إلا ما تعطيه الكناية من فائدتها وكأنهما عبارتان معتقتان على معنى
واحد ، وهو نفي المماثلة عن ذاته ، ونحوه قوله عز وجل « بل يدها مبسوطتان » ،
فإن معناها بل هو جواد ، من غير تصور يد ، ولا بسط لها ، لأنها وقعت عبارة
عن الجود ، ولا يقصدون شيئاً آخر حتى إنهم استعملوا في من لا يده له ، فكذلك
استعمل هذا فيمن له مثل ، ومن لا مثل له (١) .

فهذه أربع صور في اتفاق وجه الدلالة على المعنى فيها ، ويختلف فيها كلام
الزمخشري هذا الاختلاف الذي نراه ، ففي واحدة يقول إنها من المجاز عن
الكناية ، وفي الثانية يقول إنها من المجاز ، وفي الثالثة والرابعة يقول إنها من
الكناية ، بل إنه ذكر آية وقالت اليهود يد الله مغلولة مثالا للكناية في الآيتين
الآخرتين ، وقد ذكر في شرحها أنها من المجاز كما هو واضح من هذه
النصوص .

وقد طال نظري في هذه الصور التي لا أشك في أنها من فن واحد ، ثم
وجدت حديثه في آية ولا ينظر إليهم أول كلامه فيها ، فأيقنت أنه اعتمد فيما
أتى بعدها على ما ذكره فيها ، وقد نظرت في الرسالة البيانية وفي حواشي المطول
وفي تجريد البناني وتقرير الإنبابي فראيت أوضح ما قيل في هذا الموضوع وأقربه
إلى القبول قول السيد الشريف في حاشيته الفاتحة على الكشاف ، فقد ذكر في
قوله تعالى « ولا ينظر إليهم » أن أصله فيمن يجوز عليه النظر الكناية ، ثم جاء
فيمن لا يجوز عليه مجرداً لمعنى الإحسان مجازاً عما وقع كناية عنه فيمن يجوز

عليه النظر ، فظهر بما فرره هناك أنه إذا أمكن المعنى الاصلى كان كناية ، وإذا لم يمكن كان مجازاً مبنياً على تلك الكناية ، ويجوز إطلاق الكناية عليه أيضاً نظراً إلى أنه فى أصله كان كناية فى معنى ، ثم انقلب فيه مجازاً ، والتغاير اعتبارى ، ومن ثم نراه جعل بسط اليد وغلها فى سورة المائدة مجازين عن الجود والبخل ، وجعلهما فى طه من الكنايات كالاستواء على العرش ، فلا منافاة بين قوليه ، ولا حاجة فى دفعهما إلى ما قيل لأنه قد يشترط فى الكناية إمكان المعنى الاصلى وقد لا يشترط (١) .

ويلاحظ أن الرمخشرى معنى فى هذه النصوص بمسألة شهرة الكناية أو المجاز حتى يصير المجاز أو تصوير الكناية كأنها حقيقة ، وكأنها وما دلت عليه عبارتان تعقبان على معنى واحد ، وهو فى هذا يريد أن يلهم السامع المعانى المجازية ، أو الكنائية بسرعة ودون وقوف عند ظاهر النص ، وأن يلقى الواسطة التى هى الصورة البيانية ، أعنى غل اليد وبسطها ، والاستواء على العرش وعدم النظر إلى آخره ، وذلك لئنى التشبيه فى ذات الله تعالى أو نفى الجارحة بسرعة خوفاً على السامع من خطرات تقع للجهاى ، وأهل التشبيه كما يقول الجرجاني (٢) . لذلك اهتم فى كل أسلوب من هذه الأساليب ببيان إلغاء الدلالة الظاهرة للتعبير حتى تنعدم الواسطة كما يقول الشراح ، لأن بقاء الواسطة قد يدفع إلى تصور الجارحة ، أو تصور التشبيه كما هو الحال فى دلالة المعنى على المعنى ، حيث ينقل السامع من المعنى الأول إلى المعنى الثانى وجل الله عن ذلك .

ويطلق الرمخشرى التمثيل على صورة قد اعتبرها من الكناية ، وذكرها من أمثلتها ، وقد اعتبرها كذلك من المجاز فيما قدمنا من النصوص .

يقول فى قوله تعالى ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ، هذا تمثيل لمنع الشحيح ، وإعطاء المسرف ، وأمر بالاعتقاد الذى هو بين الإسراف والتقتير (٣) .

(١) الحاوية الثالثة لبيد الشريف مطبوعه ورقه ١١٩ والحاوية مطبوعه على السكشاف والنس فى من ١١٢ ج ١ وتنظر حاشية البيد على المطول من ٤٩٢ والرسالة البيانية من ١٠٤ الى ١٠٥ وحاشية الأنابى على الرسالة البيانية فى نفس الصفحة .

(٢) تنظر أسرار البلاغة من ٢٨٦ . (٣) السكشاف ج ٢ من ٤١٦ .

ولعل الومئشرى نظر هنا الى وجه آخر من وجوه الدلالة وأدرك علاقتها
شبه بين منع التمشيح وغل اليد ، ولحظ أن غل اليد أدل على المنع لأن من غلته
يده لا تمتد بالمعطاء ، كما لحظ شيها بين إعطاء المسرف وبسط اليد ، ولحظ كذلك
أن بسط اليد أقوى في الدلالة على السخاء فاعتبر ذلك من القليل ، وعلى كل
حال لا مفر لنا من القول بجواز حمل الصورة الواحدة على الكتابة وعلى المجاز
ولا ضير في ذلك ما دامت تختلف الهيئة التي ينظر اليها في وجه الدلالة ،
وقد رأيناهم يرددون الصورة بين المجاز المرسل والاستعارة بحسب مراعاة وجه
التجوز ، وعلينا أن نذكر الفرق بين غل اليد وبسطها في هذه الآية وغل اليد
وبسطها في وقالت اليهود ، فالغل والبسط هنا ممكن لأن الخطاب خطاب لمن له
يد تغل وتبسط ، والغل والبسط هناك يستحيل أن يكون ، وكان اعتبار الآية
هنا من باب الكناية أمر ألا اعتراض عليه . وليس في حاجة إلى التحليل المذكور
في الآيات السابقة . إلا أن الومئشرى قد أعرض فيها عن دلالة لزوم ال دلالة
المشابهة . وليس هذا من إطلاق التمثيل على الكناية كما ذكرنا في بحث التمثيل
لأن الصورة التي ذكرناها هناك لا وجه فيها للمشابهة ، كما أنه لا ضير في أن
يكون هذا تمثيلاً لوجود المشابهة كما قلنا ، ولأن المعنى الحقيقي وإن كان ممكناً
إلا أن هنا قرينة مانعة من إرادته ، وهي كون الخطاب غير مفعول اليد ولا مبسوطها
بالمعنى الحقيقي فلا محل للنهي ، إلا أن يكون الكلام على المجاز .

وقد توهم العلامة السبكي أن كلام الومئشرى في آية ولا ينظر إليهم يوم
أن الكناية قد تكون مجازاً ، وأنه إذا أمكنت الحقيقة تصح الكناية والمجاز
جميعاً بحسب الإرادة ، وأن الومئشرى قد صرح بذلك في قوله تعالى ولا جناح
عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ، فقال الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه
الموضوع له ، والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره . ثم قال
السبكي وهذا مخالف لما يقتضيه كلام غيره (١) .

وحمل كلام الومئشرى على ما ذهب إليه السبكي باطل ، لأن الومئشرى أراد

(١) عروج التلخيص (عروس الأراج) ج ٤ ص ٢٤١ وما بعدها بصرف (١٢٠٠) (م ٣٠٠ — البلاغة القرآنية)

بالمجاز في آية ولا ينظر إليهم المجاز المتفرع عن الكناية ، وقد صرح به ولم يقصد المجاز المستقل ، أو المجاز المحض ، الذي يكون من أول الأمر مجازاً ، وما ذكره في آية ولا جناح عليكم لا يقصد فيه التعريف الجامع المانع للكناية ، وإنما أراد أن يذكر من أوصافها ما يفرق بينها وبين التعريض ، ولا ضير أن يكون هذا الوصف مشتركاً بينها وبين غيرها من فنون البيان الأخرى ، لأن المطلوب فيه أن يكون فاصلاً بينها وبين التعريض .

يقول العلامة سعد الدين في حاشيته المخطوطة على الكشف معلقاً على كلامه في هذه الآية : ليس القصد إلى تعريفها حتى يعترض بأن ذكر الشيء يغير لفظه الموضوع له شامل للمجاز ، بل إلى تمييز أحدهما عن الآخر (١) .

وقد يضاف إلى الكناية ما يزيد لها حسناً وتأثيراً ، وذلك بذكر ما يشاكلها ويلائمها . يقول في قوله تعالى و يذكر اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام ، وكنى عن النحر والذبح بذكر اسم الله لأن أهل الإسلام لا يتكلمون عن ذكر اسمه إذا نحرروا أو ذبحوا ، وفيه تزيين على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله أن يذكر اسمه ، وقد حسن الكلام تحسناً بإنه أن جمع بين قوله ليذكر اسم الله وقوله على ما رزقهم ، ولو قيل لينحروا في أيام معلومات بهيمة الأنعام لم تر شيئاً من ذلك الحسن والروعة (٢) .

ويذكر الزمخشري تعدد الكنايات لمعنى واحد ، ويشير إلى بلاغتها ، وهذه طريقة فذة في إلهام ذوق اللغة ، وفقه أسرارها ، يقول في قوله تعالى و يوم يعرض الظالم على يديه ، عرض اليدين والأنامل ، والسقوط في اليد ، وأكل البنان وحرق الأسنان والأرتم وقرها كنايات عن الغيظ والحسرة ، لأنها من روادفها ، فيذكر الراءفة ويبدل بها على المردوف فيرفع الكلام به في طبقة الفصاحة ، ويحمد السامع عنده في نفسه من الروعة والاستحسان ما لا يجده عند لفظ المنكبي عنه (٣) .

(١) حاشية سعد الدين ورقة ١١٥ .

(٢) الكشف ج ٣ ص ١٢٠ .

(٣) الكافي ج ٣ ص ٢١٥ .

ويذكر الكناية في المفرد وهي كناية بالمعنى اللغوي . يقول في قوله تعالى
« تخرج بيضاء من غير سوء ، سوء الرداءة والقبح في كل شيء ، فكنتى به عن
البرص ، كما كنى عن العورة بالسوء ، وكان جذيمة صاحب الزباء أبرص فكنتوا
عنه بالأبرص ، والبرص أبيض شيء إلى العرب ، وبهم عنه نفرة عظيمة ، وأسأهم
لأسمه مجاجة ، فكان جديراً بأن يكنتى عنه . ولا ترى أحسن ولا أطف
ولا أحز المفاصل من كنايات القرآن وآدابه (١)

ويقول في قوله تعالى « ليوارى سوء أخيه ، والسوء عورة أخيه
وما لا يجوز أن ينكشف من جسده ، والسوء الفضيحة لقبها ، قال:
يا قومى لسوء السوء أى للفضيحة العظيمة فكنتى بها عنها (٢)

وفي كنايات المفرد يذكر صوراً من المجاز المرسل ويسمى كناية .
يقول في قوله تعالى « وثيابك فطير ، وقيل هو أمر بتطهير النفس بما يستفاد
من الأفعال ويستهبج من العادات . يقال فلان طاهر الثياب ، وطاهر الجيب ،
والذيل ، والأردان ، إذا وصفوه بالنقاء من المعاييب ومداس الأخلاق ، وفلان
دلس الثياب لغادر ، وذلك لأن الثوب يلبس الإنسان ويهتمل عليه فكنتى به
عنه ، ألا ترى إلى قولهم أهجبنى زيد ثوبه ، كما يقولون أهجبنى زيد عقله ،
وخلقه ، ويقولون المجد فى ثوبه ، والكرم تحت حائه (٣) فالتعبير عن الإنسان
بثوبه من المجاز المرسل الذى علاقته المجاورة ، أو الحالية . ولكن الزمخشري
يجمله من الكناية ، وقولهم المجد فى ثوبه إذا كان يراد بالثوب فيه لاسمه
فذلك أيضاً من المجاز المرسل وليس من الكناية عن النسبة . ويمكن أن يكون
المثال الواحد كناية لغوية باعتبار ، ومجازاً مرسلًا باعتبار آخر .

وقد ذكر الزمخشري توارد الكناية والمجاز المرسل على كلمة واحدة فى
أطوار مختلفة ، يقول فى قوله تعالى « ولكن لا تواهدهن سراً ، السر رفع

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٤٨٩

(١) الكشاف ج ٣ ص ٤٦

(٣) الكشاف ج ٤ ص ٤٨٩

كناية عن النكاح الذي هو الوطء ، لأنه مما يسر . قال الأحنف :

ولا تقربن من جارة إن سرها عليك حرام فانكمن أو تأبدا

ثم عبر به عن النكاح الذي هو العقد لأنه سبب فيه كما فعل بالنكاح (١) .

فالسر سبب في النكاح بمعنى العقد باعتبار المعنى المجازي الذي هو الوطء ،

أو النكاح بمعنى الوطء ، لذلك صح أن يعبر بالسر عن العقد ، لأن بينهما علاقة

السببية .

أما أن يكون السر بمعناه الأصلي القديم وهو ما كان ضد الجهر فإنه لا يصح

أن يعبر به عن العقد لأنه لا علاقة بينهما . فالكلمة إذن قد تجاوزت في هذا

التعبير طور الحقيقة . وانتقلت إلى طور آخر ، كانت فيه ذات مدلول مجازي

جديد ، ثم انتقلت من هذا المعنى المجازي الجديد إلى معنى مجازي آخر . وهذا

لا يمنع أن تظل الكلمة دالة على المعنى الأصلي الذي تفرعت عنه هذه المعاني ،

ولو نظرنا إلى كلامه هنا وإلى حديثه عن المجاز والكناية اللذين يصبحان في شجرة

الحقيقة ولا يلتفت فيهما إلى المعاني الأصلية ، لقلنا أن هذه النظرات كانت إحساساً

واضحاً بضرورة بحث تطور الدلالات في الألفاظ . وقد كانت هذه الإرهاصات

جديرة بأن تكون بذوراً لدراسة لغوية شاملة ترصد فيها معاني الكلمات ،

وما يعترها من التغيير في تاريخها البعيد .

وما أدرانا قلل كثيراً من الكلمات التي نستعملها في معانٍ نعتقد أنها فيها

حقيقة لغوية تكون من هذا القبيل من المجاز الذي نسبت حقايقه ، ومائت ،

وابتلعنا التاريخ الطويل المجهول لهذه اللغة . ألسنا ننكر كثيراً من الألفاظ التي

نبا عنها الذوق لما أهملها التاريخ أو نبا عنها الذوق فأهملها التاريخ ، وليس إنكارنا

لها مانعاً من أن تكون لغة أدبية يوماً ما ، لها تأثيرها ، وإيجازها في فترة من

فترات التاريخ اللغوي ، بل قد تكون هذه الألفاظ مرت بزمن ازدهرت فيه

وتكاثرت أكثر تداولاً في هذا الزمن المجهول .

ولم نسا بعد إذن أن تكون كلمات كثيرة من التي نستعملها الآن وتشهد

مما جئنا إلى معانيها الحقيقية قد انتقلت من معانيها الأولى إلى معاني أخرى ، ثم ليس هذا النقل وصارت حقيقة فيما كانت فيه مجازاً ؟ ولعل هذا يكون قد تكرر بالنسبة للكلمة الواحدة ، وكل هذه ضروب من الظن ، لا أستطيع الجزم بقبولها أو رفضها ، وإنما أردت بكل هذا أن أقول إن هذه اللفظات التي أشار إليها الزمخشري في تطور دلالات الالفاظ المجازية أوحى إليه بها عبقرية لغوية نادرة تحس بأبعاد الدرس اللغوي وآفاقه ، وما يجب على الدارس أن يلتفت إليه في هذه الدراسة .

ويذكر الزمخشري أن الكلمات الواسعة المدلول صالحة لأن يكنى بها من جملة أحداث وأفعال ، فتفيد نوعاً من الاختصار كما في كلمة فعل التي يصح أن تكون كناية عن جملة كاملة أو عدة جمل ، وقد أشرنا إلى هذا في بحث الاختصار ونذكره هنا لأنه أشار فيه إلى الكناية واختلفت آراء الشراح في بيان مراده بها . يقول الزمخشري في قوله تعالى : **فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار ، فإن قلت لم عبر عن الإتيان بالفعل وأي فائدة في تركه إليه ؟ قلت لأنه فصل من الأفعال تقول أثبت فلاناً فيقال لك نعم ما فعلت ، والفائدة فيه أنه جار مجرى الكناية التي تعطيك اختصاراً ووجازة تفنيك عن طول المكنى عنه ، ألا ترى أن الرجل يقول ضربت زيداً في موضع كذا على صفة كذا ، وشتمته ، ونكثت به ، ويعد كفييات وأفعالاً فتقول بشما فعلت ، ولو ذكرت ما أثبتته لطاق عليك ، وكذلك لو لم يعدل من لفظ الإتيان إلى لفظ الفعل لا استطيل أن يقال : فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله (١) .**

وقد ذهب بعض البلاغيين إلى أنه يريد بالكناية هنا الضمير المنى على الاختصار ودفع التكرار . وقد ورد على هذا أن الضمير كناية في الأسماء ، وما هنا فعل ، وإذا قيل إن الكناية هنا ما قابلت المجاز لأن الفعل عام كنى به عن خاص ، ود هذا بأنه يكون حينئذ كناية لا جارياً مجراها ، وقد يعتذر بأن الملازمة ليست متساوية ، لأن الفعل أعم مطلقاً ، وحصول الانتزاع منه بمرونة المقام . فذلك حكم مجرياته مجراها .

هذا شيء ، ما قاله البلاغيون (١) في تفسير الكناية في هذا النص .
والواقع أننا لسنا في حاجة إلى تفسيرها بالضمير لأنه ليس في كلامه ما يشعر
بصحة هذا التفسير وأنه لا ضمير علينا إذا فهمناها كما نفهم كلمة الكناية في استعمالاته ،
أي الكناية الاصطلاحية أو اللغوية ، وهي هنا أقرب إلى اللغوية ، وليس قوله
جاريًا مجرى الكناية صالماً لأن يعترض به علينا حتى نذهب إلى تفسير آخر .
أو نتحمل في التماس شيء في الملازمة فإن الزمخشري ذكر هذه الكناية في آية
أخرى وقال إنها كناية ، ولم يقل جارية مجراها ، يقول في قوله تعالى « ولا تدع
من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين » . فإن
فعلت معناه فإن دعوت من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فكنتى عنه بالفعل
إيجازاً (٢) .

ويذكر الزمخشري من فوائد الكناية زيادة على الاختصار الذي يكرره في
مراضعها وهي تأثير الصورة المكنى بها ، لأنها وإن كانت غير مقصودة بالنق
والإيحاءات فإن لها دخلاً في الإيحاء والتأثير كما قلنا ، يذكر من فوائد الكناية
أنها قد تكون مظهراً لشرف المكنى عنه وتعليقه ، كما أن عكسها وهو التصريح
قد يكون مظهراً للتنفير عن المكنى عنه وتحقيره .

يقول في قوله تعالى « قالت أن يكون لي غلام ولم يمسنى بشر » جعل المس
حجارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه كقوله تعالى « من قبل أنه تمسوهن »
أولاً مستم النساء ، والزنا ليس كذلك إنما يقال فيه فجر بها ، وخبث بها ، وما أشبه
ذلك . وليس يقمن أن تراعى فيه الكنايات والآداب (٣) .

التعريض :

وإدراك المعنى المرص به في الأسماء الأدبية لا يستعليقه إلا من أوتي
عقدرة على الفهم والتذوق ، وليس الفهم الأدبي وقوفاً عند المدلولات اللغوية
الأسمائية ، وإنما هو ذهاب وراء هذه النصوص ، والبحث في أضواء كلماتها ،
وتسمع لمسات إيحاءاتها ، والناس في هذا مختلفون كل حسب قدرته .

(١) انظر الحاشية القائمة لسيد الشريف ج ١ ص ١٩١ وحاشية الشباب ج ٢ ص ٤٩

(٢) السكشاف ج ٣ ص ٧

(٣) السكشاف ج ١ ص ٣٩٣

وقد كان الزمخشري بلاغياً مرهف الحس دقيق الشعور ، نافقاً بطبيعته
الادبية إلى ما وراء ظاهر النصوص ، وهذه المقدرة تتجلى في إدراكه لما توسى
به الأساليب من المعاني البعيدة عن متن ألفاظها .

وقد كان الزمخشري أول دارس يحدد فرقاً دقيقاً بين الكناية والتعريض كما
قلت وهو بهذا يخالف عبد القاهر الذي جعل التعريض رديفاً للكناية .

يقول الزمخشري في الفرق بين الكناية والتعريض :

الكناية أن تذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له ، كقولك طويل النجاد والختل
اطويل القامة . وكثير الرماد للمضياف ، والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على
شيء لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه جئتك لاسلم عليك ، ولا تظن
وجهك الكريم ولذلك قالوا وحسبك بالتعريض من تقاضيا ، وكأنه إمامة الكلام
إلى عرض يدل على الغرض ، ويسمى التلويح ، لأنه يلوح منه ما يريد (١) .

وقد سبق أن ناقشنا ما ذكره في تعريف الكناية ، ونقول هنا إن ما ذكره
في تعريفه التعريض لم يستطع أحد من العلماء المدققين أن يغير فيه كلمة واحدة
فقد قالوا في تعريفه : إنه إمامة الكلام إلى عرض أى جانب يدل على المقصود (٢) .

وهذا التعريف مأخوذ من جراء كلام الزمخشري السابق أى من قوله :

والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء لم تذكره .

والسبب في أن كان تعريفه للكناية في هذا الموضع غير دقيق حتى كان شاملاً
لأنواع المجاز كلها ، وكان تعريفه للتعريض دقيقاً حتى لم يصح أن يطلق إلا عليه .
السبب في ذلك أنه يعلم أن الكناية قد سبقه بتعريفها علامة الفرق الخامس
عبد القاهر ، أما التعريض فإنه أول من وضع له تعريفاً طلياً ، فكان من
الضروري أن يراعى فيه أصول التعاريف .

وقد كان كلامه في التعريض مثيراً لمسألة شغلت البلاغيين بعده ، واضطربت
أقوالهم فيها ، ذلك أنهم قد فهموا - بما ذكره هنا أن الكلام غير مستعمل
في المعنى التعريضى ، فقيل كيف يدل الكلام على معنى دلالة صحيحة . وهو فهو

(١) الكشاف ج ١ ص ٢١٥ (٢) حاشية السيد الشريف على الخليل ص ١٤٤

يستعمل فيه على طريق الحقيقة ، أو على طريق المجاز ، ومن هنا ظهرت فكرة
مستقبعات التراكيب ، وهي وإن كانت فكرة تامة في الدراسة البلاغية ،
إلا أنها ومضة أدبية كان ينبغي أن تكون أكثر وضوحاً وإبرازاً ، لأنها تعنى
فهم ما وراء المدلولات اللغوية لتراكيب في التعبير الأدبي ، وواضح أن النص
الأدبي إنما تقاس قيمته بثراء معانيه وإيجازاته ، وأن النصوص الأدبية الخالدة
هي التي لا يفتنى مددها الروحي والنفسي . وهذا من أسرار الإيجاز البلاغي في
القرآن الكريم . والحق أن تقدم بعض التفسير يرجع إلى الاجتهاد في كشف
آفاق جديدة لمدلول النص القرآني ، أعنى البحث الجاد الدؤوب في رؤية مستقبلات
التراكيب .

ونعرض هنا بعض النماذج التي كان يلتفت فيها إلى المعاني التعريفية في
النصوص القرآنية .

يقول في قوله تعالى : ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ، وفيه تعريف
بكتانهم شهادة الله ل محمد صلى الله عليه وسلم بالنبوة في كتبهم وسائر شهاداته (١) .
ويقول في قوله تعالى : ولا يكلمهم الله ، تعريف بحرماتهم حال أهل الجنة
في تكريم الله إياهم بكلامه (٢) .

ويقول في قوله تعالى : فإن تولوا فقولوا أشهدوا بأننا مسلمون ، ويحوز
أن يكون من باب التعريض ، ومعناه أشهدوا واحترفوا ، بأنكم كافرون ، حيث
توليتهم من الحق بعد ظهوره (٣) .

ويقول في قوله تعالى : وكان من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا
لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا ، تعريف بما أصابهم من الوهن
والانكسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ، وبضعفهم عن مجاهدة المشركين ،
واستكانتهم حين أرادوا أن يعتضدوا بالمتناقض عبد الله بن أبي في طلب الأمان
من أبي سفيان (٤) .

ويقول في قوله تعالى : فرح المخلفون بمقدم خلاف رسول الله وكرهوا أن

(٢) الكشاف ج ١ ص ١٦٢

(١) الكشاف ج ١ ص ١٤٧ ، ١٤٨

(٤) الكشاف ج ١ ص ٣٣٩

(٣) الكشاف ج ١ ص ٣٨٤

بجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم
تمريض بالمؤمنين بتحملهم المشاق للمظام لوجه الله تعالى ، وبأفعالهم عن بذل
أموالهم ، وأرواحهم في سبيل الله تعالى ، وإيثارهم ذلك على الدعوة والخص
وكره ذلك المنافقون ، وكيف لا يكرهونه وما فيهم ما في المؤمنين من باع
الإيمان ودواهي الإيقان (١) .

وبقول في قوله تعالى : لم أعلم أني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي كيد
الخائنين ، . وكأنه تمريض بامراته في حياتها لعلنة زوجها ، وبه في حياته أمانة
الله حين ساعدهما بعد ظهور الآيات على حبه (٢) .

وبالتأمل في هذه النصوص نلاحظ أن في سياقها أحوالا موجبة بالمعاني
التمريضية ، فإذا كانت الآية تسم الذي يكتم شهادة الله بأشد الظلم ، فإن هناك
نقرأ من أهل الكتاب عرفوا شهادة الله لحمد عليه السلام في كتبهم ثم كتموها .
وإذا كانت الآية تصف إعراض الله عن الكافرين ، فهناك مؤمنون يأملون
بإقبال الله عليهم .

وإذا كان هناك من كره أن يجاهد بنفسه ، فإن هناك من جاهد .
وإذا كان هناك من صدق فإن هناك من كذب ، وهكذا كانت المقامات
والأحوال ملهمة المعاني التمريضية .

وقد ذكر الزمخشري نوعا من التمريض لا أحسب أنه يختلف عن التمريض
المدكور في هذه النصوص ، وذلك هو ما يمرض به المخاطب ليق نفسه الوقوع
في الكذب ، أو هو الكلام الذي يذكره المتكلم وهو صادق ليشغل به مخاطبه
عن شيء لا يريد المتكلم من مخاطبه أن يتجه إليه ، كما في قول موسى عليه السلام
فيا حكاة القرآن .

ولا تؤاخذني بما نسيت ، فقد أخرج الكلام في معرض النبي عن المؤاخذة
بالنسيان ليوم أنه قد نسي بسطا لعذره في الإنكار .

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٢٧

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٧٤ .

قال الزمخشري وهو من معارض الكلام التي يتق بها الكذب مع التوصل إلى الغرض كقول إبراهيم هذه أختي وإني سقيم (١).

ولما نظر إبراهيم عليه السلام في علم النجوم وقال لقومه إني سقيم . فهموا منه أنه مشارف للإصابة بالطاعون ، وكان القوم مصابين به ، ففروا منه ، ويقول الزمخشري في بيان قصده عليه السلام : والذي قاله إبراهيم عليه السلام معارض من الكلام ، واقد نوى به أن من في عنقه الموت سقيم ، ومنه المثل كفي بالسلامة داء ، وقول ليبيد :

فدعوت ربي بالسلامة جاهداً ليصحن فإذا بالسلامة داء
وقدمت رجل جفاة فالتفت عليه الناس ، وقالوا مات ، وهو صحيح فقال
أعرابي أصحیح من الموت في عنقه؟ (٢).

ولإبراهيم عليه السلام تعريض آخر لما سأله قومه أنت ففات هذا بآلهتنا ؟ قال عليه السلام بل فعله كبيرهم هذا .

يقول الزمخشري ، هذا من معارض الكلام ، ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني ، والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم . وإنما قصد تقريره لنفسه ، وإثباته لها ، على أسلوب تعريض يبالغ فيه غرضه من إلزامهم الحججة وتبكيتهم ، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كتبت كتاباً بخط رشيق وأنت شهير بحسن الخط : أنت كتبت هذا ؟ وصاحبك أمي لا يحسن الخط ، ولا يقدر إلا هل خرمشة فاسدة ؟ فقلت له بل كتبتك أنت ، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك مع الاستهزاء به ، لا نفيه عنك وإثباته للأمى ، أو الخرمش لأن إثباته والأمر دائر بينكما للعاجز منك استهزاء به وإثبات للقادر (٣).

وقد كان الزمخشري يلبح ما في صورة التمثيل من التعريض ، ويعتبر المعاني

(١) الكتاب ج ٢ ص ٥٤٤

(٢) الكتاب ج ٤ ص ٣٨

(٣) الكتاب ج ٣ ص ٩٨

التعريضية فيها من الرموز البالغة في اللطف والحفاء ، وأنه لا يتنبه إليها إلا القليل من ذوى الفطنة من العلماء .

يقول في قوله تعالى ، ضرب الله مثلا الذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، وفي طي هذين التمثيلين تعريض بأمرى المؤمنتين المذكورتين في أول السورة ، وما فرط منهما من التظاهر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بما كره ، وتحذير لهما على أظلم وجه وأشد ، لما في التمثيل من ذكر الكفر ، ونحوه في التعليل قوله تعالى ، ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين ، وإشارة إلى أن من حقهما أن تكونا في الإخلاص والسجال فيه كمثل هاتين المؤمنتين ، ولا تمكلا على أنهما زوجا رسول الله ، فإن ذلك الفضل لا ينفعهما إلا مع كونهما مخلصتين ، والتعريض بحفصة أرجح ، لأن امرأة لوط أفشت عليه كما أفشت حفصة على رسول الله ، وأمرار التذييل ووهوزة في كل باب بالغة من اللطف والحفاء جداً يدق عن تفتن العلماء ويول عن تبصرهم (١) .

قلت إن الزمخشري في تعريفه لتعريض آثار مسألة هامة لدى البلاغيين ، وهي وجه الدلالة على المعنى التعريضى . وكان بما لا يقبله العقل عند العلامة سعد الدين أن يدل الكلام على معنى دلالة صحيحة وهو ليس حقيقة فيه ولا مجازاً . والحق أن الزمخشري قرر أن الكلام الذى يلوح منه معنى تعريضى قد يكون حقيقة كما ذكرنا في الأمثلة السابقة فى حقائق فى معانيها ، والمراد منها ، وإن عرضت بما ذكر ، وقد يكون التعريض من الأمثال المضروبة ، كما فى آية امرأة نوح وامرأة لوط وامرأة فرعون ، وكما فى قصة دارود عليه السلام حين دخل عليه الخصم فتزع منهم . والزمخشري يقول تعقيباً على هذا التمثيل ، أر هذه القصة : فإن قلت لم جاءت على طريقة التمثيل والتعريض دون التصريح ؟ قلت لكونها أبلغ فى التوبيخ من قبل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمرض به كان أوقع فى نفسه ، وأشد تمكناً من قلبه ، وأعظم أمراً فيه ، وأجلب لاحتشامه ، وحيائه . وأدهى إلى التنبه على الخطأ فيه ، من أن يبادره به صريحاً ، مع مراعاة حسن الأدب بترك

المراد منها ، والمراد منها ، وإن عرضت بما

الزمخشري يقول تعقيباً على هذا التمثيل ، أر هذه القصة : فإن قلت لم

المجاهرة (١)، وقوله إنه أبلغ من قبل أن التأمل إذا أدها إلى الشعور بالمعرض به كان أوقع في نفسه ، تفسير لآثر التعريض يقوم على فهم بصير بأحوال النفس ، حيث تنقاد دائماً إلى ما تهدي إليه بتفكيرها وتأمّلها . وعلى هذا يعتمد الأدب واللفظ في التأثير والتوجيه .

وقد انتهى البلاغيون في بيان وجه دلالة التعريض إلى ما خصه العلامة السيد الشريف وذكره البناني في حاشيته على مختصر السعد من أن المعنى التعريضى مقصود من الكلام إشارة وسياًفاً لا استعمالاً ، فجاز أن يكون اللفظ مستعمل في معناه الحقيقي ، أو المجازى ، أو المكنى عنه ، وقد دل به أى بالمعنى المستعمل فيه من تلك المعاني على مقصود آخر بطريق الإمالة إلى عرض ، فالتعريض يجمع كلاماً من الحقيقة والمجاز والكناية (٢) .

وهذا راجع إلى كلام الزمخشري الذى ذكرناه .

(١) الكشاف ج ٤ ص ٦٢

(٢) تحرير النفس الايات ج ٤ ص ٢٢٥

الفصل السابع

ألوان البديع

شبهات حول رأى الريحشرى فى البديع

أنواع البديع التى ذكرها :

- ١ - المشاكلة
- ٢ - الف
- ٣ - الاستطراد
- ٤ - التفصيل
- ٥ - الكلام الموجه
- ٦ - التورية
- ٧ - المقابلة
- ٨ - الطباق
- ٩ - الازدواج
- ١٠ - التجانس
- ١١ - تأكيد المدح بما يشبه النعم
- ١٢ - الإدماج

www.alkottob.com

الفصل السابع

البحث في ألوان البديع

قد عرض الوجودي للمشاكل ، والطباق ، والجناس ، والمزاوجة ، والتقسيم ، وغير ذلك مما جعله المتأخرون من علم البديع . كما عرض لفنون البيان والمعاني ، ولا أجد من كلامه ما يدل على أن الألوان التي جعلها المتأخرون من علم البديع دون غيرها من فنون البيان والمعاني ، من حيث أثرها في قوة الكلام وبلاغته ، وقد نظرت في كتابه كله ، ووقفت عند كل لون ذكره من هذه الألوان . فوجدته يشير إلى بلاغتها ، وإلى أنها فن من كلامهم بديع ، وطراز عجيب ، وأنها من مستغرب فنون البلاغة ، ثم يشيد ببلاغة القرآن المعجزة التي تحيط بكل هذه الفنون ، وتوجد فيها على أحسن صورة وأقوم منهج .

يقول في المشاكلة والله در التنزيل وإحاطته بفنون البلاغة وشعبها لا تكاد استغرب منه فنا إلا عثرت عليه فيه على أقوم منهاجه وأسد مدارجه (١) .

ويقول في نوع من أنواع اللف إنه لطيف المسلك ، لا يكاد يتهدى إلى تيسره إلا النقب المحدث من علماء البيان (٢) .

ويذكر إعجاب شريح القاضي ببلاغة الشاهد الذي راحى المشاكلة حين قال له شريح أنك لسبب الشهادة فقال الرجل إنها لم تجمد عنى . فقال له شريح لله يلاذك وقبل شهادته (٣) .

ثم هو يبسط هذه الألوان ويحللها ، ويشرح أسلوبها ، وما تنطوي عليه من أسرار ونكت ، وهذه طريقة في دراسة فنون البيان والمعاني .

(١) الكشاف ج ١ ص ٨٥

(٢) الكشاف ج ١ ص ١٧٧

(٣) الكشاف ج ١ ص ٨٥

وقد ذهب بعض الدارسين إلى القول بأن ألوان البديع لا تدخل في قضية الإيجاز القرآني كما يتصورها صاحب الكشف ، وأن الزمخشري يرى أن البديع ذيل تابع لعلى المعاني والبيان . وكان أول من ذهب إلى هذا من المعاصرين الأستاذ مصطفي الجويني في بحث كتبه عن منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إيجازه ، وكان أول بحث مبسوط يكتب عن الزمخشري ، ويذاع في الناس ، ويتناول المسائل البلاغية بالصورة التي تناولها .

يقول الأستاذ الجويني : والزمخشري حين يرى أن القرآن مختص بملين مما المعاني والبيان فهو في هذا يتأثر عبد القاهر الذي يرى مزية الكلام الجمالية في معناه . وأما اللفظ فهو خادم المعنى ، ولهذا فلن تظفر هنا بأكثر من ثلاثة ظروف من البديع على كثرتها ، وليس الزمخشري بهذا منكراً للصفة البديعية ، فيها يحسن الكلام وليكنها فخر بجانب اللب ، وما اللب إلا الظلال المعنوية والنفسية التي يوحىها نظم الكلام (١) .

وقبل مناقشة هذا الكلام أرى أن أذكر رأيين لسكاتبين تمرض أحدهما في كتاب كتبه عن البلاغة لمذهب الزمخشري إليه الفاضلان وما ذهب في البديع ، وكتب الآخر كتابه خاصاً بالزمخشري ، وليس هناك فرق بين ما ذهب إليه الأستاذ الجويني ، بل أرجح أنهما اعتمدا عليه فيما كتبا في هذا الموضوع .

يقول أولهما الأستاذ الدكتور شوقي ضيف :

وكانت كلمة البيان كما قدمنا قد ترددت على لسان عبد القاهر في فاتحة كتابه أسرار البلاغة فاتخذها الزمخشري علماً على مباحثه فيه ، وهي مباحث تناولت في تفصيل : التشبيه ، والاستعارة ، والمجاز بنوعيه اللفوي والعقلي ، أو الإسناد الحكيم ، وبذلك كان الزمخشري أول من ميز بين هذين العالين فجعل لكل منهما مباحثه الخاصة ، واستقلاله الذي يخصه ، ونقل عن السيد المرجاني لأنه لم يكن يعد البديع علماً مستقلاً ، بل كان يراه ذيلاً لعلى المعاني والبيان ، وسرى السكاكي يثار به في ذلك ، وكأنه هو الذي ميز لأول مرة بين علوم البلاغة الثلاثة ، وإن كنا سنجد بينهما شيئاً من التداخل في الحين بعد الحين (٢) .

(١) منهج الزمخشري في تفسير القرآن ص ٧٥٦ ، ٧٥٧ .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٢١ ، ٢٢٢ .

ويقول في موضع آخر : رأينا المتكلمين في القرن الخامس من الباقلاقي إلى عبد القاهر ينحون البديع عن مباحث أسرار البلاغة في الذكر الحكيم ، وقد مضى عبد القاهر يكتشف نظرية المعاني ويضع نظرية البيان بمشابهاتها الكثيرة ، وعرض في تضاعيفها للجمع ، والجناس ، وحسن التعليل ، والطباق ، ولكنه لم يعن بعد ذلك بتفصيل القول في ألوان البديع ، إذ كان يرى - كما رأى المتكلمون من قبله - أنه لا يدخل في قضية الإيجاز القرآني لأن كثيراً من ألوانه مستحدث ، وما جاء في القرآن إنما جاء دون تأت له وتكلف ، ومضى الزمخشري على هذا الهدى لا يعنى بما جاء في الآيات الكريمة من بديع إلا عرضاً ، ونرى السيد الجرجاني ينقل عنه كما مر بنا أنه لم يكن يعد البديع علماً مستقلاً من علوم البلاغة إنما كان يعمده ذيلاً متمماً لها . وتمة تحمل عليها ، وكانت هذه النظرة إلى البديع سبباً في أن لا يطيل النظر في ألوانه القرآنية ، وأن لا يلم بها إلا في الحين البعيد بعد الحين ، وإذا ألم بها مسها في خفة (١) .

ويقول الأستاذ الدكتور الحوفي وهو الذي كتب كتابه بعد الأولين :
والحق أن الجرجاني كان يريد بالنظم علم المعاني أى الأسلوب ، وكان قد ردد في كتابه أسرار البلاغة كلمة للبيان فجاء الزمخشري وأطلق علم المعاني وعلم للبيان هل ما يطلقان عليه اليوم . ولهذا فصل العليين بضمهما عن الآخر .
أما علم البديع فهو في رأى الزمخشري تابع للمعاني والبيان ، وليس علماً قائماً بذاته (٢) .

انتهى كلامهم .

ولست أوافق الأستاذ الجويني في تصوره لمرجع المزية عند عبد القاهر ، إذ أنها لا ترجع إلى المعنى كما يرى ، ولا ترجع إلى اللفظ كذلك ، وإنما ترجع إلى النظم ، وهذا أمر يفهمه المبتدئون في قراءة كتب عبد القاهر ، وأما أن الزمخشري حصر بلاغة القرآن في علمين هما المعاني والبيان فذلك حق ، وليس فيه إبعاد للعنة

(١) البلاغة تطور وتاريخ ص ٢٦٥

(٢) الزمخشري للأستاذ الدكتور أحمد الحوفي .

البديعية ، لأن على المعاني والبيان لم يتحددا في بلاغة الكشف بالصورة التي يتصورها المتأخرون حين حصروا كلا منهما في أبواب معينة .

ولست أوافقك كذلك في أن الزمخشري لم يذكر إلا ثلاثة أنواع من ضروب البديع ، وسوف أعرض ما ذكره منها وهو يزيد على ثلاثة أضفاف ما ذكره الأستاذ الجويني .

وقد يكون من أهم ما دفع هؤلاء جميعاً إلى القول بأن ألوان البديع لا تدخل في بلاغة القرآن عند الزمخشري : أنهم وقفوا عند كلامه في التجانس ، وأخذوا منه ظاهره . فالزمخشري يقول في قوله تعالى : وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي وغبض الماء ، بعد ما ذكر ما فيها من نكت وأسرار ، ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ، ورفصوا لها رؤوسهم لا لتجانس الكلمتين ، وهما قوله ابلعي وأقلعي . وذلك وإن كان لا يخفى الكلام من حسن فهو كثير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور ، فقد يتوهم أن الزمخشري بهذا يضع من مكانة ألوان البديع في الإيجاز القرآني ، والحق أننا لا نسمع منه هذه النغمة إلا في فن الجناس ، وذلك راجع إلى انصراف اهتمام الأدباء والشعراء في عصره إلى هذا الفن ، حتى صار صناعة ثقيلة متكلفة ، فهو بهذا يشير إلى أن ما جاء في القرآن من هذا اللون الذي فتقتم به لم يكن هو وحده سر بلاغته ، كما جعلتموه سر بلاغتكم ، ولهذا يقول في الجناس في آية ووجنتك من سبأ بنياً ، من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع . وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يحى مطبوعاً ، أو يضعه عالم بجوهر الكلام ، يحفظ معه حجة المعنى ، وسداده ، ثم يقول في موقعه من القرآن ، ولقد جاء هنا زائداً على الصحة لحسن وبدع لفظاً ، ومعنى ، ألا ترى أنه لو وضع مكان بنياً بغير لسان المعنى صحيحاً وهو كما جاء أصبح لما في النبا من الزيادة التي يطابقها وصف الحال .

والجناس وإن كان أقرب ألوان البديع إلى الحسن اللفظي لسكنه في القرآن من محاسن الألفاظ والمعاني كما يقول .

وقد يكون من أهم ما دفع هؤلاء جميعاً إلى القول بأن ألوان البديع لا تدخل

في بلاغة القرآن عند عبد القاهر ، أنهم رأوه قد أهمل ألوان البديع ، ولم يبسط القول فيها . كما فعل في ألوان البيان ، وصور النظم ، فظن أكثر الباحثين أنه غير ملتفت إليها ، لأنها لا تدخل في الإعجاز البلاغي للقرآن ، وهذا وهم لأن عبد القاهر أشار إلى أن الاستمارة داخلة في الإعجاز وهي من البديع كما يقول ، وأشار إلى أن المزوجة من صور النظم وأنه يبلغ الغاية في دقة وتماسك في صورها ، ومثلها الجمع والتقسيم . وأشار إلى أن سلطان المزية لا يعظم في شيء كعظمه في باب المزوجة ، والجمع والتقسيم ، وبعض صور التشبيه إلى آخر ما ذكر . وقد حدد المرحوم الشيخ سليمان نوار مذهب عبد القاهر في البديع ، وكان رحمه الله قارئاً فطناً كتب في مسائل البلاغة فصولاً جادة تجتهد في تنقية البحث البلاغي واستقامة منهجه ، وقد كتبت هذه البحوث في أوائل الثلاثينيات ، فهي من البحوث الرائدة كما نرى : يقول — طيب الله ثراه — « إن بعض ما عده العلماء من علم البديع ومن المحسنات العرضية لا الذاتية ، يجعله الشيخ من دقة النظم ، وقد سبق له أن النظم ، من عماد البلاغة ، وسيأتي عده من دقة النظم للتقسيم وحده ، والتقسيم ، والجمع ، وإذا كانت المزوجة من صميم البلاغة كان كثير من المحسنات المعنوية مثل المذهب الكلامي ، وتأكيد المدح بما يشبه الذم ، وحسن التعليل ، وتجاهل العارف أولى بأن تكون من صميمها ومن المحسنات الذاتية (١) »

أما لماذا أهمل عبد القاهر ألوان البديع فذلك راجع إلى أن هذه الألوان قد اهتم بها النقاد والبلاغيون قبل القرن الخامس الذي عاش فيه عبد القاهر ، وأكملوا بحثها ، وحصروا أنواعها ، فكان عمله لو فعل تكراراً لجهود غيره ، فأولى أن يتناول النظم الذي هو في حاجة إلى وضع القواعد ، وتاصيل الأصول ، وأن يتناول البيان ، فإنه وإن كثرت القول فيه إلا أن تحديد الفروق الدقيقة بين ألوانه لم تكن قد اتضحت ، ولهذا كانت محاولة الفرق بين التشبيه والتمثيل ، ومحاولة الفرق بين الاستمارة والتشبيه ، والفرق بين الاستمارة والتمثيل ، أكبر الدروس وأجلها في هذا الكتاب . فعبد القاهر قد اهتم بأمور كانت في حاجة إلى جهد ، وانصرف عن أمور انتهى القول فيها وهذا خلق الصالح الجواد . أما أن نفهم أنه انصرف عنها لقلة شأنها في البلاغة القرآنية فذلك بعد عن الحق فيما أرى . ولو تأملنا

(١) مذكرة في البلاغة ص ٨٥ للاستاذ المرحوم الشيخ سليمان نوار

ما كتبه في التجسس والسجع لوجدناه دفاعاً عن بلاغة هذه الفنون ، ومحارلة جادة لتجلية جانبها المشرق ، الذي أطلقته تكلفات الأدباء والشعراء في زمانه .

ولنا بحث مستفيض في هذا الموضوع ضمنناه دراستنا لبلاغة المفتاح وتأمل أن يشرح قريباً إن شاء الله .

وقد يقال أن عبد القاهر اهتم بالتشبيه الحسي ، وأنواعه وقد سبقته جهود فيه جمعت حديثه فيه كالعماد — وأقول نعم إن ذلك حق ، ولكن الذي أفهمه أنه ذكر التشبيه الحسي وكرر القول فيه بالنسبة إلى من سبقه لأنه يريد أن يوضح ويظهر الفرق بينه وبين التمثيل ، فلا مفر من استيعاب جميع صورته ، ولذلك كانت أول عبارته في دراسة التشبيه هي بيان تقسيمه إلى تشبيه وتمثيل ، ثم استطرده به القول وفاء بحق البحث .

ولما ذكر الزمخشري علم المعاني وهلم البيان وسكت عن علم البديع زعم السيد الشريف أنه يرى أن البديع ذيل لعلم المعاني والبيان ، ولست أدري كيف يفهم هذا من كلام الزمخشري الذي لم يشر إلى أن المعاني والبيان رأس البلاغة حتى نفهم أنه اعتبر البديع ذيلاً ؛ وسوف يتضح لنا مذهبه في البديع حين نعرض دراسته لفنون البديع وبيانه لقيمتها البلاغية ، وقد يكون فيما قدمناه من إشاراتنا إلى ألف رانه فن دقيق المسلك لا يمتدى إليه إلا النقب المحدث ، وفيما ذكره في المسالك وأنها فن من فنون البلاغة وشعبة من شعبها . قد يكون في هذا وذاك ما يقوى زعمنا من عدم إصابة مولانا الشريف كبد الحق حين حسب أن الزمخشري جعل البديع ذيلاً في بلاغة القرآن المعجزة وكان على الأستاذ العلامة الدكتور شوقي وهو الباحث الذكي أن يشير إلى خطأ السيد في هذه المسألة خير من أن يعتبر عبارته أصلاً يبنى عليه رأيه في تصور الزمخشري لفنون البديع متأثراً في هذا بما ذكره الفاضل الجويني في مذهب الزمخشري في البديع ، هل أننا لا نحسب عبارة الزمخشري في الجنس وأنه مما سماه المحدثون البديع مسقطاً له ، لأنها ناظرة إلى عبارة الجاحظ في الاستعارة ، وأنها بما سماها المحدثون البديع ، فكان أن عبارة الجاحظ هذه لا تسقط القيمة البلاغية لفن الاستعارة فكذلك عبارة الزمخشري لا تسقط القيمة البلاغية لفن الجنس ، أو لفنون البديع نعم قد

ذكر أن الجناس قشور وقد ذكرنا أن ذلك قول يتجه به الزمخشري كما فعل غيره إلى طائفة من الشعراء والأدباء. عنام عبد القاهر قبله بقوله ، وقد تجد في كلام المتأخرين كلاماً حمل صاحبه فرط شغفه بأمور ترجع إلى ماله اسم في البديع إلى أن ينسى أنه يتكلم ليفهم ويقول لبين (١) .

وقد ذكر الزمخشري في الترشيح أنه من الصنعة البديعية التي تبلغ بالهجاز الدرورة العليا ، وأن الكلام الذي يتأتى فيه هذا الفن تأتياً طبعياً يتلاحق ، لم تر كلاماً أحسن منه ديباجة وأكثر ماء ورونقاً .

فإذا كانت الاستعارة مظهراً من مظاهر الإعجاز البيان أو سرّاً من أسرار البلاغة ، فهل يمكن القول بأن الترشيح وهو ماؤها ورونقها ليس مظهراً من مظاهر الإعجاز ، وليس سرّاً من أسرار البلاغة ، وإنما هو ذيل تابع للبلاغة في مفهوم الزمخشري ؟

أما الألوان التي ذكرها الزمخشري مما جعله المتأخرون من علم البديع والتي نرى حديثه فيها أصدق دليل على ما أفوله في فهم مذهبه في البديع فهي :

١ - المشاكلة ويسمى بالمقابلة أحياناً وهو يعنى بالمقابلة معناها القوي .

يقول في قوله تعالى ، إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ، ويجوز أن تقع هذه العبارة في كلام الكفرة ، فقالوا أما يستحي رب محمد أن يضرب مثلاً بالذباب والعنكبوت ؟ مجاز على سبيل المقابلة وإطباق الجواب على السؤال ، وهو فن من كلامهم بديع وطرار عجيب منه قول أبي تمام :

من مبلغ أفتاء يعرب كلها أني ببيت الجار قيل الخذل
وشهد رجل عند شريح فقال إنك لسبب الشهادة فقال إنها لم تحمد عني ، فقال
له بلادك وقيل شهادته ، فالذي سوغ بناء الجار وتحميد الشهادة هو مراعاة
المشاكلة ولولا بناء الدار لم يصح بناء الجار . ولولا سبب الشهادة لاشتغ تحميداً
ولله در أمر التنزيل وإحاطته بفتون البلاغة وشعبها ، لانكاه تسترّب منها قسماً

إلا عثرت عليه فيه هل أقوم مناهجه وأسد مدارجه (١) .

والمشاكله في قوله تعالى ، إن الله لا يستحي ، وفي قول أبي تمام ذكر الشيء بلفظ غيره المقدر ذكره ، لأن قولهم أما يستحي رب محمد غير مذكور في الكلام ، وكذلك بناء المنزل إذ التقدير : أنى بنيت الجار قبل بناء المنزل ، وقول الشاهد إنها لم تحمد عنى فيه مشاكله بذكر ضد اللفظ المذكور ، لأن التجميد هنا معناه امتناع الشهادة وتأييها عليه . وضح ذلك لأن القاضى ذكر السبوة في ضد ذلك ، فشاكل الشاهد بذكر ضد ما ذكر القاضى . وهذا الذى ذكره الزمخشري يكاد يكون بافظه في الإيضاح (٢) .

ويقول الزمخشري في قوله تعالى ، صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ،

وهي فعلة من صبغ كالجلسة من جلس ، وهي الحسالة التى يقسع عليها الصبغ والمعنى تطهير الله . لأن الإيمان يطهر النفوس ، والأصل فيه أن النصارى كانوا يمتسون أولادهم في ماء أصفر يسمونه المعمودية ، ويقولون هو تطهير لهم ، وإذا فعل الواحد منهم بولده ذلك قالوا الآن صار نصرانياً حقاً فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة لأمثل صبغتنا ، وطهرنا به تطهيراً لأمثل تطهيرنا ، أو يقول المسلمون صبغنا الله بالإيمان صبغة ، ولم نصيغ صبغتم وإنما جىء بلفظ الصبغة هل طريقة الشاكله كما يقول لمن يفرس الأشجار افرس كما يفرس فلان تريد رجلاً يصطنع الكرام (٣) .

والمشاكله هنا بين قول وفعل لأن الفرس لم يجر ذكره تحقيقاً ولا تقديرأ كما في الأمثلة الأخرى (٤) . وقد نقل الخطيب هذا النص وجعله من القسم الثانى من المشاكله وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في محبته تقديرأ ، لأن لفظ الصبغ لم يقع من النصارى (٥) .

(١) الكشاف ج ١ ص ٨٥

(٢) نظير بنية الإيضاح ج ٤ ص ٢٣

(٣) الكشاف ج ١ ص ١٤٧

(٤) نظير حاشية الهباب ج ٧ ص ٢٤٨

(٥) بنية الإيضاح ج ٤ ص ٢٤

ويقول في قوله تعالى : تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك ، والمعنى تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ، ولسكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة ، وهو من فصيح الكلام وبينه ، فقبل في نفسك لقوله في نفسي (١)

والمشاكلة هنا من فصيح الكلام وبينه .

وقد يكون ذكر الشيء بلفظه المذكور في صحبته يصلح أن يكون مبنياً على التشبيه ، ولكن الزمخشري يجعله من طريق المشاكلة ، ثم يشير إلى ما ينطوي عليه هذا التعبير من فوائد أساسها علاقة الشبه .

يقول في قوله تعالى : وقال لهم موسى أقوا ما أنتم ملقون فآلقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون فألقى موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون فألقى السحرة ساجدين ، قال وإنما عبر عن الخرورج بالإلقاء لأنه ذكر مع الإلقاءات فسلك به طريق المشاكلة وفيه أيضاً مع مراعاة المشاكلة أنهم حين رأوا ما رأوا لم يتمالكوا أن رموا بأنفسهم إلى الأرض ساجدين كأنهم أخذوا فطرحوا طرحاً (٢)

وقد يطلق المزارجة على صور المشاكلة يقول في قوله تعالى : وإن عاقبتهم فمأقبوا بمثل ما عوقبتهم به ، سمي الفعل الأول باسم الثاني للموازجة (٣) .

٢ - الف :

يذكر الزمخشري صوراً من الف .. منها ذكر المتعدد على جهة الإجمال ، ثم ذكر ما السلك على جهة التفصيل ثقة بأن السامع سيرده يقول في قوله تعالى : وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، والمعنى وقالت اليهود لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى ، فلف بين القولين ثقة بأن السامع يرد إلى كل فريق قوله ، وأما من

(١) الكشاف ج ١ ص ٥٤١

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٢٤٦

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٥٠٢

الإلباس لما علم من التعادى بين الفريقين ، وتضليل كل واحد منهما لصاحبه ، ونحوه ، وقالوا كانوا هودا أو نصارى تهتدوا (١) .

والآية من شواهد الإيضاح وما ذكره الخطيب فيها منقول من كلام الزمخشري (٢) .

ويشير إلى ذكر المتعدد على جهة التفصيل والترتيب .

يقول في قوله تعالى : لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير ، ... وهو اللطيف يلف عن أن تدركه الأبصار ، الخبير بكل لطيف ، فهو يدرك الأبصار لا تالف عن إدراكه ، وهذا من باب اللف (٣) .

وقد يكون ذكر المتعدد وتوابعه على غير ترتيب ، فيشير إلى ترتيبه ويعال إعماله ، يقول في قوله تعالى : ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغواكم من فضله :

هذا من باب اللف ، وترتيبه ومن آياته منامكم وابتغواكم من فضله بالليل والنهار إلا أنه فصل بين الفريقين الأولين بالقرينتين الأخيرين لأنهما زمانان ، والزمان والواقع فيه كشيء واحد مع إمانة اللف على الاتحاد (٤) .

ويشير إلى نوع من اللف يلف مسلكه ويدق فهمه .

يقول في قوله تعالى : فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتذكروا العدة ولتذكروا الله هل ما هداكم وللملكم تشكرون ، :

الفعل المطلق محذوف مدلول عليه بما سبق ، تقديره ولتذكروا العدة ولتذكروا الله هل ما هداكم وللملكم تشكرون ، فعل ذلك يعني جملة ما ذكر من أمر الشاهد

(١) الكشاف ج ١ ص ١٤٢

(٢) ينظر بنية الإيضاح ج ٤ ص ٣٤

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٤٣

(٤) الكشاف ج ٣ ص ٣٧٣

بصوم الشهر وأمر المرخص له بمراعاة عدة ما أظن فيه . ومن الترخيص في إباحة
الفطر ، فقوله اتكلموا عدة الأمر بمراعاة العدة . وتكبروا عدة ما علم من كيفية
القضاء والخروج عن هدة الفطر ، ولعلمك تشكرون عدة الترخيص والتيسير ،
وهذا نوع من ألف لطيف المسلك ، لا يكاد يهتدى إليه إلا الثقات المحدث من
علماء البيان (١) .

وقد أشار سعد الدين إلى هذا النوع . وقال: وهنا نوع آخر من ألف لطيف
المسلك ، وهو أن يذكر متعدد على التفصيل ، ثم يذكر ما لكل ويؤتى بعده
بذكر المتمدد ملفوظاً أو مقدراً فيقع النشر بين لفين ، أحدهما مفصل ، والآخر
بجمل . وهذا معنى لطف مسلكه ، ثم نقل كلام الزمخشري السابق وأورد عليه
اعتراضاً ، ملخصه : أن الزمخشري ذكر في ألف أمر الشاهد بصوم الشهر
ولم يجعل له مقابلاً في العمل وأنه ذكر في العمل وتكبروا واعتبرها عدة لما علم
من كيفية القضاء ، وهذا لم يذكر في المعلمات ، وأجاب بأن ذكر الشاهد بالصوم
لم يذكر إلا ليبنى عليه غيره فليس ما يذهب إلى ذكر عدة له ، وأن ما علم من
كيفية القضاء مفهوم من الأمر بمراعاة العدة ، وبهذا يكون تطبيق العلى على
المعولات في كلام الزمخشري وافياً وصحيحاً (٢) .

وقد تكون الصفات الراجعة إلى المذكور متقابلة فيجتمع الف والطباق ،
يقول الزمخشري في قوله تعالى: «مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير والسميع»
وشبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ؛ وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ،
وهو من ألف والطباق (٣) .

٣ - الاستطراد :

وقد أشار الزمخشري في مواطن كثيرة إلى طريقة الاستطراد وذلك في بيانه
لمناسبات الجمل وعلاقات أجزاء الكلام بعضها ببعض .

(١) الكشاف ج ١ ص ١٧٢

(٢) ينظر المطول ٤٢٧ ، ٤٢٨

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٤٠٦

يقول في قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هي موافقت للناس والحجج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى ، فإن قلت ما وجه اتصاله بما قبله (يعنى ليس البر) قلت ويجوز أن يجرى ذلك على طريق الاستطراد ، لما ذكر أنها موافقت للحجج لأنه كان من أفعالهم في الحج (١)

ويقول في قوله تعالى : « وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ، فتعالى الله الملك الحق ، ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه ، ولما ذكر القرآن وإنزاله قال على سبيل الاستطراد وإذا لقنتك جبريل ما يوحى إليك من القرآن فتأن عليه ريشما يسمعك ويفهمك ثم أقبل عليه بالتحفظ بعد ذلك (٢) .

ويقول في قوله تعالى : « ولو آمن أهل القرى لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون لن يضرركم إلا أذى ، فإن قلت ما موقع الجملتين أحق منهم المؤمنون ، لن يضرركم إلا أذى ؟ قلت هما كلامان واردان على طريق الاستطراد عند إجراء ذكر أهل الكتاب ، كما يقول القائل وهل ذكر فلان فإن من شأه كبت وكبت ، ولذلك جاء من غير عاطف (٣)

وينقل صاحب الإيضاح في بحث الاستطراد قوله في آية « يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا يواري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير ، يقول الرغشري فيها : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقيب ذكر بدء السوداء ، وخصف الورق عليها ، إظهاراً للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما في العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن القستر باب عظيم من أبواب التقوى (٤)

(١) الكشاف ج ١ ص ١٢٢

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٧١

(٣) الكشاف ج ١ ص ٢٠٥

(٤) الكشاف ج ٢ ص ٧٦ ونظر بنية الإيضاح ج ٤ ص ٢٥

٤ - التفصيل :

وأشار إلى طريقة الإجمال والتفصيل ، وإلى قيمتها في أداء المعنى في تارة تفيد التعظيم ، يقول في قوله تعالى : « لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أرأيت بعضهم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا في سبيل وقاتلوا وقتلوا لا كفرن عنهم سيئاتهم ، يقول فالذين هاجروا تفصيل لعمل العامل منهم على سبيل التعظيم له والتفخيم ، كأنه قال فالذين عملوا هذه الأعمال السنية الفاتحة ، وهي المهاجرة من أوطانهم فارين إلى الله بدينهم... (١) .

وتارة تفيد تقوية المعنى ، وإثباته ، وذلك بإجماله أولاً حتى تنهياً النفس إلى معرفة تفصيله ، فإذا جاء مفصلاً كان أثره أبلغ ، وكان التفات النفس إليه أشد ، وأقوى . يقول في قوله تعالى : « قال رب اشرح لي صدري ويسر لي أمري ، فلن قلت في قوله اشرح لي صدري ويسر لي أمري ماجدواه والكلام بدونه مستتب ؟ قلت قد أبهم الكلام أولاً فقبل اشرح لي ويسر لي . فعلم أن ثم مشروحاً ويسراً ، ثم بين ورفع الإبهام بذكرهما ، فكان أكد لطلب الشرح والتيسير لصدوره وأمره من أن يقول اشرح صدري ويسر أمري على الإيضاح الساذج ، لأنه تكرر للمعنى الواحد من طريق الإجمال والتفصيل (٢) .

ويشير إلى حذف أحد أقسام المفصل أو التفصيل ، ودلالة المذكور على المحذوف ، يقول في قوله تعالى : « ان يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً ، فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ، . فان قلت التفصيل غير مطابق للمفصل لأنه اشتمل على الفريقين والمفصل على فريق واحد ، قلت هو مثل قولك جمع الإمام الخوارج فن لم يخرج عليه كساه وحله ، ومن خرج عليه نكل به ، وصحة ذلك لوجهين أحدهما أن يحذف ذكر أحد الفريقين لدلالة التفصيل عليه ، ولأن ذكر أحدهما يدل على ذكر الثاني ، كما حذف أحدهما في التفصيل في قوله عقيب هذا فأما الذين آمنوا بالله

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٥١ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٤٧ .

واعتصموا به ، والثاني وهو أن الإحسان إلى غيرهم بما يضمهم فكان داخلا في جملة التثكيل بهم ، فكأنه قيل ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيعذب بالحسرة إذا رأى أجور العاملين وبما يصيبه من عذاب الله (١) .

ولست أرى حذفاً في المفصل كما ذكر الزمخشري ، لأن قوله فسيحشرهم إليه جميعاً شامل للمستنكف وغير المستنكف ، وذكر عيسى عليه السلام والملائكة يرشح هذا . وقد أشار إلى ذلك ابن المنير وهو على حق . نعم إن المثال الذي ذكره صالح لهذا النوع الذي يحذف فيه قسم من المفصل ، ثم إن الآية بعده مثال صحيح للنوع الثاني الذي يحذف فيه قسم من التفصيل .

ويشير الزمخشري إلى أن أحد أقسام التفصيل قد يكون داخلا في الآخر ، ولكنه يذكر فسيما له لتخصص معناه بشيء دون شيء ، وبذلك يصح القسم فسيما .

يقول في قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا ولعباً من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، .

وفصل المستهزئين بأهل الكتاب والكفار وإن كان أهل الكتاب من الكفار إطلاقاً للكفار على المشركين خاصة (٢) .

٥ - الكلام الموجه :

ويذكر الزمخشري احتمال الكلام لوجهين مختلفين ويسميه القول ذا الوجهين يقول في قوله تعالى : واسمع غير مسمع وراعنا ، وهو قول ذو وجهين يحتمل الهم أي اسمع منا مدعوا عليك بلا سمعت لأنه لو أجيبته دعوتهم عليه لم يسمع ، فكان أصم غير مسمع ، ويحتمل المدح أي اسمع غير مسمع مكروهاً من قولك أسمع فلان فلاناً إذا سبه ، وكذلك قولهم راعنا يحتمل راعنا تسكمتك أي ارفقتنا ورائتنا ، ويحتمل شبه كلمة عبرانية أو سريانية كانوا يقسمون بها ... فكانوا سخرياً بالدين وهزوا برسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمونه بكلام محتمل يشوون به السخيمة والإهانة ويظهرون به التوقير والإكرام ... فإن قلت كيف جازوا بالقول المحتمل ذي الوجهين بعد ما صرحوا وقالوا سمعنا وعصينا ؟ قلت جميع الكفرة

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٦٤

(٢) الكشاف ج ١ ص ٤٠٦

كانوا يواجهونه بالكفر والمعصيان ولا يواجهونه بالسب ودعاء السوء (١) .

وقد نقل صاحب الإيضاح هذا التحليل ولم يزد في بيان التوجيه زيادة ذات فائدة عن ما ذكره الزمخشري هنا (٢) .

ويذكر الكلام الموجه أيضاً في قوله تعالى : قال معاذ الله أن تأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده . .

يقول معاذ الله هو كلام موجه ، ظاهره أنه وجب على نضية فتواكم أخذ من وجد فلم تطلبون ما عرفتم أنه ظلم ، وباطنه أن الله أمرني وأوحى لي بأخذ بنيامين واحتباسه لمصلحة أو لمصالح حجة ... فلو أخذت غير من أمرني بأخذه كنت ظالماً وعاملاً على خلاف الوحي (٣) .

(٦) التورية :

يقول الزمخشري في قوله تعالى : كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك ، فإن قلت ما أذن الله يجب أن يكون حسناً ، فن أي وجه حسن هذا الكيد ، وما هو إلا بهتان ، وتسريق لمن لم يسرق ، وتكذيب لمن لم يكذب ، وهو قوله إنكم لسارقون ، فما جزاؤه إن كنتم كاذبين ؟ قلت هو في صورة البهتان وليس بهتان في الحقيقة لأن قوله إنكم لسارقون تورية عما جرى مجرى السرقة من فعلهم بيوسف (٤) .

والتورية لا تظهر بمعناها الاصطلاحى في هذا التعبير لأنها إطلاق لفظ له معنيان قريب وبعيد وإرادة البعيد ، واللفظ هنا ليس ذا معنيين ، اللهم إلا إذا توسعنا في هذا وقلنا إن فعلهم بيوسف يشبه السرقة لما فيها من مخادعة ، وادعاء ، وكذب ، ولأنها في نهايتها كانت سرقة لأخيه .

(١) الكشاف ج ١ ص ٤٠٠

(٢) تنظر بنية الإيضاح ج ٤ ص ٦٤ ، ٦٥

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٣٨٤

(٤) الكشاف ج ١ ص ٢٨٤

ولذلك يمكن أن يقال إن التورية هنا أقرب إلى المعنى اللغوي الذي هو الاختفاء من قولهم وراء تورية أخفاه كواراه (١) لأنه عليه السلام أخفى مراده في هذا التعبير ، وليس للزخشرى حديث عن التورية في تفسيره إلا هذه الإشارة الغامضة ، وهذا راجع إلى أن هذا اللون البديعي لم يسكن في القرآن الذي جرى أسلوبه على أهراق البلاغة الأصلية ، متسما بوضوح الفطرة الإنسانية الصادقة ، ولهذا كانت شواهد الخطيب القرآنية في هذا اللون غير مسلبة له ، إذ أنه ذكر قوله تعالى : الرحمن على العرش استوى ، والسماء بيمينها بأيد ، وهذه من صور البيان ، وقد كره عبد القاهر أن تفسر اليد هنا بالقدر ، ولهذا قال سعد الدين إن الخطيب جرى في هذا على مذهب أهل الظاهر من المفسرين ، وهذا يعني أنه مخالف شيوخ البيان حين اعتبر هذه الأمثلة من التورية (٢) .

(٧) المقابلة :

والمقابلة قد تكون بين لفظين متقابلين ، كما في قوله تعالى : وإذا ذكر الله وحده اشمازت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون ، يقول الزخشرى ولقد تقابل الاستبشار والاشمئزاز إذ كل واحد منهما غاية في بابه لأن الاستبشار أن يتملأ قلبه سرورا حتى تنبسط له بشرة وجهه ويتهاى ، والاشمئزاز أن يتملأ غما وغيظا حتى يظهر الانقباض في أديم وجهه (٣) .

وقد تكون المقابلة بمعنى الموافقة في نظم الجمل ، يقول في قوله تعالى : والله الذي جعل لکم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ، فإن قلت لم قرن الليل بالمفعول له والنهار بالحال ، وملا كأنما حالين ، أو مفعولا لهما ، فيراعى حق المقابل ؟ قلت هما متقابلان من حيث المعنى لأن كل واحد منهما يؤدي مؤدى الآخر ، ولأنه لو قيل ليصروا فيه فأت الفصاحة التي في الإسناد المجازي ، ولو قيل ساكننا والليل يهوز أن

(١) القاموس المحيط ج ٤ ص ٣٩٩

(٢) ينظر المجلد ص ٤٢٥ ، ٤٢٦ وفيه الأيضاح ج ٤ ص ٢٩ ، ٣٠

(٣) الكشاف ج ٤ ص ١٠٢

يوصف بالسكون هل الحقيقة ، ألا ترى إلى قولهم ليل ساج وما كان لأربع
فيه لم تتميز الحقيقة من الجاز (١) .

ويقول في هذه الصورة في موطن آخر جعل الإبصار للنهار وهو لاهله . فإن
قلت ما للتقابل لم يراع في قوله ليسكنوا ومبصرا حيث كان أحدهما هلك والآخر
حالا ؟ قلت هو مراعى من حيث المعنى ، وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف لأن
معنى مبصرا ليبصروا فيه طرق التقاب في المكاسب (٢) .

(٨) الطباق .

وكما رأينا المقابلة تخرج عن معناها الاصطلاحى في كثير من المواقع التى
سماها مقابلة ، كذلك نرى الطباق وهو أصل المقابلة عند الخطيب يتعدد مدلوله ؛
فقد يراد به مقابلة الكلمات من حيث التضاد وهذا أقرب إلى المعنى البلاغى
الذى هو الجمع بين المتضادين أى معنيين متقابلين فى الجملة .
يقول الزمخشري . فى قوله تعالى : « مثل الفريقين كالأعمى والأصم والبصير
والسميع » .

شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم وفريق المؤمنين بالبصير والسميع وهو
من الألف والطاق (٣) .

وقد يذكر الطباق ويراد به موافقة أحوال الكلمات لمعانيها ، فالكلام
المطابق هو الذى تنزل فيه الأحوال على وفق المعانى . يقول فى قوله تعالى « هو
الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما نشأتما حلت
حلا خفيفا » .

وقال ليسكن فذكر بعد ما أتت فى قوله واحدة منها زوجها ذمها إلى معنى

(١) الكشاف ج ٤ ص ٥٣٧

(٢) الكشاف ج ٣ ص ٣٠٣

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٢٠٣

النفس ليبين أن المراد بها آدم ولأن الذكر هو الذي يسكن إلى الأئسى ويتنفسها
فيكان التذكير أحسن طبقاً للمعنى (١) .

وقد يذكر الطباقي بمعنى لا يبعد كثيراً عن معنى الف الذي سبق ذكره يقول
في قوله تعالى : كتاب أحسكت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير ، فإن قلت
ما معنى ثم ؟ قلت : ليس معناها التراخي في الوقت ولكن في الحال كما تقول هي
حكمة أحسن الأحكام ، مفصلة أحسن التفصيل ، وفلان كريم الأصل ، ثم كريم
الفعل ، وكتاب خبر مبتدأ محذوف ، وأحسكت صفة له ، وقوله من لدن حكيم
خبير صفة ثانية ، ويجوز أن يكون خبراً بـمد خبر ، وأن يكون صلة لأحسكت
وفصلت ، أي من عنده إحكامها ، وتفصيلها ، وفيه طباق حسن لأن المعنى
أحكمها حكيم وفصلها أي بينها وشرحها خبير عالم بكيفيات الأمور (٢) .

والفرق بين هذه الآية وآية لا تدركه الأبصار التي ذكر أنها من الف أن
الأوصاف هناك لموصرف واحد هو المولى عز وجل ، فهو لا تدركه الأبصار
وهو اللطيف ، وهو الذي يدرك الأبصار وهو الخبير ، وهنا الإحكام والتفصيل
وصفان للكتاب ، والحكيم والخبير وصفان للمولى عز وجل ، وكان الطباقي لأن
الكتاب المحكم المفصل من عند حكيم خبير ، وقد يذكر الطباقي بمعنى مراعاة
تلازم الالفاظ ووقوعها في مواقعها ، وقد يبدو من ظاهر التعبير ما يخالف هذا
الأصل أي تبدو الكلمات وكأنها متباعدة ، وحينئذ يحاول الزمخشري أن يكشف
تطابقها المعنوي مشيراً إلى أن المطابيع هم الذين يراهم طباقي المعاني .

يقول في قوله تعالى : وقالوا قلوبنا في أكنة بما تدعوننا إليه وفي آذاننا وقر ،
فإن قلت هلا قيل على قلوبنا أكنة ، كما قيل وفي آذاننا وقر ، ليعكون الكلام
هل نمط واحد ؟ قلت هو هل نمط واحد لأنه لا فرق في المعنى بين قولك قلوبنا
في أكنة وقلوبنا أكنة ، والدليل عليه قوله تعالى إنا جعلنا على قلوبهم أكنة ،
ولو قيل إنا جعلنا في قلوبهم أكنة لم يختلف المعنى ، وترى المطابيع منهم لا يراهم

(١) الكتاب ٦ ص ١٤٥

(٢) الكتاب ٦ ص ٢٩٦

الطباق والملاحظة إلا في المعاني (١).

ويقول في قوله تعالى « وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكفروا بالغيه » فإن قلت كيف طابق قوله لم تكفروا بالغيه قوله وتحمل أثقالكم ، وهلا قيل لم تكفروا حاملها ؟ قلت طباقه من حيث أن معناه وتحمل أثقالكم إلى بلد بعيد قد علمتم أنكم لا تبلغونه بأنفسكم إلا بجهد ومشقة فضلا أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم ، ويجوز أن يكون المعنى لم تكفروا بالغيه بها إلا بشق الأفس (٢) .

(٩) الازدواج :

أشار الزمخشري إشارة قصيرة إلى الازدواج ، وهو يعني به توافق آخر الكلمات في النطق ، فهو قريب من السجع الذي سكت عنه واكتفى بالإشارة إلى الحسن اللفظي ، أو توافق الفواصل . ولعله يرى أنه لا يصح إطلاق السجع على أسلوب القرآن ، والازدواج ليس فنا بديعيا مستقلا في بلاغة الإيضاح وشرح التلخيص ، وإنما أشار الخطيب إليه في دراسة السجع حيث يقول إن فواصل الأبيات موضوعه على أن تكون ساكنة الإعجاز موقوفا عليها ، لأن الغرض أن يزوج بينها ، ويقول : وإذا رأيتهم يخرجون الكلام عن أوضاعه للازدواج في قولهم أني لآتيه بالهدايا والعشايا .

وقد يكون هذا كل ما ذكر عن الازدواج في الإيضاح .

أما إشارة الزمخشري القصيرة إلى هذا اللون فقد ذكرها في قوله تعالى « وقالوا لا ندرن آلهتكم ولا ندرن ردا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » . وقرأ الأعمش ولا يغوثا ويعوقا بالعرف ، وهذه قراءة مشككة لأنهما إن كانا هريبين أو أعجميين ففيهما سببا منصرف ، إما التعريف ووزن الفعل ، وإما التعريف والعجمة ، ولعله قصد الازدواج فصرفهما لمصادفته آخراتهما منصرفات ردا ، وسواعا ، ونسرا (٣) .

(١) الكشاف ج ١ ص ١٤٥

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٤٦٣

(٣) الكشاف ج ٢ ص ٤٩٦

قالقراءة قد تخالف أصول النحو لتراهي توافق النغم الصوتي ، وهذا التوافق لا شك في أنه أمر يتعلق باللفظ وحسنه ، وذلك جزء هام في البلاغة القرآنية .

(٢٠) التجانس :

وقد كان الجناس من فنون البديع التي ذاعت في القرن السادس الذي كتب فيه بحث الكشف ، وكان هذا الجناس غاية الأديب ، يقصد إليه ، ويتكلفه ، فسقط واسترذله النقاد ، وليس ذلك راجعاً إلى قلة شأنه في الأسلوب إذا وقع مطبوعاً ، بل إن غرام الأدباء به وتعلقهم بصوره دليل على أصالته وتأثيره وإن عجزوا عن أن يصوغوا منه صوراً زاهية ، فحين هاجم النقاد هذا اللون البديعي إنما هاجموا صورته المتكلفة المرذولة ، ومثل الجناس في هذا مثل الاستعارات التي أغرب فيها أبو تمام وتكلفها ، فليس استسقاط هذه الصور دليلاً على قلة شأن الاستعارة في الأسلوب ، وإنما هو استرذال لصور متكلفة قبيحة كانت أثراً من آثار الإفراط فيها .

وقد وجدت هذا المعنى ينضح به كلام الزمخشري في هذا الفن .

يقول في قوله تعالى « وقال يا أسفي على يوسف ، والتجانس بين لفظي الأسف ويوسف مما يقع مطبوعاً غير متعمد فيملح ، ويبدع ، ونحوه « انما قلتم إلى الأرض أرضيتم ، ، « وم ينون عنه وينأون عنه ، ، « ويحسبون أنهم يحسنون صنما ، ، « من سباً بنياً ، (١) .

وكان الزمخشري يشير بهذا إلى أن هناك تجانساً يقع متكلفاً مصنوعاً فلا يملح ولا يحسن ويقول في قوله تعالى « من سباً بنياً ، وقوله « من سباً بنياً من جنس الكلام الذي سماه المحدثون البديع ، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلق باللفظ بشرط أن يجيء مطبوعاً ، أو يضمنه عالم بجمهور الكلام ، يحفظ معه صحة المعنى وسداده ، ولقد جاء هنا زائداً على الصحة فحسن ، وبدع ، لفظاً ومعنى ، ألا ترى أنه لو وضع مكان بنياً بنياً بغير لكان المعنى صحيحاً ، وهو كما جاء أصح لما في النبأ من الزيادة التي يطابقها وصف الحال (٢) .

(١) الكشف ج٢ ص ٢٨٦

(٢) الكشف ج٢ ص ٢٨٦

فإذا كان الجناس من محاسن اللفظ فهو يقع في القرآن مطبوعاً غير متكلف ،
فيحسن ويبدع لفظاً ومعنى ، وهو من صميم البلاغة بشرط أن يضعه عالم بجمهر
الكلام يحفظ معه صحة المعنى ، وسداده ، وكان هناك تجنيساً لا يراه في هذا
الشرط فيضعه متكفرون أدهياء لا يحفظون فيه روح المعنى ، ولا سلامة النظم ،
وقد أشرت إلى هذا في أول الفصل .

(١١) تأكيد المدح :

قد أشرت في بحث الجملة إلى المعاني الأدبية لصيغة النفي والاستثناء ، وأشرت
كذلك في دراسة العكس إلى أن الزمخشري يربط صوراً من التثويج والاستعارة
الضدية بعضها ببعض ، ويجعلها من باب العكس .

وأشرت إلى أن التأكيد في طريقة الاستثناء ليس محاصراً بتأكيد المدح
ولا بتأكيد الذم .

ولما كنت أتكلم هنا عن ألوان البديع رأيت من الحسن أن أذكر شيئاً من
كلامه في هذه الطريقة ليتضح لنا مقدار ما عالج من فنون البديع ، وكيف كان
يعالجها ، يقول الزمخشري في قوله تعالى : لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً ، أى إن
كان تسليم بعضهم على بعض أو تسليم الملائكة عليهم لغواً فلا يسمعون لغواً
إلا ذلك ، فهو من وادى قوله :

ولا هيئ فيهم غير أن سيوفهم بين قلوب من قراع الكتائب (١)
ويقول في قوله تعالى : قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ،
فإن قلت لم رفع اسم الله والله يتعالى أن يكون بمن في السموات والأرض ،
قلت جاء على لغة بني تميم حيث يقولون ما في الدار أحد إلا حمار ، يريدون
ما فيها إلا حمار ، كأن أحداً لم يذكر ، ومنه قوله :
عسيرة ما تغنى الرماح مكانها ولا النبل إلا المشرفي المصمم
وقولهم ما أتاني زيد إلا عمرو ، وما أمانه إخوانكم إلا إخوانه . فإن قلت

ما القاهى إلى اختيار المذهب التيمى على الحدازى ؟ قال دهه إلى تكفة صرية
حيث أخرج المسئقى مخرج قوله إلا اليحافير ، بعد قوله ليس بها أليس ليقول
المعنى إلى قوله إن كان الله من فى السموات والأرض فهم يعلمون الغيب ، يعنى
أن عليهم الغيب فى استحالته كاستحالة أن يكون الله منهم ، كما أن معنى ما فى البيت
إن كانت اليحافير أيبا فبها أيبس بتا لقول بظلوما من الأيبس (١).

(١٢) الإدماج :

قد أشار الزمخشرى إلى الكلام الذى يدرج تحت معنى آخر . وهذه الطريقة
سماها البلاغيون الإدماج .

يقول فى قوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر
من شيء . قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ليعملوه
فراطيس تبدونها وتخفون كثيرا . . والمقاتلون هم اليهود بدليل قراءة من قرأ
تصلوه بالفاء وكذلك تبدونها وتخفون ، وإنما قالوا ذلك ببالغة فى إنكار إنزال
القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالزموا ما لا بد لهم من الإقرار به من
إنزال التوراة على موسى عليه السلام ، وأدرج تحت الإلزام تويينهم ، وإن
سمى عليهم سوء جهلهم لكتابهم ، وتحريرهم ، وإبداء بعض ، وإخفاء بعض ،
فقبل جاء به موسى وهو نور وهدى للناس ، حتى خبروه ، واتقصوه ، وجعلوه
فراطيس مقطعة ، ورفات مفرقة ، ليتمكنوا بما راموا من الإبداء والإخفاء (٢) .
قال ابن المنير وهذا من دقة نظره فى الكتاب العزيز ، والتعمق فى آثار معادته
ولبراز محاسنه (٣).

(١) الكتاب ج ٢ ص ٥٩٧ وما بعدها

(٢) الكتاب ج ١ ص ٤٤

(٣) فى الراجح

الباب الثاني أثر الكشاف في الدراسات البلاغية

- (١) أثره في مدرسة المفتاح .
- (٢) أثره في كتاب المثل السائر .
- (٣) أثره في كتاب الطراز .

www.alkottob.com

الفصل الأول

أثر الكشاف في مدرسة المفتاح

أثره في كتاب المفتاح :

- ١ - في تقسيم البلاغة
- ٢ - في الالتفات
- ٣ - أحوال المسند والمسند إليه
- ٤ - إن وإذا
- ٥ - التعليل
- ٦ - الكلام المنصف
- ٧ - التعبير بالمضارع عن الماضي
- ٨ - الفصل والوصل
- ٩ - الإيجاز والإطناب
- ١٠ - الاستعارة في الحرف

أثره في كتاب الايضاح (تاليف من مواقف الخطيب من بلاغة الكشاف)

أثره في كتاب المطول :

(١) أثر سعد الدين في بلاغة الكشاف

(ب) أثر بلاغة الكشاف في كتاب المطول

أثره في كتاب المفتاح

لا يبارى منصف في أن أبا يعقوب كان رجلاً قادر العقل ساد الذهن واسع الثقافة متضلماً في علوم شتى (١).

وقد كانت مباحث البلاغة تدرس قبله وكانها جذافات من الورق في كل قطعة منها مسألة ويختلف ترتيب هذه المسائل في المکتب البلاغية كما يختلف ترتيب هذه الجذافات قبل أن تمتد نحوها يد تنظم وتفسق ، وهذا واضح فيما كتبه عبد القاهر الجرجاني ، وفيما نشره الزمخشري في كشفه .

نعم كان هناك إحساس بأواصر قوية بين الفنون المتصلة بدراسة الصورة البيانية فكان يجمع التشبيه مع المجاز والكناية في نظام واحد ، إلا أن هذا كان إحساساً غامضاً ، وقد يتخلف فتختلط المسائل كما هو الحال في كتاب دلائل الإعجاز . وكان ذكر الزمخشري لعلى المعاني والبيان إشارة بيّنة إلى تمييز هذه المسائل وتصنيفها في هذين العليين وإن كان ذلك لم يتم على يده .

وكان من الخير كما يرى السكاكي أن تضبط مسائل هذين العليين وأن تحدد تحديداً بيّناً وأن تميز تمييزاً ، واضعاً فكان هو أول من فعل ذلك فحدد أبواب علم المعاني وحصرها ، وحدد أبواب علم البيان وحصرها ، فأتم بذلك ما بدأ الزمخشري . وكان عجيباً في تصوره لطريقة ضبط معاني هذين العليين ، ورسمه لها طريقاً يحيط بكل شعبتهما ، ووضعه لهما منهجاً يستوعب الأصول والفروع .

(١) وله أبو يعقوب يوسف السكاكي في خوارزم سنة خمس وخمسين وخمسة الهجرة وذكر صاحب روضات الجنات أنه كان في أصول أحد أبويه سكاكي ، وذكره بعض من ترجموا له بين السكاكي والسكاك المهاريث التي تفاح بها الأرض ، وكانت داخلة في صناعة المعادن ، وقد أجمع من ترجموا له أنه ظل مشغولاً بصناعة المعادن حتى تجاوز الثلاثين من عمره ، ثم شغل بالعلم طلباً للعلو عند السلاطين ، وبرع في علوم شتى ، منها السحر ، والتنجيم والبلاغة والنحو ، والاستدلال ، والعروض ، وله مؤلفات أشهرها كتاب المفتاح ، ونوى رحمه الله في سنة ست وعشرين وستائة ، وقيل في سنة ثلاث وعشرين ، وقيل في سبع وعشرين ، . ينظر بحث بلاغة المنجاج دراصه وتقوم مخطوط بكتيبة اللغة العربية لسكاكي هذا البحث ، والبلاغة عند السكاكي الدكتور احمد مطلوب ، ومعجم الأدياء لياقوت ، وطلبات العالمة السكاكي .

وكان منهجه في ضبط مسائل كل علم ثمرة لنظرة في تعريفه .

فقد ذكر أن علم المعاني هو تتبع خواص تراكيب الكلام وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ، ليحترز بالوقوف عليها عن الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضى الحال ذكره .

ومن هذا التعريف وضع لعلم المعاني منهجه المحدد ، وأبوابه المعروفة ، ولم يسبق بشيء مما ذكره في هذا التحديد . والذي يلتفتنا في هذا التعريف هو ذلك الربط القوي بين هذا العلم والنصوص الأدبية الرفيعة ، إذ أنه يعني بالتراكيب تراكيب البلغاء المفهومة لهم بالسبق والتفوق .

وقد نظر السكاكي فوجد التعرض لخواص التراكيب موقوفاً على التعرض للتراكيب . ثم أن التعرض لتراكيب الكلام وهي منتشرة أمر يصعب ، فوجب المصير إلى إيرادها تحت الضبط . ولهذا صنف كلام العرب في قسمين كبيرين الخبر والإشياء ، ثم رأى أن الخبر يرجع إلى الحكم بمفهوم لمفهوم وهو الذي لسميه الإسناد الخبري ، فتحصل له أربعة أبواب :

١ - الإشاء ٢ - أحوال المفهوم المحكوم به (المستند)

٣ - أحوال المفهوم المحكوم عليه (المستند إليه) ٤ - أحوال الإسناد ... وهكذا ظلت تتولد أبواب المعاني وتتفرع من هذا التصور النظري الخالص .

وكان هذا هو الحال في علم البيان الذي حده بقوله ، أما علم البيان فهو معرفة إيراد المعنى الواحد في طرق مختلفة بالزيادة في وضوح الدلالة عليه . وبالتقصان ، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ في مطابقة الكلام لتام المراد منه ، ثم مهد له بقاعدة بين فيها مسائل هذا العلم ، وكان يلمح في هذا حديث عن الدلالة سبقه إليه العلامة ابن الخطيب الرازي في كتابه نهاية الإيجاز ، فقد تكلم في كتابه هذا عن الدلالة الوضعية والدلالة العقلية . ومن العقبية دلالة اللفظ على جزء داخل في مفهومه ، كدلالة لفظ البيت على السقف ، ودلالة اللفظ على خارج عنه لازم له كدلالة السقف على الحائط . ولم يذكر السكاكي شيئاً واندا على ما ذكره الرازي في موضوع الدلالة يمكن أن يعتمد به .

ثم يقول السكاكي بعد ذكر كلام الرازي في الدلالة - وإذا حرفت أن إيراد

المعنى الواحد على صور مختلفة لا يتأتى إلا في الدلالات العقلية وهي الانتقال من معنى إلى معنى بسبب علاقة بينهما كالزوم أحدهما الآخر بوجه من الوجوه ، ظهر لك أن علم البيان مرجعه اعتبار الملازمات بين المعاني ، ثم إذا عرفت أن الزوم إذا تصور بين الشئيين فيما أن يكون من الجانبين كالذي بين الأمام والخلف بحكم العقل أو بين طول القامة وطول النجاد ، بحكم الاعتقاد ، ظهر لك أن مرجع علم البيان اعتبار هاتين الجهتين جهة الانتقال من ملزوم إلى لازم ، وجهة الانتقال من لازم إلى ملزوم . . . وإذا ظهر لك أن مرجع علم البيان هاتان الجهتان علمت أن انصباب علم البيان إلى التعرض للمجاز والسكناية ، فإن المجاز ينتقل فيه من ملزوم إلى لازم . . . وأن السكناية ينتقل فيها من اللازم إلى الملزوم .

وقد شعر السكاكي بما في هذه الطريقة التي حدد بها أبواب علم البيان من التكلف والتجشم فقال وكأنه يعتذر (والمطلوب بهذا التكلف هو الضبط) .

ومن الواضح أن دراسة أهل خوارزم للبلاغة العربية دراسة ذات خصائص متشابهة وأن تقسيم البلاغة إلى علمي المعاني والبيان لم يظهر ولم يتم إلا في هذه البيئة .

وبحث المفتاح وإن كان امتدادا لهذا الاتجاه فقد أخذ طابعا واضحا ميزه عن البحوث الأخرى التي نهض بها رجال هذه البيئة . فإذا كانوا جميعاً يعنون ببحث الجملة وصياغتها كما يعنون بدراسة صور البيان ، فإن السكاكي قد شغل بهذا ، إلا أن دراسته كانت علمية ومحددة وجافة أو هي استنتاجات عقلية وتقنين منطقي لما استطاع إدراكه من كلام أئمة ثلاثة عرفتهم ببيئته ، وهم : عبد القاهر الجرجاني ، ومحمود بن عمر الزمخشري ، وابن الخطيب الرازي ، ولعل هؤلاء هم الأصحاب الذين يذكرهم كثيرا في كتابه .

وقد سارت الدراسة البلاغية في هذه البيئة في مراحل ثلاث كما أتصور :

المرحلة الأولى كانت جهودا نظرية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالنص الأدبي وذلك واضح في كتاب عبد القاهر الجرجاني .

والمرحلة الثانية كانت جهوداً تحليلية تطبيقية تنفذ من خلال النص إلى مس
القواعد والأصول أو تحديدها وذلك واضح في دراسة الزعشمي في كتابه .

والمرحلة الثالثة كانت جهداً نظرياً خالصاً ، تشوبه أحياناً ومضات تحليلية ،
بعضها سرى إليها من المرحلتين الأولى والثانية ، وبعضها كان من جهد السكاكي ،
ولم يكن له سبق في هذا الباب .

وإذا كان أبو يعقوب في عمله الأكبر الذي هو تحديد مسائل على
المعاني والبيان يسير على الطريق الذي رسمه الزعشمي ، فقد كان يأخذ
كثيراً من قبساته في دراسة مسائل البلاغة وأصولها ، ونعرض الآن صورا من
هذا الاخذ والتأسي .

الالتفات :

وكان تأثر السكاكي بالزعشمي واضحا في هذا الفن ، فقد أشار إلى أن الكلام
إذا انتقل من أسلوب إلى أسلوب كان أدخل في القبول عند السامع ، وأحسن
نظرية لهضاطه ، واملأ باستدرار أصغائه ، وأنه يختص مواقفه بلفائف معان قلما
تصح إلا لأفراد بلغاتهم ، أو للحذاق المهرة في هذا الفن (١) .

وهذا تلخيص لقيمة الالتفات كما ذكره الزعشمي .

وقد أخذ عن الكهاف معنى الالتفات وقد خالقه البلاغيون في هذا ، فقد
ذكر أن أمراً القيس قد التفت في قوله :

تطاول ليلىك بالإتمد وبيات الخلى ولم ترقه
وبيات وبيات له ليلة كليلة ذى العائر الأرمده
وذلك من بيا جائف وخبرته من أب الأسوده

وواضح أن جمهور البلاغيين لا يرون التفاتاً في البيت الأول ، لأن
الالتفات لا يقع ههنا إلا بعد جريان الأسلوب على طريقة من الطرق الثلاثة
ثم يعدل عنها إلى غيرها .

(١) ينظر المفاتيح ص ٩٠٦ ، ٩٠٧

وإذا حاول أبر يعقوب بيان مواقع الالتفاف ، وكشف قيمتها الفنية في النصوص الأدبية وجدته بين حالين ، حال يكون فيها مجيدا في الكشف والتحليل عن موقع هذه الطريقة ، وذلك إذا كان يصدر عن تأثر بصاحب الكشف ، إما لأنه سبقه بيان الالتفات في هذا النص واطف موقمه ، وإما لأنه أي السكاكي جرى فيه حل طريقة الرمضري في نص آخر . وحال لا يكون فيها مجيدا ولا قريبا من الإجابة وذلك إذا اعتمد على مقدرته الأدبية ، واستقل بفهمه وذوقه ، فإنه في كثير من هذه الحالات يحوم ولا يقع على شيء . يعتقد به .

مثال في الحال الأول ما يقوله في قوله تعالى : إياك نعبد . .

ليس مما يشهد له الوجدان بحيث يقتضيه عن شهادة ما سواه أن المراد إذا أخذ في استحضار جنائيات جان منتقلا فيها عن الإجمال إلى التفصيل وجد من نفسه تفاوتاً في الحال بينما لا يكاد يشبه آخر حاله هناك أولها ، أو ما تراك إذا كنت في حديث مع إنسان وقد حضر مجلسك من له جنائيات في حقلك كيف تصنع ؟ تحول عن الجاني وجهك ، وتأخذ في الشكاية عنه إلى صاحبك تبثه الشكوى معدداً جنائياته واحدة فواحدة ، وأنت فيما بين ذلك واجد مزاجك يحمى على تزايد يحرك حالة لك غضبية تدهوك إلى أن تواب ذلك الجاني ، وتشافقه بكل سوء ، وأنت لا تهيب ، إلى أن تغلب فتقطع الحديث مع الصاحب ، ومبايعتك إياه ، وترجع إلى الجاني شافها له ، بالله قل لي هل عامل أحد مثل هذه المعاملة ، هل يتصور معاملة أسوأ مما فعلت ، أما كان لك حياء يمنعك ، أما كانت لك مروءة تردحك على هذا ؟ . وإذا كان الحاضر لمجلسك ذا نعم عليك كثيرة فإذا أخذت في تعديد نعمة عند صاحبك مستحضرا لتفاصيلها أحسست من نفسك بحالة كأنها تطالبك بالإقبال على منعمك ، وتزين لك ذلك ، ولا تزال تتزايد ما دمت في تعديد نعمه حتى تحصلك من حيث لا تلوي على أن تجمدك وأنت معه في الكلام تفتى عليه ، وتدهوله ، وتقول بأى لسان أشكر صنائعك الروائع ، وبأية عبارة أحصر عوارفك الدوارف ، وما جرى ذلك المجرى (١) .

وقد ذكر الرمضري مثل هذا في مواطن كثيرة من الكشف ، وقد بيناها

في دراسة الالتفات ، ومثاله في الحال الثانية ما يقوله في آيات امرئ القيس السابقة بعد ما نوه بمكانة الشاعر وفخوته ، وكان يمكنه الا يلتفت اليه ، وذلك أن يسوق الكلام على الحكاية في الآيات الثلاثة ، فيقول تطاول — ليلى بالإند ونام الخلى ولم أرقد ، ربت وبات لنا ليلة ، كقول ليبيد فرفقت أسألها وكيف سؤلنا ، أو أن يلتفت نوعا واحدا ، فيقول ربت وبات لكم ، وذلك من نبا جاءكم ، وخبرتم عن أبي الأسود ، أن يكون حين قصد تهويل الخطب واستنطاقه في النبا المرجع ، والخبر المفجع للواقع الفات في المضد ، المحرق للقلب والسكبد ، فعل ذلك منها في التفاته الأول على أن نفسه رقت وورد ذلك النبا عليها ولحت واه الشكلى ، فأقامها مقام المصاب الذي لا يتسل بعض التسلى إلا بتفجع الملوك وتحزنهم عليه وأخذ يخاطبه بتطاول ليلىك تسلية ، أو تبه على أن نفسه لفظاعة شأن النبا واستشعارها معه كندا وإرتماضا أبدت قلعا لا يقلقه كندا ، وضجرا لا يضحجره مرتضى ، وكان من حقها أن تثبت وتتصبر ، فعمل الملوك وجريا على سنانها المسلوك عند طوارق النوايب وبوارق المصائب حين لم تفعل شككته في أنها نفسه ، فأقامها مقام مكروب ذى حرق ، قائلا له تطاول ليلىك مسليا .

وفي التفاته الثاني على أن المتحزن تحزن تحزن صدق ، ولذلك لا يتفاوت الحال مخاطبتك أم لم أخاطبك ، وفي التفاته الثالث على أن جميع ذلك إنما كان لما خصه ولم يتعداه إلى من سواه .

وهكذا تدور التمكنة البلاغية الالتفات في هذه الآيات حول مكانة الشاعر الاجتماعية ، إذ أنه ملك وتفجع الملوك تفجع له شأنه ، وقلقى نفوسهم لا يكون إلا لاسر خطير ، ولو كان شاعرا غير ملك لما كان لهذا التصرف قيمة . والسكاكي له رأى عجيب ، يذكر في هذا العدد ، وهو أنه يستمد قيمة الخصائص البلاغية في الأسلوب من قيمة فائلها ، لذلك لا يعتمد بخواص الترا كيب إلا إذا كانت قد صدرت من بليغ ، فهو لا ينظر للخصومية من حيث هي ، وإنما يفتى بالصنعة المقصودة والاحتفال المنعمد من القائل ، فلو صدرت الترا كيب البليغة من غير

يلغى سقطت قيمتها وليس من حتمك أن تنجب بالنص قبل أن تعرف قدر قائله .

يقول في شرحه لتعريف علم المعاني : وأحق بخاصية التراكيب ما سبق منه إلى الفهم عند سماع ذلك التركيب جاريا مجرى اللازم له لسكونه صادرا عن البليغ ، لا لنفس ذلك التركيب من حيث هو (١) .

أحوال المسند والمسنند الية :

وقد أفاد السكاكي من الكشف في بعض الصور التي ذكرها أحوالا للمسند إليه ، أو المسند ، يقول في الحال المقتضى كون المسند جملة فعلية ، أو اسمية ، بعد ما بين دلالة الفعلية على التجدد والاسمية على الثبوت (وما لسمع من تفاوت اللفظتين الفعلية والاسمية تجردا وثبوتا هو يعطى على أنه حين ادعى المنافقون الإيمان بقولهم آمنا بالله وباليوم الآخر ، جائين به جملة فعلية ، معنى أحدنا الدخول في الإيمان وأعرضنا عن الكفر ليروج ذلك عنهم ، كيف طبق المفصل في ردهوهم الكاذبة قوله تعالى ، وما هم بمؤمنين ، حيث جرى به جملة اسمية ومع الباء وعلى تفاوت كلام المنافقين مع المؤمنين ، ومع شياطينهم ، فيما يحكيه جل وعلا عنهم وهو ، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، فتفاوتنا إلى جملة فعلية ، وهي آمنا ، وإلى اسمية ومع إن وهي إنا معكم كيف أصاب شاكلة الرمي (٢)

وقد أشرت إلى هذا في دراسة التوكيد في الباب الأول (٣) .

ويذكر تفسير المسند إليه ويعبر إلى قوله تعالى ولا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد ، ويقول شفيع إلهين باثنين وإلهاً بواحد ، لأن لفظ إلهين يحتمل معنى الجنسية ، ومعنى التثنية ، وكذلك لفظ إله يحتمل الجنسية ، والوحدة ، والذي له الكلام مسوق هو العدد في الأول ، والوحدة في الثاني ، ففسر إلهين

(١) المنهاج ص ٨٦

(٢) المنهاج ص ١١٧

(٣) ينظر هذا البحث ، ص

بائتين ، وإلها بواحد ، بيانا لما هو الأصل في الغرض ، ومن هذا الباب من وجه قوله تعالى ، وما من دابة في الأرض ، ولا طائر يطير بجناحيه ، ذكر في الأرض مع دابة ويطير بجناحيه مع طائر لبيان أن المقصد من لفظ دابة ولفظ طائر إنما هو إلى الجنسين وإلى تقريرهما (١) .

ويقول : والتخصيص لازم للتقديم غالبا ولذلك لسمع أئمة علم المعاني في معنى إياك تعبد وإياك تستعين يقولون نخصك بالعبادة لانعبد غيرك ، ونخصك بالاستعانة منك لاستعين أحدا سواك ، وفي معنى إن كنتم إياه تعبدون ، يقولون إن كنتم تخصصونه بالعبادة ، وفي معنى قوله وبالآخرة هم يوقنون ، نذهب إلى أنه تعريض بأن الآخرة التي عليها أهل الكتاب فيما يقولون إنها لا يدخل الجنة فيها إلا من كان هودا أو نصارى ، وأنها لا تمسهم النار فيها إلا أياما معدودات ، وأن أهل الجنة فيها لا يتلذذون في الجنة إلا بالنسيم والأرواح العبيقة والسماح اللذيذ ، ليست بالآخرة وإيقانهم بمثلها ليس من الإيقان بالتي هي الآخرة عند الله في شيء وفي قوله تعالى ، لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا ، يقولون أخرت صلة الشهادة أولا وقدمت ثانياً لأن الغرض في الأول إثبات شهادتهم على الأمم ، وفي الأخرى اختصاصهم بكون الرسول شهيداً عليهم ، وتسميهم في قوله تعالى ، لا فيها غول ولا هم عنها يزفون ، يقولون قدم الظرف تعريضا بضمور الدنيا ، وأن المعنى هي على الخصوص لا تغتال العقول اغتيال نخور الدنيا . ويقولون في قوله تعالى ، ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، يمتنع تقديم الظرف على اسم - لا - لأنه إذا قدم أماد تخصيص نفي الريب بالقرآن (٢) .

والمراد بأئمة البيان الذين تردد ذكرهم في هذا النص ، والذين سمهم السكاكي يقولون ما يقول ويروى هو الإمام الزمخشري فقد وجدنا هذه النصوص في تفسيره وأثبتناه في دراستنا لبلاغته (٣) .

(١) المفتاح ١٠١ ، ١٠٢ ، وينظر الكشاف ج ٢ ص

(٢) المفتاح ص ١٢٦

(٣) ينظر الباب الأول ، فصل الجمل ، بحث التقديم .

إن وإذا :

ويذكر إن وإذا في تقييد المستند ، ويأخذ من المكشاف الشواهد والتحليلات التي تبين معان كل منهما الأصلية والبلاغية .

يقول في قوله تعالى : فإذا جاءتهم الحسنة قالوا لنا هذه وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه ، جرى فيه بلفظ إذا في جانب الحسنة حيث أريدت الحسنة المطلقة لا نوع منها كما في قوله تعالى : وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله ، وفي قوله تعالى : ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن ، لكون حصول الحسنة المطلقة مقطوعاً به كثرة وقوع واتساعها ، ولذلك عرفت ذهباً إلى كونها معروفة . . . وجرى بلفظ إن في جانب السيئة مع تنكير السيئة إذ لا تقع إلا في الندرة بالنسبة إلى الحسنة المطلقة ، ولا يقع إلا شيء منها ، ولذلك قيل قد حددت أيام البلاء فهل حددت أيام الرخاء ؟ وعنه : وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطرون ، بلفظ إذا في جانب الرحمة ، وكان تنكيرها وقصد النوع للنظر إلى لفظ الإذاعة فهو المطابق للبلاغة (١) .

وإذا استعملت إن مع المقطوع به حال هذا بما ذكره الزعزعي ، وأورد هنا السر البلاغي الذي أورده الزعزعي هناك .

يقول وأما قوله : وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا ، وإن كنتم في ريب من البعث ، بلفظ إن مع المرأتين قايماً لقصد التوبيخ على الريبة لاشتغال المقام هل ما يقلعها عن أصلها ، وتصوير أن المقام لا يصحح إلا لجرد الغرض اللاتقياب ، كما قد تفرض المحالات حتى تعلقت بغرضها أغراض . . . ومنه ما قدم يقول العامل عند التقاضي بالمعالة إذا امتد التسوية وأخذ يترجم عن الحرمان إن كنت لم أحمل فتقولوا أقطع الطمع (٢) .

وقد أشرنا إلى هذا في بلاغة المكشاف في فصل الحديث عن المفردات .

(١) المنهاج ص ١٣٠

(٢) المنهاج ص ١٣١ و١٣٠

للتغليب :

ويأخذ من الكشاف ما ذكره في التغليب ولا يزيد عليه شيئاً .

يقول : وباب التغليب باب واسع يجرى في كل فن . قال تعالى حكاية عن قوم شعيب : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا . أدخل شعيب في لتعودن في ملتنا بحكم التغليب ، وإلا فما كان شعيب في ملتهم كافراً مشاهم . . .

وكذلك قوله تعالى : إن هدانا في ملتكم ، وقال تعالى : إلا امرأته كانت من الغابرين ، وفي موضع آخر : وكانت من القانتين ، عدت الأئمة من الذكور بحكم التغليب . وقال تعالى : وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ، عد إبليس من الملائكة بحكم التغليب عد الأئمة من الذكور ، ومن هذا الباب قوله تعالى : بل أنتم قوم تجهلون ، فيمن قرأ بقاء الخطاب ، غلب جانب أنتم على جانب قوم وكذا يذروكم في قوله تعالى : جعل لكم من أنفسكم أزواجاً ومن الأنعام أزواجاً يذروكم فيه ، خطاباً شاملاً للعقلاء والأنعام مغالباً فيه المخاطبون على الغيب والعقلاء على ما لا يعقل (١) .

الكلام المنصف :

ويسوقه الحديث في معاني الشرط إلى القول في الكلام المنصف . وذلك لأن التعريض أحد المعاني التي تقصد به ، وإن الشرطية المستعملة في غير أصل استعمالها ، كقوله تعالى : ولئن انبعث أهواءهم ، وقوله : ولئن أشركت ، وقوله : فإن زلتم من بعد ما جاءكم البينات ثم يقول السكاكي : ونظيره في كونه تعريضاً ، وما لا أعيد الذي فطرنى وإليه ترجعون ، والمراد وما لكم لا تعبدون الذي فطركم ، والمنبه عليه قوله وإليه ترجعون ، ولولا التعريض لكان المناسب وإليه أوجع وكذا ، اتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تنفى عني شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون إن إذا لفي ضلال مبين ، المراد أتخذون من دونه آلهة إن يردكم

(١) المفتاح ص ١٣١ ، وينظر الكشاف ج ٢ ص ١٠١ ، ١٠٢ ، ج ٣ ص ٢٩٥ .
(م ٣٣ - البلاغة القرآنية)

الرحمن بضر لا تقتنى عنكم شفاعتهم شيئاً ولا ينقذوكم ، إنكم إذن لفي ضلال
مبين ، ولذلك قيل إنى آمنت بربكم دون ربى وأتبعه فاسمعون ، ولا تعرف
حسن موقع هذا التعريض إلا إذا نظرت إلى مقامه ، وهو تطالب إسماع الحق
على وجه لا يورث طالب دم المسمع مزيد غضب ، وهو ترك المواجهة
بالتضليل ، والتصريح لم بالنسبة إلى ارتكاب الباطل ، ومن هذا الأسلوب قوله
تعالى : قل لا تسألون عما أجرمتنا ولا نسأل عما تعملون ، وإلا لحق النسق من
حيث الظاهر قل لا تسألون عما عملنا ولا نسأل عما تهرمون . وكذلك ما قبله وإنا
أو إياكم لعل هدى أو فى ضلال مبين ، وهذا النوع من الكلام يسمى المنصف (١) .

وهذا مأخوذ من الكشاف وقد بيناه فى موضعه (٢) .

التعبير بالمضارع عن الماضى :

وقد أخذ السكاكى بيان سر هذه الطريقة من تحايل الزمخشرى .

يقول فى قوله تعالى : والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد
ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها ، . قال فتثير استحضاراً لتلك الصورة البديعة
الدالة على القدرة الربانية من إثارة السحاب مسخراً بين السماء والأرض ، متكوناً
فى المرأى قارة عن فرع ، وكأنها قطع قطن مندوف ، ثم تنضام متقلبة بين
أطوار حتى يعدن ركاماً ، وأنه طريق البلقاء لا يعدلون عنه إذا اقتضى المقام
سلوكه ، أو ما ترى تأبط شراً فى قوله :

بأنى قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت صريعاً للبين وللجران

كيف سلك فى فأضربها بلا دهش فصدأ إلى أن يصور لقومه الحالة التى
تشجع فيها بضرى الغول كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها ويتطاب منهم
مشاهدتها تمجيها من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة (٣)

(١) المفتاح ١٣٣، ١٣٤

(٢) ينظر الكلام المنصف فى الباب الأول من هذا البحث .

(٣) المفتاح عن ١٣٣، ١٣٤ وينظر بحث القره من هذا البحث .

الفصل والوصل :

وللسكاكى جهد كبير فى هذا الباب حيث وضعه فى قلبه العلى المحمد الذى يدور عليه درسه إلى الآن . وقد أفاد من الكشاف فى بعض تحليلاته وصوره .

يقول السكاكى فى قوله تعالى : **أرئيتك على هدى من ربهم وأرئيتكم المفلحون** . . .

أرئيتك على هدى من ربهم جاء مفصلاً عما قبله بطريق الاستئناف كأنه قيل ما للمتقين الجامعين بين الإيمان بالغيب فى ضمن إقامة الصلاة والإنفاق عما رزقهم الله تعالى وبين الإيمان بالسكتب المنزلة فى ضمن الإيقان بالآخرة اختصوا بهدى لا يكتنه كنهه ولا يفادر قدره ، مقولاً فى حقهم هدى للمتقين الذين ، والذين بتكبير هدى ، فأجيب بأن أرئيتك الموصوفين غير مستبعد ولا مستبعد أن يفوزوا دون من عداهم بالهدى عاجلاً ، وبالفلاح آجلاً ، ولك أن تقدر تمام الكلام هو المتقين ، وتقدر السؤال ، ويستأنف الذين يؤمنون بالغيب إلى ساقية الكلام ، وأنه أدخل فى البلاغة لكون الاستئناف على هذا الوجه منطوقاً على بيان الموجب لاختصاصهم بما اختصوا به على نحو ما تقول : أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل منك لما فعلت^(١) وهذا مأخوذ من الكشاف وقد أثبتناه فى دراسة الجمل .

الإيجاز والإطناب :

وقد اقتصر السكاكى فى بحث الإيجاز والإطناب على بيان معناهما ، وإيراد عدة أمثلة لكل منهما ، وذلك لأن من تأمل ما ذكره فى الأبواب السابقة يستطيع أن يدرك مقامات الذكر ومقامات الحذف كما يقول . . .

ثم إن الأمثلة التى ضربها لا يخلو أكثرها من أثر الكشاف ، وإذا كررنا منها قوله ومن الإيجاز قوله عز قائله قل آمنون الله بما لا يعلم ، أى بما لا ثبوت له ولا علم الله متعلق به ، نفياً للملزم ، وهو المتبأ به بتقضى لآزمه ، وهو وجوب

(١) المفطاح ص ١٤٤ ، ١٤٣ .

كفره معلوماً للعالم الذات لو كان له ثبوت بأى اعتبار كان ، وقوله « إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفراً لن تقبل توبتهم ، أصله ان يتوبوا فان يكون قبول توبة ، فأثر الإيجاز ذهاباً إلى انتفاء الملزوم بانتفاء اللازم وهو قبول التوبة الواجب في حكمته تعالى وتقدس ، وقوله بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، أى شركاء لا لبوت لها أصلاً ، ولا أنزل الله بإشراكها حجة ، أى تلك وإنزال الحجة كلاهما منتف ، في أسلوب قوله على لاجب لا يهتدى بمنارة ، أى لا منار ولا اهتداء به ، وقوله ولا ترى الضب بها ينحجر ، أى لا ضب ولا انحجار نفيًا للأصل والفرع . ومنه « وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم ، ، إذ المراد لا ذلك ولا علمك به ، أى كلاهما غير ثابت ، وكذا « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع ، أى لا شفاعاة ولا طاعة (١) .

وقد بينا هذا في دراستنا للنق في بحث الكشاف (٢) .

ويقول في صور الاطناب ، وبما يمد من الاطناب وهو في موقعه قول الخضر لموسى عليه السلام في الكرة الثانية ، « ألم أقل لك ، بزيادة لك لاقتضاء المقام مزيد تقرير لما قد كان قدم له من أنك لن تستطيع معي صبراً ، وكذا قول موسى عليه السلام « رب اشرح لي صدري ، بزيادة لي لا كتساء الكلام معها من تأكيد الطلب لا لشرح الصدر ما لا يكون بدونه ، الأتراك إذا قلت اشرح لي ، أفاد أن شيئاً ما عندك تطلب شرحه ، فكنت بجملاً فإذا قلت صدري عدت مفصلاً (٣) .

وهذا قليل من كثير ذكره الزمخشري وبيناه في بحث قيود الجملة .

الاستمارة في الحرف :

وقد أشرنا في بحث بلاغة الكشاف إلى أن الزمخشري من أوائل من أشاروا إلى الاستمارة في الحرف وكان تحليله لصورها مادة أفاد منها السكاكي . نعم

(١) المتاج ص ١٥٢

(٢) ينظر هذا البحث فصل الجملة

(٣) المتاج ص ١٥٣

لقد سكت الزمخشري عن ذكر متعلقات الحروف ، وهو ما يبدو بها عنها عند تفسير هذه الحروف كما قال السكاكي ، وليكنه تكلم عن استعارة اللام ، وعن استعارة لعل ، وهذه الصور قد ذكرها السكاكي وإن لم يكن بانظ الكشاف إلا أنه لا يبعد عنه .

يقول السكاكي: فإذا أردت استعارة لعل لغير معناها قدرت الاستعارة في معنى الترجى ، ثم استعملت هناك لعل ، مثل أن تبنى على أصول العدل ذاهباً إلى أن الصانع الحكيم تعالى وتقدس أن يكون في أفعاله عبث ، بل كل ذلك حكمة وصواب مفعول لغرض صحيح ، ما خلق الإنسان إلا لغرض الإحسان ، وحين ركب فيه الشهوة الحاملة على فعل ما يجب تركه ، والثفرة الحاملة على ترك ما يجب فعله ، وأودع عقله المضادة لحكيمها ، حتى تنازحته أيدى الدواهي والصوارف فوقفت به حيث الحيرة ، لا متقدم له عنه ولا متأخر تحمله الحيرة على ما لا يورثه إلا العناء . إذا اتبع العقل وقع من النفس المشتبهة النافرة في عناء ، وإذا اتبع النفس وقع من العقل الناهي الأمر في عناء ، لا مختص هناك بما أوقعه في ورطة تلك الحيرة سفهاً ، ولا عبثاً ، تعالى عن ذلك علواً كبيراً ، وإنما فعل ذلك لغرض الإحسان وهو التكليف ليتمكن من اكتساب ما لا يحسن فعله في حقه ابتداء من التعظيم العظيم ، مع الدوام في ضمن التمتع من أنواع المشتبهات بما لا عين رأت . ولا أذن سمعت ، ولا خطر على بال أحد ، مخصصة أن يشوبها منغص ما ، فيكتسبه إن شاء لا بالقسر ، ولذلك وضع زمام الاختيار في يده ، يمكننا إياه من فعل الطاعة والمعصية ، مريداً منه أن يختار ما يشعر له تلك السعادة الابدئية ، مزيجاً في ذلك جميع عله ، ففبه حال المكلف الممكن من فصل الطاعة والمعصية مع الإرادة منه أن يطيع باختياره بحال المرعى الخبيرين أن يفعل وأن لا يفعل ، ثم تستعير لجانب المشبه لعل^(١)

وهذا شرح وتوضيح لقول الزمخشري في هذه الآية أنها واقعة موقف الجواز لا الحقيقة ، لأن الله عز وجل خلق عباده ليتعبدوا بالتكليف ، وركب فيهم

العقول والقدوات، وأزاح العلة في أقدارهم. وتمكينهم، وهداهم للتجدين، ووضع في أيديهم زمام الاختيار، وأراد منهم التحير والتقوى، فهم في صورة المرجو منهم أن يتقوا، ليتبرجج أمرهم وهم مختارون بين الطاعة والعصيان. كما ترجعت حال المرتضى بين أن يفعل والأي يفعل (١).

وقد ذكر السكاكي مع هذه الآية قوله تعالى «فالنقطة آل فرعون، وكلام الزمخشري فيها مشهور، ثم قال هذا تلخيص كلام الأصحاب، ولا أهرق أحداً من البلاغيين سبقه بدراسة هذا الموضوع بينه غير الزمخشري.

وإذا كنت قد أشرت إلى أخذه الكثير من الكشاف فيجدر أن أقول إن السكاكي كان ذا عقل قوى، يستوهب ما يقرأ، فإذا كتب ما استوهب كانت كتابته مصبوغة بصبغة عقله، حتى كأنها من بناته، لأنه يكتب بأسلوبه، ولم يكن كغيره من يستريحون لنقل العبارة نقلاً كاملاً أو بتغيير طفيف، كما سنجد في كتاب المثل السائر، لذلك كان أثر الكشاف محصوراً في فقه المسألة وصميمها، أما متن اللفظ فيها فهو من صنع السكاكي، وإن كانت تتساقط بعض كلمات الزمخشري في عباراته، وبهذا نقول إن أخذ المفتاح من الكشاف يتميز بهذه الميزة التي تضفي على هذا المأخوذ صبغة صاحبه.

ثم إن كتاب المفتاح قد شغل الدارسين بعد السكاكي، فأخصه الخطيب، ثم وضع تلخيصه، وتناول الشراح هذا التلخيص، واهتموا به وكتبته حوله الحواشي والتقارير، وفي وسط هذا الزحام الهائل من الدراسة البلاغية حول كتاب المفتاح اختار كتابين هامين أبين فيهما أثر الكشاف وهما يمثلان في تقديري خير ما كتب حول المفتاح. الأول كتاب الإيضاح للخطيب القزويني، والثاني كتاب المطول لسعد الدين التفتازاني، ولا شك أنك لا تجد في مدرسة المفتاح رجلاً يسبق هذين الرجلين، كما لا تجد فيما كتبنا أبداً يفوق هذين الكتابين، على أنني قد أشرت في كثير من المواضع في دراسة بلاغة الكشاف إلى جهود كثير منهم في تحديده مراده، وبيان مذهبه.

الإيضاح :

كتب الخطيب القزويني (١) هذا الكتاب الإيضاح تلخيص المفتاح فكأنه صورة ثانية لكتاب المفتاح . وقد أضاف الخطيب إلى هذا الكتاب كثيراً مما رآه في كتب عبد القاهر وكتاب الرمخشري ، وكثيراً مما انتهى هو إليه حتى تميز كتاب الإيضاح عن أصله بفضل هذه الإضافات ، وصار أقرب إلى الروح الأدبية من كتاب المفتاح .

والذي يهمني هنا هو بيان أثر الكشف فيما أضافه الخطيب إلى كتاب المفتاح ولذلك يكون كتاب الإيضاح في مادته العلمية متأثراً بدراسة الكشف في مرحلتين المرحلة الأولى تتمثل فيما أخذه السكاكي وأودعه كتاب المفتاح . والمرحلة الثانية تتمثل فيما أخذه الخطيب وأودعه كتاب الإيضاح .

ومن أهم وأبرز ما أخذه الخطيب من الكشف ما ذكره في طلاقات المجاز العقلي ، فقد قال الخطيب والفعل ملابسات شتى ، يلابس الفاعل ، والمفعول به ، والمصدر ، والزمان ، والمكان ، والسبب ، فإسناده إلى الفاعل إذا كان مبنياً له . حقيقة ، كما مر ، وكذلك إلى المفعول إذا كان مبنياً له وإسناده إلى غيرهما لمضاهاته لما هو له في ملابسة الفعل مجاز ، كقولهم في المفعول به : عيشة راضية ، وماء دافق ، وفي عكسه سيل مقعم ، وفي المصدر شعر شاعر ، وفي الزمان تهاوه صائم ، وليله قائم (٢)

ويقول الخطيب في تعريف المجاز العقلي هو إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس

(١) الخطيب القزويني : لقب بالخطيب لأنه ولد خطابة دمشق في الجامع الأموي وعبر بها فطلبه السلطان الناصر محمد بن قلاوون إلى القاهرة فنظب بين يديه في جامع القلعة ، وكان زلق اللسان لاصح البيان ، ونسب إلى قزوين لأن بعض أجداده سكنها وهو عرق يرجع نسبه إلى أبي ذان العجلي قائد المأمون ، ولد له بالموصل سفة بنت وستين وستمائة ، وأخذ العلم من أبيه ، وتولى القضاء في جهات من الأناضول ، وفي الشام ، وفي مصر ، وكان بارعاً في أصول الفقه ، وأثنى علوم البلاغة ، وكان شاعراً بليغاً .
(تنظر ترجمته في النجوم الزاهرة ، وفي شذرات الذهب ، وفي بحث قيم كتبه الدكتور أحمد مطلوب من جهود البلاغة وهو مطبوع في بغداد .
(٢) بغية الإيضاح ج ١ ص ٥٦٩

له غير ما هو له بتأول ، وهذا كله مأخوذ من الكشف ، وتكاد تتحد العبارة وقد أشرت في دراسة المجاز العقل إلى موقف الخطيب من الزمخشري ، وبينت أنه تأثر في تعريفه هذا بكلام ذكره الزمخشري في بعض المواضع ، ثم أضاف إليه في مواضع أخرى ، ولكن الخطيب أهمل هذه الإضافة واستمد تعريفه بما ذكره في قوله تعالى وفاربحت تجارتهم ، حيث يقول الزمخشري هو أي - المجاز في الإسناد أن يسند الفعل إلى شيء يتلبس بالذي هو في الحقيقة له ، كتابس التجارة بالمشتريين .

وقد تنبه الخطيب إلى أثر الكشف في المفتاح ، فهو يشير أحياناً إلى الأصل الذي أخذ منه السكاكي في كلام الزمخشري ، وفي هذه الإشارة نوع من التوضيح والكشف .

يقول الخطيب وأما قوله تعالى وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه ، قال السكاكي شفع دابة بغير الأرض . وطائراً بيطير بجناحيه ، لبيان أن القصد بهما إلى الجنسين ، وقال الزمخشري معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة كأنه قيل وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه (١) .

ويقول الامتاز عبد المتعال الصميدى رحمه الله معافاً على هذا : ولا يخفى أن كلام السكاكي يؤول إلى ذلك أيضاً - يعني كلام الزمخشري - لأنه عند قصد الجنس يكون الاستفراق حقيقياً (٢) ، وكلامه رحمه الله مأخوذ من كلام السبكي (٣) .

وقد يترض الخطيب على كلام السكاكي ثم يرجع به إلى أصله المأخوذ منه في الكشف ويشير إلى أن فيه نظراً .

يقول الخطيب ثم قال - أي السكاكي - وما يفيد التخصيص ما يمكنه

(١) نية الإيضاح ج ١ ص ١١٠

(٢) نفس المرجع

(٣) شرح التلخيص ج ١ ص ٣٦٥

قلت كلفته عن قوم شعيب عليه السلام وما أنت علينا بعزير ، أى العزير علينا
يا شعيب رهطك لا أنت لكونهم من أهل ديننا ولذلك قال عليه السلام فى جوابهم
وأرطى أهر عليك من الله ، أى من نبي الله ولو كان معناه ما هزرت علينا لم يكن
مطابقاً ، وفيه نظر لأن قوله وما أنت علينا بعزير ، من باب أنا عارف لا من
باب أنا عرفت ، والتمسك بالجواب ليس بشيء بل واز أن يكون عليه السلام فهم
كون رهطه أهر عليهم من قولهم ، ولولا رهطك لرجمناك ، وقال الزمخشري ذلك
إيلاء ضميره حرف النفي على أن الكلام فى الفاعل لافى الفعل ، كأنه قيل وما أنت
علينا بعزير بل رهطك هم الاعزة علينا . وفيه نظر لانا لا لتمام إيلاء الضمير
حرف النفي إذا لم يكن الخبر فعلياً يفيد الحصر (١)

ولم يكن الخطيب على حق حين رفض تسوية المشتق بالفعل فى هذه الصورة
وهو متأثر بما فهم من كلام عبد القاهر الذى لم يرفض التسوية بينهما رفضاً
صريحاً ، وإنما ذكر أمثله وشواهد من تقديم الفاعل على الفعل الصريح ففهم من
هذا أن ذلك مذهبه .

وقد يستحسن الخطيب تحليلات الزمخشري البلاغية ثم يخالفه فى الوجهة
النحوية التى كانت مدخلاً لهذه التذكت والأسرار .

يقول وبما يتصل بما ذكرناه - أى بالتعبير عن المضارع بالماضى - أنت
الزمخشري قدر قوله تعالى ، إن يتفقوكم بكم أو لكم أهداء ويبسطوا إليكم
أيديهم وأستقم بالسوء وودوا لو تكفروا ، وقال : الماضى وإن كان يجرى فى
باب الشرط يجرى المضارع فى عام الإعراب فإن فيه بكتة ، كأنه قيل وودوا قبل
كل شيء كفركم ، وارتدادكم . يعنى أنهم يريدون أن يلقوا بكم مضار الدنيا
والدين جميعاً ، من قتل الأنفس ونزيق الأمراض ، ورددكم كفاراً أسبق المضار
عندهم ، وأولها ، لعلمهم أن الدين أهر عليكم من أرواحكم لأنكم بقالون لها
دونه ، والعدو أم شيء عنده أن يقصد أهر شيء عنده صاحبه ، هذا كلامه وهو
حسن دقيق ، لكن فى جعل وودوا لو تكفرون مطلقاً على جواب الشرط نظر لأن

ودادتهم أن يرتدوا كفاراً حاصلة وإن لم يظفروا بهم فلا يكون في تقيدها بالشرط
فائدة ، فالأولى أن يجعل قوله وودوا لو تكفرون عطفاً على الجملة الشرطية ، كقوله
تعالى : « وإن يقاثلوك يولوكم الأديبار ثم لا ينصرون » (١)

وقد أشار سعد الدين إلى ترجيح وجهة الزمخشري وبين أن كل واحد من
المعطوفات في هذه الجملة يصح أن يكون جزاء ، وذلك لأن المراد إظهار ودادة
الكفر ، واستيفاء مقتضياتها ، ولا شك أنه موقوف على الظفر بهم ، وكذلك
المراد إظهار كونهم أهداء ، وإلا فالعداوة حاصلة ظفروا أو لم يظفروا (٢)

وقد رفض الخطيب وجهة السكاكي في بيان بعض الأسرار ، ويأخذ فيها
برأى الزمخشري ، يقول : وما عد السكاكي الحذف فيه بمجرد الاختصار قوله تعالى
« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد من دونهم امرأتين
تذودان قال ما خطبكما قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى
لهما ، والأولى أن يجعل لإثبات المعنى في نفسه الشيء على الإطلاق كما مر ،
وهو ظاهر قول الزمخشري فإنه قال ترك المفعول لأن الغرض هو الفعل لا المفعول
الأتري أنه رحهما لأنهما كانتا على الزيادة ، وهم على السقي ، ولم يرحهما لأن
مذودهما غنم ومسقيهم إبل ، مثلاً ، وكذلك قولهما ولا نسقي حتى يصدر الرعاء ،
المقصود منه السقي لا المسقي (٣)

وما رفض فيه كلام السكاكي واعتمد فيه كلام الزمخشري قوله في قول
السكاكي إن أفراد العظم في قوله تعالى « رب إني وهن العظم مني » لصحة
حصول وهن المجموع بوهن البعض دون كل فرد لحصل ما ترى (أي ترك الجمع
إلى الأفراد) .

قال الخطيب وهليك أن تنبه شيء وهو أن ما جملة سبباً للعدول عن لفظ
العظام إلى لفظ العظم فيه نظر ، لانا لا نسلم صحة حصول وهن المجموع بوهن

(١) بنية الايضاح ج ١ ص ١٩٧

(٢) ظفر الطول ص ١١٦

(٣) بنية الايضاح ج ٢ ص ١١٤١٠

البعض دون كل فرد ، فالوجه في ذكر العظم دون سائر ما تركيب منه البدن ؛
وتوحيده ، ذكره الزمخشري قال ، إنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه ؛
وهو أصل بنائه ، وإذا وهن تدهى وتساقت قوته ، ولأنه أشد ما فيه وأصلبه
فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ووحده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية
وقصده إلى أن هذا الجنس هو العمود والقوام ، وأشد ما تركيب منه الجسد ،
قد أصابه الوهن ، ولو جمع لكان قصداً إلى معنى آخر وهو أنه لم يهن بعض
عظامه وإنما كلها (١) .

وقد يتأثر الخطيب بالكشاف في شرح القاعدة البلاغية ، كما يظهر ذلك في
دراسته للاستعارة في الحرف حيث يفهم الخطيب أن متعلق المعنى الذي يجرى
فيه التشبيه هو المجرور ، كما في قولنا زيد في نعمة ، لأن الزمخشري أجرى
التشبيه في هذا المجرور حين قال شبهت العداوة والحزن الخ . يقول الخطيب
فالتشبيه في الأفعال والصفات المشتقة منها لمعاني مصادرها ، وفي الحروف
لمتعلقات معانيها كالمجرور في قولنا زيد في نعمة ، ورفاهية ، . . . وفي لام التعليل
كقوله تعالى ؛ . . . فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، العداوة والحزن (٢)

ويقول العلامة سعد الدين : هذا الذي ذكره المصنف مأخوذ من كلام صاحب
الكشاف ، ثم ذكر ما قاله الزمخشري في هذه الآية ، ثم ناقش الخطيب في هذا
وبين أنه غير جار على مذهبه لأن المشبه يجب أن يكون متروكاً في الاستعارة
سواء أكانت أصلية أم تبعية وأن ما ذكره هنا لا يصح إلا على الاستعارة
المكنية (٣) .

وللزمنخشري نظرات في تحليل الصور البيانية لا نحسب أحداً يسبقه فيها ،
وكانت هذه النظرات تروق الخطيب فينقل إلى كتابه قدر كبيراً منها . وقد
يكون هذا من أهم العوامل التي أجرت في إيضاحه الروح الفنية فأغرت به

(١) بغية الايضاح ج٧ ص ١٤٤

(٢) بغية الايضاح ج٣ ص ١٣٧

(٣) ينظر المطول ص ٣٧٥

الباحثين هذا الزمن الطويل ، من ذلك ما يقوله الخطيب في تهريد الاستعارة
ذاكراً تحليل الزمخشري لقوله تعالى : فأذأفها الله لباس الجوع والخوف . .

يقول الخطيب قال الزمخشري الإذافة جرت عندهم مجرى الحقيقة أشبهوها
في البلايا والشدائد ، وما يس الناس منها ، فيقولون ذاق فلان البؤس ، والضر
وأذافته العذاب ، شبه ما يدرك من أثر الضر والالم بما يدرك من طعم المر البشع
فإن قيل الترشيح أبلغ من التهريد فهلا قيل فيكساها الله لباس الجوع والخوف ،
قلنا لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس من غير عكس فكان في
الإذافة إشعار بشدة الإصابة بخلاف الكسوة (١)

ويقول في الكناية قال الزمخشري نفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه
عن ذاته ، قصدوا المبالغة في ذلك فسلكوا به طريق الكناية ، لأنهم إذا نفوه
عن مسد مسده وعن هو على أخص أوصافه فقد نفوه عنه ، ونظيره قولك للعربي
العرب لا تخفر الدم ، فإنه أبلغ من قولك أنت لا تخفر ، ومنه قولهم أيفعت
لداثة ، وبأفعت أترابه ، يريدون إيفاعه وبلوغه (٢)

وقد أشرت في دراسة ألوان البديع عند الزمخشري إلى تأثر الخطيب بهذه
الدراسة وإفادته منها إفادة كثيرة ، وكان هذا من أهم ما أكدت به اهتمام
الزمخشري بدراسة ألوان البديع ، وأنه لم يغفلها ، ولم تكن عنده محسناً عرضياً
كما زعم بعض الدارسين ، ونذكر هنا صوراً ونماذج من هذا الأخذ البين
لنتأكد به تأثر الخطيب ببحث الكشاف في علوم البلاغة الثلاثة .

يقول الخطيب في المشاكلة ومنه قول أبي تمام :

من مبلغ أفناء يعرب كلما أنى بنيت الجار قبل المنزل

وشهد رجل عند شريح فقال إنك لسبب الشهادة ، فقال الرجل إنها لم تهمد
عنى ، فالذى سوغ بناء الجار وتهميد الشهادة هو مراعاة المشاكلة ، ولولا بقاء
الدار لم يصح بناء الجار ، ولولا سبوحه الشهادة لامتنع تهميدها . . وأما الثاني

(١) نية الإيضاح ج ٣ ص ١٤٦

(٢) نية الإيضاح ج ٣ ص ١٧٧

- أى ذكر الشيء بالفظ غيره لوقوعه فى صحته تقديرآ - فكقوله تعالى صبغة الله ، وهو مصدر مؤكد منتصب عن قوله آمنا بالله ، والمعنى تطهر الله ، لأن الإيمان يطهر النفوس ، والأصل فيه أن النصارى كانوا يمتسئون أولادهم فى ماء أصفر يسمونه الممودية ويقولون هو تطهير لهم ، فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة لا مثل صبغتنا ، وطهرنا به تطهيرآ لا مثل تطهيرنا ، أو يقول المسلمون صبغنا الله بالإيمان صبغة ولم يصبغ صبغتم : وجىء بالفظ الصبغة للمشكلة ، وإن لم يكن قد تقدم لفظ الصبغ ، لأن قرينة الحال التى هى سبب النزول من غمس النصارى أولادهم فى الماء الأصفر دلت على ذلك ، كما تقول لمن يفرس الأشجار أغرس كما يفرس فلان تريد رجلا يصطنع الكرام (١)

ويقول فى التوجيه :

وعليه قوله تعالى وراسم غير مسمع وراعنا ، قال الزمخشري غير مسمع حال من المخاطب أى اسمع وأنت غير مسمع وهو قول ذو وجهين يحتمل الازم أى اسمع منا مدعوا عليك بلا سمعت ، لأنه لو أجيبتم دعوتهم عليه لم يسمع ، فكان أصم غير مسمع ، قالوا ذلك انكالا على أن قولهم لاسمعت دعوة مستجابة ، أو اسمع غير مجاب ما تدعو إليه ، ومعناه غير مسمع جوابآ يوافقك . فكانك لم تسمع شيئآ . أو اسمع غير مسمع كلاما ترضاه ، فسمعك عنه ناب . ويجوز على هذا أن يكون غير مسمع مفعول اسمع ، أى اسمع كلاما غير مسمع إياك . لأن أذنك لا تعيه ، نبوا عنه . ويحتمل المدح أى اسمع غير مسمع مكروها ، من قولك اسمع فلان فلانا ، إذا سبه ، وكذلك قوله راعنا ، يحتمل راعنا تكلمك أى ارقبنا ، وانتظرنا ، ويحتمل شبه كلمة عبرانية ، أو سريانية ، كانوا يتسابون بها ، وهى راعينا ، فكانوا سخرية بالدين وهزما برسول الله صلى الله عليه وسلم يكلمونه بكلام يحتمل يثرون به الشقمة والإهانة ويظهرون به التوقير والاحترام ثم قال فإن قلت كيف جاءوا بالقول المحتمل ذى الوجهين بعدما صرحوا وقالوا سمعنا وعصينا ؟ قلت جميع الكفرة كانوا يواجهونه بالكفر والعصيان

(١) بنية الإيضاح ج ٤ ص ٢٤

ولا يواجمونه بالسب ودعاء السوء (١)

٣ - المطول :

قد رأينا الخطيب ينقل كلام الزمخشري نقلاً كاملاً ، ورأينا كذلك أنه في أكثر أحواله لا يقف عند هذا الكلام ، ليستخرج منه أصولاً وقواعد بلاغية ، وسنرى أن سعد الدين (٢) كان له أمر في بلاغة الكشاف بمقدار ما للكشاف من أمر في كتابه . وذلك أنه عنى عناية بيّنة بتفسير كلام الزمخشري وتحليل مثله ، واستخراج الأصول والقواعد البلاغية منها ، وبيان مذهبه في ضوء الدراسة العلمية المقررة لقواعد الفن في عصره ، وهذه المحاولات التي تعود عائدتها على بلاغة الكشاف هي مظهر تأثيره بهذا الدرس البلاغي ، لذلك نجد أمر الكشاف في كتابه يختلف عن أمره في كتاب المفتاح ، وكتاب الإيضاح ، ويختلف كذلك عن أمره في كتاب المثل السائر ، وكتاب الطراز فلم تكن لهؤلاء الأئمة - أعني القزويني وابن الأثير والعلوي - جهود في شرح بلاغة الكشاف وتحليلها ، وبيان ما تنطوي عليه من أصول علمية مقررة في هذا الفن .

ولذلك يرجع لإبراز جهود الزمخشري في البلاغة بصورتها العلمية التي استقرت بعد المفتاح إلى الكتب التي عنيت بالشرح والتحليل . وأولها كتاب المطول . ويظهر اهتمام العلامة سعد الدين بكتاب الكشاف في إشارته إليه في خطبة كتاب المطول . فقد ذكر في هذه الخطبة أمهات الكتب البلاغية التي تأثر بها . وذلك بطريقة التورية التي أغرم بها الأدباء في عصره .

يقول سعد الدين في خطبة كتابه وبعد فإن أحق الفضائل بالتقدم ، وأسبقها

(١) بنية الإيضاح ص ٦٤ - ٦٥

(٢) هو مسعود بن عمر بن عبد الله بن مسعود الففازاني ، ولد بفتازان ، وهي بلدة بخراسان في سنة اثنتين وعشرين وسبعمائة ، وأخذ عن العلامة القطب ، والعضد . وغيرهما وبرع في الأصول ، والكلام ، والمنطق ، وكان في لسانه حجة ، ومن مصنفاته المطول ، والمختصر ، وحاوية التلويح على التوضيح في الأصول وحاوية حل شرح مختصر ابن الحاجب العضد ، ورسالة الإرشاد والمفاد وشرحها ، وشرح المفتاح ، وشرح الكشاف ، وغير ذلك ، وكان من محاسن زمانه ، واحد أعلام عصره ، وله تحقيقات مستحسنة في علم البلاغة ، وله مناظرة هامة في مسألة الاستعارة التبعية ، وهي مخطوطة بدار الكتب ، ومطبوعة في حاشية الإنباه على الرسالة البيهية .

في استيعاب التعظيم ، هو التحلي بحقائق العلوم والمعارف ، والتصدي للإحاطة بما في الصناعات من النكت والظائف ، لا سيما علم البيان المطلع على نكت نظم القرآن ، فإنه كشف عن حقائق التنزيل رائق ، مفتاح لدقائق التأويل فائق ، تبيان لدلائل الإيجاز وأسرار البلاغة ، إيضاح لمعالم الإيجاز وآثار الفصاحة ، تلخيص لغوامض مشكل كتاب الله ومفصلة (١) .

وتستطيع أن تجمل مواقف العلامة سعد الدين من بلاغة الكشف في النقاط التالية :

١ - توضيح وجهة الزمخشري في بعض الأصول البلاغية وذلك مثل بيان مذهبه في الاستعارة التي سميت بعده بالاستعارة المكنية ، وحدها في كلامه ، ورأيه في قرينتها ، وأنها أي المكنية لا تلازم التخيلية ، ثم مناقشة ما يحوم حول هذا الرأي من الاعتراضات .

يقول العلامة سعد الدين :

فإن قلت ما ذكره المصنف من تفسير الاستعارة بالكناية شيء لا مستنده في كلام الساف ولا يفتنى على مناسبة لغوية ، وكأنه استنباط منه ، فما تفسيرها الصحيح ؟ قلنا معناها الصحيح المذكور في كلام السلف هو ألا يصرح بذكر المستعار بل يذكر رديفه ولازمه الدال عليه ، فالمقصود بقولنا أظفار المنية : استعارة السبع للمنية ، كاستعارة الأسد لرجل الشجاع ، في قولنا رأيت أسداً ، لكننا لم نصرح بذكر المستعار ، أعنى السبع ، بل اقتصرنا على ذكر لازمه لينقل منه إلى المقصود ، كما هو شأن الكناية ، فالمستعار هو لفظ السبع الغير المصريح به ، والمستعار منه هو الحيوان المفترس ، والمستعار له هو المنية ، وبهذا يشعر كلام صاحب الكشف في قوله تعالى وينقضون عهد الله ، حيث قال شاع استعمال النقض في إبطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحيل على سبيل الاستعارة ، لما فيه من إثبات الوصلة بين المتعاهدين ، وهذا من أسرار البلاغة ولطائفها ، أن يسكتوا عن ذكر الشيء المستعار ، ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من رواده ، فينبهوا بذلك الرمز على مكانه ، نحو شجاع يفترس أقرانه ، ففيه تنبيه على أن الشجاع أسد .

(١) مقدمة الطول .

هذا كلامه وهو صريح في أن المستعار هو اسم المشبه به المقروك صريحاً المرموز إليه بذكر لازمه . لكننا قد استفدنا منه أن قرينة الاستعارة بالكناية لا يجب أن تكون استعارة تخييلية ، بل قد تكون تحقيقية كاستعارة النقص لإبطال العهد (١)

وهذا استنباط دقيق وفهم واضح بين فيه رأى الزمخشري في أمرين : الأول : في معنى الاستعارة الممكنية وأنها هي المستعار المحذوف المرموز له بذكر لازمه ، والأمر الثاني : أن هذا اللازم وهو القرينة قد يكون استعارة تحقيقية ، وهاتان المسألتان من المسائل الخلافية الهامة الهامة بين البلاغيين .

ومعنى الاستعارة الممكنية كما يفهم من كلام الزمخشري هو الرأى المنسوب إلى الجمهور وهو المقابل لمذهب السكاكي ومذهب الخطيب في تحديدها .

واعتبار القرينة استعارة نصريحية يحتاج إلى شيء من التوجيه نهض صاحب الكشف ببيانه وأورده السيد الشريف ملاحظاً في حاشيته على المطول (٢) .

وقد بينت ذلك في دراسة الاستعارة في الكشف .

قال السيد فإن قلت إذا كان النقص وانظاره استعارات مصرحاً بها قد شبه معانيها المرادة بمعانيها الأصلية فكيف تكون كنايةات عن استعارات أخرى ؟ قلت هذه الاستعارات من حيث أنها متفرعة على الاستعارات الأخر صارت كنايةات عنها فإن النقص إنما شاع استعماله في إبطال العهد من حيث تسميتهم العهد بالحبل فلما نزل العهد منزلة الحبل وسمى باسمه نزل إبطاله منزلة نقصه فلولا استعارة الحبل للعهد لم يحسن بل لم يصح استعارة النقص للإبطال وقس على ذلك استعارة الاقتراس والاعتراف فإنها تابعة لاستعارة الأسد للشجاع ، والبحر للعالم . ولما كانت هذه الاستعارات تابعة لتلك الاستعارات الأخر ولم تكن مقصودة في أنفسها بل قصد بها الدلالة على تلك الاستعارات الأخر كانت كناية عنها وذلك لا ينافي

(١) المطول ص ٢٨٣ .

(٢) حاشية السيد الشريف على المطول ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

كونها في أنفسها استعارات على قياس ما هرقت من أن السكناية لا تناق إرادة الحقيقة... فظهر بذلك أن الاستعارة بالسكناية لا تستلزم الاستعارة التخيلية... فإن قلت لو كان النقص مثلاً مستعملاً في إبطال العهد لم يكن شياً من روادف المستعار المسكوت عنه أهى الجبل المذكوراً فلا يصح قوله ثم يرمزوا إليه بذكر شيء من روادفه فوجب أن يكون النقص ونظائره من قرائن الاستعارة بالسكناية مستعملة في معانيها الحقيقية التي هي روادف المستعار المسكوت عنه... قلت لما صرح باستعمال النقص في إبطال العهد علم أنه أراد بذكر الرادف ما هو أهم من أن يراد به معناه الاصل الذي هو الرادف الحقيقي أو يراد به ما هو مشبه بذلك المعنى منزل منزلته، فإن النقص من روادف الجبل أما إذا أريد به معناه الحقيقي فظاهر، وأما إذا أريد به معناه المجازي فلأنه إذا نزل منزلة المعنى الحقيقي وعبر عنه باسمه صار رادفاً للجبل أيضاً، فالرادف على الأول مذكور لفظاً ومعنى حقيقة وعلى الثاني مذكور لفظاً حقيقة ومعنى ادعاء وكلاهما يصلحان قرينة للاستعارة بالسكناية (١)، وقد أشرت إلى هذا في دراسته الاستعارة في الكشاف.

(٢) اعتماده على بلاغة الكشاف في محاولة تجاوز الحد الضيق الذي فرضه الخطيب على خصائص الصياغة في التعبير الأدبي، حين حاول الخطيب أن يهصر أغراض التوكيد في نفي الشك أورد الإنكار في المقام التحقيقي والمقام التنزيلى، رفض سعد الدين هذا وأحسن أن التوكيد في الجملة يكون لأغراض أخرى، واستشهد على وجهه الصائبة بكلام الشيخين عبد القاهر والزمخشري.

يقول سعد الدين بعد شرحه لكلام الخطيب في أضرب الخبر: وهما هنا بحث لا بد من التنبية له وهو أنه لا ينحصر فائدة - إن - في تأكيد الحكم نفياً لشك، أورد إنكار، ولا يجب في كل كلام مؤكداً أن يكون الغرض منه ود إنكار محقق أو مقدر، وكذا المجرى عن التأكيد... ثم ينقل كلام المرحبان في مواقع إن، ثم يقول وقد يترك تأكيد الحكم لانكار لأن نفس المتكلم لا تساعد على تأكيده لكونه غير معتقد له أو لأنه لا يروج منه، ولا يتقبل على لفظ التوكيد.

(١) حاشية السيد الشريف على المفلوكة ص ٢٨٤، ٢٨٥. م ٢٤ - البلاغة التركيبية.

ويؤكد المحكم المسلم لصدق الرغبة فيه والرواج . قال صاحب الكشاف في قوله تعالى « وإذا القوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم » : ليس ما مخاطبوا به المؤمنون جسدياً بأقوى الكلامين وأوكدهما لأنهم في ادعاء حدوث الإيمان منهم ، لاني ادعاء أنهم أوحديون فيه ، إما لأن أنفسهم لا تساعدهم عليه لعدم الباعث والمحرك من العقائد ، وإما لأنه لا يروج عنهم لو قالوه على لفظ التوكيد والمبالغة ، وإما مخاطبة إخوانهم في الإخبار عن أنفسهم بالثبات على اليهودية ، فهم فيه على صدق رغبة ووفور نشاط ، وهو رائج عنهم متقبل منهم ، فكان مظنة للتحقيق ومثناة للتوكيد (١) .

وحين ذكر الخطيب المر في بيان المسند إليه أي تعقيبه بعطف البيان ، وحدد ذلك وحصره في إيضاح المسند إليه نحو قولك قدم صديقك خالد ، ورأى سعد الدين أن هذه النكتة لا تتحقق في كثير من صور بيان المسند إليه فهي غير شاملة لهذه الخصوصية ولا مفسرة لها تفسيراً بيئاً وشافياً . يقول سعد الدين : وقائدة عطف البيان لا تنحصر في الإيضاح كما ذكر صاحب الكشاف أن البيت الحرام في قوله تعالى « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس » عطف بيان جرى به المدح لا للإيضاح كما تجيء الصفة لذلك ، وذكر في قوله تعالى « إلا بعداً لعاد قوم هود » أنه عطف بيان لعاد وقائده وإن كان البيان حاصلًا بدون أن يوسموا بهذه الدعوة وسماً وتجعل فيهم أمراً محققاً لا شبهة فيه بوجه من الوجوه (٢)

٣ - محاولة تصحيح أوهام القوم في فهم بلاغة الكشاف وتفسيرها :

من ذلك ما قاله الزمخشري في وجه إفراد العظم في قوله تعالى « قال ربني إنني وهن العظم مني » فقد ذكر أن زكريا عليه السلام أراد أن يقول إن هذا الجنس الذي هو عمود البدن وقوامه قد أصابه الوهن ، وهذه مبالغة في تصوير الضعف الذي أصاب زكريا عليه السلام ، لأن العظم إذا وهن كان غيره أوهن ، فإذا جمع كان المعنى أن الوهن قد أصاب كل العظم لا بعضه ، وفرق بين أن يقول عليه

(١) المطول ص ٨٧

(٢) المطول ص ٩٦ ، ٩٧

السلام إن كل عظامي قد أصابه الوهن ، وأن يقول إن جنس العظم الذي هو قوام البدن وأصابه قد أصابه الوهن ، ويقول صاحب المفتاح إنه ترك جمع العظم إلى الأفراد لطلب شمول الوهن للعظام فرداً فرداً ، لصحة حصول وهن المجموع بوهن البعض دون كل فرد ، ومع هذا الفرق البين بين الكلامين توهم بعضهم الجمع بينهما ، وذلك بحمل كلام الزمخشري على خلاف ما يدل عليه ، قال سعد الدين : فالتنافي بين الكلامين واضح وتوهم بعضهم أنه لا منافاة بينهما بناء على أن مراد صاحب الكشف أنه لو جمع لكان قصداً إلى أن بعض عظامه مما لم يصبه الوهن ، ولكن الوهن إنما أصاب الكل من حيث هو كل والبعض بقى خارجاً كالواحد والإثنين ، ومنشأ هذا التوهم سوء الفهم وقلة التدبر . (١)

ومن محاولته تصحيح أوهم القوم في فهم بلاغة الكشف - ما ذكره في أغراض تعقيب المسند إليه بضمير فصل حيث ذكر أن ذلك يكون لغرض قصر المسند على المسند إليه ، فإذا فات زيد هو القائم كان القيام مقصوراً على زيد لا يتعداه إلى غيره ، ثم ذكر سعد الدين أن ناساً زعموا أن الفصل كما يكون لقصر المسند على المسند إليه يكون لقصر المسند إليه على المسند ، وأن هذا مستحيل من كلام صاحب الكشف حين يقول في قوله تعالى « وأولئك هم المفلحون » إن معنى التعريف في المفلحون الدلالة على أن المتقين هم الذين إن حصلت لهم صفة المفلحين وتحققوا مأمورهم وتصوروا بصورتهم الحقيقية فهم هم لا يعدون تلك الحقيقة ، قال سعد الدين مبيناً وجه فهمهم لهذا الكلام : فزعموا أن معنى لا يعدون تلك الحقيقة أنهم مقصرون على صفة الفلاح لا يتجاوزونه إلى صفة أخرى ، وهذا غلط منشؤه عدم التدرب في هذا الفن ، وقلة التدبر لكلام القوم ، أما أولاً فلأن هذا إشارة إلى معنى آخر للخبر المعرف باللام أورده الشيخ في دلائل الإعجاز حيث قال : أعلم أن الخبر المعرف باللام معنى غير ما ذكر دقيقتاً مثل قولك هو البطل المحاسي ، لا تريد أنه البطل المعهود ولا نصر جنس البطل عليه مبالغة ، ونحو ذلك ، بل تريد أن تقول لصاحبك هل سمعت بالبطل المحاسي ؟ وهل حصلت على معنى هذه الصفة ؟ وكيف ينبغي أن يكون الرجل حتى يستحق

أن يقال ذلك له وفيه ؟ فإن كنت تصوره حتى تصوره فعليك بصاحبك ، بمعنى زيدا ، فإنه لا حقيقة له وراء ذلك ، وطريقته طريقة قولك هل سمعت بالأسد ؟ وهل تعرف حقيقته ؟ فزيد هو هو بعينه ، هذا كلامه ، وأما ثانياً فلأن صاحب الكشف إنما جعل هذا معنى التمرين وقائده ، لا معنى الفصل ، بل صرح في هذه الآية بأن فائدة الفصل الدلالة على أن الوارد بعده خبر لا صفة ، والتوكيد ، وإيجاب أن فائدة المسند إثباته للمسند إليه دون غيره (١) .

٤ — وهمه في تفسير كلام الزمخشري ، فإذا كان قد حاول كما قلنا أن يوضح أو يهضم القوم في فهم كلام الزمخشري فقد وقع هو نفسه في هذا الهم ، وفاته أن يدرك الحق في بعض المواضع من كلام الزمخشري ، وقد تنبه إلى هذا العلامة السيد الشريف ، من ذلك إطلاقه الحكم بأن صاحب الكشف يجوز عطف الإنشاء على الخبر والعكس من غير أن يجعل الخبر بمعنى الإنشاء ، يقول في هذا فإن قلت قد جوز صاحب الكشف عطف الإنشاء على الإخبار من غير أن يجعل الخبر بمعنى الإنشاء أو على العكس ، بل يؤخذ عطف الحاصل من مضمون إحدى الجملتين على الحاصل من مضمون الأخرى ، حيث ذكر في قوله تعالى : « فإن لم تفعلوا .. » إلى قوله « وبشر المؤمنين ، أنه ليس المعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطالب له مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه ، وإنما المعتمد بالعطف هو جملة وصف ثواب المؤمنين ، فهي معطوفة على جملة وصف عقاب الكافرين ، كما تقول زيد يعاقب بالقيد والإرهاق ، وبشر عمرا بالعمو والإطلاق ؟ قلت هذا دقيق حسن لكن من يشترط اتفاق الجملتين خبرا وإنشاء لا يسلم صحة ما ذكره من المثال (٢) .

وقد رفض العلامة السيد الشريف أن تفهم هذه القاعدة من كلام الزمخشري إذ أنه لا يدل عليها بهذا الإطلاق الذي ذكره العلامة سمد الدين ، وإنما هو بيان لعطف الفصلة على الفصلة وهذا النوع من العطف سمكت منه السكاكي كما يقول صاحب الكشف .

(١) المطول ص ١٠٤ ، ١٠٥

(٢) المطول ص ٢٦٣

يقول السيد الشريف ، لفظ الجملة في عبارة الكشاف لم يرد به ما هو المقصود في هذه المباحث كما يشعر به قوله ، فإن قلت قد جوز صاحب الكشاف حذف الإنشاء على الإخبار من غير أن يجعل الخبر بمعنى الإنشاء أو على العكس ، بل يؤخذ عطف الحاصل من مضمون إحدى الجملتين على الحاصل من مضمون الأخرى ، بل أريد به معنى المجموع ، أى المعتمد بالعطف هو مجموع قصة بين فيها آواب المؤمنين على مجموع قصة بين فيها عقاب الكافرين ، ثم ذكر عبارة صاحب الكشاف ثم قال : والعجب من الشارح أنه لم يفتبه لهذا المعنى مع ظهوره من عبارة العلامة (١) .

وإذا كان هذا بياناً لعطف القصة على القصة فلا يستشهد به على جواز عطف الإنشاء على الخبر ، وبالعكس ، بل إنه جدير بأن يستشهد به على عدم صحة هذا العطف ، لأنه يقول ليس المعتمد بالعطف هو الأمر حتى يطلب له مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه ، ومفهوم هذا الكلام أنه لو كان المعتمد بالعطف هو الأمر لطلب له مشاكل من أمر أو نهي يعطف عليه ، وقد قلت في دراسة الفصل والوصول : إن الزمخشري لا يمنع عطف الإنشاء على الخبر مادام المعتمد بالعطف هو مضمون الجمل لا الألفاظ ، وحينئذ لا تطلب المشاكلة بين الألفاظ ، وإنما تطلب المناسبة بين المعاني وهذا موضع دقيق يحسن تأمله .

٥ - إفادته من تحليلات الزمخشري ونسجه على منوالها في شرحه وإضافاته إلى كلام الخطيب ، فحين يذكر الخطيب قول ضياء بن الحارثي فإني وقيارها لغريب مثالا لحذف المسند ، يضيف سعد الدين بيان السر في تقديم المسند إليه الذي هو قياس على خبر إن الذي هو غريب ، ويذكر في بيان هذا السر أن الشاعر قد قصد التسوية بينهما في التحسر على الافتراق ، كأنه أثر في غير ذوى المقول أيضاً ، ببيان ذلك أنه لو قيل إني لغريب وقيار ، لجاز أن يتوهم أن له مزبة على قياس في التأثر بالغربة ، لأن ثبوت الحكم أولاً أقوى ، فقدمه لبيان الإخبار عنهما دفعة بحسب الظاهر ، تنبيهاً على أن قياساً مع أنه ليس من ذوى المقول

(١) ينظر حاشية السيد الشريف على المطول ص ٢٦٣

قد سارى العقلاء في استحقاق الإخبار عنه بالاغتراب تهاداً إلى التحسّر (١) .
ثم بين لنا أن هذا السر الذي ذكره في تقديم المسند إليه قد أدركه ما ذكره
الزمخشري في قوله تعالى وإن الذين آمنوا والذين هادوا والصابغون ،
يقول وهذا الوجه هو الذي قطع به صاحب الكشاف في قوله تعالى وإن الذين آمنوا
والذين هادوا والصابغون ، الآية . وقال: الصابغون مبتدأ وهو مع خبره
المحذوف جملة معطوفة على جملة إن الذين آمنوا إلى آخره لا محل لها من الإعراب ،
وفائدة تقديم الصابغون ، التنبيه على أنهم مع كونهم أبين المذكورين ضلالاً ، وأشدهم
غيماً ، يثاب عليهم إن صح منهم الإيمان والعمل الصالح ، فما الظن بغيرهم (٢) .

٦ - إفاذته من تحاميلات الزمخشري في تحرير الأصول البلاغية ، فقد كان
كتاب الكشاف من المصادر الأساسية الهامة التي اعتمد عليها سعد الدين في تحديد
القواعد البلاغية ، فكثيراً ما كان معتمد سعد الدين في تقرير المسألة العلمية هو كتاب
الكشاف وحده .

من ذلك اعتاده في الحكم على قولنا رأيت أسداً في الشجاعة بأنه من التشبيه
وإن ترك فيه المشبه بالكناية على ما ذكره الزمخشري في قوله تعالى حتى يتبين لكم
الخيوط الأبيض من الخيوط الأسود من الفجر ، .

يقول سعد الدين : وأما إذا ترك المشبه بالكناية لكن أتى بوجه المشبه نحو
رأيت أسداً في الشجاعة ، ونحو قوله :

ولاحت من بروج البدر بعدا بدور مها تبرجها اکتان

ففيه إشكال ، لأن ترك المشبه لفظاً أو تقديرًا ، وإجراء اسم المشبه به
عليه ، يقتضى أن يكون هذا استعارة ، وذكر وجه المشبه يقتضى أن يكون
تشبيهاً ، أي رأيت رجلاً كالأسد في الشجاعة ، ولاحت من قصور مثل بروج البدر
في البعد ، فهينهما تدافع ، كذا ذكره صدر الأفاضل في ضرام السقط ، والظاهر
أن مثل هذا من باب التشبيه ، لأن المراد بكون المشبه مقدراً أهم من أن

(١) المطول من ١٤٠ .

(٢) المرجع السابق .

يكون محذوفاً جزء كلام كافي قوله تعالى : «صم بكم» أو يكون في الكلام ما يقتضى تقريره ، كما في قولنا رأيت أسداً في الشجاعة بدليل أنهم جعلوا الخيط الأسود في قوله تعالى «حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» تشبيهاً ، لأن بيان الخيط الأبيض بالفجر قرينة على أن الخيط الأسود أيضاً مبين سواد آخر الليل . وأبعد من ذلك ما يشعر به كلام صاحب الكشاف من أن قوله تعالى «ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون» ورجلاً ساماً لرجل ، هل يستويان ، وقوله تعالى «وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج» من باب التشبيه المطوى فيه ذكر المشبه كما في الاستعارة... ثم يضع أصلاً للفرق بين التشبيه والاستعارة وهو صحة قيام المشبه مقام المستعار مع فوات المبالغة في أسلوب الاستعارة وعدم صحة ذلك في أسلوب التشبيه ، ثم يطبق هذا الأصل على الآيات التي ذكرها صاحب الكشاف في هذا النص ، ثم يقول وانخفاً ذلك ذهب كثير من الناس إلى أن الآيتين من قبيل الاستعارة وأن صاحب الكشاف أوردهما مثالين للاستعارة ، ولا يخفى ضعفه على من تأمل لفظ الكشاف (١) .

٧ - نقده لبعض آراء الزمخشري :

وقد يقف العلامة سعد الدين من كلام صاحب الكشاف موقف الناقد المتأمل ، ثم يرفض هذا الكلام إذا وجد فيه بعداً عن الحق ، وهو في نقده ورفضه يعتمد على إدراك فطن وفهم نافذ . ومن خير ما قاله في هذا الصدد : موازنته بين رأى الشيخين عبد القاهر والزمخشري ورأى السكاكي في سر حذف المفعول في قوله تعالى «ولما ورد ماء مدين» .

يقول وأما قوله تعالى «ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون» ووجد من دونهم امرأتين تذودان ، فذهب الشيخ عبد القاهر وصاحب الكشاف إلى أن حذف المفعول فيه للقصد إلى نفس الفعل ، وتزويله منزلة اللازم ، أى يصدر منهم السقى ، ومنهما الذود ، وأما أن المسقى والمذود لابل ، أو غنم ، بخارج عن المقصود ، بل يؤهم خلافة ، إذ لو قيل أو قدر يسقون لابلهم ، وتذودان غنمهما ،

لتوهم أن الترحم هاتهما ليس من جهة أنهما على الذود والناس على السقى ، بل من جهة أن مذودهما غنم ، ومسقيهم إبل ، ألا ترى أنك إذا قلت مالك تمنع أخاك كنت منكراً المنع ، لا من حيث هو منع الأخ ، وذهب صاحب المفتاح إلى أنه مجرد الاختصار ، والمراد يسقون مواشيهم ، وتذودان غنمهما ، وكذا سائر الأفعال المذكورة في هذه الآية ، وهذا أقرب إلى التحقيق لأن الترحم لم يكن من جهة صدور الذود عنهما ، وصدور السقى من الناس ، بل من جهة ذودهما غنمهما ، وسقى الناس مواشيهم ، حتى لو كانتا تذودان غير غنمهما ، وكان الناس يسقون غير مواشيهم ، بل غنمهما مثلاً لم يصح الترحم فليتأمل ففيه دقة اعتبرها صاحب المفتاح بعد التأمل في كلام الشينخين وغفل عنها الجمهور فاستحسنوا كلامهما (١) .

وقد هاق السيد الشريف على هذه الموازنة وقال مشيراً إلى وجهة صاحب المفتاح وهذا أدق نظراً وأصح معنى (٢) .

(١) الطول ص ١٢٧ .

(٢) حاشية السيد الشريف على الطول ص ١٢٧ .

الفصل الثاني

أثر الكشاف في المثل السائر

الاستدراج	الالتفات
الإيجاز	توكيد الضميرين
الإطناب	عطف المظهر هل ضميره
التكرير	التفسير بعد الإبهام
الكتابة والتعريض	استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات
تقابل المعاني	التقديم والتأخير
كتاب الجامع الكبير	الحروف الجارة
مناقشات	عكس الظاهر

www.alkottob.com

الفصل الثاني

أثر الكشاف في المثل السائر

لا شك في أن كتاب المثل السائر من أعظم الكتب التي تناولات شتوتن البلاغة والنقد بعد عصر الزمخشري ، وأنه أثار كثيراً من القضايا البلاغية الهامة وعالجها بالروح الأدبية المتذوقة ، وأن صاحبه (١) كان ذا بصير بشتون الكتابة والشعر ، لذلك رأيت أن أتعرف على أثر الدراسة البلاغية التي أثارها الزمخشري في هذا الكتاب العظيم ليتضح لنا مدى تأثيره في الانجاهات الدراسية الهامة في هذا العلم بعد ما بينا أثره في مدرسة المفتاح .

ومن الواضح أن الدراسة البلاغية بعد الزمخشري سارت في اتجاهات مختلفة كان أبرز هذه الاتجاهات ، اتجاه السكاكي والقرويني وشراحهما ، وطريقتهما هي الطريقة التي سيطرت على الدراسة البلاغية زماناً طويلاً ، وأصولها تمتد كما قلنا في بيئة المشرق حيث ترفدها دراسة عبد القاهر في جرجانية خوارزم ودراسة الزمخشري في زمخشر وقيلهما دراسة علي بن عبد العزيز .

ولا شك أن اتجاه ابن الأثير كان يختلف اختلافاً واضحاً عن هذه المدرسة الخوارزمية البارزة الملامح وأنه لم يفد من هذه الدراسة العظيمة بمقدار ما أفاد من غيرها ، فقد كان يضع بصره على دراسة الخفاجي والأمدى ، نعم قد قرأ ابن الأثير كتاب الكشاف قراءة فهم وتمثل وأفاد منه الكثير ، وقد أكون على حق إذا قلت إن أثر دراسة خوارزم في كتاب المثل السائر تتمثل فيما سوف أبينه من أثر الكشاف في هذا الكتاب .

(١) هو أبو الفتح نصر الدين بن محمد بن محمد الشيباني الجزري الملقب بصبياء الدين ، ولد بجزيرة ابن عمرو بالموصل سنة ثمان وخمسين وخمسة ، وهرت أسرته بالعلم والفضل والأدب وهو أحد أخوة ثلاثة برهوال العلوم العربية والإسلامية فأخوه مجد الدين محدث وفقه وأخوه عز الدين مؤرخ وصاحب تصانيف قيمة منها أسد الغابة في معرفة الصحابة وكتاب السكامل ، وقد التحق صاحبنا بصبياء الدين بخدمة صلاح الدين الأيوبي وتولى ديوان الرسائل لأمر الموصل ناصر الدين محمود ، وتولى سنة سبع وثلاثين وستة مائة هجرية .

وقد عالج ابن الاثير كما قلت اصولاً نقدية ومسائل بلاغية لها اهميتها، والملاحظ أثر الكشف ينعدم في كثير من أبواب هذا الكتاب، فهو حين يتكلم في المقدمة عن موضوع علم البيان، وآلاته، وما يجب على الأديب الكاتب أن يتقن به نفسه، وحين يتكلم في المقالة الأولى عن الصناعة اللفظية ويذكر فنون البديع لا تجد أثراً واضحاً لدراسة الزمخشري في هذين الموضوعين. وقد يرجع هذا إلى أن الزمخشري لم يدرس هذه المسائل دراسة بيئية يلتفت إليها الباحثون. وحين يتكلم في المقالة الثانية عن معاني الخطابة والشعر، وعن الاستعارة والتشبيه لا نجد كذلك أثراً بيتاً لدراسة الزمخشري، وقد حاول ابن الاثير أن يكون له رأى في تقسيمات البيان ولكنه لم ينجح.

أما حين يتكلم في الالفاظ، وفي تأكيد الضميرين، وفي التفسير بعد الإجماع، وفي استعمال العام في النقي والخاص في الإيجابات، وفي التقديم والتأخير، وفي الحروف العاطفة، والجملة الفعلية والإسمية، وعكس الظاهر، والاستدراج، وحذف الجمل، والتكرار، نجد في كل هذه الفنون أثر الزمخشري واضحاً وجلياً، حتى أنه يعتمد عليه أحياناً وينقل عباراته كاملة، وقد نجده يخالف الزمخشري في أصل المسألة ثم يعود إليه ويأخذ منه أخذاً مباشراً، وقد نجده يدهى استنباط فن من فنون البلاغة ثم هو لا يزيد على أن يذكر فيه كلام الزمخشري.

وظاهر لنا أن ما أخذه من الزمخشري لم يكن مشهوراً عند غيره، وإن كان معروفاً في مسائل العلم وأصوله، ولكنه على كل حال لم تذكر فيه النصوص وتحمل تحليلاً بلاغياً دقيقاً كما تذكر وتحمل في كتاب الكشف، وأن ما أغفل فيه حديث الزمخشري كان مشهوراً عند غيره.

نعم إن للزمخشري كلاماً في تحليل صور البيان لم يصل إليه أحد قبله، وله في ميزان الدراسة البلاغية المتدورة وزن راجح، وقد أغفله ابن الاثير، وذلك راجح في نظري إلى أن أكثر دوافع التحليل والبحث لمثل هذه الصور يكن في محاولة التنزيه وتأميل النصوص المهتمة، وهذه قضية اشهد عنها ابن الاثير فلم يكن في حاجة إلى ذكر نصوصها وتحليلاتها.

ودونك بعضاً من هذه المباحث التي أفادها من الكشف.

الالتفات :

يقول ابن الاثير في القيمة البلاغية للالتفات وهذا النوع وما يليه هو خلاصة علم البيان التي حولها يدندن واليها تستند البلاغة وعنها يعنى .

ويروى أن الالتفات فن تخصص به اللغة العربية دون غيرها من اللغات (١) .

ثم يحاول ابن الاثير أن يجد علة وسراً لهذا الحسن الكامن في هذه الطريقة ، ويرفض في هذا كلام البلاغيين حيث يقولون إنه من عادة العرب واقتنائهم في كلامهم ، ويسمى مثل هذا التعليل بعكاز الاعمى ، وهو على حق ، فإن بيان أسرار البلاغة لا يكتب في هذا القول إذ أننا محتاجون دائماً إلى معرفة السبب الذي قصدت العرب ذلك من أجله حتى صار من عادتهم .

ومن الواضح أن الزمخشري ذكر القيمة البلاغية لهذا الفن وسر تأثيره وأفاض في هذا ، ولكن ابن الاثير حاول أن يخطئه هذا الحق ، فذكر بعض كلامه ، وناقشه فيه ، ورفضه ، ولكنه لم يلبث أن رجع إليه فأخذ منه تحليلاته الفنية الفذة .

يقول ابن الاثير : وقال الزمخشري رحمه الله : إن الرجوع من الغيبة إلى الخطاب إنما يستعمل للتفنن في الكلام والانتقال من أسلوب إلى أسلوب تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظ الاصغاء إليه ، وليس الأمر كما ذكره الزمخشري لأن الانتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب إذا لم يكن إلا تطرية لنشاط السامع وإيقاظ للاصغاء إليه ، فإن ذلك دليل على أن السامع يمل من أسلوب واحد فينتقل إلى غيره ليجد نشاطاً الاستماع ، وهذا قدح في الكلام لا وصف له لأنه لو كان حسناً لما مل (٢) .

وليس إيقاظ السامع وإثارته وتعميد نشاطه دليلاً على عيب الكلام وقدحه كما يزعم ابن الاثير ، ولم يقف الزمخشري عند هذه العلة وحدها ، بل ذكر أن مواقعته تخصص بفوائده ، وذكر لها أمثلة وشواهد ، وقد أحسن ابن أبي الحديد حين

(١) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ١٧٠

(٢) المثل السائر ج ٢ ص ١٧١ ، ١٧٢

ورفض هذا الاعتراض وذكر أن الملل لا يكون إلا من الحسن المستعذب، وأنهم يستحبون قول من يقول قد مل المحبوس من الحبس والمضروب من الضرب (١).

ثم يقول ابن الأثير : ولو سلمنا إلى الزمخشري ما ذهب إليه لكان إنما يوجد ذلك في الكلام المطول، ونحن نرى الأمر بخلاف ذلك، لأنه قد ورد الانتقال من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة في مواضع كثيرة من القرآن، ويكون مجموع الجاهلين بما يبلغ عشرة ألفاظ أو أقل من ذلك (٢).

وليس كما زعم ابن الأثير فإن إيقاظ السامع وإثارته وجذب انتباهه، لا يستلزم كلاماً مطولاً، وقد رد ذلك ابن أبي الحديد واعتبر هذا من العرب شدة اهتمام وعناية بالإفهام، فوقع ذلك في قصير كلامهم كما وقع في طويله (٣). ويقول ابن الأثير :

ومفهوم قول الزمخشري في الانتقال من أسلوب إلى أسلوب إنما يستعمل قصداً للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل إليه لا قصداً لاستعمال الأحسن، وهى هذا فإذا وجدنا كلاماً قد استعمل في جميعه الإيجاز ولم ينتقل عنه، أو استعمل فيه جميعه الإطناب ولم ينتقل عنه، وكان كلا الفريقين واقعا في موقعه، قلنا هذا ليس بحسن إذ لم ينتقل فيه من أسلوب إلى أسلوب، وهذا قول فيه ما فيه (٤).

والحق أن ابن الأثير قد تصف حين حمل كلام الزمخشري على هذا المعنى وذهب به هذا المذهب فليس مراد الزمخشري أن الانتقال يكون قصداً للمخالفة بين المنتقل عنه والمنتقل إليه وإنما يكون قصداً لإثارة السامع وتجديد نشاطه بهذه المخالفة، ومن هنا يحسن الالتفات مع ملاحظة خصوصيات المقامات التي تنبئ إليها الزمخشري، وقد أحسن في هذا.

ولا يلزم من هذا أن يقال إن الإيجاز الواقع موقعه الذي لا انتقال فيه، وإن الإطناب الواقع موقعه الذي لا انتقال فيه أيضاً كلاهما غير حسن، لأن

(١) ينظر كتاب الملل الدائر على المثل السائر، ج ٤ من ٢٤، ٢٥.

(٢) المثل السائر ج ٢ من ١٢٧.

(٣) ينظر للملك الدائر ج ٤ من ٢٦.

(٤) المثل السائر ج ٢ من ١٢٧.

الانتقال ليس شرطاً لازماً للحسن ، ولا يفهم هذا من كلام الزمخشري وقد أحسن ابن أبي الحديد حين قال في هذا ، إن هذا الاعتراض من أطرف ما يمكن ، وذلك أن الزمخشري لم يجعل حسن الكلام مقصوداً على الالتفات كالشروط التي تعد عند عدم شروطها ، ولكنه قال إن الالتفات بما تستعمله العرب ، ووجه استعمالها له أنه يحصل فيه نوع تنبيه ما للسامع ، وتجديد للنشاط إلى سماع الخطاب فلا يلزم من ذلك أن كل خطاب لا الالتفات فيه ، فإنه لا يكون حسناً كما إذا قلنا إنما حسن استعمال المطابقة والتجنيس في الشعر لكذا وكذا لا يلزم منه أن يكون كل شعر لا تجنيس فيه ولا مطابقة غير حسن . . . فقد بان أن هذا الموضع ما ذهب على الزمخشري وإنما ذهب على من اعترضه (١) .

ثم قال ابن الأثير ، والذي عندي في ذلك أن الانتقال من الخطاب إلى الغيبة أو من الغيبة إلى الخطاب لا يكون إلا لفائدة اقتضته ، وتلك الفائدة أمر وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب ، غير أنها لا تحد بحد ، ولا تضبط بضابط ، لكن يشار إلى مواضع منها لا يقاس عليها غيرها (٢) .

وهذه الفائدة التي تكمن وراء الانتقال من أسلوب إلى أسلوب والتي لا تحد بحد ولا تضبط بضابط قد أشار إليها الزمخشري بقوله بعد ما ذكر النظرية والإيقاظ . وقد تختص موافقه بقوائده (٣) .

وقد ذكر ابن الأثير كلام الزمخشري في المواضع التي ذكرها ليقاس عليها غيرها ، من ذلك قوله تعالى . « وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون » يقول ابن الأثير : وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويدارهم ، لأن ذلك أدخل في إحصاء النصيح ، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه ، وقد وضع قوله : « وما لي لا أعبد الذي فطرني » مكان قوله : « وما لكم لا تعبدون الذي فطركم » الأثرى إلى قوله « وإليه ترجعون » ، ولولا أنه قصد ذلك لقال الذي فطرني إليه أرجع . وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال « إني آمنت بربكم فاسمعون » (٤) .

(١) الفلك الدائر ج ٤ ص ٢٧

(٢) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ١٧٢

(٣) الكشاف ج ١ ص ١٢

(٤) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ١٧٧

ويقول الزمخشري في هذه الآية ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطف بهم ويدارهم ، ولأنه أدخل في إحصاء النصيح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه ، ولقد وضع قوله : « وما لي لا أجد الذي فطرنى ، مكان قوله : « وما لكم لا تعبدون الذي فطركم ، ألا ترى إلى قوله « وإليه ترجعون ، ولولا أنه قصد ذلك لقال الذي فطرنى وإليه أرجع وقد ساقه ذلك المساق إلى أن قال « آمنت بربكم فاسمعون ، (١) .

ويقول ابن الأثير في قوله تعالى « يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيى ويميت فأمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، فإنما قال فأمنوا بالله ورسوله ولم يقل فأمنوا بالله وبى عطفاً على قوله أنى رسول الله إليكم لتجرى عليه الصفات التى أجريت عليه وليعلم أن الذى وجب الإيمان به والاتباع له هو هذا الشخص الموصوف بأنه النبي الأمى الذى يؤمن بالله وبكلماته كأننا من كان أنا أو غيرى إظهاراً للنصفة وبعداً من التعصب لنفسه (٢) .

ويقول الزمخشري في هذا فإن قلت هلا قيل فأمنوا بالله وبى بعد قوله إنى رسول الله إليكم جميعاً ؟ قلت عدل من المضمرة إلى الاسم الظاهر لتجرى عليه الصفات التى أجريت عليه ، ولما فى طريقة الالتفات من مزية البلاغة ، وليعلم أن الذى وجب الإيمان به واتباعه هو هذا الشخص المستقل بأنه النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته كأننا من كان أنا أو غيرى إظهاراً للنصفة وتفادياً من التعصب لنفسه (٣) .

وقريب من هذا التوافق ما يذكره فى قوله تعالى « هو الذى يسيركم فى البر والبحر حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف ، فقد ذكر ابن الأثير فيها كلام الزمخشري وزاد عليه زيادة لا تعدو أن تكون شرحاً لهذا الكلام لا يضيف إليه شيئاً (٤) .

(١) الكشاف ج ٤ ص ٨

(٢) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ١٨٢ ، ١٨٣

(٣) الكشاف ج ٢ ص ١٣١

(٤) ينظر اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ١٨١ والكشاف ج ٢ ص ٢٦٦

ومن الالفاظ عند ابن الاثير الرجوع عن الفعل المستقبل إلى فعل الامر ،
وعن الفعل الماضي إلى فعل الامر .

وقد ذكر من شواهد ذلك قوله تعالى د قال إني أشهد الله وأشهدوا إني برىء
بما أشركون ، وقال فيها فإنه إنما قال أشهد الله وأشهدوا ولم يقل وأشهدكم ليكون
موازنا له وبمعناه لأن إشهاد الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت ، وأما
إشهادهم فما هو إلا تهاون بهم ، ودلالة على قلة المبالاة بهم ، واذلك عدل به
عن لفظ الاول لاختلاف ما بينهما ، وجرى به على لفظ الامر كما يقول الرجل لمن
يبس الثرى بينه وبينه أشهد على أنى لا أحبك ، تهكما به واستهانة بحاله (١) .

ويقول الزمخشري فيها فإن قلت هلا قيل إني أشهد الله وأشهدكم ؟ قلت لأن
إشهاد الله على البراءة من الشرك إشهاد صحيح ثابت في معنى تثبيت التوحيد وشد
معاقده ، وأما إشهادهم فما هو إلا تهاون بدينهم ودلالة على قلة المبالاة بهم فحسب ،
فعدل به عن لفظ الاول لاختلاف ما بينهما ، وجرى به على لفظ الامر بالإشادة
كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه أشهد على أنى لا أحبك تهكما به واستهانة
بحاله (٢) .

ويذكر ابن الاثير أن عطف المستقبل على الماضي يكون على ضربين ، الضرب
الاول ما يستعمل فيه المستقبل للدلالة على حدث قد مضى ، والضرب الثاني
ما يستعمل فيه المستقبل للدلالة على حدث يقع في المستقبل ، والضرب الاول هو
القسم البلاغى الذى يعنى به .

وأما قوله تعالى د والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد
ميت فأحيينا به الارض بعد موتها . يقول ابن الاثير فإنه إنما قال فتثير مستقبلا
وما قبله وما بعده ماض لذلك المعنى الذى أشرنا إليه ، وهو حكاية الخالق الذى يقع
فيها إثارة الريح السحاب واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة
الباهرة ، وهكذا يفعل بكل فعل فيه نوع تمييز وخصوصية كحال استغرب أو

(١) المثل السائر ج ٢ ص ١٨٤ ، ١٨٤

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٣١٥ ، ٣١٦

ثم المخاطب أو غير ذلك ... ثم يحكى حديث الزبير بن العوام رضى الله عنه الذى أخبر فيه أنه لقي عبيدة بن سعد بن العاص وهو على فرسه وعليه لامته كاملة لا يرى منه إلا عيناه . قال الزبير : وفى يدي عنزة فأطمن بها فى عينيه فوقع وأطأ برجل على خده حتى خرجت العنزة متمقفة ، ثم يقول ابن الأثير وعلى هذا ورد قول تأبط شراً .

بأن قد اقيمت الغول تموى بسبب كالحصيفة صحصحان
فأضربها بلا دهش فخرت صريعا ليدين وللجران
فإنه قصد أن يصور لغومه الحال التى تشجع فيها على ضرب الغول كأنه
يبصرهم إياها مشاهدة للتعجب من جراته على ذلك الهول ولو قال فاضربتها عطفاً
هل الأول لزالته هذه الفائدة المذكورة (١) .

وهذا مأخوذ من كلام الزمخشري فى هذه الآية وقد أضاف إليه ابن الأثير
حديث الزبير بن العوام وله نظير فى كلام الكشاف فى موطن آخر وقد أثبتنا هذه
النصوص فى دراسة المفرد (٢) .

أما الضرب الثانى من عطف المستقبل على الماضى فإنه يراد به إن ذلك الفعل
مستمر الوجود لم يمض ، وقد ذكر ابن الأثير شواهد من تحليلات الزمخشري
فى الكشاف من ذلك قوله تعالى : ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض
مخضرة إن الله لطيف خبير .

يقول ابن الأثير ، ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضى ههنا إلى المستقبل ، فقال
فتصبح الأرض مخضرة ولم يقل فأصبحت عطفاً على أنزل ، وذلك لإفادة بقاء أثر
المطر زماناً بعد زمان فأنزل الماء مضى وجوده واخضرار الأرض باقى لم يمض ،
وهذا كالتقول أنهم على فلان فأروح وأغدو شاكرآ له ، ولو قلت فرحت وغدوت
شاكرآ له لم يقع ذلك الموقع لأنه يدل على ماض قد كان وانقضى ، وهذا موضع
حسن يلغى أن يتأمل (٣) .

(١) المثل السائر ج ٢ ص ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ بتصريف
(٢) ينظر الكشاف ج ٣ ص ٤٧٤ ، ٤٧٥ وهذا البحث فى دراسة المفرد
(٣) المثل ج ٢ ص ١٨٦ وينظر الكشاف ج ٣ ص ١٢٢

ولست أدري لماذا كان هذا القسم غير بلاغي ؟ أليست البلاغة نظراً فيما تنطوي عليه خصائص الالفاظ وأحوالها لإبراز معانيها وبيان لطائفها ومطابقتها لسياق الكلام ؟ وأليس هذا داخلاً في أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال ؟ وأليس هذا موضعاً حسناً ينبغي أن يتأمل كما يقول ؟

الحق أن عبد القاهر الجرجاني قد أصاب حين جعل إدراك الخطأ الخفي الذي لا ينتبه إليه إلا الخاصة من المثقفين من صميم علوم البلاغة ومن صميم لطائفها وأسرارها ، وقد ذكر في هذا بيت المتنبي :

عجباً له حفظ العتاف بأتمل ما حفظها الأشياء من عاداتها

وقال فيه (مضى الدهر الطويل ونحن نقرؤه فلا تنكر منه شيئاً ولا يقع لنا أن فيه خطأ ، ثم بان بآخره أنه قد أخطأ ، وذلك أنه كان ينبغي أن يقول ما حفظ الأشياء من عاداتها فيضيف المصدر إلى المفعول فلا يذكر الفاعل ذلك لأن المعنى على أنه ينبغي الحفظ عن أنامله جملة وأنه يزعم أنه لا يكون منها أصلاً وإضافته الحفظ إلى ضميرها في قوله ما حفظها الأشياء يقتضى أن يكون قد أثبت لها حفظاً ونظير هذا أنك تقول ليس الخروج في مثل هذا الوقت من عادتي ولا تقول ليس خروجي في مثل هذا الوقت من عادتي^(١) .

ومن الالتفات الإخبار بالفعل الماضي عن المستقبل والغرض منه توكيد تحقق الفعل وإيجاده ومنه قوله تعالى ، ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض ، .

يقول ابن الأثير فإنه إنما قال ففزع بألف الماضي بعد قوله ينفخ وهو مستقبل للأشعار بتحقيق الفزع ، وأنه كان لا محالة لأن الفعل الماضي يدل على وجود الفعل وكونه مقطوعاً به ، وكذلك جاء قوله تعالى ، ويوم كسرت الجبال وترى الأرض بارزة وحشرناهم فلم تغادر منهم أحداً ، وإنما قبل وحشرناهم ماضياً بعد كسرت وترى وهما مستقبليان للدلالة على أن حشرهم قبل كسرتهم والبروز ليصاهروا تلك الأحوال ، كأنه قال وحشرناهم قبل ذلك لأن الحشر هو المهم ، لأن من الناس من

يشكزه كالفلاسفة وغيرهم ، ومن أجل ذلك ذكر بلاغظ الماضي . وبما يجرى هذا الجرى الإخبار باسم المفعول عن الفعل المستقبل ، وإنما يفعل ذلك لتضمنه معنى الفعل الماضي ، وقد سبق الكلام عليه ، فمن ذلك قوله تعالى ، إن في ذلك لآية لمن خاف عذاب الآخرة ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود .

فإنه إنما أوثر اسم المفعول الذي هو مجموع على الفعل المستقبل الذي هو مجموع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى الجمع لليوم ، وأنه الموصوف بهذه الصفة ، وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى : د يوم يجمعكم ليوم الجمع ، فإنك تعثر على صحة ما قلت (١) .

وهذا مأخوذ من الكشاف وقد أثبتناه في دراسة المفرد .

توكيد الضميرين :

ويستمد ابن الأثير دراسته في هذا الموضوع من تحايلات الكشاف كما فعل في دراسة الالتفات ولا تجد له زيادة هامة ، ومن الواضح أنه أضاف ترجمة هذا الموضوع وجمع مثله وشواهد من الكشاف ، وأضاف إضافات جاءت على لسبها وكأنها زيادة في الأمثلة .

يقول في جماع أمر التوكيد : إذا كان المعنى المقصود معلوماً ثابتاً في النفوس قامت بالخيار في توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر ، وإذا كان غير معلوم وهو مما يشك فيه فالأولى حينئذ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه لتقرره وثبته ، فما جاء من ذلك قوله تعالى وقالوا يا موسى أما أن تكون نحن الملقين ، فإن إرادة السحرة الإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده لأنهم لم يصرحوا بما في أنفسهم من ذلك ، لكنهم لما عدلوا عن مقابلة خطابهم موسى بمثله إلى توكيد ما هو لهم بالضميرين الذين هما تكون ونحن دل ذلك على أنهم يريدون التقدم عليه والإلقاء قبله ، لأن من شأن مقابلة خطابهم موسى بمثله أن كانوا قالوا إما أن تلقى وإما أن تلقى لتكون الجملتان متقابلتين حيث قالوا عن

(١) المثل السائر ج ١ ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ونظر الكشاف ج ٢ ص ٣٠٤ ، ج ٢

أنفسهم وإما أن تكون نحن الملقين استدلال هذا القول على رغبتهم في الإلقاء قبله (١) .

وهذا شرح لقول الزمخشري في الآية ، وقولهم وإما أن تكون نحن الملقين فيه ما يدل على رغبتهم في أن يلقوا قبله من تأكيد ضميرهم المتصل بالمتفصل ، وتعريف الخبر ، أو تعريف الخبر وإقحام الفصل ، وقد سوغ لهم موسى ما تراغبوا فيه ازدراء لشأنهم (٢) .

ويقول ابن الأثير: وأما تركيد المتصل بالمتصل فكقوله تعالى في سورة الكهف : فانطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله قال أقتلت نفسا زكية بغير نفس لقد جئت شيئا نكرا قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ، وهذا بخلاف قصة السفينة فإنه قال فيها ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرا ، والفرق بين الصورتين أنه أكد الضمير في الثانية دون الأولى فقال في الأولى ألم أقل لك ، وقال في الثانية ألم أقل لك إنك ، وإنما جرى بذلك لزيادة في مكالمة العتاب على رفض الوصية مرة على مرة ، والوسم بعدم الصبر ، وهذا كما لو أتى الإنسان ما نهته عنه قلته وعنفته ، ثم أتى ذلك مرة ثانية أليس أنك تزيد في لومه وتعنيفه ؟ وكذلك فعل ههنا ، فإنه قيل في الملامة أولا ألم أقل لك ، ثم قيل ثانياً ألم أقل لك إنك ، وهذا موضع يدق من العنور عليه ببادرة النظر ما لم يعط القائل فيه حقه (٣) .

وهذا الكلام شرح لما في الكشاف وإن كان الزمخشري لم يجعل ذكر الجار والمجرور من تركيد المتصل بالمتصل وإنما هو قيد للقول ، وقد جمع ذلك كله بقوله :

فإن قلت ما معنى زيادة لك ؟ قلت زيادة المكالمة بالعتاب على رفض الوصية والوسم بقلة الصبر عند السكرة الثانية (٤) .

(١) المثل السائر ج ٢ ص ١٩٢

(٢) الكشاف ج ٢ ص ١١٠

(٣) المثل السائر ج ٢ ص ١٩٤

(٤) الكشاف ج ٢ ص ٥٧٤

ويقول ابن الأثير وأما توكيد المتصل بالمتنصل فنحو قوله تعالى : فأوحس
في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، فتوكيد الضميرين ههنا أني
الخوف من قلب موسى وأثبت في نفسه للغلبة والقر ولو قال لا تخف إنك الأعلى
أو فانت الأعلى لم يكن له من التقرير والإثبات لنفي الخوف ما لقوله إنك أنت
الأعلى ، وفي هذه الكلمات الثلاث وهو قوله إنك أنت الأعلى ست فوائد: الأولى
أن المشددة التي من شأنها الإثبات لما يأتي بعدها . . . الثانية تكرير الضمير في
قوله إنك أنت . . . الثالثة لام التعريف في قوله الأعلى . . . الرابعة لفظ أفعال
الذي من شأنه التفضيل . . . الخامسة إثبات الغلبة له من العلو لأن الغرض من قواه
الأعلى أي الأغلِب . . . السادسة الاستئناف (١) .

وقد جمع الزمخشري كل هذه المعاني في قوله : فيه تقرير لغلبته ، وقهره ،
وتوكيد بالاستئناف ، وبكلمة التشديد ، وبتكرير الضمير ، وبلاد التعريف ،
وبلفظ العلو ، وهو الغلبة الظاهرة ، وبالتفضيل (٢) .

في عطف المظهر على ضميره :

وكانت التحليلات البلاغية في الكشف زاد ابن الأثير في دراسة هذا النوع
الذي ترجم له بعطف المظهر على ضميره والإفصاح به بعده ، يقول في هذا النوع
ومما جاء من ذلك قوله تعالى : « أو لم يروا كيف يبدؤ الله الخلق ثم يعيده إن
ذلك على الله يسير ، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ
الإنشاء الآخرة ، ألا ترى كيف صرح باسمه تعالى في قوله ثم الله ينشئ الإنشاء
الآخرة مع إيقاعه مبتدأ في قوله كيف يبدؤ الله الخلق ، وقد كان القياس أن
يقول كيف يبدأ الله الخلق ثم ينشئ الإنشاء الآخرة ، والمائدة في ذلك أنه لما
كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة وكان صدر الكلام واقعاً معهم في
الإبداء ، وقرروهم أن ذلك من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء
وإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لا يعجزه الإبداء فوجب ألا تعجزه
الإعادة (٣) .

(١) اللؤلؤ الصادر ج ٢ من ١٩٤ ، ١٩٥

(٢) الكتاب ج ٣ ص ٥٨

(٣) اللؤلؤ الصادر ج ٢ ص ١٩٩ ، ٢٠٠

ويقول الزمخشري في هذه الآية فإن قلت ما معنى الإفصاح باسمه مع إيقاعه مبتدأ في قوله ثم الله ينشئ. النشأة الآخرة بعد إختاره في قوله كيف بدأ الخلق وكان القياس أن يقال كيف بدأ الله الخلق ثم ينشئ. النشأة الآخرة؟ قلت: الكلام معهم كان واقعاً في الإعادة وفيها كانت تصطك الركب، فلما قررم في الإبداء بأنه من الله احتج عليهم بأن الإعادة إنشاء مثل الإبداء، فإذا كان الله الذي لا يعجزه شيء هو الذي لم يعجزه الإبداء فهو الذي وجب ألا تعجزه الإعادة (١).

ويقول ابن الأثير وكذلك جاء قوله تعالى: وإذا تلى عليه آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى، وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين، فإنه إنما قال وقال الذين كفروا ولم يقل وقالوا كالذي قبله للدلالة على صدور ذلك عن إنكار عظيم وغضب شديد وتعجب من كفرهم ببلغ لاسياً وقد انضاف إليه قوله وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم. وما فيه من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه وما في لما من المبادهة كأنه قال وقال أولئك الكفرة المتمردون بحراءتهم على الله ومكابرتهم مثل ذلك الحق المبين قبل أن يتدبروه: إن هذا إلا سحر مبين (٢).

ويقول الزمخشري: وفي قوله وقال الذين كفروا وفي أن لم يقل وقالوا، وفي قوله للحق لما جاءهم وما في اللامين من الإشارة إلى القائلين والمقول فيه، وفي لما من المبادهة بالكفر دليل على صدور الكلام عن إنكار عظيم وغضب شديد، وتعجب من أمرهم ببلغ، كأنه قال وقال أولئك الكفرة المتمردون بحراءتهم على الله ومكابرتهم مثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه: إن هذا إلا سحر مبين (٣).

وهذه التحليلات التي نقلها ابن الأثير في هذا النص لم تكن مقصورة على عطف المظهر على المضمرة وإنما شرحت نكتاً وأسراداً في التعريف وفي معنى الشرط، ولم يأخذ ابن الأثير منها ما كان خاصاً بعطف المظهر على ضميره الذي هو موطن شاهده لحسب.

(١) الكشاف ج ٣ ص ٣٥٣

(٢) للذيل السائر ج ٢ ص ٢٠٩

(٣) الكشاف ج ١ ص ٤٦٤

التفسير بعد الإبهام :

ويأخذ ابن الأثير من تهليلات الكشاف أكثر ما في هذا النوع يقول بعد ما بين أنه لا يعمد إلى هذا النوع إلا لضرب من المبالغة . ومثل هذا ورد قوله تعالى في سورة أم الكتاب ، اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين انعمت عليهم ، فإنه إنما قال ذلك ولم يقل اهدنا صراط الذين انعمت عليهم لما في الأولى من التنبيه والإشعار بأن الصراط المستقيم هو صراط المؤمنين ، فدل عليه بأبلغ وجه كما تقول هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ؟ ثم تقول فلان فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل لأنك تثبت ذكره بجملاً ومفصلاً فجعلته هلياً في الكرم والفضل ، كأنك قلت من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين فعليه بفلان (١) .

ويقول الزمخشري في هذه الآية فإن قلت ما فائدة البدل وملا قيل اهدنا صراط الذين انعمت عليهم ؟ قلت فائدته التوكيد لما فيه من التثنية والتكرير والإشعار بأن الطريق المستقيم بيانه وتفسيره صراط المسلمين ليكون ذلك شهادة لصراط المسلمين بالاستقامة على أبلغ وجه وأكد ، كما تقول هل أدلك على أكرم الناس وأفضلهم ؟ فلان فيكون ذلك أبلغ في وصفه بالكرم والفضل من قولك هل أدلك على فلان الأكرم الأفضل لأنك تثبت ذكره بجملاً أولاً ومفصلاً ثانياً وأوقعت فلاناً تفسيراً وإيضاحاً للأكرم الأفضل فجعلته هلياً في الكرم والفضل ، فكأنك قلت : من أراد رجلاً جامعاً للخصلتين فعليه بفلان فهو الشخص المعين لاجتماعهما فيه غير مدافع ولا منازع (٢) .

ويقول ابن الأثير : وما جاء من التفسير بعد الإبهام قوله تعالى ، وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد ، يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار ، من عمل سيئة فلا يجرى إلا مثابها ، ألا ترى كيف قال أهدكم سبيل الرشاد فأبهم سبيل الرشاد ولم يبين أي سبيل هو ، ثم فسر ذلك فافتتح كلامه بدم الدنيا وتصغير شأنها ثم نهي ذلك بتعظيم الآخرة والإطلاع على حقيقتها

(١) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ٢٠٣

(٢) الكشاف ج ١ ص ١٣

ثم تلك بذكر الأفعال سيئها وحسنها وعاقبة كل منها ليثبت عما يتناف ، وينعطف
لما يزلف ، كأنه قال سبيل الرشاد وهو الإعراض عن الدنيا والرغبة في الآخرة
والامتناع عن الأعمال السيئة خوف المقابلة عليها ، والمشاركة إلى الأعمال الصالحة
رجاء المجازاة عليها (١) .

ويقول الزمخشري في هذه الآية قال أهدكم سبيل الرشاد فأجل ثم فسرها فافتح
بذم الدنيا وتصغير شأنها ، لأن الإخلاق إليها هو أصل الشر كله ، ومنه يتشعب
جميع ما يؤدي إلى سخط الله ويجلب الشقاوة في العاقبة ، وثنى بتعظيم الآخرة
والاطلاع على حقيقتها وأنها هي الوطن والمستقر ، وذكر الأعمال سيئها وحسنها ،
وعاقبة كل منهما ليثبت عما يتناف وينشط لما يزلف ، ثم وازن بين الدعوتين
دعوتيه إلى دين الله الذي ثمرته النجاة ، ودعوتهم إلى اتخاذ الأنداد ، الذي عاقبته
النار ، وحذر ، وأنذر ، واجتهد في ذلك واحتشد (٢) .

وقد ذكر ابن الأثير من شواهد هذا النوع قوله تعالى : وإذ يرفع إبراهيم
القواعد من البيت ، وقوله تعالى : وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحا لعلى أبلغ
الأسباب ، أسباب السموات ، وذكر في الإجماع بدون تفسير قوله تعالى : إن هذا
القرآن يهدي للتي هي أقوم ، وما ذكره من التحليلات لهذه النصوص متقولا أو
مختصرا من الكشاف (٣) .

استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات

بين ابن الأثير في هذا النوع أن الأبلغ في النفي أن تعتمد إلى الأعم لأن نفيه
يستلزم نفي الأخص ، وأن الأبلغ في الإثبات أن تعتمد إلى الأخص لأن إثباته
يستلزم إثبات الأعم .

يقول ومثال ذلك الإنسائية والحيوانية فإن إثبات الإنسائية يوجب إثبات

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٢٠٤

(٢) الكشاف ج ٤ ص ١٣٩

(٣) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، والكشاف ج ١ ص ١٤٠ ، ج ٢

ص ١٣٠ ، ج ٢ ص ٥٠٨ وما بعدها .

الحيوانية ولا يوجب نفيها نفي الحيوانية وكذلك نفي الحيوانية يوجب نفي
الإسائية ولا يوجب إثباتها إثبات الإسائية (١) .

وهذه القاعدة مستمدة من كلام ابن المنير الذي رده به بعض تحليلات
الزحشرى : يقول ابن المنير : فإن نفي الأخص أهم من نفي الأعم فلا يستلزمه ضرورة
أن الأعم لا يستلزم الأخص بخلاف العكس ألا تراك إذا قلت هذا ليس بالإنسان
لم يستلزم ذلك ألا يكون حيواناً ، ولو قلت هذا ليس بحيوان لا استلزم ألا يكون
إنساناً ، فنفي الأعم كما ترى أبلغ من نفي الأخص (٢) .

ثم يسوق ابن الأثير في هذا النوع أمثله وشواهد من الكشاف ، ويذكر
تحليلات الزحشرى وليس فيها تغيير كبير ، يقول فالأول وهو الخاص والعام نحو
قوله تعالى : مثاهم كمثل الذي استوفد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم ،
ولم يقل ذهب بضوتهم موازناً لقوله فلما أضاءت لأن ذكر النور في حالة النفي ،
أبلغ من حيث إن الضوء فيه الدلالة على النور وزيادة فلو قال : ذهب الله بضوتهم ،
ليكان المعنى يعطى ذهب تلك الزيادة وبقاء ما يسمى نوراً لأن الإضاءة هي شرط
الإضاءة قال تعالى : هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، فيكل ضوء نور
وليس كل نور ضوءاً فالغرض من قولهم ذهب الله بنورهم إنما هو إزالة النور
عنهم أصلاً فهو إذا أزاله فقد أزال الضوء (٣) .

ويقول الزحشرى في هذه الآية :

فإن قلت هلا قيل ذهب الله بضوتهم لقوله فلما أضاءت ؟ قلت ذكر النور
أبلغ لأن الضوء فيه دلالة على الزيادة . فلو قيل ذهب الله بضوتهم لا وهم الذهاب
بالزيادة وبقاء ما يسمى نوراً ، والغرض إزالة النور عنهم رأساً وطمسه أصلاً ،
الأثرى كيف ذكر عقبه وتركهم في ظلمات لا يبصرون (٤) .

ويذكر ابن الأثير أن أسماء الاجناس التي يفرق بينها وبين واحدتها بالثناء

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٢٠٩

(٢) حاشية ابن المنير على هامش الكشاف ج ٢ ص ٨٩

(٣) المثل السائر ج ٢ ص ٢١٠

(٤) الكشاف ج ١ ص ٥٦

يكون استعمالها في الإثبات أبلغ من استعمال مفردها ، ويكون استعمال مفردها
في النفي أبلغ من استعمالها .

ويذكر قوله تعالى ، قال الملا من قومه إنا لترك في ضلال مبين قال يا قوم
ليس بي ضلالة ، مثالا لهذا النوع ويقول في شرحه فإنه إنما قال ليس بي ضلالة ولم
يقول ليس بي ضلال كما قالوا ، لأن نفي الضلالة أبلغ من نفي الضلال عنه كما لو قيل
ألك تمر ؟ فقلت في الجواب مالي تمر وذلك أنفي للتمر ، ولو قلت مالي تمر لما كان
يؤدي ما أداه القول الأول (١) .

وهذا مأخوذ من الكشف .

يقول الزمخشري فإن قلت لم قال ليس بي ضلالة ولم يقل ضلال كما قالوا ؟
قلت الضلالة أخص من الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه كأن قال
ليس بي شيء من الضلال كما لو قيل لك ألك تمر فقلت مالي تمر (٢) .

وقد كان ابن المنير على حق حين رفض تعليل الأبلغية هنا بنفي الأخص
وأشار إلى أن نفي الأخص لا يستلزم نفي الأعم وعلل الأبلغية هنا بنفي الأخص
والتفني به على نفي الأعم وكان نقاشه أساساً كما قلنا للقاعدة التي قررها
ابن الأثير . وقد كان ابن الأثير يفتأ حين سكت عن ذكر الأخص في هذه الآية
ونظامها لأنه نظر في اعتراض ابن المنير وأخذ منه وقد حذف من كلام
الزمخشري الجزء الذي اعترض عليه ابن المنير وهو قوله والضلالة أخص من
الضلال فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه ويقول ابن الأثير وفي هذا الموضع
دقة تحتاج إلى فضل تمام فينبغي لصاحب هذه الصناعة مراعاته والحناية به (٣) .
وكانه بهذا يوم أن هذا البحث من اجتهاده وخالص فكره .

التقديم والتأخير :

ذكر ابن الأثير أن باب التقديم باب طويل وعريض ، وأنه يشتمل على أسرار

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٢١٩

(٢) الكشف ج ٢ ص ٥٩ ، ٦٠

(٣) المثل السائر ج ٢ ص ٢١٢

دقيقة منها : ما استخرجه ابن الأثير ومنها ما وجدته في أقوال العلماء ، ويقسم التقديم إلى قسمين : القسم الأول يختص بدلالة الألفاظ على المعاني ولو آخر المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى . والقسم الثاني يختص بدرجة التقدم في الذكر للاختصاصه أى المتقدم بما يوجب ذلك ولو آخر لما تغير المعنى .

ويدرس في القسم الأول تقديم المبتدأ على الخبر وتقديم الخبر على المبتدأ ، وتقديم المفعول وتقديم الظرف والحال إلى غير ذلك مما هو في حدود الجملة .

ويدرس في القسم الثاني تقديم الجمل بعضها على بعض ، وقد يتناول فيه تقديم بعض المعمولات على بعض . وهو في هذا القسم الثاني يعتمد على الكشف يأخذ منه أخذاً مباشراً . أما في القسم الأول فإنه يدعى فيه أنه يخالف علماء البيان ومنهم الزمخشري حيث جعلوا تقديم الخبر والمفعول والظرف لا يكون إلا للاختصاص ، والذي يراه أنه قد يكون للاختصاص وقد يكون لتنظيم الكلام .

يقول ابن الأثير : وقال علماء البيان ومنهم الزمخشري رحمه الله : إن تقديم هذه الصور المذكورة إنما هو للاختصاص وليس كذلك (١) .

ولم يكن ابن الأثير على حق حين زعم أن تقديم هذه الصور لا يكون هند الزمخشري إلا للاختصاص . فقد بينا أنها تكون عنده للاختصاص غالباً . لذلك لم يكن هناك خلاف بينه وبين الزمخشري . نعم إن كثيراً من الصور التي جعل الزمخشري التقديم فيها مفيداً للاختصاص جعلها ابن الأثير من باب مراعاة نظم الكلام . والاختصاص بين في هذه الصور ولا يستطيع ابن الأثير أن يدفعه ، ومن ذلك قوله تعالى : إياك نعبد وإياك نستعين ، فقد ذكر أن التقديم فيه لمراعاة نظم الكلام . وإذا كان الزمخشري يذكر أن التقديم هنا للاختصاص فإن ذلك لا ينافي أن يكون لمراعاة الحسن أيضاً . ثم إن ابن الأثير يعتمد على الزمخشري في هذا القسم الذي يدعى فيه أنه يخالفه وإن كان ما أخذه منه ليس متصلاً بمسألة الاختصاص التي وقع فيها الخلاف .

يقول ابن الأثير وما ورد منه - أي من تقديم خبر المبتدأ عليه - قوله تعالى

وظنوا أنهم ما اعتمدت حصونهم ، فإنه إنما قال ذلك ولم يقل وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو ما اعتمدت لأن في تقديم الخبر الذي هو ما اعتمدت على المبتدأ الذي هو حصونهم دليلا على فرط اعتقادهم في حصانتها وزيادة وثوقهم بمنعها إياهم ، وفي تصيير ضميرهم اسما لإن وإسناد الجملة إليه دليل على تقريرهم في أنفسهم أنهم في هزة وامتناع لا يبالي معهم بقصد قاصد ولا تعرض متعرض ، وليس شيء من ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم من الله (١) .

وهذا ما أخذ من قول الزمخشري في هذه الآية فإن قلت أي فرق بين قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم أو ما اعتمدت وبين النظم الذي جاء عليه ؟ قلت في تقديم الخبر على المبتدأ دليل على فرط وثوقهم بحصانتها ومنعها إياهم وفي تصيير ضميرهم اسما لإن وإسناد الجملة إليه دليل على اعتقادهم في أنفسهم أنهم في هزة ومنع لا يبالي معهم بأحد يتعرض لهم أو يطمع في معازتهم وليس ذلك في قولك وظنوا أن حصونهم تمنعهم (٢) .

وكذلك يأخذ من الكشاف في هذا الباب تحليل قوله تعالى ، قال أراغب أنت من آلهن يا إبراهيم ، يقول ابن الأثير فإنه إنما قدم خبر المبتدأ عليه في قوله أراغب أنت ولم يقل أنت راغب لأنه كان أهم عنده وهو به شديد العناية ، وفي ذلك ضرب من التعجب والإعجاب والرغبة إبراهيم عن آلهته وأن آلهته لا ينبغي أن يرغب عنها (٣) .

ويدور كلامه في التقديم والتأخير في التثنية على ما ذكره الزمخشري ، ويسوق الآيتين السكريتين الشهيرتين في هذا الموضوع .

يقول وأما الثاني وهو تأخير الظرف وتقدمه في التثنية فنحو قوله تعالى ، ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، وقوله تعالى ، لا فيها غول ولا هم عنها يزفون ، فإنه إنما أخر الظرف في الأول لأن المقصد في الأول ، حرف التثنية الريب تثنى الريب عنه

(١) المثل السائر ج ٢ من ٢٢١ ، ٢٢٢

(٢) الكشاف ج ٢ من ٣٩٨

(٣) المثل السائر ج ٢ من ٢٢٢ وينظر الكشاف ج ٢ من ٤٨ .

والإثبات أنه حق وصدق لا باطل وكذب ، كما كان المشركون يدعونه ، ولو أولاه
الظرف المقصد أن كتاباً آخر فيه الريب لافيه كما قصد في قوله تعالى ، لافيهما غول ،
فتأخير الظرف يقتضى النفي أصلاً من غير تفصيل ، وتقديمه يقتضى تفصيل
المنفي منه وهو خسر الجنة على غيرها من خسر الدنيا أى ليس فيها ما فى غيرها من
الغول وهذا مثل قولنا لا عيب فى الدار ، ولا فيها عيب ، فالأول نفي العيب عن
الدار فقط ، والثانى تفصيل لما على غيرها من أى ليس فيها ما فى غيرها من العيب
فأهرف ذلك فإنه من دقائق هذا الباب (١)

وأصل هذا الكلام ما قاله الزمخشري فى هذه الآية من قوله فإن قلت فهلا
قدم الظرف على الريبة كما قدم على الغول فى قوله تعالى لافيهما غول ؟ قلت لأن
المقصد فى إلقاء الريب حرف النفي نفي الريب عنه وإثبات أنه حق وصدق لا باطل
وكذب كما كان المشركون يدعونه ولو أولى الظرف المقصد إلى ما يبعد عن المراد
وهو أن كتاباً آخر فيه الريب لافيه كما قصد فى قوله لافيهما غول تفصيل خسر
الجنة على الدنيا بأنها لا تغتال العقول كما تغتالها هى كأنه قيل ليس فيها ما فى غيرها
من هذا العيب والنقيصة (٢).

وأما الضرب الثانى من التقديم الذى يختص بدرجة المتقدم فى الذكر
لاختصاصه بما يوجب له ذلك فقد كان اعتماد ابن الأثير فيه على ما ذكره
الزمخشري أوضح وأبين .

يقول ابن الأثير فمن ذلك - أى من الضرب الثانى الذى لا يحصره حد ولا ينتهى
إليه شرح - تقديم السبب على المسبب كقوله تعالى وإياك نعبد وإياك نستعين ، فإنه
إغما قدم العبادة على الاستعانة لأن تقديم القرينة والوسيلة قبل طلب الحاجة أنجح
لحصول الطلب وأسرع لوقوع الإجابة . . وهى نحو منه جاء قوله تعالى وآنزلنا
من السماء ماء طهوراً لنحيى به بلدة ميتاً واستقىه بما خلقنا أنعاماً وأنامى كثيراً ،
فقدم حياة الأرض وإسقاء الأنعام على إسقاء الناس وإن كانوا أشرف محلاً لأن

(١) لسان المصنف ج ٢ ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ .

(٢) المكلف ج ١ ص ٢٢

حياة الأرض هي سبب حياة الأنعام والناس ، فلما كانت هذه الغاية جعلت مقدمة في الذكر ، ولما كانت الأنعام من أسباب التعيش والحياة للناس قدمها في الذكر على الناس لأن حياة الناس بحياة أرضهم وأنعامهم ، فقدم سقى ما هو سبب نعماتهم ومعاشهم على سقيهم ، ومن هذا الضرب تقديم الأكثر على الأقل كقوله تعالى : **وَمِمَّنْ أَوْثَقْنَا السُّكَّابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ ، وَإِنَّمَا قَدِمْنَا لِنَفْسِهِ لِيَذُنَّ الْإِنْسَانُ بِكُفْرَتِهِ وَأَنْ مَعْظَمُ النَّاسِ أَعْتَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ أَنَّىٰ بَعَدَهُ بِالْمُقْتَصِدِينَ لِأَنَّهُمْ قَلِيلٌ بِالإِضَافَةِ إِلَيْهِ ، ثُمَّ أَنَّىٰ بِالسَّابِقِينَ وَهُمْ أَقَلُّ مِنَ الْقَلِيلِ أَعْتَىٰ الْمُقْتَصِدِينَ قَدِمَ الْكَبِيرَ وَبَعْدَهُ الْاَوْسَطُ ثُمَّ ذَكَرَ الْاَقْلَّ آخِرًا ...** ومن هذا الجنس قوله تعالى : **وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ فَيَذَرُهَا إِنَّمَا قَدِمَ الْمَاشِيَ عَلَىٰ بَطْنِهِ لِأَنَّهُ أَدَلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ مِنَ الْمَاشِيَ عَلَى رِجْلَيْنِ إِذْ هُوَ مَاشٍ بِغَيْرِ آلَةٍ الْمَخْلُوقَةُ لِلْمَشْيِ ثُمَّ ذَكَرَ الْمَاشِيَ عَلَى رِجْلَيْنِ وَقَدِمَهُ عَلَى الْمَاشِيَ عَلَى أَرْبَعٍ لِأَنَّهُ أَدَلُّ عَلَى الْقُدْرَةِ أَيْضًا حَيْثُ كَثُرَتْ آلَاتُ الْمَشْيِ فِي الْأَرْبَعِ (١).**

ويقف ابن الأمير أمام تحليلات الكشاف ليستخلص منها أصولاً في باب التقديم ، من ذلك قوله وأعلم أنه إذا كان مطلع الكلام في معنى من المعاني ثم يجيء بعده ذكر شيئين أحدهما أفضل من الآخر وكان المعنى المفضول مناسباً لمطلع الكلام فانت بالخيار في تقديم أيهما شئت لأنك إذا قدمت الأفضل فهو في موضعه من التقديم وإن قدمت المفضول فلأن مطلع الكلام يناسبه وذكر الشيء مع ما يناسبه أيضاً وورد في موضعه فن ذلك قوله تعالى **وَإِنَّا إِذَا إِذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا وَإِنَّا نَحْنُ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ كَفُورٌ ، قَدْ مَلَكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّا نَاهِيٌّ لِمَنْ يَشَاءُ الذَّكُورَ أَوْ يَرْجُوهُمْ ذَكَرْنَا وَإِنَّا نَاهِيٌّ لِمَنْ يَشَاءُ عَقِيبًا أَنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا قَدِمَ الْإِنثَاتِ عَلَى الذَّكُورِ مَعَ تَقْدِيمِهِمْ عَلَيْهِنَ لِأَنَّهُ ذَكَرَ الْبِلَادَ فِي آخِرِ الْآيَةِ الْأُولَى وَكَفَرَانَ الْإِنْسَانَ بِنَسْيَانِهِ لِلرَّحْمَةِ السَّابِقَةِ عِنْدَهُ ثُمَّ عَقِبَ ذَلِكَ بِذِكْرِهِ مَلَكَ**

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٢٣٠ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، وينظر الكتاب ج ٩ ص ١٢ ،

ج ٢ ص ٢٦٥ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٩٥ .

ومشابهته وقد ذكر قسمة الأولاد فقدم الإناث لأن سياق الكلام أنه فاعل ما يشاء
لا ما يشاؤه الإنسان فكان ذكر الإناث اللاتي هن من جملة مالا يشاؤه الإنسان
ولا يختاره أم والام واجب التقديم ، وإيل الجنس الذي كانت العرب تعده بلاء
ذكر البلاء ، ولما أخرج ذكر الذكور وهم أحق بالالتقديم تدارك ذلك بتعريفه
إياهم لأن التعريف تنويه بالذكر كأنه قال ويجب لمن يشاء الفرسان الأعلام
المذكورين الذين لا يخفون عليكم ، ثم أعطى بعد ذلك كلا الجنسين حقه من التقديم
والتأخير ، وعرف أن تقديم الإناث لم يكن لتقدمهن ، ولكن لمقتضى آخر ، فقال
ذكرانا وإناها . وهذه دقائق لطيفة قل من يتنبه لها أو يعثر هل رموزها . ومن
هذا الباب قوله تعالى وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون
من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة
في الأرض ولا في السماء ، فإنه إنما قدم الأرض في الذكر على السماء
ومن حقا التأخير لأنه لما ذكر شهادته على شئون أهل الأرض وأحوالهم ووصل
ذلك بقوله وما يعزب لأم بينها إيل المعنى المعنى (١) .

وهذه التحليلات التي نظر فيها واستخلص منها هذا الأصل الهام في التقديم
ماخوذة من الكشاف (٢) .

الحروف الجارة :

وإيس لابن الأثير في دراسة حروف الجر جهد إلا الشرح والاستنباط من
كلام الرخشي .

يقول ابن الأثير وأما حروف الجر فإن الصواب يشذ عن وضعها في
مواضعها ، وقد علم أن في للواء . وهل للاستعلاء كقولهم زيد في الدار وحمرو
هل الفرس ، لكن إذا أريد استعمال ذلك في غير هذين الموضعين مما يشكل
استعماله يدل فيه عن الأولى ، فما ورد منه قوله تعالى قل من يرزقكم من
السموات والأرض قل الله وإنا أولياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين ، ألا ترى
إلى بداهة هذا المعنى المقصود المخالفة حرفي الجر ههنا ، فإنه إنما خولف بينهما

(١) اللؤلؤ السائر ج ٢ من ٢٢٢ ، ٢٣٤ .

(٢) ينظر الكشاف ج ٤ من ١٨٢ ، ج ٢ من ٢٨٢ .

في الدخول على الحق والباطل لان صاحب الحق كأنه مستعمل على قوس جواد
يركض به حيث شاء، وصاحب الباطل كأنه منغمس في ظلام منخفض فيه لا يدري
أين يتوجه ، وهذا معنى دقيق قلنا يراعى مثله في الكلام ... ومن هذا النوع قوله
تعالى وإنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي
الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ، فإنه إنما عدل عن اللام إلى وفي في
الثلاثة الأخيرة للايدان بأنهم أرسخ في استحقاق التصديق عليهم عن سبق ذكره
باللام لان في الوعاء فنبه على أنهم أحقوا بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع
الشيء في الوعاء وأن يجعلوا مظنة لها وذلك لما في فك الرقاب وفي الترم من
التخلص ، وتكرير وفي في قوله وفي سبيل الله دليل على ترجيحه على الرقاب وعلى
الغارمين . . وهذه لطائف ودقائق لا توجد إلا في هذا الكلام الشريف فأعرفها
وقس عليها (١) .

وهذا أم ما ذكره في هذا النوع وهو مأخوذ من الكشاف (٢) .

الجملة الفعلية والجملة الاسمية :

ويشير ابن الأثير في هذا الباب إلى ما في الجملة الإسمية من معنى التوكيد
والتفريير ويقابل بينهما وبين الجملة الفعلية ، ويذكر في هذا قوله تعالى وإذا لقوا
الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم ، ويقول فإنهم إنما
خاطبوا المؤمنين بالجملة الفعلية وشياطينهم بالجملة الاسمية المحققة بأن المشددة لأنهم
في مخاطبة إخوانهم بما أخبروا به عن أنفسهم من الثبات على اعتقاد الكفر والبعد
من أن يزالوا عنه على صدق رغبة ووفور نشاط فكان بذلك مستقبلاً منهم ورائحاً
هند إخوانهم ، وأما الذي خاطبوا به المؤمنين فانما قالوه تكلفاً وإظهاراً للإيمان
خوفاً ومدحاً وكانوا يعلمون أنهم لو قالوه بأركد لفظ وأسده لما راج لهم عند
المؤمنين إلا رواجاً ظاهراً لا باطنياً ، ولأنهم ليس لهم في عقائدكم باعث قوي على
الذم في خطاب المؤمنين بمثل ما خاطبوا به إخوانهم من العبارة المؤكدة ،

(١) المثل السائر ج ٧ ص ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢

(٢) ونظر الكشاف ج ٣ ص ٤٥٩ ، ج ٢ ص ٢٢٢

فذلك قالوا في خطاب المؤمنين آمنا وفي خطاب إخوانهم إنا معكم ، وهذه نكت
تتخى على من ليس له قدم راسخة في علم الفصاحة والبلاغة (١) .

وهذا مأخوذ من الكشاف (٢) .

ثم أخذ يذكر دواعي التوكيد وأمثلة له من القرآن والشعر ، وتحليلاته
للأمثلة والشواهد لا تنهض إلى مستوى التحليلات التي اقتبسها من الكشاف في
هذا النوع .

عكس الظاهر :

وقد استمد ابن الأثير بحته في هذا الموضوع من كتاب الكشاف وإن كان
لم ينقل منه نقلاً مباشراً كما عهدناه في الأنواع الأخرى ، وذلك لأنه لم يذكر له
شواهد من القرآن الكريم . وقد دار بحثه فيه حول شاهدين من الشعر ملك كورين
في الكشاف . وقد أشار الزمخشري إلى أن سيويوه قد أشار إلى هذا النوع من
النفي . إلا أنني أرجح أن ابن الأثير قد استمد هذا الكلام من الكشاف ولم
يستمده من المصادر التي أخذ عنها الزمخشري وذلك لأننا نجد مهتماً بتحليلات
الزمخشري ومفتوناً بها بدليل ذلك الأخذ الكثير البين الذي أمتهناه والذي سوف
نذكر منه الكثير . ولأننا نجد ريب كلام الكشاف فيما كتبه ابن الأثير في
هذا الموضوع .

يقول ابن الأثير في عكس الظاهر ، وهو نفى الشيء بإثباته وهو من مستطرفات
علم البيان وذلك أنك تذكر كلاماً يدل ظاهره أنه نفى لصفة موصوف وهو نفى
للموصوف أصلاً ، فما جاء منه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في وصف
مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تثنى فلناته أي لا تذاع سقطاته فظاهر
هذا اللفظ أنه كان ثم فلنات غير أنها لا تذاع وليس المراد ذلك بل أراد أنه لم
يكن ثم فلنات فثنى . وهذا من أهرب ما توسمت فيه اللغة العربية ، وقد ورد
في الشعر كقول بعضهم : ولا ترى العضب بها يتجعر .

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٢٤٣

(٢) ينظر الكشاف ج ١ ص ٤٠

فإن ظاهر المعنى من هذا البيت أنه كان هناك غضب وانكته غير مشهور
وليس كذلك بل المعنى أنه لم يكن هناك غضب أصلاً واتفق مكنت زماناً
أطوف على أفوال الشعراء تصدأ للظفر بأمثلة من الشعر جارية هذا المجرى فلم
أجد إلا بيتاً لا معنى القيس وهو :

هل لا حسب لا يهتدى لمنازه إذا سافه العود الديق جرجرا

فقوله لا يهتدى لمنازه أى أن له مناراً إلا أنه لا يهتدى به، وليس المراد ذلك،
بل المراد أنه لا منار له يهتدى به (١). وظاهر أن الشريف المرتضى ذكر آياتها
كثيرة جرت على هذه الطريقة وأثبتتها، وقد أشرت في دراسة النفي إلى أن
الزمخشري ذكر هذه الطريقة في قوله تعالى ولا يسألون الناس إلحافاً، ووضعها وبين
قيمتها في قوله تعالى وما الظالمين من حميم ولا شفيح يطاع، وقد اقتصر ابن الأثير
على بيان هذه الطريقة فقط ولم يتعرض لسرها البلاغى، وقد وضع الزمخشري قيمتها
البلاغية. يقول في ذلك : يحتمل أن يتناول النفي الشفاعة والطاعة معا، وأن
يتناول الطاعة دون الشفاعة، كما تقول ما عندي كتاب يباع فهو محتمل نفي البيع
وحده، وأن عندك كتاباً إلا أنك لا تهيمه، ونفيهما جميعاً، وأنه لا كتاب
عندك ولا كونه مبيعاً ونحوه .

ولا ترى الضب بها ينبجر . . .

يريد نفي الضب وانجباره فإن قلت الغرض حاصل بذكر الشفيح ونفيه
فما الفائدة في ذكر هذه الصفة ونفيها؟ قلت في ذكرها فائدة جلية وهي أنها ضمت
إليه ليقيم انتفاء الموصوف مقام الشاهد على انتفاء الصفة لأن الصفة لا تتأتى بدون
موصوفها فيسكون ذلك إزالة لتوهم وجود الموصوف، بياته أنك إذا هوتت
على القعود عن الغزو فقلت مالي فرس أركبه ولا معى سلاح أحارب به، فقد
جعلت عدم الفرس وفقد السلاح علة مانعة عن الركوب والحاربة، كأنك تقول كيف
يتأتى منى الركوب والحاربة ولا فرس لي ولا سلاح معى، فكذلك قوله ولا شفيح
يطاع معناه كيف يتأتى الشفيح ولا شفيح فكان ذكر الشفيح والاستشهاد على

(١) للثل السائر ج ٢ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩

عدم تأنيبه بعدم الشنيع وضحا لا انتفاء الشنيع موضع الأمر المعروف غير المنكر
الذي لا ينبغي أن يتوهم خلافه (١).

الاستدراج :

يقول ابن الأثير إن باب الاستدراج إذا حقق النظر فيه علم أن مدار البلاغة
كلها عليه لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائعة ولا المعاني الطيبة الدقيقة
دون أن تكون مستغلبة لبوغ غرض المخاطب بها .

ويدهى ابن الأثير أنه استخرج هذا النوع من كتاب الله ، وليس له فيه جهد
يذكر ، فإنه لم يرد على أن ذكر نصين من كلام الزمخشري ثم أورد محاوراة بين الحسين
ابن علي رضي الله عنه ومعاوية ابن أبي سفيان ، جرى القول فيها من معاوية على
طريقة الاستدراج التي جرت عليها النصوص القرآنية المذكورة في هذا الباب ..
يقول ابن الأثير :

وقد ذكرت في هذا النوع ما يتعلم منه سلوك هذه الطريقة ، فن ذلك قوله تعالى
« وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله
وقد جاءكم بالبينات من ربكم وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصيبكم
بعض الذي يعدكم إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب .. » وفي هذا الكلام من
حسن الأدب والإنصاف ما أذكره لك فأقول : إنما قال يصيبكم بعض الذي يعدكم
وقد علم أنه نبي صادق وأن كل ما يعدكم به لا بد أن يصيبهم لا بعضه لأنه احتجاج
في مقابلة خصوم موسى عليه السلام أن يسلك معهم طريق الإنصاف والملاطفة
في القول ويأتيهم من جهة المناصحة ليكون أدهى إلى سكونهم إليه لجاء بما علم أنه
أقرب إلى تسليمهم لقوله وأدخل في تصديقهم إياه فقال : وإن يك صادقاً يصيبكم
بعض الذي يعدكم وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتمل وذلك أنه حين فرضه
صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد به ، لكنه أردف بقوله يصيبكم بعض
الذي يعدكم ليبيضه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه

حقه وافياً فضلاً عن أن يتمصب له ، وتقديم الكاذب على الصادق من هذا القبيل (١) .

هذا ملخص من قول الزمخشري في هذه الآية ، فإن قلت لم قال بعض الذي يعدكم وهو نبي صادق لا بد لما يعدهم أن يصيبهم كله لا بعضه ؟ قلت لأنه احتجاج في مقابلة خصوم موسى ومناكريه إلى أن يلاوصهم ويذاريهم ويسلك معهم طريق الإنصاف في القول ويأنيبهم من وجهة المناصحة ، فجاء بما علم أنه أقرب إلى تسليمهم لقوله وأدخل في تصديقتهم له وقبولهم منه فقال وإن يك صادقاً يصيبكم بعض الذي يعدكم ، وهو كلام المنصف في مقاله غير المشتط فيه ليسمعوا منه ولا يردوا عليه ، وذلك أنه حين فرضه صادقاً فقد أثبت أنه صادق في جميع ما يعد ولكنه أردفه يصيبكم بعض الذي يعدكم ليبعضه بعض حقه في ظاهر الكلام فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافياً فضلاً عن يتمصب له أو يرمى بالخصا من ورائه وتقديم الكاذب على الصادق أيضاً من هذا القبيل (٢) .

ويأخذ ابن الأثير من كلام الزمخشري في قوله تعالى : « واذكر في الكتاب إبراهيم إله كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه يا أبت ، . إلى آخر الآيات التي حاوَر فيها إبراهيم أباه حين دعاه إلى عبادة ربه .

يقول ابن الأثير هذا كلام يبرز أعطاف السامعين ، وفيه من الفوائد ما أذكره ، وهو أنه لما أراد إبراهيم عليه السلام أن ينصح أباه ويمظه وينقذهم بما كان متورطاً فيه من الخطأ العظيم الذي عصى به أمر العفلاء وتب الكلام معه في أحسن نظام مع استعمال الجمالة واللفظ والأدب الحميد والخلق الحسن مستقنعاً في ذلك بنصيحة ربه ، وذلك أنه طلب منه أولاً العلة في خطئه طلب منه على تماديه موقف من غفلته لأن المعبود لو كان حياً مميّزاً سميعاً بصيراً مقتدرأ على الثواب والعقاب إلا أنه بعض الخلق يستخف عقل من أهله للعبادة ووصفه بالربوبية ، ولو كان أشرف الخلائق كالملائكة والنبين فكيف بمن جعل المعبود جهاداً لا يسمع ولا

(١) المال الصائر ج ٢ ص ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ .

(٢) السكاهل ج ١ ص ١٢٧ .

يبصر ، يعنى به الصنم ثم تبنى ذلك بدعوته إلى الحق مترفقاً به ، فلم يسم أباه بالجهل المطبق ولا نفسه بالعلم الفائق ، ولكنه قال إن معنى طائفة من العلم وشيئاً منه وذلك علم الدلالة على سلوك الطريق فلا استتكف ، وهب أنى وإياك فى مسير وعندى معرفة بهداية الطريق دونك فانبنى أنجك من أن تضل . ثم تات ذلك بتثبيطه عما كان عليه ونهيه فقال إن الشيطان الذى استعصى على ربك وهو عدوك وعدو أبيك آدم هو الذى ورطك فى هذه الورطة وألقاك فى هذه الضلالة وإنما ألقى إبراهيم عليه السلام ذكر معاداة الشيطان آدم وذريته فى نصيحة أبيه لأنه لإمامانه فى الإخلاص لم يذكر من جنس ائق الشيطان إلا الذى تختص بالله وهى عصيانه واستكباره ولم يلتفت إلى ذكر معاداته آدم وذريته ثم رجع ذلك بتخوينه إياه سوء العقابة فلم يصرح بأن العقاب لاحق به واسكنه قال إنى أخاف أن يمك عذاب ، فنكر العذاب ملاطفة لأبيه ، وصدر كل نصيحة من هذه النصائح بقوله : يا أبت توسلا إليه واستعطافاً وهذا بخلاف ما أجابه به أبوه فإنه قال : أراغب أنت من آلهتى يا إبراهيم فأقبل عليه بفظاظة الكفر وغازظ العناد فناداه باسمه ولم يقابل قوله يا أبت بقوله يا بنى وقدم الخبر على المبتدأ فى قوله أراغب أنت لأنه كان أهم عنده ، وفيه ضرب من التعجب والإنكار لرغبة إبراهيم عن آلهته (١) .

وهذا مأخوذ من الكشاف وقد أثبتناه فى دراسة الجمل (٢) .

الايجاز :

ويتمدد ابن الأثير على الزمخشري فى كثير من الأصول التى درسها فى هذا الباب ومن ذلك : حذف السؤال المقدر فى باب الاستئناف .

يقول ابن الأثير ويأتى الاستئناف على وجهين : الوجه الأول إعادة الأسماء والصفات ، وهذا يحى تارة بإعادة اسم من تقدم الحديث عنه كقوله : أحسنت إلى زيد زيد حقيق بالإحسان ، وتارة يحى بإعادة صفة كقوله أحسنت

(١) المثل للناظر ج ٢ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤

(٢) الكشاف ج ٣ ص ١٤ ، ١٥

إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك منك ، وهو أحسن من الأول وأبلغ لأنطوائه
هل بيان الموجب للإحسان وتخصيصه ، فما ورد من ذلك قوله تعالى : ألم ذلك
للكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وما
رزقناهم ينفقون والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم
يوقنون أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون ، والاستئناف واقع
في هذا الكلام على أولئك لأنه لما قال ألم ذلك الكتاب إلى قوله وبالآخرة هم
يوقنون ، اتجه لسائل أن يقول ما بال المستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى ؟
فأجيب بأن أولئك الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً
وبالفلاح آجلاً (١) .

وهذا مأخوذ من قول الزمخشري بعد ما ذكر وجه اختيار الذين يؤمنون
بالغيب مبتدأ ، وأولئك على هدى من ربهم جملة في محل رفع خبر مبتدأ قال : وإن
جماعته تابعاً للمتقين - يعنى الذين يؤمنون بالغيب - وقع الاستئناف على أولئك
كأنه قيل : ما للمستقلين بهذه الصفات قد اختصوا بالهدى ؟ فأجيب بأن أولئك
الموصوفين غير مستبعد أن يفوزوا دون الناس بالهدى عاجلاً وبالفلاح آجلاً .
واعلم أن هذا النوع من الاستئناف يسمى تارة بإعادة اسم من استأنف عنه
الحديث كقولك قد أحسنت إلى زيد زيد حقيق بالإحسان وتارة بإعادة صفة
كقولك أحسنت إلى زيد صديقك القديم أهل لذلك فيكون الاستئناف بإعادة
الصفة أحسن وأبلغ لأنطوائها على بيان الموجب وتخصيصه (٢) .
ويأخذ من الكشاف كذلك الاستئناف بغير إعادة الأسماء والصفات .

يقول في قوله تعالى ورمالى لأعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون أتخذ من دونه
آلهة إن يردن الرحمن بضر لا تغنى عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقدون إني إذا أنى
ضلال مبين إني آمننت بربكم فاسمعون قىل ادخل الجنة قال يابلت قومى يملون
بما غفر لى ربى وجمعانى من المرسلين .
فخرج هذا القول مخرج الاستئناف لأن ذلك من حكاية المسألة عن حاله
عند لقاء ربه وكان قائلاً كال كيف حال هذا الرجل عند لقاء ربه بمد ذلك التصاب

(١) اللؤلؤ السائر ج٢ ص ٢٨٩ ، ٢٨٢

(٢) الكشاف ج١ ص ٢٤

في دينه والتسني لوجهه بروحه؟ فقيل: قيل ادخل الجنة ولم يقل: قيل له لانصباب
الغرض إلى القول لا إلى المقول له مع كونه معلوماً ، وكذلك قوله تعالى يا ليت
قوم يعلمون ، مرتب على تقدير سؤال سائل عما وجد (١) .

ويقول الزمخشري في هذه الآية فان قلت كيف مخرج هذا القول في علم البيان؟
قلت مخرجه مخرج الاستئناف لأن هذا من مضاف المسألة عن حاله عند لقاء ربه
كان قائلاً قال: كيف كان لقاء ربه بعد ذلك النصب في نصرة دينه والتسني
لوجهه بروحه؟ فقيل قيل ادخل الجنة ولم يقل قيل له لانصباب الغرض إلى المقول
وعظمه لا إلى المقول له مع كونه معلوماً ، وكذلك قال يا ليت قوم يعلمون مرتب
على ترتيب سؤال سائل عما وجد من قوله عند ذلك الفوز العظيم (٢) .

ويقول ابن الأثير ومن هذا النوع قوله عز وجل يا قوم اعملوا على مكانتكم
إني عامل سوف تعلمون . . . والفرق بين إثبات الفاء في سوف تعلمون كقوله
تعالى قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من يأتيه عذاب
يعجزه ويحل عليه عذاب مقيم ، وبين حذف الفاء ههنا في هذه الآية أن إثباتها
وصل ظاهر بهرف موضوع للوصل ، وحذفها وصل خفي تقديري بالاستئناف
الذي هو جواب لسؤال مقرر كأنهم قالوا فإذا يسكون إذا عملنا نحن على مكانتنا
وعملت أميت؟ فقال سوف تعلمون فوصل تارة بالفاء وتارة بالاستئناف وهذا
قسم من أقسام على البيان تتكاثر بحاسنه فاعرفه إن شاء الله تعالى (٣) .

وهذا مأخوذ من الكشاف (٤) .

ويأخذ ابن الأثير من الكشاف ما يذكره في حذف المفعول في شاء وأراد ،
يقول ابن الأثير واقد تكاثر هذا الحذف في شاء وأراد حتى أنهم لا يسكادون
ببوزون المفعول إلا في الشيء المستغرب ، كقوله تعالى ولو أراد الله أن يتخذ ولداً
لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، وعلى هذا الأسلوب جاء قول الشاعر :

(١) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ٢٨٧

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٨

(٣) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ٢٨٧ ، ٢٨٢

(٤) بنظر الكشاف ج ٢ ص ٢٣١

ولو شئت أن أبكي دما لبكيتيه عليه ولكن ساحة الصبر أوسع

فلو كان على حد قوله تعالى « ولو شاء الله لجمعهم على الهدى » لوجب أن يقول
ولو شئت لبكيت دما ولسكنته ترك تلك الطريقة وعدل إلى هذه لأنه أبقى في
هذا الموضوع ، وسبب ذلك أنه كان بدعا عجيباً أن يشاء الإنسان أن يبكي
دما فلما كان مفعول المشيئة بما يستعظم ويستغرب كان الأحسن أن يذكر
ولا يضم (١) .

ويقول الزمخشري واقعد تكره هذا الحذف في شاء وأراد لا يكادون يعززون
المفعول إلا في الشيء المستغرب كتحو قوله فلو شئت أن أبكي دما .
وقوله تعالى « لو أردنا أن نتخذ لهم آياتنا من لدنا » ، ولو أراد الله أن
يتخذ ولدآء (٢) .

ويأخذ ابن الأثير من الكشاف ما ذكره في حذف الشرط .

يقول ابن الأثير : ومن حذف الشرط قوله تعالى « ويوم تقوم الساعة يقسم
المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان
أقد لبئتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث . » أعلم أن هذه الفاء التي
في قول الشاعر فقد جئنا خراسانا .

وحقيقتها أنها في جواب شرط محذوف يدل عليه الكلام كأنه قال إن صح
ما قلتم أن خراسان أقصى ما يراد بنا ، فقد جئنا خراسان وأن لنا أن نخلص ،
وكذلك هذه الآية يقول إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث أي فقد تبين
بطلان قولكم (٣) .

ويقول الزمخشري في هذه الآية فإن قلت ما هذه الفاء وما حقيقتها ؟ قلت
هي التي في قوله فقد جئنا خراسانا . وحقيقتها أنها جواب شرط يدل عليه الكلام
كأنه قال إن صح ما قلتم من أن خراسان أقصى ما يراد بنا فقد جئنا خراسانا
وأن لنا أن نخلص وكذلك إن كنتم منكرين البعث فهذا يوم البعث ، أي فقد تبين

(١) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ٣٠٤ ، ٣٠٨

(٢) الكشاف ج ١ ص ٦٦

(٣) اللؤلؤ السائر ج ٢ ص ٣١٥ ، ٣١٩

بطلان قولكم (١) .

وقد أشرت في دراسة بلاغة الكشاف إلى أن الزمخشري أخذ هذا والذي قبله من دلائل الإيجاز وأرجح هنا أن ابن الأثير قد أخذ هذا من الكشاف ولم يأخذه من دلائل الإيجاز لشدة الشبه بين كلامه وما ذكر في الكشاف وهذا واضح من المقارنة بين النصين .

ويذكر الإيجاز بالتقدير ويعنى به مساوى لفظه معناه وهو المعروف عند جمهور البلاغيين بالمساواة — ويورد من أمثله قوله تعالى : قتل الإنسان ما أكرهه ، ويقول فيها فقوله قتل الإنسان دعاء عليه ، وقوله ما أكرهه تعجب من إفراطه في كفران نعمة الله ، ولا ترى أسلوباً أغلظ من هذا الدعاء والتعجب ولا أخشن مسأ ولا أدل على سخط مع تقارب طرفيه ، ولا أجمع الائمة مع قصر معناه (٢)

وقد أمبنتنا هذا النص في دراسة بلاغة الكشاف (٣) .

الإطناب :

وكما وجدنا ابن الأثير يستمد من الكشاف كثيراً من الأصول والتحليلات في باب الإيجاز نجد كذلك يأخذ كثيراً من التحليلات في باب الإطناب .

يقول ابن الأثير في قوله تعالى : فإنها لا تمنى الأبصار ولكن تمنى القلوب التي في الصدور: ففائدة ذكر الصدور هنا أنه قد تمورف وعلم أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها ، واستعماله في القلب تشبيه ، ومثل قلنا أريد إثبات ما هو خلاف المتعارف من نسبة العمى إلى القلب حقيقة وتفيه عن الأبصار احتاج هذا الأمر إلى زيادة تصوير وتعريف ليتقرر أن مكان العمى إنما هو القلوب لا الأبصار وهذا موضع من علم البيان كثيرة محاسنه .

(١) الكشاف ج ٣ ص ٣٨٤

(٢) الملل السائر ج ٦ ص ٣٣٣

(٣) ينظر الكشاف ج ١ ص ٥٦١ ، ٥٦٢

وافرة لطائفه والمجاز فيه أحسن من الحقيقة لمكان زيادة التصوير في إثبات وصف الحقيق للمجازي ونفيه عن الحقيق (١) .

ويقول الزمخشري في هذه الآية فإن قلت أي فائدة في ذكر الصدور ؟ قلت الذي قد تعرف واعتقد أن العمى على الحقيقة مكانه البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يطمس نورها ، واستعماله في القلب استعارة ، ومثل قلبا أريد ما هو خلاف المعتقد من نسبة العمى إلى القلوب حقيقة ونفيه عن الأبصار احتاج هذا التصوير إلى زيادة تعيين وفضل تعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار ، كما تقول ليس المضاء للسيف ولكن للسانك الذي بين فكيك . فقولك الذي بين فكيك تقرير لما ادعيت له لسانه وتثبيته ، لأن محل المضاء هو لا غير وكأنك قلت ما نفيت المضاء عن السيف وأثبتته للسانك قلته ولا سهواً مني ولكن تعدت به إياه بعينه تعمداً (٢) .

وبالمقارنة لاحظ أن ابن الأثير لم يغير إلا في كلمات ليس التخيير فيها ذا فناء ، على أنه يحذف من كلام الزمخشري أحياناً صوراً وأمثالا يذكرها الزمخشري لبيان طريقة الأسلوب كما رأينا هنا يحذف قولهم ليس المضاء للسيف إلى آخره .

ويقول ابن الأثير في قوله تعالى ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، والتمثيل يصح لقوله ما جعل الله لرجل من قلبين وهو تام ، لكن في ذكر الجوف فائدة وهي ما أشرت إليها ، وفيها أيضاً زيادة تصوير للمعنى المقصود لأنه إذا سمع المخاطب به صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين فكان ذلك أسرع إلى إنكاره (٣) .

وهذا مأخوذ من قول الزمخشري في هذه الآية فإن قلت أي فائدة في ذكر الجوف ؟ قلت الفائدة فيه كالفائدة في قوله القلوب التي في الصدور وذلك ما يحصل للسامع من زيادة التصور والتجمل للدلول عليه لأنه إذا سمع به صور لنفسه جوفاً يشتمل على قلبين فكان أسرع إلى الإنكار (٤) .

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٢٦٤

(٢) الكشف ج ٢ ص ١٧٨

(٣) المثل السائر ج ٢ ص ٢٦١

(٤) الكشف ج ٢ ص ٤١٢

التكرير:

وكان الزمخشري كما رأينا دقيقا في بيان الفروق بين المعاني وتوضيح المكرر منها وغيره وقد أخذ ابن الأثير عنه بعض الصور والتحليلات وإن كان قد خالفه في عدد بعضها من المكرر فمن ذلك قوله تعالى « وإذ يمدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ، ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين ، ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » .

يرى الزمخشري أن هذا ليس من التكرار لأن قوله ويريد الله أن يحق الحق بكلماته بيان للفرق بين الإرادتين وقوله ليحق الحق بيان لغرضه فيما فعل سبحانه وهذا الاختلاف في الغرض يخرج الأسلوب من باب التكرير .

يقول الزمخشري: فإن قلت أليس هذا تكراراً ؟ قلت: لا، لأن المعنيين متباينان وذلك أن الأول تمييز بين الإرادتين وهذا بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها لحم ونصرتهم عليها ، وأنه ما نصرم ولا نخذل أو أهلك إلا لهذا الغرض الذي هو سيد الأغراض (١) .

ويرى ابن الأثير أن هذا من التكرار في اللفظ والمعنى وإن اختلف الغرض ، ثم يأخذ بتحليل الزمخشري ويذكر فهمه لهذا النص ويقول :

هذا تكرير في اللفظ والمعنى وهو قوله يحق الحق ، وليحق الحق وإنما جيء به هنا لاختلاف المراد وذلك أن الأول تمييز بين الإرادتين والثاني بيان لغرضه فيما فعل من اختيار ذات الشوكة على غيرها ، وأنه ما نصرم وخذل أو أهلك إلا لهذا الغرض (٢) .

ومثل هذا ما يذكره ابن الأثير في قوله تعالى « قل إنما أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين وأمرت لأن أكون أول المسلمين قل إنى أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل الله أعبد مخلصاً له ديني » .

(١) الكشاف ج ٢ ص ١٥٦

(٢) المنل المأثر ج ٣ ص ٥

فكرر قوله تعالى ذل إلى ذل إلى أمرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين، وقوله ذل الله
 أعبد مخلصاً له ديني ، ، والمراد به غرضان مختلفان وذلك أن الأول إخبار بأنه
 مأمور من جهة الله بالعبادة له والإخلاص في دينه، والثاني إخبار بأنه يختص الله
 وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه ، ولدلالته على ذلك قدم المعبود على فعل
 العبادة في الثاني وآخره في الأول لأن الكلام أولاً واقع في الفعل نفسه
 وإيجاده ، وثانياً فيمن يفعل الفعل من أجله ، ولذلك رتب عليه فاعيدوا ما شئتم
 من دونه (١) .

ويقول الزمخشري فإن قلت ما معنى التكرير في قوله ذل إلى أمرت أن
 أعبد الله مخلصاً له الدين وقوله ذل الله أعبد مخلصاً له ديني ؟ قلت ليس بتكرير
 لأن الأول إخبار بأنه مأمور من جهة الله بإحداث العبادة والإخلاص - والثاني
 إخبار بأنه يختص الله وحده دون غيره بعبادته مخلصاً له دينه، ولدلالته على ذلك
 قدم المعبود على فعل العبادة وآخره في الأول فالكلام أولاً واقع في الفعل نفسه
 وإيجاده ، وثانياً فيمن يفعل الفعل لأجله ولذلك رتب عليه قوله تعالى فاعيدوا
 ما شئتم من دونه (٢) .

وهناك نوع من التكرار أشرنا في بحث بلاغة الكشاف إلى أن الزمخشري
 يصفه بأنه نمط حسن من التكرار ، وذلك ما تختلف فيه ضروب الصنعة في
 الجملة المسكرة ، وابن الأثير يشير إلى هذا النوع وإلى أنه حسن خامس وينقل
 تحليل الزمخشري فيه .

ويقول ابن الأثير في قوله تعالى ذل كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون
 ذوالأوتاد وثمود وقوم لوط وأصحاب الأيكة أولئك الأحزاب إن كل إلا كذب
 الرسل فحق عقاب ، .

وإنما كثر تكذيبهم هنا لأنه لم يأت على أسلوب واحد بل تنوع فيه بضروب
 من الصنعة، فذكره أولاً في الجملة الخبرية على وجه الإبهام، ثم جاء بالجملة الاستثنائية
 فأوضحه بأن كل واحد من الأحزاب كذب جميع الرسل لأنهم إذا كذبوا واحداً

(١) المثل السائر ج ٢ من ٥ ، ٦

(٢) الكشاف ج ٤ ص ٦٢

منهم فقد كذبوا جميعهم وفي تكرير التكذيب وإيضاحه بعد إتمامه، والتنوع في تكريره بالجملة الخبرية أولا وبالاستثنائية ثانياً وما في الاستثناء من الوضع على وجه التوكيد والتخصيص من المبالغة المسجلة عليهم باستحقاق أشد العذاب وأبائه، وهذا باب من تكرير اللفظ والمعنى حسن غامض وبه تعرف مواقع التكرير والفرق بينه وبين غيره فافهمه إن شاء الله تعالى (١) .

وهذا ماخوذ من الكشاف وليس لابن الأثير فيه تصرف يذكر (٢) .

ويأخذ ابن الأثير من الكشاف ما ذكره الزمخشري في فائدة التكرير في سورة القمر وفي سورة الرحمن .

يقول معللاً تكرير قوله تعالى « فذوقوا عذاب ونذرنا القرآن للذكر فهل من مدكر » . وفائدته أن يجددوا عند استماع كل نبأ من أنباء الأولين أذكارا وإيقاظا ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظا ، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث إليه وأن تفرغ لهم العصا مرات لئلا يغلبهم السهو وتستولي عليهم الغفلة وهذا حكم التكرير في قوله تعالى في سورة الرحمن « فبأى آلاء ربكما تكذبان » وذلك عند كل نعمة عدها على عباده (٣) .

وإذا نقلت كلام الزمخشري في هذا الموضوع فسوف أعيد نص ابن الأثير مع اختلاف ليس فيه فائدة (٤) .

ويأخذ عنه ما ذكره من فائدة التكرير في قوله تعالى « وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار » .

يقول ابن الأثير : فإنه إنما كرر نداء قومه ههنا لزيادة التنبيه لهم والإيقاظ

(١) المثل السائر ج ٣ ص ٩

(٢) ينظر الكشاف ج ٤ ص ٥٩

(٣) المثل السائر ج ٣ ص ١٩ ، ٢٠

(٤) ينظر الكشاف ج ٤ ص ٣٤٩

من سنة الغفلة ولا أنهم قومه وعشيرته وهم فيما يوبقهم من الضلال وهو يعلم وجه خلاصهم، وتصيحتهم عليه واجبة فهو يتحزن لهم ويتلطف بهم ويستدعي بذلك إلا يتموه فإن سرورهم سروره، وغمهم غمه، وإن ينزلوا على نصيحتهم لهم، وهذا من التكرير الذي هو أبلغ من الإيجاز وأشد موقفاً فأعرفه إن شاء الله تعالى (١)

وهذا ماخوذ من الكشاف وليس فيه تصرف يذكر (٢).

الكناية والتعريض :

قلت في بحث الكناية والتعريض : إن الزمخشري هو أول باحث فرق تقريباً دقة بين الكناية والتعريض كما نعلم، وقد كان عبد القاهر الجرجاني وهو رأس قائمة علم البيان لا يفرق بينهما، وقد جرى ابن الأثير على طريقة الزمخشري ففرق بين الكناية والتعريض .

وحده الكناية لا يبعدهما يستخلص من كلام الزمخشري فيها .

يقول ابن الأثير : فحد الكناية الجامع لها هو أنها كل لفظة دلت على معنى يجوز حمله على جانبي الحقيقة والمجاز بوصف جامع بين الحقيقة والمجاز (٣) .

ويقول قبل ذلك : والذي عندي في ذلك أن الكناية إذا أوردت تماثياً جانباً حقيقة ومجاز (٤) وإذا نظرنا في كلام الزمخشري الذي ذكر فيه الكناية والمجاز عن الكناية لوجدنا شهاً قوياً بينه وبين ما ذكره ابن الأثير في حد الكناية، لأنه شرط إمكان المعنى الحقيقي في طريقة الكناية - ولم يشترط هذا الشرط أحد قبله - وهذا الشرط هو مدار التعريف الذي ذكره ابن الأثير .

ويقول ابن الأثير في التعريض : وأما التعريض فهو اللفظ الدال على الشيء من طريق المفهوم بالوضع الحقيقي والمجازي، فإنك إذا قلت لمن توقع صلاته ومعموفه

(١) المثل السائر ج ٣ ص ١٩

(٢) ينظر الكشاف ج ٣ ص ١٣١

(٣) المثل السائر ج ٣ ص ٥٢

(٤) المثل السائر ج ٣ ص ٥١

بغير طالب : والله إنى له محتاج وليس فى يدي شيء وأنا هريان والبرد قد أذاك .
فإن هذا وأشباهه تعريض بالطالب ، وليس هذا اللفظ موضوعاً فى مقابلة الطلب
لا حقيقة ولا مجازاً ، إنما دل عليه من طريق المفهوم (١) .

وحين ننظر فى قول الزمخشري : والتعريض أن تذكر شيئاً تدل به على شيء
لم تذكره كما يقول المحتاج للمحتاج إليه : جئتك لأسلم عليك ولا نظر إلى وجهك
السكرام ، ولذلك قالوا :

وحسبك بالتسليم منى تقاضياً

وكانه إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض ويسمى التلويح لأنه يلوح منه
ما يريد (٢) . نجد كذلك شهاً قوياً بين الكلامين لأن الدلالة من طريق المفهوم
ليست بعيدة عن دلالة الشيء على شيء لم يذكر .

وقد أدرك العلامة السيد الشريف العلاقة بين الكلامين فقال : وحاصل الفرق
- معنى بين الكناية والتعريض - أنه اعتبر فى الكناية استعمال اللفظ فى غير ما وضع له ،
وفى التعريض استعماله فى غير ما وضع له مع الإشارة إلى ما لم يوضع له من السياق ،
وكلام ابن الأثير أعنى قوله والتعريض هو اللفظ الدال على معنى لا من جهة الوضع
الحقيقى أو المجازى بل من جهة التلويح والإشارة يدل أيضاً على أن المعنى التعريضى
لم يستعمل فيه اللفظ بل هو مدلول عليه إشارة وسياًقاً ، بل تسميته تلويحاً يلوح
منه ذلك وكذلك تسميته تعريضاً ينبىء عنه ولذلك قيل : هو إمالة الكلام إلى
عرض أى جانب يدل على المقصود (٣) .

ثم يأخذ ابن الأثير من الكشاف أخذاً مباشراً فى باب التعريض يقول : وأما
التعريض فقد سبق الإلهام به وعرّفناك الفرق بينه وبين الكناية ، فما جاء

(١) المثل السائر ج٣ ص ٥٢

(٢) الكشاف ج١ ص ٢١٥

(٣) حاشية السيد الشريف ص ٤١٣ ، ٤٢٤

منه قوله تعالى : ، قالوا أنت فداك هذا بالمتنايا إبراهيم قال بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، . . . وهذا من رموز الكلام ، والقول فيه أن قصد إبراهيم عليه السلام لم يرد به نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزام الحجية عليهم والاستهزاء بهم (١) . وهذا مأخوذ من قول الزمخشري في هذه الآية . هذا من معاريض الكلام ، واطراف هذا النوع لا يتداخل فيها إلا أذهان الراضة من علماء المعاني . والقول فيه أن قصد إبراهيم صلوات الله عليه لم يكن إلى أن ينسب الفعل الصادر عنه إلى الصنم ، وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على أسلوب تعريضى يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجية وتبكيتهم (٢) .

ويقول ابن الأثير ومن هذا التقسيم أيضا قوله تعالى : قال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . فقوله ما نراك إلا بشراً مثلنا تعريض بانهم أحق منه بالنبوة وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم ، فقالوا هب أنك واحد من الملأ ومواز لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم بها ، ألا ترى إلى قوله : وما نرى لكم علينا من فضل ، (٣) .

ويقول الزمخشري ما نراك إلا بشراً مثلنا تعريض بانهم أحق منه بالنبوة وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم ، فقالوا هب أنك واحد من الملأ ومواز لهم في المنزلة فما جعلك أحق منهم ، ألا ترى إلى قولهم : وما نرى لكم علينا من فضل ، (٤) .

وإذا كان قد ظهر لنا نثر ابن الأثير بالزمخشري في دراسته للكتابة والتعريض فإنه من المرفوض عندنا قوله في أول هذا الباب : وقد تكلم علماء البيان

(١) المثل السائر ج ٣ من ٧٢

(٢) الكشاف ج ٣ من ٩٨

(٣) المثل السائر ج ٣ من ٧٢

(٤) الكشاف ج ٣ من ٣٠٤

فوجدتهم قد خاطروا الكناية بالتعريض ولم يفرقوا بينهما ولا حدوا كلا منهما
بحد يفصله عن صاحبه، بل أوردوا لهما أمثلة من النظم والنثر وأدخلوها في الآخر،
فذكروا للكناية أمثلة من التعريض وللتعريض أمثلة من الكناية (١).

وهذا كلام صادق على كثير من البيانين وخصوصاً الذين ذكروهم في هذا
الصدد وهم الغامبي وابن سنان الخفاجي والعسكري . أما الزمخشري فقد فرق
بين الكناية والتعريض، ولا يستطيع أن يجزم بأن ابن الأثير لم يقرأ الجزء الخاص
بالتفريق بينهما لأننا وجدنا مشابهاً واضحة بين ما ذكره في تعريفهما وما ذكره
الزمخشري ، كما رأيناها ينقل نقلاً واضحاً في أمثلة التعريض .

تقابل المعاني :

ونجد أثر الزمخشري في دراسته لتقابل المعاني حين يسوق بعض الأمثلة من
الكشاف يقول: ومن هذا الضرب قوله تعالى «أو لم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا
فيه والنهار مبصراً، فإنه لم يراع التقابل في قوله ليسكنوا فيه ومبصراً لأن القياس
يقتضى أن يكون والنهار ليبصروا فيه، وإنما هو مراعى من جهة المعنى لا من جهة
اللفظ . وهذا النظم المطبوع غير المتكاف لأن معنى قوله مبصراً لبصروا فيه
طرق التقلب في الحاجات (٢) .

وهذا مأخوذ من قول الزمخشري : فإن قلت ما للتقابل لم يراع في قوله
ليسكنوا فيه ومبصراً حيث كان أحدهما علة والآخر حالاً؟ قلت هو مراعى من
حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكاف لأن معنى مبصراً ليبصروا فيه
طرق التقلب في المكاسب . وأحسب أن قول ابن الأثير، وهذا النظم المطبوع غير
المتكاف محرف ، وصوابه ، وهكذا النظم المطبوع كما في الكشاف .

ويقول ابن الأثير : واعلم أن في تقابل المعاني باباً عجيب الأمر يحتاج إلى
فضل تأمل وزيادة نظر، وهو يختص بالفواصل من الكلام المنشور، وبالأعجاز
من الأبيات الشعرية ، فما جاء من ذلك قوله تعالى في ذم المنافقين « وإذا قيل لهم

(١) المثل السائر ج ٣ ص ٤٩

(٢) المثل السائر ج ٣ ص ١٦٣

لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون . وقوله تعالى : وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، ألا ترى كيف فصل الآية الأخرى يعلمون والآية التي قبلها يشعرون وإنما فعل ذلك لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر العلم والمعرفة بذلك . وأما النفاق وما فيه من البغى المؤدى إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبنى على العادات معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب وما كان فيهم من التحارب والتغاور فهو كالمحسوس عندهم فلذلك قال فيه يشعرون ، وأيضاً فإنه لما ذكر السفه في الآية الأخيرة وهو جهل كان ذكر العلم معه أحسن طباقاً ، فقال لا يعلمون (١) .

وهذا مأخوذ من قول الزمخشري ، فإن فات لم فصلت هذه الآية بلا يعلمون والتي قبلها بلا يشعرون ؟ قلت لأن أمر الديانة والوقوف على أن المؤمنين على الحق وهم على الباطل يحتاج إلى نظر واستدلال حتى يكتسب الناظر المعرفة ، وأما النفاق وما فيه من البغى المؤدى إلى الفتنة والفساد في الأرض فأمر دنيوي مبنى على العادات معلوم عند الناس خصوصاً عند العرب في جاهليتهم وما كان قائماً بينهم من التغاور والتناحر والتحارب والتحايز فهو كالمحسوس المشاهد ولأنه قد ذكر السفه وهو جهل فكان ذكر العلم معه أحسن طباقاً (٢) .

والذي يقرأ كتاب الجامع الكبير لابن الأثير يجد فيه قدراً كبيراً من هذه التحليلات البلاغية العالية التي أخذها من كتاب الكشاف ، وأكثر هذه التحليلات المذكورة في الجامع مذكورة كذلك في المثل السائر ، من هذه التحليلات قوله في الالتفات بعد ذكر قوله تعالى : قال إنني أشهد الله وأشهدوا أنني يرى معاشركونه وهو مثال الرجوع من الفعل المستقبل إلى فعل الأمر — يقول ابن الأثير — ولم يقل أشهدكم ليكون موازناً له وبمعناه لأن إظهار الله على البراءة من الشرك صحيح ثابت في معنى تثبت التوحيد وشد معاقده، وأما إظهارهم فهو الإتيان

(١) الكشاف ج ٢ ص ٣٠٣ و ٣٠٤

(٢) الكشاف ج ١ ص ٤٩

يدريهم ودلالة على قلة المبالاة بهم ، ولذلك عدل به عن لفظ الأول لاختلاف ما بينهما ، وجيء به على لفظ الأمر كما يقول الرجل لمن يبس الثرى بينه وبينه أشهد على أنى أحبك تهكاً به واستهانة لحاله (١) .

وقد سبق أن ذكرنا هذا النص من المثل السائر وبيننا أصله في كتاب الكشاف .

ويقول في الالتفات أيضاً في الضرب الثالث أى الرجوع من خطاب التثنية إلى خطاب الجمع ومن خطاب الجمع إلى خطاب الواحد : ومن هذا النحو قوله تعالى حكاية عن حبيب النجار ومالي لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ، هذا عدول عن خطاب الواحد إلى خطاب الجماعة ، وإنما صرف الكلام عن خطاب نفسه إلى خطابهم لأنه أبرز الكلام لهم في معرض المناصحة لنفسه ، وهو يريد مناصحتهم ليألف بهم ويدارهم ولأن ذلك أدخل في إمعان النصيح حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه (٢) . . . ثم يذكر هنا ما ذكره في المثل السائر ويقول : فانظر أيها المتأمل لكتابنا هذا إلى هذه الدقائق التى أشرنا إليها فى غضون هذا الكتاب فإن فيها ما شئت من اللطائف اللطيفة والفوائد العجيبة (٣) .

ويقول فى الإخبار عن الفعل الماضى بالمضارع :

اعلم أن الفعل المضارع إذا أتى به فى حال الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضى ، وذلك لأن الفعل المضارع يوضح الحال التى يقع فيها وتستحضر تلك الصورة حتى كأن السامع يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضى فمما جاء منه قوله تعالى والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلديت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور . فإنه إنما قيل فتثير سحابا مضارعا ، وما قبله وبمده ماض لذلك المعنى الذى أشرنا إليه وهو حكاية الحال الذى يقع فيها إثارة الريح السحاب واستحضار تلك الصور البديعة الدالة على القدرة الباهرة . . . وقد ذكر هنا ما ذكره الزمخشري فى الآية وأبيات تأبط شراً

(١) الجامع الكبير لابن الأثير ضلوط بدار الكتب وغيره من تروية صفاته .

(٢) المرجع السابق

(٣) المرجع السابق

وقد قلنا إن ابن الأثير أضاف حكاية الزبير لما لقي هبيدة بن سعد بن العاص ،
والقصة غير مذكورة في كتاب الجامع .

وقد ذكرنا أن ابن الأثير يذكر أن عطف المستقبل على الماضي يكون
على ضربين :

الضرب الأول ما يستعمل فيه المستقبل للدلالة على حدث قد مضى ، والضرب
الثاني ما يستعمل فيه المستقبل للدلالة على حدث يقع ، وقد ذكر آية فتشير سبحانه
مثالا للضرب الأول وذكر قوله تعالى : ألم تر أن الله نزل من السماء ماء فتصبح
الأرض مخضرة ، مثالا للضرب الثاني .

أما في كتاب الجامع فإنه لا يفرق بين الضربين ، ويذكر قوله تعالى : ألم تر أن
الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة ، مع آية : فتشير سبحانه .
ويفيدنا هذا أن كتاب المثل السائر كان يفصل فيه ما أجمله في كتاب
الجامع الكبير .

ويذكر في كتاب الجامع كذلك الإخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع
ويقول فن ذلك قوله تعالى : ذلك يوم مجموع له الناس وذلك يوم مشهود ، فإنه
إنما أمر اسم المفعول مهنا على الفعل المضارع لما فيه من الدلالة على ثبات معنى
الجمع لليوم ، فإنه لا بد من أن يكون ميعاداً مضروباً بجمع الناس ، وأنه الموصوف
بهذه الصفة وإن شئت فوازن بينه وبين قوله تعالى : يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك
يوم التغابن ، فإنك تثر على صحة ما قلت (١) .

وقد أشرنا إلى أن هذا مأخوذ من الكشف
وفي الجامع الكبير اهتمام بمسائل أغفلها ابن الأثير في المثل السائر منها
نوع سماه بالتمقيب المصدرى يقول فيه :

وإنما يعمد إلى ذلك لضرب من التأكيد لما تقدمه والإشعار بتعظيم شأنه ،
أو بالضد من ذلك . فمثال الأول قوله تعالى : ويوم ينفخ في الصور ففزع من
في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكل أتوه داخرين ، وترى الجبال
تحسبها جامدة وهي تمرر السحاب صنع الله الذي اتقن كل شيء إنه خبير بما

(١) الجامع الكبير مخطوط غير مطبوع

تعملون من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون ومن جاء
بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ، صنع الله من
المصادر المؤكدة لما قبلها كقوله وعد الله ، وصيغة الله ألا ترى أنه لما جاء ذكر
هذا الأمر العظيم الدال على القدرة الباهرة من النفخ في الصور وإحياء الأموات
والفزع وإحضار الناس للحساب ومسير الجبال كالسحاب في سرعتها عقب ذلك
أن قال صنع الله أي هذا الأمر البديع صنع الله والمعنى ويوم ينفخ في الصور
وكان كيت وكيت من الأشياء الباهرة وأثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين فجعل
هذا الصنع من جملة الأمور التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب حيث قال
صنع الله الذي أتقن كل شيء يعني أن مقابلة الحسنة بالثواب والسيئة بالعقاب
من أحكامه للأشياء وإتقانه لها وإجرائه إياها على قضايا الحكمة أنه عالم بما
يفعل العباد وبما يستوجبون عليه فيكافئهم على حسب أفعالهم ، ثم لخص ذلك
بقوله تعالى من جاء بالحسنة فإلح الآيتين فانظر أيها المتأمل إلى بلاغة هذا الكلام
وحسن نظمه وترتيبه ومكانة أضاده ورسالة تفسيره وأخذ بعضه برقاب بعض
كأنما أفرغ إفراغاً واحداً ، ولامر ما أعجز القوى وأخرس الشفاشق (١) .

وهذا البحث مأخوذ من كلام الزمخشري في هذه الآيات حيث يقول :

صنع الله من المصادر المؤكدة كقوله وعد الله وصيغة الله إلا أن مؤكده
مخدوف وهو الناصب ليوم ينفخ والمعنى ويوم ينفخ في الصور وكان كيت وكيت
وأثاب الله المحسنين وعاقب المجرمين ثم قال صنع الله يريد به الإثابة والمعاقبة
وجعل هذا الصنع من جملة الأشياء التي أتقنها وأتى بها على الحكمة والصواب
حيث قال صنع الله الذي أتقن كل شيء يعني أن مقابلته الحسنة بالثواب والسيئة
بالعقاب من جملة أحكامه للأشياء وإتقانه لها وإجرائه لها على قضايا الحكمة أنه
عالم بما يفعل وبما يستوجبون عليه فيكافئهم على حسب ذلك ، ثم لخص ذلك بقوله :
من جاء بالحسنة . . . إل آخر الآيتين . فانظر إلى بلاغة هذا الكلام وحسن
نظمه وترتيبه ومكانة أضاده ورسالته وتفسيره وأخذ بعضه بحجز بعض كأنما
أفرغ إفراغاً واحداً ولامر ما أعجز القوى وأخرس الشفاشق ونحو هذا الصدر إذا

جاء حقيقتهم ككلام جاء كالشاهد بصحته والمنادى هل سداه وأنه ما كان ينبغي أن يكون إلا كما قد كان ، ألا ترى إلى قوله صنع الله وصيغة الله ووعد الله وفطرة الله بعدما رسمها بإضافتها إليه بسعة التعظيم كيف تلاها بقوله الذي أتقن كل شيء ، ومن أحسن من الله صيغة ، لا يخلف الله الميعاد ، لا تبديل الخلق (الله) .

وبعد هذا الأخذ البين والتأثر الواضح الذي أوردنا صورته في كثير من كتاب المثل السائر وكتاب الجامع الكبير ، يذكر بعض الدارسين أن ابن الأثير لم يفد شيئاً مما كتبه الزمخشري في كتاب الكشاف وأنه لم يكن مثقفاً ثقافاً دقيقة بما جاء في هذا الكتاب من البحث المتصل بالبلاغة .

يقول الأستاذ الدكتور شوقي ، بعد ما عرض في دراسة مفصلة ما جاء في كتاب المثل السائر من فكر وقضايا ، وبعد ما عرض صوراً بينه لما جاء في كتاب الكشاف من فكر وتحليلات بلاغية ، يقول : وواضح من كل ما قدمنا أن ضياء الدين لم يكن مثقفاً ثقافاً دقيقة بكتابات البلاغيين قبله ، وفاته أن يطلع على كتابات عبد القاهر والزمخشري والفخر الرازي ، على أنه يذكر الزمخشري أحياناً ولكن ليرد عليه بعض آرائه ، ومن المؤكد أنه لم يحيط بما كتبه في الكشاف وظل يضطرب اضطراباً شديداً في تصور المسائل البيانية الخالصة ، واقصد التخصيص ، والمجاز ، والاستعارة ، والسكناية ، وأيضاً فإنه اضطرب بإزاء ما كتبه من مسائل علم المعاني كالتقديم ، والتأخير ، والإيجاز ، والإطناب ، والفصل ، والوصل ، وكأنه لم يفد شيئاً مما سجله القرن الخامس عند عبد القاهر ، والسادس عند الزمخشري والفخر الرازي في مسائل علم البيان والمعاني (١) .

ولا شك عندما في أن ابن الأثير قد قرأ كتاب الكشاف قراءة دقيقة وأعجب بكثير من التحليلات البلاغية فيه ، وأقلها نقلاً كاملاً إلى كتابه المثل السائر وأورد كثيراً منها في كتابه الجامع الكبير ، وقد بينا هذا بياناً نظنه كافياً في توثيق صلة ابن الأثير ببلاغة الكشاف .

(١) الجامع الكبير مخطوط غير مرقوم .

(٢) البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٣٤ ، الدكتور شوقي ص ١٠٠ .

أما أنه لم يفد منه في تصور الصورة البيانية فذلك ما أشرنا إليه وقتنا لعل ذلك راجع إلى أن جهد الكشف في دراسة صور البيان لم يكن بيننا كجهد في دراسة صور المعاني .

ولم يكن الاستاذ الدكتور شوقي هو وحده الذي غاب عنه أثر الكشف البين في كتاب المثل السائر ، وإنما كان ذلك حال غيره من الدارسين ، ومنهم من حاش في عصر ابن الأثير وكأنت بينه وبين ابن الأثير منافسة ومناقشة ، وكان حرياً به أن يدرك هذا الأخذ ، ولكنه جهل هذا ، وكان يناقش ابن الأثير فيما نقله من الكشف وهو لا يدري أنه في الحقيقة يناقش الزمخشري .

فقد كتب العلامة الناقد عز الدين بن أبي الحديد كتابه الموسوم بالفلك الدائر على المثل السائر وتبع فيه أفكار ابن الأثير يناقشها ويبطلها . وقد كان متعاملاً أشد التعامل على الكتاب والكتاب ، وهذه التسمية التي وسم بها كتابه خير دليل على هذه الروح المتعصبة فقد قال هو نفسه في دلة هذه التسمية : وقد سميت هذا الكتاب الفلك الدائر على المثل السائر لأنه شاع من كلامهم وكثر في استعمالهم أن يقولوا لما باد ودثر قد دار عليه الفلك كأنهم يريدون أنه قد طمحنه ومحا صورته ، من ذلك قول أبي العتاهية :

إن كنت تشددم فإنهم همدوا ودار عليهم الفلك (١)

وقد كان عليه أن يتبع هذه التقول وأن يذيعها في الناس ، وهذا لا شك له أثره الكبير في مهمته التي قصد إليها بتأليف كتابه .

والهم في هذا كله كآفات هو أن ابن أبي الحديد ناقش ابن الأثير في تحليلات وفكر بلاغية منقولة من الكشف ولم يتبعه ابن أبي الحديد إلى هذا وكأنه لم يقرأ كتاب الكشف ، من ذلك مناقشته لكلام ابن الأثير في التقديم في النبي حيث ذكر ابن الأثير قوله تعالى : ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه ، وقوله تعالى : لا فيها غول ، وواضح كما بينا أن كلام ابن الأثير في هذا الموضوع مأخوذ من الكشف ، قال ابن أبي الحديد بعد ما نقل كلام ابن الأثير : أقول إن هذا الذي

(١) مقدمة الفلك الدائر ملحق بالمثل السائر ج ٥ ص ٣٥

ذكره شيء لا يعرفه أهل العربية ولا أهل الفقه ولا فرق عندهم في النفي المطلق بين قولهم لا ريب فيه ، ولا فيه ريب إلا من جهة أخرى وهي أنه يتبع الاختصاص على قوله لا فيه ريب في القواعد النحوية حتى يضم إليه شيء آخر فيقول ولا شك مثلاً نحو ذلك (١) .

وإذا كان ابن الأثير قد نقل هذا من الكشاف، والزمخشري رأس في علوم العربية وإمام من أئمتها كما هو إجماعهم فكيف يكون هذا أمراً لا يعرفه أهل العربية ؟ وقد أخذ برأى - الزمخشري في هذه الآية أئمة مشهور لهم بالسبق في علوم العربية ، ومنهم من عاصر ابن أبي الحديد ومات قبله بنحو ثلاثين سنة كإبي يعقوب السكاكي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ .

ويذكر ابن أبي الحديد ما قاله ابن الأثير في قوله تعالى وذهب الله بنورهم .

وتطول مناقشته لابن الأثير ويذعم أن أهل العربية لا يعرفون الفرق بين النور والضوء وقد جهل أن القائل بهذا هو الزمخشري وهو معدود من النوريين وكتابه من أهم ما يرجع إليه في تحديد الفروق بين دلالات الألفاظ . وقد أشرتنا إلى أن ابن الأثير استنبط من دراسة الزمخشري في هذا الموضوع باباً فيما في كتابه سماه استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات وذكر ما قاله الزمخشري في هذه الآية وما شاكلها . ويذكر ابن أبي الحديد أن قول ابن الأثير إن ذهب الله بنورهم معناه أنه استصحبه ومضى به كفر وتهجم ، لأن ذلك مستحيل بالنسبة للدولة من وجل ، .

وهذه شهادة منه على نفسه . وأنه وجل لا يستطيع أن يدرك وهو الفصاحة وأسرار البلاغة .

وما أروع ما قاله الزمخشري ونقله ابن الأثير في الفرق بين : ذهب به وأذهبه ... وإذا كان ابن أبي الحديد قد كتب كتابه ليحويه المثل السائر - وهو يجهل ما فيه من بلاغة الكشاف فإن من المعاصرين من كتب دراسة خاصة بابن الأثير وقدمها بحثاً علمياً ثم ذكر صوراً من تحليلات ابن الأثير المنقولة من

(١) الفلك الدائر ملحق بالمثل السائر جزء ١ من ١٩٠ .

الكشاف وأشار إلى أنها من إشارات ابن الأثير الفذة ومن تحليلاته التي تستوقفنا والتي تشهد له بالقدرة على التحليل وتفصي المعاني الشاردة .
يقول الأستاذ الدكتور محمد زغلول سلام :

وتستوقفنا بعض الالتفانات الطريفة التي تشهد بقدرة ضياء الدين على التحليل وتفصي المعاني الشاردة وإثارة معاني مبتكرة أخرى معتمداً على دقائق وسكوت أسلوبية مختلفة ، يقول في حروف الجر : وأما حروف الجر فنحو قوله تعالى :
« قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله وإنما أو إياكم لعل هدى أو في ضلال مبين ، ألا ترى إلى بداعة هذا المعنى المقصود بمخالفة حروف الجر هنا فإنه إنما خولف بينهما في الدخول على الحق والباطل لأن صاحب الحق كأنه مستعمل على فرس جواد يركض حيث شاء وصاحب الضلال كأنه منغمس في ظلامه مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه ، وهذا معنى دقيق قلنا يراهي في الكلام (١) .
وقد فات الأستاذ الفاضل أن هذا التحليل منقول من كتاب الكشاف وأنه لا يصح أن يكون دليلاً على قدرة ضياء الدين على التحليل وتفصي المعاني (٢) .

ويقول الأستاذ الفاضل في موضع آخر :

ويستمد التعبير الفني على التخيل لرسم الصور في الذهن ، ويشير الخيال في العبارة عناصر مختلفة تعتمد على الألفاظ وجرسها وإيحائها وظلالها ، وأشار ضياء الدين في غير موضع إلى دور الألفاظ في التخيل ومثاله ما قاله في بعض صيغ الأفعال مثل قوله في القطبين الماضي والمستقبل ، ولكنه في المستقبل أؤكد وأشد تخيلاً لأنه يستحضر صورة الفعل حتى كأن السامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه ، ومنه مثل قول تابط شراقي بيتين :

بأنى قد لقيت الغول تهوى بسهب كالصحيفة مصممان

فأضربها بلا دهش فخرت صريماً ليدين والحجران

فإنه قصد أن يصور لقومه الحال التي تشجع فيها على ضرب الغول كأنه

(١) ضياء الدين ابن الأثير وجهوده في النقد ص ١١٩ .

(٢) ينظر الكشاف ج ٣ ص ٤٤٩ .

يبصرهم إياها مشاهدة لتعجب من جراته هل ذلك المحول، ألا ترى أنه لما قال
تأبط شراً فاضربها يليل السامع أنه يباشر الفعل، وأنه قائم بإزاء القول وقد وقع
سيفه ليضربها (١) .

وهذا التحليل منقول من الكشاف وقد بينا ذلك فلا يصح أن يكون من
إشارات ابن الأثير، إلى دور الألفاظ في التخييل .

وقد يكون منشأ هذه الغفلة عن تأخير الكشاف في المثل السائر هو أن كتاب
الكشاف مشهور في كتب التفسير وأنه كتاب يتضمن أصول مذهب أهل البيت
والتوحيد أكثر مما هو مشهور في كتب البلاغة، فليس من الختم هل باحث يكتب
في البلاغة والنقد أن يستقص مسائل الكشاف ما دام موضوع بحثه ليس
محصوراً فيها .

(١) ضياء الدين ابن الأثير وجيوشه في النقد ص ١٥٧ .

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

www.alkottob.com

الفصل الثالث

أثر الكشاف في كتاب الطراز

العلوي يدرس مسائل البلاغة مرتين

وفاء الكتاب بالفرض من تأليفه

- المباحث التي أقادها من الكشاف : ١ - الاستدراج
٢ - الالتفات
٣ - التكرير
٤ - الفصل والوصل
٥ - التقديم والتأخير
٦ - معاني الحروف
٧ - الإيهام والتفسير
٨ - توكيد الضميرين
٩ - الإيجاز والإطناب
١٠ - الكناية والتعريض
١١ - التخييل
١٢ - الإلهاب والتبيح

www.alkottob.com

Handwritten Title

Handwritten text lines

Handwritten text lines



أثر الكشف في كتاب الطراز

أشرت إلى أن كتاب المثل السائر كان ذا طابع يختلف اختلافاً واضحاً في منهجه وتناوله لمسائل العلم عن اتجاه السكاكي ومن سار على نهجه .

وإذا كنت بينت أثر الكشف في اتجاه السكاكي وفي كتاب المثل السائر فهذا يعني بيان أثره في اتجاهين هامين وبارزين في الدراسة البلاغية بعد الكشف . وأقول هنا إن كتاب الطراز (١) كان مزيجاً من الاتجاهين السابقين ، فلم تغلب عليه الصبغة الأدبية كما غلبت في المثل السائر ، ولم تغلب عليه الصبغة الكلامية كما غلبت في اتجاه المفتاح .

وواضح من عنوان الكتاب أن البحث فيه ينقسم إلى قسمين ، قسم يتضمن أسرار البلاغة ، وقسم يتضمن علوم حقائق الإعجاز .

وهو في دراسة القسم الأول يقرر قواعد البلاغة ويحرر مسألتها ويذكر كثيراً من المثل والشواهد ، وتظهر النزعة الكلامية في هذا القسم في تحرير الحدود ومناقشتها على قواعد المنطق ، كما تظهر في بعض الدراسات البلاغية التي درسها على طريقة الأصوليين كدراسة الحقيقة وأقسامها ودراسة الوضع وتعريف المجاز ، وتظهر النزعة الأدبية في كثرة الشواهد والنصوص وفي كثير من التحليلات المتدفقة وإن كان قد أخذ أكثرها من غيره .

وهو في دراسة القسم الثاني يتناول علوم البلاغة مرة ثانية لأنها من علوم حقائق الإعجاز ويختلف تناوله لها في القسمين من جهتين ، الجهة الأولى أنه قلما يذكر في القسم الثاني شاهداً من غير القرآن لأن هدفه أن يبين أن القرآن قد فاق في هذه

(١) كتبه العلامة الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة بن علي بن إبراهيم بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وله بصناء سنة تسع وستين وستائة وصفه التصانيف الحافلة في الأصول والتوحيد والنحو والبلاغة والفقه وغير ذلك . وقد بلغت كتبه مائة مجلد كما يذكر من ترجمته . وهو إمام زيدية وثقة إمامة المؤمنين باليمن سنة تسع وعشرين وسبعمائة وثلاثين سنة تسع وأربعين وسبعمائة .

المعاني غيره ، وبإلا حظ أنه يذكر في القسم الأول شواهد من القرآن الكريم ومن السنة الشريفة ، ومن كلام الإمام علي ثم من شعر الشعراء وكلام الأدباء .
الجهة الثانية ، أن دراسته لعلوم البلاغة في القسم الثاني تسير على طريقة المفتاح ومنهجه فيذكر في علم المعاني أحوال الإسناد ، والمسند إليه ، والمسند به والتعلقات الفعلية والجمل الإنشائية والفصل والوصل والقصر إلى آخره .

ويذكر في علم البيان التشبيه والمجاز والكنائية ، ويذكر من علم البديع على طريقة تخالف هذه الطريقة ، فإذا كان التقديم في القسم الثاني يدرس موزعاً على أحوال المسند إليه والمسند به والتعلقات الفعلية فهو في القسم الأول يدرس باباً مستقلاً ويتناول فيه تقديم المسند إليه أو المسند أو المفعول إلى آخره .

وإن كان في القسم الأول يذكر علوم البلاغة الثلاثة ويذكر تعريف البيان والمعاني على طريقة المتأخرين ويتم ابن الأثير في كثير من المواقف بالجهل بمعرفة الحدود ، ويتم كذلك الكتاب والأدباء جميعاً بهذا الجهل لأن علم الكناية كما يقول بمزلة عن معرفة الحدود والوفاء بشروطها .

وكان العلوي حريصاً على توضيح المغزى الذي من أجله يعيد دراسة علوم البلاغة حتى لا يتم باضطرابه في منهجه .

يقول في هذا : وقد أشرت في أول الكتاب إلى حقائق هذه الأشياء في تقرير قواعدهما والذي تشير إليه هنا هو أنه قد فاق في هذه المعاني على غيره وأن شيئاً من الكلام المتقدم لا يدايه ولا يقاربه فيها ليحصل الناظر من ذلك على كونه قد بلغ الغاية بحيث لا غاية وأنه قامت لكلام أهل البلاغة في جميع أحواله ، (١) .

ويقول في موطن آخر : اهل أن ما يتعلق بالأسرار البيانية والعلوم البلاغية قد ذكرناه ورمزنا إلى أسرارها ومقاصدها والذي نريد ذكره في هذا الفن هو الكلام فيما يتعلق بأسرار القرآن ونحن وإن ذكرناه على جهة التهمة والتكلمة فهو في الحقيقة المقصود والغرض المطلوب ، (٢) .

(١) الطراز ج ٣ ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .

(٢) الطراز ج ٣ ص ٢٤٣ .

ويشير إلى العلوم التي سوف يدرسها بين يدي بيان أسرار القرآن وأهميتها في ذلك ، يقول إنه بإحكام النظر في هذه المرتبة - يعني المرتبة الثانية في بيان المزايا الراجعة إلى معانيه - وإمعان الفكر فيها تظهر عجائب التنزيل وتبرز بدائعه وغرائبه وتتجلى عماسته وتصفو مشاربه لما فيها من الكشف لآساره والإحاطة بغوائله وأغواره ، ولن يحصل ذلك كل الحصول ولا تطلع آثاره بعد الأفلول إلا بعد ذكر ما يتعلق بعلوم الإعجاز لأنها تكون كالآلة في تقرير تلك المحاسن وإظهار كنوز تلك المعادن فنذكر ما يتعلق بالعلوم المعنوية ثم نردفه بما يتعلق بالأسرار البيانية ثم نذكر ما يتعلق بالبلاغة اللفظية ثم بالبلاغة المعنوية ثم نذكر على أثرهما ما يتعلق بأسرار البديع ، فهذه أقسام ثلاثة بأحرازها والاطلاع على رموزها يظهر الإعجاز للالسان ظهور المرتق في العيان (١) .

وغيرنا في هذا البحث أن تبين تأثير كتاب الكشف في هذا الكتاب الذي نعتبره من أهم الكتب البلاغية التي كتبت بعد الكشف والذي تميز عنها جميعها كما قلت بأنه محاولة لمزج طريقتين متميزتين في دراسة البلاغة في عصره .

ونقول إن أول ما يلفتنا إلى أثر الكشف في هذا الكتاب هو أن العلوي كتبه لما شرع في قراءة كتاب الكشف إذ طلب منه بعضهم أن يمل في البلاغة كتاباً يشتمل على التحقيق والتهديب .

يقول في هذا : ثم إن الباحث على تأليف هذا الكتاب هو أن جاعة من الإخوان شرهوا على في قراءة كتاب الكشف تفسير الشيخ العالم المحقق أستاذ المفسرين محمود بن عمر الزمخشري فإنه أسسه على قواعد هذا العلم فأنضح عند ذلك وجه الإعجاز من التنزيل وعرف من أجله وجه النفرقة بين المستقيم والمعوج من التأويل وتحققوا أنه لا سبيل إلى الاطلاع على حقائق إعجاز القرآن إلا بإدراكه والوقوف على أسراره وأغواره ، ومن أجل هذا الوجه كان متميزاً عن سائر التفاسير لأن لم أعلم تفسيراً مؤسساً على علمي المعاني والبيان سواء فسانى بعضهم أن أمل فيه كتاباً يشتمل على التهديب والتحقيق (٢) .

(١) الطراز ج ٣ من ٢٥٠

(٢) الطراز ج ١ من ٥

فالفرض إذاً هو توضيح مسائل هذا العلم وتبسيطها وتيسيرها لأن مباحثه كما يقول في غاية الدقة وأسراره في نهاية الغموض، فهو أحوج العلوم إلى الإيضاح والبيان (١).

وبهذا يدعى العلوي أن كتابه مقدمة لدراسة الكشاف ومدخل لفهم بلاغته، قدمه إلى طلابه عوناً لهم على تبصر خفاياه والاطلاع على أسراره والوقوف على أغواره، فهو إذن شرح وتبسيط وتقريب وتسهيل لما جاء في الكشاف من البحث البلاغي، فهل استطاع العلوي أن ينهض بهذه المهمة؟ وهل كان كتابه حقاً ضوءاً كاشفاً لجواب البحث البلاغي في هذا التفسير العظيم؟

والحق أن العلوي قد شغل جزءاً كبيراً من كتابه في مناقشة البلاغيين في تعاريف أبواب هذا العلم وبيان ماهياته وتحديد مسائله، وناقش البلاغيين ونظامهم جميعاً فيما ذكروه من حدود ولم يسلم منه واحد منهم حتى الجرجاني الذي أسس هذا العلم، كما يقول العلوي لم يكن تعريفه مبرراً من هييب، والملاحظ أنه مناقشاته لهم وبيانه وجه الفساد فيما ذكروا كانت مبنيّة على معرفة دقيقة بما يجب أن يتوفر في الحدود من الشروط والقيود، والعلوي عالم ثبت في الفقه وأصوله، وأصول الفقه من العلوم الهامة التي تحفز العقل وتوقظ الملكات فيكون المشتغل به دقيق الملاحظة نافذ النظر في كل ما يتصل بالأمور العقلية، وكان العلوي كذلك، وقد ناقش الأصوليين فيما ذكروا من تعريفات تتصل بعلم البيان كتعريفهم للحقيقة والمجاز وكان لا يرضى إلا بما يقوله هو.

ولشعر أن هذا كله لا يعين الناظر في الكشاف هل تبصر ما فيه وتذوق تحليلاته الأدبية العالية، والزمن شري كما نعلم لم يشغلنا بتعريف الحقيقة ولا بالكلام في الوضع، بل لم يذكر تعريفاً محمداً للمجاز، وكانت عنايته منصرفة إلى بيان ما تنطوي عليه الجملة القرآنية من خصائص بلاغية يشير إلى أسرارها ويكشف رموزها.

ويتحدث العلوي في محاسن الحروف ويذكر مخارجها ويرفض ما ذهب إليه

أبن سنان وغيره من القول بأن تقارب المخارج سبب في فيج النطق وأن التباعد في المخارج سبب في حسنة ، لأنه قد يعرض لما تباعدت مخارجه استكراه في النطق ، وقد يعرض لما تقاربت مخارجه حسن الذوق في اللسان .

ويتحدث في محاسن المفرد ويذكر في هذا ما ذكره المتأخرون في فصاحة المفرد من وجوب موافقة الكلمة للقياس وخفتها على اللسان ولذاذتها في السمع وأن تكون مألوفة غير وحشية .

وحين تكلم الزمخشري في المفردات القرآنية كما بينا لم يقنارها تنازلاً دراسياً ينظر فيه إلى حروفها ومخارجها ولا إلى غرابتها وإلقاها وإنما كان ينظر إلى ملاءمتها لموقعها وإصابتها في هذا الموقع ، وهذه نظرة لا تجدى فيها ولا تعين عليها الدراسة النظرية وإنما تكسب بالنظر في النص والتبصر في كلماته .

والمهم أن جزءاً كبيراً من دراسة العلوي في كتابه سواء في ذلك الجزء المتضمن لأسرار البلاغة والجزء المتضمن لعلوم حقائق الإعجاز لا يتصل بالبحث للبلاغي في الكشف بمعنى أنه لا يعين الطالب على فهمه وتبصره ، على أن جزءاً هاماً في هذا الكتاب كان كأنه تأنيس ميسر لمسائل هذا الفن وفيه يظهر العلوي وكأنه معلم يجمع لطلابه أقوال العلماء في المسألة الواحدة ثم يعرضها ويناقشها . وهذه الأبواب تعين الطالب على فهم بلاغة الكشف بمقدار ما تعين الكتب المدرسية طلاب العلم في عصرنا على قراءته ، أما أن تدفع بهم إلى اكتناء أسرار هذا الكتاب والوقوف على أغواره ، فذلك ما أشك فيه .

وفي الطراز كثير من المباحث البلاغية التي ترجع إلى الكشف، وقد أخذها العلوي من ابن الأثير ، وكل هذه المباحث لها أهميتها الكبيرة في تبسيط فهم بلاغة الكشف لأن ابن الأثير نظر في الكشف واستخرج منه فنوناً بلاغية وحاول أن يشرحها وأن يبين قيمتها البلاغية كما فعل في الاستدراج والتفسير بعد الإبهام وعكس الظاهر والالتفات ، وهذه الفنون وما شاكلها في كتاب الطراز هي أهم ما فيه بالنسبة إلى الفرض الذي من أجله أعمل العلوي هذا الكتاب . وإذا كان له فضل في هذا فإنه محدود باختياره لها وتقديمها إلى طلابه ، أما تبويبها فذلك فضل يرجع إلى ابن الأثير ، وأما استنباطها من النص القرآني فذلك فضل ينسب إلى الزمخشري .

وقبل أن أعرض إلى هذه الفنون أقول إن العلوي يحارل أن يخفى ما يأخذ فهو لا ينسبه إلى صاحبه ، ومثله في هذا مثل من أخذ منه وهو ابن الأثير ، فإنه سكت عن صاحب الفكرة وهرضها وكأنها له ، ولكنه يختلف عن ابن الأثير في أنه يحارل دائماً تغيير العبارة ويجهد في ذلك ، وابن الأثير قلنا حارل هذا ، ومثل العلوي في ذلك أبو يعقوب السكاكي الذي يصوغ ما أخذه من غيره في عبارته وكان ذلك من بنات أفكاره كما قلنا .

الاستدراج :

قد أشرت في بيان أثر الكشاف في المثل السائر إلى أن ابن الأثير ادعى أنه استنبط هذا النوع من كتاب الله ، وذكرت أنه ما زاد على أن نظر في الكشاف وأخذ منه هذا التحليل ورضع له هذه الترجمة .

ونرى العلوي يأخذ هذا من المثل السائر ، ولكنه كافتت بغير العبارة . يقول في هذا النوع :

وهذا اللقب إنما يطلق على بعض أساليب الكلام وهو ما يكون موضوعاً لتقريب المخاطب والتلطف به والاحتياط عليه بالإذعان إلى المقصود منه ومساعدته له بالقول الرقيق والعبارة الرشيدة كما يحتمل على خصمه عند الجدال والمناظرة بأنواع الإلزامات والانتهاج إليه بفنون الإغاثات ليسكون مسرعاً إلى قبول المسألة والعمل عليها وكن يتلطف في اقتناص الصيد ، فإنه يعمل في الحيلة كل حيلة ليسكون ذلك سبيلاً إلى ما يقصده من الاصطياد ، فمكذبا ما نحن فيه إذا أراد تحصيل مقصد من المقاصد فإنه يحتمل بإيراد أطف القول وأحسنه فما هذا حاله من الكلام يقال له الاستدراج ، وانضرب له أمثلة بمعونة الله (١) .

وهذا يكاد يكون شرحاً لقول ابن الأثير وهو — أي الاستدراج — مخادعات الأفعال التي تقوم مقام الأفعال .

ثم يسوق العلوي الأمثلة لهذا النوع فيذكر قوله تعالى : وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات

(١) الطراز ج ٢ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

من ربكم ، فإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصحبكم بعض الذي يعدكم .
إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب . (١) .

ويقول في تحليله ، وفي سياق هذا الكلام من الملاحظة وحسن الأدب وكال
الإيضاح ما يربى على كل غاية ، ويأبى من أوجه . أما أولاً فآياته صدور الكلام
بكونه كاذباً على جهة التقدير ملاحظة واستنزالاً للخصم على نخوة المكابرة ودعاء
له إلى الإذعان والانقياد للحق وقدمه على كونه صادقاً دلالة على ذلك ، وأما
ثانياً فآلانه فرض صدقه على جهة التقدير مع كونه مقطوعاً بصدقه تقريباً للخصم
وتسليماً لما يدهيه من ذلك وعضماً للجانب الرسول زيادة في الإيضاح ومبالغة
فيه ، وأما ثالثاً فإنه أردفه بقوله يصحبكم بعض الذي يعدكم وإن كان التحقيق أنه
يصيبهم كل ما يعدم به لا محالة من أجل الملاحظة أيضاً ، وأما رابعاً فإنه أتى بيان
للشروط وهي موضوعة الأمور المشكوك فيها ليبدل بذلك على أنه غير مقطوع بما
يقول ، على جهة الفرض وإذعاناً للخصم على التقدير لا إرادة مضه لحقه ، وأنه غير
مقط له ما يستحق من التعظيم ، وأما خامساً فقوله تعالى في آخر الآية وإن الله
لا يهدي من هو مسرف كذاب ، إنما أتى به على التلطف والإيضاح عناية أن يعدوا
عن الهداية ومحاذرة عن نفارهم عن طريق الصواب فرضاً وتقديراً ، وإلا فلو كان
مسرفاً كذاباً لما هداه الله إلى النبوة ولما أعطاه إياها ، وفي هذا الكلام من
الاستدراج للخصم وتقريبه وإدناؤه إلى الحق ما لا يخفى على أحد من الأكياس ،
وقد تضمن من اللطائف ما لا سبيل إلى جمده (٢) .

وهذا مأخوذ من المثل السائر مع إضافات لا تزيد عن كونها شرحاً له ، وقد
أشرت إلى أنه مأخوذ من الكشاف (٣) .

والمثال الثاني الذي ذكره من القرآن في هذا النوع قوله تعالى : واذكري
الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع
ولا يبصر ولا يقى عنك شيئاً ، الآيات . وقال معلقاً عليها :

(١) المثل السائر ج ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) الطراز ج ٢ ص ٢٨٦ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ .

(٣) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ٢٦١ ، ٢٦٢ والكشاف ج ٤ ص ١٢٦ .

فهدا كلام يمز الاعطاف ويأخذ بهجامع القلوب في الاستدراج والإذعان
والانقياد بألف العبارات وأرشفها، وهو مشتمل على حسن الملاحظة من أوجه؛
أما أولاً فلأن إبراهيم صلوات الله عليه لما أراد هداية أبيه إلى الخير وإنقاذه
عما هو متورط فيه من الكفر والضلال الذي خالف فيه العقل، فساق معه الكلام
على أحسن هيئة، ورتبه على أعجب ترتيب من حسن الملاحظة والاستدراج
والرفق في الخصمة والحجاج والآداب العالی وحسن الخلق الحميد، وذلك أنه بدأ
بطلب الباعث على عبادة الأوثان والاصنام ليتوصل بذلك إلى قطعه وإخامه،
ثم أنه تكايس معه بأن عرض إليه بأن من لا يسمع ولا يبصر ولا يفنى شيئاً من
الاشياء لا يكون حقيقاً بالعبادة وأن من كان حياً سميماً بصيراً مقتدراً على
الإثابة والعقاب متمكناً من العطاء والإنعام والتفضل، من الملائكة وسائر
الانبياء من جملة الخلق فإنه لا يستحق العبادة ويستسخر عقل من عبده، فكيف
من هذه حاله في عدم الحياة والسمع والبصر من جملة الجادات والأحجار التي
لا حراك لها ولا حياة بها؟ وأما ثانياً فلأنه دعاه إلى التماس الهداية من جهته على
جهة التنبية والرفق به وسلوك جانب التواضع فلم يخاطب أباه بالجمل عما هو
يدهوه إليه ولا وصف نفسه بالاطلاع على كنه الحقائق، والاختصاص بالعلم
الفائق؛ ولكنه قال معنى لطائف من العلم وبعض منه وذلك هو علم الدلالة
على سلوك طريق الهداية فأنبئني أنعمك مما أنت فيه وقال له أهدك صراطاً سوياً ولم
يقبل أنجيك من ورطة الكفر وأنقذك من غمء الحيرة تأديباً منه واعتصامه من
مبادئه بقبیح كفره وتسامحاً عن ذكر ما يفيظه. وأما ثالثاً فلأنه ثبطه عما كان
عليه ونهاه عنه. فقال إن الشيطان الذي عصا ربك وكان هدواً لك ولأبيك آدم
هو الذي أوقعك في هذه الخبائل وورطك في هذه الورط، وأفك في بحر الضلالة،
ولمّا خص إبراهيم ذكر معصية الشيطان لله تعالى في مخالفته لأمره واستكباره
ولم يذكر عداوته لآدم وحواء وما فاك إلا من أجل إيمانه في نصيحته فذكر
له ما هو الأصل تحذيراً له من ذلك ومن موافقته. وأما رابعاً فلأنه خوفه من
سوء العاقبة بالعذاب السرمدي، ثم إنه لم يصرح له بمماسة العذاب له إكباراً له
وإعظاماً لحرمة الأبوة، ولكنه أتى بما يفصح بالمشك في ذلك أدباً له، فقال إنني
أخاف أن يسلك عذاب من الرحمن ثم إنه نكر العذاب تخاشياً من أن يكون

هناك عذاب معروف ويخاف منه ، كانه قال وما يؤمنك إن بقيت على الكفر أن تستحق عذاباً عظيماً عليه . وأما خامساً : فلأنه صدر كل نصيحة من هذه النصائح بذكر الآبوة توسلاً إليه بجنو الآبوة واستعطافاً له برفق الرحمة ليكون ذلك أسرع إلى الانقياد وأدعى إلى مفارقة ما هو عليه من الجور والعناد ، فلما سمع كلامه هذا وتذطن لما دعاه إليه أقبل عليه بفضافة الكفر وجلافة الجهل وغاظ العناد فناده باسمه ولم يقل يا بى كما قال إبراهيم يا أبت إمرأاً عن مقاله وإصراراً على ما هو فيه ، ثم إنه قدم خبر المبتدأ بقوله أراغب أنت اهتماماً بالإتكار وتماذياً في المبالغة في التعجب أن يسكون من إبراهيم مثل هذا (١) .

وكان العلوى قد وضع عينه على كتاب المثل السائر في هذا النص الكبير وأخذ بصوغ ما يرى من المعاني في عبارات من عنده مع إضافات ليس فيها غناء ، وقد قال العلوى في آخر هذا التحليل ، وفي القرآن سعة من هذا ومعلوم من حسن الحجاج والملاطفة خاصة لمنكري الميعاد الأخرى وعباد الأوثان والأصنام . وقد قال ابن الأثير في آخر تحليل هذه الآية : وفي القرآن الكريم مواضع كثيرة من هذا الجنس لا سيما في مخاطبات الأنبياء صلوات الله عليهم للكفار والرد عليهم ، وقد أشرت إلى أن ابن الأثير أخذ هذا من الكشاف ولم يغير أكثر عبارته ، وإن كان قد ترك شيئاً مما قاله الزمخشري ، وهذا هو الذى يؤكد لنا أن العلوى أخذ هذا من المثل السائر ولم يأخذه من أصله في الكشاف ، فضلاً عن الترجمة التي ذكرها العلوى والمقدمة المذكورة في تعريف الاستدراج والمقصود منه ، فهذا كله في المثل وليس في الكشاف (٢) .

الالتفات :

وقد تأثر العلوى في دراسة الالتفات بما جاء في المثل السائر . فذكر أن الالتفات من أجل علوم البلاغة وهو أمير جنودها وأنه سمي بذلك أخذاً من التفات الإنسان يميناً وشمالاً فتارة يقبل بوجهه وتارة كذا وتارة كذا ، وإن

(١) الطراز ج ٢ ص ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .

(٢) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٤ ، والكشاف ج ٣ ص ١٤ و ١٥ .

هذا حال هذا النوع من علم المعاني ، فالتكلم فيه ينتقل من صيغة إلى صيغة ومن خطاب إلى غيبة ، وقد يقب الالتفات بشجاعة العربية ، والالتفات بخصوص بلغة العرب (١) .

وكل هذا مأخوذ من المثل السائر .

ولم تكن للملوي وقفات في أساليب الالتفات يستوضح فيها أسرارها ورموزها ، وإنما كان يشير إلى موقعه لحسب ، ثم إنه ذكر أقوال العلماء في فائدة الالتفات وناقش ابن الأثير فيما ناقش فيه الزمخشري ، ورد قول ابن الأثير واتهمه بالعجز عن فهم بلاغة الكشاف ونوه بما ذكره الزمخشري في فائدة الالتفات . . . يقول في هذا :

القول الثالث محكي عن الزمخشري ، وحاصل مقالته هو أن ورود الالتفات في الكلام إنما يكون إيقاظاً للسامع عن الغفلة وتطريباً له بنقله من خطاب إلى خطاب آخر فإن السامع ربما يمل من أسلوب فينتقله إلى أسلوب آخر تنشيطاً له في الاستماع واستمالة له في الإصغاء إلى ما يقوله ، وما ذكره الزمخشري لاخبار على وجهه ، وهو قول شديد يشير إلى مقاصد البلاغة ويمتضد بتصرف أهل الخطاب ، ومن مارس طرفاً من علوم الفصاحة لاح له على القرب أن ما قاله الزمخشري قوى من جهة النظر ، يدرى كنهه النظر ويتقاعده عن فهمه الاغمار ، وقد زعم ابن الأثير رداً للكلام الزمخشري بوجهين أحدهما أنه قال إنما جاز الالتفات من أجل التنشيط للسامع ، واهترضه بأن الكلام لو كان فصيحاً لم يكن ملولاً ، وهذا خطأ وجعل بمقاصد البلاغة ، فإن مثل هذا لا يزال فصاحة الكلام ولا ينقص من بلاغته ، ولهذا فإنه لو ترك فيه الالتفات فإنه باق على الفصاحة ، واسكن الفرض أن خروجه من أسلوب الخطاب إلى الغيبة يزيد في البلاغة ويمسئها ، ويكون الخطاب على ما ذكرناه أوقع وأكشف عن المراد وأرفع ، وثانيهما قوله أن ما قاله الزمخشري إنما يوجد في الكلام المطول والالتفات كما يستعمل في الطويل يستعمل في القصير ، وهذا قاسد أيضاً ، فإن الزمخشري لم يشترط التطويل في حسن الالتفات فينتقض بما

(١) ينظر الطراز ج ٣ ص ١٣١ ، ١٣٢ والمثل السائر ج ٢ ص ١٧٠ ، ١٧١

ذكره، وإنما أراد تحصيل الإيقاظ وازدياد النشاط بذكر الالتفات، وهذا حاصل في الكلام سواء كان طويلاً أو قصيراً فإذن لا وجه لابن الأثير على ما قصدته الزمخشري واتجاهه، ومن العجب أنه شنع فيما أورده على الزمخشري وقال: كيف ذهب عن معرفته مع إحاطته بفن البلاغة والفصاحة، وما درى أن ما قاله خير مما أتى به ابن الأثير فإن ما أراده الزمخشري معنى يليق بالبلاغة ويزيدها قوة وما ذكره ابن الأثير رد إلى حماية وقول ليس له حاصل ولا يدرك له نهاية وما عابه إلا لأنه لم يطالع على أغواره ولا أحاط بكنهه ودقيق أسرارها، ولقد صدق من قال:

وكم من هائب قولاً صحيحاً وآفة من الفهم السقيم^(١)

وقد ذكرت أن العلوي لم تكن له وقفات عند صور الالتفات يستوضح فيها أسرارها وإنما كان همه أن يبين موقع الالتفات في الكلام، وذلك مثل قوله في قوله تعالى: وإياك نعبد، فأما الرجوع من الغيبة إلى الخطاب فكقوله تعالى: والحمد لله رب العالمين، ثم قال بعد ذلك: وإياك نعبد وإياك نستعين، لأن ما تقدم من قوله والحمد لله، إنما هو للغائب، ولو أراد الخطاب لقال: الحمد لك لأنك أنت رب العالمين، وبهذه الطريقة يتكلم في صور الالتفات وأنصى ما يقوله في فائدته أن ذلك كان للإيقاظ والتنشيط كما ذكرنا.

وكانت تحليلات الزمخشري التي نقلها ابن الأثير تروق العلوي فيذكرها في تحليل بعض صور الالتفات، من ذلك قوله في الالتفات من الفعل الماضي إلى الفعل المضارع في قوله تعالى: والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور، يقول العلوي فوسط قوله فتثير سحاباً وجاء به على جهة المضارع والاستقبال بين فعاين ماضيين، وهما قوله أرسل وسقناه، والسر في مثل هذا هو أن الفعل المستقبل يوضح الحال ويستحضر تلك الصورة حتى كأن الإنسان يشاهدها وليس كذلك الفعل الماضي إذا عطف لأنه لا يعطى هذا المعنى، ولا يدل عليه، فإذا قال فتثير على جهة الاستقبال بعد ماضى

(١) الطراز ج ٢ ص ١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ .

قوله أرسل فإنما يسكون دالا على حكاية الحال التي تقع فيها إثارة الريح للسحاب واستحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة، وكذلك تفعل فيما هذا حاله فإنك تقرره على هذا الضابط وهكذا ورد قوله تعالى إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله، وإنما جاء به على صيغة المضارع وعدل عن عطف الماضي على الماضي تنبيها على أن كفرهم ثابت مستمر غير متجدد بخلاف الصد فإنه متجدد على عر الأوقات وتكرر الساعات، فلماذا جاء به على صيغة المضارع منها على ذلك ومن هذا النوع قوله تعالى و ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة، ولم يقل فأصبحت عطفًا على أنزل إشارة إلى إنزال الماء قد انقضى ومضى، واخضرار الأرض متجدد كما تقول، أنعم على فلان فأروح وأغدو شاكرًا له، ولو قلت فغدوت شاكرًا له لم يفد تلك الفائدة (١).

وهذا مأخوذ من المثل السائر وقد أشرت إلى أصله في الكشاف (٢).

التكرير :

يشير العلوي إلى أن الطاعنين في بلاغة القرآن قد ذكروا التكرير معلماً من مطابقتهم وزعموا أن هذا غير قانون البلاغة، وأشار العلوي إلى أن هذا القوم لا يكون إلا من ضاقت حوصلته وأن التكرير في كتاب الله لا يكون إلا لفائدة، ثم يشير العلوي إلى هذه الفائدة.

يقول : ونحن الآن نعلو ذروة لا ينال حضيضها في بيان معاني الألفاظ المكررة في لفظها ومعناها في كتاب الله تعالى وتظهر أنها مع التكرير أن تكريرها إنما كان لبيان جزلة ومقاصد سنية بمعونة الله تعالى، فمن ذلك قوله تعالى في سورة الرحمن : و فبأي آلاء ربكنا تكذبان، فهذا تكرير من جهة اللفظ والمعنى ووجه ذلك أن الله تعالى إنما أوردها في خطاب الثقيلين الجن والإنس فكل نعمة يذكرها أو ما يؤول إلى النعمة فإنه يردفها بقوله : و فبأي آلاء ربكنا تكذبان، تقريراً للكلام

(١) الطراز ج ٢ ص ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٣٩

(٢) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩ والكشاف ج ٣

ص ٤٧٤ ، ١١٩ ، ١٤٢

(٣) الكشاف ج ٣ ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ١٨٩

وإعظاما لحالها ، ومن ذلك في سورة القمر قوله : « ولقد يسرنا القرآن للذكر
فهل من مدكر ، فكيف كان هذا ، ونذر ، إنما كرره لما يحصل فيه من إيقاظ
النفوس بذكر قصص الأولين والأتعاظ بها أصحابهم من المثلاث وحل بهم من
أنواع العقوبات ، فيكون بمنزلة فرع العصا لتلا تستولى عليهم التفتة ويغلب عليهم
الذهول والنسيان ، وهكذا ما ورد في سورة المرسلات وغيرها (١) .

وهذا الدفاع عن البلاغة القرآنية رأيناه في الكشاف وفي المثل السائر (٢) .

وقد قلت في دراسة أثر الكشاف في المثل السائر إن ابن الأثير خالف الزمخشري
بعض المخالفة حين اعتبر صوراً من التعبير — اختلاف فيها الغرض واتحد فيها
المعنى واللفظ — من التكرار ، وأن الزمخشري كان يقطاً في إدراك الفروق بين
هذه الصور التي اختلفت أغراضها ، وأنه لم يعتبر هذه الصور من التكرار ، ويرى
هنا العلوي يتابع ابن الأثير في وجهته وإن كان يضيف إلى الفروق التي ذكرها
ابن الأثير في الصور إضافات ليست ذات قيمة كبيرة .

يقول فيما ورد مكرراً مرتين :

فأما ما كان تكريره مرتين فهو غير خال عن فائدة ظاهرة وهذا كقوله تعالى :
« ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ، ثم قال بعد ذلك ، ليحق الحق ويبطل الباطل ،
فماذا وإن تكرر لفظة ومعناه فلا يخلو عن حال لأجله وقع التباين وذلك من
وجهين ، أما أولاً فلأن الأول وارد على جهة الإلشاء ، والثاني وارد على جهة
الحبر ، وأما ثانياً فلأن الأول وارد في الإرادة والثاني وارد في الفعل نفسه ، ولأن
الأول الغرض به إظهار أمر الدين بنصرة الرسول بقتل من نأواه ولهذا قال بعده
ويقطع دابر الكافرين ، والغرض بالثاني التمييز بين ما يدعو الرسول إليه من
التوحيد وإخلاص العبادة لله وبين أمر الشرك وعبادة الأصنام ، ولهذا قال بعده
ولو كره المجرمون (٣)

(١) الطراز ج ٢ ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

(٢) ينظر المثل السائر ج ٣ ص ١٩ ، ٢٠ والكشاف ج ٤ ص ٣٤٩ .

(٣) الطراز ج ٢ ص ١٧٩ ، ١٨٠ .

وأصل هذا في المثل السائر وإن كان العلوي قد أضاف إليه شيئاً لحظه في التباين بين الصورتين إلا أنه لا يدخل في صميم المعنى لأن الفرقى الذي ذكره الزمخشري وأخذه عنه ابن الأثير هو أن الأول للتمييز بين الإرادتين والثاني بيان لغرضه فيما فعل ولهذا كان المعنيان متغايرين عند الزمخشري ، ولم يكن من التكرير (١) .

الفصل والوصل :

عرض العلوي في دراسة الفصل والوصل لعطف المفردات وذكر أن عطف بعض الصفات على بعض كأنه عطف الثوب على نفسه ، وجزاز مع القلة ، لأن الصفة تدل على شيئين على الذات وعلى الحدث فالصفات متفقات بحسب الذوات مختلفات بحسب الأحداث ، فإذا قلت مررت بزيد الكريم الفاضل فالصفتان أعني الكرم والفضل متفقتان في الدلالة على زيد ، ومختلفتان في دلالة واحدة على الكرم والأخرى على الفضل ، فإذا اعتبرت ما بينهما من الاتفاق امتنع العطف وإذا اعتبرت ما بينهما من الاختلاف جاز العطف وهو قليل ، وصفات المولى سبحانه منزلة منزلة الأسماء المترادفة لذلك كان العطف فيها مخالفة لهذه القاعدة .

وبعد تقديم هذا الأصل ينظر العلوي في آيات من القرآن الكريم جاءت شاهداً ودليلاً لهذه القاعدة ، وينظر في آيات أخرى ورد فيها العطف ، وسيمتد عليه أن يذكر وجه العطف وسره ، وهو في هذا يفيد من الكشاف ومن كتاب التبيان للشيخ عبد الكريم الزملي .

يقول : وأما جى . قوله وقابل التوب ، بالواو مع كونها من صفات الأفعال لأمرين أما أولاً فلأن المرجع بالمنفرة إلى الساب لأن معنى الغافر هو الذي لا يفعل العقوبة مع الاستحقاق ، والمرجع بقبول التوبة إلى الإنبات لأن معناه أنه يقبل العذر والندم ، فلما كانا متناقضين بما ذكرناه وجب ورود الواو فصلاً بينهما كما ذكرناه في الأول والآخر ، وأما ثانياً فلأنهما وإن كانا من صفات الأفعال ، لكنه جمع بينهما بالواو لسر لطيف وهو إفادة الجمع للمذنب القائب

(١) ينظر المثل السائر ج ٣ ص ٥ والكشاف ج ٢ ص ١٥٦

بين رحمتين : بين أن تقبل توبته فيكتبها له طاعة من الطاعات ، وأن يجعلها محاسبة للذنوب ، كأنه لم يذنب ، كأنه قال جامع المغفرة والقبول (١) .

وهذا السر اللطيف الذي ذكره والذي هو أقرب إلى الروح البلاغية من حديث السلب والإيجاب والتناقض المذكور في الوجه الأول . هذا السر هو الذي أخذه من الكشف يقول الزمخشري فإن قلت ما بال الواو في قوله وقابل التوب ؟ قلت فيها نكتة جليلة وهي إفادة الجمع للمذنب التائب بين رحمتين أن تقبل توبته فيكتبها له طاعة وأن يجعلها محاسبة للذنوب كأنه لم يذنب كأنه قال جامع المغفرة والقبول (٢) .

ويقول في عطف الشيبات على الأبخار في قوله تعالى : ه نيبات وأبخاراء بخلاف ما ذكر من الصفات ، وذلك لأجل تناقض البكارة والثبوبة في . بالمعطف لرفع التناقض بخلاف الإسلام ، والإيمان ، والقنوت ، والتوبة ، وغيرها من الصفات (٣) .

وقد قال الزمخشري فإن قلت لم أخليت الصفات كلها عن العاطف ووسط بين الشيبات والأبخار ؟ قلت لأنهما صفتان متناقضتان لا يجتمعن فيهما اجتماعاً من في سائر الصفات فلم يكن بد من الواو (٤) .

وعطف الصفات المذكور في كتاب التبيان كما ذكره العلوي ، وسر عطف البكارة على الثبوبة مذكور كذلك في التبيان كما ذكره العلوي ، وكذلك سر عطف وقابل التوب ، وعبارة العلوي في بيان سر العطف في وقابل التوب أقرب إلى عبارة الزمخشري مما يجعلنا نرجح أنه أخذها من الكشف مباشرة ، وابن الزمخشري قد عبر عن هذا السر بقوله ولتزيلهما منزلة الجملتين فنبه العباد على أنه يفعل هذا ويفعل هذا ليرجوه ويأملوه (٥) .

(١) الطراز ج ٢ ص ٧٦

(٢) الكشف ج ٤ ص ١١٦

(٣) الطراز ج ٢ ص ٣٥

(٤) الكشف ج ٤ ص ٤٥٤ ، ٤٥٥

(٥) التبيان (تمت) الدكتور أحمد مطلوب (١٩٧٩) ص ١٣٩

وبعد ما يذكر العلوي شرط صحة العطف أى ضرورة وجود علاقة بين المتحدث عنه فى الجملتين كقولك زيد قائم وعمرو خارج، وأنه لا يجوز أن يكون اجنبياً عنه فلا يصح أن تقول زيد قائم، وأحسن ما قيل من الشعر كذا، يذكر إشارة بغير فيها إلى توهم خفاء الملاءمة فى قوله تعالى : « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، وأنه قد يقال أى ارتباط بين أحكام الأهلة وبين حكم إتيان البيوت من ظهورها؟ ويذكر لذلك أجوبة ثلاثة: أحدها أنه لما ذكر أنها مواقيت للحج وكان من عادتهم ذلك كما نقل فى الحديث أن ناساً كانوا إذا أحرموا لم يدخل أحدهم بيتاً ولا خيمة ولا خباء من باب، بل إن كان من أهل المدر نقب نقباً من ظاهر البيت يدخل منه، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخيمة أو الخباء فقيل لهم ليس البر تخرجكم من دخول البيت ولكن البر من اتقى محارم الله . وثانيها: أن يكون معطوفاً على شيء محذوف كأنه قيل لهم عند سؤالهم : معلوم أن كل ما يفعله الله تعالى فيه حكمة عظيمة ومصلحة ظاهرة فى الأهلة وغيرها فدعوا هذا السؤال وانظروا فى خصلة تفعلونها أنتم مما ليس من البر فى ورد ولا صدر وهو إتيان البيوت من ظهورها فليست برأ، ولكن البر هو تقوى الله والتجنب لمحارمه ومناهيه . وثالثها : أن يكون وارد أهل جهة التمثيل لما هم عليه من تعكيس الأمثلة ولما هم بصدده من التمتع وإن مثالم فى سؤالاتهم المتعمنة كمثل من ترك باب الدار ودخل من ظهر البيت فقيل لهم ليس البر ما أنتم عليه ولكن البر هو تقوى الله ومنه قوله عليه السلام حين سئل عن التوضؤ بماء البحر فقال (هو الظهور ماؤه الحل ميتته) (١) .

وقد قال الزمخشري فى هذه الآية :

كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا داراً ولا قسطنطياً من باب فإذا كان من أهل المدر نقب نقباً فى ظهر بيته منه يدخل ويخرج ، أو يتخلسلاً يصعد فيه ، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخباء فقيل لهم ليس البر بتخرجكم من دخول الباب ولكن البر من اتقى ما حرم الله ،

فإن قلت ما وجه اتصاله بما قبله ؟ قلت كأنه قيل لهم عند سؤالهم عن الأهل وعن الحكمة في نقصانها ونقصانها : معلوم أن كل ما يفعل الله عز وجل لا يكون إلا حكمة بالغة ومصلحة أعياه فدعوا السؤال عنه وانظروا في واحدة تفعلونها أتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونها برأ وبجسوز أن يجرى ذلك على طريق الاستطراد لما ذكر أنها مواقيت للجمع لأنه كان من أفعالهم في الحج ، ويحتمل أن يكون هذا لتعكيهم في سؤالهم ، وأن مثلهم فيه كمثل من يترك باب البيت ويدخله من ظهره ، والمعنى ليس البر وما ينبغي أن تكونوا عليه بأن تعكسوا في مسائلكم ولكن البر من اتقى ذلك وتجنبه ولم يجسر على مثله (١).

وأرجح أن العلوي أفاد هذا من كتاب التبيان الذي أفاده من الكشاف وذلك لأن العلوي ذكر هذه الآية منفردة وترجم لها بقوله : « إشارة ، وقد ذكر الزمخشري هذه الآية منفردة وترجم لها بقوله : « وهم وتثبيته ، ولأن حديث ماء البحر مذكور في التبيان مع هذه الآية وليس مذكوراً معها في كتاب الكشاف .

وقد ذكر باب الفصل والوصل في العلوم المعنوية ، أضنى علم المعاني ، وذكر قوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى آخر الآيات مثلاً لعطف المفرد لأنه نظر في هذا إلى الجرور ، وإن كان قد اعتدوا من هذا وأشار إلى أن الإليق به أن يكون في عطف الجمل لأن الجرور متعلق بما بعده . والمهم أن الملاممة التي ذكرها في هذه الآيات شرح يدور حول ما ذكره الزمخشري فيها ، يقول في هذا :

فقط بعض هذه المفردات على بعض ولا بد هناك من رعاية الملاممة المناسبة في تقديم بعضها على بعض لئلا يخلو التنزيل عن أسرار معنوية ودقائق خفية يتفطن لها أهل البراعة ويقصر عن إدراكها من لا حظوة له في معرفة هذه الصناعة ، فلا بد من أن يكون لتقديم المعطوف عليه على المعطوف وجه يسوغه ، وإلا كان لغواً . . . فأما تقديم الإبل فإنما كان ذلك من أجل أن الخطاب للعرب من أهل

البلاغة، فمن أجل ذلك كان الاستعلاء على حسب ما يافونه، وذلك أن العرب أكثر تعويلهم في معظم تصرفاتهم على المواشى في المطاعم، والملابس، والمشارب، والمراكب، وأهمها نفعا هي الإبل، لأن أكثر المنافع هذه لا تصلح إلا فيها على العموم مع ما اختلفت به من الخلق العظيم والإحكام المصيب، فمن أجل ذلك صدرها بالنظر فيها، ثم إنه أردفها بذكر النظر في خلق السموات، ووجه الملازمة بينهما هو أن قوام هذه الأنعام ومادة المواشى إنما هو بالرعى وأكل الخلا، وكان ذلك لا يكون إلا بنزول المطر من السماء . . . وهكذا أخذ العلوي يبين أهمية هذه الأشياء في حياة العربي وارتباط بعضها ببعض (١).

وقد أشار الزمخشري إلى كل هذه المعاني بقوله:

فإن قلت كيف حسن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض ولا مناسبة؟
قلت قد انتظم هذه الأشياء نظر العرب في أوديتهم وبواديهم فانتظمها الذكر على حسب ما ينظمها نظرم (٢).

التقديم والتأخير:

أشرت في بيان أثر الكشف في المثل السائر إلى أن ابن الأثير فاته أن يدرك مذهب الزمخشري في تقديم المفعول، حيث توهم أنه لا يكون عند الزمخشري إلا للاختصاص وأن ابن الأثير خالفه كما خالف أكثر البيهقيين حين جعل تقديم المفعول لأمرين أحدهما الاختصاص والثاني مراعاة المشاكلة اللفظية.

وقد أشرت إلى أن الزمخشري لا يقول بلزوم التقديم للاختصاص دائماً، وإنما يرى ذلك غالباً لا لازماً.

وقد تابع العلوي ابن الأثير في هذا الفهم، فتوهم هو الآخر أن الزمخشري قائل بلزوم التقديم للاختصاص وذكر رأى ابن الأثير ثم اختار رأياً وسطاً، وهو أنه لا منافاة بين الاختصاص ومراعاة المشاكلة اللفظية، فالقديم قد يفيد أحدهما وقد يفيدهما معاً.

(١) الطراز ج ٣ ص ٣١١، ٣١٢

(٢) الكشف ج ٤ ص ٥٩٤

وهذا راجع إلى أن العلوي لم يكن متعمنا في كتاب الكشاف وإنما كانه يقوم
آراء الزمخشري من الكتب التي أشارت إليها ، ولذلك نجد أكثر ما أخذه من
الكشاف لم يكن أخذاً مباشراً من هذا الكتاب وإنما كان لإفادة من كتب تأخرت
ببحث الكشاف ، والذي يهمني ذكره هنا أن العلوي أفاد بعض التحليلات في
باب التقديم بما ذكره ابن الأثير في كتابه وهو ما أخذ من الكشاف ، وقد أشرت
إلى ذلك في موضعه ، يقول العلوي ، ومن هذا — يعني تقديم الخبر على المبتدأ —
ووظفوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله ، فإنما قدم قوله مانعتهم حصونهم من
الله وهو خبر المبتدأ في أحد وجهيه ليدل بذلك على فرط اعتقادهم لحصانتها
ومبالغة في شدة وثوقهم بمنعها لإيها ، وأنهم لا يباليون معها بأحد ولا يتال فيهم نيل
وفي تقدير (م) اسما ، وإسناد المنع والحصون إليهم ، دلالة بالغة على تقريرهم
في أنفسهم أنهم في هزة ومنعة لا ترمى حوزتهم ولا يغزون في عقر دارهم (١) .

وهذا مذكور في المثل السائر وأصله في الكشاف (٢) .

وإنما رجحت أن العلوي أفاد هذا من المثل السائر ولم يأخذه من الكشاف
لأنه ذكر مع هذه الآية قوله تعالى ، فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا ، وقوله
عليه السلام وقد سئل عن ماء البحر فقال: (هو الطهور ماؤه الحل ميتته) ، ولم يذكر
الزمخشري شيئاً في آية فإذا هي ، كما لم يذكر الحديث الشريف في هذا الموضع
وكل هذا مذكور في المثل السائر كما هو مذكور في الطراز .

ويقول العلوي: اعلم أن الهيئين إذا كان كل واحد منهما مختصاً بصفة تقتضي
تقديمه على الآخر فانت بالخيار في تقديم أيهما شئت وهذا كقوله تعالى ، ثم أوردتنا
الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق
بالخيرات ، فإنما قدم الظالم لنفسه لاجل الإيذان بكثرتهم وأن معظم الخلق على
ظلم نفسه ، ثم نثنى بعدم المقتصدين لأنهم قليل بالإضافة إلى الظالمين ، ثم تلك
بالسابقين وهم أقل من المقتصدين فلا جرم ، قدم الأكثر ثم بعده الأوسط ثم

(١) الطراز ج ٢ ص ٦٥ .

(٢) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ٢٤٩ ، ٢٥٢ ، والكشاف ج ١ ص ٢٩٥ .
(٣) — البلاغة القرآنية (٢٩٤) .

ذكر الأقل آخرًا لما أشرنا إليه ، ولو عكست هذه القضية فقدم السابق أشرفه على الكل ثم ثنى بالمقصد لأنه أشرف من ظم نفسه لم يكن فيه إخلال بالمعنى فلا جرم روعي في ذلك تقديم الأفضل فالأفضل ، وما ينسحب ذيله على ما قررناه من الضابط قوله تعالى : وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنحيي به بلدة ميتا ونسقيه مما خلقنا أنعاما وأناس كثيرا ، فقدم حياة الأرض لأنها سبب في حياة الخلق ، فلجل هذا قدمت لاختصاصها بهذه الفضيلة ، ثم قدم حياة الأنعام على حياة الناس لما فيها من المعاش للخلق والقوام لأحوالهم ، فراعى في التقديم ما ذكرناه ، ولو قدم سقى الخلق على سقى الأنعام لاختصاصهم بالشرب ، وقدم سقى الأنعام على الأرض لكان له وجه ، لأن الحيوان أشرف من غيره ، فكل واحد منهما مختص بفضيلة يجوز تقديمه لأجلها فلجل هذا ساغ فيه الأمران كما ترى ، وما نورد من ذلك قوله تعالى : والله خالق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ، ومنهم من يمشى على رجلين ، ومنهم من يمشى على أربع ، وإنما قدم الماشي على بطنه لأنه أدل على باهر القدرة وعجيب الصنعة من غيره ، وثنى بمن يمشى منهم على رجلين لأنه أدخل في الاقتدار بمن يمشى على أربع لأجل كثرة آلات المشي ، فيكون التقديم على هذا من باب تقديم الأعجب في القدرة فالأعجب ، ولو عكس الأمر في هذا فقدم الماشي على الأربع ثم ثنى بالماشي على رجلين ثم ختمه بالماشي على بطنه لكان له وجه في الحسن وعلى هذا يكون تقديمه من باب الأفضل فالأفضل (١) .

وهذا ماخوذ من المثل السائر : وقد نظر ابن الأثير إلى ما ذكره الزمخشري في هذه الآيات وأخذ تحليله لها وبيان سر التقديم فيها وأضاف إلى كلام الزمخشري : أنه إذا كان الشيطان كل واحد منهما مختصاً بصفة فأنت بالخيار في تقديم أيهما شئت في الذكر . وذكر هذه الآيات مثالا لهذا النوع ، وهذا ما ذكره العلوي .

وأفهم من هذا الكلام أننا لو قلنا وأنزلنا من السماء ماء طهورا لنسقيه مما خلقنا أناسا كثيرا وأنعاما ولنحيي به بلدة وميتا وقلنا ثم أنزلنا الكتاب الذين

اصطافينا من عبادنا فمنهم سابق بالخيرات ومنهم مقتصد ومنهم ظالم لنفسه ، وثالثا :
 والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على أربع ومنهم من يمشى على رجلين
 ومنهم من يمشى على بطنه لم تنقص بلاغة الآيات ، ولما كان لها وجه من الحسن
 ما دام التقديم والتأخير سواء ، ولا شك أن هذا رأى أقل ونظر قاصر ، وذلك
 لأنه تجهل لمقتضيات الاحوال ومتطلبات المقامات ، فإذا كان الشيطان كل واحد
 منهما مختصا بصفة فإننا لسنا بالخيار كما قال ابن الأثير وتبعه العلوي وإنما علينا
 أن تقدم الشيء المختص بصفة يقتضى المقام تقديمها على غيرها . فلما كان المراد —
 والله أعلم بمراده — بيان حال من أوردتهم الله الكتاب وأن أكثرهم على ظلم
 نفسه وقليل منهم المقتصد وأقل منه من سبق بالخيرات ناسب هذا أن يقدم
 الأكثر لأنه الأعمون على المراد ولأن فيه مبادرة بالعتاب على تفريط المؤمنين
 فى حق أنفسهم ، فأكثرهم ظالم لنفسه ، ولما كان المراد بقوله تعالى : وأنزلنا من
 السماء ماء — بيان دقة صنع الحكيم سبحانه وإحكام ما فى هذا الكون على
 نظام دقيق ومرتيب عجيب جاء بهذا الترتيب المؤذن بترتب الأسباب وبيان
 ما عليه أمر الناس ومعاشهم فى هذه الأرض الميتة التى أحياها الله بالماء فأحيا
 فيها أنامها فكانت حياة الناس وكان متقلبهم ، ولما كان المراد بقوله تعالى : والله
 خلق كل دابة ، إظهار آثار قدرة الله سبحانه كان الأنسب ذكر الأعمى ،
 فقدم من يمشى على بطنه ثم من يمشى على رجلين إلى آخره .

لهذا لم تكن مراعاة الصفات الأخرى مسيطرة لقانون البلاغة ، وليس فيها
 شيء من الحسن كما يقول العلوي وابن الأثير .

ويفيد العلوي مما كتبه ابن الأثير متأثراً بالكشاف فى تقديم الطرف فى
 النقى ، ويذكر ما ذكره الزمخشري فى الآيتين المشهورتين ، لاقبها غول ،
 ولا ريب فيه .

يقول العلوي ، أما إذا كان وارداً فى النقى فقد يرد مقدماً ، وقد يرد مؤخراً ،
 فإذا ورد مؤخراً أفاد النقى مطلقاً من غير تفصيل وهذا كقوله تعالى لا ريب فيه
 فإنه قصد أنه لا يلصق به الريب ولا يفالطه لأن النقى التصق بالريب نفسه فلا حرم
 كان متفياً من أصله بخلاف ما لو قدم الطرف فإنه يفيد أنه مخالف لغيره ومن

الكتب ، فإنه ليس فيه ريب بل في غيره كما لو قلت : لا هيب في هذا السيف فإنه
نفي الهيب عنه على جهة الإطلاق بخلاف ما لو قلت هذا السيف لاقية عيب ، ولهذا
أخره هنا وقدمه في قوله تعالى : « لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون » لأن القصد
هنا تفضيلاً على غيرها من خمور الدنيا ، والمعنى أنه ليس فيها ما في غيرها من
القول وهو الخمار الذي يصدع الرؤوس ، أو يريد أنها لا تغتالهم بإذهاب عقولهم
كما في خمور الدنيا (١) .

وهذا مفاد من المثل السائر وأصله في الكشاف (٢) .

معاني الحروف :

ويتأثر العلوي بابن الأثير في معاني الحروف ويذكر التحليل الفلذ الذي
أشار إليه الرمخشري في قوله تعالى « وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال
مبين » وفي قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء » . . . يقول العلوي :

فانظر إلى يراعة هذا المعنى المقصود ، وجزالة هذا الانتظام بمخالفة موقعي
هذين الحرفين فإنه إنما خواف بينهما في التلبس بالحق والباطل ، والدخول فيهما ،
وذلك من جهة أن صاحب الحق كأنه لمزيد قوة أمره وظهور حجته ، وفرط
استظهاره راكب لجواد بصرفه كيف شاء ، ويركضه حيث أراد ، فلأجل هذا
جمل ما يختص به معدي بحرف على الدال على الاستعلاء بخلاف صاحب الباطل
فإنه لفشله وضعف حاله كأنه يتغمس في ظلام وموضع سافل لا يدري أين يتوجه ،
ولا كيف يفعل ، فهذا كان الفعل المتعلق بصاحبه معدي بحرف الوعاء إشارة إلى
ما ذكرناه ، ويؤيد هذا ما ذكره الله تعالى في سورة يوسف حيث قال « تالله إنك
لنبي ضلالك القديم » .

ثم يقول في الآية الثانية : فهذه أصناف ثمانية جمل الله الصدقات مصروفة
فيهم لكونهم أهلها ومستحقين لأصرفها ، لكن الله تعالى خص المصارف الأربعة
الأول باللام دلالة على الملك والأهلية للاستحقاق وهدل عن اللام إلى حرف

(١) الطراز ج ٢ ص ٧٢

(٢) المثل السائر ج ٢ ص ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، والكشاف ج ١ ص ٢٧

الوعاء في الأصناف الأربعة الأخر وماذاك إلا للابتنان بأن اقتدمهم أخرج في الاستحقاق للصدقة وأعظم حاجة في الافتقار من حيث كانت دقة دالة على الوفاء ، فنبه على أنهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات كما يوضع الشيء في الوعاء ، وإن جعلوا مظنة لها وذلك لما في فك الرقاب وفي الغرم من الخلاص عن الرق والدين اللذين يشتملان على النقص وشغل القلب بالعبودية ، والغرم ، ثم تكرير الحرف في قوله وفي سبيل الله قرينة مرجحة له على الرقاب والغارمين وكان سياق الكلام يقتضى أن يقال وفي الرقاب والغارمين وسبيل الله وابن السبيل ، فلما جرى في مرة ثانية ، وفصل بها سبيل الله ، علم أن السبيل أكد في الاستحقاق بالصرف فيه من أجل عمومته وشيوعه لجميع القربات الشرعية والمصالح الدنيوية (١) .

الإبهام والتفسير :

ويأخذ العلوى من المثل السائر الفصل الخاص بالإبهام والتفسير وتكاد لا تجد شيئاً يمكن أن ينسب إلى العلوى في هذا الفصل .

يقول العلوى ، اعلم أن المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مهما فإنه يفيد بلاغة ، ويكسبه إعجاباً ونخامة ، وذلك لأنه إذا فرغ السمع على جهة الإبهام فإنه السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب ، ومصداق هذه المقالة ، قوله تعالى «وقضينا إليه ذلك الأمر» ثم فسره بقوله «أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين» ... ففي إبهامه أول وهلة ثم تفسيره بعد ذلك تفخيم للأمر وتعظيم لشأنه ، فإنه لو قال وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع . . . لم يكن فيه من النخامة وارتفاع مكانه في الفصاحة مثل ما لو أبهمه قبل ذلك ، ويؤيد ما ذكرناه هو أن الإبهام أولاً يوقع السامع في حيرة وتفكير واستمظام لما فرغ سمعه فلا تزال نفسه تززع إليه وتشتاق إلى معرفته والاطلاع على كنه حقيقته ، ألا ترى أنك إذا قلت هل أدلك على أكرم الناس أباً وأفضلهم فعلاً وحسباً وأعضام عزيرة وأقدم وأباً ثم تقول فلان فإن هذا وأمثاله يكون أدخل في مدحته فقالوا قلت فلان الأكرم الأفضل الأنبل ، وماذاك إلا لاجل إبهامه أولاً وتفسيره ثانياً وكل ذلك يؤكد

(١) الطراز ج ٢ ص ٤٣ ، ٤٤ ، ٥٥ ، وينظر المثل السائر ج ١ ص ٤٤٠ ، ٤٤١ ،

في نفسك عظم البلاغة في الكلام إذا أبهم أولاهم فسر ثانياً (١) .
ويذكر في هذا الفصل قوله تعالى وإن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ، ويقول
فيها : يريد بذلك الطريقة أو الحالة أو الخصلة إلى غير ذلك من المحتملات المتعددة ،
وأى شيء من هذه الأمور قدرته فإنك لا تجد له من البلاغة وإن بالغت في
الإفصاح به الذي تجده من مذاق الفصاحة مع الإبهام من جهة أن الوهم يذهب
مع كل مذهب لما فيه من المحتملات الكثيرة (٢) .

وقوله تعالى وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد يا قوم إنما
هذه الحياة الدنيا متاع ، إلى قوله وبغير حساب ، ويقول فيه ألا ترى أنه أبهم الرشاد
كيف حاله ثم أوضحه بعد ذلك بأن افتح كلامه بدم الدنيا وتحقير شأنها وتعظيم
حال الآخرة والاطلاع على كنه حقيقتها ، ثم ذكر الأعمال حسنها وسيئها وهاجبة
كل شيء منها ليرغب في كل حسنة ويتردد عن كل سيئة ، فكأنه قال سبيل الرشاد
ما اشتمل عليه هذا الشرح العظيم (٣) .

وهذا مأخوذ من المثل السائر كما قلت وأصله في الكشاف (٤) .

ثم إن العلوي في هذا الفصل قد يأخذ من الكشاف أخذاً مباشراً حين يذكر
تجليلات البعث في المثل السائر وذلك كقوله :

وما يجري هل هذا الأسلوب قوله تعالى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا ،
كأنه قال ألق هذا الأمر الهائل الذي في يمينك فإنه يبطل ما أتوا به من سحرهم
العظيم وإفكهم الكبير ، وكما يرد على جهة التعظيم كما أشرنا إليه فقد يكون وارداً
على جهة التحقير كأنه قال وألق العويد الصغير الذي في يمينك فإنه يبطل على حقارته
وصغره ما أتوا به من الكذب الخنثاق والزور المأفوك تهكما بهم وازدراء بمقولهم
وتسفيهاً لأحلامهم (٥) .

(١) الطراز ج ٢ ص ٧٨ ، ٧٩

(٢) الطراز ٧٩

(٣) الطراز ج ٢ ص ٨٦

(٤) ينظر المثل السائر ج ٧ ص ٢٠٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، والكشاف ج ٢ ص ٤٥٥ ،

ج ٢ ص ٤٣١ وج ٢ ص ٥٠٨ وما بعدها .

(٥) الطراز ج ٢ ص ٨١

وهذا مأخوذ من قول الزمخشري في هذه الآية .

وقوله ماني يمينك ولم يقل عصاك جائز أن يكون تصغيراً لها أي لا تبال بكثرة
جبالهم وعصيهم وألق العريد الفرد الصغير الجرم الذي في يمينك فإنه بقدره الله
يتلقفها على وحدته وكثرتها وصغره وعظمتها ، وجائز أن يكون تعظيماً لها أي
لا تحتفل بهذه الاجرام الكبيرة الكشيرة فإن في يمينك شيئاً أعظم منها كلها
وهذه على كثرتها أقل شأنًا وانذره عنده فألقه يتلقفها بإذن الله ويعقبها (١) .

توكيد الضمائر :

ويتأثر العلوي في توكيد الضمائر بابن الاثير ويضيف إليه أن التوكيد لا يكون
حتمًا واجباً في الكلام ، وإنما هو بين الجواز والترجيح ، ولعله فهم هذا من قول
ابن الاثير في جماع أمر التوكيد : إن المعنى إذا كان ثابتاً في النفوس فأنت بالخيار
في التوكيد وعدمه ، وإذا كان المعنى مشكوكاً فيه أو منكرًا فالأولى التوكيد ،
ولما جعل ابن الاثير توكيد الكلام الذي من شأنه أن ينكر من باب الأولى فهم
العلوي أن هذا غير الوجوب لأنه تاقى كلام ابن الاثير بمقابلة الفقيه وسمى أن
الاستحسان في علم البلاغة كالوجوب في علوم الشريعة ، ثم ذكر العلوي في توكيد
المتصل بمثله قوله تعالى وقال ألم أقل لك إن تستطيع معي صبراً من غير تأكيد ثم
قال في آية القتل الثانية وقال ألم أقل لك إن تستطيع معي صبراً ، بالتأكيد ،
والفرقة بين الأمرين هو أنه أكد الضمير في الثانية دون الأولى لأن المخالفة في
الثانية أعظم جرماً وأدخل في التصنيف لأجل الإصرار على المخالفة ، فلذا ورد
العتاب مؤكداً بعد الخلاف لما ذكرناه (٢) .

وقد أشرت في دراسة المثل السائر إلى أن هذا ليس من تأكيد المتصل بالمتصل
كما ذكر ابن الاثير ، وإنما هو من ذكر المتعلق وحذفه ، وقد تنبه إلى هذا ابن
أبي الحديد ، وقد ذكره العلوي مثلاً لتوكيد المتصل بالمتصل بعد ما مثل له

(١) الكشاف ج ٣ ص ٥٨

(٢) الطراز ج ٢ ص ١٤٦

بقوله إنك إنك لعالم ، والفرق بين الآية والمثال ظاهر ، وكان عليه أن يتنبه إلى هذا (١).

ثم ذكر العلوي في توكيد المتصل بالمتفصل قوله تعالى وفأوحس في نفسه خيفة موسى قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى ، وذكر فيها كلام ابن الأثير ، وقد أشرنا إلى أنه مأخوذ من الكشاف (٢).

الإيجاز والإطناب :

لم يذكر العلوي الإيجاز مع الإطناب كما يفعل أكثر البلاغيين ومنهم ابن الأثير ، وإنما درس الإيجاز في الباب الثاني الذي ذكر فيه الدلائل الإفرادية وبيان حقايقها . ثم درس الإطناب في الباب الثالث الذي ذكر فيه مراعاة أحوال التأليف وبيان ظهور المعاني المركبة ، وقد أقاد في كل فن من هذين الفنين بما ذكره صاحب المثل السائر فائدة كبيرة ، ويعينني أن أشير إلى ما يرجع أصله إلى كتاب الكشاف ما دمت معنياً ببيان أثره في الدراسة البلاغية .

ففي حذف الجملة يذكر العلوي منها حذف الأسئلة المقدرة ، ثم يشير إلى أن هذا يلقب علوم البيان بالاستئناف ، وأنه يأتي على وجهين أحدهما بإعادة الصفات المتقدمة كما في قوله تعالى « هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب » إلى قوله « أولئك هم المفلحون » ، ويذكر فيها ما ذكره ابن الأثير متأزراً بما في الكشاف .

ثم يذكر الوجه الثاني أي الذي لا يكون الاستئناف فيه بإعادة الصفات ، ويمثل له بقوله تعالى « وما لي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون » ، إلى قوله « فاسمعون » ، ويذكر كذلك ما ذكره ابن الأثير متأزراً بالكشاف ، ثم يشير إلى أن حذف الأمثلة المقدرة له أمثلة كثيرة ، ولكنه يكتب في هذين (٣).

(١) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ١٩٣ والكشاف ج ٢ ص ٥٢٤

(٢) ينظر الطراز ج ٢ ص ١٤٢ والمثل السائر ج ٢ ص ١٩٤ ، ١٩٥ والكشاف ج ٣ ص ٥٨

(٣) ينظر الطراز ج ٢ ص ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ والمثل السائر ج ٢ ص ٢٨١ ، ٢٨٢

والكشاف ج ١ ص ٣٤ ، ج ٢ ص ٨

والضرب الثاني من ضروب حذف الجمل ، الحذف من جهة السبب سواء كان المحذوف مسبباً والمذكور مسبباً كقوله تعالى : « وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين ولكننا أنشأنا قروننا فتناول عليهم العمر ، أو كان المحذوف سبباً والمذكور مسبباً كقوله تعالى : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ، وكقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم ، .

ثم يذكر في هذه الآيات ما ذكره ابن الأثير متأثراً بالكشاف (١) .

ويذكر في حذف المفعول قوله تعالى : « ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ، وقوله تعالى : « ولو شاء الله لذهب بسبعهم ، ، ويذكر فيما ذكره ابن الأثير متأثراً بالزمخشري وإن كان الزمخشري قد تأثر هو الآخر بما ذكره المهرجاني ، وقد أشرت إلى هذا (٢) .

ويذكر الإيجاز بالتقرير ، وهو الذي تكون ألفاظه مساوية لمعانيه لا يزيد أحدهما على الآخر ، بحيث لو قدر نقص من لفظه لتطرق الحرم إلى معناه على قدر ذلك النقصان .

وواضح أن جمهور البلاغيين لا يجعلون هذا من الإيجاز ، وإنما هو قسم برأسه ، وهو المعروف عندهم بالمساواة .

ثم يذكر العلوي من أمثله قوله تعالى : « قتل الإنسان ما أكره من أي شيء خافه من نطفة خلقه فقدره ، . ثم يقول في تحليله ، فقوله قتل الإنسان أبلغ دعاء على الإنسان لما فيه من إذهاب الروح بسرعة وجأفة ، وهو أعظم في الفجعة ، وقوله ما أكره تعجب من شدة الإفراط في كفره لنعم الله ، فلا يكاد يفرح السمع أسلوب أغلظ من هذا الدعاء والتعجب ولا أبلغ في الملامة ولا أنطع للمقدرة ولا أعظم دلالة على السخط مع تقارب أطرافه وقصر مئته (٣) .

(١) ينظر الطراز ج ٢ من ٩٥ ، ٩٦ والمثل السائر ج ٢ من ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ والكشاف ج ٣ من ٣٢٩ ، ج ٢ من ٤٩٤ ، ج ١ من ٤٧٣

(٢) ينظر الطراز ج ٢ من ٩٠٤ ، ٩٠٥ والمثل السائر ج ٢ من ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧

٣٠٥ ، والكشاف ج ٣ من ٣١٥

(٣) الطراز ج ٢ من ٩٢٠

وهذا مأخوذ من المثل السائر ، وقد أخذته ابن الأثير من الكشاف (١) ،
وأحسب أن فيه تصحيحاً والصواب الإيجاز بالتقدير كما هو مذكور في المثل ،
ورجعت التقدير على التقرير لأن كلمة التقدير أقرب إلى مفهوم هذا النوع من
الإيجاز حيث يكون اللفظ مقدرأ على قدر المعنى ، ولأنه أشار إليها في التعريف
بقوله بحيث لو قدر نقص من لفظه لتتعلق الحزم إلى معناه على قدر ذلك
التقصان .

ويذكر الإطناب الذي يقع في الجملة الواحدة ويبين أنه قد يكون وارداً على
جهة الحقيقة ، وقد يكون وارداً على جهة المجاز ، ومثال الوارد على جهة الحقيقة
قولنا وأيته بعيني وقبضته بيدي ووطنته بقدمي ، وذقته بلساني ، ومنه قوله تعالى :
« ذلكم قولكم بأفواهكم » وقوله تعالى « إذ تقولون بألسنتكم وتقولون بأفواهكم »
وهذه الطريقة تأتي في كل شيء يعظم مثاله ويعز الوصول إليه ، وأنه يؤتى بذكر
هذه الأدوات على جهة الإطناب دلالة على نيته وأن حصوله غير متعذر . وقد
جاءت هذه الآيات على هذا الأسلوب لأنها رد وإنكار لما كان من المخالفين في شأن
الإفك ولما كان من بعضهم في جعل الزوجات أمهات ، وفي جعل الأوصياء أبناء ، وهذه
أمور عظام ، فأعظم الله فيها الرد والإنكار ويذكر من ذلك قوله تعالى « ما جعل
الله لرجل من قلبين في جوفه » ومعلوم أن القلب لا يكون إلا في الجوف ، والغرض
المباينة في الإنكار بأن يكون للإنسان قلبان ، ومنه قوله تعالى : « فخر عليهم السقف
من فوقهم » وهذه الآيات مذكورة بتعليقها الذي ذكره ابن الأثير في كتاب المثل
السائر ، وقد أشرت إلى أن ابن الأثير أفادها من الكشاف وإن كان الزمخشري
يلحظ في بعض هذه القيود ملحظاً آخر دقيقاً زائداً على ما ذكره ، فقد ذكر أن
المراد بقوله تعالى « وتقولون بأفواهكم » أن هذا القول لا يتجاوز الأفواه وليس
ترجمة عما في القلوب وشاهد هذا المعنى قوله تعالى : « يقولون بأفواههم ما ليس في
قلوبهم » وكان بيانه لقيمة القيد في قوله تعالى : « فخر عليهم السقف من فوقهم »
وفي قوله تعالى : « ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » أوضح وأجمل (٢) .

(١) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ٣٣٣ ، ٣٣٤ والكشاف ج ٤ ص ٥٦١ ، ٥٦٢ .

(٢) ينظر الطراز ج ٢ ص ٢٣٥ ، ٢٣٦ والمثل السائر ج ٢ ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ .

والكشاف ج ٣ ص ٤١٢ ، ٤١٣ .

ومثال ما جاء من الإطناب في الجملة على جهة المجاز قوله تعالى : فإنها لا تعمى الأبصار ولكنهما تعمى القلوب التي في الصدور . يقول العالوي فيها فالقائفة بذكر الصدور ههنا وإن كانت القلوب حاصلة في الصدور على جهة الإطناب بذكر المجاز وبيانه هو أنه لما علم وتحقق أن العمى على جهة الحقيقة إنما يكون في البصر وهو أن تصاب الحدقة بما يذهب نورها ويزيله ، واستعماله في القلوب إنما يكون على جهة التجوز وبالتشبيه فلما أريد ما هو على خلاف المتعارف من نسبة العمى إلى القلوب ونفيه عن الأبصار لا جرم احتاج الأمر فيه إلى زيادة تصوير وتعريف ليتقرر أن مكان العمى هو القلوب لا الأبصار (١) . وليس في هذا تغيير كبير عما ذكره ابن الأثير وأخذه من الكشاف (٢) .

السكناية والتعريض :

والعالوي معنى بتحرير الحدود وسلامتها وهو وافقها لقواعد المنطق والشروط في الماهيات ولذلك كان كثير من جهده مبذولاً في مناقشة التعاريف وبيان أوجه الفساد فيها كما قلنا ، وهو يخالف الزمخشري في هذا المنوع ، فقد كان الزمخشري مقسماً في بعض حدوده إذ إنه لم يكن معنياً بتقرير قواعد العلم كما كان معنياً بإيراد بلاغة القرآن المعجزة وتوضيح ما تنطوي عليه العبارة القرآنية من أسرار وخصائص بلغت فيها حداً معجزاً .

وعما يذكر في هذا المجال أن الزمخشري وإن كان معنياً ببيان حاسن العبارة فقد كانت منه لفتات في القواعد والأصول كانت مناراً للدارسين من بعده ، من ذلك التفريق كما قلت بين السكناية والتعريض ، وجعل التعريض مدلولاً عليه بالسياق وقرائن الأحوال ، وليس داخل في دلالة الألفاظ الحقيقية والمجازية ، وشرطه في السكناية إمكان المعنى الحقيقي ، وكان هذا التحديد البين طريقاً واضحاً سار فيه كثير من البلاغيين من بينهم ابن الأثير والعالوي وبعض من رجال مدرسة المفتاح .

(١) الطراز ج ٢ ص ٢٢٧

(٢) ينظر المثل السائر ج ٢ ص ٢٦٤ والكشاف ، ج ٢ ص ١٢٥ .

والذي أراه أن ابن الأثير قصد بتعريفه ما عبر عنه العلوي في تعريفه الذي اختاره وهو قوله : التعريض هو المعنى الحاصل عند اللفظ لا به ولم ينظر ابن الأثير إلى اصطلاح الأصوليين وتقسيمهم المفهوم إلى مفهوم مرافقة ومفهوم مخالفة واعتبارهما من مدلولات الألفاظ (١) .

ثم إن ما ذكره العلوي من النصوص الواردة على هذه الطريقة وتحليلاتها مذكور في المثل السائر وفي الكشف . من هذا قوله تعالى في قصة إبراهيم عليه السلام : أنت فعات هذا بأهتنا يا إبراهيم قال بل فعله كبيرم هذا فأسالوم إن كانوا ينطقون . .

يقول العلوي ، وإنما أورد إبراهيم صلوات الله عليه هذا الكلام على جهة التهمك والاستمراء والسخرية بقولهم ، وذلك يكون من وجهين : أحدهما أنه لم يرد نسبة الفعل إلى كبير الأصنام وإنما قصد تقريره لنفسه وإثباته لها على وجه خفي ومسلك تعريض يبلغ به إلزام الحجة لهم والتسفيه لحلومهم ، كأنه قال يا ضعفاء العقول ويا جهال البرية كيف تعبدون ما لا يجيب إن حئل ، ولا ينطق إن كلم وتجعلونه شريكاً لمن له الخلق والأمر ، فوضع قوله فأسالوم إن كانوا ينطقون موضع هذا (٢) .

ثم يقول ومن ذلك قوله تعالى : فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثاناً وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين ، فهذه الآيات كلها موضعها في قصد تم واقتحام موضع التعريض بأنهم أحق بالنبوة وأن نوحاً لم يكن متميزاً عليهم بحالة يجب لاجلها أن يكون نبياً من بينهم فقالوا لو أراد الله أن يجعل النبوة في أحد من البشر لكانوا أحق بها دونه والتعريض في القرآن وارد كثيراً بأحوال الكفرة في التهم والنقص وإسقاط الميزة وحط القدر ، وموضعها دقيقة تستخرج بالفسر الصافي والرسوخ في قدم البلاغة (٣) .

(١) ينظر الطراز ج ١ ص ٣٨٠ و ٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣

(٢) الطراز ج ١ ص ٣٨٦ ، ٣٨٧

(٣) الطراز ج ١ ص ٣٨٧ ، ٣٨٨

واعمل في العبارة الأخيرة تصحيحاً والأصل ورسوخ القدم في البلاغة ، وهذه التحليلات ترجع إلى المثل السائر وقد أخذها ابن الأثير من الكشاف (١) .

التخييل :

وقد ذكر العلوي التخييل في دراسة البديع وهو في ذلك متأثر بالزمكاني صاحب التبيان . وقد أشار إلى أهمية هذا الفن وضرورة دراسته لأن كثيراً من آيات القرآن واردة على طريقته ، وقد جهل بعض الناس هذه الطريقة فوقعوا في التشبيه وهاموا في أودية الضلال .

يقول العلوي :

أهم أن هذا النوع من البديع من مرامي سهام البلاغة المسددة وعقد من عقود آلياته وجمانه المبددة كثير التداور في كتاب الله تعالى والسنة الشريفة لما فيه من الدقة والرموز واستيلائه على إثارة المعادن والكنوز ومن أجل ذلك ضل من ضل من الجبرية بسبب آيات الهدى والضلال وعمل من أجله على الإسلاخ عن الحكمة والإسلاخ ، وزل من زل من المشبهة باعتقاد التشبيه وزال عن اعتقاد التوحيد باعتقاد ظاهر الأعضاء والجوارح في الآي فارتطم في بحر التويه فهو أحق علوم البلاغة بالإتقان وأولها بالفحص عن لطائفه والإيمان . . . ومن ثم قال الشيخ التحرير محمود بن عمر الزعزعي نور الله حفرته ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أظف عن هذا الباب ولا أنفع لي عوناً على تعاطي المشتبهات من كلام الله تعالى وكلام الأنبياء ، ولعمري لقد قال حقا ونطق صدقاً (٢) .

وقد ذكر فيه تقريرين ، التقرير الأول في بيان معناه ، والتقرير الثاني في بيان أمثله ، وذكر تعريف الشيخ عبد الكريم ، ثم تعريف المطرزي ، ثم قال ، والتعريف الثالث أن يقال هو اللفظ الدال بظاهره على معنى والمراد غيره على جهة التصوير ، ثم شرح التعريف ، وذكر في التقرير الثاني أمثلة التخييل .

والذي يعني هو أن أقف عند فهمه لكلام البيانيين في أمثلة التخييل لتعرف

(١) ينظر المثل السائر ج ٣ ص ٧٢ ، والكشاف ج ٣ ص ٩٨ ، ج ٢ ص ٢٠٤

(٢) الطراز ج ٣ ص ٢ ، ٣

مدى قربه أو بعده من كلام الريحشري ، وقد أشار في بيان قيسة التخيل إلى ما ذكره الريحشري فيه إشارة رضا وقبول .

قال العلوي : فن أمثلة التنزيل قوله تعالى « بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء » وقوله تعالى « تجري بأعيننا » وقوله تعالى « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام » وقوله تعالى « خلقت بيدي » وقوله تعالى « وتصنع علي هين » وقوله تعالى « ونفخت فيه من روحي » وقوله تعالى « فرطت في جنب الله » إلى غير ذلك من الآيات الموهمة بظواهرها للأعضاء والجوارح . ثم يذكر العلوي تأويل المتكلمين لهذه الآيات وتأويل البلاغيين .

أما المتكلمون فإنهم يؤولون هذه الظواهر تأويلات وإن بعدت حدراً من مخالفة العقل وبعضدون تأويلاتهم بأمر لغوية فيذهبون إلى أن المراد باليد النعمة ، وأن المراد بالعين العلم .. إلى غير ذلك ، والعلوي لا يرضى بهذه التأويلات ويسم المتكلمين بالجهل بعلوم البيان ، فجاءت تأويلاتهم وكيفية يزودها علماء البلاغة .

ويقول في تأويل علماء البلاغة « المجري الثاني وهو الذي عول عليه علماء البلاغة والمحققون من أهل البيان وهي أنها جارية على نعت التخيل فهي في الحقيقة دالة على ما وضعت له في الأصل ، لكن معناها غير متحقق ، وإنما هو أمر خيالي ، فاليد مثلا دالة على الجارحة والعين كذلك ، لكن تحقق اليد والعين في حق الله تعالى غير معقول ، ولكنه جار على جهة التخيل ، كمن يظن شبحاً من بعيد أنه رجل فإذا هو حجر ومن يشخيل سواداً أنه حيوان فإذا هو شجر ، إلى غير ذلك من الخيالات .

وقد وضع هذا مرة ثانية بقوله في التفرقة بين تأويل المتكلمين وتأويل البيانيين فأما علماء البيان فإنهم وضعوها على معانيها اللغوية في كونها دالة على هذه الجوارح ، لكنهم قالوا إن الجارحة خيالية غير متحققة ، وذلك بخلاف المتكلمين الذين حلوها على تأويلات بعيدة واغترفوا بعدها حدراً من مخالفة الأدلة العقلية .

وأفهم من هذا أن البيهقيين يقولون إن اليد دالة على يد خيالية، وأن الوجه دال على وجه خيالي، وإن العين دالة على عين خيالية، وإن الإنسان يتخيل هذه الجوارح كما يتخيل الشبح البعيد إنساناً فإذا هو حجر .

وإذا كان البيهقيون قد اطلقوا هذه الكلمات على معانيها اللغوية إلا أنهم قالوا إن الجارحة هنا خيالية غير متحركة فيكيف يكون اللفظ هنا دالاً بظاهره على معنى والمراد غيره على جهة التصوير كما ذكر في التمرين ؟ وهل يكون إطلاق لفظ الرجل على رجل متخيل غير حقيقى إطلاقاً له على غير معناه ؟ ولو سلمنا له بهذا فهل يمكن أن يكون ذلك مراد البيهقيين بالتخييل ؟

وعليتنا أن نذكر الآن ما قاله الزمخشري في التخييل في الموضع الذي أفاد منه العلوي ما ذكره في فائدته، وأن نتبين كيف كان علماء البيان يفهمون هذه الصور التي جاءت على طريقة التخييل .

يقول في قوله تعالى : « والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة » والغرض من هذا الكلام إذا أخذناه كما هو بعلمته وبمجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنهه جلالة لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو جهة مجاز، وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى رسول الله ﷺ فقال يا أبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على أصبع والأرضين على أصبع ، والجبال على أصبع ، والشجر على أصبع ، وسائر الخلق على أصبع ، ثم يوزن فيقول أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً بما قال ثم قرأ تصديقاً له ، وما قدروا الله حق قدره ، وإنما ضحك أفصح العرب صلى الله عليه وسلم وتعجب ، لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ولا أصبع ولا هز ولا شيء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة التي هي البلالة على القدرة الباهرة ، وأن الأفعال العظام التي تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتننها الأوهام هيئة عليه هو إنما لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا بإجراء العبارة في مثل هذه الطريقة من التخييل ، ولا ترى باباً في علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب ولا أنفع وأهون على تعاطي تأويل المشبهات من كلام الله تعالى في القرآن ، وسائر الكتب السامية ، وكلام

الأنبياء ، فإن أكثره وعليته تمثيلات قد ذك فيها الأقدام فيها (١) .
والزحشرى قد يكون أول من أدخل دراسة التخييل بهذا الوضوح ، في
البلاغة القرآنية وكان ابن المنير يشور على إطلاق عبارة التخييل على هذه الصور في
القرآن الكريم ، ويرى أن ذلك لا يرضى أهل السنة والجماعة ، وقد نوه العلوى
بأهمية التخييل في دراسة القرآن ، وكلامه فيه قريب من كلام الزحشرى ، فهو
متأثر به في ذلك وإن كان لا يفهم مراده .

وعلماء البيان كما يقول الزحشرى يقع فهمهم أول شيء وآخره على الزبدة
والمخالصة من هذه الأساليب ، من غير تصور إمساك ، ولا أصبع ، ولا هوأى
لأنهم لا يقولون إن هناك إمساكا خيالياً ، أو أصبعاً خيالياً ، أو هوأى خيالياً ، ولا
يذهبون بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقة أو مجاز ، فليست هناك قبضة حقيقية
ولا قبضة خيالية وإنما المراد تصوير عظمته والتوقيف على كنهه جلاله ، فليس
الذى ذكره العلوى في تفسير مراد علماء البيان بالتخييل هو ما نفهمه من
كلام الزحشرى .

وقد ذكر الشهاب الخفاجى في حاشيته كما قدمنا أن التخييل يطلق في البلاغة
على ثلاثة معان ، الأول التخييل بالأمور المفروضة ، والثاني فرض المعانى وتخييلها ،
والثالث قرينة الاستعارة الممكنية ، وليس شيء منها منطبقاً على ما ذكره العلوى
عن علماء البيان وإنما هو أشبه ما يكون برأى السكاكى في قرينة الممكنية حيث
يطابق لفظ الأظفار على أظفار متوهمة للمنية ، ولفظ اليد على يد متوهمة للفعل ،
إلى آخر ما هو معروف ويبعد أن يكون هذا مراد العلوى .

الإلهاب والتبهيح :

ويذكر العلوى من أصناف البديع الإلهاب والتبهيح ، ويذكر معانها القوي
ثم يذكر مفهومها في مصطلح علماء البلاغة ، ويقول فيه : فهما مقولان على كل
كلام ذاك على الحث على الفعل لمن لا يتصور منه تركه ، وعلى ترك الفعل لمن

لا يتصور منه قوله ، ولكن يكون صدور الأمر والنهي عن هذه حاله على جهة الإلطاب والتمهيد على الفعل أو الكف لا غير ، فالأمر مثاله قوله تعالى « فاعبد الله مخلصاً له الدين ، وقوله تعالى « فأقم وجهك للدين القيم ، وقوله تعالى « فاستقم كما أمرت ، والمعالم من حاله عليه السلام أنه حاصل على هذه الأمور كلها من عبادة الله تعالى . وإقامة وجهه للدين والاستقامة على الدعاء إليه لا يفتر عن ذلك ولا يتصور منه خلافها ، لأن خلافها معصوم منه الأنبياء فلا يمكن تصويره من جهتهم ، ولكن ورودها على هذه الأوامر إنما كان على جهة الحث على هذه الأوامر وأمثالها ، وكذلك ورد في المناهي كقوله تعالى « فلا تكونن من الجاهلين ، وقوله تعالى « لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين ، وحاشاه أن يكون جاهلاً ، أو أن يفعل أفعال السفهاء ، والجاهل ، وأن يخطئ بعبادته الشرك بالله وهو أول من دعا إلى عبادته وحث عليها ، وهكذا القول فيما كان وارداً في الأوامر والنواهي له عليه السلام ، فإنما كان على جهة الإلطاب على فعل الأوامر والانسكاف عن المناهي والتمهيد لداهيته وحثاً له على ذلك ، فالأمر في حقه على تحصيل الفعل والكف عن المناهي فيما كان يعلم وجوده عليه ، ويتحقق الانسكاف عنه ، إنما هو على جهة التأكيد والحث بالتمهيد والإلطاب (١) .

وقد أشرت في دراسة الأمر والنهي في بحث الجملة إلى الإلطاب والتمهيد وقد أكثر الزمخشري الحديث عن هذه المعاني وقد ذكر هذه الآيات ، ولذلك ترى أن هذا النوع من البديع في كلام العلوي مستنبط من الكشاف ، وليس له فيه إلا أنه جعله صنفاً مستقلاً ، وجمع فيه هذه الشواهد ، وهي متشورة في الكشاف .

وقد خفي على بعض الدارسين تأثر العلوي بالبحث البلاغي في الكشاف ، فلذكروا هذه التحليلات البلاغية المأخوذة من الكشاف شاهداً ودليلاً على أن العلوي أديب ، متذوق ، قادر على أن يضع يدك على مواضع الحسن وينبهك إلى جنيات الجمال في التعبير .

يقول الأستاذ الدكتور بدرى طبانة بعد ما قرر اهتمام العلوي بالمسائل العقلية

والغفوية وعنايته بالضبط ومعرفة الماهية يقول : وفي كثير من الأحيان نجد في الطراز كتابة أديب متذوق يضع يدك على مواضع الحسن وينبهك إلى جهات الجمال والسكال في التعبير ومن غير حاجة إلى حدود ، أو مصطلحات ، ومن غير لجوء إلى منطق أو استدلال ، وهاك نموذجا مما كتبه في الإبهام والتفسير : أظن أن المعنى المقصود إذا ورد في الكلام مبهما فإنه يفيد بلاغة ويكسبه إعجابا وفخامة ، وذلك لأنه إذا فرغ السمع على جهة الإبهام فإن السامع له يذهب في إبهامه كل مذهب ومصداق هذه المقالة قوله تعالى ، وقضينا إليه ذلك الأمر ، ثم فسره بقوله وأن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ، وهكذا في قوله تعالى ، إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ، فأبهمه أولا ثم فسره بقوله ، بعوضة فافوقها ، ، فنق إبهامه في أول وهلة ثم تفسره بعد ذلك تفضيحا للأمر وتَعْظِيم لشأه فإنه لو قال وقضينا إليه أن دابر هؤلاء مقطوع وإن الله لا يستحي أن يضرب مثلا بعوضة ، لم يكن فيه من للفخامة وارتفاع مكانه في الفصاحة مثل ما لو أبهمه قبل ذلك ، ويؤيد ما ذكرناه هو أن الإبهام أولا يوقع السامع في حيرة وتفكير واستعظام لما فرغ سمعه فلا يزال نفسه تنزع إليه وتشتاق إلى معرفته والاطلاع على كنه حقيقته ، ألا ترى أنك إذا قلت هل أدلك على أكرم الناس أبا ، وأفضلهم فعلا ، وحسبا ، وأضام عزيمة ، وأنفدم رأيا ، ثم تقول فلان ، فإن هذا وأمثاله يكون أدخل في مدحته بما لو قلت فلان الأكرم الأفضل الأبل وما ذاك إلا لاجل إبهامه أولا وتفسيره تاليا وكل ذلك يؤكد في نفسك عظم البلاغة في الكلام ، ثم يقول الأستاذ معلقا على هذا الكلام ومثل هذا الأسلوب كما ترى هو الأسلوب الذي يشهد الملائكة وينبه الأذواق إلى البحث واستجلاء بلاغة الكلام التي لا يفتى في تذوقها منطلق أو تحديد أو تقسيم (١) .

وواضح أن هذا الكلام الذي يستشهد به على قدرة العلوي الأدبية ليس من مبتكراته وإنما أخذ من المثل السائر ، وقد أشرت إلى أن أصله يرجع إلى الكشاف ، وأن أكثر الألفاظ والمبارات للعلامة الزمخشري . ولهذا لا يصح أن يكون شاهداً على أن العلوي أديب متذوق .

ثم إنني أرجو بهذا أن أكون قد وفقت في بيان أثر البحث البلاغي في

الكشاف ، في الاتجاهات البلاغية المختلفة ، التي سارت فيها الدراسات البلاغية بعد الزمخشري .

ومن الحق الذي لا مبالغة فيه أن ما أفاده ابن الأثير من الكشاف قد يكون أهم ما جاء في كتابه وأقربه إلى الروح الأدبية المتذوقة ، وكذلك الحال في كتاب الطراز فإن ما يرجع إلى الكشاف منه قد يكون خير ما فيه ، وإذا كان هذا حال هذين الكتابين الهامين مع تحليلات الزمخشري فلا نظن إلا مثل هذا وأزيد بالنسبة لما في المفتاح ومدرسته فإنني أرى الجداذات المقتبسة من الكشاف كأنها قبسات مضيئة في أمهات كتب هذه المدرسة وهي فيها أوضح ، وأجلى ، وهذا في تقديري راجع إلى أمر هام هو أن بلاغة الكشاف بلاغة مرتبطة بالنص فهي تحليل للنصوص ، ونظر في خصائصها ، وليس أجدى في البحث البلاغي من هذا الاتجاه ، وقد اتجهت بعض الدراسات الحديثة إلى ربط الدراسات الأدبية والنقدية المختلفة بالنص الأدبي ودوراته حولها وهرض القضايا والنظريات النقدية من خلال دراسة النص ، فليس هناك درس نظري في أمر من أمور الأدب والنقد . ونأمل أن يكون لنا من تراثنا الخالد رائد صدق في تصحيح منهج دراسات البلاغية التي لا أرى لها صلاحاً إلا بالعودة إلى هذه الروافد الهامة والاهتمام بآثار هذه القرائح الشامخة والربط الوثيق بين الدراسة البلاغية والنص الأدبي ربطاً يقوم على النظرة الحادة والله وحده هو المسئول أن يلهمنا رشدنا وأن يرزقنا الإخلاص الذي به وحده يتهدى المجتهد إلى الحق .

خلاصة البحث

www.alkottob.com

www.alkottob.com

خلاصة البحث

في التمهيد :

أشرت في التعريف بصاحب الكشف إلى تحقيق القول في مصادر ثقافته ، ونفيت أن يكون قد تأمر بالتفسير المنسوب إلى الرماز ، كما أشرت إلى موضوعات كتبه ، ومناهج أكثرها ، وقد بدا لي أنها تسير على مناهج متقاربة ، وأنها تهدف إلى تعليم العربية وإكساب ذوقها ، إما بمحشد الفاظها وتراكيبها ، وإما بدراسة قواعد نحوها ، وإما برواية أخبارها وآدابها ، وإما بتفسير نصوصها .

وأشرت إلى أن كتاب الأساس له طريقة خاصة في بيان مسألة الإيجاز تعتمد على تربية الملكات الأدبية بممارسة الأوضاع التركيبية المستقاة من العرب الأصحاح وبينت أن تفسير الكشف يستمد مادته من الدراسات اللغوية والنحوية في شق البيئات الثقافية ، ويستمد طريقته ومنهجه من بيئة المعتزلة ، وأشرت إلى جهود أهل السنة في مناقشة مسائل الاعتزال وأنهم لم يتركوا من ذلك قولا لقائل .

وفي الدراسة البلاغية قيل الكشف :

بينت أن النظم اختلفت عليه المفاهيم ، أقربها إلى مفهومه الاصطلاحي الذي تقرّر في دراسة عبد القاهر هو ماذهب إليه الخطابي ، وهو عالم سني ، والقاضي عبد الجبار ، وهو قاضي معتزلي ، وهذا سيكون جذور هذا البحث بدأت في بيئة أهل السنة ، ثم انتقلت إلى بيئة المعتزلة ، ثم رجعت إلى الأشعرية ، فوادعا الإمام الجرجاني بسطا وتحليلا ثم عادت إلى بيئة المعتزلة تردّد في تفسير الكشف .

وأشرت إلى أن النظر في المفردات جزء هام في الدراسة البلاغية ، وأن القول فيه قديم من عهد الجاهلية ، وقد كثر الحديث فيه في بيئة المشتغلين بالدراسة القرآنية .

وفي بحث الصياغة أشرت إلى اهتمام النحاة بهذا الدرس وأهم وضعوا أصوله ، ثم استشرى به البلاغيون إلى الألف الف .

وأشرت إلى دراسة التقديم قبل عبد القاهر ، وبينت أن العلامة سيبويه قد وضع أصول هذه الدراسة ، وأشرت إلى تشدد عبد القاهر في رفضه لبعض الصور التي أجازها سيبويه ، وأعدت رأي سيبويه لأنه شافه الأعراب ، ولأنه أقدر الناس على فقه الأساليب .

وبينت في الاستفهام إشارات الفراء ، وسيبويه ، وابن جنى ، وأشرت إلى أهميتها في دراسة عبد القاهر والمتأخرين ، ثم أشرت إلى أن أقرب الدارسين لروح عبد القاهر هو العلامة الأمدى بطريقته التحليلية الفذة .

وفي دراسة الأمر ذكرت إشارات المتقدمين ، كإبي عبيدة وابن قتيبة ، والشريف المرتضى ، وبينت اهتمام الفقهاء بهذه الصيغة لصلتها باستنباط الأحكام الشرعية من النصوص ، وبينت ما ذكره الشجرى المعاصر للزمخشري وكيف جعل استنباط معاني الأمر من وظائف علماء المعاني ، وفي الحذف بينت طريقة المتقدمين وأنها لا تزيد عن بيان المحذوف ، والبلاغيون في ذلك كالنحاة ، ثم أشرت إلى إشارات بعضهم إلى مواقع البلاغية ، وبينت جهود عبد القاهر في هذا الباب .

وفي التكرير أشرت إلى أنه من الفنون التي ازدهرت في ظل الدراسة القرآنية ، وأن التكرير في القرآن كان موضع نقاش بين الطاعنين على بلاغته والمدافعين عنها ، ثم أشرت إلى جهود ابن قتيبة ، والقاضي عبد الجبار ، وأبي بكر بن العلي ، وتفسيراتهم لمواقع في الكتاب العزيز .

وفي الاعتراض بينت ما قاله ابن جنى في فائدته ، ومواقع ، ودلالته النفسية ، وأشرت إلى أن كثيراً من البلاغيين يدخله في الالتفات .

وفي الالتفات أشرت إلى مفاهيمه المختلفة ، وإلى قدم دراسته ، وإلى اتساع مدلوله ، حتى شمل التذييل والاعتراض ، ثم أشرت إلى أوائل دراسته بمفهومه الاصطلاحي .

وفي الفصل والوصل بينت أن دراسة العسكري لا يدخل أكثرها في هذا الباب ، بمفهومه العلمي المحدد ، وأشرت إلى أنها تقرب من اصطلاحات القراء ، وما يذكرونه في الوقف والوصل ، وأشرت إلى تنبيه الأندلسيين إلى بعض صورته ،

ثم حددت دراسة عبد القاهر لهذا الباب ، وأنها تعتمد على دراسة النحاة الذين وضعوا أصوله ، وقد أشار الجرجاني إلى ذلك .

وفي التشبيه حاولت أن أستخلص جهود السابقين وهي كثيرة ، فاعتدت في هذه الخلاصات تلك النتائج الصائبة التي انتهى إليها الأستاذ الخولي في دراسته التاريخية لهذا الفن البياني . ثم عرضت جهد عبد القاهر عرضاً سريعاً ومركزاً .

وفي بحث المجاز ذكرت أنواعه عند عبد مقاهر ، وبيّنت دراسة الأقدمين لصور المجاز المرسل ، وأنهم ميزوها عن الاستعارة ، وأن عبد القاهر قد أنهضهم ، ثم أشرت إلى دراسة صور الاستعارة اللفظية في كتاب نقد الشعر ، وتأويل مشكل القرآن وبيّنت أنها كانت مصدراً هاماً لعبد القاهر في هذا الباب ، ثم بيّنت أن عبد القاهر أشار إلى الاستعارة التصريحية ، بقسميها الأصلية والتبعية وإلى الاستعارة الممكنية ، وإلى قرينتها التخيلية ، ثم قسم الاستعارة التصريحية تقسيماً هاماً ، وزعمت أن السكاكي تأثر به في تحديده للاستعارة التخيلية ، ثم أشرت إلى أن قيمة دراسة الاستعارة عند عبد القاهر تكمن في التحليل الأدبي المتذوق ، وأن هذه الطريقة في أسرار البلاغة ودلائل الإيجاز امتداد لدراسة الأمدى الذي أراه أقرب المتقدمين إلى عبد القاهر .

وفي المجاز الحكيم بيّنت إشارات الأقدمين وأشرت إلى سبق الفراء بدراسة صور أفاد منها الزمخشري ، ولخصت جهد عبد القاهر في هذا الباب ، ثم ناقشت بعض المعاصرين فيما كتبه في دراسة المجاز الحكيم عند عبد القاهر .

وفي الكتابة أشرت إلى دراسة السابقين لما سموه الإرداف والتثنيح ، وبيّنت أن هذا أصل لدراسة عبد القاهر لموضوع الكتابة ، ووضحت الصلة بين تعريف عبد القاهر للكتابة وتعريف قدامة للإرداف ، ثم أشرت إلى أن ابن سنان ذكر الكتابة عن الموصوف ، وأن عبد القاهر ذكر الكتابة عن الصفة ، والكتابة عن النسبة ، ثم أشرت إلى منهج عبد القاهر في دراسة الكتابة ، واعتماده على الموازنة بين صورها ، وتحرير الفروق في ضوء هذه الموازنة ، وأنه خاط الكتابة بالتعريض وقد فرق بينهما بعض سابقيه كابن قتيبة الذي ذكر صوراً للتعريض كانت مادة هامة في كتاب الكشاف .

وفي البديع بينت لماذا لم يختلج عبد القاهر بدراسة هذا الفن ، وأن طبيعة دراسة ألوان البديع لا تحتاج إلى جهد كبير ، لأنها ليست متشابهة تشابك ألوان البيان ، فليس بعضها متولداً عن بعض ، وإيس بعضها قسماً لبعض ، كما لاحظ ذلك في أبواب علم البيان .

ولهذا كانت فنون البديع تبدأ وكأنها كاملة ، وضربت أمثلة لذلك من دراسة المتقدمين لبعض فنونه ، كدراسة القاضي علي بن عبدالعزیز لفن الجناس ، وقارنته بدراسته لفن بياني كالتشبيه ، ووضعت في ضوء المقارنة تمام القول في الجناس بحيث لم يزد أحد على ما ذكره القاضي المرحوم إلا زيادات لا تدخل في صميم البحث ، وقد كان التشبيه في دراسته محتاجاً إلى مزيد من الجهد ، لذلك نهض عبد القاهر لدراسة الفنون التي تحتاج إلى دراسة وسكت عن ما تم منها .

وفي بحث النظم في كتاب الكشف :

بينت موضوع النظم ، ومفهومه ، وماذا يعنى الزمخشري بهذا الاصطلاح ، ثم رأيت يذكّر علم محاسن النظم ، وتجاوب النظم ، وتنافر النظم ، وغير ذلك من الاصطلاحات التي تتبعها تبعاً دقيقاً ، وحاولت أن أربط بينها وبين ما يشهده الزمخشري من الدرس في مجال ذكرها ، فاستخلصت من ذلك مفهوم النظم ، ولحظت أنه يدور حول استخراج الأسرار والنسك ودلالات خصائص الصياغة ، وقد كثرت الشواهد التي سبقتها من كلام الزمخشري لأحدد بها هذا المفهوم ، وفي خلال هذه الدراسة بينت أصولاً هامة اعتبرها الزمخشري من عناصر القوة والجودة في الأسلوب وربطت بينها وبين ما ذهب إليه عبد القاهر ، كما تبعت ذكره لعلى المعاني والبيان ، وما يشهده من الدراسة عند ذكر هذا المصطلح ليتحدد لي مجال كل كما يتصوره الزمخشري ، وبينت أنه يطلق علم المعاني وعلم المعاني على النظر والتأخيرين في مدلولات الأساليب ، وبيان ما تشير إليه طريقة الصياغة من المعاني الدقيقة ، وهذا ما يراد بعلم المعاني وعلم المعاني في اصطلاح المتأخرين ، ثم رأيت يطلق علماء المعاني على طائفة تخصصت في النظر في أجناس المعاني ، كالقول في معاني المديح والهجاء ومعرفة محبتها وسدادها واستقامتها — وهو متأثر في هذا بما ذكره قدامة في نقد الشعر ، واستخلصت أن مفهوم علم المعاني

وعلماء المعاني كما يتصوره الزمخشري أوسع من مفهومه عند المتأخرين من البلاغيين ، وقد صححت ما ذهب إليه بعض الدارسين من أن اصطلاح علم المعاني وعلماء المعاني لم يعرف قبل أبي يعقوب السكاكي .

ولحظت أنه يطلق علم البيان على دراسة فنون الجواز والتشبيه ، ولكنه لا يلتزم بهذا بل يطلقه أحيانا على بعض فنون المعاني ، كالاقتناء وصور التعديم ، وكذلك يطلق المعاني على بعض فنون البيان ، إلا أن التبع المستعمل أدى إلى استخلاص هذه النتائج ، وهي أن إطلاق علم المعاني على مباحثه عند المتأخرين كثير ، وإطلاقه على مباحث البيان قليل ، كما أن إطلاق علم البيان على مباحثه عند المتأخرين كثير وإطلاقه على مباحث علم المعاني قليل .

كما وجدته يطلق الفصاحة مرادفة للبلاغة ، وبهذا تتلاقى عنده مفاهيم الفصاحة والبلاغة ، والنظم ، والمعاني ، والبيان ، مع مراعاة فروق أشرت إليها ، ثم بينت الفرق بين علم النظم ، وعلم الإهراب كما يتصوره الزمخشري ، وأن الفرق واضح في دراسته ولا مجال لقول بأن النظم عنده نحو أو أن علم المعاني فرع من علم الإهراب .

وفي دراسة المفردات :

بينت ما أثاره الزمخشري من لغات فنية عالية في ربط الكلمة بسياقها ، وبيان مقامها مع صاحبها ، كاستعمال الرحمن مع الحسية ، وإيمات المعنى يتقضيه ، كما تنبه إلى إيماءات الكلمة في المواضع المختلفة ، وتلويحات اللفظ القرآني في مواضع التذكير والتهديب . كما تتبع الكلمة في معجم القرآن ، وحدد مدلولها في ضوء هذا التبع . ثم أشرت إلى أنه قد يحطه حس الكلمة القرآنية ، وضربت أمثلة لذلك ، وأشرت إلى ما أثاره من معان أدبية تدور حول هيئة الكلمة كالمعاني التي تفيدها صيغة الأفراد ، وجمع القلة ، وجمع الكثرة ، وقد ذكرت له في هذا كلاما عاليا لا ترقى إليه إلا أذواق الموهوبين ، وكالمعاني الأدبية لصيغة الأفعال ، وخاصة صيغة المضارع التي تنبه إلى مواقعها الساحرة ، وكذلك استعمال الماضي مكان المضارع ، والفوق بين فعل وافتعل ، ودلالات البناء المجهول ،

ومعاني صيغ المشتقات ، كالفرق بين اسم الفاعل واسم المفعول ، وزيادة المعنى
لزيادة المبنى ، وكانت طريقته في توضيح فروق هذه الصيغ هي الموازنة بين
الصور ، ثم الرجوع إلى حكم الحس وما يجده في النفس ، ثم بينت ما يلحقه في
صيغة التأنيث من معنى الرخاوة واللين .

وفي أدوات الربط أشرت إلى ما يلحظه في معاني ثم ، والفاء ، وإشاراته
إلى مواقع الفاء الأدبية التي أفادها من عبد القاهر مع زيادة شرح وإيضاح .

ثم أشرت إلى ما ذكره في قد ، ومواقعها الحسنة ، وتحليله لهذه المواقع تحليلاً
أديباً رائعاً .

وبينت إشاراته إلى مواقع حروف الجر ، وكانت له في تفسيرها لغات عالية
كالقول في الفرق بين هل ، وفي ، وبينت تتبعه للفعل الذي يعدى مرة باللام ،
ومرة بعلى ، واستخرجه دلالة لام الجر في بعض الصور ، وبيانه أن فعل الإيمان
يعدى بالباء ، إذا كان لله سبحانه ، وباللام إذا كان لغيره ، كما أن فعل المغفرة
لا يكون مع الكافرين ، إلا معدى بمن ، وهو في هذا يستقرى أسلوب القرآن
كله ليستخلص هذه النتائج .

وفي التعريف بينت ما ذكره في فائدة التعريف باللام ، وأنه أفاد من الجرجاني
كثيراً وأنه تناقض في بيان دلالة الجمع المحلى باللام ، ودلالة المفرد المحلى باللام ،
وقضيت بهذا التناقض بعد تتبع مستقص ، وعرضت النصوص وبينت ما فيها ،
ثم بينت ما أشار إليه في تعريف الموصول ، وله في هذا كلام طيب ، كما بينت
ما ذكره في اسم الإشارة ، والتعريف بالإضافة .

وفي التنكير أشرت إلى المعاني التي ذكرها للتنكير ، وناقشت رأياً ذهب إلى
أن دلالات التنكير مستفادة من السياق ، وأن الاسم المنكرة لا يدل إلا على الوحدة
والجس ، وبينت وجه الحق كما أراه .

وفي البحث في نظم الجملة :

درست التقديم كما يتصوره الإغصري فقسّمته إلى قسمين لتقديم بين جزئي
الجملة ، وتقديم في المتعلقات ، وبينت أن الإغصري القائل إنما يقال مقدم وهو غير

للمزال لا للقار يدرس تقديم القار كما يدرس تقديم المزال ، فهو يبحث سر تقديم
المبتدأ على الخبر ، وبينت أنه قد أحسن حين خالف هذه القاعدة التي وضعها لأن
البلاغة تبحث عن أسرار أوضاع الكلمات في مواضعها ، سواء منها ما وافق
الأصل ، وما خالفه ، وانتهيت إلى أنه قائل بدلالة التقديم على التخصيص غالباً ،
لا لازماً ، كما توهم بعض الدارسين ، وناقشت أباحيان حين رفض دلالة التقديم
على الاختصاص ، وادعى التسوية بين قولنا ليس في الدار رجل وليس رجل في
الدار ، كما أنصفت الزمخشري من العلامة السبكي حين شهر به لقوله بدلالة التقديم
على التقوية في قوله تعالى : وما هم بخارجين من النار ، وزعم أن الزمخشري أكثر
الناس قولاً بالاختصاص في مثل هذا ، وإنما عدل عنه هنا لكيلا يلزم عليه خروج
أصحاب الكبائر ، وبينت أن الزمخشري قائل بالتقوية في مثل هذا بما ليس له صلة
بالاعتزال ، وفي تقديم المتعلقات ذكرت تقديم المتعلقات على العامل ، وتقديم
بعض المتعلقات على بعض ، وبينت دلالة تقديم المفعول على العامل على الاختصاص ،
وأن هذه الدلالة ليست لازمة ، وبينت مقارناته بين تراكيب تقدم فيها المفعول
على عامله مرة ، وتأخر عنه أخرى ، ودفعت اعتراض أبي حيان في دلالة تقديم
المفعول على الاختصاص ، واستشهاده على ذلك بكلام سيديويه وبينت أنه لم
يوفق في فهم مراد سيديويه ، ثم ذكرت الأصول التي جرى عليها درسه في بيان
تقديم بعض المفعولات على بعض ، ولخصتها في مراعاة أحوال النفس وبناء
الكلام على وفقها سواء كان أمراً أو نهياً ، وفي مراعاة الأفضلية كتقديم محمد عليه
السلام في بعض المواضع ، وفي أهمية المقدم بالنسبة للغرض المسوق له الكلام ،
كتقديم الموت على الحياة في آية تبارك ، وفي تقديم الأدخل في الوصف المسوق
له الكلام كتقديم اليهود على النصارى ، وفي تقديم الأغرب في الوصف كتقديم
الجبال على الطير في التسخير والتسبيح ، وفي مراعاة ما ينبغي أن يكون عليه حال
المؤمن في مقام الضراعة والتوسل كتقديم الدعاء بالمغفرة على الدعاء بتثبيت
الأقدام في مواقف الحروب ، ثم ناقشته في قوله أن التقديم لا يكون لفائدة
في كل حال .

وفي الاستفهام بينت دراسته التقديم في الاستفهام ، وحققت القول في بقائه

دلالة التقديم على الاختصاص في صور الاستفهام ، وإن كان الغرض من التقديم فيه هو بيان المستول منه ، أو المقرر به ، أو المنكر ، إلى آخره والمعاني التي تفيدها أداة الاستفهام وما ذكره في علاقة الجواب بالسؤال . وعرضت لوجهة ذهب إليها سعد الدين في التقديم في الاستفهام حين ناقش دخول الاستفهام الإنكاري على الجملة التي تقدم فيها المفعول على الفاعل فصارت ذات خصوصية معينة ، وبين أن الإنكار يتجه إلى هذه الخصوصية ، وعليه يكون النفي في قوله تعالى وأخبر الله فأمروني أهدى ، متجهاً إلى الاختصاص أي نفي أن يختص فهو الله بالعبادة وعليه فليست عبادة غير الله مع الله منكراً ، مادام هذا القيد غير مختص بها ، وأشارت إلى أن هذا التعمق المنطقي لا يراعى في صياغة الكلام ولا يخطر ببال متكلم . ثم أشرت إلى ما ذكره الزمخشري من إفادة الاستفهام عدة معان في الصورة الواحدة ، ولهذا كان من الصعب القول فيه بالمجاز ، لأن اللفظ في المجاز ينقل إلى معنى واحد ، وقد رأيت المتأخرين يضطربون في تحديد نوع هذه الدلالة .

وأشرت إلى أن معاني الاستفهام في كتاب الكشاف لا تقف عند المشهور في كتب البلاغيين ، وإنما تتجاوزها إلى معان غير مشهورة ، كأن يقصد من الاستفهام لفت المستول إلى المستول منه ليتبينه أشد التبين تمهيداً لما يحدثه فيه من أمر عظيم ، أو أن يكون الجواب نفسه هو المقصود من السؤال .

وفي دراسة مطابقة الجواب للسؤال بينت أن كلام الزمخشري فيه يقرب من قولهم في أسلوب الحكيم وليس هو ، لأن العدول فيه ليس مقصوداً على بيان الام كما هو في أسلوب الحكيم ، فقد ينظر المجيب إلى أحد أغراض السؤال ويهيب عنها ، وقد ينظر إلى ما يفيدده السؤال من المعاني غير الأصلية فيجعل الجواب مطابقاً له ، وقد يعدل عن الجواب المباشر لإفادة أنه في ثبوته وتقرره أمر واضح لا شبهة فيه ، وأن السؤال عنه لا وجه له .

وفي دراسة الأمر بينت المعاني الأدبية التي ذكرها الزمخشري لهذه الصيغة ووضعت دلالة صيغة الأمر على الخبر ، ودلالته على نهاية السخط ، ودلالته كذلك على نهاية الرضا والقبول ، كقوله: أسىء بنا أو أحسنى . ثم قد يحى الأمر في صورة الخبر وفيه دلالة على المبالغة ، وقد يحى الخبر في صورة الأمر ليظهر

إلى كيفية وقوع الحدث ، كقوله تعالى ، ككن فيكون . . ثم بينت ما ذكره من خصائص في صيغة الأمر ، وضرورة أن يقع بعضها ما يوجبها ويحث عليها .

وفي النهي أشرت إلى دلالة صيغة النهي على شدة الرغبة في وقوع الفعل على صفة معينة كقوله ، لا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، ودلالة النهي على الرغبة في الاستمرار على الحال التي عليها المخاطب كنهى النبي عليه السلام عما هو منكف عنه ، وقد يعتمد البليغ إلى إعمال النهي في صورة معينة من صور الفعل المنهى عنه والمراد النهي عنه في حالاته كلها ، وذلك لأن هذه الصورة أقبح صورته واستجابة النفس إلى الامتناع والكف عن هذه الصورة أسرع ، كقوله تعالى ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ، وقد يتوجه النهي إلى السؤال عن الشيء للاشعار بتحويل حاله وفظاعته ، وكقوله تعالى ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم . .

وفي النداء بينت خصائص هذا الأسلوب في القرآن الكريم وقيمة نداء الجماد والطير ، ولماذا لم يقع نداء النبي عليه السلام باسمه ، ودلالة حكاية النداء ، ومافيها من التصوير كقوله تعالى ، ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أرمي معه والطير . .

وفي القسم أشرت إلى حديث الزمخشري في العلاقة بين المقسم به والمقسم عليه ، كما بينت صورة مستحسنة للقسم .

وفي التعجب بينت ما لحظه في هذا الأسلوب من قوة في الأداء . ونفاذ إلى أدق مواطن الإدراك .

وفي الكلام المنصف أشرت إلى أن هذه الطريقة تكون في مقام الحوار والمناقشة غالباً وقد اعتمد النبيون عليهم السلام هذه الطريقة في أداء رسالاتهم ، وبينت ما أدركه الزمخشري من أن الإيحاء بالمعاني المقصودة أفضل في النفس من المواجهة الصريحة بهذه المعاني .

وفي النفي أشرت إلى صور النفي كما ذكرها الزمخشري فقد يأن النفي في صورة الإيحاء ، وقد تكون هذه الصورة أبلغ أنواع النفي ، وقد يتوجه النفي إلى الفعل في إحدى حالاته ، والمراد نفيه في جميع الحالات كقوله ، فلا رفك ولا فسوق

ولا جدال في الحج ، ، وقد يمدد البليغ إلى نفي تقيض الشيء قصداً إلى إثباته ،
وله في هذا لمساة فنية عالية ، وبينت ما ذكره في نفي المقيد بنفي القيد ، وهي
صورة بليغة لم يقننه إليها إلا القليل ، وقد يراد تعميم النفي فيتجه إلى أخص
صوره كنفي الضلالة قصداً إلى نفي الضلال ، وقد يتجه النفي إلى ما لم نفيه وذلك
للفت السامع إلى نفسه ومراجعة فكره حتى يرجع إلى الحق ، كقوله :
وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم .

وفي القصر بينت ما ذكره في النفي والاستثناء ودلالاتها على القصر ، كما بينت
إشاراته إلى المواقف الأدبية لهذه الصيغة ، ودلالاتها على التوكيد ، وأنها أحسن
ما تكون موقفاً إذا كان ما بعدها غير داخل فيما قبلها ، كقوله : « ليس لهم
طعام إلا من ضريع ، ثم لحظته يربط هذه الطريقة بطريقة أخرى سماها البلاغيون
التنويج ، وسماها هو العكس كقولهم تحية بينهم ضرب وجيع ، وبينت ما ذكره
في معنى إنما ، ودلالاتها على التعريض ، وأن المقصور عليه فيها يقع مؤخرآ ،
وناقشت ما ذهب إليه البلاغيون من أن كلامه يدل في بعض المواضع على أن
المقصور عليه فيها قد يقع متقدما ، وبينت وجه الحق كما رأيته .

وفي العطف بينت المعاني الأدبية التي لحظتها في العطف بالواو ، والفرق
البلاغي بين العطف بها والبدل ، في مثل قولنا : سرتي زيد وكرمه ، وسرتي
زيد وكرمه ، ودلالة الواو الداخلة على الجملة الواقعة صفة للنسكرة ، والواقعة
بين الصفات .

وفي الوصف بينت ما لحظه من أن الصفة قد تكون للدلالة على تعظيم
الموصوف ، وقد تكون لمدحه . وقد يكون الوصف لمدح الصفة نفسها كالصفات
الجمارية على الحكيم سبحانه ، وقد يكون لزيادة التعميم والإحاطة ، وقد يكون
لتحديد المراد من الموصوف وتمييزه ، وقد يوصف الشيء بصفتين متقابلتين
دالتين على معنى واحد دلالة عامة ، إلا أن أحد المعنيين أبلغ من الآخر ،
وحينئذ يبين الزمخشري أن الأصل في مثل هذا النوع من الصفات أن يرتبه
المتكلم ترتيباً ينتقل فيه من الأدنى إلى الأعلى ، فإذا جاء في القرآن ما يخالف
هذا بين فيه السر البلاغي .

وفي الحذف أشرت إلى أن طريقتيه لا تقف عند بيان المحذوف كما رأيت عند كثير من الدارسين ، وإنما يهتم ببيان السر البلاغي وراء المحذوف ، وقد ذكر حذف الصفة ، وحذف المفعول وحذف الجملة الواقعة جواباً ، والواقعة شرطاً تفصح عنه الفاء .

وفي الذكر نبه إلى ما تفيده متعلقات الأفعال من تحديد المعنى ، وتصويره ، وقد يكون القيد لتقرير المعنى ، وتأكيد ، ولذلك يخاطب بالجلل المؤكدة ، وقد يفيد الإيضاح بعد الإبهام ، وقد يكون القيد لإثارة النفس وبعثها على الطاعة .

وفي التوكيد بينت دراسته لدواعي التوكيد وأغراضه ، كما بينت ما لحظه من عناصر القوة والوكادة في الجملة .

وفي دواعي التوكيد أشرت إلى أنه لا يكون فقط لمواجهة إنكار المخاطب ، أو شكه وإنما يكون لأغراض كثيرة كتقرير المعنى في نفس المخاطب ، وإن كانت خالية من كل شائبة للشك ، وقد يكون لتقرير المعنى عند المتكلم ، وقد يكون لإمطاة الشبهة لغرابة الخبر ، وقد يكون دليلاً على تعلق النفس بالخبر واهتمامها به ، وقد يكون لمواجهة تطلعات النفس وحسم آمالها وإطمانها ، وقد يكون لتقرير وعد الله عند من لا يشك فيه لتزداد النفوس إيماناً واطمئناناً .

وفي عناصر التوكيد بينت ما ذكره في أنه لا يمكن حصرها لأن كثيراً من طرق بناء الكلام تعطى تقوية ووكادة . وقد لحظ عناصر القوة في دلالة الكلمة لخصوص معناها ، فكلمة الأهل تدل على التقوية والتوكيد ، لأنها من العلو كما لحظ عناصر القوة في الجملة الإسمية ، وتزداد قوتها إذا وقعت خبراً عن إناء وتزداد هذه القوة أيضاً إذا أكدت بإن مرة ثانية ، كقوله : إن الخليفة إن الله سبحانه . كما لحظ عناصر القوة في الحروف الزائدة كاللام ، ولأنها وكلية أما .

وفي النظر في المعنى بينت أنه اعتبر تحديد معنى المراد من الجملة من صميم البحث البلاغي ، وقد نظر المتأخرون إلى هذا الموضوع ودرسوه في باب أغراض الخبر وقد تعسفوا حين حددوا قصد الخبر بخبره ، وقد بين الزعشمري (م ٤١ — البلاغة القرآنية)

أن العالم قد يتزل منزلة الجاهل وذكر الآية المشهورة في هذا الباب ، ثم لحظ معاني جانبية يفيدها الكلام ويلوح بها ، فقد يكون الخبر للاذكار بما علم تقيها النفس وإيقاظها ، وقد يراد به الوعد والوعيد ، وأشارت إلى قدرته على استخراج أدق أسرار الجملة ونفاذه منها إلى الأبعاد الغائبة في مستقر نفس قائلها . وقد يستعين بالموازنة بين الصورتين لمعينين متشابهين ليحدد في ضوء هذه الموازنة فروق الصياغات وإيجازاتها ثم عرضت صوراً لتذوقه البلاغى لأوضاع الجملة وأسرار صياغتها .

وفي بحث الجمل لحظت نظرات واسعة ، تستوهب الجمل والفقرات ، كدراسة الفواصل القرآنية وملاءمتها لمضامين الآيات ، واختصار القصص ، والتكرار ، والاعتراض ، والالتفات ، والفصل والوصل ، فأشرت إلى ما ذكره الزمخشري في كل فن من هذه الفنون .

ففي الفصل والوصل بينت ما ذكره من أن الفصل قد يكون وصلاً تقديرياً ، وهو أقوى من الوصل الظاهر بحرف العطف ، والوار تقع بين الجملتين لتفصل بين معنيهما فتكون كل واحدة ذات معنى مستقل عن الأخرى ، فإذا تكررت الجملتان وسقطت هذه الواو كان الكلام كلاماً واحداً مدججاً بعضه في بعض ، ويتابع الآية الواحدة التي تتكرر في السورة في مواضع مختلفة مقترنة بالعاطف تارة وغير مقترنة به أخرى ، ويفسر في هذه المتابعة ما وراء الواو من الدقائق .

وقد يختلف حرف العطف في الآية التي تتكرر في مواضع مختلفة ثم يفسر الزمخشري مناسبة كل حرف لموقعه ، وقد يكون سقوط العاطف تخيلاً باستقلال الجمل في معانيها ولتكون كل واحدة منها كأنها مستقلة عن الأخرى بإفادة الفرض المسوق له الكلام . والجمل التي يقرر بعضها بعضها تناسق من داخلها ، ويأخذ بعضها ببعض ، وهذا التناسق الداخلي أقوى في ترابطها من ذكر حرف النسق ، والجمل التي تتوارد على سبيل البيان لا حاجة فيها إلى عاطف ، والاستئناف قد يفيد الكلام قوة وفخامة حين يكون هذا الاستئناف رداً لكلام سابق ، ووعيداً للذاهب إليه ، وقد ينطوي الاستئناف على شيء من التعجب فيزيد

الأسلوب حسنا وقوة تأثير ، وحرف العطف يقتضى مناسبة بين المطرف والمطرف عليه ، والعطف لا يكون بين الجمل المتصلة غاية الاتصال كما لا يكون بين الجمل المنفصلة غاية الانفصال .

وفي الفواصل القرآنية بين الزمنخري وجه الملاءمة بين مدلولات الفاصلة والآيات السابقة ، وله في هذه لفحات نفاذ إلى المعاني وبيان لاجناسها ، وقد تكون الفاصلة غير مطابقة في الظاهر لمدلول الآية فيحاول كشف هذه المطابقة ، ويلاحظ أن القرآن قد يعدل عن لفظه إلى آخر مراعاة لحق الفاصلة .

وفي الالتفات يشير إلى قيمته في إيقاظ النفس وتحريكها ، وأنه قد يقع في أول الكلام ، وإذا كان الالتفات إلى الغيبة أدرك الزمنخري فيه معنى التشهير والنداء حتى كأن المتكلم يخيل بهذا الالتفات أنه يحكي هذا الأمر الخام ويرويه لكل عاقل ، وقد يعدل المتكلم إلى الخطاب تخيلا بالإقبال على المخاطب ومواجهته بزيادة اللوم والإسكار .

وفي التكرار يشير إلى قيمته في مقام الوعظ ، والنصيحة ، وفي مقام دفع الشبهة ، وفي القصص ، وفي مقام الوعيد ، وفي مواقف الكف والنهي ، يشير إلى تكرير آية أو آيتين في كل قصة من قصص الأنبياء ويبين أن هذا يكون للإشعار باستقلال كل قصة من هذه القصص في الغرض المسوق له الكلام ، ويهتد إلى التكرار الحسن الذي يضاف إليه شيء من الاختلاف في الصياغة ، أو يضاف فيه جملة مع الكلام المكرر .

وفي الاعتراض يبين مواقع الجملة أو الجمل المترضة ، وقيمتها البلاغية ، وعلاقتها بمعاني الكلام الذي وقعت مترضة فيه ، وللمحظ أنه يدخل التذييل في الاعتراض لأن الاعتراض عنده قد يقع في آخر الكلام كما يقع في وسطه ، وقد تلخصت بلاغة الاعتراض في تقوية الكلام وتوكيده ، وإذا كانت الجملة الاعتراضية غير واضحة الصلة بالكلام الذي وقعت مترضة فيه اجتهد في توضيح الصلة ، وفي الاختصار يشير إلى أن هناك مقامات تقتضى الإشباع والتفصيل ، وأخرى تقتضى الإيجاز والاختصار ، ويلقبه إلى المواطن التي يفصل فيها القرآن القول ويشبهه ،

كما يذهب إلى المراتب التي يجعل فيها الكلام وبوجوهه ، ويشير إلى طريقة القرآن في اختصار القصة ، وحذف أجزائها غير الهامة ، والنص منها على أهم المواقف فيها ، وفق ترتيب الجمل بحيث اهتمامه ببيان الأسس التي سار عليها نسق الجمل ، وترتيبها في القرآن الكريم ، وكذلك نسق الآيات ، وأشارت إلى أن هذا اللون جدير بالاهتمام لأنه نظر في المعاني وترتيب بعضها على البعض وتمهيد سابقها لاحقها ، فالجملة قد تتقدم على الجملة لأنها أدل على الغرض المسوق له الكلام ، أو لأنها تدل على الأكثر هدداً ، وقد يكون ترتيب الجمل على أساس ما يعنى للنفس من خواطر وأفكار فتقع الجمل مرتبة على وفق ترتيب هذه الخواطر . وفق مواقف تهذيب النفس وإرشادها إلى طريق البر وأخذ الوسائل التي تبعد بها عن مواطن الرذيلة يلمح الزمخشري ترتيباً يلائم طبيعة النفس ، ويتسق مع أحوالها حيث تتوالى الأوامر وتتصاعد على حسب الأحوال والشئون ، وحين يكون المقام مقام مناظرات فكرية بين التوحيد والشرك يلاحظ الزمخشري أفكاراً تتصاعد في هذا المجال فتبدأ بالسؤال البسيط وتنتهي بإبطال المعتقد الباطل وتحقيق الحق .

وفي تفسير النص وتحليله بينت أنه يستصحب مقاييس جمالية عرفتها الدراسة البلاغية قبله ، من ذلك تماسك الكلام وشدة ارتباطه وأخذ بعضه بحجزه بعض كأنما أفرغ أفرغاً واحداً ، كما يذكر الأسلوب الصحيح المحكم الذي يقرر بعضه بعضاً ويذكر كذلك الأسلوب الخشن الغليظ ويعتمد حكم الذوق ويستجيب له ، ويوازن بين النص الذي يحمله ، والنصوص التي تشابهه في معناه ، وفي غرضه ، ويلتفت إلى طريقة القرآن في ذكر المعاني المتقابلة لبك الرغبة والرغبة في النفوس ، ثم عرضت صوراً من تحليلاته التي تروق الباحث المتذوق .

وفي دراسة ألوان البيان :

بينت دراسته للتشبيه التخيلي ، والتشبيه المفرد ، والمتعدد ، والمركب ، وبينت أنه يردد كثيراً من صور التشبيه المركب بين المتعدد ، والتشبيه ، ويرجعها كلها إلى ثقافته اللغوية والدعوية التي تدفع المتعبرين بها إلى الوقوف عند الجزئيات ،

وقد أشار إلى الإثر البلاغي لأسلوب التشبيه ، وهو في ذلك متأثر بما قاله
عبد القاهر والبلاغيون السابقون ، وقد أشار كذلك إلى الملائمة بين المشبه والمشبه
به ، وهو في هذا يقرب مما يذكره المحدثون من الربط النفسى بين طرفى التشبيه ،
ويذكر التشبيه المقلوب ويبين قيمته البلاغية ، كما يتحدث عن أداة التشبيه ، وأنها
في التشبيه المركب لا يجب أن تلى مفرداً يتأق التشبيه به ، وبين أن الأداة تحذف
على الاتساع والكثرة وخصوصاً لفظ المثل ، كما ذكر القيمة البلاغية للعبود
في التشبيه ، وفرق بين التشبيه والاستعارة ، وارتضى في ذلك رأى المحققين أئمة
عبد القاهر والقاضى على بن عبد العزيز فى جمل (زبد أسد) من التشبيه ، وكان
يقظاً فى تطبيق هذا الفرق وإن كان يتسامح أحياناً .

وفى الجواز بينت تقسيمه الجواز إلى قسمين : الاستعارة والتمثيل ، وبينت أن
المراد بالاستعارة فى هذا التقسيم هى الاستعارة المكنية وخالف بعض البلاغيين
فى هذا كما بينت أن المراد بالتمثيل فيه هو الاستعارة التمثيلية . وفى دراسة الاستعارة
بينت أنه ذكر صور الاستعارة التصريحية أصلية وتبعية ، وصور الاستعارة
الممكنية ، والتجريد ، والترشيع ، ثم بينت وجهته فى أن قرينتها قد تكون استعارة
تصريحية ، ومناقشة العلماء له فى هذه الوجهة ، ثم رأيت أن اعتبار الاستعارة فى
الرادف يضعف التخيل الذى هو أساس حسن هذه الاستعارة ، ثم بينت ما ذكره
فى استعارة الحروف ، ولعله من أوائل من أشار إلى هذا النوع من التجويد ،
وبينت أن كلامه يحتمل إجراء الاستعارة فى الحرف ، وفى متعلقه ، أى المجزوء ،
وقد بين قيمة الترشيح فى توضيح المعنى وتقريره .

وفى الاستعارة اللفظية كانت إشاراته إليها إشارات مجمة لم تصل إلى
ما ذكره عبد القاهر فى هذا النوع ويدخل صور الاستعارة التهكمية فى المعنى
فى الكلام ، ويجعلها قرينة صور التنويع .

وفى التمثيل أراه يطلقه على غير صورة الاستعارة المركبة التى هى قسم من
الجواز فى تقسيمه السابق ، وهذا الإطلاق يشمل : التشبيه والاستعارة فى المفرد ،
والاستعارة بالسكنائية والسكنائية ، والتمثيل بالأفعال ، والكلام الوارد على سبيل
الفرض والتقدير ، وقد حاولت أن أبين مراده بالتخييل كما بينت مراده بالتمثيل

فوجدته كأنه لا يفرق بينهما في كثير من الحالات ، ويردد الصورة البيانية بين التمثيل والتخييل في بعض المواقع ، مما يجعلنا بأنه يفرق بينهما ، وقد لاحظ الشباب الخفاجي أن التخييل عنده تمثيل خاص ، وأنه يطلق على التمثيل بالأمور المقروضة .

وفي المجاز المرسل بينت أنه يفرق بين صورته وصور الاستعارة ، وأنه ذكر أنواعاً من العلاقات فذكر علاقة السببية ، وإطلاق الكل وإرادة البعض ، وإطلاق الجزء وإرادة الكل ، وأسمية الشيء باعتبار ما كان عليه ، وأسمية الشيء بما يؤول إليه ، وبما يجاوره ، وبإسم آتته ، إلى آخر العلاقات التي ذكرناها وضربتنا لها الأمثلة من كلامه ، وفي المجاز العقلي رأيت مهتماً بهذا الفن لاتصاله بإسناد الأفعال ، إلى الخالق والمخلوق ، وفي كلا الحالتين كلام للمعتولة ، ولذلك كان الزمخشري صاحب يد طولي على هذا الباب ، وبينت أن الخطيب أفاد تعريفه لهذا المجاز من بعض المواضع في الكشف وغفل عن البعض الآخر ، وأن مفهوم المجاز العقلي في الكشف ينطبق تماماً على ما ذكره عبد القاهر ، ثم أثرت إلى علاقات الإسناد التي ذكرها ، وبينت أنها لا تقف عندما ذكره الخطيب بما أخذه من قوله في آية دغمار بحت تجارتهم ، وإنما تشمل أنواعاً أخرى من الملابسات مثل إسناد الفعل إلى الجنس كله ، وهو في الحقيقة مسند إلى بعضه ومثل إسناد الفعل إلى الجارحة التي هي آتته وإسناده إلى ماله مزيد اختصاص وقرين بفاعله الأصلي وأنه يكتفي في هذا الإسناد بنوع من الملابسة ، وإلى التجوز في وقوع الفعل على غير مفعوله الحقيقي ، وذلك لعلاقة بين المفعول به الحقيقي والمفعول به المجازي .

وفي الكناية يذكر الكناية بمعناها الاصطلاحية ويشير إلى فائدتها وقيمتها الأدبية ، ويذكر أقسامها الثلاثة المشهورة ، ويفرق بينها وبين التعمير ، ويذكر الكناية في المفرد ، وينبه إلى ضرورة إمكان المعنى الحقيقي في أسلوب الكناية ، وقد يكون الانتقال فيها من المألوم إلى اللازم ، ومن اللازم إلى المألوم ، ولا نستطيع أن نحدد رأيه في أسلوب الكناية هل هو من الحقيقة أو من المجاز ، لأن كلامه يحتمل الأمرين ، وذكر المجاز عن الكناية ، وذلك فيما لا يمكن فيه إرادة المعنى الحقيقي ، وقد رأيتنا يطلق الكناية على بعض الصور التي يمنع فيها

إرادة المعنى الحقيقي ، كما يطلق المجاز على بعضها ، وقد لحظت أنه فصل أولاً وبين أن ما لا يمكن فيه المعنى الحقيقي يكون من المجاز عن الكناية ، ثم ترك النص في الصور الباقية اعتماداً على ما ذكره في الأولى ، ولعله أول من أشار إلى شهرة المجاز والكناية حتى تكون كأنها حقيقة فيما هي مجاز أو كناية فيه فتتقدم فيها الوساطة ، وقد يطلق التمثيل على بعض صور الكناية وذلك لاختلاف الجهة التي ينظر إليها .

وقد حدد التعريض تحديداً دقيقاً سار عليه البلاغيون بعده ، ولم يكن دقيقاً في تعريفه للكناية وذلك لأن غرضه بيان الفرق بينها وبين التعريض ، وقد توهم السبكي أنه إذا لم تتمتع الحقيقة صرح المجاز والكناية بحسب الإرادة ، معتمداً على تعريفه للكناية في آية خطبة النساء ، وقد بينت وجه الحق في هذا الموضوع ، ويذكر بعض صور المجاز المرسل في الكناية عن المفرد ، كما يشير إلى توارده الكناية والمجاز المرسل على الكلمة الواحدة في أطوار مختلفة ، وكان متنبها أشد التنبيه إلى دلالات أساليب التعريض ، وقد أثار كلامه في هذا الموضوع مسألة شغلت البلاغيين تمايخص في محاولة بيان طريقة الدلالة في أساليب التعريض ، وهل هي من الحقيقة ، أو من المجاز ، أو من الكناية ، أو من مستبهمات التراكيب ؟ وقد ذكرت كثيراً من النصوص التي أشار إليها وبين دلالاتها على التعريض ورأيت أن هذا مقياس دقيق لمقدرة استيعاب دلالة النص والوقوف على أمراره .

وفي دراسة البديع :

بينت الألوان البديعية التي عرض لها ، وكيف أفاد الخطيب منها ، حتى إنه لم يصف شيئاً ذا غناء إلى كثير مما أخذه عن الزمخشري ، ورأيته يشرح ألوان البديع كما يشرح ألوان البيان ، وأنه يعتبر كل هذه الألوان من عناصر الجودة والبلاغة في الكلام . وكانت له إشارات إلى بعض فنون البديع ، توحى بأنها محسنات مرضية . فدفع هذا بعض المشتغلين بهذا الدرس إلى القول بأنه لا يدخل البديع في إعجاز القرآن . وقد بينت أن مثل هذه الإشارات التي تشعر بترومين قيمة هذه الألوان البديعية محصورة في حديثه عن الجناس ، ولعله مدفوع في هذا

بما رأى عليه أدياء زمانه ، حيث أفرطوا في استعماله وتمكافوه ، وقد بينت أنه
يذكر من الوائيه المشاكلة ، ويسمىها المقابلة ، أحياناً ، ويذكر أنها فن من فنون
البلاغة وشعبة من شعبها ، ويطلق المشاكلة على ذكر الشيء بلفظ غيره المقدر
ذكرة ، كما يطلقها على ذكر الشيء بلفظ غيره الذي لم يجر ذكره تحقيقاً ،
ولا تقديرًا ، وإنما وقع حذفه في صيغة المذكور ، ويذكر أنها من فصيح الكلام
وبينه ، ويلاحظ أن المشاكلة قد تنطوي على شيء من التشبيه فيعطى هذا التشبيه
من القوة والبلاغة .

ويذكر اللف ويشير إلى نوع منه يعطى مسلكه ، ويدق فهمه ، ويقول إنه
لا يمتد إلى إلا التقاب المحدث من علماء البيان ، ويلاحظ أن اللف يجمع الطباقي
في بعض الصور ، كأن تكون الصفات المذكورة متقابلة ، وكثير من شواهد
وتحليلاته ، مثبت في كتاب الإيضاح .

ويذكر الاستطراد في مواطن كثيرة ، وذلك في بيان مناسبات الجمل
وعلاقات أجزاء الكلام بعضها ببعض .

ويذكر التفصيل والإجمال ، ويشير إلى قيمته البلاغية ، وأنه قد يفيد التعظيم
وقد يفيد التقوية والتقرير ، وله في ذلك كلام طيب قد أشرنا إليه ، ويذكر
الكلام الموجه الذي يحتمل وجهين مختلفين ويسميه القول ذا الوجهين ، وله في
هذا تحليلات عالية أفادت البلاغيين بعده .

ويذكر التورية ، ولم يوضح معناها الاصطلاحى ، وهى في إطلاقاته قريبة
من المعنى اللغوى ، وقد أشرت إلى أن هذا اللون البديعى لم يكن في القرآن
الكريم الذى جرى أسلوبه على إهراق البلاغة الأصيلة متمما بوضوح الفطرة
ولاستقامة الدلالة ، ولهذا رأينا شواهد الخطيب القرآنية في هذا الباب
غير مسجلة له .

ويذكر المقابلة ويطلقها على اللفظين المتقابلين ، كما يطلقها على الموافقة في
أسلوب الجمل ونظمها .

ويذكر الطباقي ، وقد لحظت تعدد مدلوله ، فقد يراد به مقابلة الكلمات من
حيث التضاد ، وهذا قريب من المعنى البلاغى ، وقد يراد به موافقة أحوال

الكلمات لمعانيها أى مطابقتها لمقتضى الحال ، وقد يقرب الطبايق من معنى الفن . كما يذكر طباق المعاني ، ويرى أن المطابيع من الأدباء والشعراء لا يراعون إلا هذا الطبايق .

ويذكر الأزواج فى إشارة قصيرة ويرى أن القرآن قد يصرف المنوع من الصرف لمراعاة هذا الحسن الناشئ عن الأزواج .

ويذكر التماس ، ويشير إلى أنه من المحسنات التى تتناق باللفظ ، وقد لاحظت أنه متأثر فى بيان قيمة هذا الفن البديع بأحوال الأدباء والشعراء فى زمانه ، حيث هاموا بهذه الصناعة وتكافروا هذا الفن ، وذكرت من نوعين كلامه ما يؤيد هذا .

ويذكر تأكيد المدح بما يشبه الذم ، ويشير إلى المعانى الأدبية التى تقيد بها صيغة النفي والاستثناء ، وبين أن التأكيد فيها ليس خاصاً بالمدح والذم ، وإنما يرد فى مقامات كثيرة وهامة أشرت إليها ووضحتها .

ويذكر الإدماج ويعنى به الكلام الذى يدرج تحته معنى آخر ، وله فيه ملاحظات مستحسنة ، أشار ابن المنير إلى قيمتها ودقتها .

وفى بيان أثره فى الدراسات البلاغية :

أشرت إلى بيان أثره فى مدرسة المفتاح ، وتناولت فى ذلك بيان أثره فى كتاب المفتاح ثم فى كتاب الإيضاح ، ثم فى كتاب المطول ، وأشرت إلى أن هذه الكتب هى أفضل ما كتب فى هذا الاتجاه .

وذكرت فى بيان أثره فى المفتاح تأثر السكاكى به فى تقسيم البلاغة إلى على المصانف والبيان . وناقشت هذا التحديد الدقيق الذى فصل به السكاكى بين هذين العليين ، وأشرت إلى صلة تحديد علم البيان فى كتاب المفتاح بما ذكره ابن الخطيب الرازى فى حديث الدلالة وبينت ذلك بإيضاح ، ثم أشرت إلى إحساس السكاكى نفسه بما فى هذه الطريقة التى ضبط بها معانيد العليين من تكلف ونجشم .

ثم أشرت إلى التقارب فى دراسة البلاغة بين أهل خوارزم ، واحتفاء بعضهم

على بعض ، وبناء لاحتمهم على سابقهم ، وإن تباينت حظوظهم في الإصابة والتوفيق ، ولخصت ملاحج جهودهم في مراحل ثلاث : المرحلة الأولى وكان البحث البلاغي فيها جهوداً نظرية ارتبطت بالنص ارتباطاً وثيقاً ، وتمثلها دراسة عبد القاهر الجرجاني .

المرحلة الثانية وكان البحث فيها جهوداً تطبيقية ، تنفذ من النص إلى دراسة القواعد والأصول ، وتمثل هذه المرحلة دراسة الزمخشري .

المرحلة الثالثة وكان البحث فيها جهداً نظرياً خالصاً تشوبه ومضات تحليلية سرت إليه من الاتجاهين السابقين ويمثل هذه المرحلة كتاب المفتاح .

ثم أشرت إلى ما أفاده السكاكي من الكشف في باب الالتفات ، فقد ذكر في قيمته وتحليل بعض نصوصه كلام الزمخشري ، وبيئت أن أبا يعقوب يحىء بالفث المستكره حين يحارل الاستقلال في تحليل صور هذا الباب .

ثم أشرت إلى ما أفاده منه في باب أحوال المسند والمسند إليه ، كبيان الحال المتفضية كون المسند جملة فعلية ، أو اسمية ودلالة الفعلية على التجدد ، والاسمية على الثبوت ، فقد ذكر في هذا كلام الزمخشري في آية إذا جاءك المنافقون ، وذكر في تفسير المسند تحليل الزمخشري لقوله تعالى ولا تتخذوا إلهين اثنين ، وذكر في التقديم كلام الزمخشري في آية إياك نعبد ، وآية ولتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً ، وآية وذلك الكتاب لا ريب فيه ، كما أفاد من كلام الزمخشري تقييد المسند بالشرط ، وذكر شواهد كثيرة ومشهورة من الكشف كقوله تعالى ، فإذا جاءتهم الحسنة ، وإذا استعملت ، أن مع الشرط المقطوع به حال ذلك بما ذكره الزمخشري وأورد هنا السر البلاغي الذي أورده الزمخشري هناك .

ويفيد من الكشف ما ذكره في التغليب ولا يريد عليه ، ويسوقه الحديث في معاني الشرط إلى القول في الكلام المنصف ، ويذكر ما قاله الزمخشري في هذا الفن ، ويأخذ من الكشف حديثه في بيان الأغراض التي يقصدها المتكلم حين يعيد من الماضي إلى المضارع ، ويذكر شواهد الكشف في هذا الموضوع .

ويستمد كثيراً ما ذكره الزمخشري في صور الفصل والوصل ، ويذكر كثيراً
من شواهد في هذا الباب .

وفي الإيجاز والإطناب يذكر كثيراً من الصور المأخوذة من الكشاف ،
ومن خير ما ذكره في هذا الباب ما جرى على أسلوب قولهم على لاجب لا يهتدى
بمناره ، ويذكر في صور الإطناب قوله تعالى : قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع
معى صبراً ، وقوله تعالى : رب اشرح لي صدري ، ، ويذكر في تحليلها ما ذكره
الزمخشري ، ويعتمد على الزمخشري كثيراً في بيان الاستعارة بالحرف لأن الزمخشري
كما قلنا من أوائل من أشار إلى هذا الموضوع وقد ذكر السكاكي قوله تعالى : اعلمكم تتقون ،
وقوله تعالى : فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، وبين الاستعارة في
حرف الترجي ، وفي اللام ، ثم ذكر أن هذا تلخيص كلام الأصحاب وقد بينت أنه
يقصد بالأصحاب هنا صاحب الكشاف ، ثم بينت أن السكاكي يسيطر على ما يفهم
ثم يصوغه بأسلوبه وطريقته فيحسبه الناظر من بنات أفكاره وذلك لوضوح
سيطرته على هذه الأفكار ، وهو في هذا يختلف مع ابن الأثير الذي ينقل عبارة
الكشاف ، ويتفق مع العلوي الذي يغير تغييراً جوهرياً في الصياغة وتصوير
الفكرة ، وفي بيان أثره في كتاب الإيضاح أشرت إلى أن ذلك يظهر في مرحلتين .
المرحلة الأولى هي ما أفاده السكاكي من الكشاف لأن كتاب الإيضاح كأنه
صورة ثمانية لكتاب المفتاح . والمرحلة الثانية - وهي ما التفت إليها هنا -
هي أثر الكشاف في هذه الإضافات التي أضافها الخطيب إلى كتاب المفتاح ،
فاختلف بها إيضاحه عن المفتاح ، وقد بينت أن من أهم هذا الأثر ما ذكره الخطيب
في المجاز العقلي حيث ذكر العلاقات التي ذكرها الزمخشري في قوله تعالى : فاجت
تجارتهم ، ، واستمد تعريفه لهذا الباب بما ذكره الزمخشري في هذه الآية ، وناقشت
الخطيب في ذلك ، وبينت أن تصور الزمخشري للمجاز العقلي كان أشمل وأعم مما
ذكره الخطيب ، كما بينت أن الخطيب كان يقنيه إلى أثر الكشاف في المفتاح وقد
رجع بكثير من كلام السكاكي إلى أصله في الكشاف . وبينت أنه حين يرجع
بحديث السكاكي إلى أصله قد يرى فيه نظراً ويمترض عليه ، وقد ناقشت الخطيب
في بعض ما اعترض به على السكاكي في المسائل المأخوذة من الكشاف ، كما يفهم

أن الخطيب قد يستحسن تحليلات الزمخشري البلاغية ثم يخالفه في الوجهة النحوية كما بينت أن الخطيب قد يرفض كلام السكاكي في بعض المسائل ويأخذ فيها برأى الزمخشري ، وأشارت إلى أن الخطيب قد يتأثر بالكشاف في شرح القاعدة البلاغية وأنه أفاد كثيراً من تحليلاته لبعض الصور البيانية ، وقد أثبت بعض هذه التحليلات ، وأشارت إلى مصدرها في كتاب الكشاف . ثم بينت ما أفاده من الكشاف في أبواب البديع ، وأكدت بهذا اهتمام الزمخشري بهذه الفنون وعنايته بدراستها حتى صارت أصلاً هاماً في دراسة هذا العلم في كتاب الإيضاح ، وأشارت إلى ما ذكره في باب المشاكلة وبينت أنه لم يصف شيئاً يعتمد به على ما أخذه من الكشاف ، كما بينت أنه في التوجيه لم يزد شيئاً عما ذكره الزمخشري فيه ، واكتفيت بذكر هذين الفنين مع الإشارات السابقة في دراستي للبديع في كتاب الكشاف .

وفي بيان أثره في كتاب المطول بينت أن سعد الدين قد أثر في بلاغة الكشاف وتأثر بها ، أما تأثيره فيها فذلك واضح في تأملاته الدقيقة التي يحاول فيها أن يفسر كلام الزمخشري في ضوء القواعد البلاغية المقررة ، وأن يستخرج من أقواله أصولاً بلاغية ، ولذلك يختلف موقف سعد الدين من كتاب الكشاف عن مواقف غيره من أمثال السكاكي وابن الأثير والعلوي والقزويني وغيرهم ، وذكرت أن إبراز جهود الزمخشري في البلاغة في صورتها العملية يرجع إلى جهود سعد الدين وغيره من شرحوا الكشاف ، كالسيد الشريف ، وصاحب الكشاف ، أو تناولوه في حواشيمهم ، كالعلامة شهاب الدين الحفاجي ، ثم أجمت تأثر سعد الدين ببلاغة الكشاف في نقاط محددة ، منها توضيح وجهة الزمخشري في بعض الأصول البلاغية كبيان مذهب الزمخشري في الاستمارة بالكناية ورأيه في قرينتها ، وأن المسكنية لا تلازم التخيلية ، وله في هذا الموضوع مناقشات هامة أثبتناها في هذا البحث ، ومنها اعتماده على بلاغة الكشاف في محاولة مجاوز الحد الضيق الذي فرضه الخطيب على خصائص الصياغة في التعبير الأدبي ، كرفضه لمحصن أغراض التوكيد في بني الشك أورد الإنكار وذمابه إلى أن التوكيد يكون لأغراض أخرى ، فقد اعتمد في هذا على نصوص هامة من الكشاف ، ومنها

محاولة تصحيح أروام القوم في فهم بلاغة الكشاف وتفسيرها وله في هذا انظرات صائبة وتصحيحات مستقيمة ، وقد لاحظت أنه يقع أحياناً في هذا الوم التي حاول تصحيحه وفاته أن يدرك الحق في بعض المواضع من كلام الزمخشري ، ومنها أنه يفيد من تحليلات الزمخشري وينسج على منوالها في شرحه وإضافاته إلى كلام الخطيب ، كما ذكر في قول ضياء بن الحارث المشهور ، فإنني وقيارها لغريب ، فقد ذكر في نكتة التقديم كلاماً حسناً وأشار إلى أنه أفاده من الكشاف في قوله تعالى وإن الدين آمنوا والذين هادوا والصابغون، الآية، ومنها أنه يفيد من تحليلات الزمخشري في تحرير الأصول البلاغية كاعتماده في الحكم على قولنا رأيت أسداً في الشجاعة بأنه من التشبيه ، وإن ترك فيه المنصب بالكلية على ما ذكره الزمخشري في آية وحتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود ، ومنها أنه قد يقف من كلام الزمخشري موقف الناقد في قبوله لرأى السكاكي ورفضه كلام الشينين عبد القاهر والزمخشري في بيان سر حذف المفعول في قوله تعالى ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسعون ، الآية .

وفي بيان أثر الكشاف في المثل السائر :

أشرت إلى أن اتجاه ابن الأثير يختلف في دراسته عن اتجاه الخوارزميين ، وأنه لم يفد من هذه الدراسة العظيمة التي خلفها أهل خوارزم بمقدار ما أفاد من غيرها ، وبينت أن أخذه من هذه المدرسة يتركز فيما أفاده من الكشاف ، وإن كان قد أفاد قليلاً بما ذكره عبد القاهر ، ولاحظت أن أثر الكشاف يتعدم في كثير من أبواب المثل السائر ، كما في الحديث عن ثقافة الكاتب ، وكما في الحديث عن الصناعة اللفظية ، أما حين يتكلم ابن الأثير في الالتفات ، وتوكيد الضميرين ، والتفسير بعد الإجماع وفي التقديم ، إلى آخره ، فإننا نلاحظ تأثيره البين الواضح بكتاب الكشاف ، وقد لاحظت أن ما أخذه من الزمخشري لم يكن مشهوراً عند غيره وإن كان معروفاً في مسائل العلم ، كما لاحظت أن ما أغفل فيه حديث الزمخشري كان مشهوراً عند غير الزمخشري ، وقد عالجت المسائل التي أفادها من الكشاف فبينت أنه في الالتفات يخالف الزمخشري ويترض عليه ثم يرجع إلى كلام الزمخشري ويأخذ منه ، وقد ناقضته فيما اترضض

فيه على الزمخشري ، وبينت تحامله عليه كما رجعت بكلامه إلى كلام الزمخشري
 فيما اترض فيه على الزمخشري ، وأثبت كثيراً من النصوص التي نقلها ابن الأثير
 من كتاب الكشاف ولم يغير فيها تغييراً ذا غناء ، وقد عد من الالتفات الرجوع
 عن الفعل المستقبل إلى فعل الأمر ، وذكر شواهد ذلك من الكشاف ، كما عد منه
 الرجوع عن الفعل الماضي إلى فعل الأمر ، وذكر شواهد من الكشاف ، وذكر
 في هذا الباب أن عطف المستقبل على الماضي يكون هل ضربين ، الضرب الأول
 ما يستعمل فيه المستقبل للدلالة على حدث قد مضى ، وهو القسم البلاغي الذي ترد
 فيه المحاسن والذي عني به ، والضرب الثاني ما يستعمل فيه المستقبل للدلالة على
 حدث يقع في المستقبل ، وزعم أن هذا القسم ليس داخل في البلاغة ، وقد ناقشته
 في هذا وبينت أنه من دقيق أحوال اللفظ التي ينظر فيها إلى المطابقة ، وأستأست
 بكلام الامام عبد القاهر في هذا الأمر ، وقد ذكر كذلك من الالتفات
 الإخبار بالمفعول الماضي عن المستقبل وبين الفرض منه ، وذكر له نصوصاً
 من الكشاف .

وفي توكيد الضميرين لحظت أنه يستمد دراسته من الكشاف ، كما فعل
 في الالتفات ولا أجد له في هذا الموضوع دراسة هامة ، وإنما كانت إضافته على
 إسق تحليلات الزمخشري وكأنها زيادة في الأمثلة ، وفي عطف المظهر على ضميره
 يعتمد كذلك على تحليلات الزمخشري وينقلها نقلاً يكاد يكون كاملاً ، وفي التفسير
 بعد الإبهام يأخذ أكثر ما فيه من الكشاف ، وقد أثبت شواهد فيه مقارنة
 بما ذكره الزمخشري في هذه الآيات .

وقد ذكر ابن الأثير جهماً هاماً في استعمال العام في النفي والخاص في الإثبات
 وقد بينت أنه أقاده من مناقشة ابن المنير لبعض تحليلات الزمخشري ، وقد حررت
 الكلام في بيان وجه اعتراض ابن المنير في هذه الصور ، وأشارت إلى نقطة
 ابن الأثير حين رأيت أنه يسكت عن عبارة الزمخشري الوارد عليها اعتراض
 ابن المنير .

وفي التقديم والتأخير لحظت أن ابن الأثير لم يفهم رأى الزمخشري فهما دقيقاً
 حين زعم أن التقديم عنده في الخبر والمفعول والظرف لا يكون إلا الاختصاص ،

ثم بينت ظهور معنى الاختصاص في الصور التي زعم ابن الاثير أن التقديم فيها لمراعاة نظم الكلام، وقد لاحظت كذلك أن ابن الاثير الذي اعترض على الومخشي في دراسة التقديم يأخذ منه أخذاً مباشراً وإن كان ما أخذه منه ليس متصلاً بمسألة الاختصاص التي هي موضع الخلاف ، وفي التقديم الذي يختص بدرجة المقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك يعتمد فيه على تحليلات الومخشي اعتماداً كاملاً ، فيذكر في تقديم السبب تحليل الومخشي لقوله تعالى « إياك نعبد وإياك نستعين » ، ولقوله تعالى « وأنزلنا من السماء ماء طهوراً لنحیی به بلدة ميتاً وغير ذلك كثير أمثاله وأشرنا إلى مصادره في الكشف .

وفي دراسة الحروف الجارة لاحظت أنه ليس لابن الاثير فيها إلا الشرح والاستنباط من كلام الومخشي ، فقد نظر في اختلاف الحروف في قوله تعالى « وإنا أولياكم لعلی هدی أو فی ضلال مبین » وقوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملین علیها » وذكر فيها ما ذكره الومخشي ، وكان هذا خير ما ذكره في هذا الموضوع .

وفي الجملة الفعلية والجملة الاسمية يجعل ما ذكره الومخشي في قوله تعالى « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم أساساً لدراسة هذا الموضوع ويذكر أمثلة من الشعر ، ومن كتاب الله ، ويحللها ، ولكن تحليلاته لا تنهض إلى مستوى التحليلات التي أفادها من الكشف ، وفي عكس الظاهر رأيته يستمد مادته فيه من الكشف ، ولم ينقل منه نقلاً مباشراً كما عهدناه في الأنواع الأخرى ، وقد دار بحثه فيه حول شاهدين من الشعر مذكورين في الكشف ، ولم يذكر له شواهد من القرآن ، وقد أشرت إلى أن هذا البحث من البحوث القيمة التي يجب الاهتمام بها في دراسة الأساليب .

وفي الاستدراج رأيت ابن الاثير يدعي أنه استخرجه من كتاب الله وأن مدار البلاغة كلها عليه ، وقد بينت أنه ليس له فيه جهد يذكر ، فإنه لم يزد على أن ذكر نصين من كلام الومخشي ، ثم أورد محاوره بين الحسن بن علي رضي الله عنه ومعاوية بن أبي سفيان ، جرى القول فيها من معاوية على طريقة الاستدراج التي جرت عليها النصوص القرآنية في هذا الباب .

وفي الإيجاز رأيه يعتمد على الزمخشري في كثير من الأصول التي درسها في هذا الباب ، كدراسة حذف السؤال في باب الاستئناف ، وكدراسة حذف المقبول في شاء وأراد ، فقد ذكر الآيات والأمثلة الشهيرة في هذا الباب ، وكحذف الشرط ، وموقع فاء الفصيحة ، ويذكر الإيجاز بالتقدير ، وهو المعروف عند الجمهور بالمساواة ، ويورد من أمثله قوله تعالى : قتل الإنسان ما أكفره ، ، ويذكر تحليل الزمخشري لهذه الآية .

وفي الإطناب يذكر صوراً من تحليلات الزمخشري كالذي ذكره في آية : فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور ، والذي ذكره في آية : ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، .

وفي التكرير بينت أن ابن الأثير قد أخذ من الكشاف بعض الصور والتحليلات ، وقد خالفه في عدد بعض هذه الصور من المكرر فكثير من الصور التي ذكر الزمخشري أنها ليست من التكرير مراعاة لفروق دقيقة ذكرها ابن الأثير من المكرر ، كما ذكر ابن الأثير نوعاً من التكرير وصفه بأنه نوع حسن ، وذلك لاختلاف ضروب الصنعة في الجملة المكررة وقد أشرت إلى أن ذلك وغيره مأخوذ من الكشاف .

وفي بحث الكناية والتعريض أشرت إلى أن ابن الأثير تابع الزمخشري في التفريق بين الكناية والتعريض ، وقد لحظت علاقة بين تعريف ابن الأثير للكناية وما ذكره الزمخشري في الكناية والمجاز عن الكناية ، كما لحظت شبهاً قوياً بين تعريفه للتعريض وتعريف الزمخشري له ، وأشرت إلى أن السيد الشريف قد أدرك هذا ونبه إليه ، وقد أخذ ابن الأثير أخذاً مباشراً من تحليلات الزمخشري لصور التعريض ثم نهت إلى تجاهل ابن الأثير لجهود الزمخشري حين زعم أنه لم يفرق أحد قبله عن البيانيين بين الكناية والتعريض .

وفي تقابل المعاني يأخذ ابن الأثير أخذاً بيناً من الكشاف فيذكر ما ذكره الزمخشري في قوله تعالى وأر لم يروا أنا جعلنا الليل ليكنوناً فيه والنهار مبصرآه ثم يشير ابن الأثير إلى أن في تقابل المعاني باباً عجيب الشأن ، يحتاج إلى فضل تأمل وزيادة نظر ، وهو ما يختص بالفواصل القرآنية ، ويذكر في هذا مثلاً وشواهد ما أثبتناه في دراسة الجمل في هذا البحث .

وفي نهاية هذا الفصل أشرت إلى تأثر ابن الأثير بالزمخشري في كتابه المحارط الجامع الكبير ونقلت منه نصوصاً كثيرة في الالتفات ، وفي الأخبار عن الفعل الماضي بالمضارع ، والأخبار باسم المفعول عن الفعل المضارع ، وهذه الموضوعات ومثلها مذكورة في كتاب المثل السائر ، وقد بينت أنه يذكر أشياء في كتاب الجامع وبأخذها من الكشف وهي ليست مذكورة في كتاب المثل السائر ، كما يقول في التعقيب المصدرى ، فقد ذكر فيه تحليل الزمخشري لقوله تعالى . وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء . . . وفي ضوء هذا البيان المستقصى لأثر الكشف في كتاب المثل السائر ناقشت بعض الدارسين الذين تعرضوا لدراسة المثل السائر من القدماء والمحدثين وأغفلوا هذا التأثر . وفي بيان أثر الكشف في كتاب الطراز .

أشرت إلى أن كتاب الطراز يعتبر مزيجاً من الانجمايين الأدبي والكلامي . ولحظت أنه في القسم الأول الذي يتحدث فيه عن أسرار البلاغة يقرر القواعد ويحرر المسائل ، وتظهر النزعة الكلامية في هذا التحرير ، وهذا التقرير ، كما يكثر في هذا القسم من ذكر الأمثلة والشواهد ، وفي هذه الكثرة تظهر الصفة الأدبية لهذا الكتاب ، حيث يحلل كثيراً منها تحليلاً متذوقاً بصيراً . وفي دراسته للقسم الثاني أعنى علوم حقائق الإعجاز رأيت يتناول علوم البلاغة مرة ثانية ، لأنها هي علوم حقائق الإعجاز ، وسجلت اختلاف منهجه في تناول هذه العلوم في مذهبين القسمين ، فهو لم يذكر في هذا القسم الثاني شاهداً من غير كتاب الله إلا نادواً وقد أكثر في القسم الأول من ذكر كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام علي رضي الله عنه ، ثم من شعر الشعراء وكلام الأدباء . كما أنه في دراسة علوم البلاغة في القسم الثاني يسير على طريقة المفتاح ، ومنهجه ، فيذكر في علم المعاني أحوال الإسناد ، والمسند إليه ، والمسند به ، والتعلقات الفعلية ، والجمل الانشائية ، والفصل والوصل ، والقصر ، إلى آخره ويذكر في علم البيان التشبيه ، والجناس ، والكناية . ويذكر في علم البديع الألوان التي وردت شواهداً في كتاب الله ، ولم تسكن هذه طريقته في دراسة أسرار البلاغة وإنما كان يتناول مسائل العلم فيه غير مرتبط بأحوال المسند والمسند إليه .

ثم ناقشت الفرض من تأليف هذا الكتاب حيث زعم العلوي أنه مقدمة (٤٢م — البلاغة القرآنية)

لدراسة بلاغة الكشاف ، وبينت إلى أي مدى يعين هذا الكتاب على فهم الكشاف ولهذا أشرت إلى المباحث التي يمكن أن تتصل ببلاغة الكشاف والمباحث التي لا يمكن أن تتصل بها ، وبينت أن كثيراً من مناقشاته لأصحاب الحدوث لا تعين الدارس على فهم بلاغة الكشاف ، ورفضت أن يكون كتاب الطراز قادراً على دفع قارئه إلى اكتناء بلاغة الكشاف ، وبينت أنه يعين قارئه على فهمها بمقدار ما تعين الكتب المعهدة طلاب العلم في زماننا على قراءة هذا الكتاب ، ثم أشرت إلى المباحث البلاغية التي أخذت من الكشاف ، وبينت أن أكثرها قد أخذ من كتاب المثل السائر ، وقليلاً منها قد أخذ من كتاب الكشاف مباشرة . وأشرت إلى خصوصية هامة فيما أفاده العلوي من غيره حيث يسيطر على ما يفهم ثم يذكره في كتابه بعبارته ، ويصوغه بأسلوبه ، ويعرضه بطريقته .

ومن المباحث التي رجعت بها إلى كتاب الكشاف ما ذكره في الاستدراج ، حيث أفاده من المثل السائر وهو فيه راجع إلى الكشاف كما بينا ، وقد أشرت إلى أن العلوي ذكر الآيات التي ذكرها ابن الأثير ولم يزد فيها زيادة تدخل في صميم الموضوع وإنما كالتوضيح ، وقد رجعت أن هذا البحث مأخوذ من المثل السائر لأن الزمخشري لم يذكر له هذه الترجمة ، وإنما ذكرها ابن الأثير ، ولأن ما في الطراز أقرب إلى ما في المثل السائر .

ومن هذه المباحث بحث الالتفات ، وقد أشرت إلى أخذه من كتاب المثل السائر ، وأشرت إلى أن العلوي لم تكن له وقفات يستوضح فيها أسرارها ، وإنما كان يشير إلى موقعه لحسب ، وكانت له مناقشات لابن الأثير في اعتراضه على الزمخشري عرضتها وحللناها . وقد كان يهتم ابن الأثير بالمعجز عن فهم بلاغة الكشاف . وفي بحث التكرير رأيت يتابع ابن الأثير ، ويجعل من التكرار صوراً لاحظ الزمخشري فيها فروقاً بين المعاني أخرجها من باب التكرار ، وقد دافع عن هذا الأسلوب في البلاغة القرآنية .

وفي الفصل والوصل يعرض لمطف المفردات ، ويشير إلى أن مطف بعض الصفات على بعض كأنه مطف الشيء على نفسه ، ويشير إلى ما بين الصفات من الاتفاق والاختلاف من حيث الدلالة على الحدث والذات ، ويقر أنه إذا روي هذا

الاختلاف صح العطف ، وإذا روعي هذا الاتفاق لم يصح العطف ، ثم يذكر أن صفات المولى عز وجل منزلة منزلة الأسماء المترادفة ، لذلك كان العطف فيها مخالفة لهذه القاعدة ، ثم ينظر في آيات من الكتاب ورد فيها عطف بعض صفات الخلق والمخالف على بعض ، فذكر وجه العطف وسره ، وقد أفاد في هذا كثيراً بما ذكره الزمخشري وما ذكره الشيخ عبد الكريم الزمطكاني .

وقد ذكر إشارة عرض فيها إلى توهم خفاء الملاءمة في قوله تعالى ويسألونك عن الأهلة قل هي موافقت للناس والحج وليس البر بان تأنوا البيوت من ظهورها ، ويذكر ما ذكره الزمخشري فيها ، ويفيد من الزمخشري في بيان المناسبة بين المعطوفات كما ذكر في قوله تعالى ، أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . .

وفي التقديم والتأخير أشرت إلى أن العلوي تابع ابن الأثير في القول بأن الاختصاص لازم للتقديم عند الزمخشري ، وبينت أن العلوي لم يكن متنعناً في كتاب الكشاف وإنما كان يفهم آراء الزمخشري من الكتب التي أشادت إليها ، وذكرت في بحث التقديم ما أخذه من المثل السائر ، وأشرت إلى أصله في كتاب الكشاف ، وناقشت العلوي فيما ذهب إليه متأثراً بكتاب المثل السائر ، من أن الشيتين إذا كان كل واحد منهما مختصاً بصفة تقتضى تقديمه على الآخر قامت بالخيار في تقديم أيهما شئت ، وذكر لهذا الأصل أمثلة من القرآن يرى أن التقديم والتأخير فيها سواء ورفضت هذا وبينت أنه تجاهل لمقتضيات الأحوال ومتطلبات المقامات ، ثم حاولت أن أبين السر في تقديم ما قدم من هذا النوع .

وفي معاني الحروف يأخذ من المثل السائر ما أخذه من الكشاف في هذا الباب وفي الأبهام والتفسير بينت أنه ذكر الأمثلة والتحليل من كتاب الكشاف وفي توكيد الضمائر لاحظت أنه يتابع ابن الأثير ويفسر بعض تحليلاته تفسيراً قهياً لا يصيب فيه أحياناً .

وفي الإيجاز والأطناب وأيته لم يذكرهما في موضع واحد وإنما ذكر الإيجاز في الدلائل الافرادية وذكر الأطناب في مراعاة أحوال التأليف وبيان ظهور المعاني المركبة وقد أفاد في كل فن من هذين الفنين كثيراً بما ذكره ابن الأثير ما أخذ من الكشاف ، ويتابع ابن الأثير في الإيجاز بالتقدير الذي أشرت إلى

أنه يسمى عند البلاغيين بالمساواة ، ويذكر الأمثلة التي ذكرها ابن الأثير ، ويذكر الاطناب الذي يقع في الجملة الواحدة ، ويذكر أمثاله من المثل السائر ، وهي مأخوذة من الكشف وله في هذا النوع من الاطناب إشارات قيمة ، أشرفنا إليها . وفي الكناية والتعريض أبرزت مظهر عناية العلوي بتحرير الحدود في دراسة هذين الفنيين ، فقد ناقش ابن الأثير في تعريفه لهما ثم لم يبعد كثيراً عما ذكره ابن الأثير وإن كان قد جعل اللفظ أكثر تحديداً ، أو أكثر دقة ، وقد ناقشته في بعض اعتراضاته ، وبيئت أنها لا ترد على كلام ابن الأثير ، ثم أبرزت ما أفاده من المثل السائر بما هو راجع إلى الكشف في تحليل صور التعريض .

وفي دراسة التخييل لحظت اعتباره هذا الفن نوعاً من البديع ، وقد خالف في هذا أكثر البيانيين . ثم أشار في قيمته وأهميته في فهم نصوص القرآن والحديث إلى كلام الزمخشري ، وقد شمل كلامه في التخييل أمرين الأول بيان معناه ، وقد ناقش في هذا تعريف الزمخشري للتخييل وتعريف المطرزي ثم عرفه . وقد ناقشت فهمه لكلام البيانيين وبيئت أنه لم يصب في هذا وأنه حين أدرك كلام الزمخشري في قيمته هجر عن فهم مراده بالتخييل . وقد رفضت ما ذكره العلوي تفسيراً لمعاد البيانيين ، وبيئت أن هذا الفهم لا ينطبق على ما ذكره هو في تعريف التخييل ، وفسرت مراد الزمخشري كما أراه ، ثم قارنت فهم العلوي للتخييل عند البيانيين بخلاصة ذكرها الشهاب الخفاجي وحدد فيها مدلول التخييل عند البلاغيين .

وفي دراسة الإلهاب والتهبيج الذين ذكرهما في أصناف البديع بينت أنه لم يرد فيما عن جمع المثل والشواهد من كتاب الكشف وجعله صنفاً مستقلاً . في نهاية هذا الفصل أشرت إلى أن تأثر العلوي بالزمخشري قد خفي على بعض الباحثين فذكر نصوصاً من كتاب الطراز واستشهد بها على أن العلوي أديب متذوق قادر على أن يضع يدك على مواضع الحسن وينبئك إلى جهات الجمال في التعبير ، وهذه النصوص مأخوذة من كتاب الكشف وليست من اجتهادات العلوي ، فلا يصح أن تكون دليلاً على مقدرته في النقد والتحليل .

أهم مصادر البحث

- ١ - أساس البلاغة - للزمخشري ، ط دار الكتب .
- ٢ - اسرار البلاغة - لعبد القاهر الجرجاني ، طبعة صبيح .
- ٣ - اطواق الذهب - للزمخشري ، ط بيروت .
- ٤ - اعجب العجب في شرح آية العرب - للزمخشري ، مطبعة محمد مطر .
- ٥ - إعجاز القرآن - للباقلاني ، دار المعارف .
- ٦ - إعجاز القرآن - للقاضي عبد الجبار ، ط دار الكتب .
- ٧ - الانموذج - للزمخشري ، مطبعة الجوانب بالقسمانطينة .
- ٨ - الامال الشجرية - لابن الشجري ، مطبعة مجلس دائرة المعارف .
- ٩ - الايضاح - للخطيب القزويني ، مكتبة الآداب .
- ١٠ - البيان في إعجاز القرآن - للخطابي ، دار المعارف .
- ١١ - التقريب في التفسير وهو مختصر من الكشاف - تأليف الشيخ قطب الدين بن محمد ، مخطوط رقم ٦٧ تفسير دار الكتب .
- ١٢ - التمييز لما رده الزمخشري من الاعتزال في الكتاب العزيز - تأليف عمر بن محمد بن خليل السكوني ، مخطوط رقم ٤٠ ، جامع دار الكتب .
- ١٣ - الجبال والامكنة - للزمخشري ، مطبعة لندن .
- ١٤ - الخصائص - لابن جنى ، ط دار الكتب .
- ١٥ - الصناعتين - لابن هلال العسكري ، ط الاستاذة .
- ١٦ - الطراز - للعلوي ، مطبعة المقتضب .
- ١٧ - العمدة - لابن رشيق ، مطبعة السعادة .
- ١٨ - الفائق في غريب الحديث - للزمخشري ، دار احياء الكتب العربية .
- ١٩ - الكامل - للمبرد ، مطبعة الاستقامة .
- ٢٠ - الكتاب - لسيبويه ، ط بولاق .
- ٢١ - الكشاف للزمخشري ، مطبعة الاستقامة .

- ٢٢ - المثل السائر - لابن الأثير ، نهضة مصر .
٢٣ - الفصل - للزمخشري ، مطبعة الكوكب الشرقى ، الاسكندرية .
٢٤ - المرازبة - للأمدى ، مطبعة السعادة .
٢٥ - المفرد والمؤلف - للزمخشري ، مخطوط رقم ١٩٥٢ لغة دار الكتب .
٢٦ - المستغنى فى الأمثال - للزمخشري ، ط حيدر آباد الدكن .
٢٧ - النكت فى إيجاز القرآن - للرماني ، دار المعارف .
٢٨ - الوساطة بين المتنبى وخصومته لعل بن عبد العزيز ، ط دار أحياء الكتب العربية .
٢٩ - أمالى المرتضى - للشريف المرتضى ، طبعة دار أحياء الكتب العربية .
٣٠ - تأويل مشكل القرآن - لابن قتيبة ، طبعة دار أحياء الكتب العربية .
٣١ - تفسير الطبرى - لابن جرير الطبرى ، المطبعة الأميرية .
٣٢ - تفسير جزء هم - منسوب للرماني ، مخطوط رقم ٢٠١ تفسير دار الكتب .
٣٣ - تزيه القرآن عن المطامن - للقاضى عبد الجبار ، المطبعة الجمالية .
٣٤ - حاشية السيد الشريف على الكشاف - للسيد الشريف الجرجاني ، مطبوع على هامش الكشاف .
٣٥ - حاشية سعد الدين على الكشاف - للعلامة سعد الدين التفتازاني ، مخطوط رقم ١٨٠٤ الأزهر .
٣٦ - حاشية ابن المنير على الكشاف - لاحد بن المنير ، مطبوع على هامش الكشاف .
٣٧ - حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوى - ط بولاق .
٣٨ - حاشية السيد على المطول - للسيد الشريف ، مطبعة أحمد كامل .
٣٩ - حقائق التأويل فى مقشابه التنزيل - للشريف الرضى ، طبعة النجف بكر بلا .
٤٠ - دراسات تفصيلية شاملة للشيخ عبد الهادى المدلل - المطبعة المنيرية .
٤١ - ديوان للزمخشري - مخطوط رقم ٤٥٢٩ أدب ، دار الكتب .
٤٢ - دلائل الإعجاز - لعبد القاهر الجرجاني ، المكتبة العربية .
٤٣ - ربيع الأبرار - للزمخشري ، مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٥ أدب .
٤٤ - سر الفصاحة - لابن ستان الخفاجي ، المطبعة الرحمانية .

- ٤٥ - شرح مقامات الزمخشري - لزمخشري الثانية بمصر سنة ١٣٢٥ .
- ٤٦ - شرح المفصل لابن يعيش - إدارة الطباعة المنيرية .
- ٤٧ - مجاز القرآن لابن عبيده - أبو عبيدة معمر بن المثنى ، نشره السيد سامي الخانجي بتحقيق الأستاذ فؤاد سزجين .
- ٤٨ - معجم الأدباء لياقوت - مطبعة دار المأمون .
- ٤٩ - معاني القرآن - للفراء ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .
- ٥٠ - معاني القرآن المنسوب لرجاج - مصور بالجامعة العربية .
- ٥١ - مفتاح العلوم - للسكاكي ، المطبعة الادبية .
- ٥٢ - مقدمة الأدب لزمخشري ، مخطوط رقم ٢٧٢ لغة دار الكتب .
- ٥٣ - نزعة الألباء - لابن الأبارى القاهرة .
- ٥٤ - نقد الشعر - لقدامة بن جعفر ، مطبعة السعادة .
- ٥٥ - نوابغ الكلم - لزمخشري ، المطبعة الكلية .
- ٥٦ - نهاية الإيجاز لابن الخطيب الرازي - ط الآداب .
- ٥٧ - وفيات الأعيان - لابن خلكان ، مكتبة النهضة المصرية .

أهم مراجع البحث

- ١ - أثر القرآن في تطور البلاغة العربية - للأستاذ كامل الخولي ، دار الأنوار .
- ٢ - أثر القرآن في النقد الأدبي - للدكتور محمد زغلول سلام ، ط دار المعارف .
- ٣ - أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم - للمقدمي ، ط ليون .
- ٤ - أسس النقد الأدبي عند العرب - للدكتور أحمد بدوي ، نهضة مصر .
- ٥ - أصول النقد الأدبي - للأستاذ أحمد الشايب ، النهضة المصرية .
- ٦ - إيجاز القرآن - لرافعي ، مطبعة الأخبار بمصر .
- ٧ - الأسلوب - للأستاذ الشايب ، مكتبة النهضة المصرية .
- ٨ - الأسلوب - للأستاذ كامل جمعة ، مكتبة القاهرة الحديثة .
- ٩ - الإشارة إلى الإيجاز في بعض أنواع المجاز - للعلامة عز الدين بن عبد السلام ، مخطوط ط الأستانة .
- ١٠ - الأطول - للعلامة عصام الدين ، ط الأستانة .
- ١١ - الإعلام - للأستاذ خير الدين الزركلي ، المطبعة العربية المصرية .
- ١٢ - البحر المحيط لأبي حيان .
- ١٣ - البديع لأبن المعتز - مصطفى الحلبي .
- ١٤ - البلاغة تطور وتاريخ - للدكتور شوقي حنيف ، دار المعارف .
- ١٥ - البلاغة في طور نشأتها - للدكتور سيد نوفل ، مطبعة السعادة .
- ١٦ - البلاغة بين عهدين - للأستاذ محمد نائل ، مخطوط بمكتبة كلية اللغة العربية .
- ١٧ - البلاغة التطبيقية - الأستاذ أحمد موسى ، ط المعرفة .
- ١٨ - البلاغة عند السكاكي - للدكتور أحمد مطلوب ، ط بغداد .
- ١٩ - البيان والنبين - للجاحظ ، طبعة لجنة التأليف .
- ٢٠ - البيان العربي - للدكتور بدوي طبائه .
- ٢١ - التفسير البياني للقرآن الكريم - الدكتورة عائشة عبدالرحمن ، دار المعارف .
- ٢٢ - الرموز - للأستاذ الحوفي ، دار الفكر العربي .
- ٢٣ - الصافية - لعبد القاهر الجرجاني ، دار المعارف .

- ٢٤ - الشعر لارسطو - تقديم ودراسة الدكتور شكرى هياذ، دار الكتاب العربى .
- ٢٥ - العبر فى أخبار من غير - لمؤرخ الإسلام الحافظ الذهبى ، الكويت .
- ٢٦ - الفلسفة القرآنية - الأستاذ عباس العقاد ، كتاب الهلال .
- ٢٧ - المحاسب فى الكشف عن وجوه القراءات - لابن جنى ، دار الكتب .
- ٢٨ - الموازنة بين الشعراء - للدكتور زكى مبارك ، دار الكتاب العربى .
- ٢٩ - المطول - لسعد الدين التفتازانى ، مطبعة أحمد كمال .
- ٣٠ - المختصر فى أخبار من غير - لآبى الفدا ، ط القسطنطينية .
- ٣١ - المجازات النبوية - للشريف الرضى ، مصطفى الحلبي .
- ٣٢ - الصبغ البديعى فى اللغة العربية ، للدكتور أحمد موسى ، ط الكتاب العربى .
- ٣٣ - المقاييس الجمالية عند عبد القاهر الجرجانى - بحث مخطوط فى مكتبة كلية اللغة العربية للأستاذ سيد عبد الفتاح حجاب .
- ٣٤ - النثر الفنى - لزكى مبارك ، دار الكتاب العربى .
- ٣٥ - النحو والنحو - للشيخ محمد عرفة ، مطبعة السعادة .
- ٣٦ - الانساب - للسمعانى ، ط ليدن .
- ٣٧ - النقد الادبى - لاحد أمين ، لجنة التأليف والترجمة .
- ٣٨ - النقد المنهجى عند العرب - للدكتور محمد مندور ، دار نهضة مصر .
- ٣٩ - النقد الادبى الحديث - للدكتور محمد غنيمى هلال ، النهضة العربية .
- ٤٠ - ابن المعتز و تراثه فى الأدب والبلاغة - للدكتور عبد المنعم خفاجى ، التجارزة .
- ٤١ - أمالى هل عبد الرازق - مطبعة مقداد ، بالقاهرة .
- ٤٢ - انباه الرواة - لأقفلى ، ط دار الكتب .
- ٤٣ - بحوث وآراء فى البلاغة - للشيخ أحمد المراعى ، مطبعة العلوم بمصر .
- ٤٤ - بغية الوعاة - للسيوطى ، مطبعة السعادة .
- ٤٥ - بلاغة المفتاح دراسة وتقويم - محمد أبو موسى مخطوط مكتبة كلية اللغة .
- ٤٦ - تأويل مختلف الحديث - لابن قتيبة ، طبعة كردستان .
- ٤٧ - تاج العروس - للزبيدى تحقيق الدكتور صلاح المنجد - الكويت .
- ٤٨ - تاريخ البلاغة العربية والتعريف برجالها - للشيخ أحمد المراعى ، مطبعة الحلبي .
- ٤٩ - تاريخ الأدب العربى - لرافعى ، مطبعة الأخبار .

- ٥٠ - تاريخ آل سلجوق - للمعاد الاصفهاني ، مطبعة الموسوعات .
- ٥١ - تاريخ بغداد - للخطيب البغدادي ، مطبعة السعادة .
- ٥٢ - تاريخ الكامل - لابن الاثير ، إدارة الطباعة المنيرية .
- ٥٣ - تاريخ البلاطة حتى نهاية القرن الرابع - للأستاذ أحمد شعراوي ، منخطوط كلية اللغة .
- ٥٤ - تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، للمرحوم طه إبراهيم ، لجنة التأليف والترجمة
- ٥٥ - دراسات في نقد الأدب العربي - للدكتور بدوي طبانه ، طبعة القاهرة .
- ٥٦ - تاريخ النقد الأدبي - للدكتور محمد زهلول سلام ، دار المعارف .
- ٥٧ - تحت راية القرآن - للرافعي ، مطبعة الاستقامة .
- ٥٨ - تحرير البثاني
- ٥٩ - تفسير الفيضاني - طبعة بولاق
- ٦٠ - تلخيص البيان في مجازات القرآن - للشريف الرضي ، دار أحياء الكتب العربية .
- ٦١ - حاشية الشيخ طيان على الكشاف - مطبعة الاستقامة على هامش الكشاف
- ٦٢ - حاشية منخطوط على الكشاف بمكتبة الأزهر لم يعرف مؤلفها ، رقم ٣٧١ أباطه الأزهر .
- ٦٣ - حاشية الطيبي على الكشاف ، منخطوط دار الكتب والأزهر .
- ٦٤ - حاشية الدسوقي على مختصر السعد على هامش شروح التلخيص .
- ٦٥ - حاشية عبد الحكيم السيالكوتي على المطول ، ط الاستقامة .
- ٦٦ - حاشية الأنباني على الرسالة البيانية للصبان ، طبعة الجهولان .
- ٦٧ - حدائق السمر ودقائق الشعر - لرشيد الدين الوطواط ، ترجمة الدكتور إبراهيم الشواربي .
- ٦٨ - دراسات في علم النفس الأدبي - للدكتور حامد عبد القادر ، المطبعة الفوقجية .
- ٦٩ - دائرة المعارف الإسلامية .
- ٧٠ - رسائل الجاسط - على هامش الكامل ، مطبعة التقدم العلمية .
- ٧١ - رسائل البلاء - لغيرها كردد على ، لجنة التأليف والترجمة .

- ٧٢ - رسائل رشيد الدين الوطواط - مطبعة المعارف .
٧٣ - زهر الآداب للحصرى - المطبعة الرحمانية .
٧٤ - ضياء الدين ابن الاثير وجهوده في البلاغة والنقد - للدكتور محمد زطول
سلام ، دار المعارف .
٧٥ - طبقات المفسرين - للسيوطى ، طبعة أوروبا .
٧٦ - طبقات الشافعية - للسبكي ، المطبعة الحسينية .
٧٧ - حيار الشعر لابن طباطبا - المكتبة التجارية .
٧٨ - غريب القرآن - لابن قتيبة ، دار أحياء الكتب العربية .
٧٩ - فلسفة البلاغة - لجبر ضومط ، المطبعة العثمانية .
٨٠ - فن القول - للأستاذ أمين الخولى ، دار الفكر العربى .
٨١ - فن التشبيه - للأستاذ على الجندى ، نهضة مصر .
٨٢ - فن الجناس - للأستاذ على الجندى ، دار الفكر العربى .
٨٣ - فى النقد الادبى - للدكتور شوقى ضيف ، دار المعارف .
٨٤ - فى الميزان الجديد - للدكتور محمد مندور ، نهضة مصر .
٨٥ - فيض الفتاح - للشيخ الشربيني ، مطبعة مدرسة والده عباس الاول .
٨٦ - كشف الظنون - لحاجى خليفة ، ط أوروبا .
٨٧ - كشاف الزمخشري (مقال الأستاذ أمين الخولى) مجلة تراث الإنسانية .
٨٨ - اللغة الشاهرة - للأستاذ عباس العقاد ، مطبعة الاستقلال .
٨٩ - مختصر المعاني - للعلامة سعد الدين التفتازانى ، طبعة صبيح .
٩٠ - مذاهب التفسير الإسلامى - لجولده تسهير ترجمة الدكتور على حسن
عبد القادر - مطبعة العلوم .
٩١ - مذكرات فى البلاغة - للشيخ سليمان نوار .
٩٢ - مذكرة فى علم البيان - للشيخ سليمان نوار .
٩٣ - مسائل فى النقد - للأستاذ عز الدين الأمين ، مطبعة الاستقلال .
٩٤ - مذكراتنا الغوية - للأستاذ أمين الخولى ، مطبوعات المعهد العالم للدراسات
العربية .
٩٥ - مقالات الإسلاميين لابى الحسن الأشعري ، ط الاستاذ بول .

- ٩٦ - مقدمة نقد النثر - للدكتور طه حسين ، وزارة المعارف .
- ٩٧ - مقدمة ابن خلدون - المطبعة البهية .
- ٩٨ - مناهج تجديد - الأستاذ أمين الخولي ، دار المعرفة .
- ٩٩ - منهج الزمخشري في تفسير القرآن - للأستاذ الصاوي الجويني ، دار المعارف .
- ١٠٠ - من بلاغة القرآن - للدكتور أحمد بدوي مكتبة نهضة مصر .
- ١٠١ - من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده - دكتور محمد خلف الله ، لجنة التأليف والترجمة .
- ١٠٢ - من حديث الشعر والنثر - للدكتور طه حسين ، دار المعارف .
- ١٠٣ - مواهب الفتحاح - لابن يعقوب المغربي ، شروح التلخيص عيسى الحلبي .
- ١٠٤ - ميزان الاعتدال - لشمس الدين الذهبي - السعادة .
- ١٠٥ - نظرية العلاقات - للأستاذ محمد ناييل ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر .
- ١٠٦ - نظرية المعنى في النقد العربي - للدكتور مصطفى ناصف ، دار القلم .
- ١٠٧ - نقد النثر - المنسوب لقدامه ، طبعة وزارة المعارف .
- ١٠٨ - بقيمة الدهر - لثعالي ، مطبعة حجازي بالقاهرة .

فهرست

مقدمة

٥

٢١

مقدمة

تمهيد

الباب الاول : البحث البلاغى في الكشف

الفصل الاول : البحث البلاغى قبل الكشف ٨٧

مفهوم النظم ٨٧

النظر في المفردات ٩٣

البحث في مسائل النظم ٩٥

التقديم ٩٦ ، الاستفهام ١٠٥ ، الامر ١١١ ، الحذف ١١٣ ، التكرار ١١٥

١٢٣ ، الاعتراض ١٢٧ ، الالتفات ١٢٩ ، الفصل الواصل ١٢٢

البحث في التمهيد ١٤٠

البحث في المجاز ١٥٢

المجاز المرسل ١٥٤ ، الاستعارة ١٥٧ ، المجاز العقلي ١٦٧

الكتابة ١٧٢

التعريض ١٧٤

البحث في ألوان البديع ١٧٩

الفصل الثاني : النظم في الكشف ١٨٧

تحديد المراد بالنظم وبيان موضوعه ١٨٧

تحديد المراد بعلم المعانى وبيان موضوعه ١٩٢

تحديد المراد بعلم البيان وبيان موضوعه ١٩٥

علاقة علم النظم بعلم الإعراب ٢٠٥

الفصل الثالث : النظر في المفردات ٢١٣

ملاءمة الكتابة لسياقها من حيث مادتها ٢١٢

صفحة

٢٢٤	ملازمة الكلمة لسياقها من حيث هيتها
		الجمع والإفراد ٢٢٤ ، المعاني البلاغية لصيغ الأفعال ٢٢٩ ، المعاني
		البلاغية في أبنية المشتقات ٢٣٥
٢٢٨	أدوات الربط
		ثم والوفاة ٢٢٨ ، قد ورب ٢٤٢ ، حروف الجر ٢٤٣ ، إن
		وإذا ٢٤٥
٢٤٨	التعريف
		التعريف باللام ٢٤٩ ، التعريف باسم الوصول ٢٥٤ ، التعريف
		باسم الإشارة ٢٥٧ ، التعريف بالإضافة ٢٥٨
٢٥٩	التنكير
٢٦٩	الفصل الرابع : البحث في نظم الجملة
		التقديم ٢٦٩ ، الاستفهام ٢٨٩ ، الأمر ٣٠٤ ، النهي ٣١١ ،
		النداء ٣١٣ ، القسم ٣١٥ ، التمجيد ٣١٥ ، الكلام المنصف ٣١٦ ،
		النفي ٣١٧ ، النصر ٣٢٢ ، العطف ٣٢٦ ، البديل ٣٣٠ ، الوصف
		٣٣١ ، الجلف ٣٣٤ ، الذكر ٣٣٩ ، التوكيد ٣٤٢ ، عناصر
		التوكيد ٣٤٥ ، النظر في المعنى ٣٤٩
٢٥٩	الفصل الخامس : البحث في الجمل
		الفصل والوصل ٣٥٩ ، الجامع ٣٦٥ ، الفواصل القرآنية ٣٦٧ ،
		الإنشاقات ٣٧٠ ، التكرار ٣٧٣ ، الاعتراض ٣٧٧ ، الاختصار
		٣٨٠ ، ترتيب الجمل والآيات ٣٨٢ ، تفسير النص ٣٨٨
٢٩٧	الفصل السادس : البحث في صور البيان
٢٩٧	التشبيه
		التشبيه التخيلي ٣٩٨ ، المفرد والمركب والمنفرد ٣٩٨ ، التشبيه
		والتشكيل ٤٠٢ ، التصوير والتشكيل ٤٠٣ ، العلاقة بين التشبيه
		والتشبيه ٤٠٤ ، التشبيه المطلوب ٤٠٦ ، أداة التشبيه ٤٠٦ ،

طما

القيمة البلاغية للقيود في المشبه به ٤٠٧ ، الفرق بين التصيب
والاستعارة ٤٠٨

٤١٧ الجاز

الاستعارة ٤١٥ ، الترشيح والتجريد ٤٢١ ، الاستعارة الظنية

٤٢٤ ، العكس في الكلام ٤٢٦ ، التمثيل والتنخيل ٤٣٥ ، المجاز

المرسل ٤٤١ ، اعجاز الحكمى ٤٤٦

٤٥٦ الكتابة

٤٧٠ التعريض

٤٧٩ الفصل السابع : ألوان البديع

٤٧٩ البحث في ألوان البديع

المشاكلة ٤٨٥ ، اللفظ ٤٨٧ ، الاستطراد ٤٨٩ ، التفصيل ٤٩١ ،

الكلام الموجه ٤٩٢ ، التورية ٤٩٣ ، المقابلة ٤٩٤ ، الطباق ٤٩٥ ،

الازدواج ٤٩٧ ، التجانس ٤٩٨ ، تأكيد المدح ٤٩٩ ، الاضمار ٥٠٠

الباب الثاني - أثر الكشاف في الدراسات البلاغية

٥٠٢ الفصل الأول : أثره في مدرسة المفتاح

في تقسيم البلاغة ٥٠٥ ، الالتفات ٥٠٧ ، أصول المستند والمستند

إليه ٥١٠ ، إن وإذا ٥١٢ ، التظليل ٥١٣ ، الكلام المنصف ٥١٣ ،

التعبير بالمضارع من الماضى ٥١٤ ، الفصل والوصل ٥١٥ ، الأيجاز

والاطناب ٥١٥ ، والاستعارة في الحرف ٥١٦ ، الإيتماع ٥١٩ ،

المطول ٥٢٩

٥٢٩ الفصل الثاني : أثر الكشاف في المثل السائر

الالتفات ٥٤١ ، تأكيد الضميرين ٥٤٨ ، صف الظاهر على خوره

٥٥٠ ، التفسير بعد الإجماع ٥٥٢ ، استعمال العام في النقي والخاص

في الالابات ٥٥٣ ، التقديم والتأخير ٥٥٥ ، الحروف الجارة ٥٦٠ ،

الجملة الفعلية والجملة الاسمية ٥٦١ ، عكس الظاهر ٥٦٢ ، الاستدراج

٥٦٤ ، الأيجاز ٥٦٦ ، الاطناب ٥٧٠ ، التكرار ٥٧٢ ، الكتابة

صفحة	الموضوع
	والتعريض ٥٧٥ ، تقابل المعاني ٥٧٨ ، كتاب الجامع الكبير
	٥٧٩ ، مناقشات ٥٨٢
٥٩١	الفصل الثالث : أثر الكشاف في كتاب الطراز
٥٩١	العلوي ويدرس مسائل البلاغة مرتين
٥٩٥	وفاء الكتاب بالفرض من تأليفه
	المباحث التي أفادها من الكشاف ...
	الاستدراج ٥٩٦ ، الإلتفات ٥٩٩ ، التكرير ٦٠٢ ، الفصل
	والوصل ٦٠٤ ، التقويم والتأخير ٦٠٨ ، معاني الحروف ٦١٢ ، الإيجام
	والتفسير ٦١٣ ، توكيد الضمائر ٦١٥ ، الإيجاز والأطناب ٦١٦ ،
	الكناية والتعريف ٦١٩ ، التخييل ٦٢٢ ، الإلهاب والتفويض ٦٢٥
٦٢٩	خلاصة البحث
٦٣١	في التوبيخ
٦٣١	في الدراسة البلاغية قبل الكشاف
٦٣٣	في بحث النظم في كتاب الكشاف
٦٣٥	في دراسة المفردات
٦٣٦	في البحث في نظم الجملة
٦٤٤	في دراسة ألوان البيان
٦٤٧	في دراسة البديع
٦٤٩	في بيان أثره في الدراسات البلاغية
٦٥٢	في بيان أثر الكشاف في المثل السائر